الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة قاصدي مرباح ـ ورقلة ـ
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

رسالـــة دكتـــوراه بعنـــوان

الاتجاه الأخلاقي في النقد المغربي القديم

أطروحة مُقدَّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي

تخصص: نقد مغربي قديم

إعداد الطالب
إدريس ساعي

إشراف الأستاذ الدكتور
أحمد حاجي

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	مؤسسة الانتماء	الصفة
أ. عمر بن طرية	أستاذ التعليم العالي	جامعة ورقلة	رئيسا
أ. أحمد حاجي	أستاذ التعليم العالي	جامعة ورقلة	مشرفا ومقررا
أ. بلقاسم مالكية	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا- ورقلة -	مناقشا
أ. حواس بري	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر(2)	مناقشا
أ. بشير مناعي	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	مناقشا
د. أحمد التجاني سي كبير	أستاذ محاضر (أ)	جامعة ورقلة	مناقشا

تاريخ المناقشة: 2021/06/27م

السنة الجامعية: 1441-1442هـ/2020-2021م

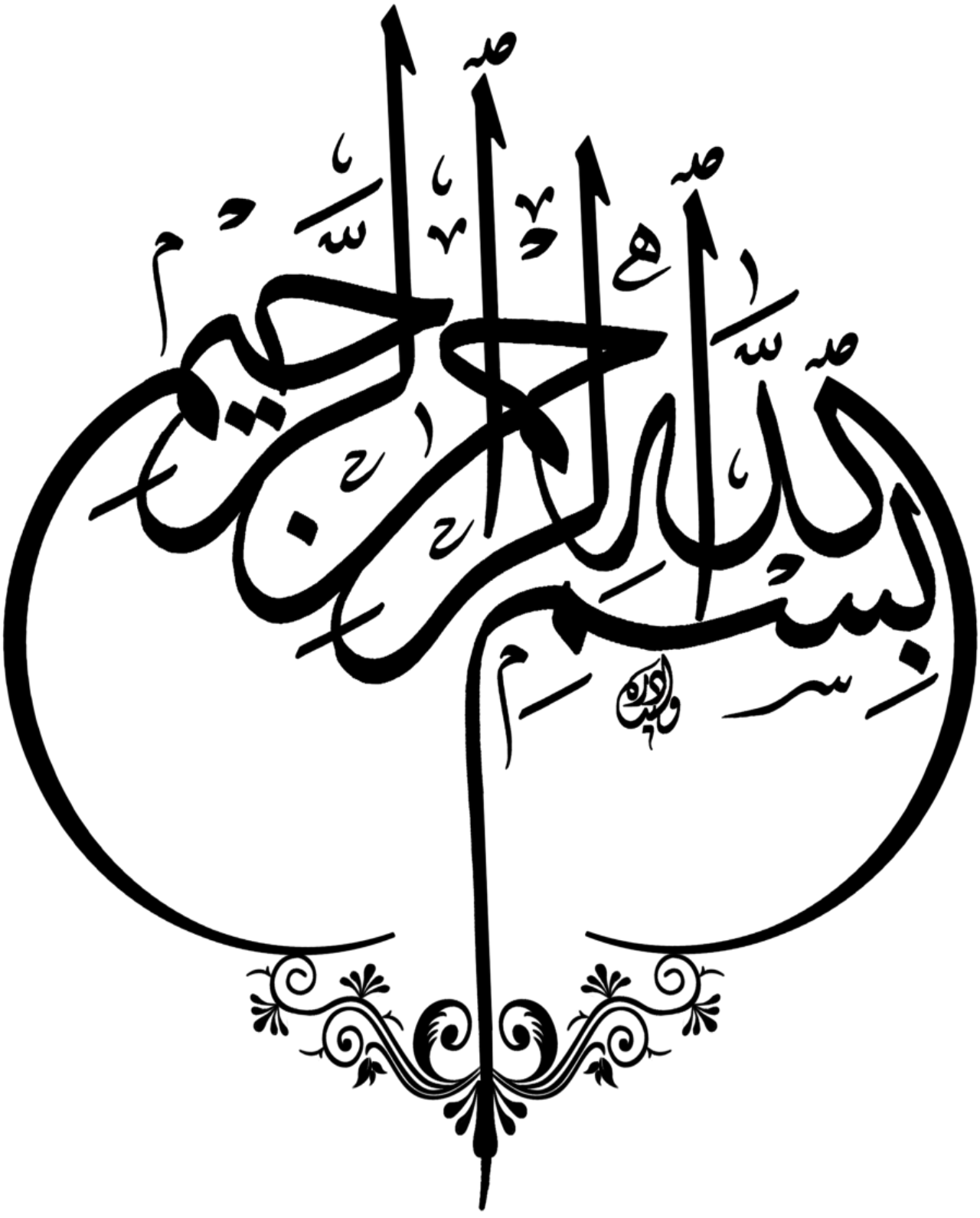
بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة قاصدي مرباح ـ ورقلة ـ
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

رسالـــة دكتـــوراه بعنـــوان

الاتجاه الأخلاقي في النقد المغربي القديم

أطروحة مُقدَّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي
تخصص: نقد مغربي قديم

إعداد الطالب:
إدريس ساعي

إشراف الأستاذ الدكتور:
أحمد حاجي

تاريخ المناقشة: 2021/06/27م

السنة الجامعية: 1441-1442هـ/2020-2021م

إهداء

إلى والديَّ العزيزين وزوجتي الكريمة ...

إلى بُنيَّاتي : بلقيس وإخلاص وشيماء وريحانة.

إلى إخوتي وأخواتي وأصدقائي وزملائي في العمل ...

إلى كلِّ مَن علَّمني حرفا ، وكان له فضل عليَّ.

إلى كلِّ مسلم يسعى لنُصرة دينه ، ورقيِّ وطنه وأمَّته ، وخدمة لغته وتراثه.

إلى هؤلاء جميعا أُهدي ثمرة جُهدي وعملي المتواضع

إدريس

وجب الشكر علينا

قال الله تعالى :﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ»، وبعد:

اللَّهم لك الحمد ولك الشكر، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فلك الحمد أوَّلا وآخرا. ثم الشكر لأهل بيتي وقرابتي، وأخصُّ الوالدين الكريمين، أطال الله بقاءهما، وأنعم عليهما موفور الصِّحة والعافية. ثمَّ زوجتي المحترمة وبُنيَّاتي العزيزات، فقد انشغلت عنهنَّ كثيرًا وحرمتهنَّ الكثير من حقِّهنَّ، فأشكرهنَّ وأعتذر إليهنَّ. ثمَّ الشكر والثناء لأهل الفضل والجميل، ابتداءً بحضرة المشرف الأستاذ الدكتور "أحمد حاجي" الذي حباني برعايته، وشرَّفني بقبوله الإشراف على رسالتي ومن قبل رسالة الماجستير، وعلى ما أسداه إليَّ من جميل الاهتمام وحسن التَّوجيه والنصح، بسعة صدر ولين جانب، فلكم منِّي سيدي أسمى عبارات الشكر والتقدير والاحترام.

كما أتوجَّه بجزيل الشكر وعظيم الامتنان لجميع أساتذة جامعة قاصدي مرباح، وخاصة الذين حظيت بتدريسهم لي في تخصص النقد المغربي القديم، وفي مقدِّمتهم رئيس المشروع، الأستاذ الدكتور مالكية بلقاسم. ولا أنسى كذلك جميع الطاقم الإداري للجامعة، وعلى رأسهم عميد كلية الآداب واللغات، الأستاذ الدكتور العيد جلولي.

وأتقدَّم كذلك بخالص الشكر وجميل العرفان إلى أعضاء لجنة المناقشة الموقَّرة، التي سأتشرَّف بمناقشتها لرسالتي، وما ستُبديه من الملاحظات القيِّمة والآراء المفيدة والسَّديدة ما يكون لها طيِّبُ الأثر على هذا العمل.

وأخيرا أتوجَّه بالشكر والثناء لكلِّ من قدَّم لي خدمة، أو وجَّه لي نصيحة، أو دعا لي في ظهر الغيب دعوة صالحة. وإلى كلِّ هؤلاء أقول معتذرا:

ولـو أنَّـني أوتيـتُ كـلَّ بـلاغـةٍ وأفنيتُ بحر النُّطق في النظم والنثر

لَـمَا كنـتُ بعـد القـول إلاَّ مُقصِّـرًا ومُعترفًا بالعجز عـن واجب الشكـر

فجزى الله الجميع عنِّي خير الجزاء

إدريس ساعي

مقدِّمة

مقدِّمة:

على مرِّ العصور والأزمان الأدبية ظهرت اتجاهات متعدِّدة في النقد الأدبي، منها: الفنِّي، والتَّاريخي، والاجتماعي، والنَّفسي، والأسطوري، والأخلاقي... ويُعدُّ الاتجاه الأخلاقي من أقدم هذه الاتجاهات وأطولها تاريخا، وأكثرها أهميَّة في تقويم النصِّ الأدبي، خاصَّة إذا كان هذا النصُّ يمسُّ جانبًا من جوانب الدِّين أو الأخلاق. فعلاقة الأخلاق بالأدب عموما والشعر خصوصا كانت من أهمِّ القضايا التي أثارها الحقل النقدي والفلسفي عند العرب والغرب في وقت مبكّر على حدٍّ سواء. وإذا أردنا تأصيلا لهذا الاتجاه في النقد فإننا سنجد بعض فلاسفة اليونان كأفلاطون وأستاذه سقراط وتلميذه أرسطو كانوا مهتمين بالتأثير الخلقي الذي يمكن أن يُحدثه الشاعر في المستمعين أو المتلقِّين،كما أولى الشاعر الرُّوماني هوراس نفعية الشعر وجماله شأنا كبيرا. ويرتبط النقد بالمقياس الأخلاقي والدِّيني في صدر الإسلام وما بعده؛ وذاك ما نتلمَّسه في أقوال وآراء الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم. وظلَّ الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي عبر العصور المتوالية يبرز تارة ويخبو تارة أخرى لاعتبارات عدَّة: دينية واجتماعية وسياسية وثقافية...

إنَّ علاقة الأخلاق بالأدب قديمة قِدم الأدب نفسه؛ فمنذ أن عُرف الأدب طُرح السؤال عن وظيفته والغاية منه، ودوره في المجتمع والحياة، وسيظلُّ هذا السؤال مُثارًا عبر الزَّمان والمكان، لأنَّه يتعلَّق أساسًا بحقيقة وجوده وقيمته، فهل الأدب مجرَّد صناعة فنّية وزخرفة لفظية، غايته نشدان الجمال، وتحقيق الإمتاع والإطراب فحسب، أم أنَّ له وظيفة اجتماعية وتربوية وإصلاحية، بحيث يكون له غاية نفعية يُطلب من الأديب مراعاتها والسعي لتحقيقها.

وهذا ما جعل النُّقَّاد –عربًا وعجمًا– عبر عصورهم المتوالية تختلف نظرتهم إزاء هذه العلاقة، بين الفصل والوصل، الرَّفض والقبول، ويبدو أنَّ هذه المشكلة ستظلُّ قائمة حيال هذه المسألة التي تجاوزت الثقافات والحضارات، ولم تقتصر على ثقافة دون أخرى، ولا على حضارة دون سواها؛ ذلك أنَّ أيَّ حركة نقدية في كلِّ زمان ومكان تستند إلى معايير تحتكم إليها في تقويم الأعمال الفنّية والأدبية، وهذه المعايير ترتبط –عادة– بالتيارات الفكرية والنَّفسية والاجتماعية وغيرها، وتمتُّ كذلك بصلة قوية إلى ذوق الأمَّة وتصوراتها للحياة وإلى مجموع المعتقدات والتَّقاليد والأعراف التي تؤمن وتحفل بها.

وقد عرف النقد العربي منذ مراحله الأولى الاتِّجاه الأخلاقي معيارًا من معايير تقييم الفنِّ الشعري والنثري على حدٍّ سواء، وأثار النقاد قضايا عدَّة لها ارتباط وثيق بالأخلاق والقيم والفضائل، منها القضية الجوهرية الأولى، المتمثِّلة في وظيفة الشعر، حيث ربطها الكثير من النقاد بالغاية والفائدة والمنفعة، وكذلك قضية الصِّدق في العمل الأدبي، وذمِّ الغلوِّ والكذب، وقضية اللفظ والمعنى، حيث تُستحسن الألفاظ والمعاني السَّامية والبعيدة عن التفحُّش والابتذال، وتُستقبح الألفاظ والمعاني الخارجة عن قيم الدِّين والأخلاق.

ومع أنَّ الاتِّجاه الأخلاقي في النقد العربي يُعدُّ من أقدم وأطول الاتِّجاهات النقدية –وقد عرفه ومارسه النُّقاد العرب منذ بدايات النقد الأدبي في العصر الجاهلي– إلَّا أنَّ هذه المنهج النقدي لم يظفر بكثير دراسات في ظلِّ تراكمات المناهج النقدية، وتعدُّد مرجعياتها قديمًا وحديثًا؛ فالكتب الأدبية والنقدية القديمة منها والحديثة لا تُسعفنا إلَّا بشذرات

وإشارات مبثوثة هنا وهناك بين ثناياها. لذا أستطيع القول: أنَّ هذا الاتجاه من النقد لم يلقَ من النقاد والدَّارسين كبير اهتمام أو تركيز، ولم يحظ بما حظي به غيره من الاتجاهات الأخرى في النقد.

وإذا كان الحال هكذا بالنسبة للاتجاه الأخلاقي في النقد العربي عمومًا، فكيف يكون الحال إذا اتَّجهنا إلى النقد المغربي القديم؟! إنَّ الوضعية –حتمًا– هي أسوأ حالا، وأعسر منالا؛ فما كُتب في النقد المغربي القديم بصفة عامة يُعدُّ على الأصابع، فما بالك إذا كان الحديث عن الاتِّجاه الأخلاقي في هذا النقد.

ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على الاتجاه الأخلاقي في النقد المغربي القديم، من خلال بعض أعلامه، الذين مارسوا هذا الاتجاه النقدي تنظيرًا وتطبيقًا. مُكتفيًا في هذه الدراسة بالأعلام البارزين والمؤسِّسين الأوَّلين للنقد المغربي القديم، والذين كان تناولهم للنقد الأخلاقي في كتبهم بارزًا وشاملا لكثير من القضايا، وهؤلاء هم: عبد الكريم النَّهشلي في كتابه الممتع، وابن رشيق القيرواني في كتابيه العمدة والأنموذج، وابن شرف القيرواني في كتابه رسائل الانتقاد.

ورغم اجتهادي في البحث لم أعثر على كتاب أو عمل أكاديمي يُفرد الاتجاه الأخلاقي في النقد المغربي القديم بالدراسة والتَّحليل، وما عثرت عليه في بعض الكتب والمقالات لا يعدو أن يكون إشارات ولمحات موجزة مختصرة. لهذا السبب وبتشجيع من الأستاذ الدكتور المشرف ارتأيت خوض غمار هذا الموضوع بحثًا وتحليلا وتأصيلا، مستعينًا بالله أوَّلا وأخيرًا، ثمَّ بما استطعت الوصول إليه من مراجع وبحوث في هذا الشأن، وبطبيعة الحال كان كلُّ هذا العمل تحت عينَيْ أستاذي المشرف، توجيهًا وتسديدًا ونصحًا، فجزاه الله عنِّي خير الجزاء. واسِمًا هذه الرسالة بـ(الاتِّجاه الأخلاقي في النقد المغربي القديم)، وجاعلا الدراسة تتمحور حول الإجابة عن الأسئلة الجوهرية الآتية، والتي تُعدُّ إشكالية هذا البحث والنقطة المحورية فيه، متمثِّلة في ما يلي: هل كان الاتِّجاه الأخلاقي في النقد المغربي القديم بارز السِّمات، واضح المعالم، حتَّى يظفر بدراسة مستقلّة وبحث منفرد، أم كان فقط لمحات وومضات، لا تعدو أن تكون شتاتًا هنا وهناك؟ ثمَّ ما هي أبرز ملامحه، وأهم قضاياه النقدية التي عالجها النقاد في هذا الاتجاه؟ وإلى أيِّ حدٍّ كانت آراء النقاد المغاربة حول هذه القضايا اتِّفاقًا واختلافًا، ومع الشعراء تشدُّدًا وتساهُلًا؟ وهل كان النقاد المغاربة في الاتجاه الأخلاقي مبدعين ومتميِّزين ببعض الآراء والرؤى، أم كانوا مقلِّدين وناقلين عن غيرهم من المشارقة؟ ولكي تكون الإجابة عن هذه الأسئلة كافية شافية، نرى من الأنسب اقتراح بعض الفرضيات، من شأنها أن تُساعد في تحديد معالم وملامح هذه الرسالة ورسم الخطوط العريضة لها، وتوجيه مسارها نحو الغاية المرجوَّة، ومن بين هذه الفرضيات المقترحة ما يلي:

– اهتمَّ النقاد المغاربة في القديم بالاتِّجاه الأخلاقي، وظهر ذلك جليًّا في مواقفهم وأحكامهم النقدية، الحافلة بها كتبهم التي وصلتنا، ففيها نجد الكثير من القضايا النقدية ذات الملمح الأخلاقي والدِّيني.

– إنَّ اهتمام نقاد العرب بما فيهم نقاد المغرب بالمعيار الأخلاقي في النقد يعود أساسًا إلى المرجعية الدينية التي يستند إليها هؤلاء النقاد، لهذا كان الغرض الأسمى من هذا الاتجاه النقدي هو خدمة الدِّين الإسلامي الحنيف بالدرجة الأولى، ثمَّ الأدب في الدرجة الثانية، فالأدب في نظرهم يجب أن يكون تابعًا وخادمًا للدِّين.

- اختلاف بعض القضايا النقدية المعالجة من لدن النقاد المغاربة في هذا الاتجاه، وتباين بعض آرائهم في القضايا المشتركة، مع تأرجح الأحكام النقدية في هذا الاتجاه النقدي بين التشدُّد والتساهل.

- تراوحت الأحكام النقدية ذات المعيار الأخلاقي عند نقاد المغرب العربي بين التقليد والاقتباس من آراء نقاد المشرق، وبين الإبداع والتميُّز في بعضها، ممَّا يُسجِّل لهم الأسبقية في هذه الأحكام والمواقف.

- اهتمام النُّقَّاد المغاربة بالجانب الأخلاقي في النقد، لا يعني بالضرورة إهمالهم وإغفالهم الجوانب الأخرى، كالجانب الفنّي والإبداعي والأدبي في العملية النقدية، وهذا ما جعلهم متسامحين في كثير من الأحيان مع الشعراء ومتغاضين عن هفواتهم الأخلاقية.

ورغم أنَّ ما كُتِب عن الاتجاه الأخلاقي قديمًا وحديثًا يُعدُّ قليلا جدًّا مقارنة بما كُتب عن غيره من اتجاهات النقد الأخرى-كما ذكرتُ آنفًا-، إلَّا أنِّي وقفت على بعض الدراسات السابقة من كتب ورسائل جامعية ومقالات تتناول الاتجاه الأخلاقي في النقد الأدبي بشكل عام، حيث كانت مَعِينًا ومُرشِدًا لي في تحديد معالم هذا البحث، وتزويدي بقدر هام من مادته العلمية. وأعني تحديدًا ما يلي:

- كتاب النقد الأخلاقي، أصوله وتطبيقاته للدكتورة نجوى صابر.

- كتاب الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتَّى نهاية القرن السابع الهجري، للدكتور محمد بن مريسي الحارثي.

- كتاب المعيار الأخلاقي في نقد الشعر العربي من القرن الثالث حتَّى نهاية ق7هـ، للدكتور عباس ثابت حمود.

- رسالة دكتوراه بعنوان: الأخلاق في النقد العربي من القرن الثالث حتَّى القرن السادس الهجري، للباحث: غسان إسماعيل عبد الخالق الفطافطة.

- رسالة ماجستير بعنوان: الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم، نشأته وتطوره، للباحث: عزوز قربوع.

- رسالة ماجستير بعنوان: المعيار الأخلاقي في النقد الأدبي بين القديم والحديث، للباحثة: نجيَّة بركات.

وتشترك هذه الكتب والرسائل جميعها في تناول الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي "المشرقي"، أمَّا "المغربي" فلا نكاد نعثر له على ملامح أو وجود إلَّا نادرًا وفي بعضها.

أمَّا الخطَّة التي انتهجتها لإنجاز هذا البحث، فجاءت مشتملة على فصل تمهيدي، وبابين، كلُّ باب فيه ثلاثة فصول، وأخيرًا الخاتمة. وخطة البحث بشيء من التفصيل كما يلي:

* **الفصل التمهيدي**: وعنونته بـ(الاتجاه الأخلاقي في نقد الشعر عند القدماء)، حيث تجوَّلت سريعًا عبر الزَّمان والمكان، مستعرضًا علاقة الأخلاق والدِّين بالشعر، ومن ثَمَّ وظيفة الشعر بين المتعة والمنفعة، وما ترتَّب عن ذلك من مواقف ورؤى، ابتداءً بفلاسفة اليونان وانتهاءً بنقاد وفلاسفة العرب والمسلمين.

* **الباب الأول**: وجاء بعنوان:(النقد الأخلاقي في الشعر العربي، الأصول والامتدادات)، وفيه ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: (النقد الأخلاقي في العصر الجاهلي)، حيث تعرَّضتُ للحالة الدِّينية والأخلاقية للجاهليين من خلال شعرهم، ثمَّ الوقوف على النقد الجاهلي عمومًا والأخلاقي منه خصوصًا مع ذكر النَّماذج التي استطعتُ جمعها على قلَّتها.

– **الفصل الثاني**: (النقد الأخلاقي في عصر صدر الإسلام)، وفيه تناولتُ موقف الإسلام من الشّعر، متمثِّلًا في موقف القرآن الكريم، وموقف الرسول ﷺ، وموقف الخلفاء الرَّاشدين.

– **الفصل الثالث**: (النقد الأخلاقي في العصر الأموي والعباسي والأندلسي)، حيث كانت لنا وقفات في محطَّات مختلفة، فوقفنا أوَّلا عند النقد الأخلاقي في العصر الأموي، من خلال ثلاث طوائف مثَّلت هذا الاتجاه هم: الخلفاء، الشعراء، العلماء والذوَّاقون للشعر. ثمَّ وقفنا عند النقد الأخلاقي في العصرين العباسي والأندلسي، وهنا تمايز موقف النقاد من علاقة الشعر بالأخلاق والدِّين، ونَحَوْا في ذلك ثلاثة اتجاهات، فبيَّنا رأي كلِّ اتجاه وأدلَّته وأبرز أنصاره.

* **الباب الثاني**: وجاء بعنوان: (الاتِّجاه الأخلاقي في النقد المغربي القديم)، وفيه مدخل وثلاثة فصول.

– **المدخل**: وتحدَّثت فيه عن العصر الذَّهبي للأدب والنقد في بلاد المغرب العربي القديم باختصار، ثمَّ بيَّنت السبب في اقتصار الدراسة على نقاد ثلاثة من المؤسِّسين الأوائل للنقد، وهم: النَّهشلي وابن رشيق وابن شرف.

– **الفصل الأول**: (الاتِّجاه الأخلاقي في النقد عند النَّهشلي في كتابه الممتع)، وتناولتُ فيه تعريفًا موجزًا للناقد والكتاب، ثمَّ عرضتُ أهمَّ القضايا النقدية ذات البعد الأخلاقي والدِّيني، وأبرزها: قيمة الشّعر وفضله، وأصناف الشّعر.

– **الفصل الثاني**: (الاتِّجاه الأخلاقي في النقد عند ابن رشيق في كتابيه العمدة والأنموذج)، وفيه تعريف مختصر للناقد وكتاب العمدة، ثمَّ عرض لأهمِّ القضايا النقدية ذات الملمح الأخلاقي والدِّيني، وهي: سلوك الشاعر وخلقه، البسملة والدعاء في الشعر، فضل الشعر ووظيفته، النّية في الشّعر، استحسان المعاني الدينية والخلقية واستقباح المعاني الخارجة عليهما، التكسُّب بالشعر، المبالغة والغلوّ في الشّعر، المعيار الأخلاقي في أغراض الشّعر: تنظيرًا من العمدة، وتطبيقًا من الأنموذج.

– **الفصل الثالث**: (الاتِّجاه الأخلاقي في النقد عند ابن شرف في كتابه رسائل الانتقاد)، وفيه أيضًا تعريف بالناقد وكتابه رسائل الانتقاد أو أعلام الكلام، وهو عبارة عن مقامتين، استخرجتُ منهما النقد الدِّيني والخلقي لبعض الشعراء وشعرهم.

* **الخاتمة**: وفيها أهمُّ الملاحظات والآراء التي توصَّلتُ إليها، والاستنتاجات التي استخلصتها، مختصرة في نقاط موجزة.

وبخصوص منهجية البحث، فقد استعملت المنهج التاريخي لرصد وتأصيل بعض قضايا البحث تاريخيًّا، والمنهج الاجتماعي في ربط بعض القضايا النقدية بعلاقة الشاعر والناقد بمجتمعه، والمنهج النَّفسي كلَّما دعت الضرورة إلى ذلك..فضلا على استخدام بعض الأدوات والآليات الإجرائية، كالوصف والتَّحليل والتَّفسير والمقارنة والاستنباط.. لرصد مواقف النقاد وفهم آرائهم المطروحة.

أمَّا مصادر ومراجع هذه الرسالة، فزيادة عن المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها، وهي: الممتنع للنَّهشلي، والعمدة والأنموذج لابن رشيق، ورسائل الانتقاد لابن شرف. وفضلًا عن الكتب التي وردت في الدراسات السابقة، والتي أفادتني كثيرًا، كانت هناك مجموعة أخرى استعنت بها وزوَّدتني بقدر كبير من مادة هذا البحث، أذكر منها:

* **من المراجع القديمة:**

- كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني.
- العقد الفريد لابن عبد ربّه.
- نقد الشعر لقدامة بن جعفر.
- الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء لأبي عبد الله محمد المرزباني.
- البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.
- الشعر والشعراء لابن قتيبة الدّينوري.

* **من المراجع الحديثة:**

- النقد العربي القديم، نصوص في الاتجاه الإسلامي والخلقي للدكتور قصَّاب وليد إبراهيم.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عبَّاس.
- النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي للدكتور أحمد يزن.
- النقد بين الفنّ والأخلاق حتَّى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتورة مريم النعيمي.
- النقد الأدبي في المغرب العربي للدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة.
- الحركة النقدية على أيَّام ابن رشيق المسيلي للدكتور بشير خلدون.

وككلِّ عمل أكاديمي هناك صعوبات تُواجه الباحث في مسيرة إعداد بحثه، ولعلَّ من أبرزها قلَّة المراجع التي تتناول النقد المغربي القديم، -وإن وُجدت- فالحديث عن الاتجاه الأخلاقي يكاد يكون معدومًا، -وإنْ وُجد- فلا يتجاوز الصفحة أو الصفحتين، والمثال أو المثالين. ناهيك عن صعوبة الحصول على بعض المراجع التي كانت من خارج الوطن.

ومع هذا، فقد تمكَّنت بفضل الله وعونه، ثمَّ بمساعدات أعزَّاء وأفاضل من داخل الوطن وخارجه من الحصول على قدر لا بأس به من مراجع، كانت لي رافدًا مهمًّا وداعمًا قويًّا، استطعت من خلالها تجاوز الصعوبات، وترسُّم بعض ملامح البحث. فالحمد لله أوَّلا وآخرا، ثمَّ الشكر لكلِّ مَن مدَّ لي يد العون من قريب أو بعيد، حتَّى اكتمل البحث وخرج في حُلَّته التي عليها الآن.

ولا يفوتني في الأخير أن أُجدِّد شكري الخالص لحضرة الأستاذ الدكتور أحمد حاجي الذي أشرف على هذا العمل، مُعينًا وناصحًا ومُوجِّهًا، والذي أُجِلُّ وأُكْبِرُ فيه سنده ودعمه المادي والمعنوي للبحث في مختلف مراحله حتَّى استوى على سُوقه.

وأتقدَّم أيضًا بخالص آيات الشكر والعرفان لأعضاء لجنة المناقشة، كلٌّ باسمه وصفته على ما بذلوه من مجهودات في هذه الرسالة: قراءةً وتصويبًا، توجيهًا وتقويمًا، حتَّى ترقى إلى المستوى المطلوب، فهي بلا شكٍّ لا تخلو من الأخطاء والهفوات، والإنسان مهما بلغ علمه يبقى قصوره قائمًا، فالكمال لله وحده.

وبعد: فهذا مبلغ علمي وقُصارى جُهدي، أضعه بين أيدي أعضاء لجنة المناقشة الموقَّرين، فإن حَظِيَ بالرِّضى والتوفيق فذلك بفَضْلٍ من الله وحده، ثمَّ بتوجيه أستاذي المشرف، وإنْ كانت الأخرى فحسبي أنِّي اجتهدتُ وبذلتُ ما في وسعي من جهد. سائلا المولى أن لا يحرمني أجر الاجتهاد إن فاتني أجر الإصابة.

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

ساعي إدريس

ورقلة في : 20 جمادى الآخرة 1442هـ

02 فيفري 2021م

الفصل التمهيـــدي

الاتجاه الأخلاقي في نقد الشعر

عند القدماء

الفصل التمهيدي:

يُعدُّ الاتجاه الأخلاقي في النقد من بين أهمِّ أنماط النقد؛ ذلك لأنَّه من أقدمها ظهورًا وأطولها تاريخًا، فقد ثبت تاريخيًّا اهتمام فلاسفة اليونان وخاصة أفلاطون وأستاذه سقراط بالتأثير الخلقي للشعر، والأمر كذلك عند العرب، قبل وبعد الإسلام، وإن كان بعد ظهور الإسلام أوضح مثالاً وأوسع مجالاً. وقد امتدَّ هذا المنهج النقدي عبر الزَّمان والمكان إلى يومنا هذا، فما زال أنصاره من الشعراء والنقاد، شرقا وغربا، عجمًا وعربًا، ملتزمين ومطالبين في الوقت نفسه باعتماد الاتجاه الأخلاقي كمقوِّم أساس للعمل الفنِّي عمومًا والأدبي بوجه خاصٍّ.

أمَّا عن مبدأ هذا المنهج، والفكرة الأساسية التي ينطلق منها أصحابه، فهي "تنصبُّ من مبدأ مفاده أنَّ للأدب غاية قيمية، وهذه الغاية تحضُّ على تضمين العمل الأدبي مكارم الأخلاق، بحيث يرغِّب في الأخلاق الحميدة التي تتمشَّى مع قيم المجتمع ومع مبادئه، وتتمشَّى أيضًا مع الفطرة الإنسانية، ويُرغِّب عن الأخلاق الذميمة المستهجنة، تلك الأخلاق التي تضرُّ بالفرد والمجتمع."[1]

ونفهم من هذا أنَّ الاتجاه الأخلاقي في النقد يقوم على أساس تقييم وتقويم العمل الأدبي من خلال ما تضمَّنه النصُّ من أفكار ومعان موافقة للقيم والأخلاق الفاضلة أو منافية لها. فيُشيد بها ويحثُّ عليها إن كانت كريمة، ويُنكرها ويُحذِّر منها إن كانت قبيحة ومذمومة، فالمعيار الأساس فيه هو مدى توافق النص مع تعاليم الدّين والأخلاق الكريمة والقيم الفاضلة. وقد يقول قائل: وما موقع الجانب الفنِّي والجمالي والشكلي من العملية النقدية للعمل الأدبي؟ فنجيب قائلين: "إنَّ الأدب ليس لفظًا فحسب، ولا معنى فحسب، بل هو موضوع منهما معًا، فالأديب مثلما هو مدعوٌّ إلى تجويد أدواته الفنّية حتَّى يكون أديبًا، وحتَّى يكون ما يقوله منتميًّا إلى عالم الأدب، مدعوٌّ كذلك أن يعي ما يقول، وأن يهتمَّ بالفكر الذي يُشيعه في النَّاس، والمُثُل التي يُذيعها بينهم، والقيم التي يحثُّهم عليها، ويُروِّج لها. إنَّ خير الشِّعر-كما يقول ابن قتيبة بحقٍّ- هو(ما جاد لفظه وجاد معناه)"[2]، ولكن ثمَّة مسألة تتعلَّق بالمصطلح المستعمل ومدلوله عند النقاد بخصوص هذا المنهج، فهناك من يرى فرقًا بين النقد الأخلاقي والنقد الدِّيني أو العقدي، كما فعل ذلك علي بن محمد، وهو يتناول كتاب الذَّخيرة لابن بسَّام الأندلسي، حيث يقول: "لقد حرصنا على التمييز بين النقد الأخلاقي والنقد الدِّيني، لأنَّهما متميِّزان في الحقيقة؛ إذْ هناك فرق كبير بين أن يصدر ناقد ما في أحكامه عن نظرة أخلاقية، وقد يكون ممَّن لا يُؤمنون بالرسالات السَّماوية أصلاً، وبين أن يكون أساس النظرة النقدية هو الدِّين نفسه. ذلك أنَّ الإلحاد شيء، والتمسُّك بالأخلاق التي تواضعت عليها أجيال أمم كثيرة منذ وقت بعيد شيء آخر."[3]، ولكنَّه لا يرى حرجًا من جمع النقد الدِّيني بالنقد الأخلاقي، مع تبيين ملامحه وطابعه الخاص، فيقول في ذلك: "ومن المؤكَّد أنَّنا كنَّا نستطيع أن نُدمج هذا الجانب من النقد -يقصد النقد الدِّيني- عند ابن بسَّام فيما سمَّيناه بالنقد الأخلاقي، ونبيِّن طابعه

---

[1] – عبد الباري ماهر شعبان، التذوق الأدبي (طبيعته، نظرياته، مقوّماته، معاييره، قياسه)، دار الفكر، عمَّان، الأردن، ط3، 2011م، ص210.

[2] – قصَّاب وليد إبراهيم، النقد العربي القديم (نصوص في الاتجاه الإسلامي والخُلُقي)، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2005م، ص18.

[3] – علي بن محمد، ابن بسَّام الأندلسي وكتاب الذخيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1989م، ص359.

الخاص، وملامحه المتميِّزة، ولكنَّنا شئنا أن نُفرد له هذا الباب من الدراسة؛ لأنَّه في رأينا مستقلٌّ عن النظرة الأخلاقية المجرَّدة كما تراءت لنا في مواقفه من الهجاء أوَّلاً ومن الغزل ثانيًا."[1]

والفصل بين النقد الأخلاقي والنقد الدِّيني الذي قال به علي بن محمد رأي صائب، وبالأخصِّ إذا كان هذا النقد من النَّاحية الدينية يمسُّ الجانب العقدي منه، فما تعلَّق بالعقيدة شيء، وما تعلَّق بالأخلاق شيء آخر، وهذا ما وجدناه عند بعض النقاد؛ حيث يُميِّز بين النقد العقدي والنقد الأخلاقي، كما فعلت وضحى القحطاني في كتابها (دراسة في نظرية الأدب الإسلامي)، حيث خصَّصت مبحثًا تناولت فيه النقد العقدي والأخلاقي، وفي الدراسة فصلت بينهما.[2]، وهناك من جمع بينهما تحت مسمًّى واحد،كما فعل مصطفى عليان في كتابه (تيارات النقد الأدبي في الأندلس)، حيث عنون الفصل الخامس منه بالنقد الخلقي، ووضع بين قوسين (الشعر والدِّين)، وتناول فيه قضايا النقد الخلقية والدِّينية مجتمعة.[3]، وكذلك الأمر عند عبد الله العضيبي في كتابه (النقد عند الشعراء)، ففي مبحث (نقد المعنى ومقاييسه)، جعل المقياس الأول بعنوان (الدِّين والأخلاق)، وجمع بينهما في الدراسة.[4]، ونجد محمد مرتاض في كتابه (النقد الأدبي القديم في المغرب العربي)، يجعل عنوان المبحث (النقد الخلقي) ضمن أحد المناهج النقدية عند نقَّاد المغرب العربي، فذكر مثلاً: النقد الخلقي عند ابن شرف، وعياض والنقد الخلقي، وكانت القضايا النقدية المطروحة تتراوح بين الخلقي والدِّيني.[5]، وهو ما انتهجه أيضًا حسين حافظ في كتابه (المعنى في النقد العربي القديم)، حيث جعل (المعيار الأخلاقي) أحد معايير نقد المعنى، وقد تناول في هذا المبحث القضايا النقدية ذات الملمح الدِّيني والخلقي معًا.[6]

في حين فضَّل بعض النقاد المعاصرين تسمية هذا الاتجاه النقدي الذي يُراعي الدِّين الإسلامي والأخلاق الكريمة، بالنقد الإسلامي، والذي ظهر بطبيعة الحال بظهور الإسلام. ومن هؤلاء النقاد نجد على سبيل المثال لا الحصر، عماد الدِّين خليل في كتابيه: (في النقد الإسلامي المعاصر)، و(محاولات جديدة في النقد الإسلامي)، وقصي الحسين في كتابه (النقد الأدبي عند العرب واليونان، معالمه وأعلامه)، وعلي بن محمد الحمود في كتابه (النقد الأدبي الإسلامي، الواقع والمأمول)، وكذلك نجد وليد إبراهيم قصَّاب، وذلك من خلال عدَّة مؤلَّفات منها: (النظرة النَّبوية في نقد الشعر) و(في الأدب الإسلامي)، و(من قضايا الأدب الإسلامي). وفي كتابه الأخير يقول: "وعلى العموم فإنَّ النقد الإسلامي الذي يتأتَّى من منطلقين اثنين: أحدهما واقعي، والآخر شرعي عقدي، يرى أنَّ المقاربة النقدية لأيِّ نصٍّ أدبي ينبغي أن تكون مقاربة جمالية وفكرية؛ أي تركّز على الشكل والمضمون، على الأداة والرؤية. فأمَّا المنطلق الواقعي فقد بيَّنَّا أنَّ تخلِّي أيِّ ناقد عن عقيدته أو اتِّجاهه الفكري والفلسفي، والاحتكام إلى المعايير الجمالية وحدها أمرٌ غير ممكن أصلاً، وهو غير

---

[1] – علي بن محمد، ابن بسَّام الأندلسي وكتاب الذخيرة، ص359-360.

[2] – يُنظر القحطاني وضحى مسفر، دراسة في نظرية الأدب الإسلامي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2016، ص272.

[3] – يُنظر عليان مصطفى عبد الرحيم، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1986م، ص329.

[4] – يُنظر العضيبي عبد الله محمد، النقد عند الشعراء حتَّى نهاية ق 4 هـ، منشورات ضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 2013م، ص166.

[5] – يُنظر مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي نشأته وتطوُّره – دراسة وتطبيق، اتحاد الكتَّاب العرب، دمشق، سوريا، دط، 2000م، ص169.

[6] – يُنظر حافظ حسين لفته، المعنى في النقد العربي القديم، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمَّان، الأردن، ط1، 2014م، ص232.

متحقّق على أرض الواقع، وإنَّ اختيار الناقد لمنهج معيَّن يتعامل به مع النصوص هو في حدِّ ذاته وجه من وجوه شخصيته، أو فكره، أو فلسفته. وأمَّا المنطلق الشرعي فهو أنَّ الأدب في تصوُّر الناقد الإسلامي ليس وعاء جماليًّا فحسب، وإنَّه –مهما احتفى بفنّية النصِّ الذي لا يكون هذا النصُّ أدبًا إلاَّ به– لا يكتفي بذلك، فالنصُّ الأدبي وعاء جمالي وفكري، وكما يُبْحَثُ فيه عن المتعة والفنّية والتشكُّل اللغوي الباهر، يُبْحَثُ فيه كذلك عن الفائدة والهدف والوظيفة."[1]

وبعد طرح كلِّ هذه الآراء، فالباحث يرى أنَّ القيم الأخلاقية –في مفهومنا الإسلامي– نابعة من الوحي الإلهي، فالدِّين مصدر للأخلاق، وهي جزء منه، وبقدر نقص الدِّين تنقص الأخلاق، وبقدر زيادته تزيد. ولا يوجد تعارض بينهما، لأنَّهما يسعيان لتحقيق غاية واحدة، هي صلاح العقيدة وصلاح المجتمع، وتحصيل أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، وعليه فنقول: إنَّ الدِّين يشمل الأخلاق. ويمكننا أن نقول من باب التجاوز والتَّغليب أنَّ الدِّين هو الأخلاق، إنْ فهمنا الأخلاق بأنَّها عامة وشاملة لخُلُقِ العبد مع ربِّه، وخُلقه مع نفسه، وخُلقه مع النَّاس، وخُلقه مع سائر المخلوقات، إذا فهمنا الأخلاق بهذا الاعتبار فيمكننا أنْ نقول: إنَّ الدِّين هو الأخلاق، وإنَّ الأخلاق هي الدِّين، وهذا ما ذهب إليه طه عبد الرحمن، بعد أن ناقش وحلَّل العلاقة بين الدِّين والأخلاق، مستعرضًا الآراء المختلفة في هذه القضية، ليخلُص في الأخير إلى هذا القول: "والصَّواب أنَّ الدِّين والأخلاق شيءٌ واحدٌ، فلا دين بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير دين، ولا يُمكن أن نتبيَّن هذه الحقيقة إلاَّ إذا تخلَّصنا من اعتقادات شائعة عن الدِّين والأخلاق."[2]، ثمَّ إنَّ المدلول اللغوي لكليهما يحمل معنى الآخر، فالخُلُق من بين معانيه: الدِّين، جاء في لسان العرب: "والخُلقُ: بضمِّ اللَّام وسكونها، الدِّين والطَّبع والسَّجيَّة."[3]، ومن بين معاني الدِّين، الخُلقُ. جاء في اللِّسان أيضًا: "معنى قوله في الحديث الشريف: أنَّه عليه السَّلام كان على دين قومه، قيل: هو من الدِّين، العادة، يُريد به أخلاقهم من الكرم والشجاعة وغير ذلك."[4]، ومنه الحديث الشريف: **«الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»**[5]، (على دين خليله)، أي: على عادة صاحبه، وسيرته، وأخلاقه، وسلوكاته.

والأخلاق هي جوهر الدِّين، ولا انفصال بينهما في الأهداف النِّهائية، ولكن قد يكون للأخلاق مفاهيم أخرى نجدها في المذاهب الفلسفية المختلفة، ولا علاقة لها بالدِّين، وعليه فإنَّ الأخلاق تعتمد على أصلين أساسيين، هما: الدِّين والفلسفة. ومنه فالنقد في هذا المنهج سيعتمد كذلك على هذين الأصلين؛ وعندئذ تكون مساحة الدراسة أوسع

---

[1] – قصَّاب وليد إبراهيم، من قضايا الأدب الإسلامي، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 2008م، ص147.

[2] – عبد الرحمن طه، سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000م، ص52.

[3] – ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، ج10، ص86.

[4] – المرجع نفسه، ج13، ص171.

[5] – أبو داؤد سليمان بن الأشعث الأزدي: سنن أبي داؤد، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، دت، ج4، كتاب الأدب، رقم الحديث 4833، ص259.

وأشمل باختيار المنهج الأخلاقي الذي يجمع الأصلين معًا، الدِّين والفلسفة. ولأنَّ القاعدة الأصولية تقول:(لا مُشَاحَّة في الاصطلاح)، ارتأى الباحث أن يضع تحت مسمَّى(**النقد الخلقي أو الأخلاقي**) كلَّ القضايا النقدية ذات البُعد الدِّيني (العقدي) أو الأخلاقي (القِيَمِي).

أمَّا عن ملامح هذا المنهج في النقد التطبيقي عند العرب، فتتجلَّى لنا –كما يقول وليد قصَّاب– "في القضايا الآتية:

1– وظيفة الشعر.

2– نقد المعاني، استحسانًا واستقباحًا.

3– الضبط العقدي لأغراض الشعر.

4– التحرُّج من رواية ما صادم العقيدة.

5– إسقاط منزلة الشاعر بسبب استهتاره وسوء عقيدته.

6– إيثار الصِّدق، وذمّ الكذب والغلوّ."[1]

ولـمَّا كانت وظيفة الشّعر من أبرز ملامح النقد الخلقي، ومن أكثر القضايا التي ثار حولها خلاف كبير بين الفلاسفة والنقاد والدَّارسين للشعر قديمًا، كان لزامًا الوقوف عندها مستعرضين –من خلالها– العلاقة بين الشعر والأخلاق.

- **وظيفة الشعر بين القيمتين الجمالية والنَّفعية:**

الشعر فنٌّ من الفنون التي عرفها الإنسان منذ القديم، وإشكالية العلاقة بين الفنِّ والأخلاق إشكالية قديمة قِدَم هذه الفنون نفسها، وقد أدَّت إلى الكثير من المشاكل التي ظلَّت محلَّ جدال ونقاش، بل وصراع فكري إلى يومنا هذا. وجوهر هذا النزاع بين الأخلاق والفنِّ يعود أساسًا إلى متطلَّبات ومقاصد كلٍّ منهما، "إذْ تُصرُّ الأخلاق على الارتباط بالخبرات والتجارب، ويُؤَكِّد الفنُّ على الاستقلال الذاتي لكل تجربة خاصة. والإنسان الأخلاقي يتفحَّص الفعل المعطى فى علاقته بالأفعال الأخرى، بينما المهتم بالجمال يُغرق نفسه فى التجربة المباشرة. والأخلاق تُؤَكِّد على عدم انتهاك حرمة الإنسان، في حينٍ يُؤَكِّد الفنُّ على قدسيَّة التجربة. إذْ تُحاول الأخلاق جعل الحياة مستقيمة، فإنَّنا نجد الفنَّ على حدَّة وعاطفية الحياة. وبينما تُؤَكِّد الأخلاق على الكمِّ، يُؤَكِّد الفنُّ على الحقيقة الكيفية. وتهتمُّ الأخلاق بالكلِّ، بينما يهتمُّ الفنُّ بالجزء.

ومن دون الضمير لا يكون الإنسان إنسانًا، بل مجرَّد مجموعة من الخبرات غير المترابطة، ومن دون الفنِّ تكون الحياة شكلاً لا تتَّسق أجزاؤه بعضها مع البعض الآخر فى علاقتها الدَّاخلية."[2]

وقد أدرك الفلاسفة والمفكِّرون منذ القِدم أنَّ الفنَّ قوة مؤثِّرة بمقدورها تشكيل وجدان المجتمعات وتعميق الأثر الذي تسهم به في مسيرة التاريخ الإنساني؛ فبحثوا عبر عصور مختلفة عن حقيقة العلاقة بين الفنِّ والمجتمع. وإذا كان حديثنا

---

[1] – قصَّاب وليد إبراهيم، الوسطية في منهج الأدب الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط1، 2012م، ، ص76.

[2] – الصبَّاغ رمضان، العلاقة بين الأخلاق والجمال في مجال الفنّ، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج27، ع3، (يوليو–سبتمبر)، 1998م، ص86.

يتناول الفنَّ إجمالاً، فإنَّ مقصودنا بالدرجة الأولى هو الشعر، باعتباره فنًّا من الفنون الأدبية؛ ذلك أنَّ الفلاسفة والمفكِّرين–وخاصة القدماء منهم– عندما تحدَّثوا عن علاقة الفنِّ بالمجتمع والأخلاق تناولوا الفنَّ–في الغالب– بكلِّ أشكاله وأنواعه من نحت ورسم وموسيقى وشعر وغيرها، والمبدأ في ذلك أنَّ ما ينطبق على الكلِّ فهو بالضرورة ينطبق على الجزء.

وقد كان اليونانيُّون سبَّاقين إلى طرح هذا الإشكال بحكم اهتمامهم بالفلسفة، "فقد كان كثيرٌ من النقاد اليونان هم من طبقة العلماء الفلاسفة، تمامًا كما كان كثير من الفلاسفة هم من طبقة النقاد الأدباء، الذين لهم باع طولى في الأعمال الأدبيَّة والنقدية، والسبب في ذلك إنَّما يعود لاشتمال الأدب اليوناني شعرًا وخطابة على الأفكار والعقائد التي تُمثِّل الموقف الفكري والدِّيني لدى الشعب اليوناني"[1]، فعلاقة الشعر بالأخلاق كانت من أهمِّ القضايا التي استرعت اهتمام فلاسفة اليونان قديمًا، كما كانت حاضرة بقوة أيضًا في التراث النقدي عند العرب. وما زالت إلى يوم النَّاس هذا، وربَّما سيبقى الجدال والصراع الفكري قائمًا حولها، وهذا بسبب اختلاف الرُّؤى حول هذه القضية. ولعلَّ المنطلق الذي يُعدُّ جوهر الخلاف بين المفكِّرين والفلاسفة في تحديد علاقة الشعر بالأخلاق هو الوقوف عند دور الشِّعر ووظيفته التي من أجلها وُجِد.

إنَّ اختلاف الآراء في وظيفة الفنِّ عمومًا، والأدب والشعر منه خصوصًا، مردُّه إلى اختلاف توجُّهات النَّاس الفكرية والنَّفسية والاجتماعية وغيرها، ولكنَّ هذه الآراء والأفكار التي حاولت تحديد العلاقة بين الفنِّ والمجتمع قد أسفرت عن بروز نظريتين أساسيتين هما: نظرية الفنِّ للمجتمع، والتي يرى أصحابها أنَّ للفنِّ والأدب أهدافًا وغايات اجتماعية وأخلاقية وتربوية، تتمثَّل في التعبير عن مطالب المجتمع ومثله العليا، والعمل على رقيِّه وتقدُّمه، وتهذيب النَّفس الإنسانية وتوجيهها نحو الحقِّ والخير والفضيلة. ونظرية الفنِّ للفنِّ، "وهي نظرية تدعو إلى تحرير الفن–بأشكاله كافة–من الوظيفة أو الغاية أو الرسالة، وتحدّد مهمته في إحداث الإحساس الجمالي، بلا اعتبار لأيِّ مبدأ ديني أو خلقي أو اجتماعي أو سياسي، أو ما شاكل ذلك. إنَّها دعوة إلى الرجوع بالفنّ إلى حقيقته الجمالية المجرَّدة عن أيَّة غاية."[2]، إذن فأصحاب هذه النظرية يرون أنَّ الفنَّ يجب أن يتحلَّل ويتحرَّر من أيِّ ضوابط فكرية أو فلسفية أو دينية، والفنُّ للفنِّ مذهب الجمال، الذي يرى الفنَّ والأدب غاية في حدِّ ذاته ومطلوبًا لذاته، وفي ذلك تخليص الفنِّ والأدب من النفعية والغائية.

والخلاف القائم بين القيمة الجمالية للأدب (الفنُّ للفنِّ) والقيمة النفعية (الفنُّ للمجتمع) –كما يرى محمد مندور–لا يستند إلى تعارض أساسي، مبرّرًا ذلك بقوله: "وذلك لأنَّ الإنسانية قد أجمعت منذ الأزل حتَّى اليوم على أنَّه لا يُمكن اعتبار كلّ كلام أدبًا، فالعلم ليس أدبًا، والتَّفكير المجرَّد ليس أدبًا، وإنَّما يتميَّز الأدب عن غيره من الكلام أو التفكير

[1] – الحسين قصي، النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، لبنان، ط1، 2003م، ص231.

[2] – قصاب وليد إبراهيم، المذاهب الأدبية الغربية رؤية فكرية وفنية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص87.

بخاصة أساسية هي قيمته الجمالية التي تنبعث من خصائص أسلوبه. وبانعدام هذه القيمة ينعدم الأدب، وإنَّما يدور الخلاف حول استطاعة الأدب الاكتفاء بقيمته الجمالية دون القيم النفعية الأخرى أو عدم استطاعته."[1]

وما يعنينا هنا هو نظرية الفنِّ للمجتمع، وهذا من خلال معرفة آراء وأفكار أهمِّ مُؤسِّسيها وروَّادها من فلاسفة ومفكِّرين ونقاد، الذين أصَّلُوا وقعَّدوا أصول هذه النظرية، لتُصبح بعدئذ مدرسة نقدية متميِّزة، لها منهجها الخاص بها وأنصارها المدافعون عنها. والتي تدعو إلى نفعية الفنِّ وفائدته الاجتماعية والأخلاقية، واعتبار المقياس الأخلاقي معيارًا نقديًّا من معايير الحكم على العمل الفنِّي من حيث الجودة والرداءة، أو الحسن والقبح. وبفضل هذه المدرسة النقدية وأصحابها أصبح المنهج الأخلاقي أحد أهمِّ المناهج النقدية في التاريخ النقدي العربي والغربي على حدٍّ سواء.

1- الوظيفة الأخلاقية للشعر عند فلاسفة اليونان:

وأوضح ما ورد إلينا في تاريخ النقد الأدبي القديم عن علاقة الشعر بالأخلاق، ومُجسِّدًا في الوقت نفسه نظرية الشعر للمجتمع ما كان من بعض فلاسفة الإغريق الذين تكلَّموا على الفنِّ والجمال، وخاصة أفلاطون وأستاذه سقراط، وإن كان سقراط لم يُخلِّف آثارًا مكتوبة، إلاَّ أنَّ ما نجده في بعض محاورات أفلاطون يُعطينا تصوُّرًا واضحًا لموقفه من هذه القضية. فقد كان سقراط الشخصية الرئيسة والمحورية في هذه المحاورات، وعرض لنا أفلاطون من خلالها آراء وأفكار أستاذه سقراط على شكل محاورات مع خصومه من الفلاسفة والسفسطائيين والشعراء.

وما يُمكن ملاحظته أنَّ الجمال عند سقراط كان هادفًا ومرتبطًا بالمنفعة؛ فالفنُّ الجميل هو الذي ينطوي على منفعة وفائدة: اجتماعية، أخلاقية، تربوية، أو غيرها، ولهذا "يُعدُّ سقراط أوَّل من ربط بين الفنِّ والأخلاق؛ إذْ أنَّه جمع بين الجمال والمنفعة، فالجميل عنده هو ما يُحقِّق نفعًا مباشرًا أو خيرًا عامًّا."[2]، فهو يربط الجمال بتحقيق المنفعة والفائدة، فكلُّ فنٍّ نافع ومفيد هو بالضرورة جميل، وإن كان العكس ليس بالضرورة صحيحًا. "وكانت حجَّة سقراط في ذلك أنَّ كافة الأشياء النَّافعة للبشر في آن واحد أشياء جميلة وخيِّرة، ما دامت تُمثِّل موضوعات ملائمة صالحة للاستعمال. أمَّا إذا كنَّا بصدد موضوع لا يصلح لشيء، ولا تتحقَّق من ورائه منفعة فإنَّ مثل هذا الموضوع لن يكون من الجمال في شيءٍ."[3]، وهذه الرؤية الأخلاقية للفنِّ تعكس وتُفسِّر موقف سقراط من الشعراء خاصَّة، "فقد هاجم الشعراء المعاصرين له، ورأى أنَّهم لا يعقلون ما يقولون، ولا يُوجِّهون النَّاس التَّوجيه الذي ينشده. وهو حين يتساءل عن وظيفة الفنِّ والغاية من الجمال قد انتهى إلى أنَّ الفنَّ يجب أن يُكرَّس لخدمة الأخلاق، والجمال يجب أن يُؤدِّي إلى الخير لا إلى اللَّذة الحسِّية."[4]

---

[1] – مندور محمد، الأدب ومذاهبه، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، دت، ص190.

[2] – مصطفى فائق وعلي عبد الرِّضا، في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، العراق، ط1، 1989م، ص49.

[3] – الصبَّاغ رمضان، جماليات الفن- الإطار الأخلاقي والاجتماعي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2003م، ص59.

[4] – مطر أميرة حلمي، فلسفة الجمال، أعلامها ومذاهبها، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، 1998م، ص32.

كما يذكر لنا أفلاطون في محاوراته بعض مآخذ أستاذه سقراط على الشعراء، فيقول أفلاطون على لسان سقراط: "تركتُ رجال السياسة، وقصدت إلى الشعراء، سواء في ذلك شعراء المأساة أو الأغاني الحماسية أو ما شئتم من صنوف الشعر، وقلت في نفسي: إنَّ الأمر لا ريب مكشوف لدى الشعراء فسأجدني بإزائهم أشدَّ جهلاً. ثم جمعت طائفة مختارة من أروع ما سطَّرت أقلامُهم، وحملتها إليهم أستفسرهم إيَّاها لعلي أفيد عندهم شيئًا. أفأنتم مصدقون ما أقول؟ واخجلتاه! أكاد أستحي من القول لولا أني مضطرٌّ إليه، فليس بينكم من لا يستطيع أن يقول في شعرهم أكثر ممَّا قالوا هم وهم ناظموه. عندئذ أدركتُ على الفور أنَّ الشعراء لا يصدرون في الشعر عن حكمة، ولكنَّه ضرب من النُّبوغ والوحي. إنهم كالقدِّيسين أو المتنبئين الذين ينطقون بالآيات الرائعات وهم لا يفقهون معناها. هكذا رأيت الشعراء، ورأيت فوق ذلك أنَّهم يعتقدون في أنفسهم الحكمة فيما لا يملكون فيه من الحكمة شيئًا، استنادًا إلى شاعريتهم القوية. فخلفت الشعراء وقد علمت أنِّي أرفع منهم مقامًا."[1]

فسقراط يحكم على الشعراء بقصور المعرفة، والبعد عن الحكمة، والجهل بطبيعة الفنِّ الشعري، وهم لا يُؤلِّفون قصائدهم الجميلة بسبب موهبتهم الفنّية، من براعة الصيغة وحُسن التصوير، إنَّما يقولون ذلك عن إلهام ووحي، يُشبه الإلهام الذي يتفوَّه به القدِّيسون والأنبياء. فالشعر إذن عند سقراط لا يعني العمل الإنساني الإرادي النَّابع من العقل والوعي، والخاضع للشعور والتفكير، كما أنَّه ليس صناعة تخضع لأصُولٍ وأسبابٍ فنِّية، بل هو إيحاء وإلهام من روح مقدَّسة، يقول سقراط مخاطبا (أيون): "إنَّ موهبتك للتكلُّم بامتياز عن (هوميروس) ليست فنًّا، لكنَّها كما كنتُ قائلاً لتوِّي، إلهامٌ؛ توجد إلهياتٌ تُحرِّكك مثل تلك المحتواة في الحجر والتي يدعوها (يوربيايدس) مغناطيسًا. إنَّ هذا الحجر لا يجذب الحلقات الحديدية فقط، بل يُضفي عليها قوَّة مماثلة لجذب الحلقات الأخرى أيضًا. ويُمكنك أن ترى بعض المرَّات عددًا من القطع والحلقات الحديدية متدلِّية بعضها من بعض لتُشكِّل سلسلة طويلة تمامًا؛ وتستمدُّ كلُّها قوَّة تدلِّيها من الحجر الأصلي. وبشكل مماثل فإنَّ إحدى آلهات الشِّعر ألهمتْ الرِّجال قبل كلِّ شيء، وتتدلَّى من هؤلاء الأشخاص المُلهَمين سلسلة من الأشخاص الآخرين الذين يتلقَّون الوحي. إنَّ كلَّ الشعراء الصالحين، الشعراء الملحميُّون كما الشعراء الغنائيُّون، لا يُؤلِّفون قصائدهم الجميلة بالفنِّ، إلاَّ لأنَّهم مُلهمون وممسوسون.. الشاعر شيء لطيفٌ ومُجنَّحٌ وقِدِّيسٌ، ولا يوجد إبداعٌ فيه حتَّى يُلهم ويُجرَّد من أحاسيسه، ولا يبقى فيه عقل بعد الآن: لا إنسان يمتلك موهبة الشعر التي مبعثها الوحي."[2]

إنَّ اعتقاد سقراط أنَّ الشِّعر وحيٌ وإلهام من إلهة الشعر، تبثُّه في رَوْعِ الشاعر في لحظة يكون فيها فاقدًا وعيه وإدراكه، فيُنشئ أغانيه وأشعاره الجميلة دون تدخُّل منه أو ابتكار، قد يُفهم منه أنَّه يجعل الشعر والشاعر في مكانة سامية؛ "لأنَّه أقرَّ أنَّ مصدر الشعر هو الإلهام الإلهي، ولأنَّه قارن الشاعر بالأنبياء والعرَّافين، وطالما كانت هذه الفكرة مرجع مَن اعتدُّوا

[1] – أفلاطون، محاورات أفلاطون، دفاع سقراط، ترجمة وتقديم: زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دط، 2001م، ص78.

[2] – أفلاطون، المحاورات الكاملة، محاورة إيون، ترجمة: شوقي داود تمراز، دار الأهلية، بيروت، لبنان، دط، 1994م، مج3، ص19-20.

بالإلهام والقريحة في الشّعر، لا بالصَّنعة والتعلُّم"[1]، لكنَّه في الوقت نفسه قد سلب وعي الشاعر وتفكيره، وإدراكه وشعوره، وبالمحصِّلة فقد ألغى وجوده التامَّ في العملية الشعرية. كما يُمكن القول: أنَّ فكرة الإلهام هذه ستكون النواة الأولى لرأي أفلاطون فيما بعد في نظرية الإلهام الشعري، التي تناولها بإسهاب وتفصيل في بعض محاوراته. وإن كان معظم الدَّارسين يرون أنَّ آراء سقراط في محاورات أفلاطون هي بالضرورة آراء لأفلاطون.

وشأن سقراط شأن تلميذه أفلاطون الذي ربط بين الفنِّ والأخلاق، ورأى في الفنِّ والأدب أداة مهمَّة لتهذيب النَّفس البشرية، ورُقيِّ الحياة الاجتماعية. فأفلاطون وهو المفكِّر والفيلسوف الذي حلم بالجمهورية أو المدينة الفاضلة، والتي حاول تجسيدها نظريًّا من خلال مؤلفاته وفق معايير فلسفية وأسس عقلية، من أجل تحقيق العدل والمساواة بين البشر، وحفظ النظام والاستقرار، وصولاً إلى حياة خالية من جميع أنواع الجرائم والشرور والمظالم؛ لم يجد أفضل من الفلاسفة لحكم المدينة، لاعتقاده أنَّهم الأجدر والأقدر على ضبطها وتسييرها وفق هذه المعايير والأسس. والجدير بالذِّكر أنَّ "أفلاطون كان من أكبر المدافعين عن وجهة النظر الأخلاقية في الفنِّ، حتَّى إنَّ معظم الباحثين يعتبرونه –رغم أنَّ هناك مَن سبقه في هذا المجال– مؤسِّس التصوُّر الأخلاقي في الفنِّ، خاصة في محاورة (الجمهورية) على اعتبار أنَّ النظرية قد اكتملت على يديه."[2]

ومعلومٌ أنَّ النقد الأدبي عند أفلاطون شمل موضوعات متعدِّدة، من أهمِّها: نظرية المحاكاة، وفكرة الإلهام في الشِّعر. وهذه الآراء نجدها منثورة في كتاباته، وخاصة محاورته المعروفة بـ "إيون"، وما جاء في كتاب "الجمهورية" عن هوميروس وعن الشعر والشعراء عامة. وتقوم نظريَّة المحاكاة في الأدب عند أفلاطون على أنَّ المحاكاة هي جوهر الفنِّ، إلَّا أنَّها بعيدة عن الأصل بثلاث درجات، وكلَّما ابتعدنا درجة ازددنا بُعْدًا عن الحقيقة، ولذلك أصبح الشعراءُ عند أفلاطون وبناءً على رأيه كَذَبَةً، ومن غير المسموح لهم أن يكونوا في جمهوريَّته الفاضلة، لهذا تمَّ طردهم من المدينة الفاضلة كي لا يُفسِدوا أخلاق الناس، ويُنقصوا من سعادتهم الحقيقيَّة. "فأفلاطون المؤمن أبدًا بأنَّ الفلسفة هي السبيل لمعرفة الحقيقة لم يكن راضيًّا عن إعطاء هذه المكانة الرَّفيعة للشِّعر والشعراء في تنشئة الأجيال وإعدادها للمستقبل. أمَّا السبب كما وضَّحه هو في الكتاب العاشر من "الجمهورية" فيكمن في أنَّ كلَّ الفنون التي تعتمد المحاكاة ضارَّة ومُدمِّرة؛ لأنَّها تُمارس مفعولاً سلبيًّا على القِوى العقلية عند المستمعين، الذين لا يملكون المعرفة الكافية التي تحميهم من شرور هذه الفنون وأضرارها."[3]

فأفلاطون يرى أنَّ الشاعر عندما يُحاكي الأشياء، فإنَّه يُحاكي عالم المادة الذي يراه، ولا يعرف شيئًا عن عالم المُثُل أو عالم الحقيقة المطلقة، هذا العالم الغيبي، وذلك لأنَّ الشاعر لا يستخدم عقله، بل يلجأ إلى خياله وعاطفته، وهذا ما

[1] – هلال محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، 1997م، ص28.

[2] – الصبَّاغ رمضان، العلاقة بين الجمال والأخلاق في مجال الفنّ، ص86.

[3] – الدحيَّات عيد، النظرية النقدية الغربية من أفلاطون إلى بوكاشيو، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2007م، ص28.

يجعل الشاعر غير مُؤهَّل لنشر الفضيلة والأخلاق بين الناشئة، لأنَّ شعره مستمدٌّ من عالم وهمي أو غير حقيقي، بعيد عن مصدر الحقيقة بثلاث مراتب. وبالتالي فهو غير جدير بالاحترام، أو بدخول الجمهورية.

ويُعقِّب شوقي ضيف بعد أن ذكر نظرية أفلاطون في المُثُل، قائلاً: "وكأنَّه -يعني أفلاطون- لم يُلاحظ أنَّ الفنَّان لا يُحاكي الطبيعة محاكاة طبق الأصل، بل يُكمِّلها ويُضيف إليها من عواطفه ومشاعره. وربَّما دفعه إلى ذلك أنَّه أراد أن يهدم الشِّعر لما فيه من انحراف عن الأخلاق الجيِّدة، فأتاه من هذا الطريق يُريد أن يُشوِّهه ويحطَّ من قدره وقدر أصحابه."[1]

وهجوم أفلاطون على الشعراء مردُّه إلى أنَّه "يرى الشعراء مخادعين لا يُحسنون فَهْمَ أنفسهم، ولا يقدرون على فهم الحقيقة، فهم بالتالي بعيدون عن المُثُل الأخلاقية. فهو يُريد مدينة فاضلة تحكمها الفلسفة أي الحق، ولكنَّ الشِّعر بعيدٌ عن الحقِّ. وكان يرى أنَّ الفنَّ مرتبطٌ بالأخلاق، وأنَّ الأعمال الأدبية والآثار الفنِّية إنَّما هي وسيلة لإظهار الحقائق الأخلاقية، ويُؤكِّد ضرورة مطالبة الشعراء بأن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الحميد، وأن يُحظر عليهم أن يطبعوها بطابع الوهن والفساد والخسَّة."[2]

وقد عرض أفلاطون في كتابه(الجمهورية) ملامح المدينة الفاضلة، التي أكَّد من خلالها على الرسالة الأخلاقية والتربوية للشعر ودوره في بناء هذه المدينة المثالية بترسيخ الفضائل وقيم الخير في نفوس الناشئة، وحثِّهم على الشجاعة والدفاع عن الوطن والموت من أجل صون حماه، كما استبعد كلَّ شعر يُنافي الفضيلة والخير، ويدعو إلى الضعف والتخاذل والجبن وكراهية الموت، أو يصوغ الخرافات والأساطير والخيالات الواهمة التي تُفسد الذوق، وتنأى عن الغايات التعليمية والتربوية والأخلاقية التي ينشدها المجتمع. "ولذلك تضمَّنت هذه المحاورة (الجمهورية) كثيرًا من الملاحظات والمآخذ النقدية على شعراء الأساطير، ومنهم هوميروس، لوصفهم الآلهة بصفات مشوّهة لا تليق بهم كالتباغض والكيد والصِّراع والنزاع والحروب ونسبة الأعمال غير المقدَّسة إليهم وإلى أبنائهم وأقاربهم وذويهم، وصياغتها في قوالب قصصية أسطورية خيالية وتلاوتها على أسماع الأحداث والنشء، بما لا يُلائم الفضيلة والمُثُل العليا التي يجب غرسها في نفوسهم."[3]

فأفلاطون ورغم أنَّه كان قاسيًا على الفنِّ، وخاصَّة الشِّعر، وكان ضعيف الثِّقة في الدور الذي يقوم به الشعراء في مدينته الفاضلة؛ إلاَّ أنَّه يرى أنَّ للشعر رسالة سامية، يجب على الشعراء تحقيقها، وإن لم يفعلوا ذلك، فعندئذ لا قيمة لهم، وشعرهم فاسدٌ لا يُريد سماعه أو إنشاده في مدينته الفاضلة. وهو مع ذلك لم يستطع -ولن يستطيع- أن يُنكر الشِّعر والشعراء إنكارًا تامًّا، "فقد عَرَفَ حياةَ هذا الفنِّ بين اليونان، وعرف آثاره في حياتهم، وولوعهم بإنشاده وتمثيله على خشبات المسرح، كما عرف منه كثيرًا من الشِّعر الصَّالح الذي يُساير أحلامه في عالم المُثُل أو في المدينة السعيدة. ولقد صرَّح أفلاطون في كثير ممَّا كتب باحترامه لشاعر اليونان الأكبر هوميروس الذي كان يُعدُّه منذ حداثته الأمير

---

[1] – ضيف شوقي، في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط9، 2004م، ص15.

[2] – هدَّارة محمد مصطفى، الشِّعر والنقد الأخلاقي، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام الكويتية، مج9، ع3، أكتوبر-نوفمبر، 1978م، ص230-231.

[3] – نجا أشرف محمود، مدخل إلى النقد اليوناني القديم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، دط، دت، ص116.

الأعظم لشعراء المآسي والمراثي. ولكنَّه مع ذلك كان يرى أنَّ من أعظم الخطإ التَّضحية بالحقيقة إكرامًا لإنسان، مهما يكن ذلك الإنسان."[1]

ولـمَّا كانت فلسفة أفلاطون تعتمد أساسًا على بناء الفرد الصَّالح، لتحقيق المجتمع الصَّالح والقويّ، فإنَّنا نجده يُؤكِّد على ضرورة ارتباط الشِّعر بالغايات الأخلاقية، ولذلك رفض قصص الآلهة والأبطال الذين يقومون بتصرُّفات غير أخلاقية؛ وهذا ما يُفسِّر مطالبته وإصراره على وجوب خضوع الشِّعر، وكذلك سائر الفنون للرقابة، حتَّى لا يترك للشاعر أو الفنَّان حريَّة الإبداع، فيضرَّ بالحقيقة الأخلاقية. يقول أفلاطون على لسان سقراط لغلوكون: "ولكن لا تنس أنَّ الشِّعر لا يُباح في الدولة إلاَّ في تسبيح الله ومدح الصَّلاح. أمَّا إذا عزمتَ أن تُبيح تعظيم عرائس الشِّعر الغنائي والقصصي، تحكَّم الألمُ واللَّذة في دولتك عوض تحكُّم الشَّريعة والمبادئ الأكثر انطباقا على حكم الذِّهن "[2]. ويقول أيضًا في الكتاب الثاني من الجمهورية: "أمَّا أخبار الإلهة هيرا التي قيَّدها ابنها بالقيود وكبَّلها بالأغلال، وقصَّة طرد (هيفاستس) من السَّماء لأنَّه حاول إنجاد والدته لـمَّا كان والده يجلدها، وكلُّ حروب الآلهة التي رواها هوميروس، يجب حظرها في دولتنا، سواء صيغتْ في قالب الحقيقة أو في قالب المجاز؛ لأنَّ الطفل لا يُميِّز بين الحقيقة والمجاز، فيطبعُ في عقله ما سمعه في هذا السنِّ، ويرسخُ في نفسه حتَّى يتعسَّر نزعُه، وغالبًا يتعذَّر؛ ولهذه الأسباب أرى أنَّه يجب كلُّ الاحتراس فيما يسمعه الأحداثُ؛ لئلاَّ يكون في صيغة لا تُلائم ترقية الفضيلة."[3]، فأفلاطون يُدرك تمامًا التأثير الشديد للموروث الثقافي، ولاسيما الشعري والقصصي منه في مجال تكوين القيم والمبادئ في نفوس الناشئة، لهذا نجده يفرض الكثير من القوانين والقواعد الكفيلة بكبح جماح الشعراء، وإلزامهم بما يُسهم في تنشئة الأجيال وفق الأهداف المرسومة في الجمهورية، إنَّه ضد نظرية الفنّ.

ومن هذه القواعد التي فرضها أفلاطون أنَّه أعاد النظر في التراث الملحمي اليوناني كلّه، وطعن من غير تردُّد في كثير من شعراء اليونان القدامى، وعلى رأسهم هوميروس وهزيود، ويعتبرهم أعظم رواة القصص الكاذب الذي لا يزال شائعا بين النَّاس. لهذا ألزم الشعراء بألاَّ يُصوِّروا الآلهة على نحو غير لائق بكمالها، فالبشر يقتدون بالآلهة، وإذا صُوِّروا كذلك، فهذا يعني أنَّنا نشجِّع النشء على الرذيلة ونبتعد عن الفضيلة أشواطًا وأشواطًا. ومن القواعد أيضا عدم السماح للشعراء بتصوير عظماء الرجال وهم يبكون أو ينتحبون أو يهيمون على وجوههم، فالرجل العظيم في كلِّ أمة مثل أعلى، يقتدي به الناشئ ويترسَّم خطاه.[4]

ولأنَّ أصحاب جميع الفنون مُطالبون في جمهورية أفلاطون بأن تكون أعمالهم وإبداعاتهم مسايرة لمبادئ المدينة الفاضلة، ومن أهمِّ هذه المبادئ نشر الفضيلة بين النَّاس، وإنكار الرذيلة ومحاربتها، كان من الضروري أن تشملهم رقابة

[1] – طبانة بدوي أحمد، النقد الأدبي عند اليونان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 1986م، ص50.

[2] – أفلاطون، جمهورية أفلاطون، الكتاب العاشر، التقليد وجزاء الفضيلة، ترجمة: حنَّا خبَّاز، مؤسسة هنداوي ، القاهرة، مصر، ط1، 2017م، ص339.

[3] – المرجع نفسه، الكتاب الثاني، المدينة السَّعيدة، ص74.

[4] – يُنظر كامل مجدي، أفلاطون فيلسوف الأزمنة والعصور، دار الكتاب العربي، دمشق والقاهرة، سوريا ومصر، ط1، 2016م، ص182.

مؤسِّسي هذه الدولة وحكَّامها، فيقول في ذلك: "وإذا الحال هكذا، أفنحصر أنفسنا في مراقبة شعرائنا، فنوجب عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخُلُق الحميد وإلاَّ فلا ينظموا؟ أو نوسِّع نطاق مراقبتنا فتشمل أساتذة كلِّ فنٍّ، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الوهن والفساد والسَّفالة والسَّماجة، سواء في ذلك رسوم المخلوفات الحيَّة، أو الأبنية، أو أي نوع آخر من المصنوعات، ومَن لا يستطيع غير ذلك فننهاه عن العمل في مدينتنا."[1]

أمَّا النظرية الثانية لأفلاطون فهي نظرية الإلهام الشعري، التي استفادها من أستاذه سقراط-كما ذكرنا سابقًا- ولكنَّ "شذرات هذه النظرية نجدها عند هوميروس وهيراقليطس، فلقد استجدى هوميروس في بداية الإلياذة ربَّات الشِّعر أن تتعمَّق عليه بالإلهام، كما تحدَّث هيراقليطس فيلسوف التغيُّر اليوناني والذي كان يتمتَّع بعبقرية الشاعر عن نفسه قائلاً: إنَّني كالعرَّافات اللَّواتي يصدرن في كلامهنَّ عن وحي وإلهام، وتردِّد أصواتهنَّ حقائق إلهية على مرِّ العصور. إلاَّ أنَّ أفلاطون يُعدُّ هو المسؤول تاريخيًّا عن هذه النظرية، وإليه تُنسَبُ."[2]

وفي الحقيقة هذه الفكرة مستوحاة من المعتقد الدِّيني السَّائد آنذاك عند اليونانيين؛ فقد "كان اليونانيُّون يرون أنَّ للفنون ربَّات، ذلك أنَّ الأسطورة اليونانية تروي أنَّه كان لكبير الآلهة (زيوس) القابع على جبل الأولمب تسع بنات، هنَّ ربَّات الفنون، وكلُّ ربَّة من هذه الرَّبَّات تختصُّ برعاية فنٍّ من الفنون، فللشعر ربَّة، وللخطابة ربَّة، وللدراما ربَّة، وللكوميديا ربَّة، وهكذا. وكانت مدرسة أفلاطون تحتفل بعيد هذه الرَّبَّات كلَّ عام، ويقوم تلاميذ المدرسة في الأكاديمية بطقوس شبه دينية موجَّهة إلى الرَّبَّات."[3]

أمَّا عن مضمون نظرية الإلهام أو العبقرية، كما يُسمِّيها بعض المفكِّرين، فنجد أنَّ أفلاطون قد سلب الشاعر كلَّ مقوِّمات العملية الشعرية من شعور وإحساس، وإبداع وابتكار، وصياغة وتنظيم، وجعل الشاعر مجرَّد واسطة أو أداة توصيل لا تأثير لها في العمل الشعري، "فنظرية الإلهام أو العبقرية تُفسِّر ميلاد العمل الفنِّي، أو عملية الخلق الفنِّي بإرجاعها إلى الوحي أو الإلهام، فالفنَّان يستلهم عمله الفنِّي لا من عقل واعٍ أو شعور ظاهر أو مجتمع معيَّن أو تاريخ فنٍّ سابق أو حتَّى لا شعور دفين، وإنَّما هو يستلهم هذا من قوَّة إلهية عليا، أو من وحي سماوي خارق، أو من هواجس سحرية غيبية، أو حتَّى من شياطين خفيَّة."[4]

فمبعث الشعر عند أفلاطون هو إذن وحي وإلهام من ربَّة الشعر، وليس عن شعور وبراعة وإبداع من الشاعر. وهذا ما قاله لـ(إيون) في معرض حديثه عن الشعراء: "إنَّهم مُلهَمون بكلِّ بساطة ليتكلَّموا ذلك الذي تحملهم على التكلُّم به إلهة الشِّعر، وذلك فقط. وعندما يُلهمون ينظم واحدهم قصائد مليئة بالحماسة والعواطف الجيَّاشة، وينظم آخر تراتيل ثناء.إنَّ الشاعر لا يُغنِّي بفنٍّ، بل بقوَّة إلهيَّة.ولذلك يسلب الله العقل من الشعراء، ويستخدمهم كممثِّليه، كما يستخدم

[1] – أفلاطون، جمهورية أفلاطون، الكتاب الثالث، دستور المدينة، ص104.

[2] – محمَّد علي عبد المعطي، فلسفة الفنِّ (رؤية جديدة)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص24.

[3] – أبو ريَّان محمد علي، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط8، 1989م، ص9.

[4] – محمَّد علي عبد المعطي، المرجع السابق، ص24.

أيضًا وسطاء الوحي والأنبياء الأتقياء، ليكون بمقدورنا نحن الذين نسمعهم أن نعرف أنَّهم لا يتكلَّمون عن أنفسهم، بل إنَّ الله ذاته هو المتكلِّم، وإنَّه يُخاطبنا من خلالهم."[1]

ولأنَّ الشعر عند أفلاطون إلهام ووحي، فهو بعيد كلَّ البعد عن العقل والإدراك، ممَّا يجعله بالضرورة متحرِّرًا من كل القواعد المعرفية، وهو بذلك يتنافى ويتعارض تلقائيًّا مع الاتجاه العلمي التجريبي الذي اهتمَّ به أفلاطون في جمهوريته، ولن يجني من هذا الشعر إلاَّ الفساد والشرَّ، وسيكون له الأثر السيِّء والسَّلبي في نفوس أفراد المدينة الفاضلة. وهؤلاء الشعراء لا يملكون ناصية ما يقولون، ولا يعقلونه أصْلاً، لذلك لا يستطيع أفلاطون الوثوق بهم في تنشئة وتهذيب الأجيال الصَّاعدة، ولا يعتبرهم بسبب ذلك مُوجِّهين للسلوك القويم، أو مُرشدين للخلق الكريم. ويستثني وفق هذه الدلالة الأخلاقية-نسبيًّا- "الشعر الغنائي، لأنَّه يُشيد مباشرة بأمجاد الأبطال، يلي ذلك شعر الملاحم، لأنَّ النقائض المصوِّرة فيه لا تؤثِّر في مصير البطل، ولا تقلّل كثيرًا من إعجابنا به بوصفه بطلا، ويأتي بعد ذلك المآسي ثم الملهاة، فهما أسوأ نماذج الشعر لمساسهما المباشر بالخلق. وهذه النظرة العملية هي التي جعلت أفلاطون يُرحِّب في جمهوريته بالشعراء الغنائيين الذين يُمجِّدون الأبطال والقدوات الصالحة. فبعد أن طردهم من الجمهورية باسم المبادئ العامة النظرية الميتافيزيقية والخلقية والعلمية، عاد فأدخلهم من باب آخر، هو التغنِّي بالفضائل وأصحابها."[2]

ولم يختلف أرسطو عن أستاذه أفلاطون في تأكيده لأهمية الفنون الجميلة -وخاصة الشعر- في التربية والتوجيه ونشر الفضيلة والقيم النبيلة في المجتمع، إلاَّ أنَّه قد اختلف معه في المنهج وبعض المفاهيم، ومن ذلك اختلاف مفهوم المحاكاة عند أرسطو عن مفهومها عند أفلاطون؛ فهي ليست تقليدًا للواقع الذي هو تقليدٌ لما يوجد في عالم المُثُل، وهي ليست محاكاة لظواهر الأشياء، بل محاكاة للأفعال والأخلاق، أي لأمور باطنة، وهي ليست محاكاة ظلال وانعكاسات لأفكار صانع أو فنان، بل محاكاة جوهرية لأفعال الناس وانفعالاتهم.

وإذا كان الشاعر يُحاكي أفعال الناس وأعمالهم، وأفعال النَّاس لا تعدو أن تكون أفعالاً صالحة نافعة، داعية للخير، أو تكون أفعالاً سيِّئة ضارَّة، جالبة للشرِّ، والشعراء إمَّا أنَّهم يُحاكون الأفعال الصالحة الخيِّرة، فيكون شعرهم أسمى من الطبيعة الإنسانية؛ لأنَّه يُصوِّر أفعال الناس بصورة أحسن ممَّا هي عليه في الواقع، كما هو الحال في التراجيديا، وإمَّا أن يُحاكوا الأفعال السيئة الشرِّيرة فيكون شعرهم عندئذ دون الطبيعة الإنسانية، كما هو في الكوميديا، "وفي ذلك يقول أرسطو إنَّ الذين يُحدثون المحاكاة إنَّما يُحاكون أناسًا يعملون، أي أنَّهم يُحاكون الأفعال، أفعال الأخيار وأفعال الأشرار، لأنَّ الأخلاق تخضع غالبًا لهذين القسمين، والفضيلة والرذيلة هما اللَّتان تميِّزان الأخلاق كلَّها."[3] وتبعًا لذلك يُقسِّم أرسطو الشِّعر على أساس أخلاقي، وذلك وفق طبيعة الشعراء؛ فيرى أنَّ الشعر اتَّجه اتِّجاهين وفقًا لطباع كلِّ شاعر من الشعراء، "فذوو الطِّباع الجدِّية الرزينة حاكوا الأفعال النبيلة وأعمال الأشخاص الأفاضل، بينما حاكى أصحاب الطِّباع

[1] - أفلاطون، المحاورات الكاملة، محاورة إيون، مج3، ص20.

[2] - هلال محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، ص33-34.

[3] - طبانة بدوي أحمد، النقد الأدبي عند اليونان، ص71-72.

المتَّضعة أو العادية أفعال الأردياء، فأنشأوا الأهاجي في البداية، في حين أنشأ ذوو الطِّباع الجدِّية الترانيم للآلهة والمدائح لمشهوري الرِّجال."[1]

والمحاكاة عند أرسطو ليس معناها المطابقة بين الأصل والصورة التي تُحاكيها، وإنَّما الفنَّان أو الشاعر يتناولها تناولاً ينأى بها عن الأصل، ولكن دون الابتعاد عن الحقيقة، والدخول في دائرة المستحيل، وهو ما جعل أرسطو يحثُّ ويُؤكِّد على الشاعر أن يبتعد قدر المستطاع عن وصف أمر مستحيل، وأن يتحرَّى دائمًا الحقيقة، بأن يُحاكي الأشياء وفق طُرق المحاكاة الممكنة، فيقول في كتابه فن الشِّعر، في فصل (مشكلات نقدية وحلولها): "لمَّا كان الشاعر محاكيًا-شأنه في ذلك شأن المصوِّر أو أيِّ مُحاكٍ آخر- فإنَّه يجب عليه -بالضرورة- أن يسلك في محاكاة الأشياء إحدى هذه الطرق الممكنة الثلاث:

أ) أن يُحاكي الأشياء كما كانت، أو تكون.

ب) أو كما يُحكى عنها، أو يُظنُّ أن تكون.

ج) أو كما يجب أن تكون."[2]

وفي الفصل نفسه، يُبيِّن أرسطو الأمور التي تستوجب وتُنشئ الاعتراضات النقدية، ويدعو الشعراء إلى تحاشيها وتجنُّبها، والتي من أبرزها الابتعاد عن الحقيقة، والإضرار بالأخلاق، فيقول: "وهكذا، فإنَّ المصادر التي تنشأ عنها الاعتراضات النقدية خمسة، والأمور تُنقَد إمَّا لأنَّها:

أ) مستحيلة.

ب) أو غير معقولة.

ج) أو مضرَّة بالأخلاق.

د) أو متناقضة.

هـ) أو خارجة على أصول الفنِّ."[3]

كما أنَّ حديثه عن نظرية التَّطهير التي كانت واضحة في معالجته للتراجيديا، يُعتبر حديثًا أخلاقيًّا محضًا، حيث يتحقَّق النَّفع الخلقي في توجيه تلك الانفعالات التي تُثيرها المأساة توجيهًا خلقيًّا يُقوِّم السلوك، ويُعدِّل توجُّهات العواطف إلى ما يصلحها، لأنَّ التراجيديا كما يقول أرسطو: "هي محاكاة لفعل جادٍّ، تامٍّ في ذاته، له طول معيّن، في لغة ممتعة؛ لأنَّها مشفوعة بكلِّ نوع من أنواع التزيُّن الفنِّي، كلُّ نوع منها يُمكن أن يَرِدَ على انفراد في أجزاء المسرحية، وتتمُّ هذه المحاكاة في شكل درامي، لا في شكل سرديّ، وبأحداث تُثير الشفقة والخوف، وبذلك يحدث التَّطهير."[4]

---

[1] - أرسطو طاليس، فن الشعر، ترجمة: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، دط، 1983م، ص80.

[2] - المرجع نفسه، ص215.

[3] - نفسه، ص221.

[4] - نفسه، ص95.

وما يُمكن أن نفهمه من هذا النصِّ أنَّ التَّطهير عند أرسطو يُساهم بشكل كبير في إحداث التوازن الأخلاقي عند الإنسان، "ففكرة التَّطهير تعاون الإنسان على البلوغ إلى نقطة (الوسيط)، التي هي مرادفة للفضيلة عنده، وبذلك يكون الشِّعر ممتعًا أخلاقيًّا. كما تظهر الصِّلة الخلقية فيما ينصُّ عليه أرسطو من أنَّ المأساة محاكاة لأعمال أبطال خيِّرين في الغالب."[1]، وتأسيسًا على هذا الكلام، فإنَّ الشِّعر عند أرسطو يقوم بوظيفة أخلاقية هامَّة على المستويين الفردي والجماعي. بخلاف ما كان يراه أفلاطون من أنَّه مُفسد لأخلاق الفرد ومضرٌّ بالمجتمع. وما نفهمه أيضًا أنَّ أرسطو كان مهتمًّا بالجانب الأخلاقي في تقويمه للعمل الفنِّي، ولكنَّه في الوقت نفسه أظهر اهتمامًا بارزًا بالعناصر الجمالية والفنِّية في العمل الفنِّي. وهذا ما تُؤكِّده أميرة مطر بقولها: "ومع أنَّ أرسطو لم يستبعد الأثر الأخلاقي، فإنَّه مع ذلك قد استطاع لأوَّل مرَّة أن يُفرِّق بين النقد الأخلاقي الذي يُوظِّف الفنَّ لخدمة الغايات الأخلاقية والتأمُّل الفلسفي، وبين النقد الجمالي، الذي يُقيِّم الفنَّ بما يُحقِّقه من إشباع للبهجة الجمالية."[2]

وما يُمكن أن نستخلصه إجمالا هو أنَّ فلاسفة اليونان قد أكَّدوا على وظيفة الشِّعر الاجتماعية والأخلاقية والتعليمية والتربوية-وإن اختلفت الكيفية بينهم- متأثِّرين في ذلك بالطابع الدِّيني والفلسفي الذي كان سائدًا آنذاك، في اليونان، والتي على أساسها تأثَّر النقد بها، فجاء النقد موجِّهًا الشعر نحو هذه الغايات الدّينية والأخلاقية والاجتماعية. وإن ظهر عند بعضهم اهتمام أيضًا بالجانب الجمالي والفنِّي كما رأيناه عند أرسطو.

2- وظيفة الشّعر عند فلاسفة المسلمين:

أمَّا إذا انتقلنا بالحديث إلى فلاسفة المسلمين، فالأمر لا يختلف كثيرًا عمَّا رأيناه عند فلاسفة اليونان وخاصة أرسطو؛ وذلك لتأثُّرهم الكبير به؛ حيث بدا هذا التأثُّر واضحًا على فلاسفة المسلمين أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد، وخاصة بعد أن قام بشر بن متَّى بترجمة كتاب(فنّ الشعر) لأرسطو، ومن ذلك الوقت توالت التلخيصات والترجمات لهذا الكتاب، فقد قام بتلخيصه الفارابي، ثم قام بترجمته مرة أخرى ابن سينا وابن رشد، ومن ثَمَّ بدأت نظرية أرسطو في الشعر تجد صداها في نقد الشعر العربي، مع أنَّ هؤلاء الفلاسفة لم يخصِّصوا كتابات مستقلة بعينها للشعر أو للنقد.

أمَّا عن رؤيتهم لمهمَّة الشعر وقيمته، فلا نجد اختلافًا بينهم من أنَّ الشعر نافع وممتع معًا. ويبدو هذا واضحًا عند الفارابي الذي يقول صراحة أنَّ الشّعر يُستعمل في أمور الجدّ وأمور اللّعب، حيث يقول: "والأقاويل الشعرية منها ما يُستعمل في الأمور التي هي جدٌّ، ومنها ما شأنها أن تُستعمل في أصناف اللعب. وأمور الجدّ التي هي جميع الأشياء النافعة في الوصول إلى أكمل المقصودات الإنسانية. وذلك هو السعادة القصوى."[3]

---

[1] - عباس إحسان، فنُّ الشِّعر، دار الشروق ودار صادر، عمَّان وبيروت، الأردن ولبنان، ط2، 2011م، ص140.

[2] - مطر أميرة حلمي، فلسفة الجمال، أعلامها ومذاهبها، ص79.

[3] - الفارابي أبو نصر محمد بن طرخان، كتاب الموسيقى الكبير، تح: غطاس عبد الملك خشبة، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، دط، 1967م، ص1184.

ويبدو لنا جليًّا تأثُّر الفارابي بأفلاطون، حيث يُفضِّل العمل الفنِّي الذى يُستعمل فى أمور الجدِّ، من أجل الوصول إلى أكمل المقصودات الإنسانية، ألا وهي السعادة. ويضعه فوق العمل الذى يكون مقصودًا لذاته، وبتعبيره: (اللعب) أو تحقيق المتعة الحسّية التي لا تهدف إلى غاية نافعة أو تقدِّم موقفا أخلاقيًّا، إلا أنَّه لا يُنكر الشّعر الذى جوهره اللعب أو الذي لا يُؤدِّي إلى مقصد خيّر. أي أنَّ الفارابي يُمايز بين نوعين من الشعر: الشعر الذى يدعو إلى الفضيلة ويُؤدِّي إلى السعادة، أي الشعر الذى يدعو إلى الخير والمنفعة، والشعر الذي يمتِّع وإن كان غير مفيد. وعلى أساسه تتحدَّد وظيفة الشّعر، فإمَّا الجدُّ المؤدي إلى الفائدة والنَّفع والتأثير في سلوك المتلقِّي بقصد توجيه أفعاله، وإمَّا اللعب المفضي إلى الشعور باللّذة والمتعة فحسب.

ولا يختلف ابن سينا عن الفارابي في رؤيته لمهمَّة الشِّعر الأساسية، وهي تحقيق وأداء هاتين الوظيفتين: اللذة والفائدة، ولكنَّه يفصل بينهما فصلاً تامًّا، فيقول: "والشعر قد يقال للتَّعجيب وحده، وقد يقال للأغراض المدنية"[1]. وتُوضِّح ألفت كمال الروبي المقصد من مقولة ابن سينا، قائلة: "ويُفيد التَّعجيب أو العجب معنى الدَّهشة واللذة المترتبة على الإثارة التي يُحدثها الشِّعر في نفس المتلقِّي، وقد يُفيد هذا عند الفارابي معنى اللعب أو اللذة التي ليس وراءها منفعة ما، أمَّا الأغراض المدنية التي يُستخدم فيها الشِّعر عند ابن سينا فهي تُشير إلى الغاية التربوية والأخلاقية والاجتماعية للشِّعر، أي أمور الجدّ عند الفارابي."[2]

ويبدو أنَّ الفلاسفة المسلمين حريصون على أن تتَّحد القيمة الجمالية مع القيمة الأخلاقية في العمل الشعري، ويظهر هذا بوضوح عند ابن رشد، فهو يقول: "ومن الشعراء مَن يُدخل في المدائح أشياء يقصد بها التعجب فقط من غير أن تكون مخيفة أو محزنة.. وهذا الفعل ليس فيه مشاركة لصناعة المديح بوجه من الوجوه؛ وذلك أنّه ليس يقصد من صناعة الشعر أيّ لذّة اتّفقت، لكن إنَّما يقصد بها حصول الالتذاذ بتخييل الفضائل، وهي اللذة المناسبة لصناعة المديح"[3]. وهذا ما بيَّنته الدكتورة ألفت الروبي بشكل واضح ومبسَّط، وهي تقارن بين ابن رشد وابن سينا في مسألة (اللذة) في الشعر، فتقول: "ولا يختلف ابن رشد عن ابن سينا، بل يبدو أكثر تشدُّدًا، فاللّذة عنده ليست أيَّ لذة اتّفقت، وإنَّما هي لذّة ذات محتوى أخلاقي، لأنَّها لابدَّ من أن تقترن بتخييل الفضائل، فتلك هي التي تناسب صناعة المديح. ومن ثَمَّ يستنكر ابن رشد أن يدخل الشعراء أشياء في مدائحهم لمجرَّد الالتذاذ بها أو التعجب فقط دون أن تكون هذه المدائح مثيرة لانفعاليْ الخوف والحزن."[4]

---

[1] – ابن سينا أبو علي الحسين، فنُّ الشعر من كتاب الشفاء، تح: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1953م، ص162.

[2] – الروبي ألفت كمال، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتّى ابن رشد، دار التنوير، بيروت، لبنان، دط، 2007م، ص129.

[3] – ابن رشد أبو الوليد محمد بن أحمد، تلخيص كتاب الشعر، تح: تشارلس بترورث وأحمد عبد المجيد هريدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دط، 1986م، ص87.

[4] – الروبي ألفت كمال، المرجع السابق، ص132.

والجدير بالذّكر في هذا المقام هو التأكيد على أنَّ حِرصَ فلاسفتنا على جدِّية الفنِّ عموما والشعر خصوصًا، جعلهم ينظرون إلى اللذة أو المتعة التي يحدثها الشعر، على أنها لذة هادفة (ذات طابع أخلاقي) إلى تحقيق الرَّاحة النفسية التي تمكِّن الإنسان من عيش حياته بشكل أفضل، ويستطيع بذلك أن يسعى بثبات وقوة نحو تحقيق سعادته القصوى المنشودة.

أمَّا المقصود من الفائدة من الشِّعر عند فلاسفة المسلمين، فهو تحقيق الشِّعر لهدفين أساسيين، الأوَّل: هدف تعليمي بحت، والثاني: هدف تربوي أخلاقي. "فكما يُفيد الشّعر في تعليم الجمهور والنشء المعارف النظرية، فإنّه يُسهم أيضًا في تأديبهم وتهذيبهم ليرتقي بهم إلى الحال الأفضل، وذلك بغرس الفضائل والصناعات العملية فيهم حتَّى يُؤدُّوا أفعالها التي تقودهم إلى أن يُصبحوا أفرادًا نافعين في المجتمع الفاضل، فالشعر يُساعد العامة على أن يرتقوا بإنسانيتهم إلى الحال الأفضل لما له من تأثير مباشر على السلوك الإنساني والأخلاقي."[1]

وقد جعل المعلِّم الثاني (الفارابي) للشِّعر في مدينته الفاضلة دورًا مؤثِّرًا، فهو ينفع في التعليم والتأديب، "ذلك أنَّه إذا كان قد تبيَّن أنَّ التعليم والتأديب هما وسيلتا المعلّم أو المرشد أو الفيلسوف لإيجاد الأمور الجزئية في المدن، فإنَّ الشعر يقوم عن طريق التخييل والمحاكاة بدوره في تعليم أهل المدن من ناحية، وتأديبهم من ناحية أخرى."[2]

وفي نصٍّ آخر للفارابي–وإن كان طويلا– فإنَّنا نأتي به لنقف وبوضوح تامٍّ على هذا الدور التربوي الأخلاقي للشِّعر، يتحدَّث فيه الفارابي عن الغايات المحمودة المرجوة من الشِّعر بكونه تخييلا، ويُحذِّر في الوقت نفسه من غاياته المذمومة، والتي تُسيء بشكل مباشر إلى أخلاق العامة، فيقول: "الأشعار كلُّها أُستُخرجت ليجوّد بها تخييل الشيء، وهي ستَّة أصناف: ثلاثة منها محمودة وثلاثة مذمومة. فالثلاثة المحمودة أحدها الذي يُقصد به إلى إصلاح القوَّة الناطقة، وأن تُسدَّد أفعالها وفكرها نحو السعادة، وتخييل الأمور الإلهيَّة والخيرات وجودة تخييل الفضائل وتحسينها وتفخيمها. وتقبيح الشرور والنقائص وتخسيسها. والثاني الذي يُقصد به إلى ما يُصلح ويُعدِّل العوارض المنسوبة إلى القوَّة من عوارض النَّفس، ويُكسر منها إلى أن تصير إلى الاعتدال وتنحطَّ عن الإفراط. وهذه العوارض هي مثل الغضب وعزَّة النَّفس والقسوة والنَّخوة والقحة ومحبَّة الكرامة والغلبة والشَّره وأشباه ذلك، ويُسدّد أصحابها نحو استعمالها في الخيرات دون الشرور. والثالث الذي يُقصد به إلى يُصلح ويُعدِّل العوارض المنسوبة إلى الضعف واللِّين من عوارض النَّفس وهي الشهوات واللَّذات الخسيسة ورقَّة النَّفس ورخاوتها والرحمة والخوف والجزع والغمِّ والحياء والترفُّه واللِّين وأشباه ذلك، ليُكسر ويحطَّ من إفراطها إلى أن تصير إلى الاعتدال، ويُسدّد نحو استعمالها في الخيرات دون الشرور. والثلاثة المذمومة هي المضادّة للثلاثة المحمودة، فإنَّ هذه تُفسد كلَّ ما تُصلحه تلك وتُخرجه عن الاعتدال إلى الإفراط."[3]

---

[1] – الروبي ألفت كمال، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، ص137.

[2] – المرجع نفسه، ص134.

[3] – الفارابي أبو نصر محمد بن طرخان، فصول منتزعة، تح: فوزي مِتري نجَّار، منشورات المكتبة الزهراء، طهران، إيران، ط2، 1405هـ، ص64-65.

فالفارابي يُحدِّد في هذا النصِّ الغايات المحمودة والنافعة للشعر، والتي من شأنها تكوين الإنسان الفاضل، وينبذ في نفس الوقت الغايات المذمومة، والتي من شأنها إلحاق الضرر والشرِّ بالإنسان الفاضل، إن أردنا له أن يكون فاضلاً. "وهكذا تتحدَّد غاية الشِّعر الأخلاقية التربوية عند الفارابي، فيُصبح له دور مباشر في تقويم الجانب العملي الأخلاقي الذي يهدف في النهاية إلى الخير. وهذه النظرة هي التي دفعت الفارابي إلى رفض الشِّعر الذي يُنافي مضمونه وغاياته ذلك المضمون وتلك الغايات التي حدَّدها، فهو يرفض الشعر الذي يُثير الغرائز والانفعالات التي تضرُّ به، فيُقدم الإنسان على فعل القبيح وينحرف عن طريق الجادَّة."[1]، ولعلَّ هذا ما يُفسِّر لنا اهتمام الفارابي بالشّعر والشعراء، وإنزالهم منزلة لائقة بهم في مدينته الفاضلة، عكس ما فعله أفلاطون، حيث طردهم، وشنَّع بهم، ولم يُبق منهم إلاَّ القليل، أمَّا الفارابي فقد جعلهم في المرتبة الثانية، وأناط بهم دورًا كبيرًا في تربية وتهذيب العامة، وهم سواء مع حملة الدِّين، يقول الفارابي: "المدينة الفاضلة أجزاؤها خمسة: الأفاضل، وذوو الألسنة، والمقدّرون، والمجاهدون، والماليُّون. فالأفاضل هم الحكماء والمتعقّلون وذوو الآراء في الأمور العظام. ثمَّ حملة الدِّين وذوو الألسنة وهم الخطباء والبلغاء والشعراء والملحّنون والكُتّاب ومن يجري مجراهم وكان في عِدادهم."[2]

ويتَّفق ابن سينا وابن رشد حول غاية الشعر، والتي هي الحثُّ على عمل بعض الأفعال أو الرَّدع عن بعضها، وهذا ما يتحقَّق –بالنسبة إليهما– في الشعر اليوناني، يقول ابن سينا: "وأمَّا اليونانيون فكانوا يقصدون أن يحثوا بالقول على فعل أو يردعوا بالقول عن فعل. وتارة كانوا يفعلون ذلك على سبيل الخطابة، وتارة على سبيل الشعر."[3]، ويقول ابن رشد: "وأمَّا اليونانيون فلم يكونوا يقولون أكثر ذلك شعرًا إلاَّ وهو مُوجَّهٌ نحو الحثّ على الفضيلة أو الكفّ عن الرذيلة، أو ما يُفيد أدبًا من الآداب أو معرفة من المعارف."[4]، فابن سينا وابن رشد كلاهما اهتمَّ بالجانب التربوي والأخلاقي في تأثير الشّعر في نفسية المتلقّي، ووجدا هذا الأثر بارزًا في الشّعر اليوناني، لأنَّه شعرٌ موضوعي هادفٌ، فالشعر اليوناني يحثُّ على الفعل الخلقي الحسن ويمجده. ويُنفِّر من الفعل القبيح ويُحقّره. وهذا ما يفتقر إليه الشعر العربي، فهو شعر يصف الأشياء والذوات والانفعالات، فهو شعر وجداني عاطفي، يقول ابن سينا: "وأمَّا الذوات فلم يكونوا (يقصد اليونانيين) يشتغلون بمحاكاتها أصلاً كاشتغال العرب، فإنَّ العرب كانت تقول الشّعر لوجهين: أحدهما ليؤثّر في النَّفس أمرًا من الأمور تعد به نحو فعل أو انفعال؛ والثاني للعُجب فقط، فكانت تُشبِّه كلَّ شيء لتُعجَب بحُسن التشبيه."[5]، فالشاعر العربي يُصوِّر ويتحدَّث عن هوى نفسه، ومشاعر ذاته، واضطرابات هواجسه، فهو يتقلَّب بشعره ما بين مادح وهاجٍ،

[1] – الروبي ألفت كمال، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، ص140.

[2] – الفارابي، فصول منتزعة، ص65.

[3] – ابن سينا، فنُّ الشعر من كتاب الشفاء، ص170.

[4] – ابن رشد، تلخيص كتاب الشعر، ص61.

[5] – ابن سينا، المرجع السابق، ص170

وهذا الرأي ذهب إليه الفارابي أيضا فيما يذكر ابن رشد: "وإنْ كانت أكثر أشعار العرب إنَّما هي كما يقول أبو نصر في النَّهم والكُدية."[1]

وبناءً على ذلك هاجم ابن رشد الشعر الجاهلي لأنَّه في أغلبه يُعبّر عن الأهواء واللّذات والرغبات والتكسُّب بالمدح، وخاصة النَّسيب الذي يراه مُروقًا عن القيم، ودعوة للانحلال الخلقي، قال ابن رشد: "وذلك أنَّ النوع الذي يُسمُّونه النَّسيب إنَّما هو حثٌّ على الفسوق، لذلك ينبغي أن يتجنَّبه الوِلْدَانُ."[2]

ومع ذلك فهو يُقرُّ بوجود قدر–ولو ضئيل نسبيًّا– من صور الفضائل في الشّعر الجاهلي، فهو يُقرُّ بما له من نماذج، وهي التي تُعبِّر عن الكرم والشجاعة، وهذا النوع من الشّعر هو الذي ينبغي أن نهذّب به الأطفال ونؤدّبهم فقال: "ويُؤدَّبون من أشعارهم بما يحثُّ فيهم على الشجاعة والكرم فإنَّه ليس تحثُّ العرب في أشعارهم من الفضائل على شيء سوى هاتين الفضيلتين وإن كانت ليس تتكلَّم فيهما على طريق الحثِّ عليهما، وإنَّما تتكلَّم فيهما على طريق الفخر."[3]

هذا هو رأي أبرز فلاسفة المسلمين –الفارابي وابن سينا وابن رشد– في مهمَّة الشعر وعلاقته بالأخلاق، فالغاية من الشعر في نظرهم تتحدَّد في ثلاثة أغراض، يُمكن اختصارها في الآتي:

1– لغرض اللذة والمتعة واللهو: والتي يجب أن تكون في إطار المباح –كما أكَّدوا على ذلك– أو ذا صبغة أخلاقية، القصد منها إعادة الحيوية والنشاط والطاقة للبدن والنَّفس المُجهَدَين بمشاقّ الحياة الكثيرة.

2– لغرض التعليم: فالشعر يُساعد على توضيح وتقريب المعارف النظرية، ويُسهِّل فهمها واستيعابها.

3– لغرض التربية الأخلاقية: فالشعر مُناط به أن يقوم بدور تربوي أخلاقي قصد الوصول بالإنسان إلى الفضيلة والكمال والسعادة المنشودة.

فإذا كان فلاسفة اليونان والمسلمين يُؤكِّدون على المهمة التربوية والأخلاقية والاجتماعية للشعر، فما موقف نقدة الشعر والمشتغلين به من العرب القدامى من علاقة الشعر بالأخلاق؟

3– الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم:

اختلفت الآراء والمناهج المتَّبعة في تاريخ النقد العربي القديم عبر مراحله المتعاقبة؛ نظرًا لاختلاف المدارس الفكريّة والأدبية والدينيّة التي تخرَّج منها النقاد العرب، والدَّارس للموروث النقدي العربي يظهر له جليًّا بروز الاتجاه الأخلاقي في النقد منذ إرهاصاته الأولى، بدءًا بالعصر الجاهلي، ثمَّ عصر صدر الإسلام، والذي يُعتبر العصر الذهبي لهذا الاتجاه النقدي، انطلاقًا من مواقف القرآن الكريم ومواقف الرسول ﷺ من الشعر.

---

[1] – ابن رشد، تلخيص كتاب الشعر، ص61.

[2] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3] – نفسه، والصفحة نفسها.

ولكن في العصور التي تلت عصر صدر الإسلام، تباينت واختلفت آراء النقاد حول مسألة ارتباط الشعر بالأخلاق، واعتبار الأخلاق والدِّين كمعيار مهمٍّ يُنظر إليه في الحكم على الشاعر وتقييم شعره، وكانوا بين مُؤيِّد ورافض ومتأرجح بينهما. ففرقة تقبل من الشعر ما يتَّفق وتعاليم الإسلام والخلق القويم، بغضِّ النظر عن قيمته الفنّية إذا لم تتحقَّق، وشعار هذه الفرقة:(أحسن الشِّعر أصدقه)، وهم أصحاب الاتجاه الأخلاقي. وفريق يرى أنَّ الدّين والخلق ليس مقياسًا ومعيارًا على شاعرية الشاعر وقيمة شعره، وشعار هذه الفرقة:(أعذب الشّعر أكذبه)، و(الدِّين بمعزل عن الشّعر)، وهم أصحاب الاتجاه الفنِّي والجمالي، وفرقة ثالثة تأرجحت مواقفها ما بين الموقفين السابقين؛ حيث ترى نظريًّا رؤية الفرقة الثانية، وعند التطبيق تميل إلى رؤية الفرقة الأولى.

هذا موقف النقاد العرب القدامى من علاقة الشّعر بالأخلاق بإيجاز، أمَّا التفصيل والتحليل فسوف نراه – بمشيئة الله– في مظانِّه في ثنايا مباحث هذه الأطروحة.

البـاب الأول

النقد الأخلاقي

في الشعر العربي

الأصـول والامتـدادات

الفصـــل الأول

النقد الأخـلاقــي

فـي العصر الجاهلـي

1- الالتزام الخلقي في الشعر الجاهلي:

إنَّ المتصفِّح لديوان العرب في الجاهلية، يُدرك بأنَّ المجتمع الجاهلي كان على قدر كبير من الفضائل والسجايا الحميدة، اتَّصف بها العرب وتفاخروا بها. وقد رصد لنا ابن طباطبا أخلاق العرب في كتابه (عيار الشعر) في باب (المُثل الأخلاقية عند العرب وبناء المدح والهجاء عليها)، فيقول في ذلك: "وأمَّا ما وجدتْهُ في أخلاقها ومدحَتْ به سواها، وذمَّت من كان على ضدِّ حاله فيه فخِلال مشهورة كثيرة: منها في الخَلْق: الجمال والبسطة. ومنها في الخُلُق: السَّخاء والشجاعة، والحلم والحزم والعزم، والوفاء، والعفاف، والبرّ، والعقل، والأمانة، والقناعة، والغيرة، والصدق، والصبر، والورع، والشكر، والمداراة، والعفو، والعدل والإحسان، وصلة الرحم، وكتم السرِّ، والموانة، وأصالة الرأي، والأنفة، والدهاء، وعلو الهمَّة، والتواضع، والبيان، والبِشْر، والجَلَد، والتَّجارب، والنقض والإبرام"[1]

وبعد ذلك يذكر ما يتفرَّع من هذه الخِلال فيقول: "وما يتفرَّع من هذه الخِلال التي ذكرناها من: قرى الأضياف، وإعطاء العُفاة، وحمل المغارم، وقمع الأعداء، وكظم الغيظ، وفهم الأمور، ورعاية العهد، والفكرة في العواقب، والجدّ، والتشمير، وقمع الشَّهوات، والإيثار على النفس، وحفظ الودائع، والمجازاة، ووضع الأشياء مواضعها، والذبّ عن الحريم، واجتلاب المحبة، والتنزُّه عن الكذب، واطراح الحرص، وادِّخار المحامد والأجر، والاحتراز من العدوِّ، وسيادة العشيرة، واجتناب الحسد والنِّكاية في الأعداء، وبلوغ الغايات، والاستكثار من الصِّدق، والقيام بالذِّية، وكبت الحساد، والإسراف في الخير، واستدامة النِّعمة، وإصلاح كل فاسد، واعتقاد المنن، واستعباد الأحرار بها، وإيناس النافر، والإقدام على بصيرة، وحفظ الجار"[2]. ثم يستعرض بعد ذلك أضداد هذه الخِلال، فيقول:"وأضداد هذه الخِلال: البخل، والجبن، والطيش، والجهل، والغدر، والاغترار، والفشل، والفجور، والعقوق، والخيانة، والحرص والمهانة، والكذب، والهلع، وسوء الخلق، ولؤم الظفر، والخَور، والإساءة، وقطيعة الرَّحم، والنَّميمة، والخلاف، والدَّناءة، والغفلة، والحسد، والبغي، والكِبر، والعبوس، والإضاعة، والقبح، والدمامة، والقماءة، والابتذال، والخرفُ والعجز، والعِيّ"[3]

فالشاعر الجاهلي قد عبَّر عن أخلاقه وأخلاق مجتمعه تعبيرًا صادقًا حيًّا؛ سواء بالتمسُّك بها، والدعوة إليها، أو بالإشادة والمدح لمن تحلَّوا بها. فقد كانت مطلبًا ومقصدًا يسعى العربيُّ أن يصل إليه ليخلِّد بذلك ذكره ويُمجِّد مآثره، حتَّى عند أولئك الذين اشتهروا بالتفحُّش والخلاعة في أشعارهم، فهذا امرؤ القيس ورغم ما عُرف عنه من الفُحش والمجون في شعره، ها هو يقول:

وكـــلُّ مَكَـــارِمِ الأَخْـــلَاقِ صَـــارَتْ إِلَيْـــه هِمَّتِـــي، وَبِـــه اكْتِسَـــابِي [4]

ويفيض ديوان العرب بوصف كثير من الفضائل والخِلال الحميدة التي اتَّصف بها العربيُّ واعتزَّ بها اعتزازا شديدا كإكرام الضيف، وإيواء اللاَّجئ، والعطف على الصغير، وتوقير الكبير، ومساعدة المحتاج والضعيف والفقير والمسكين، كذلك

---

[1] – ابن طباطبا أحمد محمد العلوي، عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2005م، ص18.

[2] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3] – نفسه، ص18-19.

[4] – امرئ القيس، الديوان، تح: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004م، ص78.

إيقاد النِّيران ليهتدي بها السَّائرون في جوف اللَّيل، وإباء الضَّيم، والاعتداد بالنَّفس، وغير ذلك من مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال. وحسبنا أن نشير من باب التمثيل إلى بعضها:

فهذا حاتم الطائي الذي أُشتُهر بالكرم والجود والسخاء، فمن مبالغته في إكرام الضيف، والحفاوة به والتعهُّد له يُنزل نفسه منزلة العبيد لضيفه، ولكنَّه يتشرَّف بهذه العبودية، قال حاتم:

وإنِّـــي لعبـــدُ الضـــيف مـــا دام ثاويـــا ومـــا فـــيَّ إلاَّ تلـــك مـــن شـــيمة العبـــد[1]

وهذا لعمري هو الذي خلَّد مآثر حاتم، وجعله من سادات العرب، فهو يردُّ على أولئك الذين يلومونه ويُنكرون عليه هذا التصرُّف في ماله، وينصحونه بالاقتصاد في ذلك بقوله:

يقولـــون لـــي أهلكـــت مالـــك فاقتصـــدْ ومـــا كنـــتُ لـــولا مـــا تقولـــون ســـيِّدا[2]

والكرم عند الشدّة أكبر وأعظم أثرا في النَّفس، وهذه الخنساء في رثائها لأخيها صخر تذكر كرمه وجوده خاصة وقت الشدّة حين يشتون، أو إذا أصابهم قحط وجوع، فتقول:

وإنَّ صـــــخرا لوالينـــــا وســـــيِّدنا وإنَّ صـــــخرا إذا نشـــــتو لنحَّـــــار

وإنَّ صـــــخرا لمقـــــدامٌ إذا ركبـــــوا وإنَّ صـــــخرا إذا جـــــاعوا لعقَّـــــار[3]

وقد طبعت البادية العربية أهلها بصفات خاصة، من أظهرها الشجاعة التي تغنَّوا بها في مواطن القتال ومنازلة الأعداء، وركوب المخاطر والأهوال، ونجدة المستصرخ، وحماية الأهل والعشيرة والقبيلة. فهي مفخرة العربي وحِلْيته في حِلِّه وترحاله، فهم كما يقول ابن خلدون: "قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، لا يكِلُونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائما يحملون السِّلاح ويتلفَّتون عن كلّ جانب في الطرق، ويتفرَّدون في القفر والبيداء، مُدلين ببأسهم، واثقين بأنفسهم، قد صار لهم البأسُ خُلُقا والشجاعةُ سجيَّةً يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخٌ."[4]

ولأنَّ الشجاعة عزٌّ ووقاية، والجُبن ذُلٌّ وهلاك، كانت من أعظم الخلال والصفات التي حفل بها العرب، وأنشأوا عليها أبناءهم، فهي خلق كريم ووصف نبيل، يحمل النَّفس على التحلِّي بالفضائل، ويحرسها من الاتِّصاف بالرَّذائل، وهي ينبوع الأخلاق الكريمة والخصال الحميدة، وهي من أعزِّ وأفخر أخلاقهم. وكانت العرب ترى في الشجاعة والإقدام وسيلة إلى بلوغ المراتب العالية والصِّيت الحسن، فمدحوا الموت تحت ظلال السيوف، وهجوا بالموت على الفراش، وسمَّوه الموت حتْف الأنف، قال السَّموأل:

---

[1] – حاتم الطائي، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1982م، ص44.

[2] – المرجع نفسه، ص41.

[3] – الخنساء تماضر بنت عمرو السلمية، الديوان، تح: حمدو طمَّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004م، ص46.

[4] – ابن خلدون عبد الرحمن أبو زيد وليّ الدين، المقدِّمة، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، 2002م، ص129.

وإنَّـــا لقـــومٌ لا نـــرى القتـــلَ سُـــبَّةً إذا مـــا رأتـــه عـــامِرٌ وســـلُولُ
يُقـــرِّب حـــبُّ المـــوت آجالنـــا لنـــا وتكرهـــه آجـــالهم فتطـــولُ
ومـــا مـــات منَّـــا ســـيِّدٌ حتْـــف أنفـــه و طُـــلَّ منَّـــا حيـــث كـــان قتيـــل
تســـيل علـــى حـــدِّ الظُبـــات نفوســـنا وليســـت علـــى غيـــر الظُبـــات تســـيل[1]

فالإقدام مطلوب، وفرار المحارب من واجبه أو من لقاء أعدائه هو موت وعار لا ينساه الدَّهر أبدًا. بل سبب لابتعاد الناس عنه واحتقاره، فشعارهم أنَّ الإقدام حياة ومجد، والفرار معرَّة وموت. قال الحُصينُ بنُ الحُمام المُرِّيّ:

تَـــأَخَّرْتُ أَسْـــتَبْقِي الحيـــاةَ فلـــم أجـــدْ لنفســـي حيـــاةً مثـــلَ أن أتقـــدَّما
وَلَسْـــنا علـــى الأعقـــاب تَـــدْمَى كُلُومُنـــا ولكـــن علـــى أقـــدامنا تقطـــر الـــدِّما
نُفَلِّـــقُ هَامًـــا مِـــنْ رِجَـــالٍ أَعِـــزَّةٍ عَلَينَـــا وهُـــمْ كَـــانُوا أَعَـــقَّ وأَظْلَمَـــا[2]

والوفاء ممَّا يعتزُّ به العربي ويُقدِّم في سبيله الروح رخيصة، فهو من أخلاقهم الأصيلة، فإذا نطق الرَّجل منهم بالكلمة أصبحت عهدا عليه أن يفي بها، وإلاَّ عرَّض شرفه للتجريح، وكان الغدرُ معرَّةً يتجافون عنه، ووفاؤهم متعدِّد الأشكال والألوان؛ فوفاء لمن يُجاورون، ووفاء لمن يُعاهدون، ووفاء لمن يُحبُّون، ووفاء لمن يصنع معهم معروفا... ومن هنا كان الوفاء من أخصِّ صفات العربي التي تميَّز بها، وامتدحها في نفسه وفي غيره. ومن أشهر العرب وفاءً السَّموأل، حتَّى ضُرب به المثل في ذلك، فقالت العرب: "أوفى من السَّموأل" وقصَّة ذلك أنَّه لـمَّا "بلغ الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني وهو الحارث الأكبر ما خلَّف امرؤ القيس عند السَّموأل، فبعث إليه من أهل بيته يُقال له الحارث بن مالك وأمره أن يأخذ منه سلاح امرئ القيس وودائعه. فلمَّا انتهى إلى حصن السَّموأل أغلقه دونه وكان للسَّموأل ابن خارج الحصن يتصيَّد فأخذه الحارث وقال للسَّموأل إن أنت دفعت إليَّ السلاح وإلاَّ قتلته، فأبى أن يدفع إليه ذلك، وقال له أُقتل أسيرك فإنِّي لا أدفع إليك شيئا فقتله.وضربت العرب المثل بالسَّموأل في الوفاء."[3]، وفي هذا يقول السَّموأل:

وفيْـــتُ بـــأدرع الكنـــديِّ، إنِّـــي إذا مـــا ذُمَّ أقـــوامٌ وفيـــتُ
وقـــالوا: إنَّـــه كنـــزٌ رغيـــبٌ فـــلا والله أغـــدر مـــا مشـــيتُ[4]

وهذا عنترة بن شدَّاد شاعر الفحولة، يضرب لنا أروع الأمثلة في العفَّة وسموِّ الخلق؛ فهو يُحدِّثنا عن تمكُّنه من نفسه وكبح جماحها ولجمها عن شهواتها وغيِّها، وأنَّه لا يُراود امرأة عن نفسها إلاَّ إذا تزوَّجها وأعطى مهرها لوليِّها، وهو يرى جاراته ويغشى دورهنَّ ما دام الرِّجال فيها، فإذا خرج الرِّجال كفَّ عن الذهاب، وهو لا يتجرَّأ أن ينظر إلى جارته إن بدت حتَّى يُواريها ويسترها بيتها، يقول عنترة:

---

[1] – السَّموأل بن غريض بن عادياء الأزدي، الديوان، تح: عيسى سابا، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1951م، ص12-13.

[2] – أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، تح: عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان، منشورات المجلس العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، دط، 1981م، ج1، ص114.

[3] – ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، تح: حسن تميم ومحمد العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط3، 1987م، ص61.

[4] – السَّموأل، المرجع السابق، ص18- 19.

مـــا اســـتَمْتُ أنثـــى نفسَـــها فـــي مـــوطن حتَّـــــى أوَفِّـــــي مهرَهـــــا مولاهـــــا
أغشـــى فتـــاة الحـــيِّ عنـــد حليلهـــا وإذا غـــزا فـــي الجـــيش لا أغشـــاها
وأغـــضُّ طرفـــي مـــا بـــدت لـــي جـــارتي حتَّـــــى يُـــــواري جـــــارتي مأواهـــــا
إنِّـــي امـــرؤٌ ســـمْح الخليقـــة ماجـــد لا أُتبـــعُ الـــنَّفسَ اللَّجـــوج هواهـــا[1]

وضرب الشعراء الصعاليك أروع الأمثلة في الصبر وتحمُّل الجوع، ومساعدة الغير، فجاء شعرهم يحمل الكثير من القيم والفضائل رغم ما هم عليه من الصعلكة والنَّهب والسطو على ممتلكات الغير. فهذا أميرهم عروة بن الورد يقول:

إنِّـــي امـــرؤٌ عـــافي إنـــائيَ شِـــركةٌ وأنـــت امـــرؤٌ عـــافي إنائـــك واحـــد
أتهـــزأُ منِّـــي أن سَـــمِنْتَ وأن تـــرى بـــوجهي شُـــحوبَ الحـــقِّ، والحـــقُّ جاهِـــدُ
أُقسِّـــمُ جســـمي فـــي جُســـوم كثيـــرةٍ وأحســـو قَـــراحَ المـــاءِ، والمـــاءُ بـــاردُ[2]

ومن شدَّة إعجاب الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان بهذه الأبيات قال يومًا لجلسائه: "ما يسرُّني أنَّ أحدًا من العرب ممن ولدني إلاَّ عروة بن الورد لقوله هذه الأبيات."[3]

هذا من حيث المعنى أو المضمون في القصيدة، ولكنَّ ما استوقفني وشدَّ انتباهي هو ما يتعلَّق بشكل القصيدة الجاهلية، أو بناء القصيدة في الشعر الجاهلي، فهو يكاد يكون موحَّدا بين غالبية الشعراء خاصة في قصائد الطِّوال أو المعلَّقات، حيث تبدأ القصيدة الجاهلية بالمقدِّمة الطللية وفيها وقوف على الأطلال ووصف للآثار الباقية بعد خلو الدِّيار من أهلها، وينتقل الشاعر إلى وصف الرِّحلة وعناء السَّفر ومعالم الطريق ووحوش الصحراء وحيوانها وغيرها. ثم ينتقل إلى الغزل أو النَّسيب، فذكر المحبوبة والتَّغني بحسنها وجمالها، وقد يذكر بعضا من المواقف والمغامرات مع المحبوبة كما فعل امرؤ القيس في المعلَّقة. وينتقل بعد هذه المقدِّمات الطويلة إلى الغرض الأساس في القصيدة وقد يكون مديحًا أو هجاءً أو فخرًا أو حماسة أو انتصارا لشرف القبيلة وما إلى ذلك. "وهذا النَّمط المعيَّن في صُنع المطوَّلات القديمة يدلُّ دلالة قاطعة على أنَّ صناعة الشِّعر استوى لها حينذاك غير قليل من القيود والتقاليد."[4]

إنَّ هذا النَّمط المقدَّس-إنْ جاز التعبير- في الغالب، لدليل على التزام الشعراء-ولو فيما بينهم وبين أنفسهم- باحترام هذا القالب الذي أصبح عُرفا وتقليدا متَّفقا عليه، مثله مثل العرف أو التقليد الاجتماعي الذي يجب احترامه، فهذا التَّقليد في بناء القصيدة يُمكن أن نسميه بالتقليد الأدبي أو الشعري تشبيها له بالتَّقليد الاجتماعي. وهو ما تعارف عليه الشعراء وتوارثوه جيلا عن جيل. "إنَّ من يرجع إلى العصر الجاهلي يجد الشِّعر خاضعا لتقاليد ورسوم كثيرة، يتوارثها الشعراء سواء في ألفاظه ومعانيه، أم في أوزانه وقوافيه."[5]

---

[1] – عنترة بن شدَّاد، ديوان عنترة للخطيب التبريزي، تح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص208-209.
[2] – عروة بن الورد، الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1998م، ص61.
[3] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
[4] – ضيف شوقي، الفنُّ ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط11، 1960م، ص19.
[5] – المرجع نفسه، ص8.

وما دام هناك اتِّباع واحترام لهذا العُرف في بناء القصيدة وهيكلتها، فهذا يعني بصورة أو بأخرى التزام الشاعر بالحفاظ على هذا النَّمط المتعارف والمتَّفق عليه، وهو في المحصِّلة التزام خلقي–قبل أن يكون التزامًا فنّيًّا– أخذه الشاعر الجاهلي على نفسه بحفظه لهذا النَّمط في بناء القصيدة. يقول الحارثي: "وليس بعيدا أن يكون احترام الشعراء الجاهليين للتقاليد الشعرية المتوارثة في عيار شرف المعنى وصحَّته، وفي الشكل الخارجي لنظام القصيدة نابعا من التزام خلقي يُراعي عادات وتقاليد شعرية اكتسبت استجابات نفسية معينة ومتوقَّعة تربط بين المبدع والمُتلقي."[1]، ولا أدلَّ على ذلك ما كان من كعب بن زهير، فقد أنشد الرسول ﷺ قصيدته (بانت سعاد)، ولم يُغيِّر في نمطها شيئا، خاصة التغزُّل والتَّشبيب بمحبوبته. وقد لخَّص ابن هشام الأنصاري في شرحه ما اشتملت عليه القصيدة، فقال: "وأوَّل شيء اشتملت عليه هذه القصيدة التشبيب...وبيان التشبيب فيها أنَّه ذكر محبوبته وما أصاب قلبه عند ظعنها، ثمَّ وصف محاسنها، وشبَّهها بالظباء، ثمَّ ذكر ثغرها وريقها، وشبَّهها بخمرة ممزوجة بالماء، ثمَّ إنَّه استطرد إلى وصف ذلك الماء، ثمَّ من هذا إلى وصف الأبطَح الذي أخذ منه ذلك الماء، ثمَّ إنَّه رجع إلى ذكر صفاتها، فوصفها بالصدِّ وإخلاف الوعد والتلوُّن في الودِّ، وضرب لها عرقوبا مثلا، ثمَّ لام نفسه على التعلُّق بمواعيدها، ثمَّ أشار إلى بُعد ما بينه وبينها، وأنَّه لا يُبلغه إليها ناقةٌ، من صفتها كَيت وكَيت، وأطال في وصف تلك الناقة على عادة العرب في ذلك، ثمَّ إنَّه استطرد من ذلك إلى ذكر الوُشاة وأنَّهم يسعون بجانبي ناقته، ويُحذِّرونه القتل، وأنَّ أصدقاءه رفضوه وقطعوا حبل مودَّته، وأنَّه أظهر لهم الجَلَدَ واستسلم للقدر، وذكر لهم أنَّ الموت مصير كلِّ ابن أنثى. ثمَّ خرج إلى المقصود الأعظم وهو مدح سيِّدنا ومولانا رسول الله ﷺ، وإلى الاعتذار إليه، وطلب العفو منه، والتبرِّي ممَّا قيل عنه، وذكر شدَّة خوفه من سطوته، وما حصل له من مهابته، ثمَّ إلى مدح أصحابه المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين."[2]، كلُّ هذا والرسول ﷺ يسمع، ولم يُنكر عليه ذلك، ولم يعترض على الجزء الغزلي من القصيدة، وهذا يعني أنَّه ﷺ كان يُدرك علم الشعر وأصوله الفنيِّة التي كانت سائرة في العصر الجاهلي، وأنَّ هذا الغزل تقليد فنِّي ومن أصول الفنِّ الشعري عند الجاهليين، وأنَّ الشاعر ملزم بالحفاظ عليه. بل على العكس من ذلك تماما، فقد أُعجب بها الرسول أيَّما إعجاب، ووهب له بُردته الشريفة.

هذا غيض من فيض عن بعض أخلاق العرب الحميدة التي اتصفوا بها ودعوا إليها وحفل بها شعرهم، والتي تُثبت – ولا تدع مجالا للشكِّ– بأنَّ العرب في الجاهلية كانوا على قدر كبير من الأخلاق الفاضلة التي أكَّدها الإسلام فيما بعد وحثَّ عليها. ومع هذا "فإنَّ فضائل الجاهليين لا ينبغي لها أن تحجب عن أنظارنا مثالبهم وسوءاتهم ؛ مثل العصبية القبلية ومعاقرة الخمر ولعب الميسر وسبي النساء أثناء الغزو، وغير ذلك كثير أيضا. ولا ريب في أنَّ العصبية القبلية كانت أسوأ مساوئهم، لما انطوت عليه من ضلالة عمياء وجهالة جهلاء، وثَّقها دريد بن الصِّمَّة حين قال:

وما أنا إلاَّ من غزيَّةَ إنْ غوتْ غويْتُ وإنْ ترشد غزيَّة أرشدِ[3]

---

[1] – الحارثي محمد بن مريسي، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتَّى نهاية ق7هـ، نادي مكة الثقافي الأدبي، جدَّة، السعودية، دط، 1989م، ص47.

[2] – ابن هشام جمال الدين الأنصاري، شرح قصيدة بانت سعاد، تح: عبد الله عبد القادر الطويل، المكتبة الإسلامية، القاهرة، مصر، ط1، 2010م، ص88-89.

[3] – دريد بن الصِّمة، الديوان، تح: عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، دت، ص62.

ومن البديهي أن تُؤدي بهم هذه العصبية إلى كثير من الحروب والثارات، حتَّى قسَّمت حياتهم شطرين، فهم إمَّا مُغيرون أو مُغار عليهم."[1]، وكما تباهوا بالأخلاق الفاضلة ومحاسن الأفعال؛ فإنَّهم كذلك تباهوا وتفاخروا بمساوئ الأخلاق وقبيح الفِعال، فهذا طرفة بن العبد يعلنها صراحة بأنَّ حياته لا قيمة لها لولا ثلاثة أمور هي:(الخمر والنساء والشجاعة)، وأنه من أجل الخمر باع وأنفق كلَّ ما يملك من مال ومتاع؛ قديمه وحديثه، إلى أن خلعته القبيلة، وأصبح طريدا شريدا:

ومـــا زال تشـــرابي الخمـــور ولـــذَّتي وبَيعـــي وإنفـــاقي طَريفـــي ومُتلَـــدي
إلـــى أن تَحـــامَتني العَشـــيرة كلُّهـــا وأُفـــرِدتُ إفـــرادَ البَعيـــرِ المُعَبَّـــدِ
ولـــولا ثـــلاثٌ هُـــنّ مِـــنْ عِيشـــةِ الفتـــى وجـــدِّكَ لـــم أحفـــل متـــى قـــامُ عـــوَّدي
فمِـــنهُنّ سَـــبْقي العـــاذِلاتِ بشَـــرْبَةٍ كُمَيْـــتٍ متـــى مـــا تُعْـــلَ بالمـــاءِ تُزبِـــد
وكَـــرّي، إذا نـــادى المُضـــافُ، مُحَنَّبًـــا كســـيد الغضـــا نبّهتـــه المتـــورِّد
وتقْصـــيرُ يـــوم الـــدَّجن والـــدَّجنُ مُعجِـــبٌ ببهكنـــةٍ تحـــت الطِّـــراف المعَمَّـــد[2]

فحكم القبيلة على أحد أفرادها إذا تمادى في غيِّه وفساده، ولم يرعَوِ ويعد إلى رشده بالخلع والطرد من القبيلة لهو دليل آخر على تمسُّك العرب بأخلاقهم الكريمة وخصالهم الحميدة، وخشيتهم من فسادها. وتسمي هذا المطرود (خليعًا)، كما فُعل بامرئ القيس وطرفة بن العبد. والمخلوع لا يجد في القبيلة من يحميه أو يدخل في جواره ليكون في منعة وأمن، لهذا لجأوا إلى بعضهم البعض وكوَّنوا جماعات من الصعاليك تعيش على النَّهب والسَّلب.

ومن العادات السيئة التي تشبَّث بها الإنسان العربي الجاهلي عادة الثأر. والثأر عند الجاهلي يُعدُّ شريعة مقدَّسة في هذا العصر فرضته وألزمته عدَّة عوامل مختلفة اجتماعية وقبلية، فهو مثل النَّار المستعرة في قلوبهم؛ لا يهدأ لهم بال، ولا يُغمد لهم سيف إلاَّ إذا أخذوا به كاملا غير منقوص. وقد أدَّت هذه العادة، أي الأخذ بالثأر إلى صراع عنيف بين الكثير من القبائل العربية، والتي كانت من السمات البارزة في الجاهلية، وكانت سببا مباشرا لكثير من الوقائع والأيام التي وقعت بينهم، والتي امتدَّ بعضها لسنين طويلة. فقد استحكمت هذه العادة وتأصَّلت في طباع ووجدان الإنسان العربي وأصبحت جزءا من كيانه إذا أراد أن يعيش محترما بين أفراد قبيلته، فالأخذ به دليل على الشجاعة والقوَّة، والسكوت عنه دليل على الخضوع والذلَّة والاستكانة، وهيهات أن يقبل العربي على نفسه مثل هذه الصفات.بل "بلغ من كَلَفِهم بالثأر أنَّهم كانوا يتجافون النساء والخمر والطِّيب؛ لأنَّها ضرب من التنعُّم والبهجة لا يليق بحزين موتور، أو لأنَّها قد تُلهي وتُشغل عن الجدِّ في الثأر"[3]. قال المهلهل وهو يتحدَّث عن ثأره لأخيه كُليب الذي قتله جسَّاس من قبيلة بكر:

---

[1] – غسان إسماعيل عبد الخالق الفطافطة، الأخلاق في النقد العربي من القرن الثالث حتى القرن السادس الهجري، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، إشراف: الدكتور نصرت عبد الرحمن، نوقشت بتاريخ: 1996/07/10م، ص16.

[2] – طرفة بن العبد، الديوان، شرحه وقدَّم له: مهدي محمد ناصر الدِّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002م، ص25.

[3] – أحمد محمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، مصر، ط2، 1952م، ص210.

خُـــذِ العهـــد الأكيـــد علـــيَّ عُمـــري بتَركـــي كـــلَّ مـــا حَـــوَت الـــدِّيارُ
وهجْـــري الغانيـــات وشـــربَ كـــأس ولُبســـي جُبَّـــةً لا تُســـتعارُ
ولســـتُ بخـــالعٍ درعـــي وســـيفي إلـــى أن يخلـــعَ الليـــلَ النَّهـــارُ
وإلاّ أن تبيـــد ســـراةُ بكـــرٍ فـــلا يبقـــى لهـــا أبـــدا أثـــارُ[1]

وخلاصة لما سبق نستطيع القول أنَّ الشعر الجاهلي كان صورة واقعية ومرآة صادقة لما كان عليه المجتمع آنذاك من قيم ومُثل وفضائل، والتي امتزجت بين أخلاق حسنة وأخرى سيئة، بين محاسن اتَّصف به العرب وحثَّ عليها شعراؤهم، ومساوئ عافها الطبع العربي الأصيل ونفَّر منها أفاضل شعرائهم. وهنا نُؤَكِّد على أنَّ المجتمع الجاهلي كان يحظى بوجود ثقافة الالتزام الخلقي في وسطه، أسهمت إلى حدٍّ كبير في ضبط واستقرار القبيلة اجتماعيًّا، كما نُؤَكِّد على أنَّ هناك خروجًا وتمرُّدًا عن هذا الالتزام، تمثَّل في مظاهر المجون والظلم والصعلكة والانحطاط الخلقي.

وما يُمكن قوله أخيرا، أنَّ حياة العرب لم تكن كلُّها مجونًا ولهوًا، ولم تكن كذلك ثأرا ودماءً وشُربَ خمر. فلم تخُلْ روح العصبية بينهم وبين التحلِّي والتمسُّك ببعض القيم والفضائل الحسنة،كالمروءة والكرم والوفاء والشجاعة...

2- النقد الأخلاقي في العصر الجاهلي:

لاشكَّ في أنَّ النقد الأدبي عند العرب قد مرَّ بمراحل مختلفة، فالشعر الجاهلي-وهو المعني بالنقد أكثر من النثر- قد خضع لمسيرة طويلة حتى استوى على الصورة التي آل إليها عند شعراء المعلَّقات وغيرهم، ولا بدَّ من أن يكون هذا الشعر قد خضع لكثير من المدارسة والمراجعة، وبعبارة أخرى خضع لكثير من النقد، حتى صارت له أصول وتقاليد، ووصل إلى هذه الدرجة من الإتقان والجودة. وهذا يعنى أنَّ العرب القدامى قد عرفوا النقد الأدبي وزاولوه، عرفوه فطرة وطبيعة، وزاولوه ذوقاً وإحساساً، وطبَّقوه على نتاجهم الشعري، ولكنَّهم لم يعرفوه علماً وفنًّا، له أصوله وقواعده إذ لم يسمُّوا عملهم هذا نقدًا. "وبتأمُّل الملاحظات النقدية التي رُويت وقيلت في الشعر الجاهلي، والتي وصلت إلينا من مصادر عدَّة أدبية وتاريخية وتراثية ودينية، يتبيَّن لنا أنَّ النقد الأدبي عند الجاهليين كان نقدا انطباعيا مبنيا على الذوق الفطري، لا الفكر التحليلي، وعلى الأحكام الموجزة البعيدة عن التعليل الدقيق، وعلى النقد الجزئي الذي لا يُحيط بالنصِّ المنقود كلِّه، وإنَّما على بيت أو بضعة أبيات"[2]. والمتتبِّع لما وصل إلينا وما قدَّمته لنا مصادر التراث العربي من شواهد نقدية عن هذا العصر، يجد أنَّ النقد الجاهلي اتَّخذ صورا متعدِّدة، ونحا اتجاهات مختلفة، منها ما تناول اللفظ والصياغة، ومنها ما تناول المعنى، ومنها ما تناول المبنى أو الشكل.

ولـمَّا كان النقد الأخلاقي متعلِّقا بقضايا معنوية بحتة؛ فإنَّ ملامحه في النقد الجاهلي ظهرت في بعض الصور المتعلِّقة بالصدق والكذب، أو بفحش المعاني وشرفها، وهذا هو مجال الدِّين والأخلاق في النقد الأدبي. "وإنَّ المتتبِّع لطبيعة الحياة العربية في العصر الجاهلي يقف على أنماط متعدِّدة من القيم والعادات والتصوُّرات التي تشكِّل في مجموعها تصوُّر

[1] - المهلهل بن ربيعة، الديوان، تح: أنطوان محسن القوَّال، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1995م، ص32.
[2] - يُنظر سامي يوسف أبو زيد، النقد العربي القديم، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمَّان، الأردن، ط1، 2013م، ص29.

الجاهليين لعلاقاتهم بكل ما يحيط بهم، وذلك من خلال ما تمدُّهم به تلك القيم والعادات من فضائل ومُثُل تُحقِّق في نظرهم الخير والصلاح لحياتهم."[1]

والقيم الدينية والمعتقدات كانت من تلك المُثُل التي فرضت نفسها في الحياة الجاهلية، فديانة العرب التي كانت سائدة هي الوثنية، وأشهرها عبادة الأصنام والأوثان. قال حسَّان بن ثابت:

نبـــيٌّ أتانـــا بعـــد يـــأسٍ وفتـــرة مـــن الرســـل والأوثـــان فـــي الأرض تُعبـــد [2]

فالعرب في جاهليتهم كانوا يعرفون الله تعالى ويعظمونه، ويؤمنون بأنه الخالق الرزَّاق المحيي المميت، لكنهم يشركون معه غيره من الأصنام والأحجار والأشجار، ولهم في ذلك اتجاهات مختلفة، فمنهم من كان يجعل الأصنام على صور بعض الصالحين، ويرى عبادتها تُقرِّبه إلى الله، ومنهم من يجعلها رمزاً للكواكب أو الملائكة، ويعتقد أنها تشفع له عند الله عزَّ وجلَّ. ودليل ذلك قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾** [3] وقوله تعالى: **﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾** [4]، وقوله أيضا: **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾**[5]، وهذا ما يعتقده أحد شعرائهم، وهو أوس بن حجر، فهو يحلف بهذه الآلهة، ويتَّخذها شريكا وشفيعا إلى الله، فيقول:

وبـــاللاَّت والعُـــزَّى ومـــن دان دينهـــا وبـــالله إنَّ الله مـــنهُنَّ أكبـــرُ [6]

وزيادة على الوثنية فقد انتشرت اليهودية والمسيحية في بعض المناطق من جزيرة العرب، وهناك من عبد الكواكب كالشَّمس والقمر، ومنهم من عاش لا يعرف دينًا ولا إلهًا. وإذا بحثنا عن معتقداتهم التي كانوا يُؤمنون بها، فنجد أنَّ العرب –في غالبيتهم– "كانوا يُؤمنون بوجود الجنِّ والعفاريت، وبمخالطتها للإنس في السُّكنى والاستهواء والمؤاكلة والزواج، ولهم فيها شعر وأخبار كثيرة، ويُؤمنون بزجر الطائر؛ يتفاءلون به إذا سنح، ويتشاءمون إذا برح، وبالكهانة والعرافة والهامة، ويُعوِّذون أطفالهم بسنِّ ثعلب وسنِّ هرَّة خوفا من الخطفة والنظرة، ويتعوَّذون من الجنِّ بالأدعية وسواها، ويتطيَّرون من الغراب."[7]

كما قال النابغة الذبياني:

زعـــم البـــوارح أنَّ رحلتنـــا غـــدا وبـــذاك خبَّرنـــا الغـــداف الأســـود[8]

---

[1] – الحارثي محمد بن مريسي، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتَّى نهاية ق7هـ، ص43.

[2] – حسَّان بن ثابت الأنصاري، الديوان، تح: عبد الله سندة، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص101.

[3] – سورة الزخرف، الآية 87.

[4] – سورة يونس، الآية 18.

[5] – سورة الزمر، الآية 3.

[6] – أوس بن حجر، الديوان، تح: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1979م، ص36.

[7] – البستاني بطرس، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، شركة كلمات عربية ومؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، دط، 2013م، ص26.

[8] – النابغة الذبياني، الديوان، ص 105.

وهناك فئة قليلة من العرب الجاهليين رفضت الوثنية وعبادة الأصنام، ولم تقبل بتعدُّد الآلهة، واتَّجهت إلى عبادة الله وحده، وقد دُعي هؤلاء بالحنفاء منهم: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وأبو قيس بن الأسْلت، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وأميَّة بن أبي الصَّلت..وظهر منهم شعراء عبَّروا عن عقيدتهم أصدق تعبير، وعن تمسُّكم بما وصل إليهم من دين إبراهيم عليه السلام. حيث لامست هذه المُثُل والقيم الدينية على اختلافها خواطر ووجدان هؤلاء الشعراء الجاهليين، فنجد في أشعارهم بعض الارهاصات والتصوُّرات عن معتقداتهم الدينية وتأملاتهم الغيبية التي كانوا يُؤمنون بها.

ولعلَّ هذه المعاني الدينية تتجلَّى بشكل واضح في شعر زيد بن عمرو بن نفيل، وأميَّة بن أبي الصَّلت وزهير بن أبي سلمى، وإن كان قد شاركهم فيها بعض الشعراء الآخرين كعبيد بن أبي الأبرص، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس، وقسُّ ابن ساعدة، وغيرهم. ومن أشعار هؤلاء الحنفاء ما رُويَ عن زيد بن عمرو بن نفيل من شعر تتجلَّى فيه ملامح عقيدة التوحيد، ورفض مظاهر الشِّرك والوثنية، ومن ذلك قوله :

أربًّا واحدًا أم ألفَ ربٍّ أدينُ إذا تُقسِّمت الأُمورُ
عزلتُ اللاَّتَ والعُزَّى جميعًا كذالك يفعل الجَلْدُ الصَّبورُ
فلا العُزَّى أدينُ ولا ابنتيها ولا صَنَمَيْ بني عمْرٍو أزورُ
ولا هُبَلاً أدينُ، وكان ربًّا لنا في الدَّهر إذْ حلمي يسيرُ
ولكن أعبدُ الرحمن ربِّي ليغفر ذنبي الرَّبُّ الغفورُ
فتقوى الله ربِّكُمُ احفظوها متى ما تحفظوها لا تبورُوا
ترى الأبرار دارُهُمُ جِنان وللكفَّار حامية سعيرُ
وخزي في الحياة وإن يموتوا يُلاقوا ما تضيق به الصُّدورُ[1]

ومن الشعراء الحنفاء شاعر ثقيف أميَّة بن أبي الصَّلت، وهو أكثرهم شعرا وعلما، "وقد نظر في الكتب وقرأها، ولبس المُسُوح تعبُّدًا، وكان ممَّن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرَّم الخمر وشكَّ في الأوثان، وكان مُحقِّقا، والتمس الدِّين وطمع في النبوَّة؛ لأنَّه قرأ في الكتب أنَّ نبيًّا يُبعث من العرب، فكان يرجو أن يكونه. قال: فلمَّا بُعث النبيُّ ﷺ قيل له: هذا الذي كنت تستريث وتقول فيه؛ فحسده عدوُّ الله وقال: إنَّما كنتُ أرجو أن أكونه؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيه: **﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾** [2]

قال: وهو الذي يقول:

كلُّ دِينٍ يومَ القيامةِ عند الله إلاَّ دين الحنيفةِ زُورُ[3]

---

[1] – ابن هشام أبو محمد بن أيوب، السيرة النبوية، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1990م، ج1، ص255-256.

[2] – سورة الأعراف، الآية 175.

[3] – الأصفهاني أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تح: إحسان عبّاس وآخران، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 2008م، ج4، ص97.

ومن أخبار شعره الذي يزخر بمفهوم الحنفاء للتوحيد وتأمُّلاتهم في الكون والحياة والموت والبعث والحساب؛ حيث صبغت هذه التأمُّلات شعره بصبغة دينية خالصة، نجدها في كثير من أشعاره، ومن ذلك ما رواه عكرمة، قال:" أُنشِد النبيُّ ﷺ قول أُميَّةَ:

الحمـــــدُ لله مُمْســـــانا ومُصـــــبحَنا بـــــالخير صـــــبَّحنا ربِّـــــي ومسَّـــــانا

ربُّ الحنيفـــــة لـــــم تنفـــــد خزائنُهـــــا مملـــــوءةً طبَّـــــق الآفـــــاقَ سُـــــلطانا

ألا نبـــــيَّ لنـــــا منَّـــــا فيُخبرنـــــا مـــــا بعـــــد غايتنـــــا مـــــن رأس مَحْيانـــــا

بينـــــا يُربِّيننـــــا آباؤنـــــا هلكـــــوا وبينمـــــا نقتنـــــي الأولاد أفنانـــــا

وقـــــد علمنـــــا لـــــو أنَّ العلـــــم ينفعنـــــا أن ســـــوف يلحـــــقُ أُخرانـــــا بأُولانـــــا

فقال النبيُّ ﷺ: « **إِنْ كَادَ أُمَيَّةُ لَيُسْلِمَ** ». وفي رواية أخرى، قال: « **آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ** ."[1]

وأمَّا زهير بن أبي سلمى ففي شعره الكثير من المعاني الدينية والتأمُّلات الغيبية التي من خلالها يُمكن أن نستشفَّ أنَّ الشاعر كان "يُؤمن باليوم الآخر، وما فيه من ثواب وعقاب، إذ يقول:

فـــلا تكـــتُمنَّ اللهَ مـــا فـــي نفوســـكم ليخفـــى ومهمـــا يُكـــتم الله يُعلـــم

يُـــؤخَّر فـــيُوضع فـــي كتـــاب فيُـــدَّخر ليـــوم الحســـاب أو يُعجَّـــل فيُـــنقَم

فإذا صحَّت نسبة هذين البيتين إليه كان ذلك دليلا على أنَّه أحد من تحنَّفوا في الجاهلية، وشكُّوا في الوثنية، وتركوا دين الآباء والأجداد."[2]، فهو كما قال ابن قتيبة: "وكان زهير يتألَّه ويتعفَّف في شعره ويدلُّ شعره على إيمانه بالبعث."[3]

ولكن ليس كلُّ شعراء الجاهلية على هذا القدر من التمسُّك بالقيم الدينية، فزيدٌ وأميَّة وزُهير من القلَّة القليلة التي نجد في شعرها هذا المنحى الدّيني والخلقي بشكل كبير. أمَّا البقية الباقية وهي الكثرة فإنَّ هذا الملمح يكاد يكون غائبا في أشعارهم."وتجد هذه الإسقاطات الدينية العابرة التي لم تشغل إلاَّ حيِّزا ضيِّقا جدًّا من اهتمامات بعض الشعراء الجاهليين لا تتعدَّى البيت أو البيتين غالبا."[4]، وإذا كان الأمر كذلك، فما السرُّ وراء التزام الشاعر الجاهلي، وتمسُّكه ببعض الأخلاق الفاضلة، وحثِّ النَّاس عليها، والافتخار بها وتمجيد أصحابها ؟ إنَّه وبلا ريب مجموع تلك العادات والتقاليد والأعراف التي استقرَّت في نفوسهم، واكتسبت صفة القداسة عندهم. اكتسبوها من بيئتهم ومعيشتهم وظروف حياتهم وممَّن تأثَّروا بهم من حولهم، فتأصَّلت فيهم هذه العادات والتقاليد، وأضحت عندهم طبعا وسجيَّة ونظامًا يحكمهم ويُقنِّن حياتهم داخل القبيلة وخارجها، لذا لا يجوز لأحد الخروج أو التمرُّد عليه أو رفضه، ومن يفعل ذلك فإنَّ القبيلة تتخذ منه موقفا حاسما بخلعه وطرده منها. ولا يُمكن أن نُغفل أيضًا عاملا آخر مهمًّا هو ما كانوا يتمتَّعون به من فطرة

---

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص102.

[2] – زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرحه: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988م، ص4.

[3] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص74.

[4] – الحارثي محمد بن مريسي، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتَّى نهاية ق7هـ، ص44.

إنسانية، ظلَّت رغم ما اعتراها من فساد محتفظة بقدر من القيم، يقول جابر قميحة: "وفي هذا المقام علينا ألاَّ ننسى منبعا آخر من منابع هذه القيم، وهو الفطرة الإنسانية، وأصلها كما يقول أبو مسلم والقاضي أبو بكر: من الأخذ بما يُرشد إليه العقل من الاعتقاد والعمل، والنظر المحض في الآيات الدَّالة على وجود الصانع ووجوب شكره، والتمييز بين الحسن والقبيح، وبين الباطل والصحيح، بالنظر في المنافع والمضار."[1]

فالعربي الجاهلي كان ملتزما أخلاقيا مع ذاته، ومع مجتمعه، داخل قبيلته وخارجها نتيجة عوامل أساسية، لعلَّ أبرزها تقديسه لعاداته وتقاليده التي اكتسبها على مرِّ العصور، وأصبحت بمثابة الدِّين، وما كان راسخًا في فطرته الإنسانية، زيادة على ما كان يؤمن به من معتقدات وطقوس. وما كان من الشعراء وهم الموجِّهون والمرشدون للمجتمع، والمحافظون على قيمه وأخلاقه، والناطقون باسم قبائلهم وعشائرهم، إلاَّ أن يتغنَّوا بهذه المكرمات، ويفخروا باكتسابها، ويحثوا على التحلِّي بها، فتركوا لنا ما جادت به قرائحهم من أشعار مشتملة على حكم ووصايا وفخر ومدح ورثاء وغير ذلك من الأغراض التي عرفها الشعر الجاهلي، وكانت في معظمها مشتملة على قدر كبير من القيم والأخلاق والمُثل، آمن بها الشاعر الجاهلي وسعى إلى تخليدها وتمجيدها.

والسؤال الذي يُطرح الآن، إذا كان للأخلاق والفضائل والقيم كلُّ هذا القدر والاهتمام عند الإنسان العربي عامة والشاعر خاصة في هذا العصر، فهل كان لهذه الأخلاق والقيم اعتبار في توجيه الشعر والشاعر؟ وبعبارة أخرى، هل كانت هناك أحكام نقدية تتَّخذ من الأخلاق معيارا ومقياسا لتقييم وتقويم الشعر، والحكم له أو عليه؟ هذا ما سنراه من خلال هذه النماذج.

3- نماذج من النقد الأخلاقي في العصر الجاهلي:

إذا كان الشعر الجاهلي قد قدَّم لنا صورة واضحة وجليَّة إلى حدٍّ ما عن الموقف الأخلاقي للإنسان العربي عموما والشاعر خصوصا، فإنَّ النقد الجاهلي عكس ذلك تماما؛ حيث أنَّه لم يحفل بكثير من هذه المواقف التي تُعبِّر ولو بصورة غير مباشرة عن الاتجاه الأخلاقي في أحكامه ومعاييره النقدية. يقول الحارثي: " فإذا كانت النظرات النقدية التي أُثرت عن الجاهليين وهي قليلة لم تُشر إلى الموقف الأخلاقي في نقدهم بصورة واضحة وملموسة، فإنَّ الشعر الجاهلي قد قام بهذه المهمَّة، حيث كشف عن أبرز القيم الروحية والاجتماعية عند عرب الجاهلية."[2]

وكُتب الأدب والنقد خاصة، قديمها وحديثها، وكذلك بعض الدراسات المتخصِّصة لا تُسعفنا بنماذج عن هذا النوع من النقد، فالأمثلة والنماذج والأخبار تكاد تكون واحدة في معظم الكتب والرسائل العلمية، مع زيادات بسيطة هنا أو هناك. فتجد بعض النماذج موزَّعة على بعض أنواع النقد التي تعارف عليها النقاد، مثل النقد اللغوي أو اللفظي، والنقد المعنوي، والنقد العروضي. وإن كان النقد الخلقي يندرج ضمنيا تحت النقد المعنوي، لكنَّه في الغالب لا يُشار إليه بصورة مستقلّة في هذه الفترة، بل إنَّ بعض الكتب والدراسات التي تناولت الموضوع أساسا، وهو الاتجاه أو المعيار الأخلاقي

[1] – قميحة جابر، المدخل إلى القيم الإسلامية، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر، ط1، 1984م، ص27.

[2] – الحارثي محمد بن مريسي، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتَّى نهاية ق7هـ، ص47.

في النقد العربي القديم تتجاهل أو تتجاوز فترة العصر الجاهلي، ويرون أنَّ هذا الاتجاه من النقد ظهر بظهور الدِّين الإسلامي، وبعضها يكتفي بذكر بعض الأخلاق التي سادت في العصر الجاهلي، وكانت متداولة عند الشعراء في شعرهم. بل خلُص بعضهم إلى أنَّه لقلَّة النماذج في النقد الجاهلي، ولبساطتها وسذاجتها؛ لأنَّها في مراحلها الأولى، لا يُمكن الحديث عن اتِّجاهات ومقاييس دقيقة في نقد هذا العصر، وبالتالي فلا يُمكن الحديث عن النقد الأخلاقي مع اعترافه بوجود الاتجاه الأخلاقي والدِّيني في الأدب الجاهلي. يقول الباحث عزوز قربوع في رسالته بعد ذكر بعض النماذج المعروفة في النقد الجاهلي: " فمن الصَّعب أو الافتعال ـ مهما كنَّا غيورين عن النقد العربي ـ التحدُّث عن اتِّجاهات أو مقاييس دقيقة في نقد هذا العصر، وتبقى هذه الأخيرة أمثلة يُمكن اعتبارها بدايات أو مصادر أساسية لحركة النقد، لا ترتقي إلى مستوى يُمكن أن نظفر فيه بوجود اتجاهات ومذاهب نقدية مكتملة واضحة المعالم."[1]، وهذا الكلام وإن كان صحيحا في مقدِّمته، لكنَّه غير دقيق في نتيجته؛ لأنَّ هذه النماذج اليسيرة والبسيطة قد تناولت قضايا معيَّنة ومحدَّدة سواء ما تعلَّق باللفظ أو المعنى أو الشكل، وبالتالي فإنَّها معلومة الاتِّجاهات، وإن كانت لا ترقى ـ كما قال الباحث ـ إلى مذاهب نقدية مكتملة واضحة المعالم. ثمَّ يخلُص إلى نتيجة أخرى، فيقول: "يمكننا إذن الحديث عن اتجاه أخلاقي وديني في الأدب الجاهلي، أمَّا النقد الجاهلي فلقلَّته وبساطته، فإنَّه يُؤكِّد شيئا واحدا، وهو أنَّ النقد العربي كان في اللحظات الأولى من ميلاده، وطبيعي أن يكون النقد في مراحله الأولى ساذجا بسيطا، خافتا غامض الملامح. ومن التجنِّي أن نتوقَّع من أصحابه أكثر من ذلك."[2]، إذن فحسب الباحث فلا حديث عن النقد الأخلاقي في العصر الجاهلي، نعم يوجد أدب ذو اتجاه أخلاقي وديني، لكنَّ النقد ما زال في مراحله الأولى بسيطا ساذجا غامض الملامح. وهذا الكلام لا يُمكن التسليم به ببساطة، فكتب الأدب والنقد والتراث وغيرها تحوي بين دفَّتيها بعض الأخبار والأمثلة عن النقد الأخلاقي في العصر الجاهلي.

وقبل تناول هذه النماذج من النقد الأخلاقي في العصر الجاهلي، لابُدَّ أن نُشير إلى مسألة مهمَّة، وهي أنَّ هذا الاتجاه من النقد برز بشكل واضح وجلِّي في صدر الإسلام؛ وهذا لأنَّ تعاليم الدّين جاءت حاثَّة على مكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، ولكنَّ هذا لا يجعلنا نُنكر وجود هذا الاتجاه في النقد الجاهلي، وإنْ كانت الأمثلة عليه قليلةً. فبعد البحث والتقصِّي والتنقيب في مصادر وأُمَّات كتب الأدب والنقد والتراث والتاريخ استطعنا أن نحصل على نماذج وأمثلة نستدلُّ بها على أنَّ الناقد في العصر الجاهلي جعل من بين معاييره في النقد المعيار الأخلاقي. ومن هذه الأخبار والنماذج النقدية نقف على ما يلي:

1– ما كان من والد امرئ القيس تجاه ابنه حين طرده عقابا له على خلاعته وتشبُّبه بالنساء. وهو نقد عملي مرتبط ارتباطا وثيقا بالأخلاق والقيم، فقد أورد ابن رشيق سبب نفي امرئ القيس في كتابه العمدة فقال: "وقد حُكِي أنَّ امرأ

[1] – قربوع عزوز، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم نشأته وتطوره، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، إشراف: الدكتور جمال شوالب، السنة الجامعية 2001م، ص18–19.

[2] – المرجع نفسه، ص19.

القيس نفاه أبوه لـمَّا قال الشِّعر، وغفل أكثر النَّاس عن السبب، وذلك أنَّه كان خليعا، متهتِّكا، شبَّب بنساء أبيه، وبدأ بهذا الشرِّ العظيم..."[1]

كما يُورد ابن قتيبة سببًا آخر لطرد امرئ القيس قريبا ممَّا ذكره ابن رشيق، فيقول: "وكان امرؤ القيس طرده أبوه لـمَّا صنع في الشعر بفاطمة ما صنع، وكان لها عاشقا فطلبها زمانا فلم يصل إليها، حتَّى كان منها يوم الغدير بدارة جُلجُل ما كان فقال:

قِفـــا نبـــكِ مـــن ذكـــرى حبيـــبٍ ومنـــزِلِ

فلمَّا بلغ ذلك حُجْرا أباه دعا مولى له يُقال له ربيعة فقال له: أُقتل امرأ القيس وَأْتِني بعينيه، فذبح جُؤذرًا (ولد البقرة الوحشية) فأتاه بعينيه، فندم حُجر، فقال: أبيتَ اللَّعن إنِّي لم أقتله، قال: فأتني به، فردَّه إلى أبيه فنهاه عن قول الشعر، ثمَّ أنَّه قال:

ألا أنعـــم صـــباحا أيُّهـــا الطَّلـــلُ البـــالي

فبلغ ذلك أباه فطرده "[2]. وهذا الموقف الذي اتَّخذه والد امرئ القيس لهو موقف نقدي خلقي في الصميم لأنَّه رفضٌ لمثل هذا النوع من الشِّعر الماجن العابث الذي تُهان فيه المرأة، وتُنال فيه من عفَّتها وكرامتها، فمثل هذا الشعر تلفظه الفطرة السليمة، ويأباه طبعُ العربي الأصيل صاحب المروءة والأنفة.

2– كان العرب يُؤثرون الصِّدق في الشعر ويمقتون المبالغة المفرطة في تصويره؛ حتى تكون المعاني معقولة وبعيدة عن الفساد، لهذا كان لهم موقف واضح من شعر المهلهل. جاء في الموشَّح: "وزعمت العرب أنَّه ـ أي المهلهل ـ كان يدَّعي في شعره ويتكثَّر في قوله أكثر من فعله."[3]

وممَّا عِيب به المهلهل قوله:

فلـــولا الـــرِّيحُ أُسْمِـــعَ مَـــنْ بحُجْـــرٍ صـــليلَ البِـــيضِ تُقـــرعُ بالـــذُّكورِ[4]

"وقد قيل: إنَّه أكذب بيت قالته العرب؛ لأنَّ بين حُجر ـ وهي قصبة اليمامة ـ وبين مكان الوَقْعة عشرة أيَّام."[5]

3– ومن هذا القبيل أيضًا، يُروى أنَّ رجلا قال لزهير بن أبي سُلمى: إنِّي سمعتك تقول لهرم:

ولأنـــت أشـــجعُ مـــن أســـامة إذ دُعِيَـــتْ نَـــزالِ ولُـــجَّ فـــي الـــذُّعر

---

[1] – ابن رشيق أبو علي الحسن القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، مصر، دط، 2009م، ج1، ص36.

[2] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص53.

[3] – المرزباني محمد بن عمران، الموشَّح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح: محمد حسين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م، ص92.

[4] – المهلهل بن ربيعة، الديوان، ص43.

[5] – ابن رشيق القيرواني، المصدر السابق، ج2، ص53.

وأنت لا تكذب في شعرك، فكيف جعلته أشجع من الأسد؟ فقال: إني رأيته فتح مدينة وحده، وما رأيتُ أسدا فتحها قط!! قال ابن رشيق معلِّقا: فقد خرَّج لنفسه طريقا إلى الصِّدق، وبُعدا عن المبالغة.."[1]

4– كما عابوا على الأعشى قوله:

ونُبِّئْـــتُ قيسًـــا ولـــم آتـــه وقـــد زعمـــوا ســـاد أهـــلَ الـــيمنْ

فعيب عليه أو عابه قيس نفسه، فردَّه فقال:

ونُبِّئْـــتُ قيسًـــا ولـــم آتـــه علـــى نأيـــه ســـاد أهـــلَ الـــيمنْ[2]

ورغم أنَّ هذا النوع من النقد قد صُنِّف ضمن النقد اللغوي، إلاَّ أنَّ السبب الذي عيب عليه هذا البيت الشعري يتَّصل بالأخلاق اتِّصالا وثيقا، ذلك لأنَّ "المتلقي (الممدوح) لم يقبل من الشاعر كلمة (زعموا)؛ لأنَّ الزعم عند العرب مظنَّة الكذب وعدم اليقين، ممَّا يُشير إلى حساسية العربي تجاه الألفاظ ودلالتها، فقد انصاع الشاعر إلى هذه الملاحظة فعدَّل البيت الشعري."[3]

5– ومن أمثلة النقد التي مسَّت الجانب الخلقي، ما كان متعلِّقا بقضية المبالغة في الشعر، والمبالغة أحد فنون البديع التي دار صراع كبير حولها، بين مُؤيِّد ومعارض ومتحفِّظ؛ وذلك لِمَا ارتبطت به من إفراط وغلوٍّ ، وفكرة الصِّدق والكذب. وهي قضية أخلاقية ينظر فيها كلُّ ناقد من خلال منظوره الخاص. وإذا بحثنا في النقد الجاهلي فإننا سنقف على موقف لأحد أكبر نقَّاد هذا العصر ألا وهو النابغة الذبياني؛ حيث نجد له مقولة وحُكما نقديا يُفضِّل فيهما المبالغة في الشعر. فقد ذكر ابن رشيق في سياق حديثه عن المبالغة، وآراء الناس فيها هذا الكلام: "وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان، وهو القائل: أشعر النَّاس من أُستُجيد كذبه، وضُحك من رديئه."[4]، والنابغة –كما يبدو– لا يقف موقفا رافضا من الكذب في الشعر، وإنَّما يرى أن يكون مستجادا من متلقيه، لكي يُحقِّق للشاعر السَّبق والأفضلية على غيره.

فولعه بالمبالغة جعله يتَّخذ حكما نقديا مميَّزا ومشهورا في كتب الأدب والنقد. " لمَّا أنشده حسَّان بن ثابت قصيدته التي قال فيها:

لنـــا الجفنـــاتُ الغُـــرُّ يلمعـــن بالضُّـــحى وأســـيافنا يقطـــرن مـــن نجـــدة دمـــا

ولـــدنا بنـــي العنقـــاء وابنـــيْ مُحـــرِّق فـــأكرم بنـــا خـــالا وأكـــرم بنـــا ابنمـــا

فقال له النابغة: أنت شاعر، ولكنَّك أقللتَ جِفانك وأسيافك، وفخرتَ بمَن ولدتَ، ولم تفخر بمَن ولدك."[5]، والنابغة في نقده لهذين البيتين قد جمع بين النقد اللفظي والنقد المعنوي كما ذكر ذلك شوقي ضيف: "وهو نقد سديد، إذ يتناول فيه النابغة مسألتين: إحداهما لفظية والأخرى معنوية، أمَّا اللفظية فإنَّ حسانًا لم يجمع الجفنات جمعا يدلُّ على

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص85.

[2] – المرزباني، الموشَّح، ص70.

[3] – الجداونه حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب، دار اليازوري، عمَّان، الأردن، ط1، 2012م، ص45.

[4] – ابن رشيق، المصدر السابق، ج2، ص45.

[5] – المرزباني، المرجع السابق، ص76.

الكثرة، والعرب تستحبُّ المبالغة في مثل هذا الموقف حين يفخر الشاعر بالكرم والشجاعة في قبيلته، أمَّا المسألة المعنوية ففخره بمن ولدته نساؤهم والعرب لا تفخر بالأبناء وإنَّما تفخر بالآباء."[1]، وبالرغم من أنَّ هذا الخبر قد كثُر ذكرُه في كتب الأدب والنقد، ومع تشكيك البعض في صحته[2]، فهو ينطوي -زيادة على النقد اللفظي والمعنوي- على نقد خلقي؛ ذلك أنَّ العلَّة التي أوردها النابغة في نقده لبيتي حسان علَّة أخلاقية بحتة، فنقده مثلا كلمة (الجفنات) لا يعود للفظها في حدِّ ذاته، وإنَّما لمدلولها ومضمونها، فهي تدل من حيث العدد على قليل، والمقام هنا مقام فخر ويقتضي المبالغة والكثرة، وبالتالي فلو استعمل مكانها (الجِفان) لكان أفضل. فليس من المعقول أن يفتخر الإنسان بكرمه وكرم قومه، ثم يُقلِّل عدد الجِفان. وكذلك القول في (أسيافنا) فهي تدل على قلّة، ولو قال(سيوفنا) لدلَّ على الكثرة، وكثرة سيوفهم تعني كثرة حروبهم، وتعني بالضرورة شدَّة بأسهم وشجاعتهم. والأمر كذلك في قوله:(وفخرت بمن ولدتَ، ولم تفخر بمن ولدك)، وهذا من الأمور التي تعارف عليها العرب، وأصبحت من عاداتهم وتقاليهم، فهم يفتخرون بأصولهم وليس بفروعهم، وهو خلق ينمُّ عن مدى احترامهم وتقديرهم لآبائهم. فيأتي حسَّان ويقلب هذه القيم والعادات رأسا على عقب، فهذا لا يُقبل منه ولو كان شاعرا فحلا كما أقرَّ له النابغة في بداية حكمه. قال صاحب الموشَّح: "وأمَّا قوله: فخرت بمن ولدتَ، ولم تفخر بمن ولدك، فلا عذر عندي لحسَّان فيه على مذهب نقاد الشعر."[3]

فلو تأمَّلنا العلل التي ذكرها النابغة في نقده هذا لوجدنا الغاية منها هو المحافظة على بعض القيم والفضائل التي تعارف عليها العرب والتزموا بها، كيف لا وهو الذي اختارته من بين الشعراء، وضربت له قُبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ليكون حكما بين الشعراء، ومفاضلا بينهم. فالنابغة كان حريصا أشدَّ الحرص على هذه القيم والعادات وخاصة في الشعر، سواء ما تعلَّق بتأكيده على المبالغة والإكثار من (الجِفان والسيوف)، أو ما تعلَّق بالمفاخرة بالآباء وليس بالأبناء. ولم يُشر أحدٌ إلى هذا الأمر ما عدا وليد قصَّاب في كتابه النقد العربي القديم (نصوص في الاتجاه الإسلامي والخلقي)، حيث أدرج هذه الحادثة النقدية التي كانت بين النابغة وحسَّان في فصل (ملامح النقد الخلقي في العصر الجاهلي)[4]

6- ومن ملامح النقد الخلقي في العصر الجاهلي ما كان بين حاتم طيٍّ والمتلمِّس؛ فلمَّا بلغ حاتمَ قولُ المتلمِّس:

قليـــــلُ المـــــال يصـــــلحه فيبقـــــى ولا يبقـــــى الكثيـــــر مـــــع الفســـــاد

وحفـــــظ المـــــال خيـــــرٍ مـــــن فنـــــاء وعَسْـــــفٌ فـــــي الـــــبلاد بغيـــــر زاد

قال: قطع الله لسانه، حمل النَّاس على البخل، فهلاَّ قال:

---

[1] - ضيف شوقي، النقد، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، 1954م، ص29.

[2] - ينظر على سبيل المثال طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى ق4هـ، مكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، السعودية، دط، 2004م، ص33-34.

[3] - المرزباني، الموشّح، ص77.

[4] - يُنظر قصاب إبراهيم، النقد العربي القديم، ص39.

فـــلا الجـــودُ يُفنـــي المـــال قبـــل ذهابـــه ولا البخـــل فـــي مـــال الشـــحيح يزيـــدُ

فـــلا تلـــتمس مـــالا بعـــيشٍ مقتَّـــرٍ لكـــلِّ غـــدٍ رزقٌ يعـــود جديـــدُ[1]

فحاتم الطائي يرى أنَّ المتلمِّس قد حمل النَّاس على البخل بقوله هذا، رغم أنَّه كما ذكر السيوطي في موضع آخر من أحسن ما قيل في حفظ المال.[2] إلاَّ أنَّ حاتما وهو من هو في البذل والعطاء، يرى في إصلاح المال وحفظه وعدم إفساده كما يقول المتلمِّس دعوة إلى البخل والإمساك والتقتير، وهو ليس من الأخلاق التي يرضاها حاتم الكريم السخيُّ الجواد.

7- ومن وجوه النقد الخلقي في هذا العصر أيضا ما كان متعلِّقا بقضية التكسُّب بالشعر، فمعظم شعراء هذا العصر رفضوا التكسُّب بشعرهم؛ لأنَّهم يرون في ذلك مذلَّةً ومهانةً لهم، وحطًّا من قدرهم، وطعنا ومثلبة في شعرهم. كما عابه ورفضه معظم النقاد، وكان رفضهم مبنيا على موقف خلقي واجتماعي ونفسي، فالشاعر المتكسِّب يضطرُّ إلى التذلُّل، وإراقة ماء الوجه، ومن ثمَّ الكذب حين يُسبغُ على الممدوح صفات غير حقيقية، ويضعه في مرتبة ليس أهلا لها. ومن الذين عُرفوا بتكسُّبهم بالشعر في الجاهلية الأعشى والنابغة الذبياني. قال أبو عمرو بن العلاء: "كان الشاعر في الجاهلية يُقدَّم على الخطيب، لفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يُقيِّد عليهم مآثرهم، ويُفخِّم شأنهم، ويُهوِّل على عدوِّهم ومن غزاهم، ويُهيِّب من فرسانهم، ويُخوِّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرِهم، فيراقب غيرَهم. فلمَّا كثُر الشعر والشعراء، واتَّخذوا الشعر مكسبةً، ورحلوا إلى السُّوقة، وتسرَّعوا إلى أعراض النَّاس؛ صار الخطيب عندهم فوق الشاعر. ولذلك قال الأول: (الشعر أدنى مروءة السَّري، وأسرى مروءة الدنيِّ). قال: ولقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذبياني، ولو كان في الدَّهر الأول ما زاده ذلك إلاَّ رفعة."[3]

وذُكر النابغة تحديدا لأنَّه مدح الملوك، وقَبِل الصِّلة على الشعر، ودليل ذلك ما جاء في الموشَّح: " أنَّ النابغة الذبياني قال للنعمان بن المنذر:

تـــــراك الأرضُ إمَّـــــا مـــــتَّ خفًّـــــا وتُحيـــــي إنْ حييـــــتَ بهـــــا ثقـــــيلا

فقال النعمان: هذا بيتٌ إنْ أنت لم تُتبعه بما يُوضِّح معناه كان إلى الهجاء أقرب منه إلى المديح؛ فأراد ذلك النابغة فعسُر عليه، فقال: أجِّلني. قال: قد أجَّلتُك ثلاثا، فإنْ أنت أتبعته ما يُوضِّح معناه فلَك مائة من العصافير(الإبل) نجائب؛ وإلاَّ فضربةٌ بالسَّيف أخذَتْ منك ما أخذْتَ. فأتى النابغة زهير بن أبي سُلمى، فأخبره الخبر، فقال زهير: أُخرج بنا إلى البريَّة؛ فإنَّ الشِّعر برِّيٌّ. فخرجا، فتبعهما ابنٌ لزهير يُقال له كعبٌ، فقال: يا عمُّ أردفني. فصاح به أبوه، فقال النابغة: دعْ ابنَ أخي يكون معنا؛ فأردفه، فتجاولا البيتَ مليًّا، فلم يأتهما ما يُريدان. فقال كعبٌ: فما يمنعك أن تقول:

وذاك بـــــأن حلَلْـــــتَ العـــــزَّ منهـــــا فتمنـــــــع جانبيهـــــــا أن يـــــــزولا

---

[1] – السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، شرح شواهد المغني، تح: أحمد ظاهر كوجان، لجنة التراث العربي، دط، 1966م، ج1، ص209.

[2] – المرجع نفسه، ص266.

[3] – الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط7، 1998م، ج1، ص241.

فقال النابغة: جاء بها وربِّ الكعبة؛ لسنا والله في شيء. قد جعلتُ لك يا ابن أخي ما جُعل لي. قال: وما جُعِل لك يا عمُّ؟ قال: مائة من العصافير نجائب. قال: ما كنتُ لآخذ على شعري صفدا، أي عطاء. فأتى النابغة النعمان بالبيت، فأخذ مائة ناقة سوداء الحدقة."[1]، والذي يعنينا هنا ليس نقد النعمان بن المنذر للنابغة، فهو نقد سديد يدل على بصيرة نافذة، فقد لاحظ النعمان أنَّ معنى هذا البيت يحتمل المديح والهجاء، وفيه غموض يحتاج إلى توضيح، وهذا ما طلبه النعمان من النابغة، أن يُكمل البيت ببيت آخر ليُزيل غموض الأول. وهو ما فعله النابغة بمساعدة كعب بن زهير. ولكنَّ بيت القصيد في هذا الخبر والذي يمتُّ بصلة إلى النقد الخلقي هو رفض كعب بن زهير أن يأخذ على شعره صَفَدًا أي عطاءً، وهو نقد خلقي صريح ولاذع في نفس الوقت، فكعب وهو الغلام الصغير يرى أن أخْذ عطاء على شعره يُعتبر منقصةً وعيبًا تأنفه نفسُه الأبيّةُ، فقال له: (ما كنتُ لآخذ على شعري صَفَدًا). ولكنَّ هذا النقد المدوِّي لم يجد إلاَّ آذانا صمَّاء، فقد ذهب النابغة للنعمان وأسمعه البيت، وأخذ عطيته، وهي مائة ناقة سوداء الحدقة.

8- ومن الأخبار التي تُروى بين الشعراء في النقد الخلقي، ما كان بين النابغة الذبياني وعامر بن الطُّفيل: "فلمَّا قَدِمَ النابغة بعد وَقْعَةِ حِسْيٍ سأل بني ذبيان: ما قلتم لعامر بن الطُّفيل وما قال لكم؟ فأنشدوه، فقال: أفحشتم على الرَّجُل وهو شريفٌ لا يُقال له مثل ذلك، ولكنِّي سأقول، ثمَّ قال:

فإنْ يَكُ عامرٌ قد قال جهلا ... فإنَّ مطيَّةَ الجهل السِّبابُ
فكنْ كأبيك أو كأبي براءٍ ... تُصادفُك الحكومة والصوابُ
فلا يذهبْ بِلُبِّك طائشاتٌ ... من الخُيَلاءِ ليس لهُنَّ بابُ
فإنَّك سوف تحلُمُ أو تناهى ... إذا ما شِبْتَ أو شابَ الغرابُ
فإن تكنِ الفوارسُ يوم حِسْيٍ ... أصابوا من لقائك ما أصابُوا
فما إن كان من سببٍ بعيدٍ ... ولكن أدركوك وهم غضابُ

فلمَّا بلغ عامرًا ما قال النابغةُ شقَّ عليه، وقال: ما هجاني أحدٌ حتَّى هجاني النابغةُ، جعلني القومُ رئيسًا، وجعلني النابغة سفيهًا جاهلاً وتهكَّم بي."[2]، وفي ديوان النابغة: "قال عامر بن الطُّفيل للنابغة في قصَّة:

ألاَ مَنْ مُبْلِغٌ عنِّي زيادًا ... غداةَ القَاعِ، إذْ أَزِفَ الضِّرَابُ

وهي أبياتٌ، فلمَّا بلغ هذا الشِّعرُ شعراءَ بني ذُبيانَ أرادوا هجاءَه، وائتمروا له، فقال لهم النَّابغة: إنَّ عامرًا له نَجْدَةٌ وشعرٌ، ولسنا بقادرين على الانتصار منه، ولكن دعوني أُجِبْهُ، وأُصغِّر إليه نفسه، وأفضِّل إليه أباه وعمَّه، فإنَّه يرى أنَّه أفضل منهما، وأُعيِّره بالجهل والصِّبى."[3]، فقال الأبيات.

9- من أخبار زهير بن أبي سلمى شاعر الحكمة وقاضي الشعراء أنَّه كان يتحاشى الهجاء، لأنَّ من كان له خلق كريم كخلق زهير عافت نفسه هذا النوع من الشعر، لأنَّه يقوم على استقصاء العيوب، والتنقير على المثالب. وزهير إذا هجا

[1] - المرزباني، الموشَّح، ص60.
[2] - ابن رشيق، العمدة، ج2، ص150.
[3] - النابغة الذبياني، الديوان، شرح وتقديم: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 1996م، التهميش رقم 1، ص83.

لا يفحُش ولا يقذع في الهجاء، وكان لا يهجو إلاَّ مضطرًّا. غير أنَّ الظلم يقتل الحلم أحيانا، واعتداء اللئام على الكرام لا تُجدي في دفعه الحكمة والروِّية، فيضطرُّ الكريم أن يركب مطية الجهل، وهو لها كارهٌ. وهذا ما كان بينه وبين بني الصَّيداء، وهم قوم من بني أسد، حيث قيل: "أنَّ بني الصَّيداء أغاروا على إبل لزهير، فاستاقوها، واستاقوا غلاما لزهير اسمه (يسار)، فلاذ الشاعر بالحكمة، وترفَّق في الطلب، وسأل الغزاة أن يردُّوا عليه ما غصبوا، فأبوا، فروَّى زهير، ورعى الحلف الذي يربط قومه بقوم المغيرين، وصان حرمة الجوار، واستحثَّ سيِّدهم الحارث من المُطل والمراوغة ونصح له بحماية عرضه من لسان زلق طلق قادر على هتك عرضه، وفضح مخازيه، وهجوه بفاحش القول، وتلطيخ شرفه بعار يُلازمه ملازمة الدُّهن للثوب الأبيض."[1]، وقال في ذلك:

هـــلاَّ ســـألتَ بنـــي الصَّـــيداء كلِّهـــم بـــأيِّ حبـــلِ جـــوارٍ، كنـــتُ أمتسِـــكُ
فلـــن يقولـــوا: بحبـــلٍ واهـــنٍ، خَلـــقٍ لـــو كـــان قومـــك فـــي أســـبابه هلكُـــوا
يـــا حـــارِ لا أُرْمَـــيَنْ مـــنكم بداهيـــةٍ لـــم يلقهـــا سُـــوقةٌ قبلـــي، ولا ملِـــكُ
أُردُدْ يســـارًا، ولا تعنُـــفْ عليـــه، ولا تمعَـــكْ بعرضـــك، إنَّ الغـــادرَ الـــمَعِكُ
ولا تكـــونَنْ كـــأقوام، علِمْـــتُهُمُ يلـــوون مـــا عنـــدهم، حتَّـــى إذا نُهِكُـــوا
طابـــت نفوســـهم، عـــن حـــقِّ خصـــمهم مخافـــة الشـــرِّ فارتـــدُّوا لـــمَا تركُـــوا
تعلَّمَـــنْ، هـــا لعمـــر الله ذا قســـما فاقـــدر بـــذرعك، وانظـــر: أيـــن تنســـلكُ
لـــئنْ حلَلْـــتَ بجَـــوٍّ فـــي بنـــي أســـدٍ فـــي دِيـــنِ عمـــرو، وحالـــت بيننـــا فَـــدَكُ
ليأتينَّـــك منِّـــي منطِـــقٌ قَـــذَعٌ بـــاقٍ كمـــا دنَّـــسَ القُبْطيَّـــةَ الـــوَدَكُ[2]

"ويبدو أنَّ الحارث طمع في حلم زهير، فلم يرعوِ، وأمسك الغلام والإبل ذاهبا إلى أنَّ حكمة زهير تمنعه من الولغ في أعراض النَّاس. ويذكر الرواة أنَّ الحارث لمَّا بلغته القصيدة لم يلتفت إليها، فأحفظ ذلك زهيرا، وانفجرت نفسه عن ثورة عنيفة، وانطلق لسانه بالهجاء المقذع وقال فيه وفي بني أسد أبياتا فاحشة منها:

تعلَّـــمْ أنَّ شـــرَّ النَّـــاس حَـــيٌّ يُنـــادَى فـــي شِـــعارِهِمُ يَسَـــارُ
ولـــولا عَسْـــبُهُ لَرَدَدْتُمُـــوه وشـــرُّ مَنيحَـــةٍ عَسْـــبٌ مُعَـــارُ
إذا جَمَحَـــتْ نســـاؤُكُمُ إليـــه أَشَـــظَّ، كأنَّـــه مَسَـــدٌ مُغَـــارُ
يُبَرْبِـــرُ حـــين يعـــدُو مـــن بعيـــدٍ إليهـــا، وهـــو قَبْقَـــابٌ قُطَـــارُ[3]

"فردَّه عليه، فلامه قومه وقالوا له: أُقتله ولا تُرسلْ به إليه، فأبى عليهم. فقال زهير عند ذلك:

---

[1] – غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي (قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه)، دار الإرشاد، دمشق، سوريا، ط1، 1992م، ص308.

[2] – زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص81-82.

[3] – غازي طليمات وعرفان الأشقر، المرجع السابق، ص308، والأبيات في الدِّيوان، ص51.

أَبْلِـــغْ لـــديك بنـــي الصَّـــيداء كُلَّهُـــمُ أنَّ يَســـــارًا أتانـــــا غيـــــرَ مغلُـــــولِ

ولا مُهـــــانٍ ولكـــــنْ عنـــــدَ ذي كَـــــرَمٍ وفـــــي حِبَـــالِ وَفِـــيٍّ غيـــرِ مجهـــولِ

فقال الحارث لقومه: أيُّهما أصلحُ: ما فعلتُ أو ما أردتُم ؟ قالوا: بل ما فعلتَ."[1]، وفي رواية أخرى أنَّ زهيرًا ردَّ بأبيات أخرى يمدح فيها الحارث، ويُعاتب قومه الذين أشاروا عليه بقتل يسار غلام زهير، يقول فيها:

أَبْلِـــغْ بنـــي نَوْفَـــل عنِّـــي فقـــد بلغُـــوا مِنِّـــي الحفيظـــةَ، لـــمَّا جـــاءني الخبـــرُ

القـــــائلين: يَسَـــــارًا لا تُنـــــاظرُهُ غشًّـــا لســـيِّدهم فـــي الأمْـــر، إذْ أمَـــرُوا

إنَّ ابـــــن ورقـــــاءَ لا تُخشَـــــى غوائلُـــــهُ لكـــــنْ وقائعُـــــه فـــــي الحـــــربِ تُنتَظَـــــرُ

لـــولا ابـــنُ ورقـــاء، والمجـــدُ التَّليـــدُ لـــه كـــانُوا قلـــيلا، فمـــا غـــزَّوا ولا كثُـــرُوا[2]

وكما جاء في الخبر فإنَّ زهيرا قد دُفع دفعا إلى الهجاء، ويبدو أنَّه ندم على ما فعل، فالهجاء ليس من طبعه، وإنَّما كان هيجة عارضة، وريحا عابرة، وشقشقة هدرت ثمَّ قرَّت. ودليل ذلك أنَّه مدح الحارث عندما ردَّ عليه يسارا. "وربَّما كانت هذه الأبيات ـ أبيات الهجاء ـ أسوأ ما قال زهير، وربَّما كان العار الذي لحق بزهير منها أدهى من العار الذي لحق بالحارث، إذْ شقَّت عنه ثوب الوقار الناصع البياض، ووصمته بشِيَةٍ سوداء. قال شيخ من مزينة قوم زهير: لولا الذي كان من زهير من الفحش في هجاء بني أسد لمَا كان في الأرض أتمُّ من مروءة شعره، ولا أقصدُ، ولا أقلُّ تزيُّدًا منه."[3]

وزهير قد هجا أيضا قوما من بني جناب الكلبيين، فأوجعهم ونال من رجولتهم، ودعاهم إلى ترك نسوتهم، وجعلهم نساء يبتغي لهنَّ الأزواج:

ومـــــا أدري وســـــوف إخـــــال أدري أَقَـــــومٌ آلُ حِصْـــــنٍ أم نســـــاءُ

فـــــإنْ تكـــــن النِّســـــاءُ مُخبَّـــــآتٍ فحُـــــقَّ بكـــــلِّ مُحْصِـــــنَةٍ هِـــــدَاءُ[4]

ولكنَّ شاعر الحكمة لا تنقصه الحكمة، ولا يرضى لنفسه أن تتمرَّغ في وَحْلِ هذا المستنقع القذر، فقد ندم؛ حيث أُثِرَ عنه أنَّه قال: "ما خرجتُ في ليلةٍ ظلماءَ إلاَّ خفتُ أن يُصيبني الله بعقوبة لهجائي قومًا ظلمتُهم."[5]، وإذا ما حلَّلنا هذا الخبر للوقوف على مواطن النقد الخلقي، فإننا نلمحها في النقاط الآتية:

– أنَّ زهيرًا كان يتحاشى الهجاء، فطبعه يأباه ونفسه تعافه، وهذا موقف أخلاقي جسَّده زهير في شعره؛ فلا نكاد نعثر في ديوانه إلاَّ على أمثلة معدودة من الهجاء، وكان لا يفحش فيه ولا يقذع في غالب هجائه.

---

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج10، ص240-241، والأبيات في الدّيوان، ص93.

[2] – زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص53.

[3] – غازي وعرفان، الأدب الجاهلي، ص309.

[4] – زهير بن أبي سلمى، المرجع السابق، ص17.

[5] – الأصفهاني، المرجع السابق، ج10، ص241.

– لم يكن الهجاء أوّل أسلحة زهير، بل كان آخرها؛ فقد تروّى وترفّق في الطلب، ثمَّ نصح وأرشد، ثمَّ هدَّد، وأخيرا نفَّذ لمَّا انقطعت به السُبل، فقد كان مدفوعا له دفعا ومضطَّرا له اضطرارا، صونا لكرامته، وحفظا واستردادا لماله وغلامه. وكأنَّه هنا يُطبِّق ما قاله في شعره:

وَمَــنْ لــم يَــذُدْ عــن حوضــه بســلاحه يُهــدَّمْ ومَــنْ لا يظلِــمِ النَّــاسَ يُظْلَــمِ[1]

– ما قاله شيخ مزينة قوم زهير، يُعتبر من النقد الأخلاقي؛ فهو يرى أنَّه لولا ما كان من زهير من هجاء فاحش لبني أسد لكان شعره في المقام الأول لا مثيل ولا ندَّ له، وكان زهير أشعر من في الأرض. فالمعيار الذي حكم به الشيخ ليس معيارا فنيا أو شكليا، إنَّما تعلَّق بهنة أخلاقية وُجدت في شعر زهير، وهي التي أخّرته عن الريادة والسيادة في الشعر كما يرى هذا الشيخ.

– النقد الذاتي الذي مارسه زهير على شعره يحمل طابعا أخلاقيا، فقد ندم على هجائه سواء لبني أسد أو بني جناب، ومقولته تُوحي بهذا الموقف الأخلاقي؛ فهناك هجاء ـ وهو ظلمٌ، كما يقول زهير ـ وهو حكم أخلاقي، أدَّى به إلى النَّدم والخوف من الله أن يُسلِّط عليه عقوبة. والنَّدم والخوف معاني نفسية وثيقة الصِّلة بالأخلاق، فلولا أخلاقه الكريمة لمَا ندم ولا خاف.

هذه جملة من الأخبار التي كانت تحمل في ثناياها نقدا يتَّصل بصورة مباشرة أو غير مباشرة بالأخلاق والقيم الفاضلة في العصر الجاهلي، وهي وإن كانت قليلة لكنَّها دليل قاطع على أنَّ هذا الاتجاه في النقد كان موجودا عند الجاهليين، والرأي الذي يقول بأنَّه ظهر بظهور الإسلام لا أساس له من الصِّحة، وفيه نوع من التجنِّي على العصر الجاهلي.

وكذلك من المغالطات التي ذُكرت فيما يتَّصل بعلاقة الشعر بالأخلاق في العصر الجاهلي، ما ذكرته (روز غريب) من أنَّ الشعر في العصر الجاهلي كان حرًّا من قيود الدِّين والأخلاق، حيث تقول: "ولم يكن شيء من هذا عند العرب في العصر الجاهلي، فالشعر عندهم ظلَّ حرًّا طليقًا من قيود الدّين والأخلاق، كان فنًّا للفنِّ وأدبًا مكشوفًا صريحًا، لم يتورَّع أصحابه عن وصف مباذلهم ومغامراتهم اللاَّهية أو الماجنة، كما فعل الشنفرى وامرؤ القيس وطرفة، بصورة طبيعية صادقة تتَّسع أحيانًا للإخراج الفنِّي، وأحيانًا تضيق عنه."[2]

فهذا كلام عار من الصّحة تمامًا، وفيه بعض المغالطات، فالشاعر الجاهلي كان ملتزمًا إلى حدٍّ كبير بالقيم والمبادئ والأخلاق التي آمن بها المجتمع العربي القبلي آنذاك، –وهذا ما أثبتناه في هذا الفصل–، وقد فُطِرَ عليها وأصبحت عنده طبعًا وسجيَّة، ولم يكن –كما قالت روز غريب– حرًّا من قيود الدّين والأخلاق، إلاَّ بقدر؛ فقد وُجد من الشعراء الجاهليين من تمرَّدوا على مجتمعهم وقيمهم، ولكنَّهم القلَّة وليسوا الكثرة. وربَّما نتَّفق مع روز غريب في تفلُّتهم من قيود الدّين –كما تصف هي ذلك– مع أنَّ البعض منهم كان يدين بالحنيفية أو النصرانية أو اليهودية، ولكنَّهم لم يتفلَّتوا من قيود الأخلاق والقيم والعادات التي تربَّوا ونشأوا عليها، باستثناء القليل منهم، وقد لاقوا العقاب والجزاء من قبائلهم، حيث تمَّ طردهم وخلعهم من القبيلة، وهؤلاء الشعراء الذين احتجَّت بهم روز غريب كانوا على رأس هؤلاء المطرودين من

[1] – زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص111.

[2] – غريب روز، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1952م، ص134.

قبائلهم. وحتَّى هؤلاء الشعراء المطرودين، وغيرهم من الشعراء الصعاليك، أمثال الشنفرى وطرفة وعروة بن الورد، قد نجد في شعرهم ما قالت روز غريب من مباذلات ومغامرات ماجنة، ولكنَّنا سنجد فيه كذلك الكثير من القيم والمبادئ الفاضلة التي تحلَّوا بها ودعوا إليها، فهُم وإن كانوا صعاليك إلاَّ أنَّ لهم أخلاقًا وفضائل التزموا بها، وهناك الكثير من الدراسات تتناول القيم الأخلاقية عند شعراء الصعاليك تُثبت ذلك.

وحتَّى نضع الأمور في نصابها نقول: إنَّ الاتجاه الأخلاقي وُلد في العصر الجاهلي، وشبَّ وترعرع وأصبح ناضجا مكتملا في عصر الإسلام وخاصة في بدايته. لذا يُمكن أن نعتبر أنَّ فترة صدر الإسلام هي العصر الذهبي للاتجاه الأخلاقي والدِّيني في الأدب عامة والنقد خاصة؛ ذلك أنَّ الإسلام جاء يدعو النَّاس جميعًا إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، والأدب والشعر وسيلة لتحقيق ذلك.

الفصـــل الثانـــي

النقد الأخـلاقـــي

في عصر صدر الإسلام

موقف الإسلام من الشعر:

لقد تأثَّرت حياة العرب بمجيء الإسلام، وتغيَّرت في جميع جوانبها العقيدية والاجتماعية والأدبية والثقافية والسياسية والاقتصادية...وهذا ما يُؤكِّده الكثير من الدارسين والباحثين، يقول أحدهم: "لقد أحدث الإسلام تغيُّرا شاملا في حياة العرب من جميع الجوانب؛ الاجتماعية والثقافية والفكرية، وغيَّر نُظمهم وبدَّل في مُثلهم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتأثَّرت الحياة الأدبية تأثُّرا كبيرا بالإسلام واصطبغت بالمعاني الدينية، وبفضل الإسلام تغيَّرت نظرة العرب للقيم والأخلاق؛ فزالت قيم جاهلية بغيضة، وحلَّت محلَّها قيم إسلامية سمحاء."[1]، ويقول آخر: "وتغلغل الإسلام في جميع مناحي الحياة، وأتى بكثير من القيم الروحية والمادية التي سبغت حياة العرب بسبغتها. وكان من هذه الجوانب التي تأثَّرت بالإسلام الحياة الثقافية وعلى رأسها الشعر؛ فدخلت إلى النقد بعض القيم الإسلامية."[2]

وبما أنَّ الإسلام قد أبدل الكثير من منظومة القيم والأخلاق الجاهلية، بل وحارب بعضها وقضى عليها؛ والتي يعتبر الشعر حاضنتها الأول، فقد خُيِّل للبعض أنَّه حارب الشعر كذلك، إلا أنَّه بالاستقراء والبحث يتَّضح أنَّ الدِّين لم يحارب الشعر لذاته، وإنما رفض له أن يكون مزمار إبليس يشدو بالغَواية والضلال، ويمجِّد الفتن والمفاسد، ويُذكي نار العصبية ويلغُ في الأعراض. وحتَّى نبيِّن ذلك لابدَّ أن نستعرض موقف القرآن الكريم والرسول ﷺ من الشعر، ومن ثَمَّ موقف بعض الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم.

1- موقف القرآن الكريم من الشعر:

وردت ألفاظ (الشعر، شاعر، الشعراء) في القرآن الكريم في ستة مواضع، جاءت في خمسة منها تردُّ الاتهامات الباطلة والصفات الطائشة التي نُعت بها الرسول محمد ﷺ، فما إن نزل القرآن العظيم معجزة بيانية تحدَّى العرب في فصاحتهم وبلاغتهم، وهم أرباب القول، وأساطين البلاغة والفصاحة، فبُهتوا بروعة أسلوبه وسحر بيانه، فراحوا يتخبَّطون في وصفه، ووصف مَن نزل عليه القرآن. ذكر ابن هشام في كتابه (السيرة النبوية): " أنَّ الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنَّه قد حضر هذا الموسم، وإنَّ وفود العرب ستُقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحدا، ولا تختلفوا فيُكذِّب بعضُكم بعضا، ويردُّ قولكم بعضه بعضا؛ قالوا: فأنت يا عبد شمس، فقل وأقِم لنا رأيا نقول به؛ قال: بل أنتم فقولوا أسمع؛ قالوا: نقول كاهن؛ قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهَّان فما هي بزمزمة الكاهن ولا سَجَعَه؛ قالوا: فنقول: مجنون؛ قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته؛ قالوا: فنقول: شاعر؛ قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشِّعر كلَّه رجزَه وهزَجه وقريضَه ومقبوضَه ومبسوطَه، فما هو بالشعر؛ قالوا: فنقول: ساحر؛ قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحَّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم؛ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنَّ

[1] – سعود عبد الجابر، النقد الأدبي القديم أصوله وتطوُّره، دار الحامد، عمان، الأردن، ط1، 2000م، ص17.

[2] – الجداونه حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص52.

لقوله لحلاوة، وإنَّ أصله لعذق، وإنَّ فرعه لجناة – قال ابن هشام: ويُقال لغَدَق – وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلاَّ عُرف أنَّه باطل، وإنَّ أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يُفرِّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرَّقوا عنه بذلك."[1]

فردَّ القرآن على هذه الأباطيل والافتراءات، ونفى ما ادَّعوه من وصف النبيِّ ﷺ بأنَّه شاعر، ووصف القرآن الذي نزل عليه بأنَّه شعر. قال الله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾[2]، وقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾[3]، وقال أيضا: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾[4]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[5]، وقال أيضا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6]

هذه الآيات الكريمات أشارت إلى وصْفِ كفّار قريش بأنَّ القرآن شعرٌ، وأنَّ محمَّدا ﷺ شاعرٌ، وأكَّدت هذه الآيات أنَّ القرآن الكريم هو كلام ربِّ العالمين، نزل به الروح الأمين على رسوله الكريم، بلسان عربيٍّ مبين. وأنَّه ليس بشعر ولا بقول كاهن، ومنزَّه أن يكون أضغاث أحلام أو كلاما مفترى. "وما كان ليخفى على كبراء قريش، وهم أئمة القول والبيان، أنَّ الأمر ليس كذلك، وأنَّ ما جاءهم به محمد ﷺ قول غير معهود في لغتهم، وما كانوا من الغفلة بحيث لا يُفرِّقون بين القرآن والشعر."[7]، إذن ما سبب زعمهم وافترائهم وادِّعائهم أنَّ القرآن الكريم شعر، وأنَّ الرسول ﷺ ما هو إلاَّ شاعر؟ يجيبنا على ذلك ختير عبد ربي قائلا: "حاولت قريش أن تُصوِّر القرآن بأنَّه شعر، هادفة من وراء ذلك إلى هدفين:

– الأول: أن يكون أثر القرآن في النَّاس ليس أكثر من أثر الشعر فيهم، حتَّى لا تكون له القدرة على بناء حياة ومُثل جديدة، لأنَّ الشاعر ليس ملزما لمن يسمعه ولا لمن يقرأه، فإذا أُخِذَ القرآن بهذا المأخذ سقط وجه استهدافه لبناء الحياة والمجتمع بالشكل الجديد.

---

[1] – ابن هشام، السيرة النبوية، ج1، ص302-303

[2] – سورة الأنبياء، الآية 5.

[3] – سورة يس، الآية 69.

[4] – سورة الصافات، الآيتان 36-37

[5] – سورة الطور، الآيتان 29-30.

[6] – سورة الحاقة، الآيات 40-43.

[7] – العاني سامي مكي، الإسلام والشعر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، 1996م، ص34.

– **الثاني**: أنَّ القرآن الكريم باعتبار كونه شعرا ليس إلاَّ من تقوُّلات محمّد ﷺ، فينفضُّ النَّاس من حوله ويبتعدون، فيُصبح من السَّهل عليهم تحطيمه وإسقاط دعوته."[1]

ونَفْيُ الشعر عن القرآن ليس تهوينا من قيمة الشعر، ولا انتقاصا من شأنه ومكانته، ولا يُفهم منه معاداة الإسلام له، إنَّما هو نفي لمزاعم كفار قريش وافتراءاتهم من جهة، ومن جهة أخرى إقرار بواقع ثابت لا ريب فيه. فالآيات السابقة لا يُفهم منها إطلاقا أنَّ القرآن الكريم ذمَّ الشعر، أو أصدر في شأنه حكما بالتحريم أو الكراهية. يقول الدكتور سامي مكي العاني: "والقرآن لم يتحدَّث في هذه الآيات عن الشعر من حيث هو فنٌّ من القول يجوز للمسلم أن يتعاطاه أو يحرم ذلك عليه، وإنَّما أورد لفظة الشعر أو الشاعر للتعريف بنفسه، وللتفريق بينه وبين الشعر فحسب."[2] وتحاول بنت الشاطئ توضيح هذه المسألة، وإزالة اللُّبس عنها بكلام نفيس ومُقنع لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، فتقول: "وهذا الإلحاح في نفي الشاعرية عن الرسول ﷺ لا يعني أنَّ الإسلام عادى الشعر وأنكره، وإنَّما هو بيانٌ لرسالة المصطفى ودفْعٌ للوهم الذي خلطوا به بين القرآن والشعر. ومن واديه تماما تأكيد القرآن لأميَّة محمد ﷺ دَفْعًا للاتِّهام بأنَّه قرأ الكتب السماوية وأخذ منها.﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[3]، ولم تعنِ أميَّة الرسول وتقرير القرآن لهذه الأميَّة أنَّ الدِّين الإسلامي يحضُّ على الأميَّة ويُعادي العلم!"[4]

وهذا المعنى هو ما ردَّ به الخليفة المأمون على أبي علي المنقري، حيث قيل: "دخل أبو علي المنقري على المأمون وكان مُتَّكئا على فُرُشه؛ فقال له: بلغني أنَّك أمِّيٌّ، وأنَّك لا تُقيم الشِّعر، وأنَّك تلحن، فقال: يا أمير المؤمنين، أمَّا اللَّحن فربَّما سبق لساني بشيء منه، وأمَّا الأُمِّيَّة وكسر الشِّعر فقد كان رسول الله ﷺ لا يكتب ولا يُقيمُ الشِّعر. فاستوى المأمون جالسا وقد ظهر الغضب على وجهه وقال: ويلك. سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعا؛ وهو جهلك وحمقك، يا جاهل! إنَّ ذلك كان في النبيِّ ﷺ فضيلةً، وهو فيك وفي أمثالك نقيصةٌ ورذيلةٌ، وإنَّما مُنِعَ النبيُّ من ذلك لنفي الظِّنَّة عنه، لا لعيبٍ في الشِّعر أو الكتابة، ولا لنقصٍ لحقهما."[5]، ذلك أنَّ الكثير من الدارسين والنقاد –قديما وحديثا– قد اختلط عليهم الأمر في هذه المسألة، وخصوصا عندما يقرأون ما جاء في سورة الشعراء. فآية الشعراء فُهمت من لدن هؤلاء فهمًا سقيمًا، وعلى غير وجهها الصحيح، وإن كان ظاهرها يُوحي بالغضِّ من قيمة الشعر والشعراء. قال الله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[6]، فالملاحظ أنَّ

---

[1] – ختير عبد ربي، النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي، دار الغرب، وهران، الجزائر، دط، 2003م، ص30.

[2] – العاني سامي مكي، الإسلام والشعر، ص35.

[3] – سورة العنكبوت، الآية 48.

[4] – بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1992م، ص72.

[5] – العلوي المظفَّر بن الفضل، نضرة الإغريض في نصرة القريض، تح: نُهى عارف الحسن، مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا، دط، دت، ص383.

[6] – سورة الشعراء، الآيات 224-227.

هذه الآيات وردت في سورة سُمِّيت بسورة (الشعراء)، وهذا دليل على أهمية ومكانة الشعراء، وعِظمِ دورهم في المجتمع. كذلك نلمح أنَّ الآيات قسَّمت الشعراء قسمين: الشعراء الذين يتَّبعهم الغاوون، والشعراء الذين آمنوا. فالصنف الأول، وهم الشعراء المذمومون في هذه الآيات الكريمة هم شعراء المشركين، الذين يتَّبعهم غواة النَّاس أو سفهاؤهم. قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى (**يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ**): " أنَّه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب، والنَّسيب بالحُرم والغزل والابتهار، ومدح من لا يستحق المدح، ولا يستحسن ذلك منهم ولا يطرب على قولهم إلاَّ الغاوون والسفهاء. وقيل: الغاوون: الراوون. وقيل: هم شعراء قريش: عبد الله بن الزبعري، وهبيرة بن أبي وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف، وأبو عزّة الجمحي، قالوا: نحن نقول مثل قول محمد، وكانوا يهجونه، ويجتمع إليهم الأعراب من قومهم يستمعون أشعارهم وأهاجيهم."[1] وبيَّنت الآيات علّة هذا الحكم على هؤلاء الشعراء الذين يتبعهم الغاوون بأمرين، **الأول**: "(**أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ**): والمراد منه الطرق المختلفة كقولك أنا في واد وأنت في واد، وذلك لأنَّهم قد يمدحون الشيء بعد أن ذمُّوه وبالعكس، وقد يُعظِّمونه بعد أن استحقروه وبالعكس، وذلك يدلُّ على أنَّهم لا يطلبون بشعرهم الحقَّ ولا الصدق بخلاف أمر محمد ﷺ، فإنَّه من أوَّل أمره إلى آخره بقي على طريق واحد وهو الدعوة إلى الله تعالى والترغيب في الآخرة والإعراض عن الدنيا. **والثاني**: (**أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**): وذلك أيضا من علامات الغواة، فإنَّهم يرغبون في الجود ويرغبون عنه، وينفرون عن البخل ويُصرُّون عليه، ويقدحون في النَّاس بأدنى شيء صدر عن واحد من أسلافهم ، ثم إنَّهم لا يرتكبون إلاَّ الفواحش، وذلك يدل على الغواية والضلالة."[2]

أمَّا من الناحية الفقهية فثمَّة مسألة اختلف فيها العلماء، وقد أوردها الشنقيطي في تفسيره؛ حيث قال: "اعلم أنَّ العلماء اختلفوا في الشاعر إذا اعترف في شعره بما يستوجب حدًّا، هل يُقام عليه الحدُّ؟ على قولين:

أحدهما: أنَّه يُقام عليه؛ لأنَّه أقرَّ به، والإقرار تثبت به الحدود.

والثاني: أنَّه لا يُحدُّ بإقراره في الشِّعر؛ لأنَّ كذب الشاعر في شعره أمرٌ معروفٌ معتادٌ واقعٌ لا نزاع فيه.

وأظهر القولين عندي: أنَّ الشاعر إذا أقرَّ في شعره بما يستوجب الحدَّ، لا يُقام عليه الحدُّ؛ لأنَّ الله جلَّ وعلا صرَّح هنا بكذبهم في شعرهم في قوله: ﴿**وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ**﴾، فهذه الآية الكريمة تدرأ عنهم الحدَّ، ولكنَّ الأظهر أنَّه إن أقرَّ بذلك استوجب بإقراره به الملام والتأديب، وإن كان لا يُحدُّ به."[3]

---

[1] – الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخران، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ط1، 1998م، ج4، ص425.

[2] – الرازي محمد فخر الدين، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1981م، ج24، ص175.

[3] – الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تح: أبو زيد بكر بن عبد الله، دار عالم الفوائد، جدَّة، السعودية، دط، دت، ج6، ص431-432.

ويُعلِّق ناصر الحنين على هذا الرأي للشنقيطي بقوله: "وجميل هذا التحقيق الذي أثبته الشنقيطي في هذه المسألة، وذلك من باب(سدِّ الذرائع) حتَّى لا يستغلَّ هذا الحكم المخفّف فُسَّاق الشعراء، فيقولوا أشعارا فيها خُبث وخنا، أو يأتون بألوان الزِّنا، ممَّا لا تُؤمن عواقبه، ولا تُحمد نتائجه على مجتمع المؤمنين الأطهار."، ويرى الباحث بدر المقبل أنَّ المؤاخذة الشرعية حاصلة على الشاعر، لأنَّه خرج عن طريق الإسلام في التعامل مع هذه الملكة الإلهية، ولا يصحُّ أن يُتلمَّس إباحة الشعر الفاحش من منطلق قرآني."[1]، لهذا نجد من الأخبار الطريفة التي لها علاقة بهذا الحكم في هذه المسألة، ما جاء في كتاب عيون الأخبار: " أنَّ الفرزدق أنشد سليمان بن عبد الملك:

ثـــــلاثٌ واثنتـــــان فهـــــنَّ خمـــــسٌ وسادســـــةٌ تميـــــل إلـــــى شِـــــمام

فبِـــــتْن بجـــــانبيَّ مُصـــــرَّعاتٍ وبـــــتُّ أفـــــضُّ أغـــــلاق الختـــــام

كـــــأنَّ مفـــــالق الرُّمـــــان فيـــــه وجمـــــرُ غضًـــــا قعـــــدن عليـــــه حـــــامي

فقال سليمان: ويحك يا فرزدق، أحللتَ بنفسك العقوبة، أقررتَ عندي بالزِّنا، وأنا إمام ولا بدَّ من أن أحُدَّك. فقال الفرزدق: بأيِّ شيءٍ أوجبتَ عليَّ ذلك؟ قال: بكتاب الله. قال: فإنَّ كتاب الله هو الذي يدرأ عنِّي الحدَّ. قال: وأين؟ قال في قوله: **﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾**، فأنا قلت يا أمير المؤمنين ما لم أفعل، وقول الشاعر:

وإنَّمـــــا الشـــــاعر مجنـــــون كَلِـــــبْ أكثـــر مـــا يـــأتي علـــى فيـــه الكَـــذِبْ "[2]

ثمَّ تستثني الآيات الشعراء المؤمنين الصالحين: **﴿إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾**: "الذين يُكثرون ذكر الله وتلاوة القرآن، وكان ذلك أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا شعرا قالوه في توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة، والزهد والآداب الحسنة، ومدح رسول الله ﷺ والصحابة وصلحاء الأمة، وما لا بأس به من المعاني التي لا يتلطخون فيها بذنب ولا يتلبسون بشائنة ولا منقصة، وكان هجاؤهم على سبيل الانتصار ممن يهجوهم، وذلك من غير اعتداء ولا زيادة على ما هو واجب لقوله تعالى:**﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾**[3]، وقيل: المراد بالمستثنين: عبد الله بن رواحة، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير؛ والذين كانوا يُنافحون عن رسول الله ﷺ، ويُكافحون هجاء قريش."[4]

---

[1] – القحطاني وضحى مسفر، دراسة في نظرية الأدب الإسلامي، ص284-285.

[2] – ابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري، عيون الأخبار، تح: اللجنة العلمية، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1996م، ج2، ص27.

[3] – سورة البقرة، الآية 194.

[4] – الزمخشري، الكشاف، ج4، ص426.

فالقرآن الكريم ومن خلال هذه الآيات من سورة الشعراء قد وضع ميزانا عاما للشِّعر، من خلال تصنيف الشعراء إلى قسمين، أولهما: الشعراء المشركون الذين وقفوا موقفا معاديا للدِّين الجديد والرسول ﷺ والمسلمين جميعا. وثانيهما: الشعراء المسلمون الذين وقفوا مع قيم الدِّين الجديد ونافحوا عنه ونصروا رسول الله ﷺ، وانتصروا للمسلمين.

فمقياس الشعر إذن بمنظور القرآن هو مقياس الدِّين والحق والفضيلة، فما كان منه موافقا للدِّين، منصاعا للحقِّ، متمسِّكا بالفضيلة؛ فهو جيِّد ومقبول، وما كان مخالفا للدِّين، ومنحازا للباطل، وداعيا للرذيلة؛ فهو قبيحٌ ومُنكَرٌ.

2- موقف الرسول ﷺ من الشعر:

وكذلك كان موقف الرسول ﷺ من الشعر والشعراء منسجما ومتوافقا تماما مع موقف القرآن الكريم، ويتلاءم وطبيعة المرحلة التي تمرُّ بها الدعوة الإسلامية آنذاك. وكيف لا يكون كذلك وكلامه ﷺ وحيٌ، يخرج من مشكاة واحدة هو والقرآن الكريم. فالأحاديث النبوية الشريفة الواردة في شأن الشعر والشعراء تسير في الإطار الذي حدَّده القرآن الكريم إلى تصنيف الشعراء قسمين: شاعر ملتزم بالدِّين والخلق الكريم، خيِّرٌ وصالحٌ يدعو إلى الفضيلة. وشاعر منحرفٌ، ضالٌ مُضِلٌ، لا يلتزم بالدّين، ولا يتمسَّك بخلق قويم. والأحاديث والأخبار الواردة في كتب السنَّة والسيرة والأدب، والمتعلِّقة بمواقف النبيِّ ﷺ من الشعر والشعراء نستطيع حصرها في ثلاثة أنواع:

* **النوع الأول:** أحاديث ومواقف تؤكِّد إعجاب الرسول ﷺ ببعض الشعر، واستماعه له، وطلب روايته وإنشاده. فالرسول ﷺ وهو أفصح العرب يعلم جيِّدا أنَّ للشِّعر قيمة كبرى في حياة العرب ووجودهم، ولا يُمكن بأيِّ حال أن يهجروه، كما لا يُمكن أن يدعو الرسول ﷺ إلى ما يُخالف الطبيعة العربية والإنسانية، لكون الشعر مظهرا من مظاهر الإبداع الفكري الإنساني، فقد رُوِيَ أنَّه قال:**« لا تدعُ العربُ الشِّعر حتَّى تدعَ الإبلُ الحنينَ »** [1]. ومن الأبيات التي أُعجب بها الرسول ﷺ كثيرا، وكان يستنشدها ويتمثَّلها بيت طرفة بن العبد الذي يقول فيه:

ستبدي لك الأيَّام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تُزوَّدِ

فلمَّا أُنشد النبيُّ ﷺ هذا البيت قال: **« هَذَا مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّة! »** [2]

- ومن المواقف أيضا ما جاء في كتاب الشعر والشعراء من أنَّه: "لمَّا وفد العلاء بن الحضرميُّ على النبيِّ ﷺ فقال: أتقرأ من القرآن شيئا؟ فقرأ (عبس) وزاد فيها من عنده: (وهو الذي أخرج من الحُبلى، نَسَمَةً تسعى، من بين شراسيف وحشًى)؛ فصاح به النبيُّ ﷺ وقال له: كُفَّ فإنَّ السورة كافية. ثمَّ قال: هل تروي من الشِّعر شيئا؟ فأنشده:

حَيِّ ذَوي الأضْغانِ تسْبِ قلوبَهم تحيَّتَك القُربى فقد تُرقَعُ النِّعَلْ

وإنْ دَحَسُوا بالكُرْهِ فاعْفُ تَكَرُّمًا وإنْ خَنَسُوا عنك الحديثَ فلا تَسَلْ

---

[1]- ابن رشيق، العمدة، ج1، ص26.

[2]- ابن عبد ربِّه، أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ج6، ص120.

فقال النبيُّ ﷺ: « **إنَّ من الشِّعرِ حِكَمًا، وإنَّ من البيان سِحْرًا** »"[1]، وإنَّ هذا القول من رسول الله ﷺ لتأكيد منه على القيمة الفنّية الهامة للشعر ودوره الهام في بناء الفرد والمجتمع؛ لما له من أثر وتأثير كبيرين على النَّفس، بل وكان ﷺ يُدرك غاية الإدراك مهمة الشعر، ويعرف قدره ودوره العظيم في حياة العرب، ومكانته في نفوسهم. قال ﷺ: «**إنَّ هذا الشِّعرَ سَجْعٌ من كلام العرب، به يُعْطَى السَّائلُ، وبه يُكْظَمُ الغيظُ، وبه يُؤتَى القومُ في ناديهم**» [2]، والشعر عند الرسول ﷺ بمنزلة الكلام، فحسنه حسن وقبيحه قبيح، فما كان موافقا للحقِّ فهو حسن، وما كان مُجانبا الحقَّ منه فهو باطل لا خير فيه. قال الرسول ﷺ: «**إنَّما الشِّعر كلام مؤلَّفٌ فما وافق الحقَّ منه فهو حسنٌ، وما لم يُوافق الحقَّ منه فلا خير فيه**»[3]، وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشِّعر بمنزلة الكلام، حسنُه كحسن الكلام، وقبيحُه كقبيح الكلام**»[4].

وأُثِرَ عن النبيُّ ﷺ أنَّه كان يُجالس أصحابه ويُصغي إليهم، ويستمع إلى ما يُنشدون من أشعارهم أو ما يروونه من أشعار الجاهلية. "عن جابر بن سمرة قال: جالستُ النبيَّ ﷺ أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية، وهو ساكت وربَّما تبسَّم معهم."[5]، وهذا ما يُؤكِّد قول الخليل بن أحمد الفراهيدي، حين قال:" كان الشّعر أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام، ولكن كان لا يتأتَّى له "[6]، وخاصة إذا كان هذا الشّعر يدعو إلى الفضيلة والخلق الكريم، أو فيه من الحكم والعِبر ما يتَّفق وتعاليم الشريعة الإسلامية، فقد أنشد منشدٌ النبيَّ ﷺ قول سويد بن عامر المصطلقي:

لا تـــأمننَّ وإن أمســـيتَ فـــي حـــرم ... إنَّ المنايـــا بجنبـــي كـــلِّ إنســـان

فاســلك طريقــك تمشــي غيــر مختشــع ... حتَّــى تُلاقــي الــذي منِّــي لــك المــاني

فكـــلُّ صـــاحب يومـــا مُفارقـــه ... وكـــلُّ زادٍ وإن أبقيتـــه فـــان

والخيـــرُ والشـــرُّ مقرونـــان فـــي قـــرَن ... بكـــلِّ ذلـــك يأتيـــك الجديـــدان

فقال النبيُّ ﷺ: «**لَوْ أَدْرَكَ هَذَا الإِسْلَامَ لأَسْلَمَ**»"[7]، "وأُنشِد رسول الله ﷺ قول سحيم عبد بني الحسحاس:

الحمـــدُ لله حمـــدًا لا انقطـــاع لـــه ... فلـــيس إحســـانه عنَّـــا بمقطـــوع

---

[1]- ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج2، ص18.

[2]- السُّبكي تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة الحلبي وشركاه، دمشق، سوريا، ط1، 1964م، ج1، ص224.

[3] - ابن رشيق، العمدة، ج1، ص23.

[4] - البخاري، صحيح الأدب المفرد، تح: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة الدليل، الرياض، السعودية، ط4، 1997م، ص321.

[5] - الخازن علاء الدين علي بن محمد البغدادي، تفسير الخازن المسمَّى(لباب التأويل في معاني التنزيل)، تح: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ج3، ص335.

[6]- الزمخشري، الكشَّاف، ج5، ص189.

[7]- ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، ج6، ص125.

فقال: **«أحسن وصدق، وإنَّ الله يشكر مثل هذا، ولئن سدَّد وقارب إنَّه لمن أهل الجنَّة»**"[1]

– وممَّا روته مصادر الأدب أنَّ النبيَّ ﷺ كان يستنشد أصحابه في بعض المواقف، ومنها ما جاء في كتاب الأغاني: "أنَّ النبيَّ ﷺ سأل ليلة–وهو في سفر–: أين حسَّان بن ثابت؟، فقال حسَّان: لبَّيك يا رسول الله وسعديك. قال: أُحْدُ، فجعل حسَّان ينشد ويُصغي إليه النبيُّ ﷺ ويستمع، فما زال يستمع إليه وهو سائقٌ راحلته حتَّى كان رأس الرَّاحلة يَمَسُّ الوَرِكَ حتَّى فرغ من نشيده. فقال النبيُّ ﷺ: **«لهذا أشدُّ عليهم من وَقْعِ النَّبْلِ»**"[2]، ولم يكن النبيُّ ﷺ يستمع للرِّجال فقط، بل أُثِر عنه أنَّه استمع للنِّساء الشاعرات أيضًا، فقد "كان النبيُّ ﷺ يُعجبه شعر الخنساء ويستنشدها، ويقول: **« هِيهِ يَا خُنَاسُ، ويُومِئُ بِيَدِهِ ﷺ »**"[3]

وقد وافق ﷺ أن ينظم الشعراء أحاديثه الوعظية شعرا، تسهيلا لحفظها، فقد كان يستأذنه الشعراء في بعض مجالسه بعد الاستماع لمواعظه أن يصوغوا ما استمعوا إليه نظما، وكان ﷺ يأذن لهم. ومن ذلك ما رواه قيس بن عاصم، حيث قال: "وفدتُ مع جماعة من بني تميم، فدخلتُ على رسول الله ﷺ ـ وعنده الصلصال بن الدَّلَهْمَس، فقلتُ: يا رسول الله، عِظنا عظةً ننتفع بها، فوعظنا موعظة حسنة، فقلتُ: أحبُّ أن يكون هذا الكلام أبياتا من الشِّعر نفتخر به على من يلينا وندَّخرها، فأمر من يأتيه بحسَّان، فقال الصَّلصال: يا رسول الله قد حضرتني أبياتٌ أحسبها توافق ما أراد قيس، فقال: هاتها، فقال:

تجنَّبْ خليطا من مقالك إنَّما ... قرينُ الفتى في القبر ما كان يفعلُ
ولابُدَّ بعد الموت من أن تُعِدهُ ... ليوم يُنَادى المرءُ فيه فَيُقْبِلُ
وإنْ كنتَ مشغولا بشيءٍ فلا تكنْ ... بغير الذي يرضى به الله تُشغَلُ
ولن يصحب الإنسانَ من قبل موته ... ومن بعده إلاَّ الذي كان يعملُ
ألاَ إنَّما الإنسانُ ضيفٌ لأهله ... يُقيمُ قليلا بينهم ثمَّ يرحلُ[4]

وكان النبيُّ ﷺ يتأثَّر بما يسمع من شعر، وقد عرف الشعراء ما للشعر من تأثير في نفس الرسول ﷺ وقلبه، فاتخذوه وسيلة يستشفعون بها عنده، فكان الرسول ﷺ –وهو الرحمة المهداة– يستجيب لهم فيعفو ويصفح، وينصر مستنصرهم، ويُغيث مستغيثهم، ويرقُّ لمتألِّمهم. رُوِي أنَّ رسول الله ﷺ سبى من قبيلة هوازن –بعد غزوة حُنين– ستَّة آلاف من الذَّراري والنساء، ومن الإبل والشَّاء ما لا يُدْرَى ما عِدَّتُه، فأتى وَفْدُ هوازن الرسول ﷺ بالجُعرانة، فقام رجلٌ منهم يُقال له زُهير أبو صُرَدٍ، فقال يا رسول الله: إنَّما في الحظائر عمَّاتك وخالاتك وحواضنك اللاَّتي كُنَّ يكفلنك، ولو أنَّا مَلَحْنا

---

[1]– البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط4، 1997م، ج2، ص103.

[2] – الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص110.

[3] – البغدادي، المرجع السابق، ج1، ص434.

[4]– العسقلاني أحمد بن علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل عبد الموجود وعلي معوَّض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م، ج3، ص261.

للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثمَّ نزل منَّا بمثل الذي نزلتَ به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين. ثمَّ أنشد:

أُمْـــنُن علينـــا رســـول الله فـــي كَـــرَمٍ	فإنَّـــك المـــرء نرجـــوه وننتظـــر
أُمـــنن علـــى بيضـــةٍ قـــد عاقهـــا قـــدرٌ	مُمـــزَّقٌ شـــملها فـــي دهرهـــا غِيَـــرُ
يـــا خيـــرَ طفْـــلٍ ومولـــودٍ ومُنتخـــبٍ	فـــي العـــالمين إذا مـــا حُصِّـــل البشـــرُ
إنْ لـــم تـــداركهم نعمـــاءُ تنشـــرها	يـــا أرجـــحَ النَّـــاس حِلمـــا حـــين يُختبـــرُ
أُمـــنن علـــى نســـوةٍ قـــد كنـــتَ ترضَـــعُها	إذْ فـــوك تمـــلأه مـــن محضـــها الـــدِّرَرُ
إنَّـــا لنشـــكرُ آلاءً وإنْ كُفِـــرتْ	وعنـــدنا بعـــد هـــذا اليـــوم مُـــدَّخرُ
إنَّـــا نؤمِّـــل عفـــوًا منـــك تُلبسُـــه	هـــذي البريَّـــةَ إذ تعفـــو وتنتصـــرُ
فـــاغفرْ عفـــا الله عمَّـــا أنـــت راهبُـــه	يـــوم القيامـــة إذ يُهْـــدَى لـــك الظَّفَـــرُ

فقال رسول الله ﷺ: **« أمَّا من تمسَّك منكم بحقِّه من هذا السَّبْي فله بكلِّ إنسان سِتُّ فرائض، من أوَّل سَبْي أُصِيبُه، فرُدُّوا إلى النَّاسِ أبْنَاءَهُم ونِسَاءَهُم »**[1]، ومن هذا القبيل، أي تأثُّر النبيِّ ﷺ بالشعر عند استماعه ولو كان متعلِّقا بالمشركين، ومن ناصبوه العداء، بل وقاتلوه، "ما قالته قُتيلة أخت النَّضر بن الحارث–وقيل ابنته–في رثاء أخيها الذي أمر الرسول ﷺ عليًّا بقتله، فضرب عنقه في مكان يُسمَّى(الصَّفراء)، وممَّا جاء في رثائها:

يـــا راكبًـــا إنَّ الأُثَيْـــلَ مَظِنَّـــةٌ	مـــن صُـــبْحِ خامســـةٍ وأنـــت موفَّـــقُ
أبلـــغْ بـــه مَيْتًـــا بـــأنَّ تحيَّـــةً	مـــا إنْ تـــزالُ بهـــا النَّجائـــبُ تَخْفِـــقُ
منِّـــي إليـــك وعَبْـــرَة مســـفوحة	جـــادت بـــدرَّتها وأخـــرى تخنِـــقُ
هـــل يســـمعنَّ النَّضـــرُ إن ناديتُـــه	إن كـــان يســـمع هالـــكٌ لا ينطـــقُ
أمُحمَّـــدُ ولأنـــتَ نَسْـــلُ نجيبـــةٍ	فـــي قومهـــا والفحـــلُ فحـــلٌ مُعْـــرِقُ
مـــا كـــان ضـــرّك لـــو مننـــتَ وربَّمـــا	مَـــنَّ الفتـــى وهـــو الـــمَغِيظُ الـــمُحْنَقُ

فبلغنا أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«لو سمعتُ هذا قبل أن أقتله ما قتلتُه»**"[2]

– وفي بعض المواقف يفعل الشِّعر فعله، ويبلغ التأثُّر بالنبيِّ ﷺ مبلغه؛ فتدمع عيناه ويبكي ﷺ، ومن هذا ما كان بينه وبين الشاعر عمرو بن سالم الخُزاعي، "وكانت خُزاعة حلفاء له، فلمَّا كانت الهُدنة بينهم وبين قريش، أغاروا على حيٍّ من خُزاعة يُقال لهم بنو كعب، فقتلوا فيهم، وأخذوا أموالهم، فقدم عمرو على النبيِّ ﷺ مستنصرا به، فقال:

[1]– يُنظر السُّهيلي عبد الرحمن الخُثعمي، الرَّوض الأنف في تفسير السِّيرة النبوية لابن هشام، تح: مجدي بن منصور، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط1، دت، ج4، ص263–265.

[2]– الأصفهاني، الأغاني، ج1، ص35.

يـــــا ربِّ إنِّـــــي ناشـــــدٌ محمَّـــــدا حِلْـــــفَ أبينـــــا وأبيـــــه الأتلـــــدا
نحـــــن ولـــــدناهم فكـــــانوا ولـــــدا ثُمَّـــــتَ أســـــلمنا فلـــــم ننـــــزع يـــــدا
إنَّ قريشـــــا أخلفـــــوك الموعـــــدا ونقضـــــوا ميثاقـــــك المؤكَّـــــدا
ونصـــــبوا لـــــي فـــــي كـــــداء رُصَّـــــدا وبيَّتونـــــا رُكَّعًـــــا وسُـــــجَّدا
وقتَّلونـــــا بـــــالوتير هُجَّـــــدا وزعمـــــوا أن لســـــت تـــــدعو أحـــــدا
وهـــــم أذلُّ وأقـــــلُّ عـــــددا فانصـــــر هـــــداك الله نصـــــرا أيِّـــــدا
وادعُ عبـــــاد الله يـــــأتوا مـــــددا فـــــيهم رســـــول الله قـــــد تجـــــرَّدا

قال: فدمعت عينا رسول الله ﷺ، ونظر إلى سحابة قد بعثها الله تعالى، فقال: **«والذي بعثني بالحقِّ نبيًّا إنَّ هذه السَّحابةَ لتستهلَّ بنصر بني كعب»**، وخرج بمن معه لنصرهم."[1]

– ومن الأخبار التي تناقلتها بعض كتب الحديث والفقه: أنَّ رجلا جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ أبي أخذ مالي. فقال النبيُّ ﷺ: **«اذهب فأتني بأبيك»**، فنزل جبريل على النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يُقرئك السَّلام، ويقول لك: إذا جاءك الشيخ، فسَلْه عن شيءٍ قاله في نفسه ما سمعته أُذُناه. فلمَّا جاء الشيخ، قال له النبيُّ ﷺ: **«ما بال ابنك يشكوك؟ أتريد أن تأخذ ماله؟»**، فقال: سَلْهُ يا رسول الله، هل أُنفقه إلاَّ على إحدى عمَّاته أو خالاته، أو على نفسي؟ فقال النبيُّ ﷺ: **«إيه، دعنا من هذا. أخبرني عن شيءٍ قلته في نفسك ما سمعته أُذُناك»**، فقال الشيخ: والله يا رسول الله، ما يزال الله يزيدنا بك يقينا. لقد قلتُ شيئا في نفسي ما سمعته أُذُناي، فقال: **«قل وأنا أسمع»**، قال: قلتُ:

غـــــذوتك مولـــــودا ومُنتـــــك يافعـــــا تُعِـــــلُّ بمـــــا أجنـــــي عليـــــك وتُنهـــــلُ
إذا ليلـــــةٌ ضـــــافتك بالسُّـــــقم لـــــم أبِـــــتْ لسُـــــقمك إلاَّ ســـــاهرا أتململـــــلُ
كـــــأنِّي أنـــــا المطـــــروقُ دونـــــك بالـــــذي طُرقـــــت بـــــه دونـــــي فعينـــــيَّ تهمـــــلُ
تخـــــاف الـــــرَّدى نفســـــي عليـــــك وإنَّهـــــا لـــــتعلمُ أنَّ المـــــوت وقـــــتٌ مؤجَـــــلُ
فلمَّـــــا بلغْـــــتَ السِّـــــنَّ والغايـــــةَ التـــــي إليهـــــا مـــــدى مـــــا كنـــــتُ فيـــــك أُؤَمِّـــــلُ
جعلْـــــتَ جزائـــــي غِلظـــــةً وفظاظـــــةً كأنَّـــــك أنـــــت المـــــنعمُ المتفضِّـــــلُ
فليتَـــــك إذْ لـــــم تَـــــرْعَ حـــــقَّ أُبُـــــوَّتي فعلْـــــتَ كمـــــا الجـــــارُ الـــــمُجاورُ يفعـــــلُ

فحينئذ أخذ النبيُّ ﷺ بتلابيب ابنه، وقال: **« أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ »**[2]

---

[1]– القرشي أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، القاهرة، مصر، دط، دت، ج1، ص154-155.

[2]– الهيثمي نور الدِّين علي بن سليمان المصري ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تح: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ج4، ص196-197.

– ومن أشهر المواقف وأكثرها ذكرا في الاستعطاف والاستشفاع بالشعر عند الرسول ﷺ ما كان من الشاعر كعب بن زُهير، حيث جاء في الخبر كما ذكر ابن قتيبة: أنَّ رسول الله ﷺ قد توعَّد كعبا لأنَّه أرسل إلى أخيه بُجَيْر ينهاه عن الإسلام، فبعث إليه بُجَيْر فحذَّره، فقَدِمَ على رسول الله ﷺ، فبدأ بأبي بكر فلمَّا سلَّم النبيُّ من صلاة الصُّبح جاء به وهو متلثِّمٌ بعمامته، فقال يا رسول الله هذا رجلٌ جاء يُبايعك على الإسلام، فبسط النبيُّ ﷺ يده، فحسر كعبٌ عن وجهه وقال: هذا مقام العائذ بك يا رسول الله أنا كعبُ بن زهير. فتجهَّمتْه الأنصار وغلَّظت له لذكره كان قبل ذلك رسول الله ﷺ، وأحبَّت المهاجرة أن يُسلم ويُؤمِّنه النبيُّ ﷺ، فآمنه واستنشده:

بانَـــت سُـــعادُ فَقَلبـــي اليَـــومَ مَتبُـــولُ مُتَيَّـــمٌ إِثرَهـــا لَـــم يُجْـــزَ مَكبـــولُ

وَمـــا سُـــعادُ غَـــداةَ البَيـــنِ إِذ رَحَلـــوا إِلّا أَغَـــنُّ غَضـــيضُ الطَـــرفِ مَكحـــولُ

إلى أنْ قال:

أُنبِئْـــتُ أَنَّ رَسُـــولَ اللَّـــهِ أَوْعَدَنـــي وَالعَفْـــوُ عنـــد رَســـُولِ اللَّـــهِ مَأمُـــولُ

مَـــهلاً! هَـــداكَ الَّـــذي أَعطـــاكَ نافِلَـــةَ الـــ ـقُـــرآنِ فيهـــا مَواعيـــظٌ، وَتَفْصِيـــلُ

لا تَأخُذَنّـــي بِأَقْـــوالِ الوُشَـــاةِ، وَلَـــمْ أُذْنِـــبْ ولـــو كَثُـــرَتْ عَنّـــي الأَقَاويـــلُ

فلمَّا بلغ قوله:

إِنَّ الرَّسُـــولَ لَسَيـــفٌ يُستَضَـــاءُ بِـــهِ مُهَنَّـــدٌ مِـــن سُيـــُوفِ اللهِ مَسْلـــُولُ

فـــي عُصْـــبَةٍ مِـــن قُـــرَيْشٍ قـــالَ قائِلُهُـــم بِـــبَطْنِ مَكَّـــةَ لَمَّـــا أَسْلَمـــُوا: زُولـــُوا

زَالُـــوا فَمـــا زالَ أَنْكَـــاسٌ وَلا كُشُـــفٌ عِنـــدَ اللِّقَـــاءِ وَلا مِيـــلٌ مَعَازِيـــلُ[1]

فنظر رسول الله ﷺ إلى مَنْ عنده من قريش كأنَّه يُومي إليهم أن يسمعوا..ثمَّ كساه النبيُّ ﷺ بُردة اشتراها معاوية بعد ذلك بعشرين ألف درهم، وهي التي يلبسها الخلفاء في العيدين.[2]

ولعظم شأن هذه القصيدة التي أُشتُهرت بالبردة، فقد أُلِّفت المؤلَّفات العديدة في تمحيصها وشرحها، والتثبُّت من صحَّة إسنادها. وما يُميِّز قصيدة كعب هذه أنَّها احتوت على أكثر من اثني عشر بيتًا كانت في الغزل، وقد استمع لها النبيُّ ﷺ، وأُعجب بها. وما يستوقفنا هنا قبول الرسول ﷺ لها، وقد اشتملت على الغزل بنوعيه الحسِّي والمعنوي، وحاشا لرسول الله ﷺ أن يُجيز الفُحش أو يُقرَّ به. وتُفسِّر الدكتورة وضحى القحطاني الموقف قائلة: "والذي أميل إليه –والله أعلم– أنَّ النبيَّ ﷺ أدرك لأوَّل وهلة أنَّ المحبوبة مجهولة، وأنَّ الأمر نسج خيال، ويُتوسَّع في الشعر ما لا يُتوسَّع في غيره."[3].

---

[1] – كعب بن زهير، الديوان، تح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1997م، ص60-67.

[2] – يُنظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص84. 85.

[3] – القحطاني وضحى مسفر، دراسة في نظرية الأدب الإسلامي، ص305.

أمَّا الباحث بدر بن علي المقبل فيرى أنَّ كعب بن زهير كان قريبًا من العصر الجاهلي، ولم يُتَحْ له الوقت الكافي للانفلات من رقِّ بعض العادات الفنِّية المتوارثة من العصر الجاهلي، ومن هنا جاءته الجرأة على التغزُّل أمام سيِّد الخلق. فهو ينطق عن عادة بدوية، وسجيَّة جاهلية متوارثة مرسومة.[1]

وممَّا يُثبت أنَّ هذا الغزل مُتجاوزٌ عنه لأنَّه من باب الخيال، ما استنبطه الكثير من علماء التَّفسير والفقه من أحكام فقهية تتعلَّق بالموقف الشرعي من التَّشبيب بالنساء. وقد جمعها الدكتور سعود الفنيسان في كتابه (توثيق قصيدة بانت سعاد في المتن والإسناد)، وكان ممَّا أورده من أحكام:

1– إذا شبَّب الشاعر بامرأة بعينها –ليست ممَّا يحلُّ له وطؤها– رُدَّت شهادته .

2– ومَن شبَّب ولم يُعيِّن أحدًا –كعادة الشعراء في مطلع قصائدهم– لم تُردَّ شهادته.

3– يجوز في الشعر من المبالغة ما لا يجوز في سائر الكلام المنثور.[2]

– ولم يكتف الرسول ﷺ بسماع الشعر واستنشاده، بل كان يحثُّ عليه حثًّا، وخاصة في الحروب، فقد اشتعلت معارك السِّنان والطِّعان مع معارك اللِّسان والبيان. واستخدمت قريش سلاح الكلمة في حربها مع الرسول ﷺ في أنديتها ومجالسها ومواسمها، وحرَّضت وأغرت شعراءها وخطباءها للنَّيل والطعن في رسول الله ﷺ وفي عرضه وشرفه، فآذوه وهجوه واستهزأوا بدينه. فما كان من الرسول ﷺ إلاَّ أن يفلَّ من هذا السِّلاح الذي أراد المشركون أن يتَّخذوه وسيلة للانتقاص منه والقضاء على دعوته. ولذا طلب الرسول ﷺ من شعراء المسلمين أن يردُّوا على قريش وأن ينصروه بألسنتهم كما ينصرونه بأسلحتهم، قال ﷺ: **«جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ »**[3].

وقد كان حسَّان بن ثابت ﷺ الشاعر المقدَّم عند رسول الله ﷺ، حيث كان يُفضِّله على سائر شعراء المسلمين خاصة في هجاء المشركين، بل خُصَّ ﷺ بمزيَّتين، لم ولن يحظ بهما أحد من المسلمين قبله ولا بعده، الأولى: أنَّ رسول الله ﷺ وضع له منبرًا في مسجده يقوم عليه وينشد شعره بين يدي النبيِّ ﷺ، والثانية: أنَّه مُؤيَّدٌ في شعره بروح القُدُس، جبريل عليه السلام. ولهذا لُقِّب بشاعر الرسول ﷺ. "عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسَّان منبرا في المسجد، يقوم عليه قائما يُفاخِرُ عن رسول الله ﷺ، أو قالت: يُنافحُ عن رسول الله ﷺ. ويقول رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله يُؤيِّد حسَّان بروح القُدُس ما يُفاخِر، أو يُنافِحُ عن رسول الله ﷺ »**"[4]

---

[1] – يُنظر المقبل بدر بن علي، شعر الغزل في ضوء منهج الأدب الإسلامي(دراسة نقدية)، دار ابن الجوزي، الدمَّام، السعودية، ط1، 2007م، ص444.

[2] – يُنظر الفنيسان سعود بن عبد الله، توثيق قصيدة بانت سعاد في المتن والإسناد، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، ط1، 1999م، ص47-48.

[3] – أبو داود، سنن أبي داود، باب كراهية ترك الغزو، رقم الحديث2504، ج3، ص10.

[4] – الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الكبير المعروف بسنن الترمذي، تح: بشّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، ج4، باب ما جاء في إنشاد الشّعر، رقم الحديث2846، ص529.

وحسَّان بن ثابت كان يهجو قريشا بالأيام التي هُزِموا فيها، ويُعيِّرهم بالمثالب والأنساب، ولو هجاهم بالكفر والشِّرك ما بلغ منهم مبلغًا. والأحاديث الواردة في شأن حسَّان بن ثابت كثيرة منها ما رواه مسلم في صحيحه: "عن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«اُهجُوا قريشا فإنَّه أشدُّ عليها من رشْقٍ بالنَّبلِ»**. فأرسل إلى ابن رواحة فقال: **«اُهْجُهم»**. فهجاهم فلم يُرْضِ فأرسل إلى كعب بن مالك ثمَّ أرسل إلى حسَّان بن ثابت فلمَّا دخل عليه قال حسَّان: قد آن لكم أن تُرسلوا إلى هذا الأسد الضَّارب بذنبه ثمَّ أدلع لسانه فجعل يُحرِّكه فقال: والذي بعثك بالحقِّ لأفرينَّهم بلساني فَرْيَ الأديم. فقال رسول الله ﷺ: **«لا تعجَلْ فإنَّ أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإنَّ لي فيهم نسبا، حتَّى يُلَخِّص لك نسبي»**. فأتاه حسَّان ثمَّ رجع فقال: يا رسول الله قد لخَّص لي نسبك والذي بعثك بالحقِّ لأسلَّنَّك منهم كما تُسلُّ الشَّعرة من العجين. قالت عائشة: فسمعتُ رسول الله ﷺ يقول لحسَّان: **«إنَّ روح القدس لا يزال يُؤيِّدك ما نافحت عن الله ورسوله »**، وقالتْ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«هجاهم حسَّانُ فشفى واشتفى»**[1]

وأثنى **عليه الصَّلاة والسَّلام** على كثير من الصحابة الشعراء لجميل ما قالوه في نصرة الإسلام، والدِّفاع عن الحقِّ. ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«إنَّ أخًا لكم لا يقول الرَّفثَ»**، يعني بذلك ابن رواحة، حيث قال:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقناتٌ أنَّ ما قال واقعُ
يبيتُ يُجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع[2]

– ونختم هذا النوع بمسألة ورد فيها شيء من الغموض أو الالتباس، وتتمثَّل في السؤال الآتي: هل أنشد النبيُّ ﷺ شعرا، وهل كان يتمثَّل بالبيت الشعري كاملا ؟ إنَّ ما تأكَّد لدينا من كتب السنَّة والصِّحاح أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول شطر البيت، كما ورد في صحيح مسلم: **«أشعرُ كلمة تكلَّمت بها العرب كلمةُ لبيد»**:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلٌ

فأتى بالشطر صحيحًا، وسكت عن إكمال البيت[3]، أو كان عليه الصلاة والسلام إذا أراد إنشاد بيت قديم متمثِّلا كسر وزنه، وإنَّما كان يُحرز المعاني فقط، ومن ذلك أنَّه أنشد يوما قول طرفة: [4]

ستُبدي لك الأيَّامُ ما كنتَ جاهِلًا ويأتيك مَنْ لم تُزوّدْه بالأخبار

---

[1]– مسلم أبو الحسين بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار التقوى، القاهرة، مصر، ط1، 2012م، كتاب فضائل الصحابة، رقم الحديث2490، ص757.

[2]– البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تح: فؤاد عبد الباقي، دار الإمام مالك، الجزائر، ط3، 2014م، ج3، كتاب الأدب، رقم الحديث6151، ص546.

[3]– مسلم، المرجع السابق، كتاب الشّعر، رقم الحديث2256، ص692.

[4]– القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد: الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمَّنه من السنَّة وآي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخران، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ج17، ص480.

والبيت من معلَّقة طرفة، وهو في ديوانه، وأصله:

ســتُبدي لــك الأيَّــامُ مــا كنــتَ جــاهِلًا ويأتيــك بالأخبــار مَــن لــم تُــزوَّدِ[1]

وأنشد يوما وقد قيل له: من أشعرُ النَّاس؟ فقال: الذي يقول:[2]

ألــم تريــاني كلَّمــا جئــتُ طارقًــا وجــدتُ بهــا وإن لــم تطيَّــبْ طِيبــا

والبيت لامرئ القيس وهو في ديوانه، وأصله:

ألــم تريــاني كلَّمــا جئــتُ طارقًــا وجــدتُ بهــا طِيبًــا، وإنْ لــم تَطَيَّــبِ[3]

وفي خبر آخر، أنَّ "عباس بن مرداس السُّلمي حين رأى رسول الله ﷺ يَقْسِمُ الغنائم، قال وهو يستكثرُ رسول الله:

كانــــت نهابًــــا تلافيتُهــــا بكــرِّي علــى الــمُهْر فــي الأجــرعِ

وإيقــــاظي القــــوم أن يرقــــدوا إذا هجــــع النّــــاسُ لــــم أهجــــعِ

فأصــــبح نهبــــي ونهــــبُ العُبيــــ ــــد بــــين عُيينــــةَ والأقــــرعِ

فبلغ رسول الله ﷺ قوله فدعاه، فقال: أنت القائل:

فأصــــبح نهبــــي ونهــــب العبيــــ ــــد بــــين الأقــــرع وعُيينــــة

فقال أبو بكر الصِّديق ﷺ: بأمي وأبي أنت، لم يقل كذلك. ولا والله ما أنت بشاعر وما ينبغي لك، وما أنت براوية، قال: فكيف؟ فأنشده أبو بكر، فقال النبيُّ ﷺ: سواءٌ هما ما يضرُّك بأيِّهما بدأتُ: بالأقرع، أم عُيينة."[4]

ويذكر القرطبي أنَّ الحسن بن أبي الحسن قال: " أنشد النبيُّ **عليه الصَّلاة والسَّلام**:

كفــــى بالإســــلام والشــــيب للمــــرء ناهيــــا

فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله، إنَّما قال الشاعر:

هريــــرة ودِّع إنْ تجهَّــــزت غاديــــا كفــــى الشــــيبُ والإســــلامُ للمــــرء ناهيــــا

فقال أبو بكر أو عمر: أشهد أنَّك رسولُ الله، يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾"[5]. وإذا أراد النبيُّ ﷺ الاستماع لبيت أو أكثر، يبدأ بالكلمة الأولى ليُتمَّ الشاعر ما يريد الرسول ﷺ، ومن ذلك: " رُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ أُخْبِرَ أنَّ أبا سفيان بن الحارث يهجوك، فقام ابن رواحة، فقال: يا رسول الله، ائذن لي فيه. فقال له: أنت الذي تقول: فثبَّت الله؟ قال: نعم يا رسول الله، أنا الذي أقول:

فثبَّــــت الله مــــا أعطــــاك مــــن حَسَــــنٍ تثبيــــت موســــى، ونصــــرا كالــــذي نصــــرا

---

[1]- طرفة بن العبد، الديوان، ص38.

[2]- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص481.

[3]- امرؤ القيس، الديوان، ص74.

[4]- البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تح: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1988م، ج5، ص181-182.

[5]- القرطبي، المرجع السابق، ج17، ص481.

فقال: وأنت فعل الله بك مثل ذلك. قال: فوثب كعب بن مالك، فقال: يا رسول الله، ائذن لي فيه. فقال: أنت الذي تقول: همَّت؟ قال: نعم يا رسول الله، أنا الذي أقول:

همَّـــت ســـخينةُ أن تُغالـــبَ ربَّهـــا ولَيُغْلَـــبُنَّ مُغالـــبُ الغـــالَّبِ

فقال: **«أَمَا إِنَّ اللهَ لم يَنْسَ لَكَ ذَلِكَ»**"[1]، واستنشد الرسول ﷺ مرَّة حسَّان بن ثابت ، ليقول شعرًا قاله في أبي بكر ﷺ، وذلك لمَّا "بلغ النبيَّ ﷺ أنَّ قومًا نالوا أبا بكر بألسنتهم؛ فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها النَّاس! ليس أحدٌ أمَنَّ عليَّ في ذات يده ونفسه من أبي بكر، كلُّكم قال لي كذبتَ، وقال لي أبو بكر: صدقتَ؛ فلو كنتُ متَّخذا خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر خليلاً. ثمَّ التفت إلى حسَّان فقال: هاتِ ما قلتَ فيَّ وفي أبي بكر؛ فقال حسَّان: قلتُ يا رسول الله:

إذا تـــذكَّرت شـــجوًا مـــن أخٍ ثقـــةٍ فـــاذكرْ أخـــاك أبـــا بكـــر بمـــا فعـــلا

التَّـــالي الثَّـــاني المحمـــودَ شـــيمتُه وأوَّل النَّـــاس طُـــرًّا صـــدَّق الرُّسُـــلا

والثَّـــانيَ اثنـــين فـــي الغـــار الـــمُنيف وقـــد طـــاف العـــدوُّ بـــه إذ صـــعَّد الجـــبلا

وكـــان حِـــبَّ رســـول الله قـــد علمـــوا مـــن البريَّـــة لـــم يعـــدل بـــه رجُـــلا

خيـــرُ البريَّـــة أتقاهـــا وأرأفُهـــا بعـــد النبـــيِّ وأوفاهـــا بمـــا حمـــلا

فقال ﷺ: صدقتَ يا حسَّان، دعُوا لي صاحبي، قالها ثلاثا"[2]. وكان ﷺ كثيرا ما يستنشد من حوله إذا أراد الاستشهاد أو التمثُّل ببعض الأبيات، وكان أبو بكر الصِّديق أكثرهم استجابة لطلب الرسول ﷺ بحكم علاقته الخاصة به. ومن الأخبار في هذا كما ورد في نضرة الإغريض: "شكا النَّاس إلى رسول الله ﷺ الجَدْبَ فاستسقى لهم فَسُقُوا، فلمَّا كان الجمعة الثانية جاءه رجلٌ يسعى فقال: يا رسول الله تهدَّمت الدُورُ وسقطت الجُدُر، فتبسَّم ﷺ ضاحكا من قوله، وقال: أيُّكم يروي كلمة عمِّي أبي طالب؟ فقام أبو بكر، فقال: أنا يا رسول الله، قال: أنشدْ، فأنشد:

كـــذبتُم وبيـــت الله يُبـــزى مُحمَّـــدٌ ولـــمَّا نُصـــرَّعْ حولـــه ونُقاتِـــلُ

فلمَّا انتهى إلى قوله:

وأبـــيض يُستســـقى الغمـــام بوجهـــه غِيـــاثُ اليتـــامى عِصـــمةٌ للأرامِـــل

فرح رسول الله ﷺ وتهلَّل وجهه"[3]. أمَّا ما أنشده الرسول ﷺ فكان من الأرجاز، ومن ذلك: "أنَّ البراء قال: كان رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل معنا التُّراب ولقد وارى التُّرابُ بياض بطنه وهو يقول:

والله لـــولا أنـــت مـــا اهتـــدينا ولا تصـــــدَّقنا ولا صـــــلَّينا

فـــأنزلنَّ ســـكينةً علينـــا إنَّ الألـــى قـــد أبَـــوا علينـــا

---

[1]- الأصفهاني، الأغاني، ج16، ص153- 154.

[2]- القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ص35-36.

[3]- العلوي، نضرة الإغريض في نصرة القريض، ص313.

إذا أرادوا فتنـــــــــــــــــة أبينـــــــــــــــــا

ويرفع بها صوته"[1]. وفي رواية أخرى أنَّ هذا الرجز لم يكن من النبيِّ ﷺ، بل كان من الصحابي عامر بن الأكوع؛ وذلك أنَّ الرسول ﷺ، وهو في مسيره إلى خيبر، قال لعامر بن الأكوع: **« انزل يا ابن الأكوع، فخُذ لنا من هَنَاتِكَ »**، قال: فنزل يرتجز برسول الله ﷺ، فقال:

والله لـــــــولا الله مـــــــا اهتـــــــــدينا ولا تصـــــــــــــدَّقنا ولا صـــــــــــلَّينا

إنَّـــــا إذا قـــــــومٌ بَغَـــــوا علينـــــــا وإن أرادوا فتنـــــــــــــة أبينـــــــــــا

فـــــــأنزلنَّ ســـــــــكينةً علينـــــــــا وثبِّـــــــت الأقـــــــدام إنْ لاقينـــــــا[2]

وفي غزوة الأحزاب، "كان المسلمون يرتجزون وهم يعملون في حفر الخندق، حيث ارتجزوا برجل من المسلمين، يُقال له جُعَيل، سمَّاه رسول الله ﷺ عَمْرًا، فقالوا:

ســـــمَّاه مـــــن بعـــــد جُعَيـــــلٍ عَمْـــــرا وكـــــــان للبـــــــائس يومـــــــا ظَهـــــــرا

فإذا مرُّوا بـ(عمرو) قال رسول الله ﷺ: عَمْرًا، وإذا مرُّوا بـ(ظَهر) قال رسول الله ﷺ: ظَهْرًا "[3]. وارتجز النبيُّ ﷺ كذلك في هذه الغزوة، حين ضرب في الخندق قائلا:

بســـــــــــم الله وبـــــــــــه بَـــــــــــدينا

ولـــــــــو عبـــــــــدنا غيـــــــــره شـــــــــقينا

حبَّـــــــذا ربًّـــــــا وحبَّـــــــذا دينـــــــا [4]

ويوم حُنين بقي النبيُّ ﷺ ثابتا مع ثُلَّة من المسلمين، لم يفروا كما فرَّ إخوانهم. يقول البراء بن عازب ﷺ واصفا ثباتَ النبيِّ ﷺ: "فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ، وأبو سفيان آخِذٌ بلجام بغلته، والنبيُّ ﷺ يقول:

أنـــــــا النبـــــــيُّ لا كـــــــــذبْ أنـــــا ابـــــن عبـــــدِ المطَّلـــــبْ[5]

وقد علَّق النَّحاس على هذا الكلام، مُعتبرا إيَّاه من الرَّجز، في سياق إعرابه الآية: **﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾**، قائلا: "فتكلَّم العلماء في هذا، فقال بعضهم: إنَّما الرِّواية بالإعراب، فإن كانت بالإعراب لم تكن شعرًا. وقال بعضهم ليس هذا الوزن من الشعر"[6]. وارتجز المسلمون وهم يبنون مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنوَّرة قائلين:

---

[1]- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسِّير، رقم الحديث1803، ص560.

[2]- السُّهيلي، الرَّوض الأنف في تفسير السيرة النبوية، ج4، ص66.

[3]- ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص169.

[4]- السُّهيلي، المرجع السابق، ج3، ص421.

[5]- الذَّهبي شمس الدين محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام(المغازي)، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1990م، ص579.

[6]- النَّحاس أبو جعفر أحمد بن محمد، إعراب القرآن، تح: خالد العلي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2008م، ص828.

لا عـــــيش إلاَّ عـــــيش الآخـــــرة اللَّهـــم ارحـــم الأنصـــار والـــمُهاجرة

فيقول رسول الله ﷺ: **« لا عيش إلاَّ عيش الآخرة، اللَّهم ارحم المُهاجرين والأنصار»**. قال ابن هشام مُعلِّقًا: هذا كلام وليس برجز.[1]

وبعد أن ذكر ابن عبد ربَّه بعض ما تمثَّله النبيُّ ﷺ من قبيل هذا الكلام الموزون، يقول: "فهذا من المنثور الذي يُوافق المنظوم وإن لم يتعمَّد به قائله المنظوم. ومثل هذا من كلام الناس كثير يأخذه الوزن، مثل قول عبد مملوك لمواليه: اذهبوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى. ولا يُسمَّى قول النبيِّ ﷺ –وإن كان موزونا– شعرا لأنَّه لا يُراد به الشعر[2]. فإصابته ﷺ الوزنَ أحيانا من نثر كلامه لا يُوجب أنَّ هذا شعرٌ، وأنَّه ﷺ يعلم الشعر، وأنَّه شاعر، وكما ذكر أهل العلم: "إنَّ التمثُّل بالبيت النَّدر وإصابة القافيتين من الرَّجز وغيره لا يُوجب أن يكون قائلها عالما بالشّعر، ولا يُسمَّى شاعرا باتِّفاق العلماء، كما أنَّ من خاط خيطا لا يكون خيَّاطا."[3]

وأمَّا ما تمثَّله النبيُّ ﷺ وأنشده كاملا، فالأحاديث والأخبار تُؤكِّد بعضها، وتنفي بعضها الآخر، بالرغم من أنَّ بعضها قد ثبت في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث. ومن ذلك فقد ثبت في الصحيحين عن جُندب بن سفيان (أنَّ رسول الله ﷺ كان في بعض المشاهد وقد دَمِيَتْ إِصبَعُهُ)، وفي رواية أخرى للبخاري: (بينما النبيُّ ﷺ يمشي إذْ أصابه حجرٌ فعثر فَدَمِيَتْ إصْبَعُهُ)، وفي رواية مسلم: (كان رسول الله ﷺ في غار فَنُكِبَتْ إِصْبَعُهُ)، فقال:

هـــــل أنـــــتِ إلاَّ إِصْـــــبَعٌ دَمِيـــــتِ وفـــــي ســـــبيل الله مـــــا لَقِيـــــتِ[4]

وذكر الزمخشري أنَّ هذا القول من كلام عبد الله بن رواحة، حين حمل اللِّواء بعد قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، فأُصيبت أُصبعُه في الحرب فَدَمِيَتْ فقال:

هـــــل أنـــــتِ إلاَّ إِصْـــــبَعٌ دَمِيـــــتِ وفـــــي ســـــبيل الله مـــــا لَقِيـــــتِ

يـــــا نفـــــسُ لا تقنطـــــي بمـــــوتي هـــــذي حِيـــــاض المـــــوتِ قـــــد صُـــــليتِ

ومـــــا تمنَّيـــــتِ فقـــــد لقيـــــتِ إنْ تفعلـــــي فعلهمـــــا هُـــــديتِ[5]

---

[1]– يُنظر ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص138.

[2]– ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، ج6، ص132-133.

[3]– القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج17، ص483.

[4]– يُنظر البخاري، صحيح البخاري، ج2، كتاب الجهاد والسِّير، رقم الحديث2802، ص282، و: ج3، كتاب الأدب، رقم الحديث6146، ص545، ويُنظر مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسّير، رقم الحديث 1796، ص557.

[5]– الزمخشري، الكشّاف، ج5، ص189.

وقال صاحب الرَّوض الأنف: أنَّ قائله هو الوليد بن الوليد بن المغيرة، وساق الحادثة التي ذُكر فيها هذا البيت.[1]، ويُورد ابن كثير في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾حديثا لعائشة رضي الله عنها تقول فيه: أنَّ رسول الله ﷺ ما جمع بيت شعر قطُّ، إلاَّ بيتا واحدا، وهو:

تفـــاءلْ بمـــا تهـــوى يكـــنْ فَلَقَلَّمَـــا يُقـــالُ لشـــيء كـــان إلاَّ تحقَّقـــا

يقول ابن كثير: سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزّي عن هذا الحديث، فقال: هو مُنكر. ولم يعرف بعض رواته.[2]، كما أورد ابن عطيَّة في تفسيره خبرا يُفيد بأنَّ النبيَّ ﷺ أنشد بيتا لابن رواحة كاملا، حيث قال: "وقد كان ﷺ ربَّما أنشد البيت المستقيم في النَّادر ورُوِيَ أنَّه أنشد بيت ابن رواحة:

يبيـــتُ يُجـــافي جنبـــه عـــن فراشـــه إذا اســـتثقلت بالمشـــركين المضـــاجعُ[3]

كذلك وردت رواية لابن جرير ذكرها ابن كثير في معرض تفسير قوله تعالى:﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾[4]، قال ابن كثير: "عن ابن عبَّاس قال: هو الرَّجل يلمُّ بالفاحشة ثم يتوب وقال: قال رسول الله ﷺ:

إنْ تغفـــر اللَّهُـــمَّ تغفـــر جمًّـــا وأيّ عبـــد لـــك مـــا ألـــمَّا

ثم يقول معلِّقا: "وهكذا رواه الترمذي، ثمَّ قال: هذا حديث حسن صحيح غريبٌ، لا نعرفه إلاَّ من حديث زكريا بن إسحاق. وكذا قال البزَّاز: لا نعلمه يُروى متَّصلا إلاَّ من هذا الوجه. وفي صحته مرفوعا نظرٌ."[5]

فالرسول ﷺ كما جاء في كثير من الروايات والأخبار قد تمثَّل بالشعر وأنشده، فهل هذا يعني أنَّه ﷺ يعرف علم الشعر وأوزانه وقوافيه، وكيف نفسِّر قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، قال الزجَّاج في تفسير هذه الآية: "أي ما علَّمنا محمَّدًا ﷺ قول الشِّعر، وما ينبغي له: أي ما يتسهَّل له ذلك. وليس يُوجب هذا أن يكون النبيُّ عليه الصَّلاة والسَّلام لم يتمثَّل ببيت شعر قطُّ، إنَّما يُوجب هذا أن يكون النبيُّ ﷺ ليس بشاعر."[6]

ومعنى هذا أنَّ الذي انتفى عن الرَّسول ﷺ هو أن يكون شاعرا، عالما بالشعر وضروبه وأوزانه وقوافيه. وهذا النفي لا يمنع أن ينشد النبيُّ شيئا من الشعر. وقد قيل: "إنَّما خبَّر الله عزَّ وجلَّ (وما علَّمناه الشِّعر)، ولم يُخبر أنَّه لا يُنشد شعرًا، وهذا ظاهر الكلام، وقد قيل فيه قول بيِّنٌ زعم صاحبه أنَّه إجماعٌ من أهل اللغة، وذلك أنَّهم قالوا: كلُّ مَن قال قولاً

---

[1]- يُنظر السُّهيلي، الرَّوض الأنف، ج2، ص301.

[2]- يُنظر ابن كثير إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الرياض، السعودية، ط2، 1999م، ج6، ص590.

[3]- ابن عطيَّة أبو محمد عبد الحق الأندلسي، المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ج4، ص461-462.

[4]- سورة النجم، الآية 32.

[5]- ابن كثير، المرجع السابق، ج7، ص461.

[6]- الزَّجاج أبو إسحاق إبراهيم، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1988م، ج4، ص293-294.

موزونًا لا يقصد به إلى شعر فليس بشعر، وإنَّما وافق الشعر، وهذا قولٌ بيِّنٌ. (وما ينبغي له): أي وما يتسهَّل له، وتأويله على معنى وما يتسهَّل قول الشعر لا الإنشاد."[1]

وفي تفسير الرَّازي نجد رأيا آخر عرضه المفسِّر في سياق تفسيره للآية السَّالفة الذكر، ويرى أنَّه وجهٌ أحسن ممَّا قيل آنفا، حيث يقول: "وهو أن يُحمل (وما ينبغي له) على مفهومه الظاهر وهو أنَّ الشعر ما كان يليق به ولا يصلح له؛ وذلك لأنَّ الشعر يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن، فالشارع يكون اللفظ منه تبعا للمعنى، والشاعر يكون المعنى منه تبعا للفظ، لأنَّه يقصد لفظا به يصح وزن الشعر أو قافيته؛ فيحتاج إلى التحيُّل لمعنى يأتي به لأجل ذلك اللفظ. وعلى هذا نقول: الشعر هو الكلام الموزون الذي قُصِدَ إلى وزنه قصدا أوليًّا، وأمَّا من يقصد المعنى فيصدر موزونا مقفى فلا يكون شاعرا "[2]

أمَّا من المعاصرين الذين كان لهم رأي في هذه المسألة نجد عودة الله منيع القبسي، حيث يقول: "ولعلنا نتلمَّس حكمته تعالى في صرف نفسه الشريفة عن قول الشعر بثلاثة أمور:

– **الأول**: إنَّ القرآن الكريم الذي نزل عليه أرفع من الشعر وأعلى بيانا وأجلُّ قدرا. فما حاجة من يتنزَّل القرآن عليه إلى قول الشعر؟ إنَّه بالقرآن يكون قد تجاوز الشِّعر.

– **الثاني**: إنَّ المشركين والكفَّار اتَّهموه بأنَّه شاعر، فمن البلاغة والحكمة في تفنيد تهمتهم أنَّه لا يقول الشعر بتاتا؛ حتَّى إنَّه لم يكن يروي بيتا من الشعر إذا أراد أن يتمثَّل بمعناه إلاَّ بعد أن يُغيِّر في ترتيب ألفاظه ليُلغي وزنه.

– **الثالث**: إنَّ الله تعالى هيَّأه ليكون صاحب رسالة، رسالة يقيم إيصالها للنَّاس على مصدرين: القرآن وحديث الرسول ﷺ، القرآن يضع المبادئ والأسس والتفصيلات لأشياء، ويكتفي بوضع المبادئ والأسس فحسب لأشياء أخرى، ثم يترك تفصيلها لحديث الرسول ﷺ. ومن المعروف أنَّ تفصيل الأشياء تفصيلا جليًّا ليست وسيلته الشِّعر وإنَّما وسيلته النثر."[3]

ومن أنفس وأجمل ما وقفت عليه في تفسير قوله تعالى: **﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾** ما جادت به قريحة صاحب الظِّلال، حيث قال: "ثمَّ ينفي لياقة الشعر بالرسول ﷺ، (وما ينبغي له) فللشعر منهجٌ غير منهج النبوَّة، الشعر انفعال، وتعبير عن هذا الانفعال، والانفعال يتقلَّب من حال إلى حال. والنُّبُوَّة وحيٌ، على منهج ثابت، على صراط مستقيم، يتَّبع ناموس الله الثابت الذي يحكم الوجود كلَّه، ولا يتبدَّل ولا يتقلَّب مع الأهواء الطارئة؛ تقلُّب الشعر مع الانفعالات المتجدِّدة التي لا تثبت على حال.[4]، ثم يضع في معنى جميل حَدًّا فاصلا بين الشِّعر والنبوءة بحيث يستحيل بأيِّ حال من الأحوال أن يلتقيا في شخص رجل واحد. فقال رحمه الله: "والنُّبوَّة اتِّصال دائمٌ بالله، وتلقٍ مباشر عن

---

[1]– النَّحاس أحمد بن محمد، إعراب القرآن، ص828.

[2]– الرازي فخر الدين، مفاتيح الغيب، ج26، ص104-105.

[3]– القبسي عودة الله المنيع، تجارب في النقد الأدبي التطبيقي، دار البشير، عمَّان، الأردن، ط1، 1985م، ص30-31

[4]– قطب سيِّد، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط32، 2003م، ج5، ص436.

وحي الله، ومحاولة دائمة لردِّ الحياة إلى الله. بينما الشعر ـ في أعلى صوره ـ أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته. فأمَّا حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتَّى تكون صُراخ جسد، وفورة لحم ودم! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس؛ هذه ـ في أعلى صورها ـ أشواق تصعد من الأرض، وتلك في صميمها هداية تتنزَّل من السَّماء."[1]

وخلاصة القول في هذه المسألة أنَّه إذا كان قد ثبت عن النبيِّ ﷺ تمثُّله بالبيت من الشعر مكسورا أو موزونا، فهذا لا يعني أنَّه عُلِّم الشِّعر وأنَّه شاعر، فالله عزَّ وجلَّ قد علَّمه القرآن العظيم الذي ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[2]، وليس هو بشعر كما زعمه بعض كفَّار قريش، وليس بسحر يُؤثر كما ذكره بعض الضُلاَّل. وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشِّعر طبعا وشرعا.

* **النوع الثاني**: وهي الأحاديث والمواقف التي ذمَّ فيها الرسول ﷺ الشِّعر أو بعض الشعراء، وبالرغم من قلّة هذه الأحاديث إذا ما قورنت بأحاديث الإعجاب والاستحسان، إلاَّ أنَّه التُبس على الكثير من النقاد والدارسين فهمها وشرحها، ممَّا جعل بعضهم يُصدر أحكامًا خاطئة وبعيدة كلَّ البعد عن موقف الإسلام عموما والرسولﷺ خصوصا من الشعر. ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخاري ومسلم: " عن أبي هُريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لأَنْ يمتلئَ جوفُ رجُلٍ قَيْحًا يَرِيهِ، خيرٌ من أنْ يمتلئَ شِعرًا**»"[3] ، وهذا الحديث وإن كان مرويا بهذه الصيغة في الصَّحيحين وفي كتب أخرى، إلاَّ أنَّه لا يُفهم منه الإطلاق والتَّعميم على جميع الشِّعر؛ وذلك لأسباب عدَّة منها:

1– أنَّ البخاري أورد هذا الحديث في كتاب الأدب، في باب (ما يُكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتَّى يصدَّه عن ذكر الله والعلم والقرآن)، وهذا ما ذكره ابن رشيق أيضا في باب (في الردِّ على من يكره الشِّعر) فقد روى هذا الحديث ثمَّ قال: "فإنَّما هو من غلب الشِّعرُ على قلبه، وملك نفسه حتَّى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذِكر الله تعالى وتلاوة القرآن. والشِّعر وغيره ـ ممَّا جرى هذا المجرى من شطرنج وغيره ـ سواء. وأمَّا غير ذلك ممَّن يتَّخذ الشِّعرَ أدبا وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه، وقد قال الشِّعرَ كثيرٌ من الخلفاء الراشدين، والجِلَّة من الصحابة والتابعين، والفقهاء المشهورين."[4]

2– في صحيح مسلم هناك رواية أخرى تُخصِّص الحديث وتُقيِّده: "فعن أبي سعيد الخُدريِّ قال: بينا نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعَرْجِ إذْ عرض شاعرٌ يُنشدُ فقال رسول الله ﷺ: «**خُذُوا الشَّيطانَ أو أمسكوا الشَّيطان لأنْ يمتلئ جوفُ**

---

[1]– قطب سيِّد، في ظلال القرآن، ج5، ص436.

[2]– سورة فُصِّلت، الآية 42.

[3]– البخاري، صحيح البخاري، ج3، كتاب الأدب، رقم الحديث6155، ص547، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الشعر، رقم الحديث2257، ص692.

[4]– ابن رشيق، العمدة، ج1، ص26–27.

رجُلٍ قَيْحًا خيرٌ له من أن يمتلئ شِعرًا»[1]، فيكون المقصود بالشِّعر المذموم والمنهي عنه في الحديث هو شعر هذا الشاعر الذي وصفه النبيُّ ﷺ بأنَّه شيطان. ويُفهم منه أنَّ هذا الشِّعر كان هِجاءً للرسول ﷺ وصدًّا عن رسالته ودعوته.

3– أنَّ هناك تتمَّةً للحديث ذُكرت في غير هذا الموضع أوردتها أمُّنا عائشة رضي الله عنها، لمَّا سمعت بالحديث الشريف: "عن أبي هريرة قال: **«لأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قَيْحًا ودَمًا، خيرٌ من أنْ يمتلئَ شِعرًا»**، فقالت عائشة رضي الله عنها: لم يحفظ الحديث– تعني أبا هريرة–، إنَّما قال رسول الله ﷺ: **«لأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قَيْحًا ودَمًا، خيرٌ من أنْ يمتلئَ شِعرًا هُجيتُ به»**، وقد تابع عائشة على هذه الزيادة جابر بن عبد الله مرفوعا."[2]، فإنْ صحَّت هذه الزيادة فإنَّ الإشكال يزول، والمعنى يتَّضح، ويكون المقصود بالشعر في هذا الحديث هو الشعر الذي هُجِي به النَّبيُّ ﷺ، وهو هجاء للإسلام والمسلمين جميعا، ولا يجوز رواية هذا الشعر أو حفظه ناهيك عن قوله، ويُصبح الحديث عندئذ منسجما تمامًا مع قوله تعالى: **﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾**.

4– أنَّ هذا الحديث يتعارض مع كثير من الأحاديث التي استحسن فيها النبيُّ ﷺ الشعر وأُعجب به، وأخرى تُثبت أنَّه استمع للشعر واستنشده. يقول الجرجاني ردًّا على من يذُمُّ الشعر ويستشهد بهذا الحديث فقط: "وكيف رويتَ: **«لأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قَيْحًا فَيَرِيَهُ، خيرٌ من أنْ يمتلئَ شِعرًا »** ولَهِجْتَ به، وتركتَ قوله ﷺ: **« إنَّ من الشِّعر لحكمة، وإنَّ من البيان لسحرا»**، وكيف نسيتَ أمرَه ﷺ بقول الشِّعر، ووَعْدَه عليه الجنَّةَ، وقولَه لحسَّانﷺ: **«قل وروح القدس معك»**، وسماعَه له، واستنشادَه إيَّاه، وعِلْمَه ﷺ به، واستحسانه له، وارتياحَه عند سماعه؟"[3]. وأيضًا نجد من الأحاديث التي فيها ذمٌّ للشعراء ما رواه أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ : **«امْرُؤُ القيس صاحبُ لواء الشعراء إلى النَّار»**[4]. ففي هذا الحديث نظر، فقد جاء في تخريج الحديث كما أورده المحقِّق: "أنَّ إسناده ضعيفٌ جدًّا، وقال عنه ابن الجوزي: هذا حديثٌ لا يصحُّ، وأخرجه ابن عديّ عن أحمد بن محمد بن حرب، وقال عقبه: وهذا الحديث بهذا الإسناد باطلٌ."[5]، أمَّا الروايات الأخرى الواردة خصوصًا في امرئ القيس فقد ذكرها ابن قتيبة في الشعر والشعراء، فقال: "وقد ذكره النبيُّ ﷺ فقال: **«هو قائد الشعراء إلى النَّار»**. وفي خبر آخر: **«معه لواء الشعراء إلى النَّار»**. وقال ﷺ أيضا: **«ذاك رجلٌ مذكورٌ في الدنيا، شريفٌ فيها، منْسِيٌّ في الآخرة خاملٌ فيها، يجيءُ يوم القيامة معه لواءُ الشعراء إلى النَّار»**."[6]

---

[1]– مسلم، صحيح مسلم، كتاب الشعر، رقم الحديث2259، ص692.

[2]– الزركشي أبو عبد الله بدر الدين، الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، تح: سعيد الأفغاني، منشورات المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2، 1970م، ص122.

[3]– الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط5، 2004م، ص16-17.

[4]– ابن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ج12، رقم الحديث7127، ص27.

[5]– المرجع نفسه، ص27-28.

[6]– ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص66-67.

وهذه الأحاديث–إنْ صحَّت– فهي تُبيِّن موقف الرسول ﷺ من شاعر فحل عدَّه النقاد من الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين، بل جعله بعضهم على رأس هذه الطبقة. والسُّؤال هنا، هل يجهل الرسول ﷺ قدر ومكانة امرئ القيس، حتى يذكره بهذا الوصف؟ كلاَّ وحاشا. إذن فما تفسير ذلك؟ يُجيبنا عن ذلك المظفَّر العلوي في كتابه (نضرة الإغريض) بقوله: "وقال بعض النَّاس: فما تقول في قوله ﷺ: **«امرؤ القيس حامل لواء الشُّعراء يقودهم إلى النَّار»**؟، وهل هذا مدح للشِّعر أم ذمٌّ ؟ قلتُ: إذا تأمَّلتَ المقصدَ وحقَّقتَ المُرادَ وجدتَ المعنى ينساق إلى مدح الشّعر، وذلك أنَّه ﷺ أراد حامل لواء شعراء الجاهلية والكفَّار، الذين هجوا رسول الله وهجوا المسلمين واستحقوا النَّار بكفرهم لا بشعرهم، ولا خلاف ولا نزاع بين العلماء في ذلك. ولو أراد العموم لدخل تحت ذلك أصحابه المقطوع لهم بالجنَّة، وأولياؤه المؤمنون به، والمهاجرون والأنصار والتابعون. ومعاذ الله أن يذهب إلى ذلك مسلم أو يقول به عاقلٌ أو عالمٌ. وإنَّما كان مقصده ﷺ تفخيم حال امرئ القيس وتعظيم أمره وتقديم شعره على أكفائه ونُظرائه، وأنَّه استحقَّ عليهم التقديم والتَّفضيل بجودة شعره، وحُسن معانيه وواقع تشبيهاته، فجعله لذلك عميدَهم وسيِّدَهم والمتقدِّم عليهم وقائدهم. ولم يكن يستحقُّ بكفره إلاَّ النَّار وبحُسن شعره إلاَّ التقدُّم على الشعراء، فكانت هذه الصِّفة به خليقة، وسِمتُها به حقيقة."[1]

وإذا سلَّمنا جدلا بصحة هذه الروايات على اعتبار أنَّها لم تُرو في كتب السنن والصِّحاح ، وإنَّما رُويت فقط في كتب الأدباء والإخباريين. فالسُّؤال الذي يطرح نفسه أيضًا: لِمَ كان امرؤ القيس تحديدًا هو قائد الشعراء إلى النَّار؟ والجواب: أنَّ الرسول ﷺ كان على علم ودراية بشعر امرئ القيس وما يحويه من وصف فاحش وعربدة ومجون. فقد كان ميَّالًا إلى التَّرف واللَّهو، متهتِّكًا في غزله، فاحشًا في سرد غرامياته، متسكِّعًا مع صعاليك العرب، مُعاقرًا الخمر. وهذه الأمور وإن كانت موجودة في أشعار معظم الجاهليين، إلاَّ أنَّها في شعر امرئ القيس أصبحت هي السِّمات البارزة، والملامح الطاغية. ومثل هذا الشعر لا يتَّفق ولا ينسجم مع تعاليم الإسلام وفضائله السَّمحة التي حثَّ عليها الرسولﷺ. وطبيعي أن يصدر هكذا حكم على هكذا شاعر. وهو يتواءم ويتفق والمقياس النقدي الجديد الذي برز واضحا بظهور الدِّين الجديد، فشعر امرئ القيس كان يتضمّن الكثير من المعاني التي تُجافي العفاف والفضيلة، وتنافي القيم والمُثل الإسلامية التي نادى بها الرسول ﷺ وسعى جاهدا لغرسها في المجتمع الجديد. ومع هذا فقد كان النبيُّ ﷺ يُحبُّ أن يسمع ما حسُن من شعر امرئ القيس، فقد "رُوِي أنَّ رسول الله ﷺ كان يُحبُّ أن تُنشد بين يديه قصيدة امرئ القيس:

ألا عِمْ صباحًا أيُّها الطللُ البالي وهل يَعِمْنَ من كان في العصر الخالي

فإذا وصل منشدها بين يديه إلى قوله:

ألا زعمت بسباسة اليوم أنَّني كبرتُ وأن لا يحسن اللَّهو أمثالي

[1]– العلوي، نضرة الإغريض في نُصرة القريض، ص382-383.

يقول رسول الله ﷺ: أمسك. نزاهة منه ﷺ أن يسمع الفحش الذي يلي ذلك في القصيدة"[1]، في حين نرى موقفا وحكمًا مُغايرًا تماما للرسولﷺ مع شاعر آخر، جاهلي هو أيضًا، ولكنَّ شعره كان يطفح بمعاني الفضيلة، ويسمو إلى معالي الشَّهامة والرجولة، ذلك هو عنترة بن شدَّاد، الشاعر الفحل. جاء في الأغاني: " أُنشِد النبيُّ ﷺ قول عنترة:

ولقـــد أبيـــتُ علـــى الطَّـــوى وأظلُّـــه حتَّـــى أنـــالَ بـــه كـــريم المأكـــل

فقال ﷺ: **« ما وُصف لي أعرابيٌّ قطُّ فأحببتُ أن أراه إلاَّ عنترةَ »**"[2]. فعنترة بن شدَّاد شاعر جاهلي كذلك، ولكنَّ عفَّته وجوده وكريم خلاله التي ينضح بها شعره جعلت النبيَّ ﷺ يتعلَّق بشخصيته ويودُّ رؤيته. وموقف الإعجاب نفسه يُجسِّده النبيُّ ﷺ أيضا مع شاعر آخر هو أُميَّة بن أبي الصَّلت لما يحمله شعره من معانٍ قريبة جدًّا من المعاني التي يدعو إليها الإسلام ويحثُّ عليها، جاء في صحيح مسلم: "عن عمرو بن الشَّريد عن أبيه قال: رَدِفْتُ رسول الله ﷺ يوما فقال: **« هل معك من شعر أُميَّة بن أبي الصَّلْتِ شيئًا؟»**. قلتُ: نعم. قال: **«هِيهِ»**. فأنشدته بيتًا. فقال: **«هِيهِ»**. ثمَّ أنشدته بيتًا. فقال: **«هِيهِ»**. حتَّى أنشدته مائةَ بيت. وفي رواية أخرى، قال: **« فلقد كاد يُسلمُ في شعره »**"[3]

وفي أحاديث أخرى نجد تحذير النبيِّ ﷺ الشعراء من قول ما لا يجوز من الهجاء المقذع، ومن ذلك: "قال **عليه الصَّلاة والسَّلام**: **«مَن قال في الإسلام شعرًا مُقذِعًا فلِسَانُه هَدَرٌ»**، أي: الشعر الذي فيه قذع وهو الفُحْشُ من الكلام الذي يقبُح ذكرُه، يُقال: أقذع له: إذا أفحش في شتمه. وقوله ﷺ أيضا: **« من رَوَى هجاءً مُقْذعًا فهو أحد الشَّاتِمَين »** أي: إنَّ إثمه كإثم قائله الأول."[4]

بقي أن نُشير فقط إلى أنَّه لم يثبُت عن النبيِّ ﷺ أنْ منع أصحابه أو نَهَرَهم عن قول الشِّعر أو روايته أو الاستماع إليه، وكيف يكون ذلك والأخبار والأحاديث تُؤكِّد عكس ذلك تمامًا، فالنبيُّ استمع للشعر، واستنشده، وشجَّع وأثاب عليه. إلاَّ أنَّنا نجد في كُتُب الأدب والتراث أنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن رواية قصيدتين فقط، الأولى لأميَّة بن أبي الصَّلت، والتي قالها بعد وقعة بدر، وكان ينعى فيها قتلى قريش، ويدعو قريشًا للثأر من المسلمين. "قال الزبير وحدَّثني يحي بن محمد قال: وكان أُميَّة يُحرِّض قُريشا بعد وقعة بدر، وكان يُرثي مَن قُتِل من قريش فيها؛ فمن ذلك قوله:

مـــــاذا ببـــــدرٍ والعقنْـــــــ ـقَـــــل مـــــن مَرَازِبَـــــةٍ جَحَـــــاجِحْ

وقال: وهي قصيدة نهى رسول الله ﷺ عن روايتها"[5]. وأمَّا القصيدة الثانية فهي لأعشى بني قيس، والتي يهجو فيها علقمة ابن عُلاثة، تذكر الأخبار: "أنَّ الرسول ﷺ ربَّما حدَّث أصحابه، وربمَّا تركهم يتحدَّثون ويُصغي إليهم ويتبسَّم،

---

[1]- الغزيوي علي، مدخل إلى المنهج الإسلامي في النقد الأدبي(التأسيس)، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، دط، 2000م، ص51.

[2]- الأصفهاني، الأغاني، ج8، ص172.

[3]- مسلم، صحيح مسلم، كتاب الشعر، رقم الحديث2255، ص692.

[4]- ابن الأثير مجد الدين الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمود الطناحي، مطبعة الحلبي وشركاه، دمشق، سوريا، ط1، 1963م، ج4، ص29.

[5]- الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص98.

فبينا هم يوما على ذلك يتذاكرون الشِّعر وأيَّام العرب، إذْ سَمِع حسَّان بن ثابت يُنشد هجاء أعشى بني قيس بن ثعلبة، علقمة بن عُلاثة، ومديحه عامر بن الطُّفيل:

علقـــم مـــا أنـــت إلـــى عامـــرٍ النـــاقضِ الأوتـــار والـــواترِ

إن تسُـــد الـــحُوصَ فلـــم تَعْـــدُهم وكـــابرًا ســـادوك عـــن كـــابرِ

ســـاد وألْفَـــى رهطَـــه ســـادةً وعـــامرٌ ســـاد بنـــي عامـــرِ

فقال رسول الله ﷺ: كُفَّ عن ذكره يا حسَّانُ، فإنَّ أبا سفيان لـمَّا شعَّث منِّي عند هرقل، ردَّ عليه علقمة، فقال حسَّان ابن ثابت: بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله، مَنْ نالتك يدُه فقد وجب علينا شكرُه."[1]

فهذه هي تقريبا كلُّ الأحاديث الواردة في ذمِّ الشعر أو الشعراء، وهو ذمٌّ خاص بنوع من الشعر تفشَّت فيه مظاهر العبث والخلاعة والمجون وفساد الأخلاق، أو ممَّا كان قدحًا وهجاءً للرسول ﷺ، أو طعنًا في الإسلام، أو فيه من المعاني ممَّا لا يقبله الدِّين الإسلامي الحنيف، فكلُّ هذا الشّعر مرفوض ومنهيٌّ عنه، وقد ذمَّه الرسول ﷺ ونهى عن قوله وإنشاده.

* **النوع الثالث**: وهو نوع نجد فيه توجيهات نبوية وملاحظات نقدية صادرة من النبيِّ ﷺ استحسانًا أو استهجانًا لشعر ما؛ في لفظه أو معناه، أو فيها حكم على شاعر من الشعراء بسبب شعره. ومن هذه الأخبار والأحاديث نذكر ما يلي:

– من نقده ﷺ، تلك الكلمة الخالدة التي أصدرها الرسول ﷺ، تعبيرًا منه على إعجابه الشَّديد ببيت لبيد بن ربيعة العامريّ الذي يقول فيه:

ألا كـــلُّ شـــيءٍ مـــا خـــلا الله باطـــلٌ وكـــلُّ نعـــيم لا محالـــة زائـــل

قال أبو هريرة ﷺ: "سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ أصدق كلمة قالها شاعرٌ كلمةُ لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ»** ما زاد على ذلك."[2]، فمثل هذا الحكم النقدي من الرَّسول ﷺ سيكون له الأثر الكبير في نفوس الشعراء، وسيحثُّهم حثًّا على اقتفاء أثر هذا الشاعر في تحرِّي الحقّ والصِّدق الخلقي والفنيّ، والسُّمو بمعاني أشعارهم لتنسجم وتتوافق مع تعاليم الإسلام.

– ومن المواقف النقدية الطريفة ما كان من النبيِّ ﷺ مع النابغة الجعدي، حيث "أتى رسول الله ﷺ وأنشده:

أتيـــتُ رســـول الله إذ جـــاء بالهُـــدى ويتلـــو كتابًـــا كـــالمجرَّة نـــيِّرا

بلغنـــا الســـماءَ مجـــدنا وجـــدودنا وإنَّـــا لنرجـــو فـــوق ذلـــك مظهـــرا

فقال رسول الله ﷺ: **« إلى أينَ أبَا ليلى؟ »**، فقال: إلى الجنَّة. فقال رسول الله ﷺ: **« إن شاء الله »** ، وأنشده:

---

[1]– الأصفهاني، الأغاني، ج16، ص201.

[2]– مسلم، صحيح مسلم، كتاب الشِّعر، رقم الحديث2256، ص692.

ولا خيـــرَ فـــي حِلْـــمٍ، إذا لـــم تكُـــنْ لـــهُ بـــــوادرُ تحمـــــي صـــــفوَهُ أن يُكـــــدَّرا
ولا خيـــرَ فـــي جَهْـــلٍ، إذا لـــم يكُـــنْ لـــهُ حلـــــيمٌ، إذا مـــــا أورد الأمْـــــرَ أصـــــدَرَا

فقال رسول الله ﷺ: **«لا يَفْضُض اللهُ فاك»**، فبقي عمره لم تنقضَّ له سنٌّ وكان مُعمّرًا"[1]، فالرسول ﷺ خشي أن تكون بوصلة الشعر قد انحرفت عن مسارها عند النَّابغة، لتعود إلى عصبيتها القبلية المقيتة وجاهليتها العمياء في الفخر بالقبيلة والتعصُّب لها، لذا نبَّه الشاعر بسؤاله: إلى أين يا أبا ليلى؟ فينتبه الجعدي مباشرة، ويُعيد بوصلة الشعر إلى مسارها الصحيح، مسار الحقِّ والفضيلة وتعاليم الدِّين الحنيف. فيقول: إلى الجنَّة يا رسول الله. وكذلك لمَّا أنشده بيتيه الأخيرين دعا له، لأنَّه لمس فيهما تعاليم الدِّين الحنيف، والخلق الرفيع، والعقل الرزين الذي تفتَّقت عنه هذه الحكم والدُّرر النفيسة.

- ومن هذا القبيل أيضًا: " أنَّ الرسول ﷺ سمع رجلا يُنشد:

إنِّـــي امـــرؤٌ حميـــريٌّ حـــين تنســـبني لا مـــــن ربيعـــــة آبـــــائي ولا مُضـــــرُ

فقال: ذلك ألأمُ لك وأبعدُ من الله ورسوله."[2]، وهذا القول فيه إنكار شديد ورفض قاطع لمثل هذا الشعر، الذي يُذكِّي العصبية القبلية، ويُثير حميَّة الجاهلية الأولى.

- ومن مواقف الرسول ﷺ في توجيه الشعراء حين يرى انحرافهم أو ابتعادهم عن القيم والمفاهيم الإسلامية الجديدة، فيُسارع النبيُّ ﷺ موجِّهًا ومرشدًا الشاعر لإصلاح هذا الخلل في المفاهيم بمقياس الدِّين الحنيف، أنَّه "سمع كعب بن مالك يقول:

ألا هـــل أتـــى غسَّـــان عنَّـــا ودونهـــم مـــــن الأرض خَـــــرْقٌ سَـــــيْرُهُ مُتَنَعْنـــــعُ
صَـــــحَارٍ وأعـــــلامٌ كـــــأنَّ قَتَامَهـــــا مـــــن البُعْـــد نَقْـــعٌ هَامِـــدٌ مُتَقَطِّـــعُ

إلى أن قال:

مجالـــدنا عـــن جِـــذْمِنا كـــلّ فَخْمـــةٍ مُدَرَّبَـــــةٍ فيهـــــا القـــــوانِسُ تَلْمَـــــعُ

فقال رسول الله ﷺ: **«أيصلحُ أن تقول: مجالدنا عن ديننا؟»**، فقال كعب: نعم. فقال رسول الله ﷺ: **«فهو أحسن»**. فقال كعب:مجالدنا عن ديننا"[3]، فكان هذا النقد من قبل النبيِّ ﷺ مُتجاوزا النقد اللغوي أو اللفظي الذي استعمله، حيث استبدل كلمة (جذمنا) بكلمة (ديننا)، لأنَّ كلمة (جِذْم) وهي بمعنى: الأهل والعشيرة، تحمل نعرات عصبية وقبلية، فتخلَّص منها النبيُّ ﷺ، ليتَّجه بالبيت اتجاها دينيًّا خالصًا، فجعل الشاعر يتجاوز حدود القبيلة والعشيرة الضيِّقة، والتي قد تحمل نعرات وعصبيات مقيتة، ليكون دفاعه وجهاده خالصًا للدِّين فقط.

---

[1]- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص181.

[2]- البيهقي إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوئ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1991م، ج1، ص70.

[3]- ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص97.

- ومن آرائه النقدية التي تدل على فهمه الدَّقيق للشعر، وإدراكه مقاصد الشعراء، "أنَّه ﷺ لمَّا سمِع قول كعب بن زهير:

قنـــواءُ فـــي حرَّتيهـــا للبصـــير بهـــا عِتْـــقٌ مُبـــينٌ، وفـــي الخـــدَّين تســـهيلُ

قال ﷺ لأصحابه: **«ما حرَّتاها؟»**، قال بعضهم: العينان، وسكت بعضهم. فقال ﷺ: **«هما أُذُناها نسبهما إلى الكرم»**"[1]

- ومن مثل هذا النقد أيضا: "رُوِيَ أنَّ سودة رضي الله عنها أنشدت:

عَـــدِيٌّ وتَـــيْمٌ تبتغـــي مـــن تُحـــالِفُ

فظنَّت عائشة وحفصة **رضي الله عنهما** أنَّها عرَّضت بهما، وجرى بينهنَّ كلام في هذا المعنى، فأُخبِرَ النبيُّ ﷺ، فدخل عليهنَّ، وقال: **« يا ويلكُنَّ، ليس في عديِّكُنَّ ولا تيمِكُنَّ قيل هذا، وإنَّما قيل في عدِيِّ تميم وتَيْمِ تميم »**. وتمام هذا الشعر وهو لقيس بن معدان الكُلَيْبيّ، من بني يربوع:

فحـــالفْ، ولا والله تهـــبِطُ تَلْعَـــةٌ مـــن الأرضِ إلاَّ أنـــت للـــذُّلِّ عَـــارِفُ

ألا مـــن رأى العبـــدين، أو ذُكِـــرا لـــه عَـــدِيٌّ وتَـــيْمٌ تبتغـــي مـــن تُحـــالِفُ "[2]

- ومن نقد النبيِّ ﷺ الذي أخذ منحى أخلاقيًّا، ما رواه محمَّد بن مسلمة الأنصاري، حيث قال: "كُنَّا يوما عند النبيِّ ﷺ فقال لحسَّان بن ثابت: **«أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية، فإنَّ الله تعالى قد وضع عنَّا آثامها في شعرها وروايته»**، فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن عُلاثَة:

علقـــمُ مـــا أنـــت إلـــى عـــامرٍ النَّـــاقضِ الأوتـــار والـــواترِ

فقال النبيُّ ﷺ: **«يا حسَّانُ لا تعدْ تُنشدني هذه القصيدة بعد مجلسك هذا»**. فقال: يا رسول الله، تنهاني عن رجُلٍ مُشْرِكٍ مُقيمٍ عند قيصر؟ فقال النبيُّ ﷺ: **«يا حسَّانُ، أشكرُ النَّاس للنَّاس أشكرهم لله تعالى، وإنَّ قيصر سأل أبا سفيان ابن حرب عنِّي فتناول منِّي - وفي خبر آخر: فشعَّث منِّي- وإنَّه سأل هذا عنِّي فأحسن القول»**. فشكره رسول الله ﷺ على ذلك."[3]، فانظر إلى عظيم خلقه ﷺ، فقد رفض الاستماع إلى قصيدة الأعشى التي هجا فيها علقمة بن علاثة، والسبب لأنَّ هذا الأخير قد أحسن القول في رسول الله ﷺ حين سأله قيصر عنه. فقد حفظ الرسول ﷺ هذا الصنيع لعلقمة، وها هو الآن يردُّ الجميل، فيطلب من حسَّان أن يكُفَّ عنه لسانه، ويطلب منه ألاَّ يعود لإنشاده هذه القصيدة مرَّة أخرى. بالرغم من أنَّ هذا الرجل لا زال على شركه وكفره، هذا من جهة، ومن جهة أخرى-وكما قال الرسول ﷺ في بداية هذا الخبر- أنَّ الله قد وضع عن المسلمين آثام الجاهلية في شعرها وروايته، أي أنَّه لا حرج من استنشاد شعر الجاهلية وروايته والاستماع إليه بل وحفظه.

---

[1]- ابن حجة أبو بكر الحموي، شرح قصيدة كعب بن زهير بانت سعاد، تح: علي البوَّاب، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، دط، 1985م، ص45.

[2]- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص20.

[3]- المرجع نفسه، ص19.

– ومن المعروف في ذلك أيضا خبر عائشة **رضي الله عنها**، أنَّها قالت:" كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يقول لي: يا عائشة ما فعلتْ أبياتُك؟ فأقول: وأيَّ أبياتي تريد يا رسول الله. فإنَّها كثيرةٌ؟ فيقول: في الشكر، فأقول: نعم بأبي وأمي. قال الشاعر:

ادفـــعْ ضـــعيفَك لا يَجِـــرْ بـــك ضـــعفُه يومـــا فتُدْرِكْـــه العواقـــبُ قـــد نمـــا

يُجزيـــك أو يُثنـــي عليـــك، وإنَّ مَـــنْ أثنـــى عليـــك بمـــا فعلـــتَ كمـــن جـــزى

إنَّ الكـــــريم إذا أردْتَ وصـــــالَهُ لـــم تُلـــفِ رشـــا حبلِـــه واهـــي القُـــوى

قالت: فيقول: يا عائشة إذا حشر الله الخلائق يوم القيامة قال لعبد من عباده، اصطنع إليه عبدٌ من عباده معروفا: هل شكرته؟ فيقول: أيْ ربْ، علمتُ أنَّ ذلك منك فشكرتُك عليه. فيقول: لم تشكرني، إذا لم تشكرْ من أجريتُ ذلك على يديه."[1]، وفي هذا إعجاب الرسول ﷺ بهذه الأبيات التي كان يسمعها من حين لآخر على لسان عائشة **رضي الله عنها** بسبب ما اكتنزتها هذه الأبيات من مُثُل نبيلة وقيم رفيعة.

ومن الشعراء الذين أُعجب الرسول ﷺ بهم، واستنشد أشعارهم قيس بن الخطيم، "فعن أنس بن مالك قال: جلس رسول الله ﷺ في مجلس ليس فيه إلاَّ خزرجيٌّ ثمَّ استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم، يعني قوله:

أتعـــرف رســـما كـــاطِّراد المـــذاهب لَعَمْـــرَةَ وحشـــا غيـــر موقـــف راكـــب

فأنشده بعضهم إيَّاها، فلمَّا بلغ إلى قوله:

أُجالِـــدهم يـــومَ الحديقـــة حاسِـــرًا كـــأنَّ يـــدي بالســـيف مِخْـــرَاقُ لاعِـــبِ

فالتفت إليهم رسول الله ﷺ فقال: **«هل كان كما ذكر؟»**؛ فشهد له ثابت بن قيس بن شمَّاس، وقال له: والذي بعثك بالحقِّ يا رسول الله، لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه عليه غلالة ومِلحفة مورَّسة فجالدنا كما ذكر."[2] ، والرسول ﷺ، كما جاء في الخبر، بعد أن سمع قول قيس(أجالدهم...البيت)، سأل: هل كان كما ذكر؟ والسؤال هنا يحمل بُعدا أخلاقيا، فهو ﷺ يُريد معرفة صدق الشاعر فنِّيا وواقعيًّا، هل يتطابق كلامه مع أفعاله أم لا؟ وهذا معناه أنَّ الرسول ﷺ يُحبُّ الشعر الذي يلتزم فيه صاحبه الصِّدق في تصوير الواقع ويبتعد عن الكذب والمغالاة.

وكما كان النبيُّ ﷺ حريصا على الصِّدق الفنِّي والخلقي من الشاعر، فقد كان –ومن هذا المنطلق أيضا– حريصا على تصحيح الخطأ الذي يقلب الحقائق، ويُغيِّر الوقائع، فكان إذا ما سمع خطأ في شعر ما، وقد يكون مقصودًا لغرض ما في نفس صاحبه. يُبادر إلى تصحيحه وتصويبه، ولكنَّه يُحيل مهمَّة ذلك في الغالب لصاحبه أبي بكر الصِّديق ﷺ، ومن أمثلة ذلك: "أنَّ النبيَّ ﷺ سمع جارية تنشد:

---

[1]– الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد، الروض الدَّاني إلى المعجم الصغير للطبراني، تح: محمد شكور محمود الحاج أمرير، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1985م، ج1، ص276.

[2]– الأصفهاني، الأغاني، ج3، ص8.9.

كانـــــت قـــــريشُ بيضـــــةً فتفلَّقـــــتْ فالـــــمُحُّ خالصُـــــه لعبـــــد الـــــدَّار

فقال ﷺ لأبي بكر: يا أبا بكر أهكذا قال الشاعر؟ قال أبو بكر: لا، إنَّما قال: لعبد مناف. قال: كذلك قال."[1]

وختاما نقول: إنَّ ما عرضناه من أقوال ومواقف للرسول ﷺ لتثبت وبشكل قاطع أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن شاعرًا، وهذا بصريح نصِّ القرآن الكريم، ولكنَّه كان يعجب ويطرب له إعجاب وطرب العربي صاحب الذوق الرفيع، فقد وهبه الله صفاء ذهن وسلامة ذوق وبصيرة فذَّة بصناعة الكلام، وقدرة على تمييز حسنه من رديئه ما فاق العرب جميعا. ولم يكن ﷺ نابذا للشعر، ولا مُجافيا له، ولكنَّه كان موجِّهًا له نحو الوجهة الخيِّرة البنَّاءة، الموافقة لتعاليم الدِّين، وذلك لتحقيق صلاح الفرد والجماعة. فالشعر عنده بمنزلة أيِّ كلام؛ حسنه حسنٌ، وقبيحه قبيحٌ. ولم يرفض النبيُّ ﷺ الشعر مطلقا، وإنَّما رفض منه شعر الأعداء والمُجَّان الذين يهدمون القيم الفضلى، ويُحاربون الدِّين، وينالون من رسول الله ﷺ. ولا أدلَّ على ذلك من كثرة المواقف التي أشاد فيها بالشعر، وأبدى إعجابه الكبير به، مقارنة بالمواقف القليلة التي ذمَّه فيها. كما أنَّنا لا نذهب بعيدا مع مَن يقول إنَّ الرسول ﷺ قد نظَّم بيتا أو بيتين من الشعر، ولكنَّنا نقول أنَّه لم يزن الشعر، وإنَّما أحرز معناه، وكان إذا أراد إنشاد بيت قديم متمثِّلاً كسر وزنه.

3– موقف الخلفاء الرَّاشدين من الشعر:

أمَّا موقف الخلفاء الراشدين ﷺ من الشعر فلم يكن يختلف عن موقف القرآن الكريم والرسول ﷺ؛ لأنَّ آيات القرآن وسنَّة الرسول ﷺ كانتا المصدر الأول الذي استقى منه هؤلاء آراءهم ومواقفهم. فكثير من الصحابة كان يحبُّ الشعر ويحفظه ويتذوَّقه ويرويه، ومنهم من عُرف بقول الشعر. فأبو بكر ﷺ كانت صلته بهذا الفنِّ كبيرة حفظاً وتمثُّلاً وإبداعاً. وعمر ﷺ يُعدّ من أكثر الصحابة ميلاً إلى الشعر، ومن أشدِّهم اهتماماً بروايته ونقده، حتى قيل: "لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر"[2]. كما كان عليُّ بن أبي طالب يقول الشعر وله الكثير من الأبيات المبثوثة في كتب التراث والأدب. "قال سعيد بن المسيَّب: كان أبو بكر شاعرا، وعمرُ شاعرا، وعليٌّ أشعرَ الثلاثة. وقال أنس بن مالك خادم النبيِّ ﷺ: قَدِمَ علينا رسول الله ﷺ وما في الأنصار بيتٌ إلاَّ وهو يقول الشِّعر. قيل له: وأنت أبا حمزة؟ قال: وأنا."[3]، وحتَّى النّساء كنَّ يقلن الشعر ويروينه، منهنَّ أمُّ المؤمنين عائشة **رضي الله عنها**، فقد "كانت عائشة **رضي الله عنها** كثيرة الرواية للشعر. يُقال: إنَّها كانت تروي جميع شعر لبيد."[4]

– وإذا ما بدأنا بالخليفة الأوَّل أبي بكر الصِّديق ﷺ، فنجده كان عالما بالشعر والأخبار، قال الشعر ولم يُكثر، وقد جُمع شعره في ديوان مطبوع، ومن أشعاره قوله في رثاء النبيِّ ﷺ:

---

[1]– البلاذري أحمد بن يحي، كتاب جمل من أنساب الأشراف، تح: سهيل زكّار ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1996م، ج1، ص70.

[2]– الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص151.

[3]– ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج6، ص133ـ134.

[4]– ابن رشيق، العمدة، ج1، ص26.

أَجِـــــدَّك مـــــا لعينـــــك لا تنـــــامُ كـــــأنَّ جُفُونَهـــــا فيهـــــا كِـــــلامُ
لأمْـــــرِ مُصـــــيبةٍ عظُمـــــتْ وجلَّـــــتْ ودمـــــعُ العـــــينِ أهونُـــــهُ انســـــجامُ
فُجعنـــــا بـــــالنبيِّ وكـــــان فينـــــا إمـــــامَ كرامـــــةٍ نعـــــم الإمـــــامُ
وكـــــان قِوامَنـــــا والـــــرَّأسَ فينـــــا فـــــنحنُ اليـــــومَ لـــــيس لنـــــا قِـــــوامُ
نمـــــوجُ ونشـــــتكي مـــــا قـــــد لقينـــــا ويشـــــكو فَقْـــــدَهُ البلـــــدُ الحـــــرامُ
لِفَقْـــــدِ أغـــــرَّ أبـــــيضَ هاشـــــميٍّ تمـــــامِ نُبُـــــوَّةٍ وبـــــه الخِتـــــامُ
فَقَـــــدْنا الـــــوَحْيَ مُـــــذْ ولَّيْـــــتَ عَنَّـــــا ووَدَّعَنَـــــا مـــــن الله الكـــــلامُ[1]

وكان ﷺ كثير الحفظ، واسع الاطِّلاع، غزير المعرفة، كثير التمثُّل بأشعار الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يسأله عن صحَّة ما يُروى من الشعر، ومن ذلك ما جاء في كتاب الأمالي: "عن أبي وداعة عن جدِّه قال: رأيتُ رسول الله ﷺ وأبا بكر ﷺ عند باب بني شيبة فمرَّ رجلٌ وهو يقول:

يأيُّهـــــا الرجـــــلُ المُحوِّل رحلَـــــه ألاَّ نزلـــــتَ بـــــآل عبـــــد الـــــدَّار
هَبلَتْـــــكَ أُمُّـــــك لـــــو نزلـــــتَ بـــــرحلهم منعـــــوك مـــــن عُـــــدْمٍ ومـــــن إقتـــــار

قال: فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فقال: « **أهكذا قال الشاعر؟** » قال: لا والذي بعثك بالحقِّ، لكنَّه قال:

يأيُّهـــــا الرَّجـــــل المحـــــوِّل رحلَـــــه ألاَّ نزلـــــتَ بـــــآل عبـــــد منـــــاف
هَبِلَتْـــــكَ أُمُّـــــك لـــــو نزلـــــتَ بـــــرحلهم منعـــــوك مـــــن عُـــــدْمٍ ومـــــن إقـــــراف
الخـــــالطين فقيـــــرَهم بغنـــــيِّهم حتَّـــــى يعـــــود فقيـــــرهم كالكـــــافي
ويُكلِّلـــــون جفـــــانهم بســـــديفهم حتَّـــــى تغيـــــب الشـــــمس فـــــي الرَّجَّـــــاف

قال: فتبسَّم رسول الله ﷺ وقال: « **هكذا سمعتُ الرواة يُنشدونه** »[2]

ولأبي بكر ﷺ آراء نقدية مشهورة في بعض شعراء الجاهلية، منها قوله في النابغة: "أشعر النَّاس النابغة أحسنهم شعرا وأعذبهم بحرا وأبعدهم غورا."[3]، فأبو بكر ﷺ فضَّل النابغة لأنَّ شعره –في نظره– سائغ سلس جميل، يستقيه النابغة من معين عذب صافٍ، كما أنَّ معانيه بعيدة العمق والغور. وهذا الحكم وإن كان يكتنفه شيء من التَّعميم والإجمال؛ إلاَّ أنَّه جاء معلَّلا ودقيقا إلى حدٍّ كبير. "وسمع أبو بكر ﷺ يوما قول لبيد:

أخَـــا لـــي أمَّـــا كـــلَّ شـــيءٍ ســـألته فيُعطـــي وأمَّـــا كـــلَّ ذَنْـــبٍ فيغفِـــرُ

---

[1]– أبو بكر الصِّديق عبد الله بن أبي قحافة، الديوان، تح: محمد شفيق البيطار، دار شِراع للدراسات، دمشق، سوريا، ط1، 1993م، ص35–36.

[2]– القالي أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي، الأمالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دط، 1975م، ج1، ص289–290.

[3]– الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن المفضَّل، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تح: عمر الطبَّاع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ج1، ص109.

فقال: ذاك رسول الله ﷺ. وأنشده مُنشدٌ قول زهير في هرم بن سنان:

والسِّـــــترُ دون الفاحشـــــات ومـــــا يلقـــــاك دون الخيـــــر مـــــن ســـــتر

فقال: هكذا كان والله رسول الله ﷺ. ثمَّ قال: (أشعر شعرائكم زُهير)."[1]، فالمضمون الأخلاقي في بيت زُهير هو أساس الحكم الذي اعتمده أبو بكرﷺ، ولمَّا كان النبيُّ ﷺ أفضل وأكمل الناس خُلقًا، فقد استأثره بهذا البيت، ليدلَّ بذلك على عظمة النبيِّ ﷺ في أخلاقه. وممَّا ذُكِر من نقد الصِّديقﷺ: " أنَّ لبيدًا قام على أبي بكر رحمه الله، فقال:

ألا كـــــلُّ شـــــيءٍ مـــــا خـــــلا الله باطـــــلُ

فقال: صدقتَ. قال:

وكـــــلُّ نعـــــيمٍ لا محالـــــةَ زائـــــلُ

فقال: كذبتَ، عند الله نعيم لا يزول"[2]، فأبو بكر الصِّديقﷺ وانطلاقا من عقيدته الإسلامية يرى أنَّ لبيدًا قد أصاب حين قال: (ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ)، وهذا الكلام يتَّفق والعقيدة الإسلامية، لذا قال له: صدقت. في حين أنَّه لمَّا قال: (وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ) كذَّبه؛ لأنَّه أخطأ أو نسي أو غاب عنه نعيم الجنَّة الذي لا يزول ولا ينتهي. والرَّاجح أنَّ لبيدًا كان يقصد بقوله: (وكلُّ نعيم)، نعيم الدنيا فقط.

ورُوِيَ عنه أنَّه قال: "**علِّموا أولادكم الشِّعر فإنَّه يُعلِّمهم مكارم الأخلاق.**"[3]، وهذا الكلام يدل على معرفته ﷺ بالشِّعر أوَّلًا بأنَّه يشتمل على الكثير من مكارم الأخلاق، وثانيا بدوره ووظيفته التربوية والتعليمية؛ فهو يُعلِّم ويُغرس في النشء محاسن الأخلاق وجميل الصفات، لهذا كان أبو بكرﷺ يستمع للشعر ويستنشده ويُثيب عليه ويُقوِّم ما اعوجَّ منه، تمثُّلا واقتداءً بالنبيِّ ﷺ.

– وأمَّا عمر بن الخطاب ﷺ فقد كان أكثر الصحابة معرفة بالشعر ونقده، راوية للشعر، جيِّد الاستحضار له. وتذكر بعض المصادر أنَّه كان يقول الشِّعر، ومن ذلك ما أورده ابن رشيق من أبيات تُنسب له، ومنها قوله:

هـــــوِّن عليـــــك فـــــإنَّ الأمـــــور بكـــــفِّ الإلـــــه مقاديرُهـــــا

فلـــــيس بآتيـــــك منهيُّهـــــا ولا قاصـــــرٍ عنـــــك مأمورُهـــــا

وقوله:

لا شـــيء ممَّـــا تـــرى تبقـــى بشاشـــته يبقـــى الإلـــه ويفنـــى المـــالُ والولـــدُ

لـــم تُغـــنِ عـــن هرمـــز يومـــا خزائنـــه والخُلـــدَ قـــد حاولـــت عـــادٌ فمـــا خلـــدوا

ولا ســـليمان إذ تجـــري الريـــاح لـــه والجـــنُّ والإنـــسُ فيمـــا بينهـــا تَـــرِدُ

---

[1]– المبرّد أبو العباس محمد بن يزيد، الفاضل، تح: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط2، 1995م، ص14.

[2]– المرزباني، الموشَّح، ص89.

[3]– العلوي، نضرة الإغريض في نصرة القريض، ص356.

حـــوضٌ هنالـــك مـــوردٌ بـــلا كـــذبٍ لابـــدَّ مـــن وِرْدِه يومًـــا كمـــا وَرَدُوا[1]

ولعمر بن الخطَّاب ﷺ مواقف نقدية كثيرة تُؤَكِّد أنَّه صاحب ذوق أدبي رفيع وبصيرة فذة لفنِّ الشعر وضروبه ومراميه، ومعرفته لدور الشِّعر وفضله تربويا وأخلاقيا. فهو يعرف فضل الشِّعر وقيمته عند العرب، رُوِي عنه قوله: "كان الشِّعر علم قوم لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه"[2]، ويعرف كذلك دوره التربوي والأخلاقي في نفوس الناشئة خاصة، فها هو يُوصي ابنه عبد الرحمن قائلا له: "يا بُنيَّ أُنسُبْ نفسك وأمهاتك تصلْ رحمك، واحفظْ محاسنَ الشِّعر يكثُرْ أدبُك؛ فإنَّ لم يعرفْ نسبه لم يصلْ رحمه، ومن لم يعرف الشِّعر لم يُؤدِّ حقًّا، ولم يقترف أدبا"[3]، ويقول ﷺ: "تحفَّظوا الأشعار وطالعوا الأخبار، فإنَّ الشِّعر يدعو إلى مكارم الأخلاق ويُعلِّم محاسن الأعمال، ويبعث على جميل الأفعال، ويفتُقُ الفِطنة، ويشحذ القريحة، ويحدو على ابتناء المناقب، وادِّخار المكارم، وينهى عن الأخلاق الدنيئة، ويزجُر عن مُواقعة الرِّيَبِ، ويحضُّ على معاني الرُتب."[4]. وكان يعرف تأثير الشعر في النفوس، ومقدرته على تغيير بعض طباعها، فيقول: "خير صناعات الرَّجل الأبياتٌ يُقدِّمها في حاجاته، يستعطف بها قلب الكريم، ويستميل بها قلب اللئيم "[5]، وكتب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري: "مُرْ مَن قِبَلِكَ بتعلُّم الشِّعر؛ فإنَّه يدلُّ على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب "[6]، والشِّعر الذي يقصده عمر بطبيعة الحال هو الشِّعر العفيف والنافع، الذي ينطلق من القيم والتعاليم الإسلامية، لذا أُثِر عنه قوله: "أُرووا من الشِّعر أعفَّه، ومن الأحاديث أحسنها، ومن النَّسب ما تَواصلون عليه وتُعرفون به، فرُبَّ رَحِمٍ مجهولةٍ قد عُرفت فوُصِلت، ومحاسنُ الشِّعر تدلُّ على مكارم الأخلاق، وتنهى عن مساويها."[7]

ومع علمه ﷺ بالشِّعر ودوره العظيم في تكوين شخصية الإنسان وتوجيه وإقامة أخلاقه؛ إلاَّ أننا نجد موقفين غريبين من عمر مع شاعرين عظيمين كان لهما منزلة وحظوة كبيرة عند الرسول ﷺ، أحد هذين الموقفين كان في حياة النبيِّ ﷺ ومع الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة، "فعن أنس: أنَّ النبيَّ ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحة بين يديه يمشي وهو يقول:

خلُّـــوا بنـــي الكفّـــار عـــن ســـبيله اليـــوم نضـــربكم علـــى تنزيلـــه

ضـــربا يُزيـــل الهـــام عـــن مقيلـــه ويُـــذهل الخليـــل عـــن خليلـــه

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص28.

[2] – الجمحي محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة، مصر، دط، دت، ج1، ص24.

[3] – القرشي، جمهرة أشعار العرب، ج1، ص158.

[4] – العلوي، نضرة الإغريض في نصرة القريض، ص356.

[5] – ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، ج6، ص123.

[6] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص24.

[7] – القرشي، المرجع السابق، ج1، ص158-159.

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشِّعر؟ فقال النبيُّ ﷺ: **«خلِّ عنه يا عمر، فلهي أسرع فيهم من نضح النَّبل»**، ويُروى في غير هذا الحديث (أنَّ النبيَّ ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وكعب بن مالك بين يديه)، وهذا أصحُّ عند بعض أهل الحديث؛ لأنَّ عبد الله بن رواحة قُتِل يوم مؤتة، وإنَّما كانت عمرة القضاء بعد ذلك."[1]

والموقف الثاني كان بعد وفاة النبيِّ ﷺ، ومع شاعر الرسول ﷺ حسَّان بن ثابت، فقد جاء في صحيح مسلم: " أنَّ عمر مرَّ بحسَّان وهو ينشد الشِّعر في المسجد فَلَحَظَ إليه، فقال: قد كنتُ أُنشِدُ وفيه مَنْ هو خيرٌ منك. ثمَّ التفت إلى أبي هُريرة، فقال: أنشُدُكَ اللهَ أسمِعْتَ رسول الله ﷺ يقول: **« أَجِبْ عَنِّي، اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ »**؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ."[2]، وفي رواية أخرى، "عن مسلم بن يسار: أنَّ عمر مرَّ بحسَّان وهو يُنشِدُ الشِّعرَ في مسجد رسول الله ﷺ، فأخذ بأُذُنه، وقال: أَرْغَاءٌ كَرُغَاءِ البعير! فقال حسَّان: دعنا عنك يا عمر، فوالله لتعلَمُ أنِّي كنتُ أُنشِدُ في هذا المسجد مَنْ هو خيرٌ منك، فلا يُغيِّر عليَّ، فصدَّقه عمرُ."[3]

والملاحظ من الواقعتين أنَّ عمر بن الخطاب لم يكن اعتراضه على قول الشِّعر في حدِّ ذاته، وإنَّما كان اعتراضه على قول الشِّعر في المسجد النَّبوي الشريف أو في بيت الله الحرام، وبين يدي رسول الله ﷺ، وكأنَّه يعترض على الحالة التي قيل فيها هذا الشعر أو ذاك، فكلاهما أنشد الشعر في بيت الله (المسجد الحرام، والمسجد النبوي الشريف)، والحالة كانت بين يدي رسول الله حيًّا وميِّتًا. ويبدو أنَّ عمرﷺ فعل ذلك حتَّى لا تُنتقص هيبة ومكانة المسجد. ولكنَّه كان ﷺ وقَّافًا عند الحقِّ، فما أن بيَّن له حسَّان بأنَّه كان يُنشد الرسول ﷺ في المسجد، صدَّقه وتوقَّف عن نهيه.

أمَّا عن نقده للشعر والشعراء فالأخبار في ذلك كثيرة، وسنقف عند بعضها لنتبيَّن من خلالها مدى معرفته ﷺ بالشِّعر، والمعايير التي يحتكم إليها في نقده. ومن الأخبار التي تدل على كثرة حفظه، وموهبته النقدية أنَّه "خرج يوما، وببابه وفد من غطفان، فقال: أي شعرائكم الذي يقول؟

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراء الله للمرء مذهبُ
لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنِّي رسالةً ... لمُبلِّغك الواشي أغشُّ وأكذبُ
ولست بمستبقٍ أخا لا تلمّه ... على شعث أيُّ الرِّجال المهذَّبُ

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن الذي يقول؟

خطاطيف حُجن في حبال متينة ... تمدُّ بها أيدٍ إليك نوازعُ
فإنّك كالليل الذي هم مُدركي ... وإنْ خلتُ أنَّ المنتأى عنك واسعُ

---

[1]- الترمذي، الجامع الكبير، ج4، باب ما جاء في إنشاد الشعر، رقم الحديث2847، ص529- 530.

[2]- مسلم، صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم الحديث 2485، ص756.

[3]- الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص111.

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن القائل؟

إلـــى ابـــن مُحـــرِّق أعملْـــتُ نفســـي وراحلتـــي وقـــد هَـــدَت العيـــونُ

فألفيـــتُ الأمانـــةَ لـــم يخُنهـــا كـــذلك كـــان نـــوحٌ لا يخـــونُ

أتيتُـــك عاريـــا خلقـــا ثيـــابي علـــى خـــوفٍ تُظـــنُّ بـــي الظُّنـــونُ

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فمن القائل؟

إلاَّ ســـليمان إذ قـــال المليـــكُ لـــه قـــم فـــي البريَّـــة فاحـــددها عـــن الفنـــد

قالوا: النابغة يا أمير المؤمنين. قال: فهو أشعر شعرائكم"[1]،كما أنَّه فضَّل زُهيرا وجعله شاعر الشعراء، "فعن ابن عبَّاس، أنَّ عمر بن الخطاب سأله: هل تروي لشاعر الشعراء؟ قلتُ: ومن هو؟ قال: الذي يقول:

ولـــو أنَّ حمـــدا يُخلـــد النَّـــاس أُخلِـــدُوا ولكـــنَّ حمـــد النَّـــاس لـــيس بـــمُخلِد

قلتُ: ذاك زهير. قال: فذاك شاعر الشعراء. قلتُ: وبم كان شاعر الشعراء؟ قال: "لأنَّه كان لا يُعاظل في الكلام وكان يتجنَّب وحشيَّ الشعر، ولم يمدح أحدا إلاَّ بما فيه"، فأنشدته حتَّى برق الفجرُ. فقال: حسبُك الآن، اقرأ القرآن. قلتُ وما أقرأ؟ قال: اقرأ الواقعة، فقرأتها ونزل فأذَّن وصلَّى."[2]، ثم قال صاحب الأغاني: "قال الأصمعي: يُعاظل بين الكلام: يُداخل فيه. ويُقال: يتَّبع حُوشيَّ الكلام، ووحشيَّ الكلام، والمعنى واحد."[3]

وهذا الموقف يُبيِّن بوضوح رؤية عمر ﷺ للشعر، فتفضيله لشعر زهير مردُّه إلى سببين، أحدهما فنِّي أو أدبي بحت، وهو أنَّه لا يُداخل الكلام بعضه ببعض، ويتجنَّب الحوشِّي والغريب والغامض من الألفاظ، والثاني وهو خلق في زهير، فقد كان لا يمدح الرجل إلاَّ بما فيه، فهو بعيد عن الغلوِّ والإسراف في المدح، وهذا ما أمر به الإسلام. يقول الدكتور سعود عبد الجابر: "ومن الملاحظ أنَّ عمر في حكمه هذا سلك مسلك التعليل والتبرير، ووضع مقاييس لهذا الحكم، الأول منهما: خلُوُّ الشعر من المعاظلة أي الغموض والتعقيد في الكلام، والثاني: تجنُّب الوحشي الغريب، والثالث: الصِّدق في القول، وعدم الكذب والمداهنة."[4]، ويُفسِّر لنا الدكتور عبد الجواد المحص مقولة عمر في زهير بن أبي سلمى بقوله: "والرائع حقًّا: أنَّ الفاروق ﷺ يضرب فيما قاله عن زهير مثال التوازن النقدي بين إحساسه بالجمال الفنِّي القائم على الوضوح بالبعد عن غريب اللفظ ووحشيه، والبساطة المجافية للتعقيد بمداخلة الكلام وموالاته، وتراكب بعضه فوق بعض، وبين المنهج الإسلامي الدَّاعي إلى التزام الصِّدق الخلقي والواقعي في الأدب، والابتعاد عن الغلوِّ والإفراط والتجاوز. فعمر تناول تقويمه لشعر زهير من الزاويتين الفنية والدينية، ومن هنا جاء وصفه له بالبعد عن التكلُّف (فنِّيا)،

---

[1]- القرشي، جمهرة أشعار العرب، ج1، ص193-194.

[2]- الأصفهاني، الأغاني، ج10، ص226-227.

[3]- المرجع نفسه، ج10، ص227.

[4] - سعود عبد الجابر، النقد الأدبي القديم أصوله وتطوره، ص21.

وجاء استحسانه الصِّدق لذاته، ولِمَا فيه من مكارم الأخلاق (دينيا وخلقيا)."[1]، "وقيل: إنَّ عمر بن الخطاب ﷺ كان يتعجَّب من قول زهير:

فـــــإنَّ الحـــــقَّ مقطعـــــه ثـــــلاثٌ أداءٌ أو نِفـــــــــارٌ أو جـــــــــــلاء

وسُمِّي زهيرٌ قاضيَ الشعراء بهذا البيت، يقول: لا يقطع الحقَّ إلاَّ الأداء، أو النِّفار وهو الحكومة، أو الجلاء وهو العذر الواضح. ويُروى: يمين أو نفار... وهذه الثلاث على الحقيقة هي مقاطع الحقِّ كما قال، على أنَّه جاهليٌّ، وقد وكَّدها الإسلام."[2]، وعمر ﷺ كان من المعجبين بشعر زهير لما فيه من حكم ومُثُل وقيم وفضائل كثيرة حثَّ عليها الإسلام فيما بعد ووافقها. وما دام الحديث متَّصلا بموقف عمر بن الخطاب من شعر زهير؛ يُروى أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ التقى بابنة زهير فسألها: "ما فعلت حُللُ هَرِم بن سنان التي كساها أباك؟ قالت: أبلاها الدَّهرُ، قال: لكنَّ ما كساه أبوك هَرِما لم يُبله الدَّهر. وقال عمر ﷺ لبعض ولد هَرِم بن سنان: أنشدني ما قال فيكم زهير، فأنشده، فقال: لقد كان يقول فيكم فيحسن، قال: يا أمير المؤمنين، إنَّا كنَّا نُعطيه فنُجزلُ، قال عمر: ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم."[3]، وأنشدوه يومًا "قصيدة عَبَدَة بن الطبيب الطويلة التي على اللاَّم، فلمَّا بلغ المنشد إلى قوله:

والمـــــرءُ ســـــاعٍ لأمـــــرٍ لـــــيس يُدركـــــه والعـــــيش شُـــــحٌّ وإشـــــفاقٌ وتأميـــــلُ

قال عمر متعجِّبا:

والعـــــيش شُـــــحٌّ وإشـــــفاقٌ وتأميـــــلُ

من حُسن ما قسَّم وفصَّل."[4]

وفي رواية أخرى قال: "على هذا بُنيت الدُّنيا."[5]"، ومن الأخبار التي تُروى، وكان فيها خصومة بين شاعرين، وحكم فيها عمر بن الخطاب ﷺ، ما ترويه كتب الأدب: أنَّ عمرًا "أتاه الزِّبرقان بن بدر بالحطيئة فقال: إنَّه هجاني؛ قال: وما قال لك؟ قال: قال لي:

دَعِ المكـــــارم لا ترحـــــل لبُغيتهـــــا واقعـــدْ فإنَّـــك أنـــت الطَّـــاعمُ الكاســـي

فقال عمر: ما أسمع هجاء ولكنَّها معاتبة؛ فقال الزبرقان: أوَ ما تبلغ مروءتي إلاَّ أن آكُلَ وألبَس؟ فقال عمر: عليَّ بحسَّان، فجيء به فسأله؛ فقال: لم يَهْجُهُ ولكن سلح عليه، قال: ويُقال: إنَّه سأل لبيدا عن ذلك فقال: ما يسرُّني أنَّه لحقني من هذا الشعر ما لحقه وأنَّ لي حُمُر النَّعم، فأمر به عمر فجُعل في نقير في بئر، ثمَّ أُلقِي عليه شيء."[6]

---

[1]- المحص عبد الجواد محمد، الدِّين وقراءة النص الأدبي، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة الأزهر، الإسكندرية، مصر، موقع كتب عربية، www.kotobarabia.com، ص52-53.

[2]- ابن رشيق، العمدة، ج1، ص47.

[3]- المصدر نفسه، ج1، ص70-71.

[4]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص150-151.

[5]- ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، ج6، ص131.

[6]- الأصفهاني، الأغاني، ج2، ص120.

فكتب أبياتا وأرسلها لعمر ﷺ يقول فيها:

مـــاذا تقـــولُ لأفْـــراخٍ بـــذِي مَـــرَخٍ حُمْـــرِ الحَواصِـــلِ لا مَـــاءٌ ولا شَـــجَرُ

ألْقَيْـــتَ كَاسِـــبَهم فـــي قَعْـــر مُظْلِمَـــةٍ فَـــاغْفِرْ عَلَيْـــكَ سَـــلامُ الله يـــا عمـــرُ

أنـــت الأَمِـــينُ الـــذي مِـــنْ بَعْـــدِ صَـــاحِبِه ألقَـــتْ إليـــك مقَالِيـــدَ النُّهـــى البشـــرُ

لـــم يُـــؤثِرُوك بهـــا إذ قـــدَّمُوكَ لهـــا لَكِـــنْ لأَنْفُسِـــهِمْ كانـــتْ بـــكَ الخِيَـــرُ[1]

فأخرجه وقال له: إيَّاك وهجاء النَّاس؛ قال: إذًا يموت عيالي جوعا، هذا مكسبي ومنه معاشي؛ قال: فإيَّاك والمُقذِع من القول؟ قال: وما المقذع؟ قال: أن تُخاير بين النَّاس فتقول: فلانٌ خيرٌ من فلان، وآل فلانٍ خيرٌ من آل فلانٍ؛ قال: فأنت والله أهجى مني. ثمَّ قال: والله لولا أن تكون سنَّة لقطعتُ لسانك."[2]

وكذلك تُطلعنا كتب الأدب على خبر آخر كان فيه عمر بن الخطاب ﷺ حكما فيه، هذا الخبر كان بين الشاعر المعروف بالنَّجاشي وقوم يُطلق عليهم اسم (بنو العجلان)، "وبنو العجلان كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قِرَى الأضياف، إلى أن هجاهم به النَّجاشي فضجروا منه، وسُبُّوا به، واستعدوا عليه عمر بن الخطاب ﷺ، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: وما قال؟ فأنشدوه:

إذا الله عـــادى أهـــل لـــؤم ورقـــة فعـــادى بنـــي عجـــلان رهـــط ابـــن مُقبـــل

فقال عمر بن الخطاب: إنَّما دعا عليكم ولعلَّه لا يُجاب، فقالوا: إنَّه قال:

قُبِّيِّلَـــــةٌ لا يغـــــدرون بذمَّـــــة ولا يظلمـــــون النَّـــــاس حبَّـــــة خـــــردل

فقال عمر ﷺ: ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب كذلك، أو كلاما يُشبه هذا. قالوا: فإنَّه قال:

ولا يَـــرِدُون المـــاء إلاَّ عشـــية إذا صـــدر الـــوُرَّادُ عـــن كـــلِّ منهـــل

فقال عمر: ذلك أقلُّ للسكاك، يعني الزِّحام، قالوا: فإنَّه قال:

تعـــاف الكـــلابُ الضـــاربات لحـــومهم وتأكـــل مـــن كعـــب بـــن عـــوف ونهشـــل

فقال عمر: كفى ضياعا من تأكل الكلابُ لحمه، قالوا: فإنَّه قال:

ومـــا سُـــمِّي العجـــلان إلاَّ لقـــولهم خـــذ القَعْـــبَ واحلـــب أيُّهـــا العبـــد واعجـــل

فقال عمر: كلُّنا عبدٌ، وخيرُ القوم خادمُهم. فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: ما أسمع ذلك، فقالوا: فاسأل حسَّان ابن ثابت، فسأله فقال: ما هجاهم ولكن سلح عليهم. فسجنه عمر، وقيل: إنَّه حدَّه."[3]، وعقَّب ابن رشيق على الحادثة بقوله: "وكان عمر ﷺ أبصر النَّاس بما قال النَّجاشي، ولكن أراد أن يدرأ الحدَّ بالشبهات."[4]

---

[1] – الحطيئة أبو مُليك جرول بن أوس، الديوان، تح: حمدو طمَّاس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2005م، ص66.

[2] – الأصفهاني، الأغاني، ج2، ص121.

[3] – ابن رشيق: العمدة، ج1، ص44-45.

[4] – المصدر نفسه، ص45.

وصحيح ما ذكره ابن رشيق فعمر ﷺ "كان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة."[1]، ومع ذلك كان ﷺ يتأوَّل أبيات النجاشي تأويلا حسنا، ويُوجِّهه غير الوجهة التي قصدها الشاعر، وهذا ينسجم والمقياس الذي يحتكم إليه في الشِّعر، ألا وهو المقياس الديني والخلقي. وإن كان عمر في مواقف سابقة رأيناه لا يُغفل المقياس الأدبي أو الفنّي في نقد الشعر، ولكن هذه المرَّة تغاضى عنه أو تجاهله؛ حتَّى يدرأ الحدود بالشبهات كما قال ابن رشيق. ولهذا ما كان من بني العجلان إلاَّ أن يطلبوا رأي حسَّان بن ثابت، الذي نظر إلى الأبيات نظرة أدبية محضة، وبيَّن لعمر مقاصد أبيات النَّجاشي. وقال ابن عبَّاس: قال لي عمر بن الخطّاب: أنشدني قول زهير. فأنشدته قوله في هَرِم بن سنان بن حارثة حيث يقول:

قومٌ أبوهم سنان حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الأفلاذ ما ولدوا

لو كان يقعد فوق الشَّمس من كرم ... قومٌ بأوَّلهم أو مجدهم قعدوا

جنٌّ إذا فزعوا، إنسٌ إذا أمنوا ... مُرَزءُون بهاليل إذا احتشدوا

مُحسَّدون على ما كان من نِعمٍ ... لا ينزع الله منهم ماله حُسِدُوا

فقال له عمر: ما كان أحبَّ إليَّ لو كان هذا الشِّعر في أهل بيت رسول الله ﷺ!، ويُعقِّب ابن عبد ربَّه على موقف عمر قائلا: أُنظر إلى ضنانة عمر بالشِّعر، كيف لم ير أحدًا يستحقُّ هذا المدح إلاَّ أهل بيت محمد عليه الصَّلاة والسَّلام؟[2]

ويُروى "أنَّ قوما أتوا عمر بن الخطاب فقالوا: يا أمير إنَّ لنا إماما شابًّا إذا صلَّى لا يقوم من مجلسه حتَّى يتغنَّى بقصيدة. قال عمر: فامضوا بنا إليه، فإنَّا إن دعوناه يظنُّ بنا أنَّا غضضنا أمره، فقاموا حتَّى أتوه، فقرعوا عليه، فخرج الشابُّ، فقال: يا أمير المؤمنين ما الذي جاء بك؟ قال: بلغني عنك أمرٌ ساءني. قال: فإني أُعتبُك يا أمير المؤمنين، ما الذي بلغك؟ قال: بلغني أنَّك تتغنَّى. قال: فإنَّها موعظة أعظُ بها نفسي. فقال عمر: قل؛ إن كان كلاما حسنا قلتُ معك، وإن يكُ قبيحا نهيتُك عنه. فقال:

وفُؤادي كلَّما عاتبتُه ... عاد في اللَّذات يبغي نصبي

لا أُراه الدَّهر إلاَّ لاهيا ... في تماديه فقد برَّح بي

يا قرين السوء ما هذا الصِّبا ... فَنيَ العمر كذا باللَّعب

وشبابٌ بان منِّي ومضى ... قبل أن أقضِيَ منه أربي

ما أُرجِّي بعده إلاَّ الفنا ... طبَّق الشيبُ عليَّ مطلبي

ويح نفسي لا أُراها أبدا ... في جميل لا ولا في أدبِ

نفسُ لا كُنْتِ ولا كان الهوى ... اتَّقي الله وخافي وارهبي

---

[1]- ابن رشيق، العمدة، ج1، ص28.

[2]- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج6، ص142.

فبكى عمر، ثمَّ قال: هكذا فليُغنِّ كلُّ من غنَّى. قال عمر: وأنا أقول:

نفـــسُ لا كُنْـــتِ ولا كـــان الهـــوى رابضـــي المـــوتَ وخـــافي وارهبـــي[1]

ومن مظاهر مراقبة عمر بن الخطاب ﷺ لعمَّاله وولاته في أعمالهم وأقوالهم، ومحاسبتهم عليها، ما كان بينه وبين النعمان بن عدي؛ فقد استعمله عمر على ميسان، وكان يقول الشِّعر فقال:

ألاَ هـــل أتـــى الحســـناءَ أنَّ حليلهـــا بميســـان يُســـقى فـــي زُجـــاج وحنـــتم

إذا شـــئتُ غنَّتْنـــي دهـــاقين قريـــة ورقَّاصـــة تحثـــو فـــي كـــلِّ ميســـم

فـــإن كنـــت نـــدماني بـــالأكبر اســـقني ولا تســـــقني بالأصـــــغر المتـــــثلِّم

لعـــلَّ أميـــر المـــؤمنين يســـوؤه تنادمنـــا فـــي الجوســـق المتهـــدِّم

فلمَّا بلغ عمر بن الخطاب قوله، قال: نعم والله إنَّه ليسوؤني، من لقيه فليخبره أني عزلته، فقدم عليه رجل من قومه، فأخبره بعزله، فقدم على عمر فقال: والله ما صنعتُ شيئا ممَّا قلتُ، ولكن كنتُ امرءا شاعرا وجدتُ فضلا من قول فقلت فيه الشِّعر، فقال عمر: أمَا والله لا تعمل لي عملا ما بقيتُ وقد قلتَ ما قلتَ."[2]

فعمر ﷺ كان يعلم أنَّ واليه النعمان لم يفعل شيئا ممَّا قاله، ودليل ذلك أنَّه لم يحدَّه، ومع ذلك فقد عزله، وهذا لاعتبارات عدَّة؛ لعلَّ أهمَّها أنَّ النعمان كان واليا ومسؤولا على رعيَّة، وهو في نظر عمر يجب أن يكون قدوة ومثالا يُحتذى، فإذا كان الوالي يقول مثل هذا الكلام فكيف يكون حال الرعية؟! والاعتبار الآخر أنَّ عمر ﷺ كان غيورا جدًّا على دينه، وعلى أعراض المسلمين، فكان لا يتسامح أبدا مع من ينتهك حرمات الدِّين ولو كان فضلا من الشعر كما هو حال هذا الشاعر. وقيل أنَّه "كان عبدُ بني الحسحاس يرتضخُ لُكنةً حبشيَّةً، فلمَّا أنشد عمر بن الخطاب:

عُمَيْـــرَةَ وَدِّعْ إنْ تَجهَّـــزْتَ غادِيـــا كفـــى الشَّـــيْبُ والإســـلامُ للمـــرءِ ناهِيـــا

فقال عمر ﷺ: لو كُنْتَ قدَّمْتَ الإسلامَ على الشَّيْبِ لأجزتُك، فقال: ما سَعَرْتُ، يُريد: ما شَعَرْتُ."[3]، وفي الأغاني، "قال عمر: لو قلتَ شعرَك كلَّه مثل هذا لأعطيتُك عليه"[4]، "فلمَّا قال:

فبـــات وِســـادانا إلـــى عَلَجَانَـــة وحِقْـــفٍ تهـــاداه الرِّيـــاحُ تهاديـــا

وهبَّـــت شـــمال آخـــرَ اللَّيـــل فـــرَّةٌ ولا ثـــوبَ إلاَّ درعُهـــا ورِدائيـــا

فمـــا زال بُـــردي طيِّبًـــا مـــن ثيابهـــا إلـــى الحَـــوْل حتَّـــى أنهـــجَ الثَّـــوبُ باليـــا

---

[1]- المتقي الهندي علاء الدين بن حسام الدين: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تح: بكري حيّاني وصفوت السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط5، 1985م، ج3، ص854-855.

[2]- المرجع نفسه، ج3، ص843.

[3]- المبرِّد أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تح: عبد الحميد هنداوي، من إصدارات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، المملكة العربية السعودية، دط، 1998م، ج2، ص240-241.

[4]- الأصفهاني، الأغاني، ج22، ص214.

فقال له عمر: ويلك! إنَّك مقتولٌ! فأخذوه شاربًا ثَمِلا، فعرضوا عليه نسوةً، حتَّى مرَّت عليه التي يظنُّونها به، فأهوى لها، فأخذوه فقتلوه لما تحقَّق عندهم."[1]، وفي خبر آخر، جاء فيه: "أُنشد عمر بن الخطاب ﷺ قول الحطيئة الذي يمدح فيه بغيض بن عامر بن شمّاس:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ موقِدِ

فقال عمر: كذب، بل تلك نارُ موسى نبيِّ الله ﷺ."[2]، وكذَّب عمر الحطيئة في شعره في وقعة أخرى، لـمَّا "أجرى رسول الله ﷺ الخيلَ وسابق بينها فجاء فرسٌ له أدهمُ سابقا فجثا رسول الله ﷺ على ركبتيه وقال: **« ما هو إلاَّ البحر»**، وقال عمر ﷺ: كذب الحطيئة حيث يقول:

وإنَّ جِيادَ الخَيْلِ لا تستفزُّنا ولا جاعلات العاج فوق المعاصم

وقد زعم ناسٌ من العلماء أنَّه لم يستفزَّه سبقُ فرسه، ولكنَّه أراد إظهار حبّ الخيل وتعظيم شأنها "[3]، وفي الأغاني، "قال عمر: لو ترك هذا أحدٌ لتركه رسول الله ﷺ."[4]، "وأنشد رجلٌ عمر بن الخطاب ﷺ قول طرفة:

فلولا ثلاثٌ هُنَّ من عيشة الفتى وجدِّك لم أحفل متى قام عُوَّدِي

فقال عمر: لولا أن أسير في سبيل الله، وأضعَ جبهتي لله، وأُجالسَ أقوامًا ينتقون أطايبَ الحديث كما ينتقون أطايب الثمر، لم أُبال أن أكون قد مِتُّ."[5]، فعمر يُدرك الخصال الثلاث التي كان يُحبُّها طرفة، وهي التي تجعله يشعر بمتعة الحياة ولذَّتها، ولولاها ما كان لحياته معنى ولا ذاق طعم السعادة فيها. وهذه الخصال ذكرها طرفة بعد هذا البيت وتتمثَّل في: مباكرته الشراب قبل انتباه العواذل، وإغاثة ونجدة المستغيث والملهوف، والتمتُّع بالنساء.

وإذا استثنينا الخصلة الثانية وهي: إغاثة ونجدة المستغيث والملهوف، والتي هي من مكارم الأخلاق، ومن الخصال التي أكَّد عليها الإسلام وحثَّ عليها، فإنَّ الخصلتين الأخريين وهما: معاقرة الخمرة، والتمتُّع بالنساء من الفواحش التي نهى عنها الإسلام وأمر بتجنُّبها. لهذا نجد عمر الفاروق يستبدل هذه الخصال الثلاث بخصال أخرى تنسجم وتتوافق مع قيم دينه وعقيدته، وهذه الخصال هي: السير في سبيل الله، وقد يعني بها الجهاد في سبيل الله، فذروة سنام الإسلام الجهاد كما قال الرسول ﷺ، والصلاة لله عزَّ وجلَّ، ومجالسة أهل الأدب المنتقى ليستفيد منهم.

وهكذا يتبيَّن من كلِّ ما سبق أنَّ موقف عمر بن الخطاب ﷺ من الشِّعر كان منسجما مع روح وتعاليم الإسلام. ويُعتبر الشخصية الأكثر أثرا وتأثيرا في الشعر بعد رسول الله ﷺ، لما كان يتمتَّع به من ثقافة شعرية أهَّلته لأن يحتلَّ مكانة مرموقة في النقد في فترة صدر الإسلام، وقد حظيت آراؤه ومواقفه النقدية بكثير من القبول والإعجاب من لدن الكثير

---

[1]- الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص187-188.

[2]- الأصفهاني، الأغاني، ج2، ص130.

[3]- الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، ص21.

[4]- الأصفهاني، المرجع السابق، ص114.

[5]- الجاحظ، المرجع السابق، ص96.

من النقاد عبر مختلف العصور. فهذا قدامة بن جعفر يقول: "ما أحسن ما قال عمر بن الخطاب في وصف زهير حيث قال: إنَّه لم يكن يمدح الرَّجل إلاَّ بما يكون للرجال، فإنَّه في هذا القول إذا فُهِمَ وعُمِلَ به منفعة عامة، وهي العلم بأنَّه إذا كان الواجب أن لا يُمدح الرجال إلاَّ بما يكون لهم وفيهم فكذا يجب أن لا يُمدح غيره إلاَّ بما يكون له وفيه وبما يليق به أولا ينافره. ومنفعة أخرى ثانية، وهي توكيد ما قلنا في أول كلامنا في المعاني، من أنَّ الواجب فيها قصد الغرض المطلوب على حقِّه وترك العدول عنه إلى ما يُشبهه."[1]، ومن المعاصرين نجد أحمد طه إبراهيم يُعبِّر عن إعجابه بنقد عمر بقوله: "ومهما يكن من شيء فإننا نلحظ في نقد عمر ظاهرة جديدة لا عهد لنا بها من قبل، فهو حين قدَّم زهيرًا لم يحكم بذلك فحسب بل شرح لنا سرَّ هذا التفضيل. فضَّل زُهيرا لأمور ترجع إلى الصياغة والمعاني، وأورد ما يراه من خصائص زهير فيهما في شيء من التحديد. فعمر هو أوَّل ناقد تعرَّض نصًّا للصياغة والمعاني وحدَّد خصائص لهذه وتلك، وهو أول من أقام حكما في النقد على أصول متميِّزة."[2]

– وكان الخليفة الثالث عثمان بن عفَّان ﷺ رغم زهده يتذوق الشعر، وينظر فيه وينقده، فقد أُنشد يوما قول زهير:

ومهما تكن عند امرىء من خليقةٍ وإنْ خالها تخفى على الناس تُعلَمِ

فقال: أحسن زهير وصدق، ولو أنَّ رجلا دخل بيتا في جوف بيت لتحدَّث به الناس. وقال النبيُّ ﷺ: **« لا تعملْ عملا تكره أن يُتحدَّث عنك به »**"[3]، وممَّا يُروى من مواقف الخليفة عثمان ﷺ من الشِّعر وخاصة إذا كان شعر هجاء، ما ذكره ابن سلاَّم في طبقاته، حيث أورد هذه الواقعة التي كانت بين ضابئ بن الحارث وقوم من بني نهشل، فقال: "كان ضابئ بن الحارث رجلا بذيًّا كثير الشرِّ، وكان صاحب صيد وصاحب خيل، وقد استعار كلب صيد من قوم من بني نهشل يُقال له قُرحانُ، فحبسه حَوْلاً، ثمَّ جاؤوا يطلبونه وألحُّوا عليه حتَّى أخذوه، فقال ضابئٌ:

تجشَّمَ دوني وفدُ قُرحانَ خطَّةً تظلُّ بها الوجناء وهي حسيرُ
فأردفتُهم كلبًا فراحوا كأنَّما حباهم بتاج المرزُبان أميرُ
فأُمَّكم لا تتركوها وكلبَكم فإنَّ عقوق الأمَّهات كبيرُ
إذا عثَّنَتْ من آخر الليل دُخنةٌ يظلُّ لها فوق الفراش هريرُ

فاستعدوا عليه عند عثمان. فقال: ويلك! ما سمعتُ أحدًا رمى امرأة من المسلمين بكلب غيرَك! وإنِّي لأُراك لو كنتَ على عهد رسول الله ﷺ لأنزل الله فيك قرآنا، ولو كان أحدٌ قبلي قطع لسانَ شاعر في هجاء، لقطعتُ لسانك. فحبسه في السِّجن."[4]، ومن مواقفه أيضًا من الشِّعر والشعراء ما ردَّ به على عبد الله بن أبي ربيعة حين كتب إليه: "إنِّي قد

---

[1]– قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص95-96.

[2]– إبراهيم طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى ق4هـ، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، السعودية، دط، 2004م، ص46.

[3]– الأصفهاني، الأغاني، ج10، ص239.

[4]– الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص173-174.

اشتريت لك غلامًا شاعرًا؛ فكتب إليه عثمان ﷺ: لا حاجة لي به. أُردده، فإنَّما حظُّ أهل العبد الشاعر منه إذا شبع أن ينسب بنسائهم، وإن جاع أن يهجوهم."[1]

– ويأتي بعد عثمان ﷺ عليّ بن أبي طالب ﷺ، وكان مجوِّدًا للشعر ناقدًا له، ذا موهبة فذَّة في تذوق الشعر ونقده، وكان نقده كنقد غيره من الخلفاء الراشدين، أساسه هو موافقة تعاليم الإسلام. يقول العقاد: "كان ينظم الشّعر ويُحسن النَّظر فيه، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير، يعرف اختلاف مذاهب القول، واختلاف وجوه المقابلة والتَّفضيل على حسب المذاهب."[2]

وكان ﷺ يُفضِّل بعض الشعراء على بعض، ومن ذلك ما رُوي عنه أنَّه "كان يُفطر النَّاس في شهر رمضان، فإذا فرغ من العشاء تكلَّم فأقلَّ وأوجز فأبلغ. فاختصم النَّاس ليلة في أشعر النَّاس، حتَّى ارتفعت أصواتهم. فأقبل أمير المؤمنين ﷺ على النَّاس فقال: كلُّ شعرائكم محسنٌ، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيَّهم أسبق إلى ذلك، وكلُّهم قد أصاب الذي أراد وأحسن، وإنْ يكن أحدُهم أفضلَ فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة؛ امرؤ القيس بن حُجر، كان أصحَّهم بادرة وأجودَهم نادرة."[3]، ويُعلِّق الشارح بقوله: "ثمَّ يضع أمير المؤمنين قاعدة وأصلا من أصول النقد في الموازنات، أنَّه لا تصحُّ الموازنة بين شاعر في عصر وشاعر في عصر آخر، بل ينبغي في قواعد الموازنة أن يجمعهما زمانٌ واحدٌ، ومعنى واحدٌ، وطريق من طرق القول واحدٌ.. إذا تمَّ هذا علمنا أيَّهم أسبق. ثمَّ يُجاريهم في كلامهم على ضربٍ من المجاملة، هذا وإنْ كنت غير موافق لكم على اختياركم المبني على غير قاعدة، ووفق رأيكم في الموازنة غير المبني على أصول وقواعد فإنَّه يكون امرئَ القيس، الذي لم يقل عن رغبة أو رهبة."[4]

وفي هذا الخبر يظهر موقف جديد وفريد من نوعه من لدن الإمام علي ﷺ؛ فنقف لأوَّل مرَّة على كلام صريح ومنهج نقدي واضح في الموازنة والمفاضلة بين الشعراء، فيضع للموازنة والمفاضلة شروطا هي: الزمان والغاية والمذهب، فحتَّى يتسنَّى لنا الحكم بين الشعراء فيجب أن يجتمعوا في عصر واحد، وأن يكون الموضوع أو القول واحدا في غايته، أي في فكرته ومضمونه، وواحدًا في مذهبه، أي في طريقة معالجته وطرحه. عندئذ يمكن الحكم على الشعراء ونعرف من تقدَّم ومن تأخَّر. أمَّا إذا انعدمت هذه الشروط، وكان لزامًا أن نفاضل، فالشاعر المُفلق في نظره هو من قال شعره وكان متجرِّدا من شهوة الطمع والرغبة، ومتحرِّرا من قيد الرهبة والخوف، وكان شعره خالصا لا شائبة فيه. ولم يجد ﷺ شاعرا ينطبق عليه هذا الوصف إلا امرئ القيس. ويُعلّق العقاد على هذه المفاضلة، قائلاً: "وهذا فيما نعتقد أوَّل تقسيم

---

[1]– الكلاعي أبو القاسم محمد بن عبد الغفور، إحكام صنعة الكلام، تح: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، 1966م، ص37.

[2] – العقاد عباس محمود، عبقرية الإمام، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط8، 2006م، ص115.

[3]– باحذاق عمر محمد، شرح الرسالة الشافية في إعجاز القرآن الكريم للإمام عبد القاهر الجرجاني، دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا، ط1، 1998م، ص84-85.

[4]– المرجع نفسه، ص86-87.

لمقاييس الشّعر على حسب (المدارس) والأغراض الشعرية بين العرب، فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال، ولا يكون التَّعميم بالتَّفضيل إلا على التَّغليب."[1]

ومن المواقف الطريفة، والتي نستخلص منها بعض اللمحات النقدية ما جاء في العمدة " أنَّ أعرابيا وقف على عليّ بن أبي طالب ﷺ فقال: إنَّ لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك؛ فإن أنت قضيتها حمدتُ الله تعالى وشكرتُك، وإن لم تقضها حمدتُ الله تعالى وعذرتُك، فقال له عليٌّ: خُطَّ حاجتك في الأرض، فإنِّي أرى الضرَّ عليك، فكتب الأعرابي على الأرض (إنِّي فقيرٌ) فقال علي: يا قنبر، ادفع إليه حُلَّتي الفلانية، فلمَّا أخذها مَثُلَ بين يديه فقال:

كســـوتني حُلَّـــةً تبلـــى محاســـنها فســوف أكســوك مــن حُســن الثنــا حُلُــلا

إنَّ الثنـــاء ليُحيـــي ذكـــر صـــاحبه كالغيـــث يُحيـــي نـــداه السَّـــهلَ والجـــبلا

لا تزهـــدِ الـــدَّهر فـــي عُـــرفٍ بـــدأت بـــه فكـــلُّ عبـــدٍ ســـيُجزى بالـــذي فعـــلا

فقال الإمام عليٌّ ﷺ: يا قنبر، أعطه خمسين دينارا، أمَّا الحُلَّة فلمسألتك، وأمَّا الدنانير فلأدبك. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **« أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُم »**"[2]

وأمَّا ما كان من المواقف النقدية المشتركة بين علي بن أبي طالب وعمر بن الخطَّاب **رضي الله عنهما**، نُسجِّل لهما هذا الموقف مع الشاعر أبي محجن الثقفي، "لمَّا قال:

ولســـــت عـــــن الصـــــهباء يومـــــا بصـــــابر

قال له عمر بن الخطَّاب ﷺ: قد أبديت ما في نفسك، ولأزيدنَّك عقوبة لإصرارك على الخمر، فقال له الإمام عليّ ﷺ ذلك لك، وما يجوز لك أن تُعاقب رجلا قال: لأفعلنَّ وهو لم يفعل، وقد قال الله تعالى في الشعراء: **﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾**، فقال عمر: قد استثنى الله تعالى منهم قوما، فقال: **﴿إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾**، فقال عليٌّ: أفهؤلاء -أبو محجن وأمثاله- عندك منهم؟ وقد قال رسول الله ﷺ: **« وَلَا يَشْرَبُ العَبْدُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ »**"[3]، ومن المواقف المشتركة أيضًا أنَّ عمر ﷺ كان "يُفضّل هذه الأبيات ويتَّهم رأيه فيها فلا يذكر ذلك، إلى أن قال لعليٍّ ﷺ: من أشعر النَّاس؟ قال: الذي أحسن الوصف وأحكم الرَّصف وقال الحقَّ. قال: ومن هو؟ قال: أبو محجن في قوله:

لا تســـــألي النَّـــــاس عـــــن مـــــالي وكثرتـــــه

[1] - العقاد، عبقرية الإمام، ص115.

[2] - ابن رشيق، العمدة، ج1، ص24-25.

[3] - محمد مختار جمعة، أبو محجن الثَّقفي حياته وشعره، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر، ع15، 1992م، ص27.

قال: أيَّدتني يا أبا الحسن أيَّدك الله. ثمَّ قال: قد صدق في كلِّ ما ذكر لولا آفة كانت في دينه من حبِّه الخمر."[1] وتمام البيت هو:

وســـائلي القـــوم عـــن دينـــي وعـــن خلقـــي [2]

وما يستخلصه الباحث في نهاية هذا الفصل أنَّ الشّعر في صدر الإسلام ظلَّ محتفظًا بالمنزلة الأولى، كما كان في العصر الجاهلي، ولكنَّ تطوُّرًا جادًّا ألمَّ به من حيث الأغراض والمعاني، فقد أوجد الإسلام أغراضًا جديدة كشعر الجهاد والفتوح والزهد والوعظ والشعر السياسي، وتضاءل شأن أغراض أخرى كانت سائدة في الجاهلية كالشعر القبلي القائم على العصبية، وشعر الهجاء الذي يمسُّ الأعراض والأنساب والهنات الخُلُقية والخَلْقِية. فالشعر في هذا العصر لم يتوقَّف كما توهَّم البعض، ولم يتأخَّر عن مواكبة الأحداث العِظام، إنَّما أصابه شيء من التغيُّر والتحوُّل في المعاني والمضامين، فقد عبَّر الشعراء عن عواطفهم ومشاعرهم-كما كان يفعل شعراء الجاهلية- ولكن بثوب جديد يتَّفق وروح الدّين الجديد ومبادئه والقيم التي يدعو إليها. وهذا ما أقرَّه الكثير من النقاد والباحثين، فهذا شوقي ضيف، يقول: "ومن يرجع إلى كلِّ هذه المصادر التي ذكرها من قبل مثل الأغاني والطبري وسيرة ابن هشام والإصابة والاستعانة والمفضليات والأصمعيات والشعر والشعراء وطبقات فحول الشعراء، يستقرُّ في نفسه أنَّ الشعر ظلَّ مزدهرًا في صدر الإسلام، وليس بصحيح أنَّه توقَّف أو ضعُف كما ظنَّ ابن خلدون وتابعه فيه بعض المعاصرين."[3]

وما قيل عن الشّعر ينطبق تماما على النقد؛ فقد استطاع الإسلام أن يضع تصوُّرًا جديدًا لمعايير الشعر، -زيادة أو اختلافًا- على ما كانت عليه في الجاهلية، تمسُّ خاصة معاني الشّعر ومضامينه وغاياته؛ ذلك أنَّ مقياس الشّعر وتقويمه في هذا العصر كان على أساس من روح الدّين وتعاليمه التي جاء بها، وهذا يعني أنَّ الناقد للشعر كان يستحسن منه ما جاء متَّفقًا مع الدّين وروحه في بناء المجتمع الجديد، كما كان بالطبع يستهجن ويُنكر من الشّعر ما جاء مخالفًا لهذا الدّين وتعاليمه. وقد بدا هذا المقياس واضحًا في نقد الرسول ﷺ والخلفاء الرَّاشدين من بعده. ومن البديهي كما يقول بهجت عبد الغفور: "أن يزدهر المعيار الأخلاقي في ظلّ الإسلام ويأخذ حجمًا أكبر في العملية النقدية، وفي ترسيخ النظرة الأخلاقية أو الدّينية في الشّعر، ولا ريب فالإسلام دينٌ عماده الأخلاق، والأخلاق أساسٌ من أهمِّ الأسس التي يقوم عليها."[4]

وما يراه الباحث أنَّ الإسلام قد أقرَّ قول الشّعر ونظمه، ولكنَّه هذَّبه وبسط سلطانه عليه، فالتزم الكثير من الشعراء بمبادئه وقيمه، ومع هذا نقرُّ بانحراف البعض عن تلك المبادئ والقيم. وكان له الأثر الكبير والإيجابي على الشعر ونقده، ولكنَّ بعض الباحثين والدَّارسين المعاصرين يرون غير ذلك، ومنهم عزّ الدين إسماعيل، الذي يرى "أنَّ المؤثِّر الدّيني سواء

---

[1] – الثقفي أبو محجن عبد الله بن حبيب، الدِّيوان، تح: سالمان محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 2007م، ص53-54.

[2] – المرجع نفسه، ص45.

[3] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي- العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط11، 1989م، ص43.

[4] – عبد الغفور بهجت، المعيار الأخلاقي في النقد الأدبي، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، المغرب، س10، ع26، مارس1983م، ص315.

في الجاهلية أو الإسلام لم يستجب له الشعراء، وكأنَّ فترة ظهور الإسلام كانت فترة عارضة في حياة هذا الشّعر، ما لبث أن تحوَّل بعدها إلى مجراه الأوَّل واتِّجاهه القديم، فترك الدِّينَ وترك الأخلاقَ، ترك لهما ميدانهما، ووقف بعيدًا لا يكاد يتأثَّر بهما، بل لعلَّه كان يتأثَّر بهما تأثُّرًا سلبيًّا حين يُواجههما مواجهة صريحة. ولم يكن النقاد منعزلين عن الشعراء فوقفوا بجانبهم في موقفهم، ولم يتَّخذوا من الدّين أو الأخلاق أساسًا يرفعون به شاعرًا ويخفضون آخر، واستبعدوا الخيرية من ميدان الحكم النقدي، وربَّما رأوا منزع الشرِّ أقرب إلى طبيعة الشّعر، أو أنَّه على الأقلِّ ممَّا يحسن به فنُّ الشّعر."[1]

ويتمادى الدكتور في فكرته محاولاً عبثًا إثبات صحَّة مزاعمه، فيقول: "ويُفهم من هذا أنَّ الإسلام لم يكن له تأثيرٌ إيجابيٌّ على الأدب والنقد. وهذا في رأينا صحيح، عندما نفهم الدّين على أنَّه مجموعة من التعاليم، وأنَّ ما يُمكن أن يتَّصل منه بميدان الأدب هو الجانب التَّوجيهي الأخلاقي، وهذه الحقيقة هي التي يعنينا تقريرها هاهنا. -ثمَّ يقول-: ولكنَّ الإسلام كان له أثر واضح في الميدان الأدبي، لأنَّه لم يكن مجرَّد تعاليم، بل كان له كتاب أدبيٌّ معجزٌ، يتحدَّى كلّ أدب، وهذا الكتاب في قمَّته العالية من البلاغة قد أثَّر في الشعراء كما أثَّر في النقاد."[2]

وما جاء به عزّ الدين إسماعيل، وما قاله غيره أيضًا، إنَّما يعكس حقيقة تلك التَّبعية العمياء لتلك المذاهب الأدبية الغربية، التي تدعو إلى فصل الدِّين عن الفنِّ، وهذا بسبب ما عانوه من الكنيسة ورجالها من ظلم وتعسُّف وإقصاء، -وهذا بالمناسبة لم يحدث مع المسلمين-، فنادوا بما نادى به أعلام الأدب في أوروبا، وانتهجوا نهجهم، وراحوا يُنادون في مجتمعاتهم بفصل الدّين ليس عن الفنّ والأدب فحسب، بل فصله عن الحياة كلّها، لأنَّهم أصبحوا يرونه سبب التخلُّف والانحطاط والجهل. وهذا الذي يتعجَّب منه الدكتور نجيب الكيلاني، قائلاً: "والعجيب في الأمر أنَّ أدباءنا قد اقتفوا آثار كُتَّاب أوروبا في تجاهلهم للعامل الدّيني الإيجابي، بل جعلوا الدّين شيئًا والفنَّ شيئًا آخر، وفصلوا بينهما فصلاً تامًّا.[3]

كذلك يشتمل كلام عز الدّين إسماعيل على محظور، حذَّر منه ونبَّه عليه بعض النقاد الإسلاميين المعاصرين، ويتمثَّل في وصف القرآن الكريم خاصة بأنَّه كتاب أدبي، فالقرآن الكريم لا يُوصف بأنَّه كتاب أدبي أو علمي أو تاريخي رغم أنَّه يشتمل على إشارات أدبية وحقائق علمية وأحداث تاريخية، فهذه النظرة غير البريئة للقرآن الكريم ومعه الحديث النبوي الشريف باعتبارهما نماذج للأدب الإسلامي، تجاوز خطير، القصد منه إزالة الهيبة والقدسية عنهما، وجعلهما نصوصًا أدبية كغيرهما من النصوص النثرية، قابلة للنقد والدراسة الأدبية.

ثمَّ راح عز الدين إسماعيل يذكر بعض النماذج لشعراء حاولوا أن يتَّخذوا موقفًا نقديًّا من القرآن، ليثبت تأثُّر الشعراء بالقرآن كان شكليًّا فقط، فيقول: "أمَّا الشعراء فكثير منهم حاول أن يقيس مستواه الأدبي بمستوى هذا القرآن، ويقف منه موقفًا نقديًّا. فالأغاني يروي لنا أنَّ أبا العتاهية قال: قرأت البارحة (عمَّ يتساءلون)، ثم قلت قصيدة أحسن منها.

---

[1] - إسماعيل عز الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي (عرض وتفسير ومقارنة)، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط3، 1974م، ص187.

[2] - المرجع نفسه، ص187-188.

[3] - الكيلاني نجيب، الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط4، 1985م، ص23-24.

ويضع لنا عبد العليم قائمة بأسماء عدد من الشعراء الذين انتقدوا القرآن. ويروي الأغاني كذلك أنَّ بشار بن برد قد فضَّل بعض شعره على سورة الحشر. ثمَّ يقول: وهكذا يقف الشعراء من ذلك الأثر الأدبي، يقيسون أنفسهم به أحيانًا، ويأخذهم الزَّهو فيُفضِّلون إنتاجهم عليه في بعض الأحيان، ولكنَّهم في كلِّ الحالات لم يكونوا يتأثَّرونه أو ينحون عليه إلاَّ في ناحيته الشكليّة، أي في صورته الأولى فحسب، أمَّا ما فيه من أخلاقية فقد كانوا عنها بعيدين كلَّ البعد كما رأينا. ونخرج من كلِّ هذا بأنَّ الدّين بما هو روح لم يُؤثِّر في الأدباء ولم يُؤثِّر في النقاد."[1]

فالفكرة التي أشاعها بعض الباحثين عربًا ومستشرقين من أنَّ الإسلام لم يترك آثارًا عميقة في نفوس الشعراء، وخاصة المخضرمين منهم، فكرة باطلة ولا أساس لها من الصّحة، والواقع ينسفها نسفًا. فقد حرص الإسلام على أن يكون الشّعر رسالة سامية، له غاية نبيلة يدعو إليها، وأن يكون الشاعر ملتزمًا بجوهر العقيدة، ومنسجمًا مع التعاليم والمبادئ التي يدعو إليها الدّين. ومن العبث أن نقتنع أنَّ الإسلام كان فترة عابرة وعارضة في حياة الشعراء المسلمين، فقد غيَّر الإسلام مجرى حياة العرب تغييرًا جذريًّا وفي جميع مناحيها وجوانبها، ودون شكٍّ قد نالت الحياة الأدبية نصيبها وحظَّها وافرًا من هذا التغيير. وظهر جليًّا أثر الإسلام في الشعر عند أولئك الشعراء الذين اقتبسوا ونهلوا من بلاغة القرآن الكريم، وارتووا من نبع السنَّة الصافي، كما تأثَّروا بتعاليمه ومبادئه وقيمه التي حثَّ النَّاس عليها، فنظَّموا أجمل وأروع القصائد، والتي لا تقلُّ روعة وجمالا عن قصائد الشعر الجاهلي.

[1] – إسماعيل عز الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص188-189.

الفصـــل الثالـــث

النقد الأخلاقي في العصر الأموي والعباسي والأندلسي

1- النقد الأخلاقي في العصر الأموي:

في العصر الأموي ازدهر الشعر واتَّسعت آفاقه ومراميه، وتحسَّنت أساليبه ورقَّت معانيه وألفاظه تبعا للحالة الجديدة التي آل إليها المجتمع الإسلامي في هذه الفترة. وتشاغل الشعراء بمستجدات الحياة الجديدة: المذهبية والحزبية والاجتماعية والسياسية، وقد كان لهذه المستجدات الأثر الكبير على الحياة الدينية والفكرية والأدبية والنقدية. وأصبح هذا العصر "عصرا ذهبيا للأدب شعره ونثره، وصلت فيه الكلمة إلى ذروة مجدها، وتألَّق نجم الشعر، وارتقت الخطابة قمة باذخة. وقد واكب النقد هذه النهضة الأدبية ولمع في سمائها، وأخذت تظهر فيه اتجاهات تختلف في مسارها مع اختلاف الحياة في أرجاء الدولة الجديدة."[1]

وما رصده الباحثون والدارسون لهذا العصر أنَّ الشعر والنقد ازدهرا بشكل كبير في بيئات ثلاث، هي: الحجاز والشام والعراق. وقد تلوَّن الشعر والنقد في كلِّ بيئة بلون الحياة السائدة فيها، والظروف الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بها.

ومع هذا الازدهار والتطوُّر للشعر والنقد، إلاَّ أنَّه – وكنتيجة حتمية – تحوَّل وانحرف الشعر العربي عن خط سيره الذي سار عليه في عهد النبوَّة والخلافة الراشدة، "وأسهم في تحوُّله مجموعة من العوامل والأحداث منها: الفتن والحروب، ونشوء الفرق السياسية والدينية، وانبعاث العصبيات القبلية، ونمو الحركات الثقافية في الحواضر الإسلامية الجديدة، بالإضافة إلى مجالس الغناء. ولم يعد تأثير الدِّين في النفوس كما كان في عهد النبوة."[2]

فقد ظهر التعصُّب القبلي في الشعر، ممَّا أدَّى إلى ظهور الهجاء بين الشعراء، ومنه ظهور شعر النقائض، كما عرفت بعض الأغراض الأخرى كالمدح والغزل والفخر نشاطا وانتشارا واسعين لأسباب كثيرة ومختلفة، وهذا كان له الأثر الكبير أيضا في تتمة توجيه الشعر وتقويمه وفق المعايير التي كانت سائدة في صدر الإسلام، فظهر أنَّ الاتجاه الديني الأخلاقي في النقد قد تراجع كثيرا في هذه الفترة. بل إنَّ البعض حكم عليه بالزوال والانتهاء، يقول محمد خضر: "لهذا فإنَّ المنهج النقدي الإسلامي لم يتطوَّر في هذا العصر، بل لم يعد موجودا، ولم يعد مقياسا مناسبا في بيئة مختلفة، ومع أُناس تغيَّرت طبائعهم، فكان لزاما أن تتغيَّر روح المنهج، أو لعلَّ مسألة المنهج هذه لم يعد لها وجود."[3]

فالنظرة الدينية في النقد لم تنته، ولم تقف عند حدودها بنهاية الخلافة الراشدة، ففكرة ربط الشعر بالدِّين والأخلاق ظلَّت سائدة، وستظلُّ كذلك إلى قيام الساعة، لكنها فقط لم تلق من الاهتمام ما لقيته في عصر النبوة والخلافة الراشدة، وبتعبير الباحث عزوز قربوع: "أنَّ الرؤية الأخلاقية للشعر في هذه المرحلة عاشت حالات من المدِّ والجزر، والظهور والاختفاء، كلُّ ذلك نتيجة ظروف وملابسات.."[4]، وللاستدلال على وجود النقد الدِّيني والخلقي في عصر

---

[1] – حامد محمود رزق، النقد الأدبي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي، دار العلم والإيمان، الإسكندرية، مصر، ط1، 2010م، ص114.

[2] – الجداونة حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص71.

[3] – خضر محمد، النقد الأدبي عند العرب– الخطوات الأولى، دار العلم والإيمان، الإسكندرية، مصر، دط، 2007م، ص81.

[4] – عزوز قربوع، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم، ص52.

بني أمية سنذكر بعض الشواهد من ثلاث طوائف مثَّلت هذا الاتجاه في نقد الشعر، وهم: طائفة الخلفاء، وطائفة الشعراء، وطائفة العلماء والذوَّاقين للشعر.

أ– نقد الخلفاء:

وسنقتصر في هذه الدراسة على شخصيتين رئيستين في هذا الاتجاه، حيث كان لهما دور بارز في توجيه الشعر والشعراء الوجهة الدينية الأخلاقية في كثير من الأحيان، وهما: معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان.

1– معاوية بن أبي سفيان: وهو أول خليفة أموي، وعُرف عنه اهتمامه الكبير والمتميِّز بالشعر والشعراء، إدراكا منه لقدر الشعر ودوره التربوي والأخلاقي من جهة، وإحساسا بخطره وتأثيره سلبا أو إيجابا في المجتمع، وخاصة عند النشء من جهة أخرى؛ لهذا كان حريصا على تعليم وتأديب الناشئة بالشعر. فقد رُوي عنه: "يجب على الرَّجل تأديب ولده، والشِّعر أعلى مراتب الأدب."[1]، وبعث برسالة إلى زياد يحثُّه فيها على تعليم ابنه الشِّعر، ويلومه على تقصيره في هذا الجانب الهام في تربيته وتثقيفه، رغم تمكُّنه من العلوم الأخرى؛ لأنَّ في رواية الشِّعر–كما يرى معاوية– تأديبا وتدريبا للنشء على مكارم الأخلاق، وغرسا وتنمية لروح الفتوة والشجاعة والإقدام في النفوس. وهذه من الأمور التي يحرص عليها الإنسان العربي، ويسعى جاهدا لغرسها في بنيه. فقد ورد " أنَّ زيادا بعث بولده إلى معاوية فكاشفه عن فنون العلم، فوجده عالما بكلِّ ما سأله عنه، ثمَّ استنشده الشعر، فقال: لم أرو منه شيئا! فكتب معاوية إلى زياد: ما منعك أن تُروِّيه الشِّعر؟ فوالله إن كان العاقُّ ليرويه فيبرّ، وإن كان البخيل ليرويه فيسخو، وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل "[2]، ولأنَّ معاوية يُدرك جيِّدا ويعي وظيفة الشعر وقيمته التربوية والتعليمية والأخلاقية فها هو يُوصي الحارث بن نوفل وقد أدخل عليه يوما ابنه، قائلا له: "ما علَّمتَ ابنك؟ قال: القرآنَ والفرائضَ. فقال: روِّه فصيح الشِّعر؛ فإنَّه يُفتِّح العقل، ويُفصِّح المنطق، ويُطلق اللسان، ويدلُّ على المروءة والشجاعة."[3]

وما ينفكُّ معاوية ﷺ يتذكَّر تلك الأبيات التي ثبَّتته في معركة صفِّين، وقد حدَّثته نفسه بالهرب لشدَّة الموقف، ومن خلالها يُؤكِّد على دور الشعر وأثره في بعث الهمَّة وتقوية النَّفس على الثبات والصمود في مواجهة الخطوب، لذا تجده يحثُّ النَّاس على الانشغال بالشعر، رواية وحفظًا، فيقول: "اجعلوا الشِّعر أكبر همِّكم، وأكثر دأبكم؛ فلقد رأيتُني ليلة الهرير–بصفِّين– وقد أُتيتُ بفرس أغرَّ مُحجَّل بعيدِ البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدَّة البلوى، فما حملني على الإقامة إلاَّ أبياتُ عمرو بن الطنابة:

أبـــت لـــي هِمَّتـــي وأبـــى بلائـــي وأخـــذي الحمـــد بـــالثمن الـــرَّبيح
وإقحـــامي علـــى المكـــروه نفســـي وضـــربي هامـــةَ البطـــل الـــمُشيح
وقـــولي كلَّمـــا جشـــأتْ وجاشـــتْ مكانـــكِ تُحمـــدي أو تســـتريحي

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص24.

[2] – ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، ج6، ص124.

[3] – العسكري الحسن بن عبد الله، المصون في الأدب، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة وزارة الإعلام، الكويت، ط2، 1984م، ص136.

لأدفـــــعَ عـــــن مـــــآثر صـــــالحات وأحمـــي بعـــدُ عـــن عِـــرْضٍ صـــحيح"[1]

كما حذَّر معاوية ﷺ الشعراء من الأغراض الشعرية التي تُثير النعرات، وتُفسد الأخلاق، وتهتك الأعراض، كالهجاء والتشبيب بالنساء. ومن ذلك أنَّه أوصى عبد الرحمن بن الحكم قائلا له: "يا أخي، إنَّك شُهِرتَ بالشعر، فإيَّاك والتشبيب بالنِّساء، فإنَّك تغُرُّ الشريفة في قومها، والعفيفة في نفسها، والهجاءَ؛ فإنَّك لا تعدو أن تُعادي به كريما أو تستثير به لئيما، ولكن افخرْ بمآثر قومك، وقل من الأمثال ما تُوقِّر به نفسك، وتُؤدِّب به غيرك"[2]، وفي محاضرات الأدباء زيادة، قال فيها: "وإيَّاك والمدح فهو كسب الأنذال...وإن لم تجد من المدح بُدًّا، فكن كمَالِك المُرادي حين مدح فجمع في المدح بين نفسه وبين الممدوح، فقال:

أحللـــتُ رحلـــي فـــي بنـــي ثُعَـــلٍ إنَّ الكـــــريم للكـــــريم محـــــلُ "[3]

وكثيرا ما كان معاوية يستنشد جلساءه شعرا بمعنى محدَّد، وغالبا ما تكون هذه المعاني ذات بُعد أخلاقي وتربوي، ومن ذلك أنَّه "قال يوما لجلسائه: أخبروني بأشجع بيت وصف به رجلٌ قومه، فقال له رَوْحُ بن زنباع، قول كعب بن مالك:

نصـــلُ السُّـــيوف إذا قَصُـــرْنَ بخطونـــا قِـــدْمًا ونُلحقُهـــا إذا لـــم تَلْحَـــقِ

قال له معاوية: صدقت."[4]، وممَّا يُروى عنه أيضا أنَّه استنشد ﷺ في أحد مجالسه قائلا: "أنشدوني ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كلُّ بيت قائم بمعناه، فسكتوا، ثمَّ طلع عبد الله بن الزبير، فقال: هذا مِقْوَلُ العرب وعلاَّمتها، أبا خبيب. قال: مَهْيَم؟(أي: ما حالك وما شأنك؟)، قال: أنشدني ثلاثة أبيات لرجل من العرب، كلُّ بيت قائم بمعناه. قال: بثلاث مئة ألف. قال: وتساوي؟ قال: أنت بالخيار وأنت واف كاف، قال: هات، فأنشده للأفوه الأوديّ:

بلـــوتُ النَّـــاسَ قرنـــا بعـــد قـــرن فلـــم أر غيـــرَ ختَّـــالٍ وقـــالِ

قال: صدق، هِيه. قال:

ولـــم أر فـــي الخطـــوب أشـــدَّ وقعـــا وأصـــعب مـــن معـــاداة الرِّجـــالِ

قال: صدق، هِيه. قال:

وذُقـــتُ مـــرارة الأشـــياء طُـــرًّا فمـــا طعـــمٌ أمـــرُّ مـــن الســـؤالِ

قال: صدق، ثمَّ أمر له بثلاث مئة ألف."[5]

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص24.

[2] – ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج6، ص130.

[3] – الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج1، ص108.

[4] – الأصفهاني، الأغاني، ج16، ص155.

[5] – السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، تح: اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، بيروت، لبنان، ومطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط2، 2013م، ص334-335.

كلُّ هذه الأخبار تدل على أنَّ معاوية بن أبي سفيان ﷺ كان مهتمًّا بالشعر؛ لأنَّه يرى فيه رسالة إنسانية نبيلة، وأنَّ مادته الأساسية هي القيم والأفكار الأخلاقية التي يجب على الشاعر والمتلقي –على حدٍّ سواء– العناية والاهتمام بها.

2– عبد الملك بن مروان: ويعدُّ أكثر خلفاء بني أميَّة اهتماما بالشعر، فقد عُرف بحفظ الشعر ونقده، والموازنة والمفاضلة بين الشعراء في مجالسه، فقد كان ذوَّاقة للشعر، عارفا لمساربه، ناقدا لأساليبه، بصيرا بعيوبه، وهذا ما أهَّله لأن يكون أَنْقَدَ خلفاء بني أمية. قال عنه المسعودي أنَّه "كان يُحبُّ الشعر والفخر والتقريظ والمدح"[1]، وقال الشَّعبيُّ: "ما جالستُ أحدا إلاَّ وجدتُ لي عليه الفضل إلاَّ عبد الملك بن مروان؛ فإنِّي ما ذاكرته حديثا إلاَّ زادني فيه، ولا شعرا إلاَّ زادني فيه."[2]، ومن شعره الذي ذُكر في بعض كتب التاريخ، قوله:

لعمري لقد عُمِّرتُ في الدَّهر بُرهةً ودانت لي الدنيا بوَقْعِ البَواترِ
فأضحى الذي قد كان مما يسرُّني كلمح مضى في المُزمنات الغَوابرِ
فيا ليتني لم أُعْنَ في الملك ساعة ولم ألْهُ في اللَّذات عيش نواضِر
وكنت كذي طِمرين عاش ببُلغةٍ من الدَّهر حتَّى زار ضَنْكَ المقابرِ[3]

ولقد كان لنشأته الدينية أثرٌ كبير في رؤيته للشعر، "قال عنه ابن سعد: (كان عابدا ناسكا بالمدينة قبل الخلافة)، وقال عنه نافع: (لقد رأيت المدينة وما بها شابٌّ أشدُّ تشميرا ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان)، وقال أبو الزناد: (فقهاء المدينة: سعيد بن المسيب، وعبد الملك بن مروان، وعروة بن الزبير، وقَبيصة بن ذؤيب)"[4]، بيد أنَّه حين آلت إليه الخلافة نسي سابق عهده، وتغيَّر حاله، وانغمس في السياسة والحكم انغماسا شغله عن العبادة والنُّسك وحتَّى قراءة القرآن، "فقد رُوي عن ابن عائشة قال: أفضى الأمر إلى عبد الملك والمصحف في حِجْره، فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك!"[5]، "وقال يحي الغساني: كان عبد الملك بن مروان كثيرا ما يجلس إلى أمِّ الدرداء، فقالت له مرَّة: بلغني يا أمير المؤمنين أنَّك شربتَ الطِّلاء (ما طُبخ من عصير العنب حتَّى صار على الثلث وذهب ثلثاه) بعد النُّسك والعبادة، قال: إي والله، والدِّماء قد شربتها."[6]

وأمَّا عن رؤيته للشعر، فكان يرى فيه رؤية عمر بن الخطاب ﷺ، فهو بالنسبة إليه أداة مهمة من أدوات التربية والتوجيه، وغرس الأخلاق الفاضلة في النفوس؛ لهذا كان حريصا كلَّ الحرص أن يُؤدِّب أولاده خاصة، والنَّاس عامة من خلال رواية الجيِّد من الشعر، فكثيرا ما كان يُوصي مؤدِّب أولاده بذلك، ومن هذه الوصايا، قوله لمؤدِّب بنيه: "أدِّبهم

---

[1] – المسعودي أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص80.
[2] – الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ص139.
[3] – السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص362.
[4] – المرجع نفسه، ص356.
[5] – نفسه، ص358.
[6] – نفسه، ص356.

برواية أشعار الأعشى، فإنَّ لها عذوبة تدلُّهم على محاسن الأخلاق. قاتله الله ما أغزر بحره، وأصلب صخره."[1]، وفي خبر آخر قال لمعلِّم ولده: "روِّ بَنِيَّ الشِّعر يعرفوا به مكارم الأخلاق، ولا تُروِّهم شعر هُذيل فتُزيِّن لهم الفرار، ولا شعر أُحَيْحَة بن الجُلاَح فتُحسِّن لهم البخل."[2]، وكان كثيرا ما يُردِّد: "تعلَّموا الشِّعر ففيه محاسنُ تُبتغى، ومساوئ تُتَّقى."[3]، ويُوصي بني أمية خاصة بأن يحفظوا أنسابهم مخافة أن تُدنَّس بمثل ما قاله الأعشى في علقمة بن علاثة وقبيلته، فيقول: "احفظوا أحسابكم يا بني أميَّة، فما أودُّ أن يكون لي ما طلعت عليه الشَّمس وأنَّ الأعشى قال فيَّ:

تبيتـــون فـــي المشـــتى مِـــلاءً بطـــونُكم وجـــاراتُكم غرثـــى يبـــتن خمائصـــا "[4]

فالخليفة عبد الملك بن مروان قد وجد في الشعر مادة توجيهية تعليمية، فهو يدل على محاسن الأخلاق، ويقي من مساوئها، لهذا ألحَّ على حفظ الشعر وتعلُّمه، وخاصة من الناشئة.

ومن أخباره أيضا والتي تدلُّ على إدراكه لدور الشعر وفضائله، ومكانة الشعراء وأهميتهم في المجتمع، ما جاء في رسالته التي وجَّهها للحجَّاج بن يوسف لمَّا جفا الشعراء وحرمهم في أوَّل مقدمه العراق؛ حيث قال فيها: " فقد بلغني عنك أمرٌ كذَّب فَراستي فيك، وأخلف ظنِّي عندك، وهو إعراضك عن الشِّعر والشعراء؛ كأنَّك لا تعرف فضيلة الشِّعر ولا تعلم مواضع كلام الشُّعراء ومواقع سهامهم، أوَ ما علمتَ يا أخا ثقيف أنَّ بالشِّعر بقاء الذِّكر ونماء الفخر، وأنَّ الشعراء طُرُز المملكة، وحُليّ الدولة، وعناوين النِّعمة، وتمائم المجد، ودلائل الكرم، وأنَّهم يحضُّون على الأفعال الجميلة، وينهون عن الخلائق الذميمة، وأنَّهم سنُّوا سبيل المكارم لطلاَّبها ودلُّوا بُغاة المحامد على أبوابها، وأنَّ الإحسان إليهم كرمٌ، والإعراضَ عنهم لُؤْمٌ وندمٌ، فاستدركْ فارطَ تفريطكَ، وامحُ بصوابك وحي أغاليطك."[5]، وعبد الملك كان يطرب للشعر عموما، وللمديح على وجه الخصوص، وقد تفنَّن الشعراء في معاني المديح التي تُمجِّده وتُشيد بحكمه وملكه، فيهتزُّ لها وجدانه وتُشعره بالفخر والاعتزاز. ومنهم الأخطل الذي نصَّبه عبد الملك شاعر بني أميَّة، "قال أبو عبيدة: لمَّا أنشد الأخطل كلمته لعبد الملك التي يقول فيها:

شـــمس العـــداوة حتَّـــى يُســـتقاد لهـــم وأعظـــمُ النَّـــاس أحلامـــا إذا قـــدروا

قال: خذ بيده يا غلام فأخرجه، ثمَّ ألق عليه من الخِلَعِ ما يغمره، ثمَّ قال: إنَّ لكلِّ قوم شاعرا، وإنَّ شاعر بني أميَّة الأخطل."[6]، ومع أنَّ عبد الملك كان يُحبُّ أن يُمدح، إلاَّ أنَّه كان يتدخَّل ويعترض على بعض ما يُلقى بين يديه من الشعر، مُصوِّبا تارة، وناكرا تارة أخرى، وهذا التدخُّل أو الاعتراض غالبا ما يكون لاعتبارات دينية وخلقية. ومن ذلك

---

[1] – القرشي، جمهرة أشعار العرب، ج1، ص202.

[2] – الآبيّ أبو سعد منصور بن الحسين، من نثر الدُرّ، تح: مظهر الحجّي، وزارة الثقافة السورية، دمشق، سوريا، دط، 1997م، ج2، ص35.

[3] – الراغب الأصبهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج1، ص106.

[4] – الشنتريني، أبو الحسن بن بسَّام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عبَّاس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، 1997م، ق1، مج1، ص545.

[5] – العلوي، نضرة الإغريض في نُصرة القريض، ص358.

[6] – السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص364.

قوله للشعراء وقد اجتمعوا عنده: "تُشبِّهوننا بالأسد والأسد أبخر، وبالبحر والبحر أُجاج، وبالجبل مرَّة، والجبل أوعرُ، ألا قلتم كما قال أيمنُ بن خريم بن فاتك لبني هاشم:

نهـــــارُكم مكابـــــدة وصـــــومٌ ولـــــيلُكم صـــــلاةٌ واقتـــــراءُ

أأجعلكـــــم وأقوامـــــا ســـــواءً وبيـــــنكم وبيـــــنهم هـــــواءُ

وهـــــم أرضٌ لأرجلكـــــم وأنـــــتم لأعيـــــنهم وأرؤُســـــهم ســـــماءُ "[1]

"ودخل الأخطل على عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين، قد امتدحتك فاستمعْ منِّي، فقال عبد الملك: إن كنتَ شبَّهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي في مِدحتك، وإن كنت قلتَ كما قالت أخت بني الشَّريد لأخيها صخر فهات. فقال الأخطل: وما قالت يا أمير المؤمنين؟ قال: هي التي تقول:

ومـــا بلغـــتْ كـــفُّ امـــرئ متنـــاول مـــن المجـــد إلاَّ حيـــث مـــا نلـــتَ أطـــولُ

ومـــا بلـــغ الـــمُهدون فـــي القـــول مِدْحـــة ولـــو أطنبـــوا إلاَّ الـــذي فيـــك أفضـــلُ

وجـــــارُك محفـــــوظٌ منيـــــعٌ بنجـــــوةٍ مـــــن الضَّـــــيم لا يبكـــــي ولا يتـــــذلَّلُ

قال الأخطل: والله لقد أحسنت القول، ولقد قلتُ فيك بيتين ما هما بدون قولها. فقال: هات. فأنشأ يقول:

إذا مُـــتَّ مـــات الجـــودُ وانقطـــع النَّـــدى مـــن النَّـــاس إلاَّ مـــن قليـــل مُصـــرَّد

ورُدَّت أكـــــفُّ الســـــائلين وأمســـــكوا مـــــن الـــــدِّين والـــــدنيا بخِلْـــــفٍ مُجـــــدَّد "[2]

ولأنَّ الخليفة هو القائم الأول على أمر المسلمين دينيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا، لذا كان عبد الملك يُحبُّ أن يُمدح بتلك الصفات المثالية النَّموذجية التي تدل على تطبيقه وتمسُّكه بشرع الله، وقيامه ورعايته لحقوق الرعية، وتحقيق العدل بينهم. لهذا نفهم سبب اعتراضه وعدم إعجابه بمدح عبيد الله بن قيس الرُّقيات، الذي كان مدحه منصبًّا على الفضائل المادية. جاء في الأغاني: " أنَّ ابن قيس استأذنه أن يُنشده مديحه فأذن له، فأنشده قصيدة حتَّى إذا قال فيها:

إنَّ الأغـــرَّ الـــذي أبـــوه أبـــو العـــ ـــــاصي عليـــه الوقـــار والحُجُـــبُ

يعتـــــدلُ التَّـــــاجُ فـــــوق مَفْرِقـــــه علـــــى جبـــــينٍ كأنَّـــــه الـــــذَّهبُ

فقال له عبد الملك: يا ابن قيس تمدحني بالتَّاج كأنِّي من العجم، وتقول في مُصعبٍ:

إنَّمـــا مُصـــعبٌ شـــهابٌ مـــن الله تجلَّـــت عـــن وجهـــه الظلمـــاءُ

مُلكُـــه مُلـــكُ عِـــزَّةٍ لـــيس فيـــه جبـــروتٌ منـــه ولا كبريـــاءُ

أمَّا الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبدا."[3]

---

[1] – العسكري، المصون في الأدب، ص62-63.

[2] – المرجع نفسه، ص63-64.

[3] – الأصفهاني، الأغاني، ج5، ص52.

فهذه الصورة من النقد تستند إلى خلفية سياسية وأخرى دينية؛ فعبيد الله بن قيس كان مع مصعب بن الزبير الذي خرج على عبد الملك، ولمَّا قُتل مُصعبٌ لجأ إلى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فسأل عبد الملك في أمره فأمَّنه.[1] وكأنَّ عبد الملك أمَّن ابن قيس على مضض لشفاعة عبد الله بن جعفر له، ومع هذا لم يسلم من غضبته. أمَّا إنكار عبد الملك على ابن قيس مدحه له بالتَّاج، "فإنَّما أنكره لأنَّ التيجان كانت من زِيِّ ملوك العجم، ولم يكن خلفاء العرب يعرفونها، فقال له: تمدحني كما تمدح ملوك الأعاجم، وتمدح مصعبا كما تمدح الخلفاء. والأمر على ما قال عبد الملك؛ لأنَّ مدح الخليفة بأنَّه شهاب من الله تعالى أبلغ من مدحه باعتدال التَّاج فوق مفرقه."[2]، ولهذا فعبد الملك نقد الصورة التي رسمها له ابن قيس؛ لأنَّها لا تتوافق مع طبائع وعادات وأخلاق الخليفة العربي. فوجه عتب عبد الملك كما يقول قدامة بن جعفر: "إنَّما هو من أجل أنَّ هذا المادح عدل به عن بعض الفضائل النفسية التي هي العقل والعفَّة والعدل والشجاعة إلى ما يليق بأوصاف الجسم في البهاء والزينة، وقد كنَّا قدَّمنا أنَّ ذلك غلط وعيبٌ."[3]

ومن صور النقد الأخلاقي عند الخليفة عبد الملك كذلك ما نقد به بيتا قاله كُثيِّر في عزَّة بعد أن أنشده بعض ما قال فيها: "حتَّى أتى على هذا البيت:

هممْـــتُ وهمَّـــتْ ثـــمَّ هابَـــتْ وهِبتُهـــا حيـــــاءً، ومثلـــــي بالحيـــــاء حقيـــــقُ

فقال له: أمَا والله لولا بيت أنشدتنيه قبل هذا حرمتُك جائزتك! قال: ولِمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لأنَّك شركتَها معك في الهيبة ثمَّ استأثرتَ بالحياء دونها. قال: فأيُّ بيت عفوتَ عنِّي به يا أمير المؤمنين؟ قال: قولك:

دعُـــــوني لا أريـــــد بهـــــا ســـــواها دعُـــــوني هائمـــــا فـــــيمَنْ يهـــــيمُ"[4]

فرفضُ عبد الملك هذا البيت، وبسببه كاد يحرم كُثيِّر جائزته إنَّما يعود لاعتبار خلقي استهجنه عبد الملك ولم يستسغه، وخاصة بين محبوبين؛ فكيف فات كُثيِّر هذا الأمر؟! يشاركها في الهيبة، ويستأثر بالحياء دونها، والمعروف أنَّ المرأة أكثر حياء من الرَّجل. فما أجمل البيت لو وضع (مثلنا أو مثلها) مكان (مثلي).

وعبد الملك وإن كان يستمع إلى بعض شعر الغزل، فإنَّه لا يقبل منه إلاَّ ماكان عفيفا، لا يخدش الحياء، ولا يصف المحارم، ولا يدعو إلى الخنا. لهذا كان موقفه واضحا وشديدا من الغزل الصريح متمثِّلا في شعر عمر بن أبي ربيعة، فلأنَّ شعر هذا الأخير كان غارقا في الإفحاش في وصف مفاتن المرأة أو تصوير اللقاء بها، كان من الخليفة هذا الموقف الصَّارم تجاهه. يذكر الخبر أنَّه: "لمَّا حجَّ عبدُ الملك لقيه عمر بن أبي ربيعة بالمدينة، فقال له عبد الملك: لا حيَّاك الله يا فاسق. قال: بئست تحيةُ ابن العمِّ لابن عمِّه على طول الشَّحط، فقال له: يا فاسق، ذاك لأنَّك أطولُ قريشٍ صبوةً، وأبطؤُها توبةً، ألستَ القائل:

---

[1] – يُنظر الأصفهاني، الأغاني، ج5، ص50.

[2] – الخفاجي أبو محمد عبد الله بن سنان، سرُّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1982م، ص266.

[3] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص185.

[4] – ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، ج6، ص219.

ولـــــــولا أن تُعنِّفنـــــــي قـــــــريش مقـــــال النَّاصـــــح الأدنـــــى الشَّـــــفيق

لقلـــــــتُ إذا التقينـــــــا: قبّلينـــــــي ولـــــو كنَّـــــا علـــــى ظهـــــر الطريـــــق [1]

ومن لمحاته النقدية ذات التوجُّه الخلقي؛ ما أورده المُبرِّد في (الكامل)؛ حيث "ذكر عبد الملك لجلسائه قول نُصَيب:

أهـــيم بدعـــد مـــا حييـــتُ فـــإن أمُـــتْ أُوكِّـــل بدَعْـــدٍ مَـــن يهـــيمُ بهـــا بعـــدي[2]

فكلٌّ عابه، فقال عبد الملك: فلو كان إليكم كيف كنتم قائلين؟ فقال رجلٌ منهم كنتُ أقول:

أهـــيم بدعـــد مـــا حييـــتُ فـــإن أمُـــتْ فواحَزَنـــا مَـــن ذا يهـــيمُ بهـــا بعـــدي

فقال عبد الملك: ما قلتَ والله أسْوَأُ ممَّا قال. فقيل له: فكيف كنتَ قائلا يا أمير المؤمنين؟ فقال: كنتُ أقول:

أهـــيم بدعـــد مـــا حييـــتُ فـــإن أمُـــتْ فـــلا صَـــلَحَتْ دعْـــدٌ لـــذي خُلَّـــةٍ بعـــدي

فقالوا: أنت والله أشعرُ الثلاثة يا أمير المؤمنين."[3]

والأشعار في مجلس عبد الملك كانت تُعرض على أساس الاختيار والانتقاء، والاختيار لا يكون إلاَّ للجيِّد من الشعر، والجيِّد من الشعر هو ذاك الشعر الطافح بمعاني الخير والدَّال على مكارم الأخلاق وجميل الفِعال، وهذا ما يذكره لنا هذا الخبر: "قال عبد الملك يوما وعنده عِدَّةٌ من أهل بيته وولده، ليقل كلُّ واحد منكم أحسن شعر سمع به، فذكروا لامرئ القيس والأعشى وطرفة فأكثروا حتَّى أتوا على محاسن ما قالوا. فقال عبد الملك: أشعرهم والله الذي يقول:

وذي رَحِـــمٍ قلَّمـــتُ أظفـــارَ ضـــغنه بحلمـــي عنـــه وهـــو لـــيس لـــه حِلْـــمُ

إذا سُـــمتُه وصـــل القرابـــة ســـامني قطيعتهـــا، تلـــك السَّـــفاهةُ والظُّلْـــمُ

فأســـعى لكـــي أبنـــي ويهـــدمُ صـــالحي ولـــيس الـــذي يبنـــي كمـــن شـــأنُه الهَـــدْمُ

يُحـــاولُ رَغْمـــي لا يُحـــاولُ غيـــره وكـــالموت عنـــدي أن يُنـــال لـــه رَغْـــمُ

فمـــا زلـــتُ فـــي لـــينٍ لـــه وتعطُّـــفٍ عليـــه، كمـــا تحنُـــو علـــى الولـــد الأمُّ

لأســـتلَّ منـــه الضِّـــغْنَ حتَّـــى سَـــلَلْتُه وإنْ كـــان ذا ضِـــغْنٍ يضـــيقُ بـــه الحِلْـــمُ

قالوا: ومن قائلها يا أمير المؤمنين؟ قال: معنُ بن أوسٍ المُزَني."[4]، فاستحسان عبد الملك لشعر معن بن أوس المزني، وتقديمه على بعض شعر امرئ القيس والأعشى وطرفة كان بسبب ما فيه من قيم وفضائل خلقية، تحفظ الأسرة والمجتمع، وتستلُّ الضغائن والأحقاد. فالحلم واللّين والعطف من الأخلاق التي يسعى خليفة المسلمين على غرسها في

---

[1] – المرزباني، الموشَّح، ص239.

[2] – يُنظر أبو محجن، نصيب بن رباح، الديوان، تح: داود سلوم، مطبعة الإرشاد، بغداد، العراق، دط، 1967م، ص84. والأصفهاني يرى أنَّ هذا البيت للنَّمر بن تولب، قال: والنَّاس يروون هذا البيت لنُصيب وهو خطأ، يُنظر الأصفهاني، الأغاني، ج22، ص195.

[3] – المبرِّد، الكامل في اللغة والأدب، ج1، ص244-245.

[4] – الأصفهاني، الأغاني، ج12، ص41-42.

نفوس النَّاس، ومن باب أولى أهل بيته وأولاده، وبالتالي فهو يحضُّ ويحثُّ على حفظ ورواية مثل هذه الأشعار التي تدعو إلى مكارم الأخلاق.

ولا يُهمل عبد الملك الجوانب الفنّية في الشعر، فللصورة الشعرية عنده دورها في جمالية وجودة الشعر، فالشعر الجيِّد لا يقتصر فقط على فكرته أو معناه ومضمونه، بحيث يجب أن تكون ملتزمة ومتوافقة مع مبادئ وتعاليم الإسلام، وداعية لمكارم الأخلاق، دون النظر إلى الصياغة أو طريقة الشاعر في التعبير عن هذه الفكرة، وهذا ما نستشفه من تعليق عبد الملك على بيتي الرَّاعي النُّميري، الذي أنشده قصيدته اللامية، فلمَّا بلغ قوله:

أخليفـــــة الـــــرحمن إنَّـــــا معشـــــر حنفـــــاء نســـــجد بُكـــــرة وأصـــــيلا

عـــــربٌ نـــــرى لله فـــــي أموالنـــــا حـــــقَّ الزكـــــاة مُنـــــزَّلا تنـــــزيلا

علَّق عبد الملك على هذين البيتين بقوله: "ليس هذا شعرا، هذا شرح إسلام وقراءة آية "[1]، وبالفعل فالمتأمِّل في البيتين لا يجد إلاَّ فكرة دينية معروفة، لم يستطع الوزن والقافية أن يمنحاها نَفَسًا شعريا يجعل منها صورة شعرية مُؤثِّرة ومُعبِّرة وموحية، فمثل هذا الشعر الذي لا نجد فيه غير معنى مباشر نستطيع قوله نثرا لا يستحق أن يُوصف شعرا، وهذا ما أراد عبد الملك قوله للرَّاعي.

ب/ نقد الشعراء:

والشعراء هم أهل الصَّنعة، وأقدر النَّاس على نقد الشعر، وكشف محاسنه ومساوئه، وقد مارس الشعراء النقد منذ العصر الجاهلي كما كان يفعل زهير وغيره من نقد ذاتي لشعره، والنابغة الذبياني من نقد شعر غيره. وفي العصر الأموي نجد مواقف نقدية لشعراء حول شعرهم وشعر غيرهم، ولكنَّ الذي يعنينا منها هو تلك المواقف النقدية التي كانت تحمل ملامح دينية وأخلاقية في توجُّهها، وهذا ما سنحاول رصده.

شعراء يمتنعون عن الهجاء والغزل والمدح:

– من ملامح النقد الخلقي عند الشعراء في الهجاء نجد الشاعر العجَّاج الذي لم يهجُ أحدا، وقد سأله عبد الملك بن مروان لـمَّا دخل عليه قائلا: "بلغني أنَّك لا تُحسن الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين، مَنْ قدر على حُسن تشييد الأبنية أمكنه خراب الأخبية. قال: فما يمنعك من ذلك؟ قال: إنَّ لنا عزًّا يمنعنا من أن نُظلَم، وحِلمًا يمنعنا أن نَظلِم. فقال: لَكَلِمَاتُكَ هذه أحسن من شعرك."[2]

– وكان نُصيب يُكنَّى أبا الحجناء، فهجاه شاعر من أهل الحجاز فقال:

رأيـــتُ أبـــا الحجنـــاء فـــي النَّـــاس حـــائرا ولـــونُ أبـــي الحجنـــاء لـــونُ البهـــائم

تـــراه علـــى مـــا لاحـــه مـــن ســـواده وإن كـــان مظلومـــا لـــه وجـــه ظـــالم

[1] – المرزباني، الموشَّح، ص191.

[2] – الصَّفدي الخليل بن أيبك، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، 1969م، ص96.

فقيل لنُصيب: ألا تُجيبه؟ فقال: لا، لو كنتُ هاجيا لأحد لأجبتُه، ولكنَّ الله أوصلني بهذا الشعر إلى خير، فجعلتُ على نفسي ألاَّ أقوله في شرٍّ، ما وصفني إلاَّ بالسَّواد وقد صدق. أفلا أُنشدكم ما وصفتُ به نفسي؟ قالوا: بلى. فأنشدهم قوله:

لـــيس السَّـــواد بناقصـــي مـــا دام لـــي هـــذا اللِّســـان إلـــى فـــؤادٍ ثابـــتِ
مَـــن كـــان ترفعـــه منابـــت أصـــله فبيـــوت أشـــعاري جُعِلـــن منـــابتي
كـــم بـــين أســـود نـــاطقٍ ببيانـــه ماضـــي الجنـــان وبـــين أبـــيض صـــامتِ
إنِّـــي ليحسُـــدني الرَّفيـــع بنـــاؤه مـــن فضـــل ذاك ولـــيس بـــي مـــن شـــامتِ[1]

– ونبقى مع نُصيب، فقد قيل له: "إنَّ النَّاس يزعمون أنَّك لا تُحسن أن تهجُوَ، فضحك ثمَّ قال: أفتراهم يقولون: إنِّي لا أُحسنُ أن أمدحَ؟ فقيل: لا. فقال: أفما تراني أُحسنُ أن أجعل مكان (عافاك الله): (أخزاك الله)؟ قيل: بلى. قال: فإنِّي رأيتُ النَّاس رجلين: إمَّا رجلٌ لم أسأله شيئا فلا ينبغي أن أهجوه فأظلمه، وإمَّا رجلٌ سألته فمنعني، فنفسي كانت أحقَّ بالهجاء إذْ سوَّلت لي أن أسأله ، وأن أطلب ما لديه.."[2]

– وأمَّا الأخطل فقد قال عن نفسه: "ما هجوتُ أحدًا قطُّ بما تستحي العذراء أن تنشده أباها. وهذا ما يُثبته له عمر ابن شبَّة لمَّا قال: كان ممَّا يُقدَّم به الأخطل أنَّه كان أخبثهم هجاء في عفاف عن الفحش."[3]

– وهذا نابغة بني شيبان يفتخر بالتزامه الخلقي في شعره، إذْ يبتعد عن الفُحش والخنا في هجاء الآخرين، فكان حليما في شعره، وكنتيجة لذلك فهو يتَّقي ويدرأ عن نفسه شعر ذي العداوة والسيء الخلق، فيقول:

وأحلُـــمُ فـــي شـــعري فـــلا أنطـــق الخنـــا ويـــدرأُ عنِّـــي شـــعرَ ذي الحِـــرَّة العِـــضِّ[4]

وفي خبر آخر: "عن عيسى بن عمر قال: كان نابغة بني شيبان ينشد الشِّعر فيُكثر، حتَّى إذا فرغ قبض على لسانه فقال: لأسلِّطنَّ عليك ما يسوؤك: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر."[5]، فالنابغة يُكفِّر بهذه الكلمات عن قوله الشعر، وهو إقرار منه بأنَّ الشعر فيه مساوئ. وكأنِّي به يتمثَّل قول النبيِّ ﷺ: **«وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»**[6]، وقوله تعالى: **﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾**[7]

---

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج1، ص230.
[2] – المرجع نفسه، ج1، ص232.
[3] – نفسه، ج8، ص215.
[4] – نابغة بني شيبان عبد الله بن المخارق الشيباني، الديوان، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1932م، ص118.
[5] – المقدسي أبو عبد الله ضياء الدِّين، المنتقى من أخبار الأصمعي، تح: عز الدين التنوخي، المجمع العلمي العربي، دمشق، سوريا، ط1، 1935م، ص6.
[6] – الترمذي، الجامع الكبير، ج3، باب ما جاء في معاشرة الناس، رقم الحديث1987، ص527.
[7] – سورة هود، الآية114.

– وكفَّارة مجلس الشِّعر نجدها كذلك عند جرير، "فقد قال له رجل وكان يختمُ مجلسه بالتسبيح فيُطيل: ما يُغني عنك هذا التسبيح مع قذفك للمحصنات؟ فتبسَّم وقال: يا ابن أخي، ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[1] إنَّهم والله يا ابن أخي يبدأوني ثمَّ لا أحلم."[2]

– كذلك نلمح القيمة الأخلاقية عند بعض الشعراء من تحرُّجهم وامتناعهم عندما يُطلب منهم هجاء من امتدحوه من قبل؛ لأنَّهم يعتبرون ذلك قلَّة مروءة وعدم وفاء منهم لأولئك الذين كانت لهم الأيادي البيضاء عليهم. ويعتبرون هذا الصنيع تكذيبا لأنفسهم، "فهذا يزيد بن عبد الملك بعث في الشعراء حين قُتل يزيد بن المهلَّب، فأمر بهجائه، منهم الفرزدق وكُثيِّر والأحوص، فقال الفرزدق: لقد امتدحتُ بني المهلَّب بمدائح ما امتدحتُ بمثلها أحدا، وإنَّه لقبيحٌ بمثلي أن يُكذِّب نفسه على كِبَر السِنِّ، فليُعفني أمير المؤمنين، فأعفاه. وقال كُثيِّرٌ: إنِّي أكره أن أُعرِّض نفسي لشعراء أهل العراق إن هجوتُ بني المهلَّب. وأمَّا الأحوص فإنَّه هجاهم."[3]

فامتناع الفرزدق من هجاء بني المهلَّب كان لاعتبار خلقي، فكيف يهجوهم اليوم وهو الذي امتدحهم بالأمس بما لم يمدح به غيرهم، فهو لا يُريد أن يُكذِّب نفسه؛ لأنَّه لا يجد سببا مقنعا لهجائهم سوى أنَّ الخليفة يزيد بن عبد الملك أمر بذلك. فالرَّجل كان صادقا مع نفسه، واعتذر بأدب، ويبدو أنَّ يزيدا استحسن ردَّ الفرزدق وحُسْنَ اعتذاره فقَبِل منه وأعفاه. كما أنَّ كُثيِّرا خشي على نفسه من التعرُّض لهجاء شعراء أهل العراق إن هجا بني المهلَّب، وهو مَنْفَذٌ نلمس فيه بُعدا أخلاقيا؛ فهو لا يُريد أن يُهجى ويُشهَّر به، وممَّن؟ من أهل العراق الذين اشتهروا بهذا النوع من الشعر وبالعصبية البغيضة. يقول الدكتور عمر عثمان: "الشعر في بيئة العراق ليس كمثله في البيئات الأموية الأخرى؛ فقد كان العراق مكان الهجاء والتناقضات والعصيان السياسي، فقد برزت في الشعر العراقي روح هي أقرب ما تكون إلى ما كان عليه في الحياة الجاهلية، أسلوبا ومضمونا؛ حيث ظهرت العصبيات البغيضة، والتي تُذكِّر بالعصبيات القبليّة في العصر الجاهلي. وقد انعكست هذه الحياة على موضوعات الشعر في بيئة العراق."[4]، فكُثيِّر خاف على نفسه من هجاء أهل العراق المرِّ المقذع، وفي ذلك حماية لعرضه وشرفه.

– أمَّا في النَّسيب والتَّشبيب فنجد بعض الملامح الدينية والخلقية في نقد الشعراء، فبعضهم تورَّع عن هذا النوع من الشعر وهم الشعراء الفقهاء والزُّهاد، وبعضهم يدعو إلى التزام العفَّة وعدم الخروج إلى الفُحش والمجون، وما يخدش الحياء أو يُستحيا من ذكره؛ فهذا نُصيب، وهو من شعراء الغزل، إلاَّ أنَّه يتباهى ويفتخر بعفَّته ونقاء شعره من كلِّ فُحش ومجون، فيقول: "والله إنِّي على ذلك ما قلتُ بيتا تستحي الفتاة الحييَّة من إنشاده في ستر أبيها."[5]، وقال عنه صاحب

---

[1] – سورة التوبة، الآية102.

[2] – الأصفهاني، الأغاني، ج8، ص33.

[3] – المرجع نفسه، ج4، ص179-180.

[4] – عثمان عمر، معايير النقد الأدبي عند العرب واليونان، المؤسسة الحديثة للكتاب، بيروت، لبنان، ط1، 2016م، ص48.

[5] – الأصفهاني، المرجع السابق، ج4، ص237.

الأغاني: "وكان شاعرا فحلا مُقدَّما في النَّسيب والمديح، ولم يكن له حظٌّ في الهجاء، وكان عفيفا، وكان يُقال: إنَّه لم ينسب قطُّ إلاَّ بامرأته."[1]

– وأمَّا جرير فيقول: "ما عشقتُ قطُّ، ولو عشقتُ لنَسَبْتُ نسيبا تسمعه العجوز فتبكي على ما فاتها من شبابها "[2]، ولا يُفهم من كلام جرير أنَّه لم يقل شيئا في النَّسيب، بل له شعر كثير فيه، ولكنَّه نسيب عفيف رقيق، كما قال أبو عبيدة في معرض مفاضلته بين شعراء النقائض، أيُّهم أشعر؟: "يحتجُّ من قدَّم جريرا بأنَّه كان أكثرهم فنون شعر، وأسهلهم ألفاظا، وأقلَّهم تكلُّفا، وأرقَّهم نسيبا، وكان دَيِّنا عفيفا "[3]، فغزل جرير ليس من النوع الماجن الفاحش الذي يصفُّ ويشفُّ، ويجعل العجوز تبكي على ما فاتها من شبابها على حدِّ قوله، والسبب كما يقول هو أنَّه لم يعشق، وما الذي جعله لا يعشق؟ إنَّه الدِّين والعفاف كما قال أبو عبيدة وغيره. فالمسألة إذن مرتبطة بالدِّين والخلق اللذين منعا جريرًا من العشق، وبالتالي لا يقول نسيبًا تبكي العجوز إذا سمعته على ما فاتها من شبابها.

– وفي خبر آخر عن الشاعر ابن المولى وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مُسلِم، شاعر مُخضرَم شهد العصر الأموي والعصر العباسي الأول، نجده يُدافع عن عفَّته في الغزل، ويُؤكِّد حرصه عليها، ويُقسمُ أنَّه لم يذكر في شعره قطُّ امرأةَ مسلمٍ حُرَّةً كانت أو أَمَةً، وكان يُورِّي عن المرأة بقوسه. فقد سأله عبد الملك: " أخبرني عن ليلى التي تقول فيها:

وأبكـــي فـــلا ليلـــى بكـــتْ مـــن صـــبابةٍ إلـــيَّ ولا ليلـــى لـــذي الـــوُدِّ تبـــذُلُ

والله لئن كانت ليلى حُرَّةً لأُزوِّجنَّكها، ولئن كانت أَمَةً لأبتاعنَّها لك بما بلغتْ، فقال: كلاَّ يا أمير المؤمنين، والله ما كنتُ لأذكُر حُرْمَةَ حُرٍّ أبدًا ولا أمتَه، والله ما ليلى إلاَّ قوسي هذه، سمَّيتُها ليلى لأُشبِّب بها، وإنَّ الشاعر لا يُستطاب إذا لم يتشبَّب، فقال له عبد الملك: ذلك والله أظرف لك."[4]

– وإذا عرَّجنا إلى شعر المديح فإننا سنقف كذلك على بعض المواقف والأخبار لشعراء كان لهم ملمح خلقي في نقدهم، ومن ذلك: "دخل نُصيب على إبراهيم بن هشام فأنشده مديحا له، فقال إبراهيم: ما هذا بشيء، أين هذا من قول أبي دَهْبَلٍ لصاحبنا ابن الأزرق حيث يقول:

إنْ تَغْـــدُ مـــن مَنْقَلَـــيْ نَخْـــلانَ مُـــرْتَحِلاً يَرْحَـــلْ مـــن الـــيمن المعـــروفُ والجـــودُ

فغضب نُصيب ونزع عِمامته وبرك عليها، وقال: لئن تأتونا برجال مثل ابن الأزرق نأتكم بمثل مديح أبي دَهْبَلٍ أو أحسن؛ إنَّ المديح والله إنَّما يكون على قدر الرِّجال. فأطرق ابن هشام، وعجبوا من إقدام نُصيب عليه، ومن حِلْمِ ابن هشام وهو غير حليم"[5].

---

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج1، ص214.

[2] – المرجع نفسه، ج8، ص32.

[3] – نفسه، ج8، ص6.

[4] – نفسه، ج3، ص211.

[5] – نفسه، ج1، ص236.

ونستشفُّ من هذا الخبر أنَّ نُصيبا من أولئك الشعراء الذين يُؤثرون الصِّدق في المديح، ويرفضون الكذب والإفراط والغلوَّ فيه، فقوله: (إنَّ المديح والله إنَّما يكون على قدر الرِّجال) دلالة على أنَّه لا يُريد أن يصف الممدوح إلاَّ بما فيه.

وهذه القضية تعود بنا إلى موضوع الصِّدق والكذب في النقد العربي القديم، وموقف النقاد منها. وهي من أهمِّ القضايا ذات الصِّلة القوية بالأخلاق والقيم. ولعلَّ هذا الموقف يُذكِّرنا بمقولة عمر بن الخطاب ﷺ في زهير بن أبي سلمى: (ولا يمدح الرَّجل إلاَّ بما فيه). فنُصيب يقتفي أثر زُهير ولا يُريد أن يمدح إلاَّ بصفات وجدها في ممدوحه، وألاَّ يدَّعي له ما ليس فيه، لهذا قال: (لئن تأتونا برجال مثل ابن الأزرق نأتكم بمثل مديح أبي دَهْبَلٍ أو أحسن). وما يُمكن أن نفهمه من هذه الحادثة أنَّ نُصيبا كان صادقا مع نفسه، صادقا مع ممدوحه، صادقا في شعره، ولو كان مديحا.

– وفي موقف مُغاير نجد الشاعر عِمران بن حِطَّان "يقف على الفرزدق وهو يُنشد والنَّاس حوله، ثمَّ قال عِمران:

أيُّهـــــا المـــــادح العبـــــادَ ليُعطـــــى إنَّ لله مـــــا بأيـــــدي العبـــــادِ

فاســـــأل الله مـــــا طلبـــــت إلـــــيهم وارْجُ فضـــــلَ المقسِّـــــم العـــــوَّاد

لا تقـــل فـــي الجـــواد مـــا لـــيس فيـــه وتُســـمِّي البخيـــل باســـم الجـــوادِ

فقال الفرزدق: لولا أنَّ الله عزَّ وجلَّ شغل عنَّا هذا برأيه للقينا منه شرًّا"[1]، فعمران يتَّهم صراحة الفرزدق بالكذب في مدائحه، والمنطلق والأساس في نقده ديني بحت، وإن كان ينطوي على خلفية سياسية؛ ذلك أنَّ عِمران بن حِطَّان ينتمي للخوارج المعادين للدولة الأموية، الذين يرون أنَّ خلفاءها اغتصبوا الحكم وألغوا رأي أهل الحلِّ والعقد. وأكاذيب الفرزدق تدعم هذا النظام بين المسلمين. إذن فليس هدف عِمران حثّ الفرزدق على أن يكون صادقا في شعره –وإن كان هذا ظاهر الأبيات– وإنَّما يهدف إلى إبعاده عن مدح الأمويين بدافع سياسي.[2]

نقد الشعراء لبعضهم:

إنَّ العلاقة بين الشعراء لم تكن علاقة مودَّة واحترام متبادل دائما، فهي ما بين مدٍّ وجزرٍ؛ ذلك لأنَّهم أصحاب صنعة واحدة ويسودهم من التنافس والتبارز ما يجعل العلاقة بينهم على شفا جُرُف هارٍ، ودوافع ذلك كثيرة، لعلَّ من أبرزها: الدافع الشخصي، والدافع السياسي، والدافع الفنِّي.[3]

وفي تراثنا النقدي نجد موازنات عقدها بعض الشعراء بينهم وبين غيرهم، تنمُّ على طبيعة تلك العلاقة الموجودة بينهم. وقد تتَّخذ هذه الموازنات من الأخلاق مقياسا لها، ومن ذلك أنَّ أحدا سأل الشاعر نُصيبا: "ألا تُخبرنا عنك وعن أصحابك؟ قال: بلى، جميلٌ أصدقنا شعرا، وكُثيِّرٌ أبكانا على الظَّعن، وابن أبي ربيعة أكذبنا، وأنا أقول ما أعرف."[4]

---

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج18، ص86-87.

[2] – يُنظر العضيبي عبد الله محمد، النقد عند الشعراء حتَّى نهاية ق 4 هـ، ص181.

[3] – للتوسُّع يُنظر المرجع نفسه، ص30-33.

[4] – المرزباني، الموشَّح، ص241.

والملاحظ أنَّ نُصيبًا عقد هذه الموازنة بينه وبين شعراء معاصرين له، واتَّخذ من الصِّدق والكذب مقياسا لها، والمعروف أنَّ قضية الصِّدق والكذب من أهمِّ معايير النقد الأخلاقي. فحكم على جميل بالصِّدق في شعره، وأحسبه قاصدا شعره الغزلي، وهذا الأمر يكاد يكون محلَّ اتفاق بين الرواة والإخباريين، قال محمد بن سلاَّم: "وكان جميل صادق الصَّبابة والعشق."[1]، وقد اعتبره الكثير من الشعراء إمامهم في الغزل، فهذا نُصيب يقول في خبر آخر: "ذاك إمام المحبين، وهل هدى الله عزَّ وجلَّ لما ترى إلاَّ بجميل."[2]، ويتَّفق كُثيّر مع نُصيب على إمامة جميل لشعر الغزل، فكان إذا سُئل عنه قال: "(وهل علَّم الله عزَّ وجلَّ ما تسمعون إلاَّ منه)، أو قال: (هل وطَّأ لنا النَّسيب إلاَّ جميل!)"[3]، وحكم على كُثيِّر بأنَّه أقدرهم وأكثرهم بكاء على الظَّعن، وفيه دلالة على صدق التعلُّق بالمحبوبة والوفاء لها. ثمَّ حكم على ابن أبي ربيعة بالكذب في عشقه وقصصه الغرامية، ومردُّ ذلك ربَّما يعود لكثرة النِّساء اللواتي شبَّب وتغزَّل بهنَّ، عكس جميل بن معمر الذي كان معظم غزله في بُثينة. ونظرا لمَا وُجد في غزله من لهوٍ وترفٍ وتهافت وتنقُّلٍ بين النِّساء، ومغامرات يُشكُّ في صحتها. أمَّا عن نفسه، فقال: (وأنا أقول ما أعرف)، فهو -كما يقول العضيبي-: "يكشف عن ميله إلى أولئك الشعراء الذين يُفضِّلون جانب الصِّدق الواقعي بعيدا عن المبالغات، إذْ لا يُمكن أن يقول ذلك عن نفسه إلاَّ لشعوره بأنَّ ذلك هو الاتجاه الأفضل."[4]

ونبقى مع قضية الصِّدق والكذب التي اتَّخذها النقاد قضية محورية من قضايا النقد الأدبي، والتي كان حولها خلاف كبير في الرؤى والمواقف. فقد كان الشعراء يولون الصِّدق والكذب في الشعر أهمية كبرى، وعلى أساسهما يُقدِّمون الشاعر أو يُؤخِّرونه، وهذا ما يُؤكِّده لنا هذا الخبر؛ حيث "اجتمعت الشعراء عند عبد الملك، فقال لهم: أبقي أحدٌ أشعرُ منكم؟ قالوا: لا، فقال الأخطل: كذبوا يا أمير المؤمنين، قد بقي من هو أشعر منهم. قال: من هو؟ قال: عمران بن حِطَّان، قال: كيف صار أشعر منهم؟ قال: لأنَّه قال وهو صادقٌ ففاقَهم، فكيف لو كذب كما كذبوا ؟! "[5]

وفي خبر آخر أنَّ ابن أبي ربيعة والأحوص ونُصيبا وكُثيِّرا التقوا في مجلس، "فجعلوا يتحدَّثون ساعة، ثمَّ التفت كُثيِّر إلى عمر بن أبي ربيعة، فقال له: إنَّك لشاعرٌ، لولا أنَّك تُشبِّب بالمرأة ثمَّ تدعها وتُشبِّب بنفسك! أخبرني عن قولك:

ثـــمَّ اســـبطرَّت تشـــتدُّ فـــي أثـــري تســـأل أهـــل الطَّـــواف عـــن عمـــر

والله لو وصفت بهذا هرَّة أهلك لكان كثيرا؛ ألا قلتَ كما قال هذا، يعني الأحوص:

أدور، ولـــــــولا أن أرى أمَّ جعفـــــــر بأبيـــــاتكم مـــــا دُرتُ حيـــــث أدورُ

ومـــا كنـــتُ زوَّارًا ولكـــنَّ ذا الهـــوى وإنْ لـــم يـــزر لا بـــدَّ أن ســـيزورُ

---

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج8، ص69.

[2] – جميل بن عبد الله بن معمر، الديوان ، تح: حسين نصَّار، دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر، دط، 1979م، ص14.

[3] – المرجع نفسه، ص13.

[4] – العضيبي عبد الله محمد، النقد عند الشعراء، ص182.

[5] – الأصفهاني، المرجع السابق، ج18، ص84.

فانكسرت نخوة عمر بن أبي ربيعة ودخلت الأحوص زهْوة، ثمَّ التفت إلى الأحوص، فقال: أخبرني عن قولك:

فـــإن تصـــلي أصـــلْكِ وإن تبينـــي بهجْـــرِكِ بعـــد وَصْـــلِكِ مـــا أُبـــالي

أمَا والله لو كنتَ حُرًّا لباليت ولو كُسر أنفك، ألاَ قلتَ كما قال هذا الأسودُ، وأشار إلى نُصيب:

بزينـــبَ ألمِـــمْ قبـــل أن يرحـــل الرَّكـــبُ وقـــل إن تملِّينـــا فمـــا ملَّـــكِ القلـــبُ

فانكسر الأحوص ودخلت نُصيبا زهوةٌ، ثمَّ التفت إلى نُصيب فقال له: أخبرني عن قولك:

أهـــيمُ بدعـــد مـــا حييـــتُ فـــإنْ أمُـــتْ فواكبـــدي مَـــن ذا يهـــيمُ بهـــا بعـــدي!

أهمَّك ويحك من يفعل بها بعدك؟ فقال القوم: الله أكبر! استوت الفِرق، قوموا بنا من عند هذا."[1]

والملاحظ أنَّ هذه الأحكام الجزئية لكُثيّر على شعر ابن ربيعة والأحوص ونُصيب كانت في عمومها أحكاما معنوية ذات صلة بأخلاق المجتمع وما تعارف عليه الناس؛ لذا يُنكر على ابن ربيعة لمَّا شبَّب بنفسه عوض أن يُشبِّب بمحبوبته، فالأصل أن تكون المرأة معشوقة لا عاشقة، مرغوب فيها وهي ممتنعة، هذا هو عُرف وعادات وتقاليد العرب قبل وبعد الإسلام، وقلبُ الصورة أمر غريب ومستهجن. وأمَّا الأحوص فهو لا يُبالي بأمر محبوبته؛ فإن هي وصلت وصلها، وإن هي بانت فهو لا يبالي، وهذا ليس من شيم الرِّجال، لهذا قال له كُثيّر:(والله لو كنت حُرًّا لباليت ولو كُسر أنفك)، وأمَّا نُصيب فهو حزينٌ على محبوبته أن لا يهيم بها أحدٌ من بعده. فأيّ دناءة وخسَّة بعد هذا. وما يُمكن حوصلته أنَّ كُثيِّرا عاب على هؤلاء الشعراء مسائل مكروهة ومستهجنة بحسب أخلاقيات المجتمع العربي المسلم، ومنافية للقيم الأصيلة التي عُرف بها الإنسان العربي بصفة عامة من مروءة ورجولة وفحولة، وإن كانت في شعر الغزل.

وفي صورة أخرى يُنكر كُثيِّر على الأحوص ضراعته في الاستجداء، "قال عمر بن شبَّة: قال كُثيِّر: في أيِّ شعر أعطى هؤلاء –ويقصد بعض خلفاء بني أمية– الأحوص عشرة آلاف دينار؟ قالوا: في قوله فيهم:

ومـــا كـــان مـــالي طارفـــا مـــن تجـــارةٍ ومـــا كـــان ميراثـــا مـــن المـــال مُتلَـــدا

ولكـــن عطايـــا مـــن إمـــامٍ مُبـــارَكٍ مـــلأ الأرض معروفـــا وجـــودا وســـؤددا

فقال كُثيِّر: إنَّه لَضرِعٌ قبَّحه الله! ألا قال كما قلتُ:

دع عنـــك ســـلمى إذْ فـــات مطلبُهـــا واذكُـــرْ خليليْـــك مـــن بنـــي الحكـــمِ

مـــا أعطيـــاني ولا ســـألتُهما إلاَّ وإنِّـــي لحـــاجزي كَرَمـــي

إنِّـــي متـــى لا يكـــن نوالهمـــا عنـــدي بمـــا قـــد فعلـــتُ أحتشـــمِ

مُبـــدي الرِّضـــا عنهمـــا ومُنصـــرفٌ عـــن بعـــض مـــا لـــو فعلـــتُ لـــم أُلَـــمِ[2]

[1] – ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، ج6، ص217-218.

[2] – الأصفهاني، الأغاني، ج9، ص8-9.

فنقد كُثيِّر قائم على اعتبار خلقي؛ فهو يُنكر على الأحوص تهالكه وتماوته في استجداء الخليفة لحاجته إلى المال، وجعل كلَّ ماله قديمه وجديده من فضل وعطاء الخليفة، فوضع نفسه في هيئة الفقير الشحاذ الذي افتقد المال وهلك لولا كرم وعطاء ممدوحه. وفي المقابل يُوازن ويُفضِّل أبياته التي يُظهر فيها نفسه رجلا عفيف النَّفس، عزيزا، لا يقبل لنفسه الهوان لاستجداء المال.

– وفي نقد ظريف له صلة بالقيم والأخلاق، ما قاله عمر بن أبي ربيعة لمَّا سمع كُثيِّرًا يقول:

ألا ليتنـــا يـــا عَـــزُّ كنَّـــا لـــذي غنًـــى بعيـــرين نرعـــى فـــي الخـــلاء ونعـــزُبُ
كلانـــا بـــه عَـــرٌّ فمـــن يرنـــا يقـــل علـــى حُســـنها جربـــاء تُعـــدي وأجـــربُ
إذا مـــا وردنـــا مـــنهلا صـــاح أهلُـــه علينـــا فمـــا ننفـــكُّ نُرمَـــى ونُضـــرَبُ
نكـــون بعيـــريْ ذي غنًـــى فيُضـــيعنا فـــلا هـــو يرعانـــا ولا نحـــن نُطلـــبُ
يُطَرِّدُنـــا الرُّعيـــانُ عـــن كـــلِّ تلعـــةٍ ويمنـــع منَّـــا أن نُـــرى فيـــه نشـــربُ
وددتُ وبيـــــت الله أنَّـــــكِ بَكْـــــرَةٌ هِجَـــانٌ وأنِّـــي مُصْـــعَبٌ ثـــمَّ نهـــرُبُ[1]

فقال عمر: تمنَّيت لها ولنفسك الرِّق والجرب والرمي والطَّرد والمسخ، فأي مكروه لم تتمنَّ لها ولنفسك، لقد أصابها منك قول القائل: معاداة عاقل خيرٌ من مودَّة أحمق."[2]، فالأصل أنَّ المحبَّ يرجو لمن يحبُّ الخير والسعادة والهناء والراحة، وكُثيِّرٌ يتمنَّى لعزَّة الشرَّ والتعاسة والعذاب والشقاء. فأيَّ أمنيات يتمنَّى كُثيِّر لنفسه ومحبوبته؟! وأيَّة أخلاق تنطوي عليها هذه الأمنيات؟ إنَّها وبلا شكٍّ تنطوي على أخلاق الحمقى والمغفَّلين، الذين يضرُّون من حيث يعتقدون أنَّهم ينفعون. ويُسيئون من حيث يظنُّون أنَّهم يُحسنون، وصدق فيه قولُ القائل: معاداة عاقل خيرٌ من مودَّة أحمق.

ج – نقد العلماء والذوَّاقين للشعر:

لعلَّه من المناسب هنا أن نُشير إلى أنَّ بيئة الحجاز (مكة والمدينة وضواحيهما) قد طرأت عليها تغيُّرات مهمة في العصر الأموي، من أهمِّها: انتقال الخلافة من المدينة المنوَّرة إلى الشام، وشيوع الثَّراء وما صحبه من ميل إلى الترف، وكثرة المغنِّين والمغنِّيات في مكة والمدينة وضواحيهما. وإلى جانب هذه الحياة اللاهية المترفة كان في الحجاز حياة علمية جادة، حيث مثَّل كلٌّ من الحرم المكي، والحرم المدني جامعة حافلة بالنشاط العلمي في الدراسة الجادة حول القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف واللغة العربية، وكان كلٌّ منهما مكانا يجتمع فيه العلماء والأدباء المسلمون، الذين يأتون إليهما في مواسم الحج. "فكان الحجاز نتيجة لهذه العوامل جمعًا للتناقضات، فهو مركز دينيٌّ لتلقي العلوم الدينية والشرعية، وهو بيئة للترف واللهو في آن واحد."[3]، وفي هذه البيئة المترفة نشط الشعر الغزلي بنوعيه الصريح في المدن، والعفيف في البادية. "وبعث شيوع هذين الضربين من الغزل في الحجاز نشاطا نقديا واسعا، فقد أخذ كثيرٌ من النَّاس يُوازنون بين

[1] – كُثيّر بن عبد الرحمن الخزاعي، الديوان، تح: إحسان عباس، طبعة دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، 1971م، ص161-162.
[2] – حمد عبد الله خضر، اتجاهات النقد العربي القديم، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2017م، ص75.
[3] – عثمان عمر، معايير النقد الأدبي عند العرب واليونان، ص39-40.

هذا الشعر الجديد والشعر القديم، كما أخذوا يُوازنون بين نوعي الغزل: الصريح والعفيف، ولا يقف سيل هذه الموازنة عند حدٍّ؛ فهو يطغى على كلِّ النَّاس حتَّى الفقهاء."[1]، وكنتيجة لهذا التغيُّر الحاصل في بيئة الحجاز برز على الساحة النقدية طرفان، دار بينهما جدل نقدي كبير، خاصة حول شعر الغزل، وهذا بطبيعة الحال لتباين موقفيهما، وهما:

1– العلماء والفقهاء:

اهتمَّ بعض العلماء والفقهاء برعاية الاتجاه الأخلاقي في الشعر؛ فحذَّروا من الشعر الغزلي وخاصة الماجن منه –وإنْ أبدى بعضهم تساهلا وتسامحا مع الغزل العفيف– كما طالبوا الشعراء بمراعاة الدِّين والأخلاق الفاضلة في أشعارهم، وحثُّوا على حفظ الشعر وروايته لأنَّه السبيل إلى فهم القرآن الكريم. فهذا عبد الله بن عبَّاس يقول: "تعلَّموا الشِّعر فإنَّه أوَّل علم العرب، وهو ديوان الأدب، وعليكم بشعر أهل الحجاز، فإنَّه شعر الجاهلية وقد عُفِي عنه"[2]، وكان يقول: "إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر؛ فإنَّه ديوان العرب."[3]، "وسأله نافع بن الأزرق عن قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَن قَضَىٰ نَحْبَهُ﴾[4]، قال: أجله الذي قُدِّر له. قال: وهل قالت العرب ذلك؟ قال: نعم. أمَا سمعت قول لبيد:

ألا تســـألان المـــرء مـــاذا يُحـــاول أَنَحْـــبٌ فيُقضـــى أم ضـــلال وباطـــل[5]

أمَّا عن علاقة ابن عباس بعمر بن أبي ربيعة، فقد ذكر صاحب الأغاني خبرا ورد فيه: "أنَّه لمَّا كان ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناسٌ من الخوارج يسألونه، إذْ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مُورَّدين أو مُمصَّرين (فيهما بعض الصُّفرة)، حتَّى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عبَّاس، فقال: أنشدنا، فأنشده:

أَمِـــنْ آل نُعْـــمٍ أنـــت غـــادٍ فمُبكِـــرُ غـــــداةَ غـــــدٍ أم رائـــــحٌ فمُهجِّـــــرُ[6]

حتَّى أتى على آخرها. فأقبل عليه نافع بن الأزرق، فقال: الله يا ابن عبَّاس! إنَّا نضربُ إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنَّا، ويأتيك غلامٌ مُترفٌ من مُترفي قريش فيُنشدك:

رأتْ رجُـــلاً أمَّـــا إذا الشَّـــمس عارضـــتْ فيخْـــزى وأمَّـــا بالعشِـــيِّ فيَخسَـــرُ

فقال: ليس هكذا قال. قال: فكيف قال؟ فقال: قال:

رأتْ رجُـــلاً أمَّـــا إذا الشَّـــمس عارضـــتْ فيضـــحى وأمَّـــا بالعشِـــيِّ فيَخصَـــرُ[7]

فقال: ما أراك إلاَّ وقد حفظت البيتَ. قال: أجل، وإن شئتَ أن أُنشدك القصيدة أنشدتك إيَّاها. قال: فإنِّي أشاء. فأنشده القصيدة حتَّى أتى على آخرها. وقال الراوي: ولامه بعض أصحابه في حفظ هذه القصيدة. فقال: إنَّا

---

[1] – ضيف شوقي، النقد، ص30.

[2] – العلوي، نضرة الإغريض في نصرة القريض، ص356.

[3] – الخطيب التبريزي يحي بن علي الشيباني، شرح ديوان الحماسة، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ج1، ص10.

[4] – سورة الأحزاب، الآية 23.

[5] – السيوطي، شرح شواهد المغني، ج1، ص151.

[6] – عمر بن أبي ربيعة، الديوان، ص122.

[7] – المرجع نفسه، ص124، ويَخْصَرُ: يبرد.

نستجيدُها. وكان ابن عبَّاس بعد ذلك كثيرا ما يقول: هل أحدث هذا المُغِيريُّ شيئا بعدنا؟"[1](يقصد عمر بن أبي ربيعة). وهذا لقوله في القصيدة:

قفـــي فـــانظُري أســـماءُ هـــل تعرفينـــه أهـــذا الـــمُغِيريُّ الـــذي كـــان يُـــذكَرُ[2]

والذي يُفهم من الخبر–إن صدق– أنَّ ابن عباس كان لا يرى حرجا وبأسا من رواية شعر ابن أبي ربيعة رغم ما فيه غزل، وهذه القصيدة فيها بعض الفحش، ومع ذلك فقد أنشدها ابن عبَّاس كاملة.

في حين نجد بعض علماء وفقهاء الحجاز يتشدَّدون مع شعر عمر بن أبي ربيعة، ويُحذِّرون منه. فهذا ابن جُريج، وهو عبد الملك بن عبد العزيز (ت150هـ) أحد العلماء والفقهاء وقُرَّاء القرآن ورواة الحديث في مكة، يقول: "ما دخل على العواتق في حِجالهنَّ شيءٌ أضرُّ عليهنَّ من شعر عمر بن أبي ربيعة."[3]، وهذا هشام بن عروة (ت146هـ) وهو أبو المنذر هشام بن عروة بن الزبير بن العوَّام، أحد حُفَّاظ الحديث ورواته في المدينة المنوَّرة، يقول: "لا تُروُّوا فتياتكم شعر عمر بن أبي ربيعة لا يتورَّطن في الزِّنا تورُّطا."[4]، وفي خبر آخر أيضا جاء في كتاب الأغاني، يقول: "حدَّثت ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب، قالت: مررتُ بجدِّك عبد الله بن مصعب وأنا داخلة منزله، وهو بفنائه، ومعي دفترٌ. فقال: ما هذا معكِ؟ ودعاني. فجئته، وقلتُ: شعر عمر بن أبي ربيعة. فقال: ويحك! تدخلين على النِّساء بشعر عمر بن أبي ربيعة!! إنَّ لشعره لموقعًا من القلوب ومدخلا لطيفا، لو كان شعرٌ يسحرُ لكان هو، فارجعي به. قالت: ففعلتُ"[5]، وكان بعض هؤلاء العلماء والفقهاء لا يرون في شعر عمر بن أبي ربيعة خيرا قطُّ، بل كلُّه شرٌّ. وهذا ابن جُريج ما كان يعتقد أنَّ في شعر عمر نفعا حتَّى كان هذا الخبر الذي يرويه قائلا: "ما ظننتُ أنَّ الله عزَّ وجلَّ ينفع أحدا بشعر عمر بن أبي ربيعة حتَّى سمعتُ وأنا باليمن مُنشدا يُنشد قوله:

بـــالله قُـــولي لَـــهُ فِـــي غَيْـــرِ مَعْتَبَـــةٍ مَـــاذَا أَرَدْتَ بِطُـــولِ الـــمُكْثِ فِـــي الـــيَمَنِ

إنْ كُنْـــتَ حَاوَلْـــتَ دُنْيَـــا أو ظَفَـــرْتَ بِهَـــا فَمَـــا أَخَـــذْتَ بِـــتَرْكِ الحَـــجِّ مِـــنْ ثَمَـــنِ

فحرَّكني ذلك على الرُّجوع إلى مكَّة، فخرجتُ مع الحاجِّ وحججتُ."[6]

وتأسيسا على ما تقدَّم من أقوال هؤلاء العلماء والفقهاء أمثال ابن جُريج وهشام بن عروة، نستطيع أن نُدرك ما كان لشعر عمر بن أبي ربيعة من قوَّة التأثير في نفوس النِّساء، والفتيات خاصة، حتَّى أصبحوا يخافون عليهنَّ منه، ويمنعونهنَّ

---

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج1، ص68-69.

[2] – عمر بن أبي ربيعة، المرجع السابق، ص123.

[3] – الأصفهاني، المرجع السابق، ج1، ص69.

[4] – المرجع نفسه، ج1، ص70.

[5] – نفسه، ص71.

[6] – نفسه، ص90.

من حفظه وروايته. فقد كان شعر ابن ربيعة كالفستق المقشَّر كما وصفه حمَّاد الراوية[1]، لهذا فهو يُشكِّل خطرا كبيرا على النساء لِما فيه من تشبيب بليغ وقصص غرامي شائق.

2- الذوَّاقون للشعر:

والمراد بالذوَّاقين جماعة النقاد الذين اشتهروا بتذوُّق الشعر وتدارسه وتقويمه وإبداء رأي فيه وإن لم ينظموه ويتفرغوا له. وسأتناول من هذه الطائفة شخصيتين برزتا في بيئة الحجاز، وكان لهما تميُّزٌ ظاهر بين نقاد العصر الأموي، وهما: ابن أبي عتيق وسُكينة بنت الحسين.

1- نقد ابن أبي عتيق:

وابن أبي عتيق-كما ذكره الحُصْري في جمع الجواهر-: "هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدِّيق ﷺ، وكان أجلَّ أهل زمانه."[2]، ويقول عنه أيضًا في زهر الآداب: "..وكان من أفاضل زمانه علما وعفافا، وكان أحلى النَّاس فكاهة، وأظرفهم مزاحا، وله أخبار مستظرفة."[3]، أمَّا عن شخصيته وصفاته، فيقول عنه المبرِّد: "وكان ابن أبي عتيق من نُسَّاك قريش وظُرفائهم، بل كان قد بذَّهم ظرفا، وله أخبار كثيرة."[4]

أمَّا في مجال النقد، فقد اشتهر ابن عتيق بنقده النَّزيه البناء، لأنَّه كان نقد روح ومعان لا نقد قشور ومبان، نقد يمتاز بالظرافة والسخرية والتهكُّم خاصة مع شعراء الغزل في عصره، وهذا مجاراة للروح الحجازية الرقيقة والظريفة. وكان صاحب ذوق سليم مرهف، وبصيرة نافذة تميِّز الشعر الجيِّد من الشعر الرديء، وعادة ما يكون نقده جزئيا حول بيت أو فكرة، مركِّزا في الغالب على معنى محدَّد، ويُهمل بقية الجوانب. وكان أكثر اهتمام ابن أبي عتيق منصبًّا على شعر عمر بن أبي ربيعة، وذلك لعلاقة صحبة وصداقة قوية بينهما، فابن أبي عتيق كان من أشدِّ المعجبين بشعر ابن أبي ربيعة، وبينهما أخبار كثيرة سنقف عند بعضها:

- ومن ذلك أورد صاحب الأغاني خبرا " ذُكر فيه شعر الحارث بن خالد وشعرُ عمر بن أبي ربيعة عند ابن أبي عتيق في مجلس رجل من ولد خالد بن العاص بن هشام، فقال: صاحبنا، يعني الحارث بن خالد، أشعرهما. فقال له ابن أبي عتيق: بعض قولك يا ابن أخي، لِشِعْر عمر بن أبي ربيعة لَوْطَةٌ [5] في القلب، وعُلُوقٌ بالنَّفس، ودَرَكٌ للحاجة ليست لِشِعْرٍ. وما عُصِيَ الله عزَّ وجلَّ بشعر أكثر ممَّا عُصِي بشعر ابن أبي ربيعة، فخذْ عنِّي ما أصِفُ لك: أشعرُ قريش مَن دقَّ معناه، ولطُف مَدخله، وسَهُل مخرجه، ومتُن حشوه، وتعطَّفت حواشيه، وأنارت معانيه، وأعرب عن حاجته. فقال المفضِّل للحارث: أليس صاحبنا الذي يقول:

---

[1] - الأصفهاني، الأغاني، ص70.

[2] - الحُصري أبو إسحاق إبراهيم بن علي، جمع الجواهر في الملح والنَّوادر، تح: محمد العزاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2018م، ص65.

[3] - الحُصري أبو إسحاق إبراهيم بن علي، زهر الآداب وثمر الألباب، تح: زكي مبارك، المطبعة الرحمانية، القاهرة، مصر، دط، 1925م، ج1، ص220.

[4] - المبرِّد، الكامل في اللغة والأدب، ج2، ص248.

[5] - لوطة: تعلُّق والتصاق، ويُقال: نَوطة، والمعنى واحد، الأصفهاني، الأغاني، ج1، ص88

إنِّـــي ومـــا نحـــروا غـــداة مِنًـــى عنـــد الجِمـــار تؤودُهـــا العُقْـــلُ
لـــو بُـــدِّلتْ أعلـــى منازلهـــا سُـــفْلاً وأصـــبح سُـــفْلُها يَعْلُـــو
فيكـــاد يعرفهـــا الخبيـــرُ بهـــا فيـــرُدُّه الإقـــواءُ والـــمَحْلُ
لعرفـــتُ مغناهـــا بمـــا احتملـــت منِّـــي الضـــلوعُ لأهلهـــا قَبْـــلُ [1]

فقال ابن أبي عتيق: يا ابن أخي، أُستُرْ على نفسك، واكتُمْ على صاحبك، ولا تُشاهد المحافل بمثل هذا؛ أمَا تَطيَّر الحارث عليها حين قلَبَ رَبْعَها فجعل عاليَه سافلَه! ما بقي إلاَّ أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارةً من سجِّيل. ابن أبي ربيعة كان أحسن صحبة للرَّبْع من صاحبك، وأجمل مخاطبة حيث يقول:

ســـائلا الرَّبْـــعَ بالـــبُليِّ وقـــولا هِجْـــتَ شـــوقًا لنـــا الغـــداة طـــويلا
أيـــن حـــيٌّ حلُّـــوك إذْ أنـــت محفـــو فٌ بهـــم آهِـــلاً أراكَ جمـــيلا؟
قـــال: ســـاروا بـــأجْمَعٍ فاســـتقلُّوا وبِكُرْهِـــي لـــو اســـتطعتُ ســـبيلا
ســـئمونا ومـــا ســـئمنا بِبَـــيْنٍ وأرادوا دماثـــةً وسُهـــولا[2]

قال: فانصرف الرَّجل خَجِلاً مُذعنا.[3]، وما يُمكن أن نفهمه من هذا الخبر أنَّ ابن أبي عتيق يُقدِّم عمر بن أبي ربيعة، ويُؤثر شعره ويُفضِّله على غيره من شعر الغزل، ويُعلِّل ذلك بقوله: (لِشِعْر عمر بن أبي ربيعة لَوْطَةٌ في القلب، وعُلُوقٌ بالنَّفس، ودَرَكٌ للحاجة ليست لِشِعْرٍ)، ونفهم من هذا القول أنَّ الشعر الجيِّد عند ابن أبي عتيق هو الذي يكون شديد التأثير على النفوس، ومُهيمنا على القلوب، ومُؤثِّرا في سامعيه بحيث يحسُّوا نفس إحساس صاحبه، لأنَّ الشاعر أبدع وتفنَّن في تصوير عواطفه، واستطاع أن يصل من خلال شعره إلى قضاء حاجاته ورغباته، وأن ينقل تلك العواطف والمشاعر غضَّة طرية إلى سامعيه فيسحرهم بها. وهذا كلُّه موجود في شعر عمر بن أبي ربيعة كما يقول ابن أبي عتيق. فالعاطفة عند ابن أبي عتيق لها دور هام وأثر كبير في جودة الشعر وجماله وقيمته. وما بذَّ ابن أبي ربيعة الشعراء –في نظر ابن أبي عتيق– إلاَّ بقوة وصدق عاطفته، التي كانت مثل السحر لها تأثيرها القوي والسريع على النفوس والقلوب. ثمَّ بيَّن المقاييس الفنِّية التي يجب الاحتكام إليها عند المفاضلة بين الشعراء، فالشعر الجيِّد في نظره هو الذي نجد فيه المواصفات الآتية:

أ) دقَّة المعنى ووضوحه.

ب) لطافة المدخل، أن يكون الاستهلال لطيفا دقيقا.

ج) سهولة المخرج، أن يكون الخروج من القصيدة سهلا سلسا من حيث اللفظ والدلالة.

---

[1] – الجبوري يحي، شعر الحارث بن خالد المخزومي، مطبعة النعمان، النَّجف، العراق، ط1، 1972م، ص78.

[2] – ابن أبي ربيعة، عمر بن عبد الله، الديوان، تح: فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1996م، ص300.

[3] – الأصفهاني، الأغاني، ج1، ص88-89.

د) متانة الحشو، أن يكون بناء القصيدة قويا جزلا.
هـ) تعطُّف الحواشي، أن تكون أطراف القصيدة متماسكة، وأجزاؤها مترابطة.
و) التعبير عن الغرض بدقّة، والإفصاح عن حاجة صاحبه.[1]

ولكنَّ قوله: (وما عُصِيَ الله عزَّ وجلَّ بشعر أكثر ممَّا عُصِي بشعر ابن أبي ربيعة) هو ما كان حوله خلاف كبير بين الدارسين والنقاد خاصة المعاصرين، وهذا حسب فهمهم لسياق هذه الجملة. فعبد العزيز عتيق يفهم هذه العبارة على أنَّها: "إشارة إلى تحوُّل مقياس النقد عمَّا كان عليه في صدر الإسلام، إلى مقياس آخر، يتمشَّى مع طبيعة الشعر الذي غلب على المجتمع الحجازي المترف"، ويستطرد عتيق قائلا: "وإذا كان مقياس الشعر الذي استوحاه الرسول ﷺ من تعاليم الإسلام وتبنَّاه الخلفاء الراشدون ﷺ من بعده، يتمثَّل في مدى مطابقة الحقِّ أو عدم مطابقته، وإذا كان أحسن الشعر طبقا لهذا المقياس، هو ما يدعو إلى الفضائل ومكارم الأخلاق، فإنَّ أحسن شعرٍ عند ابن أبي عتيق الناقد، أو عند مجتمعه الذي يُمثِّل هو ذوقه وأهواءه، إنَّما هو الشعر الذي يدعو إلى عصيان الله أو الإغراء به."[2]

وإلى هذا المعنى تقريبا ذهب كذلك طه الحاجري؛ فهو يقول في معرض شرحه لعبارة ابن أبي عتيق: "...وهذا شيء جديد حقًّا، فقد أصبح من الفضائل التي يُفضَّل بها شعر الشعراء في اعتبار النقد الأدبي في هذا العصر(يقصد عصر بني أمية) أن يتضمَّن الدعوة إلى عصيان الله، أو الإغراء به، وكلَّما كان أكثر من هذا حظًّا كان أوفر من الجمال الفنِّي نصيبا، وهكذا صار الفسوق عن أوامر الدِّين وتعاليم الإسلام مقياسا جديدا من مقاييس الفنِّ، لا يتحرَّج ابن أبي عتيق عن المجاهرة به في ذلك المجلس من المجالس الأدبية، وما أبرزه تحوُّلا يُساير التحوُّل الذي أصابته الجدة السياسية والأدبية."[3]

أمَّا أدونيس فإنَّه يذهب بعيدًا في موقف ابن أبي عتيق من الشعر، ويرى أنَّ مثل نقده "يكشف عن نزعة العودة إلى الجاهلية. وقد تجلَّت هذه النزعة على صعيد النقد في الفصل بين الشعر والدِّين، وربَّما كان ابن أبي عتيق رائدا أوَّل لهذا الفصل. وتُشير أخباره مع عمر إلى أنَّه كان ينطلق من هذا الفصل في تذوُّقه لشعره وتفضيله إيَّاه، على الرغم من اعترافه بفسوق الشاعر."[4]، ونجد كذلك قُصي الحسين يتناغم فكريا مع هذا الطرح، ويرى: " أنَّ ابن أبي عتيق يُسجِّل العودة مجدَّدا للتمسُّك بواحدٍ من أهمِّ مبادئ العمودية في الشعر الجاهلي والذي نهى الإسلام عنه، وهو التعرُّض للنساء من خلال النَّسيب والغزل والتشبُّب. وهو بذلك يطرح مبدأ الفصل بين الشعر والدِّين؛ إذْ يُحرِّر الشعر بالمطلق من أيَّة قيود دينية أو أيَّة قيود أخرى خارجية."[5]، فهؤلاء النقاد يرون أنَّ ابن أبي عتيق يُمثِّل أوَّل خروج على مجموعة القيم الأخلاقية

[1] – الجداونة حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص76-77.
[2] – عتيق عبد العزيز، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط3، 1974م، ص122-123.
[3] – الحاجري محمد طه، تاريخ المذاهب الأدبية في العصر الجاهلي والقرن الأول الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1982م، ص78-79.
[4] – أدونيس، الثابت والمتحوّل، دار العودة، بيروت، لبنان، ط2، 1979م، ج2، ص38-39.
[5] – الحسين قصي، النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، ص152.

التي تضبط وتقوّم الشعر في تاريخ النقد الأدبي عند العرب المسلمين، وهذا التحوُّل مردُّه وسببه ذاك التوسُّع والتطوُّر في موضوعات الشعر وأساليبه في العصر الأموي. ولكن في المقابل هل نجد موقفا مغايرا لهذا الموقف، بحيث يرى ابن أبي عتيق من المدافعين عن فكرة علاقة الشعر بالدِّين والأخلاق؟

إنَّنا نجد من النقاد المعاصرين من يرى هذا الموقف، فسامي يوسف أبو زيد في ثنايا شرحه لمقولة ابن أبي عتيق يقول: "ولكنَّه يُوجِّه نقدا حادًّا إلى شعر عمر فيرى فيه مجاهرة بالمعصية تتمثَّل في عدم مطابقته للحقِّ."[1]، كذلك نجد من النقاد المعاصرين وليد قصَّاب الذي جعل مقولة ابن أبي عتيق (وما عُصِيَ الله عزَّ وجلَّ بشعر أكثر ممَّا عُصِي بشعر ابن أبي ربيعة) ضمن الشواهد التي رصدها للدلالة على النقد الإسلامي الخلقي بعد عصر صدر الإسلام (نقد الفقهاء والعلماء والمتذوِّقين)[2]، أي أنَّه فهم العبارة على أنَّها استهجان وإنكار من ابن أبي عتيق لشعر عمر بن أبي ربيعة لكثرة ما فيه من المعاصي. ومن النقاد أيضا نجد ختير عبد ربي الذي يجعل من ابن أبي عتيق ناسكا فقيها آخذا بعين الاعتبار القيم الأخلاقية في نقده، فيقول عنه: "ولقد تجاوز تأثير الشعر الناس والشعراء والخلفاء إلى الفقهاء. وما ابن أبي عتيق – أشهر نقاد هذا العصر–، إلاَّ نموذج لمَا نقول، فهو من النُّساك والرواة الموثوقين، وهو في نفس الوقت يتذوَّق الشعر ويحفظه. ولقد كان ابن أبي عتيق في نقده على أَخْذٍ بالمسألة الأخلاقية على ما هو جارٍ دائما في بيئات الفقهاء."[3]

ومن المفارقات أن نجد قُصي الحسين وهو الذي يرى أنَّ ابن أبي عتيق بمقولته تلك قد طرح مبدأ فصل الدِّين عن الشعر، وأنَّه قد حرَّر الشعر من كلِّ القيود سواء كانت دينية أو غيرها، هو نفسه يقول كلاما آخر يُوحي بأنَّ ابن أبي عتيق يُولي الدّين والخلق اعتبارا كبيرا في الشعر، ولا يقبل أبدا الخروج أو التمرُّد عليهما. فيقول مثلا: "ولا شكَّ أنَّ ابن أبي عتيق كان يُحفِّز عمر بن أبي ربيعة على قول الشعر. وكان يُسدِّد له خُطاه على أرضه حتَّى يبلغ أرقى درجات القول. وكان ذلك يراه خدمة منه للشعر، لا خدمة لصاحبه؛ لأنَّه كان يتوق لسماع الأصوات التي تصدح على أرض الحجاز بالشعر الرَّاقي والجميل. غير أنَّه لم يسمح لنفسه بتجاوز تلك الحدود، بحيث يُجاري عمر ابن أبي ربيعة في كلِّ ما يقول."[4] ويستشهد على ذلك بإحدى نقدات ابن أبي عتيق لشعر عمر المضلِّل والمفتِّن للنساء، ويُعقِّب قائلا: "إذْ يأبى عليه (يقصد ابن أبي عتيق) ما عُرِف عنه من أخلاق وعفاف، أن يُقرَّ لصاحبه (يقصد عمر بن أبي ربيعة) ضلاله وغوايته وفتنته التي كان يُفتن بها النِّساء."[5]، وفي قول آخر أكثر وضوحا وبيانا، يقول الدكتور قُصي الحسين بعد تناوُل خبر من أخبار ابن أبي عتيق مع عمر بن أبي ربيعة في النقد: "ونحن نستدلُّ من خلال هذا الخبر، أنَّ ابن أبي عتيق وإن كان مُلازما في علاقته الشخصية لعمر بن أبي ربيعة، غير أنَّه لم يكن مُتعصِّبا له. بل كان كثيرا ما يُعارضه ويلومه، على

[1] – أبو زيد سامي يوسف، النقد العربي القديم، ص64.

[2] – يُنظر قصَّاب إبراهيم، النقد العربي القديم، ص121.

[3] – ختير عبد ربي، النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي، ص121.

[4] – الحسين قصي، النقد الأدبي عند العرب واليونان، ص139.

[5] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

كلِّ ما يتورَّط فيه من مسائل يرى فيها مُجافاة للعفاف من جهة، وللقيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية من جهة أخرى."[1]

ومن أقوى الأدلة برهانا، وأوضحها بيانا، ما جاء على لسان عبد الجواد محمد المحص؛ في كتابه (الدِّين وقراءة النص الأدبي)، حيث قال: "فترى ابن أبي عتيق هنا يعرض مسوِّغات تقديم عمر بن أبي ربيعة وتفوّقه الفنّي، ويُشير في الوقت نفسه إلى ما في شعر ابن أبي ربيعة من خروج عن الإطار الخلقي الإسلامي. وبهاتين القراءتين الفنِّية والدينية لشعر ابن أبي ربيعة حقَّق ابن أبي عتيق التوازن في التقويم النقدي بين القيم الجمالية والقيم الخلقية. فلم يغضَّ عينا على قذًى، ولا رفع من شاعريةٍ دون تنبيه على ما يشوبها، ولا أثنى على جمال يُشوِّهه قُبحٌ، وتلك إيجابية وإحسان من آثار الثنائية في النقد وعدم أحاديتها."[2]

وبعد شرح وتوضيح يردُّ المحص على الحاجري الذي يرى أنَّ ابن أبي عتيق قد أبدع مقياسا جديدا من مقاييس الفن هو مقياس العصيان والفسوق، انطلاقا بطبيعة الحال من مقولة ابن أبي عتيق، فيردُّ عليه قائلا: "ولا يُمكن –إطلاقا– أن يتوجَّه المعنى في سياق جملة ابن أبي عتيق النقدية تلك الوجهة التي ادَّعاها الحاجري؛ لأنَّ جملة (وما عُصِيَ الله عزَّ وجلَّ بشعر أكثر ممَّا عُصِي بشعر ابن أبي ربيعة) إن لم تكن حالية، فهي استثنائية، ولا مدخل فيها للمعية أو التبعية السببية. وتأسيسا على هذا فإنَّ السياق تقرير – بموضوعية – عن مذهب ابن أبي ربيعة المتفرِّد، وتأثيره الذي لا يُبارى في النفوس والقلوب، والحال أنَّه شعرُ معصية، أو عصيان الله محصورٌ في كثرته بشعره. فعبارة ابن أبي عتيق لا تعني – بأي حال من الأحوال– أنَّه يقبل خروج الشعر عن الإطار الخلقي والإسلامي الذي يُنادي به الدِّين الحنيف، ولا تعني أنَّ الشعر الأحسن عند ابن أبي عتيق من جميع الوجوه هو ما كان أكثر من غيره على الإيقاع في المعاصي أو الإغراء بها، بل تعني أنَّه ليس غافلا عمَّا في شعر عمر من مخالفة للآداب الإسلامية . وقد لامه في مواقف عديدة على هذا الخروج بعبارات قاسية، مع ثقته بأنَّ عمر لم يرتكب محرَّما قطُّ، وأنَّ أقواله لم تخرج عن كونها مبالغات شعرية."[3]

أمَّا موقف الباحث، فهو يرى أنَّ ابن أبي عتيق ورغم إعجابه الشديد بشعر عمر بن أبي ربيعة، ورغم الصداقة والعلاقة القوية التي تربط بينهما، إلاَّ أنَّه كان في بعض الأحيان لا يُقرُّ الشاعر فيما ذهب إليه من مجون فاحش أو استهتار بالقيم والفضائل الدينية والأخلاقية، وكان وقَّافا عندها، يعترض ويلوم شاعره وصديقه عليها، ولا أدلَّ على ذلك من تلك المواقف النقدية الصريحة التي نجد فيها موقفا رافضا من ابن أبي عتيق لشعر عمر إذا كان مُجانبا الدِّين والخلق القويم، فالرَّجل كان ديِّنا طاهرا عفيفا كما شهد له الكثير من العلماء الذين ترجموا له حياته وعرَّفوه في تصانيفهم، يقول الجاحظ في وصْف عفَّة ابن أبي ربيعة: "وأمَّا بنو مخزوم فيزعمون أنَّ ابن أبي ربيعة لم يحلَّ إزاره على حرام قطُّ. وإنَّما كان يذهب في نسيبه إلى أخلاق ابن أبي عتيق. فإنَّ ابن أبي عتيق كان من أهل الطهارة والعفاف. وكأنَّ من سمع كلامه

[1] – الحسين قصي، النقد الأدبي عند العرب واليونان، ص140.

[2] – المحص محمد عبد الجواد، الدين وقراءة النص الأدبي، ص58-59.

[3] – المرجع نفسه، ص60-61.

توهَّم أنَّه من أجرأ النَّاس على فاحشة."[1]، فما يُفهم من العبارة أنَّ الجاحظ لديه شكٌّ في عفَّة ابن أبي ربيعة، ويقين من طهارة وعفَّة ابن أبي عتيق.

وسنورد بعض النماذج النقدية التي رُويت عن ابن أبي عتيق، التي نقد فيها شعر عمر بن أبي ربيعة أو غيره من الشعراء، وتدل على التوجُّه الخلقي لديه، ومن ذلك:

– جاء في الأغاني أنَّ عمر بن أبي ربيعة شبَّب بزينب بنت موسى الجُمحية، وكان سبب تشبيبه بها أنَّ ابن أبي عتيق ذكرها عنده يوما فأطراها، ووصف من عقلها وأدبها وجمالها ما شغل قلب عمر وأماله إليها، فقال فيها الشعر وشبَّب بها؛ فبلغ ذلك ابن أبي عتيق فلامه فيه، وقال له: أتنطق الشعر في ابنة عمِّي؟ فقال عمر:

لا تلُمني عتيقُ حسبي الذي بي إنَّ بي يا عتيق ما قد كفاني

لا تلُمني وأنت زيَّنتها لي .....

فبدره ابن أبي عتيق، فقال:

أنت مثلُ الشيطان للإنسان

فقال ابن أبي ربيعة: هكذا وربِّ البيت قلتُه. فقال ابن أبي عتيق: إنَّ شيطانك وربِّ القبر (يعني قبر الرسول ﷺ) ربَّما ألمَّ بي، فيجد عندي من عصيانه خلاف ما يجد عندك من طاعته، فيُصيب منِّي وأُصيب منه.[2]

فابن عتيق كره مثل هذا الشعر من عمر بن أبي ربيعة في زينب الجُمحية لا لكونها قريبته فحسب، بل لأنَّ هذا الشعر كان كاشفا للعورات، فاضحا للمرأة التي يُشبِّب بها الشاعر، بعيدا عن العفَّة والطهر والنَّقاء، وما كان من ابن عتيق وهو العفيف الطاهر إلاَّ أن يرفض مثل هذا التشبيب الماجن، ولو كان من أعزِّ أصدقائه.

– وفي خبر آخر، "أنَّه سمع وهو بالمدينة قول عمر بن أبي ربيعة:

فما نلتُ منها محرما غير أنَّنا كِلانا من الثَّوب المطارف لابسُ

فقال: أَبِنا يلعبُ ابن أبي ربيعة؟ فأيُّ مَحْرَمٍ بقي؟ فركب بغلته متوجِّها إلى مكة، ودخل أنصاب الحرم، وقيل له: أَحْرِمْ! قال: إنَّ ذا الحاجة لا يُحرم. فلقي ابن أبي ربيعة؛ فقال: أمَا زعمتَ أنَّك لم تركبْ محرَّما قطُّ؟ قال: بلى! قال: فما قولك:كِلانا من الثَّوب المطارف لابسُ؟ فقال له: إنِّي أخبرك؛ خرجتُ بعِلَّة المسجد، وخرجت زينب تُريده، فالتقينا فاتَّعدنا، فصرنا إلى بعض الشِّعاب، فأخذتنا السَّماءُ، فأمرتُ بمطرفيّ فسترنا الغلمان لئلا يروا بها بِلَّةً؛ فيقولوا لها: هلاَّ استترتِ بسقائف المسجد؟ فقال له ابن أبي عتيق: يا عاهرُ! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة."[3]

---

[1] – الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ط2، 1965م، ج2، ص84.

[2] – الأصفهاني، الأغاني، ج1، ص80–82.

[3] – الحصري، جمع الجواهر في الملح والنَّوادر، ص63.

ويبدو جليًّا من هذا الموقف النقدي لابن أبي عتيق أنَّه موقف ديني خلقي، فهو من جهة حرصٌ على عدم انتهاك حدود الله وارتكاب ما حرَّم الله، ومن جهة أخرى غِيرة منه على حُرمة المسلمات أن يُنتهك عرضها ويضيع شرفها. فما كان منه إلاَّ أن قصد ابن أبي ربيعة في مكة وسأله وسمع منه خبر ما قاله. وانظر إلى تصرُّف ابن أبي عتيق، فلم يكتفِ برفض هذا الكلام واستهجانه وتقبيح صاحبه، بل تعدَّى ذلك؛ فقد قصد مكة وهو في المدينة للقاء ابن أبي ربيعة، ثمَّ لا يُحرم في مكة، ولمَّا سُئل أجاب: بأنَّ صاحب الحاجة لا يُحرم، وينعت صديقه بالعُهر. كلُّ هذا دلالة على أنَّ الرَّجل كان وقَّافا عند حدود الله ولا يقبل أبدا شعرا فيه انتهاك وعبث بهذه الحرمات والحدود. وكعادته الظريفة الساخرة، فإنَّه يقول لصاحبه: بأنَّ بيتك هذا يحتاج إلى حاضنة، والمقصود يحتاج إلى بيت آخر يُوضِّحه ويُزيل غموضه، أو يستره.

– وفي خبر آخر يجمع بين الطرافة والنَّقد: "أنَّ ابن أبي عتيق أُنشِد قول عمر:

أيُّهـــا الرَّاكـــبُ المجـــدُّ ابتكـــارا قـــد قضـــى مـــن تهامـــة الأوطـــارا

مـــن يكـــن قلبُـــه صـــحيحا ســـليما ففُـــؤادي بـــالخَيْفِ أمســـى مُعـــارا

ليـــت ذا الـــدَّهر كـــان حتمـــا علينـــا كـــلَّ يـــومين حجَّـــة واعتمـــارا

فقال: الله أرحم بعباده أن يجعل عليهم ما سألته ليتمَّ لك فسقك."[1]

فالنقد هنا نقد خلقي، ولم تقف العلاقة الحميمية بين ابن أبي عتيق وبين عمر بن أبي ربيعة مانعا وحاجزا من أن يُصارحه بما يعتقده صوابا، وبما يراه في شعره من تجاوز أو إسفاف، فالناقد كان ملتزما دينيا وأخلاقيا في ملاحظته التي أبداها في شعر صاحبه عمر.

ونختم نقد ابن أبي عتيق بهذا الخبر الذي كان بينه وبين كُثيّر عزَّة، فقد سمع من المغني معاذ قول كُثيّر:

فـــأخلفن ميعـــادي وخُـــنَّ أمـــانتي ولـــيس لمـــن خـــان الأمانـــة دِيـــنُ

وكان كُثيِّرٌ حاضرا، فالتفت إليه ابن أبي عتيق، وقال له: وللدِّين صحبتهم يا ابن أبي جمعة! ذلك والله أشبه بهنَّ وأدعى للقلوب إليهنَّ، وإنَّما يُوصفن بالبخل والامتناع، وليس بالوفاء والأمانة. ذو الرُّقيات أشعر منك حيث يقول:

حبَّـــذا الإدلال والغـــنجُ والتـــي فـــي طرفهـــا دعـــجُ

والتـــي إن حـــدَّثت كـــذبت والتـــي فـــي ثغرهـــا فلـــجُ

فقال كُثيِّر لصاحبه: قم بنا من عند هذا.[2]

والملاحظ أنَّ كُثيِّر ارتكز على الأخلاق والدِّين، ومن هذا المرتكز يأتي نقد ابن أبي ربيعة ليُبيِّن له ما يتعلَّق بوصف أخلاق المرأة في الغزل، فيقول لكُثيِّر أنت لم تفهم طبيعة وأخلاق المرأة في مثل هذه المواطن، أي مواطن الغزل، فالمرأة

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج1، ص125.

[2] – يُنظر ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، ج6، ص213-214.

تُوصف ها هنا بالبخل والتمنُّع والكذب وإخلاف الوعد وخيانة الأمانة. ولا يُنتظر أن تكون صُحبة النِّساء والتغزُّل بهنَّ لدينهنَّ. وهذا ما جعله يُفضِّل شعر ابن قيس الرُّقيات على شعر كُثيِّر.

ولكن، ومع كلِّ هذه الشواهد، وبالرغم من أنَّ ابن أبي عتيق مشهود له بالصلاح والتديُّن، والطُّهر والعفاف، إلاَّ أننا نعتقد أنَّه كان متسامحا ومتساهلا إلى حدٍّ كبير مع شعر الغزل الماجن بصفة عامة، وشعر عمر بن أبي ربيعة بصفة خاصة. وبتعبير الباحث عزوز قربوع في سياق حديثه عن نقد ابن أبي عتيق:"مثل هذا النقد لا يربط الشعر بالأخلاق والدِّين ربطا شجاعا."[1]، لهذا فالباحث يجد نفسه واقفا في منطقة وسط بين أولئك الذين اعتبروه رائدا في فصل الدِّين عن الشعر، وبين الذين عدَّوه ناقدا أخلاقيا يُقيم علاقة قوية بين الشعر والدِّين والأخلاق. وسبب ذلك كما يقول الباحث عزوز قربوع أيضًا: "على الرغم من وجود آراء أخرى يُعبِّر فيها ابن أبي عتيق عن استيائه من أشعار لعمر فيها تصريح بالفاحشة أو معارضة لأعراف المجتمع الإسلامي؛ فإنَّه يُؤخذ عليه عدم الجديَّة والتردُّد والغموض والتناقض، ويُفسَّر هذا ربَّما بكونه لم يلتزم رؤية محدَّدة واضحة لوظيفة الأدب. فالناقد حتَّى تكون أحكامه واضحة ومنسجمة ينبغي أن ينطلق من مناخ فكري مُعيَّن يعصمه من التناقض والغموض، ويُمكِّنه من أداء دوره كاملا غير منقوص"[2]. وقد يكون لتلك العلاقة المتينة بينها أثر في أحكامه النقدية على شعر ابن أبي ربيعة، وعلى كلِّ حال، "هذا ابن أبي عتيق، كان يُحبُّ الشِّعر، يهوى الغناء، ويُغنِّي أحيانا، ينقد الشِّعر نقدا يدلُّ على فهم وذوقٍ، يحتال حيلا لطيفة لجلْب خير أو دفْع شرٍّ، صاحب نكاتٍ وطرائف، ثمَّ أنَّه مع ذلك أو لذلك كان مؤمنا تقيًّا غير متزمِّتٍ."[3]

2– نقد سُكينة بنت الحسين:

حظيت السيّدة سُكينة في التاريخ الأدبي بمكانة مرموقة ومنزلة عالية خاصة في مجال النقد، ذلك لأنَّها فرضت عليه شخصيتها الناقدة الفريدة، وأدهشته بذوقها الفنِّي الأصيل، وبصيرتها الدقيقة بفنِّ القول وخاصة الشعر. "والقَدْر الذي وعاه لها التاريخ الأدبي في النقد والتحكيم والموازنة، يكفي للدلالة على منزلتها الرفيعة في المجتمع الأدبي، ويُقدِّم لنا نماذج من أحكامها وآرائها النقدية، تُفسِّر لنا لِـمَ آثارها عصرُها بهذه المنزلة التي لا نعرف أنَّهم اختلفوا فيها."[4]

وسنذكر من النماذج النقدية التي تُروى للسيِّدة سكينة، والتي تناولت فيها الشعر والشعراء بالنقد استحسانا أو استهجانا خبرين اثنين، الأول منهما كان بينها وبين جماعة من الشعراء، وهو ما ذكره صاحب الموشَّح في خبر طويل، حيث قال: "اجتمع في ضيافة سُكينة بنت الحسين بن علي ﷺ جرير والفرزدق وكُثيِّر عزَّة وجميل بن معمر، فمكثوا أيَّاما ثمَّ أذِنت لهم، فدخلوا، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم، وأخرجت إليهم جاريةً لها وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث. فقالت: أيُّكم الفرزدق؟ فقال الفرزدق: ها أنَذا. قالت: أنت القائل:

---

[1] – عزوز قربوع، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم، ص64.

[2] – المرجع نفسه، ص63-64.

[3] – الملوحي عبد المعين، ثلاث شخصيات طريفة في الإسلام، دار الملوحي للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 1996م، ص35.

[4] – بنت الشاطئ عائشة، تراجم سيِّدات بيت النبوَّة، ص1020.

فلمَّا استوت رجلاي في الأرض نادتا: أحَيٌّ يُرَجَّى أم قتيلٌ نُحاذرُه؟
فقلتُ: ارفعا الأسباب لا يشعروا بنا وولَّيتُ في أعجاز ليلٍ أُبادرُه
هما دلَّتاني من ثمانين قامةً كما انقضَّ بازٍ أقْتُمُ الرِّيش كاسرُه
فأصبحتُ في القوم الجُلُوسِ، وأصبحتْ مُغلَّقةً دوني عليها دساكرُه [1]

قال: نعم، أنا قلته. قالت: ما دعاك إلى إفشاء سرِّك وسرِّها؟ أفلا سترت على نفسك وعليها؟ وفي رواية أخرى، قالت: سوأةً لك أمَا استحييتَ من الفُحش تُظهره في شعرك؟ ألا سترت عليك؟ أفسدت شعرك. ثمَّ دخلت وخرجت، فقالتْ: أيُّكم جرير؟ قال: ها أنَذا. قالت: أأنت القائل:

طرقَتْك صائدةُ القلوب وليس ذا وقتَ الزيارة فارجعي بسلامِ
تُجري السِّواك على أغرّ كأنَّه بَرَدٌ تحدَّر من مُتُون غَمامِ
لو كان عهدُك كالذي حدَّثتنا لوصلتِ ذاك فكان غيرَ رمامِ
إنِّي أُواصلُ من أردتُ وصالَه بحبال لا صَلِفٍ ولا لوَّامِ [2]

قال جرير: أنا قلتُه. قالتْ: أفلا أخذتَ بيدها، ورحَّبتَ بها، وقلتَ: فادخلي بسلام. أنت رجلٌ عفيفٌ، وقيل: ضعيفٌ. وفي رواية: ما أحسنت ولا سلكتَ طريقة الشعراء؛ أيكون وقتٌ لا تصلح فيه زيارة الحبيب؟! كيف جعلتها صائدة لقلبك حتَّى إذا أناخت ببابك جعلتَ دونها سترك؟ ألاَ رحَّبت وقرَّبت وقلتَ: فادخلي بسلام. ثمَّ دخلت وخرجت، فقالت: أيُّكم كُثيِّر؟ أأنت القائل:

وأعجبني يا عزَّ منك خلائق كرامٌ إذا عُدَّ الخلائق أربعُ
دُنوُّكِ حتَّى يذكرَ الجاهل الصِّبا ودفعُكِ أسبابَ المُنى حين يطمعُ
فوالله ما يدري كريمٌ مَطَلْتِه أيشتدُّ أن لاقاكِ أم يتضرَّعُ
ومنهُنَّ إكرام الكريم وهفوة للئيم وخلاَّتُ المكارم تنفعُ
بخلتِ فكان البُخلُ منك سجيَّةً فليتك ذو لونين يُعطي ويمنعُ [3]

قال: نعم. قالت: ما جعلتها بخيلةً تُعرَفُ بالبُخل، ولا سخيَّةً تُعرفُ بالسَّخاء. ثمَّ قالت: أيُّكم جميل؟ أأنت القائل:

ألاَ ليتني أعمى أصمُّ تقودني بُثينةُ لا يخفى عليَّ كلامُها [4]

قال: نعم. قالت: أفرضيتَ من نعيم الدنيا وزهرتها أن تكون أعمى أصمَّ إلاَّ أنَّه لا يخفى عليك كلام بُثينة! قال: نعم. فوصلتهم جميعا وانصرفوا. [5]

---

[1] – الفرزدق أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة، الديوان، تح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987م، ص189.
[2] – جرير أبو حزرة بن عطية الخطفي، الديوان، تح: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1986م، ص452.
[3] – كُثيِّر عزَّة، الديوان، ص405.
[4] – جميل بن معمر، الديوان، ص194.
[5] – يُنظر المرزباني، الموشَّح، ص200-203.

أمَّا الخبر الثاني فهو بين سُكينة وبعض رواة الشعراء؛ حيث: "اجتمع راوية جرير، وراوية كُثيِّر، وراوية جميل، وراوية الأحوص، وراوية نُصيب، فافتخر كلٌّ منهم وقال صاحبي أشعر، فحكَّموا بينهم السيِّدة سُكينة بنت الحسين، **رضي الله عنهما**، لعقلها وتبصُّرها بالشعر. فخرجوا حتَّى استأذنوا عليها، وذكروا لها أمرهم. فقالتْ لراوية جرير: أليس صاحبك الذي يقول:

طرقتـــك صـــائدة القلـــوب ولـــيس ذا وقـــت الزيـــارة فـــارجعي بســـلام[1]

وأيُّ ساعة أحلى بالزيارة بالطروق (الإتيان ليلا)، قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره، فهلاَّ قال: فادخلي بسلام. ثمَّ قالت لراوية كُثيِّر: أليس صاحبك الذي يقول:

يقـــرُّ بعينـــي مـــا يقـــرُّ بعينهـــا وأجمـــل شـــيء مـــا بـــه العـــين قـــرَّت[2]

وليس شيء أقرَّ بعينها من النِّكاح، أيُحبُّ صاحبك أن يُنكح؟! قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره. ثمَّ قالت لراوية جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

فلـــو تركـــت عقلـــي معـــي مـــا طلبتُهـــا ولكـــنْ طِلابِيهـــا لِـــمَا فـــات مـــن عقلـــي[3]

فما أراه هوى، وإنَّما طلب عقله، قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره. ثمَّ قالت لراوية نُصيب: أليس صاحبك الذي يقول:

أهـــيم بدعـــدٍ مـــا حييـــتُ فـــإنْ أمُـــتْ فـــواحزني مَـــن ذا يهـــيم بهـــا بعـــدي[4]

فما له همَّة إلاَّ مَن يتعشَّقها بعده، قبَّحه الله وقبَّح شعره. هلاَّ قال:

أهـــيم بدعـــدٍ مـــا حييـــتُ فـــإنْ أمُـــتْ فـــلا صـــلحت دعـــدٌ لـــذي خلَّـــةٍ بعـــدي

ثمَّ قالت لراوية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول:

مـــن عاشـــقَين تـــزايلا وتواعـــدا بلقـــا إذا نجـــم الثُّريَّـــا حلَّقـــا

باتـــا بـــأنعم ليلـــةٍ وألـــذِّها حتَّـــى إذا وضـــح الصَّـــباحُ تفرَّقـــا[5]

قبَّحه الله وقبَّح شعره. هلاَّ قال: تعانقا. فلم تُثنِ على واحد منهم، وأحجم رواتهم عن جوابها، رضي الله عنها."[6]

وإذا ما حاولنا تحليل هذين الخبرين، فإننا سنقف على بعض الملامح والسِّمات النقدية للسيِّدة سُكينة المتعلِّقة بالجانب الأخلاقي، لعلَّ من أبرزها ما يلي:

– يتجلَّى الملمح الخلقي في النقد عند سكينة في هذين الخبرين من خلال بعض الأحكام النقدية التي أصدرتها في هذين المجلسين، وأوَّلها موقفها الرافض والمستهجن لشعر الفرزدق الذي ذكرته، فالمعروف عن الفرزدق فُحشه وعدم مبالاته

---

[1] – جرير، الديوان، ص452.

[2] – كُثيِّر عزَّة، الدِّيوان، ص107، وقد ذكره المحقق ضمن الأبيات التي نُسبت لكُثيِّر، ولم تدخل في القصيدة حسب الرواية التي أثبتها.

[3] – جميل بن معمر، الدّيوان، ص175.

[4] – نُصيب بن رباح، الديوان، تح: داؤد سلوم، مطبعة الإرشاد، العراق، بغداد، دط، 1967م، ص84.

[5] – الأحوص عبد الله بن محمد بن عاصم، الديوان، تح: إبراهيم السَّامرائي، مطبعة النُّعمان، النَّجف، العراق، دط، 1969م، ص148.

[6] – الأبشيهي شهاب الدين بن أحمد، المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف، تح: محمد خير طعمه الحلبي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط6، 2011م، ص98.

بالتصريح بفسقه في شعره؛ لذا فقد أنكرت عليه ذلك، وعابت عليه عدم تستُّره على نفسه وعلى محبوبته، فهو ارتكب المعصية ويُجاهر بها، وهذا ما لم ترضه السيِّدة سُكينة، وهو نقد ديني خلقي يتَّفق وروح الإسلام، فالمسلم أيًّا كان عليه أن يبتعد عن المعاصي، ولكن إن اقترفها فليستر نفسه؛ لأنَّ المعصية ذنب وأعظم منها الجهر بها وعدم سترها. فالرسول ﷺ يقول: « **كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ** »[1]، وهنا يتَّضح لنا أنَّ سُكينة تعيب وتُنكر التفحُّش في الشعر، وتعتبره مُفسدا له، وبتعبير آخر معاكس فهي تدعو إلى تجميل الشعر وتزيينه بالعفَّة والطهارة والحياء. فالناقدة تقول للفرزدق من خلال حكمها النقدي هذا: إذا كنت بالفعل عاشقا وفيًّا لمحبوبتك ما كان لك أن تُذيع ما يدور بينك وبينها مهما كانت الأسباب والأغراض، ولأنَّك لم تفعل هذا، فسوأة لك.

– كما يتَّضح كذلك من حكمها على شعر كُثيّر الذي كان متعلِّقا بقيمتين أخلاقيتين هما (البخل والسَّخاء)، فسُكينة تعيب على كُثيِّر عدم فصله في خلق سُكينة؛ فتارة يجعلها بخيلة، وتارة يجعلها سخيَّة، وإنْ كان البخل والسَّخاء متعلِّقين هنا عند عزَّة بأمور معنوية كالتودُّد والحبِّ، والأصل فيه أن تكون بخيلة لا سخية، كما ذكر ابن أبي عتيق ذلك لكُثيِّر في موقف مشابه. وكأنَّها تقول له: يا كُثيِّر إنَّك لا تعرف عزَّة جيِّدا ولا تعرف طبيعة أخلاقها! وهذا طعنٌ في صدقه في علاقته مع عزَّة. وهذا الذي ترمي إليه سُكينة.

– أمَّا موقفها من بيت جميل ففيه بعض الغموض، فقد سألته وأجاب، وانتهى الأمر، ونستطيع أن نتبيَّن من هذا الموقف أنَّ سُكينة استحسنت قول جميل هذا، فهو–في نظرها– قمَّة التَّضحية والتفاني من أجل المحبوب والظفر ولو بهمسة منه، وهذا فيه إعلاء وتقدير عظيم لقيمة وشأن المرأة التي كانت سُكينة حريصة عليه كلَّ الحرص. وجاء سؤالها من أجل أن تستوثق فقط، هل جميل صادق في زعمه هذا أم هو كاذب فيه. فلمَّا أجابها بنعم أحسَّت فيه صدق العاطفة والشعور فسكتت، ولتقول في داخلها ما قالته لراوية جميل كما جاء في بعض الروايات: "رحم الله صاحبك، كان صادقا في شعره، كان جميلا كاسمه."[2]

ولكن إذا نظرنا إلى البيت نظرة دينية، فما جاء فيه مرفوض، ومنهيٌّ عنه شرعا؛ فلا يجوز لأيٍّ كان أن يدعو ويتمنَّى زوال نعمة من نعم الله عليه لأيِّ سبب من الأسباب. فهذه القيمة الأخلاقية مقبولة شكلا من الناحية الاجتماعية للدلالة على الصِّدق والوفاء في الحبِّ، وقوة التعلُّق بالمحبوب، ومرفوضة دينيا لأنَّها تتعارض وأحكام الشرع الحنيف.

– أمَّا لقاء سُكينة مع الرواة فكان مختلفا تماما؛ فسُكينة لمَّا أحسَّت ورأت غرور وإعجاب كلِّ راوية بشاعره، أرادت أن تُكسر شوكة كلِّ واحد منهم وتُطفئ شعلة غروره وشدَّة إعجابه بصاحبه بأن ذكرت له بيتا من شعره فيه من الخطأ وعدم إصابة المعنى ما فيه. وهذه قيمة أخلاقية أرادت سُكينة أن تُوجِّهها لهؤلاء الرواة من خلال أحكامها النقدية. ولهذا جاء الحكم النقدي المشترك بينهم جميعا هو قولها: (قبَّح الله صاحبك وقبَّح شعره).

---

[1] – البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، رقم الحديث 6069، ج3، ص528.

[2] – الأصفهاني، الأغاني، ج16، ص108.

– الحكم المتشابه في الخبرين هو ما تعلَّق بجرير، وهذا الحكم كان مبعث استغراب ودهشة من بعض الدارسين والباحثين إذا ما قُورن بموقفها من شعر الفرزدق. يقول الباحث مطلق بن محمد: "فهي هنا تريد من جرير أن يُصرِّح بخضوعه للمنكر، واستسلامه لدواعيه، وتعدُّ سكوته عن ذلك عفَّة لا تصدر إلاَّ عن ضعف لا تستحسنه. إنَّ هذين الموقفين (يقصد موقفها من الفرزدق وموقفها من جرير) من سُكينة متباينان تباينا شديدا يجعلني لا أعرف لها رأيا صريحا في قضية هذا البحث."[1]، ولكن بنظرة دقيقة وغير مباشرة نستطيع أن نجد تفسيرا منطقيا ومقبولا إلى حدٍّ ما لهذا الحكم أو الموقف من سُكينة تجاه جرير، فالناقدة تقول للشاعر جانبك الصَّواب حين رددت صاحبتك وأغلقت دونها الباب، وحجتك أنَّ الطُّروقَ (الإتيان ليلا) ليس وقت زيارة. فقلت لها: ارجعي بسلام من حيث جئت. وليس هذا التصرُّف من شأن المحبِّين ولا من أخلاق وأعراف العاشقين، فكان الأوْلى أن تُرحِّب بها وتتلطَّف في استقبالها. فإذا كانت قد تكبَّدت وتحمَّلت كلَّ المشاق، وذلَّلت كلَّ الصِّعاب لتأتيك وهي امرأة، فما كان منك أن تصدَّها وتُعرض عنها وأنت الرَّجل. فعن عرضها تخاف أم عن عرضك؟ ولأنَّك لم تستقبلها وأعرضت عنها فهذا لكونك عفيفا طاهر الرُّوح، وهذا إقرار منها بأنَّ جريرا كان صالحا عفيفا لا يتفحَّش في شعره. ومع هذا، فعفَّة جرير لم تشفع له عند سُكينة ، وترى بأنَّه قد أخطأ التصرُّف مع محبوبته، لأنَّ الأخلاق التي يجب التعامل بها في هذا الموقف هي أخلاق المحبِّين كما ترى سُكينة.

– أمَّا بقية الشعراء، فقد أخذت على كُثيِّر أنَّه ربط ما تقرُّ به عينه بما تقرُّ به عين فتاته دون مراعاة للفرق بين ما تقرُّ به أعين الرِّجال عمَّا تقرُّ به أعين النِّساء فأساء التعبير. وأمَّا جميل فقد كان حريصا على عقله الذي استولت عليه محبوبته، وذكر أنَّها لو تركت له عقله لما طلبها، وليس هكذا يكون التعبير عن الحبِّ. فالرجل يريد استرداد عقله الذي سلبته، وليس بصاحب هوى. وأمَّا نُصيب فيُوحي تعبيره بأنَّه حزين على فتاته لأنَّها قد لا تجد من يتعشَّقها بعده، مع أنَّ الحبَّ مبني على الأنانية والأثرة. وأمَّا الأحوص فتعبيره يُوحي في نظر سُكينة كأنَّه قد ضاق وملَّ من وجودها معه طوال الليل، فبمجرَّد ما أن وَضُح النَّهار تفرَّقا دون وداع، ورأت أنَّه من غير اللائق أن يفترق الحبيبان دون تعانق. فالأجدر به أن يُبيِّن أنَّه رغم ما عاشا فيه من لذَّة ونعيم طوال الليل لم يملَّ من لقائها، ولم يشبع من وصالها، وحينما يضطرهما النَّهار للافتراق يتعانقان عناق المشتاقين المحبِّين.[2]

وما نلحظه بصورة عامة أنَّ سُكينة قد أخذت على جميع الشعراء سوء تعبيرهم عن عاطفة الحبِّ التي تربط كلَّ واحد منهم بمحبوبته التي يدَّعي أنَّه يهواها ومتعلِّق بها. كما تعيب عليهم سوء اختيارهم للألفاظ التي تدل على التَّهالك في الصَّبابة والإفراط في الوجد واللوعة، وإظهار الرقَّة والخشوع والذلَّة. وملامح المعيار الديني والأخلاقي عند سكينة وإن كان موجودا لكنَّه غير بارز، بل يكاد يختفي وراء تلك القضية التي شغلت كيان السيِّدة سكينة وهي الدفاع عن المرأة

[1] – عسيري مطلق بن محمد، القيم الخلقية في النقد العربي إلى نهاية ق4هـ، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، السعودية، 1405هـ، ص384.

[2] – يُنظر البسطويسي مصطفى عطا، المجالس الأدبية في العصر الأموي وأثرها في النقد الأدبي، دار الجبار للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، ط1، 2003م، ص153-154.

والعطف عليها وتحسين صورتها ورفع شأنها، ولو كان ذلك على حساب الدِّين والخلق. لذا كان تعاملها النقدي مع شعر الغزل تعاملا ليِّنا متساهلا، بعيدا إلى حدٍّ ما عن الدِّين والخلق، فيه إعجاب بالشعر الغزلي مع ما كان في بعضه من تجاوز لحدود الحياء والعفة والتستُّر. وخلاصة القول أنَّ الموقف النقدي الذي رأيناه عند ابن أبي عتيق يكاد يكون هو نفسه عند السيِّدة سكينة.

2) النقد الأخلاقي في العصرين العباسي والأندلسي:

أمَّا في العصرين العباسي مشرقًا والأندلسي مغربًا، فقد اتَّضحت الرؤية في النقد إلى حدٍّ كبير؛ ففي العصر العباسي بلغت الحضارة الإسلامية مجدها الذَّهبي؛ واعتُبر هذا العهد أكثر العهود ازدهارا للعلم والفنِّ والأدب، وامتزجت فيه الثقافة العربية بالثقافات الأخرى المنقولة عن طريق ترجمة الكثير من الكتب إلى اللغة العربية. وسرت روح التغيير والتطوُّر إلى الأدب والنقد؛ فانفتح مجال النقد وتشعَّبت مباحثه، وتنوَّعت اتجاهاته واتَّسعت دائرة النقد في أوساط العلماء، وتنوَّعت مذاهب النقد وشمل كلَّ ألوان الفنِّ الأدبي. واختفى –أو كاد– في هذه الفترة النقد الذاتي الانطباعي، ولم يعد النقد مجرَّد خطرات وعبارات مقتضبة وأحكام سطحية تأثرية لقضايا جزئية، ولكنَّه أصبح نقدا منهجيا يعتمد على القواعد والأسس والمعايير والعلل، نقدا له أصول ثابتة ومبادئ محدَّدة. ونجد في هذا العصر أيضا ظهور نوع جديد من النقد، هو النقد البلاغي، الذي يعتمد على البلاغة وفنونها.

أمَّا ما تعلَّق بالاتجاه الأخلاقي والدِّيني في النقد في هذه الفترة، فإنَّ الملاحظ وجود اختلاف كبير بين نقاد هذه المرحلة؛ فهناك من ظلَّ متمسِّكا بفكرة علاقة الدِّين والأخلاق بالشعر، وأنَّه يجب خضوع الشاعر وشعره لمبادئ وتعاليم الدِّين والتزامه بالأخلاق الفاضلة التي حثَّ عليها. وهناك فريق آخر خالف في رؤيته الفريق الأول؛ حيث يرى أصحاب هذا الاتجاه من النقاد وجوب الفصل بين الشعر وبين الدِّين والأخلاق، ويجب النظر إلى العمل الأدبي نظرة فنِّية بحتة لا علاقة لها بأي اعتبار آخر خارجي. ومع بروز هذين الاتجاهين أو الفريقين في النقد، وانتصار كلِّ فريق لرأيه، واحتدام الصراع بين أنصار كلِّ فريق، ظهر فريق ثالث وقف في منطقة الوسط بين الفريقين المتضادَّين، وحاول التوفيق بين الطرفين، والجمع بين الاتجاهين. ولا بُدَّ هنا من التفصيل والتحليل في آراء هذه الاتجاهات الثلاثة، ومعرفة أبرز أصحابها ومؤيِّديها.

اتِّجاهات النقاد في علاقة الشعر بالأخلاق:

أ) الاتجاه الأول:

وهو الفريق الذي يتمسَّك بموقف الإسلام متمثِّلا في موقف القرآن الكريم والرسول ﷺ والخلفاء في قبول الشعر الذي ينسجم ويتوافق مع تعاليم الإسلام ومبادئه، ويرفض كلَّ شعر يُخالف الدِّين وتعاليمه. وهم يرون أنَّ الشعر لا ينبغي له أن يخرج عن مشكاة الأخلاق والفضائل، وأنَّ الدِّين والأخلاق هما المقياس الأول والأهمُّ للحكم على شاعرية الشعراء وقيمة شعرهم. بل ويُنزلون الشاعر من درجته أو مرتبته إن خالف أو خرج عن هذا المقياس. "فهذا مقياس يُنبئ عن جليل خطر الشعر، وقوة تأثيره في النفوس، وقيادته لها؛ ولولا معرفتهم بعمق هذا التأثير ما كان الدِّين والخلق مقياسين

للشعر، يختصم حولهما العلماء ونقاد الأدب. وليس بجديد أن أقول: إنَّ النَّاس قد اختلفوا حول هذا المقياس المعنوي؛ فرأى بعضهم أن يتقيَّد الشعر بعقائد الدِّين، وقواعد الخلق، وألاَّ يتناول من المعاني ما يُبيح للنَّاس الخروج عليهما، أو الاستهانة بأمورهما، وأن يجعل الشعراء عواطفهم متَّفقة مع الدِّين والخلق، وأن يُحظر عليهم القول فيما يُجافي الدِّين، أو يُشجِّع ميول الهوى، وأن تُحظر رواية الشعر الذي يتَّسم بالإباحة، أو يُحرِّض عليها."[1]

ويُمثِّل هذا الفريق أو الاتجاه العديد من النقاد، منهم: الجاحظ، ابن قتيبة، المبرِّد، ابن طباطبا العلوي، المرزباني، ابن الأنباري، الآمدي، ابن وكيع، أبو هلال العسكري، الباقلاني، مسكويه، ابن سيده، ابن حزم الظاهري، ابن بسَّام الشنتريتي، ابن خلكان، ابن السيد البطليوسي، وغيرهم كثير.

وفي هذا المقام سأتناول البعض منهم فقط على سبيل التمثيل والاستدلال، وأتناول البعض الآخر من خلال النماذج التي سأذكرها لبعض النقاد أصحاب الاتجاه الأخلاقي في النقد.

– ابن قتيبة(ت276هـ): فابن قتيبة يرى أنَّ الشعر الجيِّد هو ما انطوى على فائدة، ونتبيَّن من الأمثلة التي ساقها أنَّ الفائدة تعني عنده القيمة الأخلاقية التي يحتويها هذا الشعر ويحضُّ عليها، لهذا قسَّم الشعر إلى أربعة أضرب، وأنَّ أفضلها ما حَسُن لفظه وجاد معناه، وذكر أمثلة لهذا الضرْب من الشعر، وكلُّها تنطوي على مغزى أخلاقي استحسنه الناقد. من ذلك: "كقول القائل في بني أميَّة:

فـــي كفِّـــه خيـــزرانٌ ريحُـــه عبِـــقٌ مـــن كـــفّ أروع فـــي عرنينـــه شَـــمَمُ

يُغضـــي حيـــاء ويُغضـــى مـــن مهابتـــه فمـــا يُكلَّـــم إلاَّ حـــين يبتســـمُ

فيقول معلِّقا: لم يُقل في الهيبة شيءٌ أحسن منه."[2]، ويتجلَّى المقياس الخلقي أكثر عندما يتناول الضرْب الثاني، وهو ما حسُن لفظه وحلا، فإذا أنت فتَّشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، كقول القائل:

ولـــمَّا قضـــينا مـــن منـــى كـــلَّ حاجـــة ومسَّـــح بالأركـــان مَـــن هـــو ماســـحُ

وشُـــدَّت علـــى حُـــدْب المهـــاري رحالُنـــا ولا ينظـــر الغـــادي الـــذي هـــو رائـــحُ

أخـــذنا بـــأطراف الأحاديـــث بيننـــا وســـالت بأعنـــاق المطـــيِّ الأبـــاطحُ

فألفاظ الأبيات أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من معنى وجدته بسيطا، لا قيمة له، ولا منفعة تُرجى منه، حسب ما يُفهم من كلامه.[3]

وما نستنتجه أنَّ ابن قتيبة يرى أنَّ الشعر إذا كان خاليا من قيمة أخلاقية أو أدبية أو طُرفة غريبة أو تصوُّر نادر، لا يكون بذلك ذا قيمة، ولا يعتبره من الشعر الجيِّد؛ وبهذا "فهو يُعلِّق جودة الشعر على مضمونه مستقلا عن الصياغة

[1] – بدوي أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر، القاهرة، مصر، دط، 1996م، ص395-396.

[2] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص24-25.

[3] – يُنظر المرجع نفسه، ص25-26.

والتصوير."[1]، فهو يرى أنَّ للأدب عموما غاية خلقية وتربوية سامية، وقد حرص على إبراز هذه الغاية في مقدِّمة كتابه (عيون الأخبار)، حيث يقول: "فإنَّ هذا الكتاب، وإن لم يكن في القرآن والسنَّة وشرائع الدِّين وعلم الحلال والحرام، دالٌّ على معالي الأمور، مُرشد لكريم الأخلاق، زاجرٌ عن الدناءة، ناهٍ عن القبيح، باعثٌ على صواب التدبير وحُسن التقدير."[2]، ومع هذا الحرص في بيان القيمة الأخلاقية للأدب، فهو لا يتشدَّد في رواية الرَّفث لخروجه عن حدود الإثم، فيقول: "وإذا مرَّ بك حديثٌ فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة، فلا يحملنَّك الخشوع أو التخاشع على أن تُصعِّر خدَّك، وتُعرض بوجهك؛ فإنَّ أسماء الأعضاء لا تُؤثم، وإنَّما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم النَّاس بالغيب... وليس هذا (الرَّفث) من شكل ما تراه في شعر جرير والفرزدق؛ لأنَّ ذلك تعبير وابتهارٌ في الأخوات والأمَّهات وقذفٌ للمحصنات الغافلات، فتفهَّمْ الأمرين وافرُقْ بين الجنسين."[3]

– ابن طباطبا العلوي (ت322هـ): أمَّا ابن طباطبا فنجده واضح الاتجاه في مواقفه ومختاراته الشعرية في كتابه (عيار الشعر)، فيربط جمالية الشعر وحسنه "بإتقان الصنعة الفنية إتقانا لا يُفقد المعاني القوامة والاستقامة على الخلق والحق والفضيلة والخير"[4]، فكانت مختاراته الشعرية من قبيل: "الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني، الحسنة الرَّصف، السلسة الألفاظ، التي قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظاما، فلا استكراه في قوافيها، ولا تكلُّف في معانيها."[5]، وبمعنى آخر فابن طباطبا يُؤكِّد على أنَّ للشعر غاية نفعية وتربوية وجمالية، والتي لا تتحقق إلاَّ إذا أَنِسَ الفهمُ بهذا الكلام وتقبَّله وارتاح له: "فالفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحقّ، والجائز المعروف، ويتشوَّف إليه، ويتجلَّى له، ويستوحش من الكلام الجائر، والخطأ الباطل، والمحال المجهول المنكر، وينفر منه، ويصدأ له "[6]، وتعقيبا على بعض اختياراته الشعرية التي تحمل أفكارا وقيما أخلاقية يقول: "فهذه الأشعار وما شاكلها من أشعار القدماء والمحدثين أصحاب البدائع والمعاني اللطيفة الدقيقة تجب روايتها والتكثُّر لحفظها."[7]، لا لشيء إلاَّ لأنَّ هذه الأشعار تميَّزت عن غيرها بالصِّدق سواء كانت من شعر الجاهلية، أو من شعر الإسلام. "ومع هذا فإنَّ من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء وفي صدر الإسلام كانوا يُؤسِّسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصِّدقفيها مديحا وهجاء وافتخارا ووصفا

---

[1] – العشماوي محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، 1979م، ص282.

[2] – ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج1، المقدِّمة، ص(ي).

[3] – المرجع نفسه، المقدّمة، ص(ل– م).

[4] – عليان مصطفى، نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده، كتاب صادر عن مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط1، 2013م، ص472.

[5] – ابن طباطبا، عيار الشعر، ص54.

[6] – المرجع نفسه، ص20.

[7] – نفسه، ص69.

ترغيبا وترهيبا، إلاَّ ما قد احتمل الكذب فيه في حكم الشعر من الإغراق في الوصف والإفراط في التشبيه، وكان مجرى ما يُوردونه مجرى القصص الحق والمخاطبات بالصِّدق."[1]

وما يُمكننا قوله: أنَّ ابن طباطبا كان له تصوّرٌ واضح للشعر ودوره الأخلاقي، لهذا نجده حريصا كلَّ الحرص في انتقاء مختاراته وفق هذا المعيار النقدي الذي ارتضاه كسمة بارزة من سمات الشعر الحسن والجيّد، الذي يجب الإكثار من روايته وحفظه.

– مِسْكَوَيْه (ت421هـ): ونجد هذا التوجُّه الأخلاقي في نقد الشعر حتَّى عند أولئك النقاد الذين نحوا بالنقد منحًى عقليا فلسفيا، حيث غلب الاتجاه الأخلاقي التربوي على اتِّجاهاتهم النقدية، فهذا مسكويه يُوثِّق العلاقة بين الشعر والتربية، حيث يُسنَد للشعر دورٌ تربويٌّ في تكوين النشء، الذي يكون في مبتدأ حياته –في العادة– معوجَّ السلوك، كما يرى ذلك مسكويه، حيث يقول: "وذلك أنَّ الصبيَّ في ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح الأفعال، إمَّا كلّها وإمَّا أكثرها، فإنَّه يكون كذوبًا، ويُخبر ويحكي ما لم يسمعه، ولم يره، ويكون حسودًا سروقًا نمَّامًا لجوجًا، ذا فضول، أضرَّ شيء بنفسهوبكلِّ أمر يُلابسه. ثمَّ لا يزال به التأديب والسنن والتجاربحتَّى ينتقل في أحوال بعد أحوال. فلذلك ينبغي أن يُؤخذ ما دام طفلاً بما ذكرناه ونذكره."[2]، ويُبيِّن بعد ذلك أثر ودور الأشعار الحسنة في تربية وتهذيب الناشئة، كما بيَّن أنَّ الشعر الماجن والفاحش يُلحق ضررا وفسادا كبيرا بهم، فيقول: "ثمَّ يُطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار التي تجري مجرى ما تعوَّده بالأدب حتَّى يتأكَّد عنده بروايتها وخطِّها والمذاكرة بها جميع ما قدَّمناه ويحذر النظر في الأشعار السخيفة، وما فيها من ذِكْرِ العشق وأهله، وما يُوهمه أصحابها أنَّه ضربٌ من الظُّرف ورقَّة الطَّبع، فإنَّ هذا الباب مفسدة للأحداث جدًّا."[3]، وفي موضع آخر يُحذِّر من رواية الشعر الفاحش الذي يخرج على القيم الدينية والخلقية، ويُبيِّن أثره الخطير على النشء، ويُمثِّل لهذا النوع من الشعر، بشعر امرئ القيس والنابغة وأمثالهما، فيقول: "ومن لم يتفق له ذلك في مبدأ نشوئه، ثمَّ أُبتُلِيَ بأن يُربيه والده على رواية الشعر الفاحش وقبول أكاذيبه، واستحسان ما يُوجد فيه من ذِكْرِ القبائح ونيل اللَّذات، كما يوجد في شعر امرئ القيس والنابغة وأشباههما، ثمَّ صار بعد ذلك إلى رؤساء يُقرِّبونه على روايتها وقول مثلها، ويُجزلون له العطيَّة... فليعد جميع ذلك شقاء لا نعيما، وخسرانا لا ربحا، وليجتهد على التدريج إلى فطام نفسه منها، وما أصعب ذلك! إلاَّ أنَّه على كلِّ حال خير من التمادي في الباطل."[4]، فمسكويه لا يرفض الشعر جملة، بل يستبقي منه محاسنه التي تغرس في النشء قيم الدِّين وفضائل الأعمال وما حسُن من الأخلاق. فالأشعار

[1] – ابن طباطبا، عيار الشعر، ص15.

[2] – مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، تهذيب الأخلاق، تح: عماد الهلالي، منشورات الجمل، بيروت، لبنان، ط1، 2011م، ص290.

[3] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[4] – نفسه، ص283-284.

السَّخيفة أو الماجنة كما يراها مفسدة للنشء، "لأنَّ الوقوع تحت تأثير الشعر الخليع وتشبُّع النَّفس به أمرٌ يصعب علاجه والتخلُّص من أثره."[1]

– **ابن بسَّام الشنتريني (ت542هـ)**: لقد كان ابن بسَّام حازما جدًّا في هذه المسألة، وأولى مواقفه الحازمة ذلك الموقف التي اتَّخذه من الشعر عموما في قوله في مقدِّمة كتابه: "ومع أنَّ الشِّعر لم أرْضَه مركبا، ولا اتَّخذته مكسبا، ولا ألفتُه مثوًى ولا مُنقلبا، إنَّما زرتُه لِماما، ولمحتُه تهمُّما لا اهتماما، رغبةً بعزِّ نفسي عن ذُلِّه، وترفيعا لموطئ أخمصي عن محلِّه، فإذا شعشعت راحُه، ودأبت أقداحُه، لم أذقْه إلاَّ شميما، ولا كنتُ إلاَّ على الحديث نديما، وما لي وله، وإنَّما أكثرُه خدعة محتال، وخلعة مختال، جِدُّه تمويهٌ وتخييل، وهزله تدليه وتضليل، وحقائق العلوم أولى بنا من أباطيل المنثور والمنظوم."[2] ، فهذا الموقف من ابن بسَّام مردُّه إلى ما وصلت إليه الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية في الأندلس في عصره من اضطراب وتخلُّف، ولذا رأى " أنَّ توجيه النَّاس إلى حقائق العلوم أولى من توجيههم إلى أباطيل الأدب من منثور ومنظوم، لأنَّ الأدب وخاصة الشعر لا يقوم بإصلاح المجتمع وينتشله ممَّا هو فيه من عوامل التأخُّر وأسباب الانحلال"[3]، بل وربَّما يرى أنَّ الشعر خاصة من أهمِّ أسباب الضعف والانحلال في المجتمع الأندلسي.

وتتجلَّى "النظرة الخلقية في مفهوم الشعر عند ابن بسَّام من خلال رفضه امتطاء صهوة القريض طلبا للجاه والمال، وإعراضه عن الاشتغال به وجعله قطب الاهتمام، وإنَّما يكتفي منه بالنَّزر اليسير، بل الأدهى من ذلك أنَّه اعتبر الشعر مجرَّد خدع وتخييلات وأباطيل، إذ يُستشفُّ من هذا الكلام تلك النظرة التي تُؤمن برسالة الشعر، وتأثيره في إرساء القيم الخلقية، وبناء الإنسان روحيا عن طريق الفن"[4]

ولهذا لا نستغرب من هجومه الكبير الذي شنَّه على الهجاء والهجَّائين، وامتناعه عن ذكر الأشعار التي قيلت في الهجاء في كتابه(الذخيرة)؛ ذلك لأنَّ الهجاء في نظره معولُ هدم، ووسيلة إفساد وتخريب، فقال في ذلك: "ولمَّا صُنتُ كتابي هذا عن شين الهجاء، وأكبرتُه أن يكون ميدانا للسُّفهاء، أجريتُ ها هنا طرفا من مليح التَّعريض في إيجاز القريض، ممَّا لا أدب على قائليه، ولا وصمة أعظمُ على مَن قيل فيه. والهجاء ينقسم قسمين: قسمٌ يُسمُّونه هَجْوَ الأشراف، وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابا مُقذعا، ولا هُجرا مُستبشعا، إنَّما هو توبيخٌ وتعيير، وتقديمٌ وتأخير، كقول النَّجاشي في بني العجلان. والقسم الثاني: هو السِّباب الذي أحدثه جريرٌ وطبقته، وكان يقول: إذا هجوتم فأضحكوا. وهذا النوع منه لم يهدم قطُّ بيتا، ولا عُيِّرت به قبيلة، وهو الذي صُنَّا هذا المجموع عنه، وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه، فإنَّ أبا منصور الثَّعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه وسمُه، وبقي عليه إثمُه."[5]، فابن بسَّام قد نزَّه كتابه من الخوض في

---

[1] – الحارثي محمد بن مريسي، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتَّى نهاية ق7هـ، ص93-94.

[2] – ابن بسَّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1، مج1، ص18.

[3] – يُنظر الحارثي بن مريسي، المرجع السابق، ص100.

[4] – أبحير محمد، النقد الخلقي عند ابن بسَّام الشنتريني– الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة نموذجا، المطبعة الوطنية، مراكش، المغرب، ط1، 2012م، ص90.

[5] – ابن بسَّام الشنتريني، المرجع السابق، ق1، مج1، ص544-546.

شعر الهجاء الذي يُثير النعرات والعداوات، ويُورث السباب والقذف والإفحاش، ليربأ بكتابه عن الشين. ومن الهجاء المتروك ما كان من ولاَّدة بنت المستكفي بالله، فيقول: "كانت – أي ولاَّدة – تقرض أبياتا من الشعر، وقد قرأت أشياء منه في بعض التعاليق، أضربتُ عن ذكره، وطويته بأسره، لأنَّ أكثره هجاء، وليس له عندي إعادة ولا إبداء، ولا من كتابي أرض ولا سماء."[1]

ويُعلِّق علي بن محمد على هذا الموقف المتشدِّد من ابن بسَّام، قائلا: "وهكذا أفقدنا ابن بسَّام بتصلُّبه في هذا الموقف جانبا من إنتاج هذه الأديبة المتميِّزة، التي ربَّما كان اطِّلاعنا على قصائدها الهجائية هذه يزيدنا معرفة بها وبأدبها ومجالسها، وما وراء الهجاء من أخبار عظيمة الأهمية."[2] لكنَّه لا يُمانع إذا كان هذا الشعر من مليح التعريض، "وقد أرخص الفقهاء في هذه المعاريض، وقال بعض السَّلف: في المعاريض مندوحة عن الكذب."[3]

ومن الأمثلة التطبيقية في النقد الأخلاقي عند ابن بسَّام ما ذكره في أبي القاسم خلف بن فرج الإلبيري المعروف بالسَّمَيْسر، حيث قال في شأنه: "وما ينقضي التعجُّب من السَّمَيْسر، فإنَّه لمَّا سمع المتنبي يقول:

أبـــــوكم آدمٌ ســـــنَّ المعاصـــــي وعلَّمكـــــم مفارقـــــة الجنـــــان

حسده على غلوّه، فقال:

يـــا ليتنـــا لـــم نـــكُ مـــن آدمٍ أورطنـــا فـــي شـــبه الأسْـــر

إن كـــان قـــد أخرجـــه ذنبُـــه فمـــا لنـــا نُشـــرك فـــي الأمـــر"[4]

ثمَّ يُعقِّب قائلا: "والسَّمَيْسر في هذا الكلام ممَّن أخذ الغلوَّ بالتقليد، ونادى الحكمة من مكان بعيد، صرَّح عن عمى بصيرته، ونشر مطويَّ سريرته، في غير معنى بديع، ولا لفظ مطبوع، ولعلَّه أراد أن يتَّبع أبا العلاء، فيما كان ينظمه من سخيف الآراء، ويا بعد ما بين النجوم والحصباء، وهبه ساواه في قِصَر باعه، وضيق ذراعه، أين هو من حسن إبداعه، ولُطف اختراعه؟"[5]، وهنا تبدو لنا شخصية ابن بسَّام الفقهية والمتديِّنة، والتي كان لها الأثر الكبير في أحكامه النقدية، التي صبغتها بصبغة أخلاقية خالصة. فهو يرفض الغلوَّ والتجرؤ على الدِّين والمقدَّسات، ويُنفِّر من الشعر الذي ينطوي على توجُّهات إلحادية ضالة، وأفكار فلسفية منحرفة.

ب) الاتجاه الثاني:

وهو الفريق الذي ينظر إلى الشعر نظرة فنِّية مجرَّدة، فالشعر –في نظرهم– فنٌّ ولا يُمكن أن يُقاس إلاَّ بمعايير فنِّية محضة، من قوة التعبير وإجادة التصوير، وبالتالي فهم يرفضون أن يكون الدِّين والأخلاق معيارا لقياس جودة الشعر،

[1] – ابن بسَّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق1، مج1، ص432.

[2] – علي بن محمد، ابن بسَّام الأندلسي وكتاب الذخيرة، ص339.

[3] – ابن بسَّام الشنتريني، المرجع السابق، ص466.

[4] – المرجع نفسه، ص894.

[5] – نفسه، ص890.

وشاعرية الشعراء. فهم يرون أنَّ: "هذا المقياس–الدِّين والخلق– لا دخل له في تقويم الشعر، وأن ليس على الشاعر من حرج في أن يُعبِّر عن إحساساته، وما يعتلج في صدره، أو يجول في نفسه، سواء أوافق الخلق أم خالفه، أقرَّه الدِّين أم لم يُقرَّه، فالشاعر حرٌّ فيما يقول، وعلى سامعه أو قارئه أن يُحكِّم عقله فيما يقبل من آرائه أو يرفض، وليس ثمَّة قيود يُقيَّد بها الشاعر ما دام يُعبِّر عمَّا يُحسُّ."[1]

ويُمثِّل هذا الفريق مجموعة من النقاد، لعلَّ من أبرزهم: ابن المعتز، أبو بكر الصُّولي، قدامة بن جعفر، ابن جني، القاضي الجرجاني، أبو حيَّان التوحيدي، أبو سعد العميدي، ابن سنان الخفاجي، ابن خفاجة... وغيرهم، ونقف عند بعضهم، وهم:

– أبو بكر الصوليّ(ت335هـ): ففي كتابه (أخبار أبي تمام)، وهو عبارة عن رسالة وجَّهها الصُّولي إلى أبي الليث مزاحم بن فاتك يذكر له فيها أخبار أبي تمام الطائي وشعره، بعد أن رأى افتراق الناس فيه، "فبعضهم يُوفيه حقَّه في المدح، ويُعطيه موضعه في الرتبة، ثمَّ يكبر بإحسانه في عينه، ويقوى بإبداعه في نفسه، حتَّى يُلحقه بعضهم بمن يتقدَّمه، ويُفرط بعضٌ فيجعله نسيج وَحدِه، وسابقا لا مُساوي له. وترى بعد ذلك قوما يعيبونه ويطعنون في كثير من شعره، ويُسندون ذلك إلى بعض العلماء، ويقولونه بالتقليد والادِّعاء، إذْ لم يصحَّ فيه دليلٌ، ولا أجابتهم إليه حُجَّة."[2]، وقد سعى الصُّولي في دفاعه المستميت ضدَّ أولئك الذين رموا أبا تمام بالكفر أن يفصل بين معتقد الشاعر وشعره، "فقد رأى أنَّ أبا تمام رأس في الشعر، وصاحب مذهب حسن لم يبلغه فيه أحد، فأراد أن يُبيِّن فضله ومكانته، وهاجم دون هوادة كلَّ من طعن في أبي تمام وشعره، ووصفهم بالجهل والتعصُّب. كما بيَّن أنَّ الحكم على الشعر يكون بمعايير تخصُّ الشعر وحده، وأنَّ معايير الدِّين والأخلاق لا تحكم بالجودة أو الرداءة على الشعر."[3]

قال أبو بكر الصُّولي مدافعا عن أبي تمام بعد أن اتَّهمه بعض النقاد بضعف العقيدة، والإخلال بأمور الدِّين، بل وصل ببعضهم إلى رميه بالكفر: "وقد ادَّعى قومٌ عليه الكفر بل حقَّقوه، وجعلوا ذلك سببا للطَّعن على شعره، وتقبيح حَسَنه، وما ظننتُ أنَّ كفرا ينقص من شعر، ولا أنَّ إيمانا يزيد فيه."[4]، وبعد أن يذكر الرواية التي احتجوا بها في ذلك، ويُفنِّدها، يتساءل متعجِّبا: فكيف يصِحُّ الكفرُ عند هؤلاء على رجل، شعره كلُّه يشهد بضدِّ ما اتَّهموه به، حتَّى يلعنوه في المجالس. ويردُّ عليهم بما فعله بعض الخلفاء من قتل بعض الشعراء الذين صحَّ كفرهم بإقرار وبيِّنة، وما نقصت بذلك رُتب أشعارهم ، ولا ذهبت جودتُها، وإنَّما نقصوا هم في أنفسهم، وشقوا بكفرهم.[5]

---

[1] – بدوي أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص397.

[2] – الصُّولي أبو بكر محمد بن يحي، أخبار أبي تمام، تح: خليل محمود عساكر وآخران، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط3، 1980م، ص4.

[3] – يُنظر عتوم كامل يوسف، الفصل بين الشعر والدِّين في التراث النقدي عند العرب، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، الأردن، مج3، ع2، أفريل2007م، ص18.

[4] – الصُّولي، المرجع السابق، ص172.

[5] – يُنظر الصُّولي، أخبار أبي تمام، ص173.

فنظرة الصولي التي تُؤَكِّد الفصل بين الدِّين والشعر ثابتة راسخة، وتتجلَّى من خلال المثال الذي جاء به لأولئك الشعراء الذين قُتلوا بسبب كفرهم البيِّن، وهم أشقياء بذلك ولا ريب، ولكن شعرهم ظلَّ كما هو في رتبته لا لشيء إلاَّ لجودته وحسنه. وكأنَّ الصولي يقول: اعتقاد الشاعر ودينه شيء، وشعره شيء آخر، ولا رابط بينهما.

– قدامة بن جعفر(ت337هـ): يُعتبر قدامة من أبرز نقاد هذا الاتجاه، وموقفه واضح للغاية، فهو يرى أنَّ الشعر لا يُقاس إلاَّ بالمعايير الفنيَّة، ولا دخل للدِّين أو الخُلق في تحديد جودة الشعر أو رداءته. فيقول: "وممَّا يجب تقدمته وتوطيده قبل ما أريد أن أتكلَّم فيه أنَّ المعاني كلَّها مُعرَّضة للشاعر، وله أن يتكلَّم منها في ما أحبَّ وآثر، من غير أن يُحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كلِّ صناعة، من أنَّه لابدَّ فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها، مثل الخشب للنجارة، والفضَّة للصياغة. وعلى الشاعر إذا شرع في أيِّ معنى – كان– من الرِّفعة والضَّعة، والرَّفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة، أن يتوخَّى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة."[1]

ومعنى هذا أنَّ قدامة "يرفض أن يحاكم الشِّعر أو يُقوَّم على أساس موضوعه أو معناه، فكل الموضوعات مطروحة أمام الشاعر، وله أن يُؤثر ما يريد منها، وإنَّما يُقوَّم بالصورة التي يتخذها التعبير عن هذا المعنى."[2]، وهذا الرأيُّ من لدن قدامة " يُؤَكِّد لنا مدى اهتمام النقد العربي بالناحية الأخلاقية ومواقفه منها وتفسيره لأثرها في العمل الأدبي، فإذا بنا نجده يُعطي الأهمية كلَّ الأهمية للصورة الأولى التي تتمُّ فيها الصنعة (النجارة كما ذكر). أمَّا الهدف الأخلاقي فلا يُؤبه به على الإطلاق؛ إذ ليس له أي عمل في تحسين تلك الصورة أو تقبيحها، فقد يكون حسنا ويخرج العمل الأدبي كريها إلى النَّفس، وقد يكون فاحشا فلا يمنع ذلك من أن يخرج مُحبَّبا إلى النَّفس مُثيرا للإعجاب."[3]، وبتعبيرنا اليوم: "ليس الموضوع هو الذي يُحدِّد طبيعة العمل وفنِّيته، ولكن طريقة الانفعال، والتعبير عنه."[4]

فقدامة يرى أنَّ الحرية متاحة للشاعر في تناول أيّ موضوع من الموضوعات، أو أيّ معنى من المعاني، ولا يُنظر إلى المعاني من حيث جودتها أو رداءتها في ذاتها، وإنَّما بمقدار التجويد إلى الغاية المطلوبة. "إذ الأساس الأخلاقي إنَّما يتناول تصوير الجوانب الموجبة، وليس هناك من يستطيع أن يحظر عليه تصوير الجوانب السالبة، وإلاَّ لم يكن الهجاء فنًّا من فنون الشعر على هذا الاعتبار."[5]

ونظرة قدامة هذه لاقت استحسانا وقبولا كبيرا خاصة من نقاد العصر الحديث، الذين يهتمون في الجانب الفنِّي من العمل الأدبي، بعملية التشكيل أو الخلق الأدبي وما يحويه من قيم ومهارات وإبداع. يقول محمد زكي: "فقدامة يُؤَكِّد على

---

[1] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص65–66.

[2] – يموت غازي، نظرية الشعر عند قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص26.

[3] – إسماعيل عز الدين، الأسس الجمالية في النقد العربي، ص185–186.

[4] – يموت غازي، الفن الأدبي أجناسه وأنواعه، دار الحداثة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، ص35.

[5] – عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط2، 1993م، ص189.

حقيقة مهمة في العملية الشعرية، يُشدِّد عليها الفن الحديث، ألا وهي أنَّ عملية الخلق الأدبي لا تكتسب قيمتها من مضمونها، بل ممَّا تحتويه من قيم فنِّية... فالفنُّ يُمكنه أن يتناول الموضوعات جميعا، حقيرها وعظيمها، وله أن يخلق منها جمالا وروعة."[1]

وانطلاقا من أنَّ جودة الشعر لا تتحدَّد بما يُقال بل بالكيفية التي يُقال بها، يُوجب قدامة الفصل بين معتقد الشاعر وشعره، فلا يُحاسب الشاعر على اعتقاده في نظمه للشعر، وإنَّما يُحاسب على الصورة والكيفية التي يُعبِّر بها في صياغاته الشعرية. بمعنى "أن يتوجَّه النقد إلى النصِّ الشعري فحسب، لا إلى صاحبه أو مبدعه. فرأينا الشخصي في الشاعر، يجب أن لا يكون المؤثّر في الحكم الفني، فتقديرنا لإبداعه الشعري ينبغي أن ينبع من القيمة الفنية للعمل ذاته، لا من خلال رأينا في أخلاق الأديب أو الشاعر."[2]

ويبدو جليًّا "تأثُّر قدامة بالفلسفة اليونانية، وخاصة بكتابي (الشعر) و(الخطابة) لأرسطو، اللذين تُرجما في عهد مبكِّر.. فقدامة كما يقول عنه المترجمون: إنَّه كان ممن يُشار إليه في علم المنطق، وأحد الفلاسفة الفضلاء."[3]، ويقول عنه مندور: "أمَّا قدامة فعقليته شكلية صرفة، وهو لا يبدأ بالنظر في الشعر بل يُكوِّن أولا هيكلا لدراسته ويُحدِّد تقاسيمه أو إن شئت فقل إنَّه يصنع قطعة أثاث هندسية التركيب، ثمَّ يأخذ في ملء أدراجها." ثم يقول عنه بعد التقسيمات والتفريعات الكثيرة: "وفي هذا الكلام الطويل الممل ما يدل على طريقة قدامة في نقد الشعر وبُعده عمَّا ادَّعاه، فهذه فلسفة أرسطاليسية ومزيج من المنطق والأخلاق المعروفة عند المعلِّم الأول."[4]

ثمَّ يقول قدامة: "وممَّا يجب تقديمه أيضا أنَّ مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين أو كلمتين، بأن يصف شيئا وصفا حسنا، ثمَّ يذمُّه بعد ذلك ذمًّا حسنا بيِّنًا، غير مُنكر عليه، ولا معيب من فعله، إذا أحسن المدح والذمَّ، بل ذلك عندي يدل على قوة الشاعر في صياغته، واقتداره عليها."[5]

وقدامة هنا، ومن خلال هذا المعيار الأخلاقي يُحاول استبعاد مفهوم الصِّدق من العملية النقدية، فيرى أنَّ الصِّدق ليس معيارًا نقديا يُميِّز الجودة من الرَّداءة في الشعر "لأنَّ الشاعر ليس يُوصف بأن يكون صادقًا، بل إنَّما يُراد منه إذا أخذ في معنى من المعاني كائنا ما كان أن يُجيده في وقته الحاضر، لا أن ينسخ ما قاله في وقت آخر."[6]

ثمَّ يُعلِّل سبب ذكره وتقديمه هذين المعنيين أو الملاحظتين قائلا: "وإنَّما قدَّمتُ هذين المعنيين لما وجدتُ قوما يُعيبون الشعر إذا سلك الشاعر هذين المسلكين، فإنّي رأيت من يعيب امرأ القيس في قوله:

---

[1] – يموت غازي، نظرية الشعر عند قدامة، ص27-28.

[2] – النويهي محمد، شخصية بشار، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1951م، ص157.

[3] – أبو زيد يوسف سامي ، النقد العربي القديم، ص181-182.

[4] – يُنظر مندور محمد، النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، 1996م، ص68 وما بعدها.

[5] – قدامة بن جعفر، نقد الشِّعر، ص66.

[6] – المرجع نفسه، ص68.

فمثلـــك حُبلـــى قـــد طرقـــتُ ومُرضـــع فألهيتهـــا عـــن ذي تمـــائم مُحْـــول

إذا مـــا بكـــى مَـــن خلفهـــا انصـــرفت لـــه بشـــقٍّ وتحتـــي شـــقُّها لـــم يُحـــوَّل

ويذكر أنَّ هذا معنى فاحش. وليس فحاشة المعنى في نفسه ممَّا يُزيل جودة الشعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلا رداءته في ذاته."[1]، وهنا يردُّ قدامة على أولئك الذين يقوِّمون الشعر باعتبار موضوعه أو معناه ، في حين يرى أنَّ الموضوع أو المعنى لا علاقة لهما بجودة الشعر وقيمته، وإنَّما الذي يُحدِّد جودة الشعر وجماله هو صياغته ونمط التعبير عنه، "وهذا يعني أنَّ قدامة يُرجع علّة الجمال إلى الجانب الشكلي، وهو أمرٌ يتصل بالنسيج والتصوير، وبتعبير آخر يُرجع علة الجمال إلى الخصائص الذاتية للشعر في جانبها الشكلي(الصياغة)، ولذلك فإنَّ المعنى لا يعيب شاعرا، وإنَّما الذي يُحسنه ويقبحه كيفية التعبير عنه."[2]

ومن القضايا التي أثارها قدامة –وهي ذات صلة بالنقد الأخلاقي– مسألة الغلوِّ والمبالغة في الشعر، حيث يقول في باب المعاني الدَّال عليها الشعر: "أنِّي رأيت النَّاس مختلفين في مذهبين من مذاهب الشعر، وهما الغلوُّ في المعنى إذا شُرع فيه، والاقتصار على الحدِّ الأوسط في ما يُقال منه."[3]

وبعد ذكر بعض الأشعار التي عابوا على أصحابها الغلوَّ والمبالغة، كشعر المهلهل والنَّمر وأبي نواس، وبيانه لحقيقة مقصدهم، يأتي إلى التصريح برأيه في مسألة الغلوِّ، فيقول: "إنَّ الغلوَّ عندي أجود المذهبين، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما، وقد بلغني عن بعضهم أنَّه قال: أحسن الشعر أكذبه، وكذا ترى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم."[4]

ويُحاول قدامة وعلى المنهج الفلسفي الذي اتَّبعه في كتابه تفسير ذلك، قائلا: "ومن أنكر على مهلهل والنَّمر وأبي نواس قولهم فهو مخطئ؛ لأنَّهم وغيرهم ممَّن ذهب إلى الغلوِّ إنَّما أرادوا به المبالغة والغلوَّ بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم، فإنَّما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النَّعت، وهذا أحسن من المذهب الآخر."[5]

وتفسير قدامة للغلوِّ فيه نظر، لأنَّه لا يُتصوَّر أن يدخل شيء في باب المعدوم ويُمكن فهمه أو استيعابه، فالإشارات البعيدة، والإيماءات الغامضة لا يُمكن تصوُّرها أو فهمها، إن لم يكن من الجميع فبالتأكيد من القليل. ثمَّ إنَّ معظم النقاد كابن طباطبا والمرزباني والعسكري وغيرهم يرون بضرورة القصد والاعتدال حتَّى لا يخرج المعنى عن الحدِّ المقبول، لذا فالأفضل للشاعر التوسُّط في المبالغة.

---

[1] – قدامة بن جعفر، نقد الشِّعر، ص66.

[2] – حافظ حسين لفته، المعنى في النقد العربي القديم، ص239.

[3] – قدامة بن جعفر، المرجع السابق، ص91.

[4] – المرجع نفسه، ص94.

[5] – نفسه، ص94.

– القاضي الجرجاني(ت392هـ): وهو صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، الخصوم الذين رموا المتنبي بضعف العقيدة، بل ووصل ببعضهم إلى تكفيره واتّهامه بالزندقة. ويُعتبر الجرجاني من خلال كتابه هذا خير من تصدَّى لنقد أبي الطيب المتنبي وانتقاده؛ وهذا عندما ألَّف الصاحب بن عبَّاد كتابه (الكشف عن مساوئ المتنبي)، حيث تتبّع فيه عيوب وسقطات المتنبي، فما كان من القاضي الجرجاني إلاَّ أن يُنصف المتنبي، وينظر في شعره بعين القاضي العادل والنزيه.

وقد بيَّن الجرجاني القصد من دفاعه عن المتنبي بأنَّه لا يشهد له بالعصمة، ولا المراد تبرئته من مقارفة الزَّلة، وإنَّما كانت الغاية أن يُلحقه بأهل طبقته، ويُجلسه في مكانته بين فحول الشعراء، فيُبيِّن حسناته –وما أكثرها– من سيئاته، –وما أقلَّها–، وحتَّى لا تتحامل عليه، وتغُضَّ الطَّرف على شعره، وقد تقدَّم في الكثير، وقصَّر في القليل.[1] لهذا قال الحموي: "ولمَّا عمل الصَّاحب رسالته المعروفة في إظهار مساوئ المتنبي، عمل القاضي أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه في شعره، فأحسن وأبدع، وأطال وأطاب وأصاب شاكلة الصواب، واستولى على الأمد في فصل الخطاب، وأعرب عن تبحُّره في الأدب وعلم العرب، وتمكُّنه من جودة اللفظ، وقوة النقد، فسار الكتاب مسير الرياح وطار في البلاد بغير جناح."[2]،

لقد كان الجرجاني من أبين النقاد وأوسعهم شمولا في معالجة قضية عزل الدِّين عن الشعر، وهذا من خلال وساطته بين المتنبي وخصومه، فها هو يتعجَّب من أولئك الذين طعنوا في شاعرية المتنبي من المنظور الدِّيني قائلا: "والعجب ممن ينقص أبا الطيِّب، ويغضُّ من شعره لأبيات وجدها تدل على ضعف العقيدة وفساد المذهب في الديانة."[3]، كقوله:

يترشَّـــــفن مـــــن فمـــــي رشـــــفاتٍ هـــنَّ فيـــه أحلـــى مـــن التوحيـــد [4]

وقوله من قصيدة يمدح بها أحد العلويين:

وأبهـــــرُ آيـــــات التّهـــــاميِّ أنَّـــــه أبـــوكم وأجـــدى مـــا لكـــم مـــن مناقـــب[5]

وبالرغم ممَّا قيل في هذين البيتين من شروح وتفسيرات، وخاصة البيت الأول ففيه "أقوال بعضها لا علاقة له بالدّين، وهو أنَّ التَّوحيد نوع من التَّمر، وليس كلمة التوحيد (لا إله إلاَّ الله)، ومنه لُقِّب التَّوحيدي: أبو حيَّان بلقبه."[6]، والتِّهاميُّ هو الرسول ﷺ، قال الشاعر: أنَّ أفضل وأعظم آياته ومآثره أنَّه أبو العلويين. فيُنكر الجرجاني على الذين

---

[1] – يُنظر القاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد إبراهيم وعلي البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2006م، ص344-345.

[2] – ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله، معجم الأدباء، راجعته وزارة المعارف العمومية المصرية، مطبوعات دار المأمون، القاهرة، مصر، دط، دت، ج14، ص24-25.

[3] – القاضي الجرجاني، المرجع السابق، ص62.

[4] – المتنبي أبو الطيب أحمد بن حسين الكوفي، الديوان، ضبطه وعلَّق عليه: الشربيني شريدة، دار الحديث القاهرة، مصر، دط، 2014، ص29.

[5] – المرجع نفسه، ص224.

[6] – حافظ حسين لفته، المعنى في النقد العربي القديم، ص242.

تحاملوا على المتنبي واتَّهموه في عقيدته لقوله مثل هذين البيتين، وهؤلاء أنفسهم لا يُبدون رأيا، ولا يقولون شيئا في أبي نواس الذي قال ما هو أكثر من المتنبي تصريحًا وليس تلميحًا، ويذكر من ذلك قوله:

قلـــتُ والكـــأس علـــى كـــ ـــفَيَّ تهـــوي لالتثامـــي
أنـــا لا أعـــرف ذاك الـــ ـــيوم فـــي ذاك الزِّحـــام

وهو إنكار صريح للبعث والنشور.[1] وقوله:

عـــاذلتي بالسِّـــفاه والزجـــر استمعي مـــا أبـــثُّ مـــن أمـــري
بـــاح لســـاني بمضـــمر الســـرِّ وذاك أنـــي أقـــول بالـــدَّهر
بـــين ريـــاض الســـرور لـــي شـــيع كـــافرة بالحســـاب والحشـــر
موقنـــة بالممـــات جاحـــدة لـــمَا رووه مـــن ضـــغطة القبـــر
ولـــيس بعـــد الممـــات مُنقلـــب وإنَّمـــا المـــوت بيضـــة العُقْـــر

وفي هذه الأبيات يُثبت على نفسه أنَّه يتَّبع الطائفة الدَّهرية وهي فرقة ضالة لا تُؤمن بالحساب والبعث والحشر، ولا بعذاب القبر، وتُؤمن بأنَّ الموت هو النهاية التي ما بعدها شيء.[2] وكذلك مثل قوله:

فـــدع المـــلامَ فقـــد أطعـــتُ غَـــوايتي ونبـــذتُ مـــوعظتي وراء جـــداري
ورأيـــتُ إيثـــار اللَّـــذاذة والهـــوى وتمتعـــا مـــن طيـــب هـــذي الـــدَّار
أحـــرى وأحـــزمُ مـــن تنظُّـــر آجـــلٍ ظنِّـــي بـــه رَجْـــمٌ مـــن الأخبـــار
إنـــي بعاجـــل مـــا تـــرين موكَـــلٌ وســـواه إرجـــافٌ مـــن الآثـــار
مـــا جاءنـــا أحـــدٌ يُخبـــر أنَّـــه فـــي جنَّـــة مـــذ مـــات أو فـــي النَّـــار

وهنا تصريح بإنكار الجنَّة والنَّار، وأنَّهما رجم من الأخبار، لذا آثر اللَّذاذة والهوى والتمتُّع بالملذّات والشهوات في حياته الدنيا، فهو أحزم وأحرى له من انتظار آجل وموعود يعتقد أنَّه ضرب من الخرافة، ورجم من الأخبار.[3]

ويُعقِّب الجرجاني بعد هذه الأبيات وغيرها لأبي نواس قائلا: "فلو كانت الدّيانة عارا على الشِّعر، وكان سوء الاعتقاد سببا لتأخُّر الشاعر، لوجب أن يُمحى اسم أبي نواس من الدواوين، ويُحذف ذكره إذا عُدَّت الطبقات، ولكان أوْلاهم بذلك أهلُ الجاهلية، ومن تشهد عليه الأمَّة بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن الزِّبعرى وأضرابُهما ممن تناول رسول الله ﷺ وعاب من أصحابه بُكْمًا خُرْسًا، وبِكاءً مفحمين، ولكنَّ الأمرين متباينان، والدِّين بمعزل عن الشِّعر."[4]

---

[1] – القاضي الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص62. والبيتان لا وجود لهما في ديوان أبي نواس.

[2] – المرجع نفسه، ص63. والأبيات لا وجود لها في ديوان أبي نواس.

[3] – نفسه، ص63، والأبيات لا وجود لها في الديوان.

[4] – نفسه، والصفحة نفسها.

وبكلام واضح وصريح يُقرِّر الجرجاني فصل الدِّين عن الشعر؛ حيث يرى "أنَّ الحكم الدّيني شيء والحكم الجمالي على الشعر شيءٌ آخر"[1]، وهذا الموقف التبريري من الجرجاني مردود عليه؛ لأنَّه لا يُمكن الغضُّ عن فاعل المنكر أو التسامح معه لأنَّ غيره قد ارتكبه أو فعل ما هو أكبر منه، فالإنسان يُحاسب على أعماله فقط، ولا يتَّخذ من الغير قدوة في ارتكاب الآثام والفواحش، فأبو نواس ليس قدوة لا للمتنبي ولا لغيره. ثمَّ إنَّ سحب المعيار الدّيني على الشعراء الجاهليين لا يستقيم، فلا يُعقل أن يتمرَّد الشاعر المسلم على معتقده لمجرَّد أنَّ الجاهليين وقعوا فيه.

ومع هذا نجد من الباحثين مَن يُدافع عن الجرجاني، ويُفسِّر مقولته تفسيرًا آخر يُناقض تمامًا المعنى الظاهر لها، كما رأت ذلك نجوى صابر قائلة: "ولكنَّ التَّفسير الصحيح لعبارة الجرجاني-كما نعتقد- ولرأي الصولي من قبله أنَّ الدِّين بمعزل عن الحكم على شاعرية الشاعر وقيمته الفنّية. فالقاضي الجرجاني الراسخ القدم في الإسلام لم يكن ليُبيح للشعراء الخروج على القيم الدينية الأخلاقية بعبارته هذه، ولكنّه وهو القاضي أبى أن يكون حسن المعتقد أو فساده مقياسا على جودة الشعر، فقد يكون الشعر ذا قيمة فنية كبيرة وصاحبه فاسد المعتقد الدّيني، فهو لا يُريد أن يتحيَّف فنّ الشاعر بخروجه على القيم الدينية، ولكنّه لا يضع بذلك قاعدة تُبيح الخروج على الدِّين والأخلاق."[2]

وكذلك يرى عبد الجواد المحص أنَّ مقولة الجرجاني قد أساء الكثير من النَّاس فهمها، وخاصة أولئك الذين يقولون بفصل الدّين عن الأدب، حتَّى يصل إلى أن يقول: "وأعتقد أنَّ القاضي الجرجاني لو كان يعلم أنَّ عبارته المذكورة سيستخدمها النقاد من بعده لفصل العلاقة بين الدّين والأدب ما قالها، ولا سطَّرها في كتابه الوساطة، وأنَّه لو كان يعلم أنَّ النَّاس من بعده سيعدونه ناقدًا يُطلق للأديب حريّة التعبير دون أن يتَّخذ الدّين معيارًا للقول الأدبي، ما نطق بهذه العبارة."[3]، ثمَّ يطرح المحص سؤالاً يراه في غاية الأهميَّة، وهو: ماذا يقصد الجرجاني؟ هل يقصد الإقرار للشاعر بأن يُصادم الدّين ويعتدي على القيم؟ أم يقصد الإقرار للشعراء الجانحين في معتقداتهم بأنَّهم شعراء ذوو موهبة لا يصحُّ إنكارها ولو كانوا فاسدي العقيدة أو كافرين؟ ويُجيب قائلاً: "إنَّ الجرجاني في قوله :(الدّيانة ليست عارًا على الشّعر)، وقوله: (والدّين بمعزل عن الشّعر)، يقصد -كما يُفيد السّياق الذي وردت فيه العبارتان- التفرقة بين القدرة على إبداع الشّعر والتفوُّق فيه، وعقيدة الشاعر، وأنَّ الحكم النقدي المنصف على براعة الشاعر وموهبته يتجرَّد من كلّ القيم غير الفنّية، ولا يَأخذ في الاعتبار ملَّته ومذهبه. فالقراءة الدينية للنصِّ شيء، والتقويم الفنِّي للموهبة لا تُلغيه النتائج المترتّبة على تلك القراءة الدينية. فالقاضي الجرجاني قد ميَّز بين القدرة على قول الشّعر وإتقانه والتقدُّم فيه، وعقيدة الشاعر، وأنَّه دافع عن شاعرية المتنبي ليس غير، ولم يُسوغ تجاوزاته العقدية، ولم يقصد تسويغ الانحراف ولا مصادمة العقيدة، ولا قبول الشّعر الذي يفعل ذلك."[4]

---

[1] - العاكوب علي عيسى، التفكير النقدي عند العرب (مدخل إلى نظرية الأدب العربي)، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ص270.

[2] - صابر نجوى، النقد الأخلاقي أصوله وتطبيقاته، دار العلوم العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، ص38-39.

[3] - المحص عبد الجواد محمد، الدّين وقراءة النص الأدبي، ص199.

[4] - المرجع نفسه، ص208 و210.

والباحث إذ يُثمِّن هذه القراءة الجديدة والجريئة لهذا النصِّ النقدي من لدن نجوى صابر، وعبد الجواد المحص، إلاَّ أنَّه لا يرى لهذه القراءة التفسيرية مُسوِّغًا مقبولاً أو سندًا قويًّا تتَّكئ عليه، فالقاضي الجرجاني لم يقصد إلى الموهبة والقدرة على قول الشّعر–كما يزعمان– ولو قصد إلى ذلك لصرَّح به، ولكنَّه صرَّح بأنَّ الشعر نفسه –أي النصّ الشعري– لا علاقة له بمعتقد صاحبه، وينبغي النظر إليه بمعزل عن الدّين، وهي دعوة صريحة لفصل الدِّين عن الأدب. وهذا الذي فهمه السواد الأعظم من الناقدين والدَّارسين على مرِّ الزمان، فهذا الناقد إحسان عباس يقول: "وهذا الفصل بين الدِّين والشّعر موجود من عهد بعيد في تاريخ النقد العربي، ولكنَّ الجرجاني قد وضعه بشكل واضح لا يتحمَّل لُبسًا."[1]، ولعلَّ تفسير ما ذهب إليه الجرجاني نجده عند الدكتور محمود السمرة، الذي يقول: "وليس من العسير علينا أن نُدرك السبب الذي جعل الجرجاني يجهر بهذا الرأي دون حرج، فالحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كان الأدب مرآة لها في هذا العصر تُؤكِّد إيمان القوم بالفصل بين الأدب والدِّين."[2]، وبهذا يكون موقف الجرجاني مبرَّرًا بمسايرة الظروف الحياتية التي كان عليها الأدباء والشعراء والنقاد في عصره من عدم الالتزام بضوابط الدّين في أعمالهم الأدبية، وبالتالي فهو يعلم أنَّه لن يجد من يُنكر عليه مثل هذا الموقف، بل لا يوجد حتَّى من يُدهش لهذا الرأي، على قول السمرة محمود: "ولا يُخامرنا شكٌّ في أنَّ القوم في هذا العصر لم يُدهشوا لهذا الرأي الذي يصدر عن قاضي القضاة لأنَّهم كانوا يُمارسونه في حياتهم الأدبية."[3]، ويرى عمر الساريسي أنَّ القاضي الجرجاني في عزله الدِّين عن الشّعر قد "جعل الفنَّ الأدبيَّ يسبح في حريَّة تامَّة بعيدًا عن أيِّ أثر لعامل اجتماعي أو روحي آخر، وهذا يُشكِّل تسامحًا مفرطًا في مقاييس الأدب وأسباب الحكم عليه."[4]

ومع هذا نقول: إنَّ الجرجاني وهو القاضي الفاضل الرَّاسخ القدم في الإسلام ما كان له أن يضع نفسه موضع الشبهة، فلو كان أكثر دقَّة في حكمه النقدي السابق لسلم من النقد، وتبرَّأ من الشبهة، وحتَّى لا يكون حكمه هذا ذريعة ووسيلة يتَّخذها أصحاب الأهواء والمجون من الشعراء للتمادي في غيِّهم ومجونهم، وهو أجلُّ من أن يكون كذلك.

وفي هذا المقام نرى أنَّه من المناسب بعد أن تعرَّضنا للاتجاهين المُؤيِّد والرَّافض لفكرة ربط الشعر بالدِّين والأخلاق أن نقف عند نصٍّ نقدي يُمثِّل الموقفين معًا. هذا النصُّ هو عبارة عن مناظرة أو مساجلة بين ابن الأنباري وابن المعتزِّ، يرويها الحُصْري في جمع الجواهر، فيقول: "وها هنا مساجلة جرت بين أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري وأبي العباس عبد الله بن المعتز، لها في هذا الموضع موقع وهي طويلة اختصرت منها موضع الحاجة:

كتب ابن الأنباري إليه: جرى في مجلس الأمير ذِكْر الحسن بن هانىء والشعر الذي قاله في المجون وأنشده وهو يؤمُّ قومًا في صلاة؛ وهو أنَّ لكلِّ ساقطة لاقطة، وأنَّ لكلام القوم رواة، وكلَّ مقول محمول. فكان حقُّ شعر هذا الخليع ألاَّ

---

[1] – عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص309.

[2] – السمرة محمود، القاضي الجرجاني الأديب الناقد، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1979م، ص160.

[3] – المرجع نفسه، ص163.

[4] – الساريسي عمر عبد الرحمن، مقالات في الأدب الإسلامي، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمَّان، الأردن، ط1، 1996م، ص67.

يتلقاه النَّاس بألسنتهم؛ ولا يدوِّنُونه في كتبهم، ولا يحمله مُتقدِّمُهم إلى متأخِّرهم؛ لأنَّ ذوي الأقدار والأسنان يجلُّون عن روايته، والأحداث يغشون بحفظه، ولا يُنشد في المساجد، ولا يتحمَّل بذكره في المشاهد؛ فإن صُنِعَ فيه غناء كان أعظم لِبليَّتِه؛ لأنَّه إنما يظهر في غلبة سلطان الهوى، فيُهيِّج الدواعي الدنيئة، ويُقوِّي الخواطر الرديئة؛ والإنسان ضعيف يتنازعه على ضعفه سلطان القوى؛ ونفسه الأمَّارة بالسُّوء، والنَّفس في انصبابها إلى لذَّاتها بمنزلة كوة منحدرة من رأس رابية إلى قرار فيه نار، إن لم تحبس بزواجر الدِّين والحياء أدَّاها انحدارها إلى ما فيه هلكتها. والحسن بن هانىء ومن سلك سبيله من الشعر الذي ذكرناه شطار كشفوا للناس عوارهم، وهتكوا عندهم أسرارهم، وأبدوا لهم مساويهم ومخازيهم، وحسنوا ركوب القبائح.

فعلى كل متديِّن أن يذمَّ أخبارهم وأفعالهم، وعلى كل متصوِّر أن يستقبح ما استحسنوه، ويتنزَّه من فعله وحكايته. وقول هذا الخليع: ترك ركوب المعاصي إزراء بعفو الله تعالى حض على المعاصي أن يتقرَّب إلى الله عز وجل بها تعظيماً للعفو، وكفى بهذا مجوناً وخلعاً داعيًا إلى التُّهمة لقائله في عظم الدِّين، وأحسن من هذا وأوضح قول أبي العتاهية:

يخـــــاف معاصـــــيه مـــــن يتـــــوب فكيـــف تـــرى حـــال مـــن لا يتـــوب

جواب ابن المعتز:

فأجابه ابن المعتز: لم يقل أبو نواس ترك المعاصي إزراء بعفو الله تعالى، وإنما حكى ذلك عن متكلِّم غيره، والبيت الذي أُنشِدَ له بحضرتنا:

لا تحظـــر العفـــو إن كنـــت امـــرءًا حرجًـــا فـــــــإنَّ حظركـــــــه بالـــــــدِّين إزراء

وهذا بيت يجوز للنَّاس جميعًا استحسانه والتمثُّل به، ولم يؤسس الشعر بانيه على أن يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصِّدق ولم يَغْوَ بصبوة، ولم يرخص في هفوة، ولم ينطق بكذبة، ولم يغرق في ذمٍّ، ولم يتجاوز في مدح، ولم يزوِّر الباطل ويُكسبه معارض الحقِّ؛ ولو سلك بالشعر هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدِّمين أمية بن أبي الصَّلت الثقفي، وعدي بن زيد العبادي؛ إذ كانا أكثر تذكيرًا وتحذيرًا ومواعظ في أشعارهما من امرىء القيس والنابغة. فقد قال امرؤ القيس:

ســـموت إليهـــا بعـــدما نـــام أهلهـــا سُـــموَّ حبـــاب المـــاء حـــالاً علـــى حـــال
فأصـــبحت معشـــوقًا وأصـــبح بعلهـــا عليـــه القتـــام ســـيِّىء الظـــنِّ والبـــال
يغـــطّ غطـــيط البكـــر شـــدّ خناقـــه ليقتلنـــي والمـــرء لـــيس بقتَّـــال

وقال النابغة:

وإذا لمســـت لمســـت أخـــشم رابيًـــا متحيّـــزًا بمكانـــه مـــلء اليـــد
وإذا طعنـــت طعنـــت فـــي مســـتهدفٍ وأبـــي المجسَّـــة بـــالعبير مقرمـــد

وهل يتناشد الناس أشعار امرىء القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وبشار وأبي نواس على تعيهرهم، ومهاجاة جرير والفرزدق إلا على ملأ الناس وفي حلق المساجد ؟ وهل يروي ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم. وقد

نفى حسَّان بن ثابت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب فما بلغنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ أنكر ذلك عليه في هجائه حيث يقول:

وأنـــت ربـــيط نـــيط فـــي آل هاشـــمٍ كمـــا نـــيط خلـــف الراكـــب القـــدح الفـــرد

وقد زعم بعض الرواة أنَّ النبيَّ ﷺ قال للحارث: أنت من خير أهلي. وما نهى النبيُّ ﷺ ولا السَّلف الصالح من الخلفاء المهديِّين بعده عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر. ولقد أُنْشِدَ سعيد بن المسيب وغيره من نظرائه تهاجي جرير وعمر بن لجأ فجعل يقول: أكله أكله. يعني أكله جرير ولم ينكر شيئاً مما سمعه.

ردُّ ابن الأنباري:

فأجابه ابن الأنباري: قد صدق سيِّدنا أيَّده الله في كل ما قاله من الأشعار التي عدل قائلوها عن سنن المؤمنين المتَّقين، ولم أكن أجهل أكثر ذلك، إلَّا أنه لم يخطر ببالي ذِكْر ما كنت أعرف منه في وقت كتابتي ما كتبت به، وما كلُّ ما يعرف الإنسان يحضره، ولا تتواتى كل وقت خواطره؛ على أنَّ الذي جرى في هذا الأمر إنما هو على سبيل التعلُّم والتفهُّم. يذكر الذاكر شيئًا قد تقدَّم صوابه. فيحتجُّ له، وعليه فيه حُجَّة قد تركها، فيكشف السَّامع لها غطاءه مُستبصرًا أو مُذكِّرًا، فإن كان الحقُّ ضالَّته وجد ما ابتغى، وغنم ما وجد، وإن أنِفَ من الرُّجوع، واشتد عليه النزوع، جحد ما علم، واحتجَّ لما جهل؛ لأنَّ كلَّ مطالب بباطل لا يخلو من جهل بما يدعي، أو جهل بما يعرف، ولم يعقد أعز الله الأمير مجلس لمناظرة في علم يُعطى النظر فيه حقَّه إلا فاز المرء فيه باستفادة صواب كان يجهله، ورجوع عن خطأ كان يعتقده. ولستُ أعزَّ الله الأمير بمعصوم، ومن لم يكن معصومًا لم يكن صوابه بمضمون، ولا لله بمأمون، وعلى حسب ما جرى تعلُّق قلبي بمعرف ما تضمَّنته رقعتي هذه من الأمير، فإن كان لامتنانه بتعريفي ذلك في جواب عنها وجيه جرى فيه على عادة طوله وفضله إن شاء الله.

جواب ابن المعتز

فأجابه ابن المعتز: إنما أحببت أعزَّك الله أن تكون من الإخوان الذين يتجانون ثمر التَّناصح فيتذاكرون فيتذكَّرون، ويتدارسون فيفيدون ويستفيدون، ففتحت بيني وبينك هذا الباب آذنًا بالولوج عليَّ منه، واثقًا بكمال عقلك في المسارعة إليه، وصُنتَ مودَّتنا على استحسان مزور، وتعمد الجحد في إقراره، وملق مكاشر يظهر التصديق بلا إنكار. ولا يزال الإخوان يسافرون في المودَّة حتى يلقوا الثقة فتلقى عصا التسيار، وتطمئن بهم الدار، وتقبل وفود النصائح، وتؤمن خبايا الضمائر، وتلقى ملابس التخلُّق، وتحل عقد التحفظ، وقد أبعدك الله تعالى من الخطأ لمَّا أشرق نور الصواب، ولم لا وبلى يصطرعان على الحقِّ، وبالتعب وطيء فراش الرَّاحة، وبالبحث تستخرج دفائن العلوم، ولا فرق بين إنسان يقاد وبهيمة تنقاد. ولولا أنَّ النَّاس اختلفوا متفرِّقين لاختلفوا متشاحين، ولما قصدوا بالسكنى إلا بقعةً من الدنيا يتنافسون فيها، ويتفانون عليها؛ وخير الاختلاف ما اجتنب معنى التَّمادي على الباطل فاهْتُدِي فيه بالتبصير. كما رُوي أنَّ عليًّا

ﷺ حاجَّ عمر ﷺ في المرأة التي وضعت لستة أشهر، فأراد عمر رجمها فقال له: قد قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾[1]، فرجع عن ذلك عمر وأمضاه.

وبالتقليد هلك مُترَفُو الكفَّار القائلون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[2]. وقال بعضهم: إذا سرَّك أن تعرف خطأ مؤدِّبك فجالس غيره. وقال عمر ﷺ: (ليس شيء أضر بالمرء من لجاجة في جهل). وإنما كان يكره رسول الله ﷺ المسائل والبحث لشفقته على أمَّته من نزول معترض يثقل عليهم فيما يسألون عنه، ثم كره عمر وعلي رضوان الله عليهما ما كان يجري على سبيل التعنُّت، ويفارق سبيل التفقُّه. ولذلك قال علي ﷺ لابن الكوا: سل تفقُّهًا ولا تَسَلْ تعنُّتًا."[3]

فابن الأنباري قد حدَّد المنطلقات الدينية والأخلاقية للهجوم على الشعر، وخاصة ذلك الشعر الخارج عن هذه المنطلقات، ممثَّلا بشعر الغزل والخمر والهجاء، والذي كان يُمثِّله أبو نواس بامتياز. وابن الأنباري لا يقف عند حدِّ مهاجمة الشعر والشاعر، بل تعدَّى ذلك ليُبيِّن الأثر السيء لهذه الأشعار على المجتمع والناشئة تربويا وأخلاقيا، وليُطالب عندها بعدم رواية وتداول مثل هذه الأشعار الفاسدة والمُفسِدَة في نظره.

أمَّا ابن المعتز فيُمثِّل الطَّرف المقابل والرَّافض لرأي ابن الأنباري في الحكم على الشعر والشاعر من منطلق ديني وأخلاقي، فهو يرى أنَّه لا حرج من رواية الشعر الذي يحمل معنى فاحشًا أو لفظا قبيحًا، وحجَّته أنَّ السَّلف رووا مثل هذه الأشعار لامرئ القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وأبي نواس وغيرهم، ولم يُنكر عليهم أحدٌ. بل إنَّ هذه الأشعار يرويها العلماء الموثوق بصدقهم.

ج) الاتجاه الثالث: ويُمثِّله فريق من النقاد لم يكن لهم موقف واضح بيِّنٌ في قضية علاقة الشعر بالدِّين والأخلاق، فجاء موقفهم مضطربا أو متناقضا ما بين تنظيرهم وتطبيقهم، أو متَّسما بالغموض وعدم الإفصاح، أو موقفا يحمل في طياته التوفيق ما بين الموقفين السابقين. وكان من أبرز نقاد هذا الاتجاه: الأصمعي وابن سلاَّم الجمحي، والثعالبي، وأبو العلاء المعري،

– الأصمعي(ت216):

وقد يستغرب البعض، كيف يكون الأصمعي مضطربا أو متناقضا في رؤيته للعلاقة بين الشعر والدِّين والخلق، وهو صاحب المقولة المشهورة في شعر حسان، والتي تُوحي بفصل الدِّين والخلق عن الشعر، ونجيب عن ذلك قائلين: إنَّ الأصمعي قد اختلفت نظرته بين القول والتطبيق؛ فقد أُثر عنه قوله: "طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى أنَّ حسَّان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام، فلمَّا دخل شعره في باب الخير من مراثي النبيِّ ﷺ، وحمزة

[1] – سورة الأحقاف، الآية15.

[2] – سورة الزخرف، الآية23.

[3] – الحُصري، جمع الجواهر في الملح والنَّوادر، ص52-56.

وجعفر **رضوان الله عليهما**، وغيرهم لان شعره. وطريق الشعر هي طريق الفحول مثل امرئ القيس وزهير والنابغة من صفات الدِّيار والرَّحل، والهجاء والمديح، والتشبيب بالنساء، وصفة الحمر والخيل، والحروب، والافتخار، فإن أدخلته في باب الخير لان."[1]، وفي رواية أخرى قريبة من هذه رواها ابن قتيبة، يقول فيها الأصمعي: "الشعر نَكِدٌ بابُه الشرُّ فإذا دخل في الخير ضعُف، هذا حسَّان بن ثابت فحلٌ من فحول الجاهليَّة، فلمَّا جاء الإسلام سقط شعره. وقال مرَّة أخرى: شعر حسَّان في الجاهلية من أجود الشِّعر فقُطع متنه في الإسلام لحال النبيِّ ﷺ."[2]

ولعلَّ أفضل من يردُّ على الأصمعي هذا الادِّعاء هو حسَّان بن ثابت نفسه؛ فقد ورد أنَّه "قيل لحسَّان: لان شعرُك، أو هرُم شعرُك في الإسلام يا أبا الحُسام، فقال للقائل: يا ابن أخي، إنَّ الإسلام يَحجز عن الكذب، أو يمنع من الكذب، وإنَّ الشعر يُزيِّنه الكذب.-ويُعلِّق صاحب الاستيعاب قائلا-: يعني: إنَّ شأن التجويد في الشعر الإفراط في الوصف، والتزيين بغير الحقِّ، وذلك كلُّه كذب."[3]

ومن خلال ما سبق نفهم أنَّ الأصمعي يحكم على الشعر بالجودة أو اللين من موضوعه، فالشعر يجود عنده في موضوعات الشرِّ، ويلين في موضوعات الخير، وهذا قياس عجيب، كيف يكون الموضوع وحده هو أساس الجودة أو الرداءة في الشعر ؟! وما نلمحه أيضًا أنَّ الأصمعي قصر ضعف شعر حسان على مراثي رسول الله ﷺ وبعض الصحابة، أي أنَّ هذا في مرحلة متأخرة من إسلامه، أمَّا في فترة إسلامه الأولى فقد كان معظم شعره دفاعا عن الرَّسول ﷺ وهجاءً للمشركين، وفي هذه المرحلة كان مُؤيَّدا من روح القدس كما جاء ذلك في كثير من الأحاديث الصحيحة، والأصمعي كان يعي ذلك جيِّدا، لذلك استثنى هذه الفترة بقوله (ألا ترى أنَّ حسَّان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام). هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالأصمعي يقول بأنَّ شعر حسان لـمَّا دخل في المراثي وهو باب الخير لان، وهو نفسه يقول: "أحسن أنماط الشعر المراثي والبكاء على الشَّباب."[4]

والأصمعي قد عدَّ حسَّان بن ثابت من الفحول في مرحلة الجاهلية، ثمَّ أخرجه من مصطلح الفحولة عندما لان شعره في إسلامه بسبب معالجته موضوعات الخير. وهو نفسه يُفنِّد هذا الأمر في موقف آخر، فيقول: "حسَّان بن ثابت أحد فحول الشعراء، فقال له أبو حاتم: تأتي له أشعار ليِّنة، فقال الأصمعي: تُنسب إليه أشياء لا تصحُّ عنه."[5]، ثمَّ إنَّ الأصمعي عاب حسَّانا وأخذ عليه لين شعره في الإسلام، وعدَّ ذلك ثلمة في شعره أبعدته من طبقة الفحول، في حين

---

[1] - المرزباني، الموشَّح، ص81.

[2] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص192.

[3] - القرطبي أبو عمر بن عبد البرّ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: عادل مرشد، دار الأعلام، عمَّان، الأردن، ط1، 2002م، ص165-166.

[4] - ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، ج2، ص361.

[5] - القرطبي، المرجع السابق، ص165.

نراه يمتدح شعر النابغة وهو جاهلي بهذه الصفة، ويجعلها من أهمِّ ميزات شعره، "فقد سُئل عن شعر النابغة، فقال: إنْ قلت ألين من الحرير صدقت، وإن قلت أشدّ من الحديد صدقت."[1]

فهذا الموقف المضطرب حقيقة من الأصمعي أسال الكثير من الحبر، واختلفت حوله الآراء قديما وحديثا. ومع هذا فنظرة الأصمعي هذه ليست صريحة في دعواها بفصل الدِّين عن الشعر، "ذلك أنَّ النصوص الصريحة التي نادت بفصل الدِّين عن الشعر انطلقت من موقف دفاعي عن بعض الشعراء، بينما موقف الأصمعي أقرب إلى الدفاع عن نوع من الشعر، كان نتيجة بيئة معينة وزمان محدَّد."[2]، أي أنَّ: "أقدم الشعر وأبعده عن الحضارة هو الشعر الجيِّد الفذ، وهو الذي يُتَّخذ مثلا أعلى يُقاس عليه، وطريق هذا الشعر هو طريق شعراء الجاهلية. والغاية عند الأصمعي من معياري الزمان والمكان هو نقاء اللغة التي يُراد بها فهم القرآن الكريم، أي أنَّ دافعه أصلا هو دافع ديني."[3]

فنصُّ الأصمعي هذا جعل الكثير من الدارسين والنقاد يعتقد جازما أنَّ الأصمعي قد فصل بين الشعر والأخلاق، يقول حسين الجداونه: "تميَّز الأصمعي بين معاصريه بمجموعة من المواقف النقدية التي تُشكِّل بمجملها رؤيته النقدية من أهمِّها: الفصل بين الشعر والأخلاق، وليس أدلَّ على هذا الموقف من قوله:(طريق الشعر... فإن أدخلته في باب الخير لان)."[4]، وبالفعل فالنص يُوحي بذلك، ولا يُمكن فهم إلاَّ هذا المعنى. ولكن إذا ما استعرضنا النقد التطبيقي عند الأصمعي فسنجد مواقف وأقوالا تناقض تماما هذا الرأي؛ فقد عُرف عن الأصمعي أنَّه "كان لا يُنشد ولا يُفسِّر ما كان فيه ذكرُ الأنواء، لقول رسول الله ﷺ : **« إذا ذُكِرَت النُّجومُ فأمْسِكُوا »**، وكان لا يُفسِّر ولا يُنشد شعرا فيه هجاء، وكان لا يُفسِّر شعرا يُوافق تفسيره شيئا من القرآن. وسُئل عن قول الشَّماخ:

طــوى ظِمْأهــا فــي بيضــة القــيظ بعــدما جــرى فــي عِنــان الشِّــعريين الأماعــزُ

فأبى أن يُفسِّر (في عنان الشِّعريين)."[5]، وفي حادثة أخرى مع الشاعر السيِّد الحميري، جاء في الأغاني عن التَّوَّزيِّ قال: "رأى الأصمعيُّ جزءا فيه من شعر السيِّد، فقال: لمن؟ فسترتُه عنه لعلمي بما عنده فيه، فأقسم عليَّ أن أُخبره فأخبرته، فقال: أنشدني قصيدة منه، فأنشدته قصيدة ثمَّ أخرى، وهو يستزيدني، ثمَّ قال: قبَّحه الله ما أسلكه لطريق الفحول! لولا مذهبه ولولا ما في شعره ما قدَّمتُ عليه أحدا من طبقته."[6]

فالأصمعي أُعجب إعجابا شديدا بشعر السيِّد، بل عدَّه من شعر الفحول، ومع ذلك فقد أخَّره في طبقته لما كان منه؛ فهو إباضيُّ المذهب، وكان يهجو أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه. وهذا ما أكَّده صاحب الأغاني في كتابه عندما

---

[1] – ابن عبد ربِّه، العقد الفريد، ج6، ص121.

[2] – الحارثي محمد بن مريسي، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي، ص116.

[3] – يُنظر حمود عباس ثابت، المعيار الأخلاقي في نقد الشعر العربي من ق3هـ حتى نهاية ق7هـ، دار دجلة، بغداد، العراق، ط1، 2011م، ص112.

[4] – الجداونه حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب، ص111.

[5] – المبرِّد، الكامل في اللغة والأدب، ج2، ص342-343.

[6] – الأصفهاني، الأغاني، ج7، ص179.

تناول أخباره، فممَّا قاله فيه: "وكان شاعرا متقدِّما مطبوعا.. وإنَّما مات ذكرُه وهجر النَّاس شعره لما كان يُفرط فيه من سبِّ أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه في شعره ويستعمله من قذفهم والطَّعن عليهم، فتُحُوميَ شعره من هذا الجنس وغيره لذلك... ولولا أنَّ أخباره كلَّها تجري هذا المجرى ولا تخرج عنه لوجب ألاَّ نذكر منها شيئا، ولكنَّا شرطنا أن نأتي بأخبار من نذكره من الشعراء، فلم نجد بُدًّا من ذكْرِ أسْلَمِ ما وجدناه له وأخلاها من سيِّئ اختياره على قلَّة ذلك."[1]

ومن مواقف الأصمعي المضطربة أيضا ما كان منه تُجاه شعر لبيد بن ربيعة، فقد سمع أستاذه أبا عمرو بن العلاء يقول: "ما أحدٌ أحبُّ إليَّ شعرًا من لبيد بن ربيعة، لذكره الله عزَّ وجلَّ، ولإسلامه، ولذكره الدِّين والخير، ولكنَّ شعره رحى بَزْر."[2]، أي أنَّه ذو جعجعة وطنين، وليس وراءه كبير شيء. وهذا الموقف من أبي عمرو أثَّر تأثيرا كبيرًا في نظرة الأصمعي لشعر لبيد، لذا نجده يُساند رأي أستاذه. "قال أبو حاتم: قال لي الأصمعي: شعر لبيد كأنَّه طيلسان طبري، يعني أنَّه جيِّد الصَّنعة وليست له حلاوة. فقلتُ له: أفحلٌ هو؟ قال: ليس بفحل. قال أبو حاتم: وقال لي مرَّة: كان رجلا صالحا؛ كأنَّه ينفي عنه جودة الشعر."[3]

– **ابن سلاَّم الجُمحي (ت232هـ)**: أشار محمد بن سلاَّم الجمحي في كتابه (طبقات فحول الشعراء) إلى وجود اتِّجاهين في الشعر الجاهلي: اتجاه ملتزم، واتجاه متفحِّشٌ؛ فيقول: "فكان من الشعراء مَن يتألَّه في جاهليته، ويتعفَّف في شعره ولا يستبهرُ بالفواحش ولا يتهكَّم في الهجاء".و"منهم من كان ينعى على نفسه ويتعهَّر"، ثمَّ يُمثِّل للاتجاه الفاحش بامرئ القيس في مثل قوله:

ومثلـــك حبلـــى قـــد طرقـــتُ ومرضـــع فألهيتهـــا عـــن ذي تمـــائم محـــول

والأعشى في مثل قوله:

وقـــد أُخـــرجُ الكاعـــب الـــمُسترا ة مـــن خِـــدرها، وأُشـــيعُ القمـــارا

وأمَّا من العصر الإسلامي، فيرى ابن سلاَّم أنَّ الفرزدق هو أفضل مَن يُمثِّل هذا النوع من الشعر، فيقول: "وكان الفرزدق أَقْوَلَ أهل الإسلام في هذا الفنِّ"، ومن قوله:

فـــأبلغهُنَّ وحْـــيَ القـــول عنِّـــي وأدخـــلَ رأســـه تحـــت القِـــرام
فقلـــن لـــه: نُواعـــدك الثُّريَّـــا! وذاك إليـــه مجتمـــع الزِّحـــام
ثـــلاثٌ واثنتـــان، فهُـــنَّ خمـــسٌ وسادســـة تميـــلُ إلـــى الشِّـــمام
فبِـــتْن بجـــانبيَّ مُصـــرَّعات وبـــتُّ أفُـــضُّ أغـــلاق الخِتـــام[4]

---

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج7، ص177.

[2] – المرزباني، الموشَّح، ص84.

[3] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[4] – يُنظر ابن سلاَّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص41 و46.

أمَّا عن الاتجاه الأخلاقي والملتزم، فابن سلاَّم مثَّل له بزهير بن أبي سلمى في الجاهلية: "كان زُهير أحصفهم شعرا، وأبعدهم من سُخْفٍ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق، وأشدَّهم مبالغة في المدح، وأكثرهم أمثالا في شعره"[1]، ومثَّل بجرير في عصر الإسلام، رغم ما كان عليه من فرط الهجاء، فقال عنه: "وكان جرير مع إفراطه في الهجاء يَعِفُّ عن ذكر النساء؛ كان لا يُشبِّب إلاَّ بامرأة يملكها "[2]

ويظهر المعيار الأخلاقي عند ابن سلاَّم كذلك مع شاعر آخر هو الأحوص؛ فقد أخَّره في طبقته لا لشيء إلاَّ لأنَّه كان قليل الدِّين، هجَّاء للنَّاس. "قال الزبير: وجعل محمد بن سلاَّم الأحوص، وابن قيس الرُّقيات، ونُصَيبا، وجميل بن معمر طبقة سادسة من شعراء الإسلام، وجعله بعد ابن قيس، وبعد نُصيب. قال أبو الفرج: والأحوص لولا ما وضع به نفسه من دنيء الأخلاق والأفعال، أشدُّ تقدُّما منهم عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرُّواة، وهو أسمح طبعا، وأسهل كلاما، وأصحُّ معنى منهم، ولشعره رونقٌ، وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة ألفاظ ليست لواحد منهم، وكان قليل المروءة والدِّين، هجَّاء للنَّاس."[3]

ومع هذا كلِّه فابن سلاَّم –كما يرى مصطفى هدَّارة –: "قد وقف من الاتجاهين الأخلاقي وغير الأخلاقي في الشعر موقف المؤرِّخ دون أن يُظهر ميله إلى أيِّ الجانبين، أو يُبيِّن ما الشعر الجيِّد في رأيه بغضِّ النظر عن المعنى الأخلاقي."[4]، فهو لم يضع في اعتباره المقياس الديني والخلقي عند تقسيمه الشعراء إلى طبقات، ودليل ذلك أنَّه وضع شاعرين من الشعراء الذين نعتهم بالتفحُّش والتعهُّر وهما: امرؤ القيس والنابغة الذبياني في الطبقة الأولى من شعراء الجاهليين. فهو لم يُرتِّب الشعراء في طبقاتهم على أيِّ حكم نقدي يتَّخذ من المعيار الديني والخلقي أساسا للمفاضلة بينهم. "إنَّما تقوم أسس المفاضلة عنده، والتي قسَّم الشعراء إلى طبقات طبقا لها على مسائل أخرى لا صلة لها بالأخلاق."[5]

وما يُمكن قوله أنَّ ابن سلاَّم في طبقاته قد وضع منهجا محدَّدا صرَّح به في بداية كتابه قائلا: "ففصَّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين، الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزَّلناهم منازلهم، واحتججنا لكلِّ شاعر بما وجدنا له من حجَّة، وما قال فيه العلماء."[6]، ومن أجل أن يُنزل ابن سلاَّم كلَّ شاعر منزلته التي يستحقُّها في طبقاته، فقد وضع مقاييس ومعايير تُساعده على ذلك، من أبرزها:

– الزمان (القِدَم والحداثة): جاهلي، إسلامي، مخضرم.

---

[1] – ابن سلاَّم الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص64.

[2] – المرجع نفسه، ج1، ص46.

[3] – الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص165.

[4] – هدَّارة محمد مصطفى، الشعر والنقد الأخلاقي، ص239.

[5] – الربيعي محمود، في نقد الشعر، دار غريب، القاهرة، ص57.

[6] – ابن سلاَّم الجمحي، المرجع السابق، ج1، ص23-24.

– **الكمُّ والجودة**: فكثرة شعر الشاعر، وجودة شعره كانت من أهمِّ مقاييسه.

– **تعدُّد الأغراض**: قدرة الشاعر على التصرُّف في أغراض الشعر المختلفة(رثاء، مديح، هجاء، وصف، نسيب، مجون..) كانت كذلك معيارا مهما عند ابن سلاَّم.

– **المكان**: حيث أفرد ابن سلاَّم شعراء القرى في طبقات ولم يُدخلهم في طبقات شعراء البادية.

– **الدِّين(إسلامي، يهودي)**: حيث أفرد طبقة خاصة باليهود.[1]

وما نستخلصه أنَّ ابن سلاَّم لم يحفل كثيرا في مواقفه وأحكامه النقدية بالنقد الفنيِّ أو النقد الخلقي، وما كان منه جاء عرضا دون قصْدٍ، "فالمنهج العام الذي يندرج تحته هذا الكتاب هو المنهج التاريخي، ويبدو ذلك واضحا من خلال التأريخ لشعراء الطبقات، وذلك حين يُسجِّل الوقائع الخاصة بهم، والظروف المؤثِّرة فيهم."[2]

– **أبو منصور الثعالبي (ت429هـ)**: وهو من النقاد الذين وقفوا موقفا وسطا بين الفريقين في هذه القضية، وحاول التوفيق بينهما؛ فهو أولا يأتي بكلام القاضي الجرجاني في هذه المسألة ثمَّ يُعقِّب عليه، فيقول: "على أنَّ الديانة ليست عيارا على الشعراء، ولا سوء الاعتقاد سببا لتأخُّر الشاعر، ولكنْ للإسلام حقُّه من الإجلال الذي لا يسوغ الإخلال به قولا وفعلا، ونظما ونثرا، ومن استهان بأمره، ولم يضع ذكره وذكر ما يتعلَّق به في موضع استحقاقه، فقد باء بغضب من الله تعالى، وتعرَّض لمقته في وقته."[3]

فالثعالبي أولا يتَّفق مع الجرجاني في مسألة فصل الدِّين عن الشعر، وهذا واضح في بداية كلامه، ولكنَّه يُنبِّه ويُحذِّر من الخوض في أمور الدِّين بشيء من الازدراء والاستهزاء، فللإسلام حقُّه وحرمته التي يجب صونها وإجلالها. ولهذا نجده يستهجن بعض الأشعار التي كانت من هذا القبيل، وخاصة من المتنبي الذي أفرد له فصلا كاملا في كتابه (يتيمة الدَّهر)، فيقول: "وكثيرا ما قرع المتنبي هذا الباب بمثل قوله:

تتقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذي الأفلاك فيه والدُّنا

وقد أفرط جدًّا؛ لأنَّ الذي الأفلاك فيه والدُّنا هو علم الله عزَّ وجلَّ. وقوله:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شموسا

أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى

أو كان لجُّ البحر مثل يمينه ما انشقَّ حتَّى جاز فيه موسى

وعازر: اسم الرجل الذي أحياه المسيح **عليه السَّلام**، بإذن الله عزَّ وجلَّ، وكأنَّ المعاني أعيته حتَّى التجأ إلى استصغار أمور الأنبياء. وقوله، وقد جاز حدَّ الإساءة:

---

[1] – للتوسُّع يُنظر المجالي جهاد، طبقات فحول الشعراء في النقد الأدبي عند العرب، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص 105 وما بعدها.

[2] – عثمان عمر، معايير النقد الأدبي عند العرب واليونان، ص70.

[3] – الثعالبي أبو منصور عبد الملك بن محمد، يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ج1، ص140.

أيُّ محـــــــــــلٍّ أرتقـــــــــــي؟! أيُّ عظـــــــــــيم أتَّقـــــــــــي؟!
وكـــلُّ مـــا قـــد خلـــق اللَّـــــــــه ومـــا لـــم يخلـــق
محتقـــــرٌ فـــــي همَّتـــــي كشـــــعرة فـــــي مفرقـــــي

ثمَّ يُعقِّب أخيرًا على هذه الأبيات وغيرها للمتنبي، قائلا: وقبيح بمن أوَّله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بينهما حامل بول وعذرة، أن يقول مثل هذا الكلام الذي لا تسعه معذرة."[1]

فالثعالبي رغم أنه يفصل بين الدِّين والشعر، ولا يرى بأن يكون المعتقد سببًا لتقدُّم الشاعر أو تأخُّره، إلاَّ أنَّه لا يقبل أن تُنتهك حرمات الدِّين ويُستهزأ بقيم الإسلام ورموزه. ولذا نرى أنَّ موقف الثعالبي كان توفيقيا بين الفريقين؛ الأول الذي يُؤكِّد علاقة الدِّين والخلق بالشعر ويُوجب اعتبارها، والثاني الذي يرى بفصل الدِّين والخلق عن الشعر. وهذا ما ذهب إليه إحسان عباس حين يقول: "إلاَّ أنَّه -أي (الثعالبي)- عدَّل في هذا الحكم الذي كان القاضي(الجرجاني) قد أطلقه دون تحديد، فدلَّ على أنَّه يُحاول أن يجعل للدِّين تدخُّلًا في المقياس الأدبي."[2]

كما يُمكن أن نستخلص أيضا ما توصَّلت إليه نجوى صابر، بقولها: "إذن فقد عمل الثعالبي على تقييد ما أطلقه الجرجاني، وقد أعطى الإسلام حقَّه من الإجلال، ولم يُغمط الشِّعر حقَّه أيضا."[3]، فالثعالبي لم يُغمط شعر المتنبي حقَّه، وقد أكَّد على هذا في بداية الفصل الذي خصَّصه للمتنبي، حيث قال: "وأنا موردٌ في هذا الباب ذكر محاسنه ومقابحه، وما يُرتضى وما يُستهجن من مذاهبه في الشعر وطرائقه، وتفصيل الكلام في نقد شعره، والتنبيه على عيونه وعيوبه، والإشارة إلى غرره وعرره، وترتيب المختار من قلائده وبدائعه."[4]

وفي كتابه (خاص الخاص) نعثر على مقولة ذكرها الثَّعالبي على لسان أحد القائلين في شأن حسان بن ثابت؛ وهذه المقولة تتفق إلى حدٍّ كبير مع مقولة الأصمعي، حيث جاء فيها: "من عجائب أمر حسَّان، إنَّه كان ﷺ يقول الشعر في الجاهلية فيُجيد جدًّا، ويغبر في نواصي الفحول، ويدَّعي أنَّ له شيطانا يقول الشعر على لسانه كعادة الشعراء في ذلك...فلمَّا أدرك الإسلام وتبدَّل الشيطان الملك، تراجع شعره، وكاد يركُّ قوله ليعلم أنَّ الشيطان أصلح للشاعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك."[5]، ورغم أنَّ القول ليس له، إلاَّ أنَّه يبدو جليًّا اقتناعه به؛ وذلك لأنَّه أورد هذا الكلام في معرض حديثه عن حسان بن ثابت ﷺ وشعره، ولم يُفنِّده، بل ذكره دون تعليق.

---

[1] – يُنظر الثعالبي، يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر، ج1، ص210-211.

[2] – عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص368.

[3] – صابر نجوى، النقد الأخلاقي أصوله وتطبيقاته، ص42.

[4] – الثعالبي، المرجع السابق، ج1، 140.

[5] – الثعالبي أبو منصور بن محمد، خاص الخاص، تح: مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، ص149-150.

وخلاصة ما ذكرت أنَّ الثعالبي قد وقف من قضية الشعر والأخلاق موقفا وسطا، حاول فيه التوفيق بين الفريقين، إلاَّ أنَّ ذلك لم يشفع له عند صاحب الذخيرة؛ فقد لامه أشدَّ اللوم، وأخذ عليه روايته لبعض الشعر السَّفيه، فقال: "فإنَّ أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه وَسْمُه، وبقي عليه إثْمُه."[1]

[1] – ابن بسَّام الشنتريني، الذخيرة، ق1، مج1، ص546.

البـــاب الثانـــي

الاتجـاه الأخـلاقـــي

في النقد المغربي القديم

مدخـل:

إذا كان العصر العباسي وخاصة الأول منه العصر الذهبي بالنسبة للمشرق العربي حضاريا وثقافيا وأدبيا، فإنَّ العصر الذهبي لبلاد المغرب العربي بعد الفتح الإسلامي هو العصر الصنهاجي الذي كان بحقٍّ عصر الحضارة والثروة والعلم ومختلف الفنون الجميلة. ففي هذا العصر "زها الأدب وسار الشعر في مدارج الرقيِّ وراجت سوق الأفكار رواجا عظيما. وقد ساعد على ذلك إقبال الصنهاجيين على العلم والأدب، وأخذهم بيد العلماء والأدباء رغبة منهم في بثِّ المعارف وتقديرا لأصحاب المواهب. فكان المعزُّ بن باديس –وقد حكم أكثر من أربعين سنة– لا يسمع بعالم جليل أو شاعر عظيم إلاَّ أحضره إلى حضرته وجعله من خاصَّته، حتَّى سار بذكره الرُّكبان وانتجعه العلماء والأدباء من كلِّ مكان، وقد بالغ في إكرامهم وعوَّل على آرائهم، ومنحهم أسمى المراتب وأعلى الرواتب ولا عجب."[1]

ففي عهد الدولة الصنهاجية شهدت الحياة تطوُّرا وانتعاشا لم تعرفه من قبل، فازدهرت الحضارة، واستحكم العمران، وتوطَّدت الصِّلة بين المغرب والمشرق من جهة، والمغرب والأندلس من جهة أخرى، وهذا بفضل الاستقرار النسبي الذي شهدته الحياة العامة في هذه الحقبة. ونتيجة لذلك برز الكثير من العلماء في شتىَّ العلوم والفنون، ونبغ من الأدباء والشعراء والكُتَّاب والنقاد العدد الكثير، كانت لهم إسهامات كبيرة ودور هام في إثراء الحياة الأدبية والفكرية والنقدية في هذه الربوع، يقول بشير خلدون: "أمَّا الشعراء والأدباء الذين ظهروا خلال العهد الصنهاجي فكثيرون جدًّا ممَّن لم يظفر بمثلهم أيُّ عهد سابق أو لاحق في بلاد المغرب، وقد قُدِّر لهؤلاء جميعًا أن يعيشوا في القيروان أو يكونوا على اتِّصال مستمرٍّ بها، قادمين من المراكز الأخرى القريبة أو البعيدة، ليستقرُّوا ولو بعض الوقت في بلاد المعزِّ بن باديس وابنه تميم."[2]

ويذكر بشير خلدون جملة من الأسماء اللَّامعة في سماء القيروان من أدباء وشعراء، استقاها من بعض كتب التراجم الأدبية، من مثل ابن عبدون الورَّاق، وابن الرقيق القيرواني، وإبراهيم بن السوس، وإسحاق بن إبراهيم... وغيرهم كثير، لكنَّه يُخصِّص خمسة منهم، يراهم من أبرز الشخصيات الأدبية في عهد الصنهاجيين، لأنَّ شهرتهم تجاوزت الآفاق أكثر من غيرهم بفضل أشعارهم، وتأليفاتهم الأدبية والنقدية، وهم:

– **إبراهيم بن علي بن تميم الحُصْري**: وكان أديبًا لغويًّا وشاعرًا نقَّادة، اشتهر بتصانيفه العديدة، ومن أهمِّها وأشهرها كتابه (زهر الآداب وثمر الألباب).

– **أبو عبد الله محمد بن جعفر القزَّاز**: وكان هو الآخر لغويًّا بارعًا، وشاعرًا مطبوعًا، اشتهر بكتابه (الضَّرائر الشعرية) الذي عالج فيه قضايا لغوية لها اتِّصال بالنقد.

– **عبد الكريم النَّهشلي**: وكان أديبًا ذوَّاقة، وشاعرًا مُجيدًا، وناقدًا فذًّا، اشتهر بكتابه (الممتع في علم الشعر).

---

[1] – قلقيلة عبده عبد العزيز، النقد الأدبي في المغرب العربي، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط2، 1988م، ج1، ص40.

[2] – خلدون بشير، الحركة النقدية على أيَّام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الرغاية، الجزائر، دط، 1981م، ص23.

– **أبو علي الحسن بن رشيق**: وقد كان من أشهر شعراء عصره وأدبائهم، تفوَّق في النقد خاصَّة، وألَّف فيه كُتبًا كثيرة، من أهمِّها كتاب (العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، و(قراضة الذَّهب في نقد أشعار العرب)، و(أنموذج الزَّمان في شعراء القيروان).

– **أبو عبد الله محمد بن شرف**: ويُعتبر ثالث رجل في النقد بالقيروان، بعد النَّهشلي وابن رشيق، اشتهر برسالته (رسائل الانتقاد)، وهي مقامة عن الشعراء.[1]

وما تُؤكِّده جميع الدّراسات أنَّ الحركة النقدية التي ظهرت في ربوع المغرب العربي خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين كانت على أيدي هؤلاء النقاد الخمسة، فهم المؤسِّسون الأوائل للنقد المغربي القديم. وعليه كان من المفترض أن تشمل الدراسة جميع هؤلاء النقاد، لكنِّي تناولت ثلاثة منهم فقط، وهم: النَّهشلي وابن رشيق وابن شرف، وذلك لأنَّ هؤلاء النقاد هم من تجلَّى النقد الخلقي في مؤلَّفاتهم المذكورة، وبقدر يسمح تناوله في رسالة أو بحث مستقلٍّ، بينما الناقدان الآخران، فأحدهما وهو القزَّاز فكتابه (الضَّرائر الشعرية) لا علاقة له بالنقد الأخلاقي، فالقضايا المطروحة فيه قضايا لغوية وعروضية تتعلَّق بالضرورات الشعرية وما يجوز للشاعر. وأمَّا الحُصْري، صاحب زهر الآداب وجمع الجواهر والمصون ونور الطَّرف، وإن كان قد صال وجال في مجال الأدب نثرًا وشعرًا، خاصَّة في كتاب زهر الآداب، وتناول فيه بعض القضايا النقدية، إلَّا أنَّه صرَّح في أكثر من مرَّة عن تحرُّجه من ذكر أخبار المُجَّان والخُلعاء وأشعارهم صونًا لكتبه، والتزامًا منه بمنهج ديني وأخلاقي يكفُّه عن ذلك. وهذا دون شكٍّ دليل قويٌّ على التزام الحصري المنهج الخلقي ليس في الأدب والنقد فحسب، بل في التأليف والكتابة أيضًا. جاء في مقدّمة زهر الآداب من كلام المحقِّق: "وقد جرى أبو إسحاق الحُصْري في زهر الآداب على إغفال المجون، فنجده يقول عن راشد بن أرشد: وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره، وصُنتُ الكتاب عن ذكره."[2]، ويُعلِّق الدكتور زكي مبارك على منهج الحصري في كتابه، قائلا: "وقد صرَّحتُ بإنكار هذا المنهج في (مدامع العُشاق)، وبيَّنتُ هناك أنَّ حرص الحصري على الأخلاق ضيَّع علينا ما أعرض عنه من الآثار الأدبية، وكُنَّا في حاجة إلى أن نعرف كلَّ ما ترك الأوَّلون."[3]

وأمَّا في كتابه (جمع الجواهر في المُلَح والنَّوادر)، ويُسمَّى أيضًا (ذيل زهر الآداب)، فنجده في خطبة الكتاب، وفي معرض بيان منهجه في التدوين يقول صراحة: "وقد تجنَّبتُ أن أُهدِي إليك، وأُورد عليك ما يخرج به قائله في الدِّين عن اتِّباع سبيل المؤمنين، فمن أهل الإلحاد والأهواء، من يسر حسوًا في ارتغاء، ويطلب ما يشفى به من دائه، ويضحك خاصة أودّائه، ويُغرُّ به من ضعفت نحيزته، وهفت غريزته، بألطف ما يُمكنه، كمون الأفعوان في أصول الريحان، إذا قابله بشمِّه، قتله بسُمِّه. كما حكى الجاحظ عن الشرقي بن القطامي أنَّ ابن أبي عتيق لقي عائشة رضي الله عنها على بغلة.

---

[1] – يُنظر خلدون بشير، الحركة النقدية على أيَّام ابن رشيق المسيلي، ص23–25.

[2] – الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ج1، مقدِّمة المحقّق، ص17.

[3] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

فقال: إلى أين يا أمَّاه؟ فقالت له: أُصلح بين حيين تقاتلا، فقال: عزمتُ عليك إلَّا ما رجعتِ، فما غسلنا أيدينا من يوم الجمل حتَّى نرجع إلى يوم البغلة."[1]

ويُعلِّل الحصري سبب عزوفه عن تدوين مثل هذه الأخبار، وإن كانت بعيدة عن الهجاء والفحش والمجون، فيقول: "وهذه حكاية أوردها الشرقي لغلِّه ودغله على وجه النَّادرة؛ لتُحفَظ ويُضحك منها، ويتعلَّق بها من ضعف عمله، وقلَّ عزمه؛ فيكون ذلك أنجع وأنفع لما أراد من التعرُّض لعِرضِ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها. ومثل هذا كثير ممَّا لو ذكرته لدخلتُ فيما أنكرته. فقد قيل: الرَّاويةُ أحد الشاتمين، كما قيل السَّامعُ أحد القائلين."[2]

ولا يكتفي الحصري بهذا، بل يأخذ باللَّائمة على أولئك العلماء والنقاد الذين تساهلوا في هذا الجانب، فها هو يشنُّ هجومًا على ابن قتيبة، جاء فيه: "وقد رام ابن قتيبة تسهيل السبيل في مثل هذا، فقال: مهما مرَّ بك من كلام تنفر عنه نفسك، فى تُعرض عنه بوجهك، فالقول منسوب إلى قائله، والفعل عائد إلى فاعله. قلتُ: وليت شعري ما اللَّذة فيما يضحك منه مَن هو مُعرض عنه، إلَّا أن يدخل في حدِّ المستهزئين، وحيِّز المتلاعبين. نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر."[3]

ويبدو أنَّ الحصري لا يأخذ برأي ابن قتيبة وغيره كثير من العلماء والنقاد، الذين لا يرون حرجا في رواية شعر المجون واللَّهو، أو حتَّى الشعر الذي ينطق بالكفر والإلحاد والزندقة، وهم يرون أنَّ ناقل الكفر ليس بكافر، كما أنَّ ناقل وراوي شعر المجون ليس بماجن. ولكنَّ الحصري لا يطمئنُّ إلى هذا الرأي، ويرى أنَّه من الأسلم والأحوط تجنُّبه وعدم روايته أو كتابته، حتَّى لا يُؤثم على ذلك، ما دام أنَّ الرَّاوية أحد الشَّاتمين، والسَّامع أحد القائلين.

ويستأنس الحصري بمقولة للجمَّاز، هذا الشاعر الذي "أنشده أبو نواس شعرًا من أعابيثه ومجونه كفرٌ فيه، وقال للجمَّاز: أين أنت من أهل الطراز؟ قال: أنا لا أتعرَّض لمن أعضائي جنده يُحرِّك عليَّ منها ساكنًا أو يُسكن متحرِّكًا، فأهلك. ثمَّ يُثني على الجمَّاز قائلا: وقد اطَّرد الجمَّاز أصله في التحرُّز ممَّا تعلق عليه من شناعة، أو تلزمه فيه بباعة، فقال يمدح:

أقـــــولُ بيتًـــــا واحِـــــدًا أكْتَفـــــي ... بِـــــــذكْرِهِ مِـــــــنْ دُونِ أبيـــــــاتِ

إنَّ علـــــيَّ بـــــنَ أبـــــي جَعفَـــــر ... أكـــــرمُ أهْـــــلِ الأرضِ مِـــــنْ آتِ

فقد سلم ممَّا كاد يقع فيه أبو الخطَّاب عمرو بن عامر السَّعدي، وقد أنشد موسى الهادي:

يـــا خَيْـــرَ مَـــنْ عقـــدَتْ كفَّـــاه حجزتـــه ... وخَيْـــرَ مَـــن قَلَّدتْـــه أمْرَهـــا مُضَـــرُ

---

[1] – الحصري، جمع الجواهر في الملح والنَّوادر، ص15-16.

[2] – المرجع نفسه، ص16.

[3] – نفسه، ص16-17.

فانقلبت عيناه في رأسه، واحمرَّ وجهه، وقال: إلَّا مَنْ؟ ويحك! ولم يكن أبو الخطَّاب استثنى أحدًا، وإنَّما جرى على مذهب الشعراء في تفضيل الممدوح على أهل العصر؛ فلمَّا رأى ما بوجه الهادي من إرادة الإيقاع به، قال ارتجالًا:

إلَّا النَّبِـــــيَّ رسُـــــولَ الله إنَّ لَـــــهُ فَخْـــرًا وأنـــتَ بِـــذاكَ الفَخْـــرِ تَفْتَخِـــرُ

فسُرِّي عنه ووصله."[1]، ويبدو أنَّ الحصري يُريد أن يصل بنا إلى أنَّه يوجد شعراء ماجنون وعابثون أمثال أبي نواس، وعلماء تساهلوا معهم وتغاضوا عن مجونهم وفسقهم وعبثهم، ويوجد أيضًا شعراء وقَّافون عند حدود الله لا يقولون إلَّا حقًّا وصدقًا، ويترفَّعون عن شعر الهجاء والمجون أمثال الجمَّاز، حيث يذكر له صدقه وتحرُّزه في مدحه؛ وبهذا سلم ممَّا كاد أن يقع فيه الشاعر أبو الخطَّاب، لأنَّه غالى في مدحه وتجاوز، ممَّا جعل الخليفة موسى الهادي يغضب ويثور في وجهه، إلَّا أنَّ فطنته وحكمته أسعفته ببيت أصلح فيه ما أفسده في بيته الأوَّل.

والحصري بمنهجه هذا قد أغلق على نفسه وعلينا الحديث عن النقد الخلقي والدِّيني، وهذا ما يُفسِّر قلَّة النُّقُود ذات الاتِّجاه الأخلاقي والدِّيني في كتبه. وما يُدلِّل على ذلك ما كان من محمد مرتاض، سواء في كتابه الأوَّل (النقد الأدبي القديم في بلاد المغرب)، أو في طبعته الثانية بعنوان (النقد الأدبي في المغرب العربي بين القديم والحديث) حين تعرَّض للنقد الخلقي يقف عند النَّهشلي وابن رشيق وابن شرف والقاضي عياض فقط، ولا نجد للحُصْري ذكرًا في مبحث النقد الخلقي. أمَّا بشير خلدون فيُشير أوَّلا إلى أنَّ كتاب زهر الآداب ليس من الكتب النقدية، وإنَّما هو واحدٌ من الكتب الأدبية العامة التي ظهرت في القرن الرابع، يُشبه في طريقته الأمالي والبيان والتبيين وعيون الأخبار والكامل. ويُشير أيضًا إلى أنَّ حظَّ الحصري من النقد كان قليلا، حيث تتخلَّل هذه الأخبار وقفات نقدية لا بأس بها تُشكِّل في مجموعها ثقافة الحصري النقدية.[2]

لهذا كلِّه استقرَّ الأمر في الدراسة على النقاد الثلاثة المتبقين: النَّهشلي وابن رشيق وابن شرف. أمَّا القاضي عياض وإن كان زيادة على كونه عالمًا فقيهًا، فهو ناقد أيضًا، وما كتابه (بغية الرَّائد فيما تضمَّنه حديث أمِّ زرع من الفوائد) إلَّا دليل على ذلك. لكنَّ الكتاب يتناول فقط التَّفسير اللغوي والبلاغي لحديث أمِّ زرع، أمَّا النقد الخلقي عند القاضي عياض فنجده تحديدًا في كتاب (الشِّفا بتعريف حقوق المصطفىﷺ)؛ فمن منطلق ديني وخلقي يرفض القاضي عياض بعض الأبيات التي تتنافى مع قيم الدِّين، أو يرى فيها سوء أدب مع النَّبيِّ ﷺ أو غيره من الأنبياء عليهم أفضل الصَّلاة وأزكى التَّسليم، ومن ذلك بيت المتنبي الذي قال فيه، مفتخرًا بنفسه:

أَنَـــا فِـــي أُمَّـــةٍ تَـــدَارَكَهَا اللَّـــــ ـــــهُ غَرِيـــبٌ كَصَـــالِحٍ فِـــي ثَمُـــود

فيصف هذا البيت وما شابهه من أشعار المتعجرفين في القول، المتساهلين في الكلام. كقول المعرِّيّ:

كُنْـــتَ مُوسَـــى وَافَتْـــهُ بِنْـــتُ شُـــعَيْبٍ غَيْـــرَ أنْ لَـــيسَ فِيكُمَـــا مِـــنْ فَقِيـــرِ

---

[1] – الحصري، جمع الجواهر في الملح والنَّوادر، ص17.

[2] – يُنظر خلدون بشير، الحركة النقدية على أيَّام ابن رشيق المسيلي، ص87.

ويذكر عياضٌ أنَّ آخرَ البيت شديد عند تدبُّره، وداخِلٌ في باب الإزراء والتَّحقير بالنبيِّ ﷺ، وتفضيل حال غيره عليه. وكذلك قوله:

لَـــوْلا انقِطَـــاعُ الـــوَحْي بَعْـــدَ مُحَمَّـــدٍ قُلْنَـــا: مُحَمَّـــدٌ مِـــنْ أَبِيـــه بَـــدِيلُ

هُـــو مِثْلُـــه فـــي الفَضْـــلِ إلَّا أَنَّـــه لَـــمْ يَأْتِـــه بِرِسَـــالَةٍ جِبْرِيـــلُ

ويقول: فصدر البيت الثاني من هذا الفصل شديدٌ لتشبيهه غير النَّبيِّ ﷺ في فضله بالنَّبيِّ. وكقول حسَّان المصِّيصي– من شعراء الأندلس– في محمَّد بن عبَّاد المعروف بالمعتمد، ووزيره أبي بكر بن زيدون:

كَـــأَنَّ أَبَـــا بَكْـــرٍ أَبُـــو بَكْـــرِ الرِّضَـــا وَحَسَّـــانَ حَسَّـــانُ وأَنْـــتَ مُحَمَّـــدُ

ويختم القاضي عياض موقفه النقدي من مثل هذه الأبيات التي يظهر فيها استخفاف وانتقاص واضح من قدر النبيِّ ﷺ أو بغيره من رموز الدّين، بقوله: إلى أمثال هذا، وإنَّما كثَّرنا بشاهدها مع استثقالنا حكايتها لتعريف أمثلتها، ولتساهل كثير من النَّاس في وُلوج هذا الباب الضَّنك واستخفافهم فادِحَ هذا العبء، وقلَّة علمهم بعظيم ما فيه من الوزر، وكلامهم منه بما ليس لهم به علم ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[1]، لاسيما الشعراء. وأشدُّهم فيه تصريحًا، وللسانه تسريحًا ابن هانئ الأندلسي، وابن سليمان المعرِّيِّ، بل قد خرج كثيرٌ من كلامهما إلى حدِّ الاستخفاف والنَّقص وصريح الكفر.[2]

فالقاضي عياض وهو الفقيه والقاضي والعالم المبجَّل، يرى وجوب تقييم العمل الأدبي بمعيار ديني وأخلاقي، فما وافق الدِّين والأخلاق فهو مقبول، وما خالفهما فهو مرفوض، ولا يتردَّد أو يتحرَّج من إسقاط بيت يأباه الدِّين والخلق ولو كان بيت الأبيات، جاء في كتابه (ترتيب المدارك) قوله: "وبَعْدَ هذا بيت قبيح تركناه لفحشه ورفثه، وإنْ كان بيت الأبيات الثلاثة في بابه."[3]، ثمَّ يُبيِّن القاضي عياض أنَّه ليس بدعًا في موقفه هذا تُجاه أمثال هؤلاء الشعراء المتعجرفين والمستهترين، فيقول: "ولم يزل المتقدِّمون يُنكرون مثل هذا ممَّن جاء به، وقد أنكر الرَّشيد على أبي نُواس قوله:

فَـــإنْ يَـــكُ بَـــاقِي سِـــحْر فِرعَـــوْنَ فِـــيكُمُ فـــإنَّ عَصَـــا مُوسَـــى بِكَـــفٍّ خَصِـــيبِ

وقال له: يا بْنَ اللَّخْنَاء، أنت المستهزئ بعصا موسى عليه السَّلام! وأمر بإخراجه عن عسكره من ليلته. ثمَّ يقول عياض: وذكر القُتَبِيُّ أنَّ ممَّا أُخِذَ عليه أيضًا وكُفِّر فيه أو قَارَبَ، قوله في محمد الأمين وتشبيهه إيَّاه بالنَّبيِّ ﷺ، حيث قال:

تَنَـــازَعَ الأَحْمَـــدَانِ الشِّـــبْهَ فاشْـــتَبَهَا خَلْقًـــا وخُلْقًـــا كَمَـــا قُـــدَّ الشِّـــرَاكَانِ

---

[1] – سورة النور، الآية 15.

[2] – يُنظر القاضي عياض أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، الشِّفا بتعريف حقوق المصطفىﷺ، منشورات وحدة البحوث والدراسات بجائزة دبي للقرآن الكريم، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2013م، ص795-796.

[3] – القاضي عياض أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ج1، 184.

وقد أنكروا عليه أيضًا قوله:

كَيْـــــفَ لَا يُـــــدْنِيكَ مِـــــنْ أَمَـــــلٍ مَـــــنْ رَسُـــــولُ اللهِ مِـــــنْ نَفَـــــرِهِ

لأنَّ حقَّ الرَّسول عليه السَّلام ومُوجبَ تعظيمه، وإنافة منزلته أن يُضاف إليه، ولا يُضاف."[1]

فهذه هي الأبيات التي وقف عندها القاضي عياض، واحتكم فيها إلى المعيار الدِّيني والخلقي، وهي وإن كانت قليلة العدد إلَّا أنَّها تعكس رؤية عياض لعلاقة الشعر بالدِّين والأخلاق، فيرى أنَّ الشعر المقبول والحسن هو الذي يلتزم بقيم الدِّين والأخلاق، ولا يتجاوز حدودهما، وخاصَّة إذا تعلَّق الأمر بثوابت الدِّين وأركانه، ولهذا فالشعر يجب أن يكون تابعًا للدِّين والأخلاق وفي خدمتهما؛ يحتكم لحكمهما وينصاع لأمرهما.

لقد كان من الضروري أن أقف عند هذه النقاط في هذا المدخل، مُوضِّحًا سبب اقتصار الدراسة على النقاد الثلاثة المذكورين آنفًا: النَّهشلي وابن رشيق وابن شرف، لنكون على بيِّنة من الأمر، فهم النقاد المؤسِّسون للنقد المغربي القديم، وهم الذين تناولوا الاتجاه الأخلاقي في النقد في كثير من القضايا، دون غيرهم ممَّن أتوا بعدهم.

والذي يعنينا بعد كلِّ هذا، رصد ما أمكن من آراء ومواقف لهؤلاء النقاد ذات الملامح الدِّينية والأخلاقية، حتَّى نقف على حقيقة هذا الاتجاه النقدي ومكانته في النقد المغربي القديم. مازجًا بين الجانب النظري والتطبيقي لتحاشي التَّكرار من جهة، وليكون التطبيق توضيحًا وتوكيدًا للجانب النظري.

[1] – القاضي عياض، الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى، ص797-798.

الفصـــل الأول

الاتجـاه الأخـلاقـي فـي النـقـد عنـد عبـد الكريـم النّهشـلـي

التعريف بالناقد عبد الكريم النهشلي:

هو أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي التميمي، "وُلد في المحمدية (المسيلة)، وقضى أيَّام شبابه وتلقَّى مبادئ الدِّين وعلوم اللغة العربية وآدابها بها، ثمَّ تاقت نفسه للمزيد من الدراسة والتخصُّص، فرحل إلى القيروان وكانت آنذاك حاضرة العلم والثقافة والأدب والسياسة، فلقي ترحيبا من شيوخها وأمرائها، وبسرعة بدا نجمه يلمع في الشعر والأدب والنقد؛ فقد قال في مختلف الأغراض الشعرية: في الوصف، والرثاء، والمدح، والغزل، والتغني بالوطن. ترك آثارا كثيرة، لكنَّها ضاعت مع جملة ما ضاع، ولم يسلم له منها سوى كتابه (الممتع)."[1]

وقال عنه صاحب الوافي بالوفيات: "كان شاعرا، مُقدَّما، عارفا باللغة، خبيرا بأيَّام العرب وأشعارها، بصيرا بوقائعها وآثارها."[2]، وهذا ما أهَّله لأن تكون له مكانة مرموقة في الدولة؛ حيث "كتب النهشلي للمعزِّ لدِّين الله الفاطمي على عهد الدولة العبيدية، وظلَّ كاتبا في ديوان الرسائل على عهد خلفائهم الصَّنهاجيين، ونال حظوة لديهم، لِمَا يتمتَّع به من شهرة واسعة وعلم غزير وسلطة أدبية في زمانه."[3]. أمَّا تلميذه ابن رشيق فقد ذكره في كتابه (أنموذج الزمان)، وأورد بعض أخباره وأشعاره الجيِّدة المنتقاة، ومن ذلك شعره في الشكوى والغربة:

أواجـــــدة وجـــــدي حمامـــــة أيْكـــــةٍ تميـــــل بمـــــا ميـــــل النَّزيـــــف غصـــــونُها
أعيـــــدي حمامـــــات اللّـــــوى إنَّ عنـــــدنا لشـــــجوك أمثـــــالا يعـــــود حنينُهـــــا
وكـــــلُّ غريـــــب الـــــدَّار يـــــدعو همومـــــه غرائـــــب محســـــود عليهـــــا شـــــجونُها[4]

ومنه، وأغرب في الانتقال إلى المدح:

يشـــــكو هـــــواك إلـــــى الـــــدموع مُتـــــيَّمٌ لـــــم يبـــــق فيـــــه للعـــــزاء نســـــيس
لـــــولا الـــــدُّموع تحرَّقـــــت مـــــن شـــــوقه يـــــوم الـــــوداع قبـــــابُكم والعِـــــيسُ
دَرَكُ الزَّمـــــان وحبُّـــــك ابنـــــة مالـــــكٍ فـــــي الصَّـــــدر لا خَلَـــــقٌ ولا مـــــدروسُ
فكأنَّـــــه مـــــا شـــــاده المنصـــــورُ مـــــن رُتَـــــب العلـــــى واختـــــاره بـــــاديسُ[5]

---

[1] – يُنظر خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، التهميش رقم1، ص55.

[2] – الصَّفدي صلاح الدِّين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ج19، ص51.

[3] – يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، ط1، 1986م، التهميش رقم1، ص79.

[4] – ابن رشيق أبو علي الحسن القيرواني، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، تونس والجزائر، ط1، 1986م، ص176.

[5] – المصدر نفسه، ص176. والنَّسيس: بقية الروح.

ويقول الصَّفدي مُعلِّقا، بعد أن ذكر نُتفا من أشعاره: ".. ولم يهجُ أحدا قطُّ. وشعره كثير وجيِّد، وساق منه ابن رشيق في الأنموذج قطعا كثيرة."[1]

أمَّا المنجي الكعبي محقِّق كتاب (الممتع)، وصاحب كتاب(عبد الكريم النهشلي القيرواني، حياته وآثاره)، فقد تمكَّن من جمع قطع شعرية أخرى للنهشلي لم تكن معروفة من قبل، وفي ذلك يقول: "استطعت أن أجمع من المصادر المختلفة التي رجعت إليها ستَّ عشرة قطعة شعرية لعبد الكريم النَّهشلي، لم يكن معروفا منها لدى الباحثين المحدثين سوى سبع قطع. وأطول المقطوعات التي وجدتها له تبلغ ثمانية عشر بيتا، وهو قدْرٌ قليل جدًّا بالقياس إلى شهرة الشاعر."[2]

ومن المقاطع الرائعة في الوصف، والتي اعتبرها الكعبي "من أفضل ما يختاره النقاد في وصف البِرَك، ويُذكِّرنا بأبيات البحتري المشهورة، قوله:

يـــا مَـــن رأى البِركـــة الحســـناء رُؤيتهـــا والآنســـات وقـــد لاحـــت مغانيهـــا

تنصـــبُّ فيهـــا وفـــود المـــاء مُعْجلـــةً كالخيـــل خارجـــةً مـــن حبْـــلِ مُجريهـــا

كأنَّمـــا الفضَّـــةُ البيضـــاءُ ســـائلةً مـــن السَّـــبائك تجـــري فـــي مجاريهـــا

وإذا علتْهـــا الصَّـــبا أبـــدتْ لهـــا حُبُكـــا مثـــل الجواشـــن مصـــقولا حواشـــيها

وإذا النُّجـــوم تـــراءتْ فـــي جوانبهـــا لـــيلا حسِـــبْتَ ســـماءً زُكِّبـــت فيهـــا

ثمَّ يقول معلِّقا: ومعظم ما يختاره الأدباء في وصْفِ الماء والبِرَكِ قد تفضُله هذه الأبيات للنهشلي، فهي أكثر تشبيهات وأغنى صُورًا."[3]

ومن أجمل ما وقفت عليه في وصف الشاعر والناقد عبد الكريم النهشلي ما ذكره العمري في مصنَّفه الكبير مسالك الأبصار، حيث قال متحدِّثا عن عبد الكريم النهشلي: "مغرمٌ لا تنقضي صباباته، ولا تنتهي مع بلهه إصاباته، ولا يلتقي بعده الشعراء، إلاَّ بما أبقته صباباته. سابق مبرز، وناطق للبلاغة محرز، لو تقدَّم زمان الجاهلية لبذَّ ناسه، وغضَّ من كلِّ فحل فلم يرفع راسه، وفخر حتَّى على ابن عمِّه النهشلي، وسلبه إمامته، وألهاه أن يقول: (نأسوا بأموالنا آثار أيدينا)، وأسلاه محبوبه، فلم يقل: (إنَّا مُحيُّوكِ يا سلمى فحيِّينا)، لمذاهب تهيبتها القدماء وجازها، ومحاسن تفرَّقتها النظراء وحازها."[4]، فهذا النص المتميِّز للعمري يُشير إلى كثير من الحقائق حول النهشلي، فالعمري يقول بأنَّ النهشلي كان من الشعراء المعدودين المبرَّزين، قال في كلِّ فنون الشعر وأغراضه بما فيها الغزل، حتَّى ليُخيَّل لمن يقرأ بعض أشعاره في الغزل بأنَّه مغرمٌ إلى حدِّ الصَّبابة. وأنَّ فيه بَلَهٌ، ولكنَّه بله بسيط لم يُؤثِّر على قدراته وأفكاره، ودليل ذلك أنَّ إصاباته لم

---

[1] – الصَّفدي، الوافي بالوفيات، ج19، ص51-52.

[2] – الكعبي المنجي، عبد الكريم النهشلي القيرواني حياته وآثاره، مطبعة تونس، تونس، ط2، 2009م، ص81.

[3] – المرجع نفسه، ص114-115.

[4] – العُمري ابن فضل الله شهاب الدِّين أحمد بن يحي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2010م، ج17، ص154.

تتوقَّف ولم تنقطع. وقد ذكر هذا ابن رشيق في الأنموذج؛ حيث قال: "وقال له بعض إخوانه: النَّاس يزعمون أنَّك أبله. فقال: هم البُلْهُ. هل أنا أبله في صناعتي؟ قال: لا. قال: فما على الصَّائغ أن لا يكون نسَّاجا؟ قال ابن رشيق: ولعمري ما هذا بلهٌ، ولقد أصاب ثغرةَ الصَّواب."[1]

والنهشلي كما يراه العُمري لم يسبق شعراء زمانه فحسب، بل تفوَّق وبزَّ فحول الشعراء الجاهليين؛ فقد فاق وأفحم ابن عمِّه النهشلي، وهو بَشامة بن حزْن النهشلي – على أرجح الأقوال– الذي افتخر قائلا:

بـــــيضٌ مفارقنـــــا تغلـــــي مراجلنـــــا نأســـــو بأموالنـــــا آثـــــار أيـــــدينا

والذي تغزَّل فأبدع وقال:

إنَّـــا مُحيُّـــوكِ يـــا ســـلمى فحيِّينـــا وإن ســـقيتِ كـــرام القـــوم فاســـقينا[2]

وسبب ذلك أنَّ النهشلي خاض في شعره مذاهب وطرقا شتَّى، هَابَها القدماء وجَازها، واجتمعت له من محاسن القول والتعبير ما تفرَّقت على نظرائه من الشعراء. ويُلخِّص لنا المنجي الكعبي من خلال النَّماذج الشعرية القليلة التي استطاع إثباتها ملامح شاعرية النَّهشلي ومذهبه الفنِّي وخصائصه الشعرية، فهو:

1) شاعرٌ مُروٍّ، تقصر بديهته عن الارتجال، ومن هنا جاءته فضيلة طول النَّفس إذا روَّى، وفضيلة إتقانه البالغ في صناعته.

2) شاعر ملتزم بعمود الشعر العربي في بناء القصيدة ومضمونها. ويبدو مقلِّدًا متفوِّقًا لشعر الشعراء الفحول.

3) عالي الطبقة في اللّغة، فهو يتخيَّر ألفاظه من قاموس كبار الشعراء دون أن يُغرب أو يخرج عن حدود الفصاحة.

4) عنايته باستحضار الوصف والتشبيه أظهر من عنايته بحشد المعاني. ويستعمل الألفاظ ذات الجرس القويّ في الوصف والمدح، بينما يُرقِّق لفظه في الغزل والرِّثاء، وكذلك تظهر براعته في تلك التَّحلية البديعية غير المتكلّفة التي تظهر فيها تشابيهه ووصفه.

5) نظَّم النَّهشلي في جميع أغراض الشّعر العربي التقليدية، سوى الهجاء فإنَّه كان يجتنبه لأنَّه يعتبره شرَّ الشِّعر، ويبدو أنَّ الغرض الذي ضرب فيه بحظٍّ وافر هو الوصف.

6) لا يخلو شعره من ضرورات شعرية، وهو أمرٌ لم يخلُ منه شعر الفحول بلْه غيرهم.

7) براعته في حُسن التخلُّص وحسن المطالع.[3]

عاش عبد الكريم النهشلي ما بين نهايات القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الهجريين، وكانت وفاته كما تذكر الكثير من المصادر سنة خمس وأربعمائة هجرية (**405**هـ) ودُفن بالقيروان أو المهدية.[4]

---

[1] – ابن رشيق، أنموذج الزمان، ص171.

[2] – يُنظر الضامن حاتم صالح، عشرة شعراء مقلُّون، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، العراق، دط، 1990م، ص130.

[3] – يُنظر الكعبي المنجي، عبد الكريم النهشلي حياته وآثاره، ص128–130.

[4] – يُنظر العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج19، ص51.

كتاب الممتع، مضمونه ومنهجه:

أمَّا كتابه الذي بين أيدينا، وسواء كان اسمه "الممتع في علم الشعر وعمله" (اختيار من كتاب عبد الكريم النهشلي القيرواني)، الذي حقَّقه المنجي الكعبي، والطبعة الأولى منه صادرة عن الدار العربية للكتاب بليبيا وتونس سنة **1978**م، وقد تمكَّنت –بتوفيق من الله– من الحصول على الطبعة الثانية منه، والصادرة عن مطبعة تونس قرطاج، سنة **2009**م، والذي يشتمل على (**592**) صفحة من الحجم المتوسط. أو تحت اسم (الممتع في صنعة الشعر)، الذي حقَّقه محمد زغلول سلَّام، والصادر عن منشأة المعارف بالإسكندرية بمصر، وجاء الكتاب في (**446**) صفحة من الحجم المتوسط. أو تحت مُسمَّى (اختيار الممتع في علم الشعر وعمله)، تحقيق محمود شاكر القطَّان، الصادر عن دار المعارف المصرية، وطبعته الأولى كانت سنة **1983**م، فهو المصنَّف الوحيد الذي سلم من الضياع من جملة تآليفه ومصنَّفاته، إلاَّ أنَّ هذا الكتاب وللأسف لم يصل إلينا كاملا، فهناك جزء أو أجزاء منه قد ضاعت من جملة ما ضاع من كتبه. فانظر إلى كلام محمد زغلول سلّام في مقدِّمة الكتاب، والتي تُوحي بأنَّ الكتاب ناقص، فيقول: "ومن خلال ما وصلنا من كتاب الممتع في صنعة الشعر، أو في علم الشعر وعمله، كما نقله ابن منظور في نثار الأزهار، نرى في عبد الكريم عالما شاعرا يُدرك من علم الشعر وعمله كثيرا."[1]

وهذا الرأي يذكره صراحة محمود القطان بين يدي تحقيق الكتاب قائلا: "إنَّ الممتع وهو كتاب عبد الكريم لم يصلنا كاملا، بل سقط من بين أصابع الزمن، وإنَّما الذي وصل إلينا هي قطعة منه، سُمِّيت باختيار الممتع، قام أحد النُسَّاخ باختصارها من الكتاب الأصلي."[2]

ولهذا نجد كما يقول خلدون بشير: "أنَّ القضايا النقدية التي أثارها عبد الكريم النهشلي في كتابه قليلة، فقد تكلَّم على: (القديم والجديد، اللفظ والمعنى، السرقات، الطبع والصَّنعة، نقد بعض فنون الشعر وأطرافه كالنَّسيب، رأي في البلاغة، فنون بلاغية كالتصدير والتقطيع والاتِّساع، الأوزان والقوافي)، وحتَّى هذه النصوص التي اختصَّت بهذه القضايا قصيرة جدًّا، وتتَّسم بالشمول والعموم، ويغلب عليها طابع العجلة."[3]، وهذا هو الانطباع العام الذي يخرج به من يقرأ ما تبقَّى من كتاب الممتع، فهذا الحكم من لدن بشير خلدون صحيح؛ فالنهشلي لم يتناول كلَّ القضايا النقدية المتعلِّقة بالشعر، وخاصة البلاغية منها، وأنَّ معالجته لبعض ما تناوله كانت سريعة وعامة، وهو أشبه بكتاب مختارات في الأدب والنقد؛ حيث تناول بعض قضايا الشعر، كتعريفه وتفضيله على النثر، وتكلَّم عن دواعي نظم الشعر وتأثيره في المتلقِّي، خاصة إذا كان مدحا أو هجاء.

---

[1] – النهشلي أبو محمد عبد الكريم، الممتع في صنعة الشعر، تح: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط1، دت، ص4.

[2] – النهشلي أبو محمد عبد الكريم، اختيار الممتع في علم الشعر وعمله، تح: محمود القطان، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1983م، ج1، ص19.

[3] – خلدون بشير، الحركة النقدية على أيَّام ابن رشيق المسيلي، ص56.

ومع هذا فإنَّ شاعرا وأديبا وناقدا بحجم النهشلي لابدَّ وأنَّه قد تناول في كتابه الممتع معظم القضايا النقدية التي أثارها النقاد في زمنه وقبله، ولكنَّ الراجح في المسألة أنَّ الذي ضاع من الكتاب أكبر حجما وأكثر قيمة ممَّا تبقَّى منه. ونتفق كلَّ الاتِّفاق مع ما ذهب إليه محمود القطان في هذه المسألة حين قال: "ونكاد نقطع بأنَّ الذي اختصر كتاب عبد الكريم، قد قام بحذف كثير من تعليقاته وآرائه التي أوردها فيه بعد تلك المختارات الرائعة من الشعر، التي تدلُّ على رهافة الحسِّ الأدبي الذي كان يتمتَّع به هذا الناقد الكبير؛ لأنَّ القادر على قول تلك النظرات النقدية السابق ذكرها قادر على قول غيرها تعليقا على النصوص الكثيرة التي حفل بها الكتاب، لأنَّه لا يُعقل أن يكتفي عبد الكريم بإظهار قدرته الفائقة على حفظ الشعر العربي، دون أن يتعرَّض للكثير منه للنقد والتحليل، وذلك لأنَّنا بعد دراستنا لاختيار الممتع لم نقف على العديد من تلك النظرات النقدية التي رأيناها في هذا الموضع، ولكنَّها كارثة الاختصار ولعنة الاختيار التي حلَّت بممتع عبد الكريم، الذي كان من الممكن أن يُمتعنا حقا لو وصل إلينا كاملا."[1]

وأمام هذا الوضع، فليس لنا إلاَّ أن نتعامل مع ما بقي من الكتاب، معتبرينه المصدر الأول في دراستنا للكشف عن آراء ومواقف النهشلي النقدية المختلفة، وخاصة منها المواقف ذات البعد الدّيني والأخلاقي. وهنا نُؤكِّد على ما قاله محمد مرتاض، "بأنَّ عبد الكريم النهشلي لم تُسعفنا مظانٌّ كثيرة عنه، وما وصلنا عنه لا يشفي العليل، ولا يروي الغليل."[2]، وهذا الحكم يتعلَّق بحياته وسيرته بصفة عامة، والتي يُجهل عنها الكثير، كما يتعلَّق بآرائه ومواقفه النقدية بصفة خاصة، والتي لم يصلنا منها إلاَّ النزر القليل.

ولكن من حسن حظِّنا وحظِّ النهشلي أنَّ هناك موردا آخر احتفظ لنا ببعضٍ من آرائه ومواقفه، وأكمل إلى حدٍّ ما النقص الملاحظ في كتاب الممتع. وأعني بذلك كتاب العمدة لتلميذه ابن رشيق القيرواني؛ فقد نقل ابن رشيق نُتفًا من آراء أستاذه النهشلي، والتي استقاها من كتاب (الممتع)، الذي اعتمد عليه كثيرا في كتابه (العمدة)، "وإنْ لم يكشف لنا عن اسمه إذْ قال: ومن أناشيده في كتابه المشهور، وقال: ومن كتاب عبد الكريم، وذكر في موضع: أنَّه كان ينظر في إحدى نسخه."[3]

والسبب في عدم ذكر ابن رشيق عنوان الكتاب يعود إلى شهرته وشهرة صاحبه جريا على طريقة المؤلفين القدامى؛ الذين كانوا يكتفون بذكر أصحاب الكتب دون ذكر أسماء كتبهم لذيوعها وعلم الخاصة والعامة بها.

ويُعتبر الممتع أوَّل كتاب نقدي متخصِّص ظهر في بلاد المغرب العربي القديم، والمطَّلع على مضمونه يجد صاحبه قد نهج فيه نمط بعض المصنَّفات المشرقية ككتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر، وكتاب الصِّناعتين لأبي هلال العسكري، والعقد الفريد لابن عبد ربِّه الأندلسي. كما يُلاحظ أنَّ الكتاب جامع في علم الأدب وفنونه وتاريخه ونقده، تناول فيه

[1] – النهشلي، اختيار الممتع في علم الشعر وعمله، ج1، ص19.

[2] – مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص170.

[3] – يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص79.

صاحبه ذكر بيوتات العرب واللِّباس والطِّيب، وما قيل في الجمال وحسن الوجوه، والهيبة والمكافأة بالشكر، كما تصدَّى للدفاع عن الشعر وذكر فضائله.

وإلى جانب هذا، نجد أنَّ النهشلي قد تناول بالحديث كلام العرب وبيانهم؛ فذكر طبيعة الشعر، وأقسامه أو أصنافه، ونشأته وأصله، وعالج كذلك قضية اللفظ والمعنى وأبدى رأيه فيها، ومسألة السرقات الشعرية وفصَّل فيها، وبيَّن أثر اختلاف البيئة في الشعر، والغلط في المعاني، والأنفة عن السؤال بالشعر، كما تعرَّض لبعض المناحي البلاغية كالإشارة والتكرار والمبالغة والتصدير وغيرها..[1]

أمَّا المنهج الذي اتَّبعه النهشلي في الكتاب فليس من السَّهل الوقوف على ملامحه بدقَّة؛ ذلك أنَّ الكتاب أوَّلا ليس كاملا- كما ذكرنا آنفا- وأنَّ هذا الذي بين أيدينا قد يكون صنيعة صاحب الاختصار أو الاختيار، وهذا ما يزيد الأمر تعقيدا؛ أهذا المنهج الموجود في الكتاب منهج النهشلي أم منهج صاحب الاختصار؟ وقُصارى ما يُمكن قوله في منهج الكتاب "أنَّ النهشلي رتَّب موضوعاته على أبواب كثيرة، وفي كلِّ باب يُعالج مسألة معيَّنة، ويعرض آراء السابقين فيها مع التدخُّل أحيانا قصد المناقشة أو التعقيب أو التحليل. إلاَّ أننا نلاحظ عليه الاستطراد في كثير من الأبواب، ممَّا يُخرج مضمونها عن العنوان الذي يحمله الباب."[2]

وتغيب في ثنايا العرض في بعض الأحيان رؤيته للمسألة التي بصددها؛ فلا يُوضِّح رأيه ولا يكشف عن موقفه "بل يدخل في السِّياق مباشرة، ولا يُعرف ذلك إلاَّ بالحدس من المتلقِّي"[3]، كما يقول محمد مرتاض. أمَّا ما يتعلَّق بنقده فهو يحتكم غالبا إلى ذوقه وحسِّه الأدبي، ومستعينا في بعضها إلى رأي غيره، وهذا ما يراه محمود القطان في سياق حديثه عن عبد الكريم النهشلي الناقد حين يقول: "وقد يكون النقد عند عبد الكريم نقدا حكميا، يرى فيه الرأي، سواء كان هذا الرأي راجعا إلى تذوُّقه الخاص بالنص، أو راجعا فيه إلى رأي غيره من النَّاس، وهو بالإضافة إلى ذلك قد يروي بعض الآراء، والملاحظات النقدية، ثم يُتبعها برأيه الخاص فيها، مختارا ما يراه ملائما لذوقه."[4]

ولعلَّ ما قاله المنجي الكعبي في خاتمة كتابه (عبد الكريم النهشلي، حياته وآثاره) عن هذا الكتاب القيِّم، يُبيِّن لنا قيمة الكتاب وأثره في المدرسة الأدبية النقدية التي عرفتها القيروان وما حولها منذ القرن الخامس وما بعده، فيقول: "..وكتابه (الممتع في علم الشعر وعمله)، الذي وصلنا منه (اختيار)، يضعه هو والقزَّاز في صفِّ الشعراء النقَّاد، الذين مهَّدوا لظهور تلك المدوَّنة النقدية الكبرى التي ألَّفها ابن رشيق، وهي كتاب (العمدة في صناعة الشعر ونقده)، والذين مهَّدوا

[1] – يُنظر يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص81.

[2] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3] – مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص201.

[4] – النهشلي، اختيار الممتع، ج1، ص17.

كذلك لظهور تلك المدرسة الأدبيَّة المتعدِّدة المواهب والأفراد التي أينعت بالقيروان والمهدية وصقلية طوال النِّصف الأوَّل من القرن الخامس."[1]

وخلاصة ما نقول في عبد الكريم النهشلي أنَّه شاعرٌ قدير، وناقد للشعر بصير، وهو أمرٌ لا يحتاج إلى كثير إثبات، يكفي أن ينقل آراءه كبار النقاد أمثال ابن رشيق، وأنَّ اسمه يتصدَّر قائمة أسماء الشعراء والنقاد اللاَّمعة في سماء القيروان في عهد بني زيري، وخاصة في زمن باديس وابنه المعزّ.

النقد الأخلاقي عند النهشلي:

وسنحاول الآن في هذا المبحث رصد كلِّ الآراء والمواقف النقدية للنهشلي، والتي تحمل ملمحا دينيا أو خلقيا، وسواء كانت تلك المواقف النقدية تنظيرية أو تطبيقية، وهذا من خلال كتابه (الممتع) وكتاب (العمدة) لابن رشيق. ولعلَّ أهمَّ القضايا النقدية المرصودة ذات الملمح الدِّيني والخلقي التي تناولها النهشلي تتمثَّل في:

1– قيمة الشعر وفضله:

نظر النهشلي إلى قيمة الشعر ودوره من زاوية أخلاقية وتربوية تعليمية واجتماعية، ذلك أنَّ الشعر عند العرب –كما قال الكثير من النقاد– هو ديوانهم الأول، وسجِّل أحسابهم وأنسابهم وأيَّامهم، وهو مستودع حكمتها وبلاغتها، ومستقرُّ معارفها ومفاخرها، وخزانة خلائقها، يُرشد أبناءها إلى حسن الشِّيم، ويدل النَّاس على فضائل القيم. ولهذا استفتح النهشلي كتابه (الممتع) بالحديث عن فضل الشعر ومكانته عند العرب، فقال مبرزا ذلك: "والشعر أبلغ البيانين، وأطول اللسانين، وأدب العرب المأثور، وديوان علمها المشهور."[2]

ومن الأقوال الحكيمة البليغة الموجزة التي استشهد بها النَّهشلي مبرزًا فضلَ الشِّعر وعلوَّ منزلته عند العرب، قول النبيِّ ﷺ: **«إنَّ من الشّعر لحكمًا»**، وقول عمر بن الخطَّاب ﷺ: (نِعم ما تعلَّمته العربُ الأبيات يُقدِّمها الرَّجل أمام حاجته، فيستنزل بها اللَّئيم ويستعطف بها الكريم)، وقوله أيضًا: (الشّعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه)، وقول عليّ ﷺ: (الشّعر ميزان القوم). وقال آخر: تعلَّموا الشّعر فإنَّ فيه محاسن تُبغى، ومساوئ تَتَّقى، ويحلُّ عقدة اللِّسان، ويُشجِّع الجبان. وقال آخر: الشّعر ثلاثة أصناف: فشعرٌ يُكتب ويُروى، وشعرٌ يُسمع ولا يُوعى، وشعرٌ يُلتذُّ ويُروى. وقال أبو سفيان بن حرب لابن الزّبعري: لو أسهبت في شعرك. قال حسبُك من الشّعر غُرَّة لائحة، وسُبَّة فاضحة. وأنشدني في نعت الشّعر:

الشُّعراءُ فاعلمَنَّ أربَعَهْ فَشَاعِرٌ يَجْري ولا يُجْرَى مَعَهْ

وشاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ المَجْمَعَهْ وشَاعِرٌ لا يُرْتَجَى لِمَنْفعَهْ

[1] – الكعبي المنجي، عبد الكريم النهشلي، حياته وآثاره، ص183.

[2] – النهشلي، الممتع في صنعة الشعر، ص19.

وشَـــــاعِرٌ يُقَـــــالُ خَمِّـــــرْ فـــــي دَعَـــــهْ[1]

ومن عيون الشّعر التي اختارها النَّهشلي ليستدلَّ بها على فضل الشّعر وفضله، قول حبيب (أبي تمَّام) يذكر انتظام الشَّرف في الشّعر وعقد القوافي بالمجد:

إنَّ القَـــوافِيَ وَالـــمَسَاعِيَ لَـــم تَـــزَلْ مِثْـــلَ النِّظـــامِ إِذَا أَصَـــابَ فَرِيـــدَا
هِـــيَ جَـــوهَرٌ نَثْـــرٌ فَـــإِنْ أَلَّفْتَـــهُ بِالشِّـــعْرِ صَـــارَ قَلَائِـــدًا وَعُقُـــودَا
وَتَنـــدُّ عِنـــدَهُمُ العُلَـــى إِلَّا عُلًـــى جُعِلَـــتْ لَهـــا مِـــرَرُ القَصِـــيدِ قُيُـــودَا[2]

وقول أبي تمَّام أيضًا:

وَلَـــم أَرَ كَالـــمَعْرُوفِ تُـــدْعَى حُقُوقُـــهُ مَغَـــارِمَ فـــي الأَقْـــوامِ وَهْـــيَ مَغَانِـــمُ
وَلا كَـــالعُلَى مـــا لَـــم يُـــرَ الشِّـــعْرُ بَيْنَهـــا فَكَـــالأَرْضِ غُفْـــلاً لَـــيْسَ فِيهَـــا مَعَالِـــمُ
وَمَـــا هُـــوَ إِلَّا القَـــوْلُ يَسْـــرِي فَتَغْتَـــدِي لَـــهُ غُـــرَرٌ فـــي أَوْجُـــهٍ وَمَيَاسِـــمُ
وَلَـــوْلَا خِـــلَالٌ سَـــنَّهَا الشِّـــعرُ مَـــا دَرَى بُغَـــاةُ النَّـــدَى مِـــنْ أَيْـــنَ تُـــؤْتَى الـــمَكَارِمُ[3]

والنَّهشلي إذْ يُقرُّ بأفضلية الشِّعر على النثر، لا يُقرُّ ذلك تعصُّبًا للشِّعر، وإنَّما استمدَّ ذلك واستنتجه من واقع حال العرب مع الشِّعر، فالعرب عظَّمت الشِّعر وأنزلت الشاعر منزلة السيادة في القبيلة. ويذكر النَّهشلي بعض الأحداث الدَّالة على موضع قدر الشِّعر في العرب، من ذلك أنَّ بني تميم قالت لسلامة بن جندل: مجِّدنا بشعرك! فقال: افعلوا حتَّى أقول! ويُقال: إنَّه أُرْتُجَّ على النَّابغة أربعين سنة ثمَّ كانت لبني جَعْدَة وَقعة ظهروا فيها على عدوِّهم فاستخفَّ النَّابغةَ الفرحُ فَرَاضَ القريضَ فَلَانَ له ما كان استصعب عليه، فقالوا: والله لنحن بإطلاق لسان شاعرنا أسرُّ منَّا بالظَّفر بعدوِّنا."[4]

ولا يُفهم من هذا القول أنَّ النهشلي قد قلَّل من قدر وقيمة النثر؛ فالبلاغة والبيان وعذوبة الألفاظ وسحر المعاني تكون في النثر كما تكون في الشعر، ولكنَّ الشعر تميَّز عنه زيادة عن الوزن والقافية بأنَّ له لغة خاصة مفعمة بالعواطف ومستغرقة في الخيال ومليئة بالأحاسيس والمشاعر والانفعالات. فهو يرى أنَّ النثر مجال العلم، والشعر مجال الأدب والفنِّ، والعلم بمفهوم النهشلي هو الفلسفة والمنطق والتاريخ والطبِّ، وغيرها من العلوم، لذلك فهو دون الشعر الذي موضوعه العواطف والمشاعر والخيال. ويؤكِّد هذا تلميذه ابن رشيق قائلا: "والفلسفة وجرُّ الأخبار باب آخر غير الشعر،

[1] – يُنظر النَّهشلي، أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم: الممتع في علم الشعر وعمله (اختيار من كتاب عبد الكريم النَّهشلي القيرواني)، تح: المنجي الكعبي، مطبعة تونس قرطاج، الشرقية، تونس، ط2، 2009م، ص29-38.

[2] – المصدر نفسه، ص40، والأبيات في شرح ديوان أبي تمام للتبريزي، ج1، ص224.

[3] – النَّهشلي، الممتع في صنعة الشِّعر، ص31، والأبيات في شرح ديوان أبي تمام للتبريزي، ج2، ص87-89. وفي شرح الديوان نجد (مواسم) عوض (مياسم) في البيت الثالث.

[4] – النَّهشلي، الممتع في علم الشعر وعمله، ص25-26.

فإن وقع فيه شيء منهما فبقدر، وإنَّما الشعر ما أطرب، وهزَّ النُّفوس، وحرَّك الطِّباع، فهذا هو باب الشعر الذي وُضع له، وبُني عليه، لا ما سواه."[1]

ولـمَّا كان الشعر أفضل من النثر عند النهشلي، فقد خصَّه دون النثر بالتعريف وبيان فضله، فقال مبيِّنا ذلك: "خير كلام العرب وأشرفه عندها هذا الشعر الذي ترتاح له القلوب، وتجذل به النُّفوس، وتُصغي إليه الأسماع، وتُشحذ به الأذهان، وتُحفظ به الآثار، وتُقيَّد به الأخبار."[2]

فالنهشلي يرى أنَّ الشعر خير كلام العرب بعد القرآن الكريم والسنَّة النبويَّة المطهَّرة، وهو الكلام الذي يُخاطب القلوب والنفوس، فترتاح لسماعه وتطرب لإنشاده، فهو إحساس مُلهمٌ، وشعور صادق، وفطنة واعية. ومن فوائده شحذ العقول، وحفظ الآثار، وتقييد الأخبار. ويستدلُّ النهشلي بمقولة لابن قتيبة، يُبيّن من خلالها فضل الشّعر ومنزلته عند العرب، والتي يقول فيها: "إنَّ الله تعالى رفع بالشّعر أقوامًا في الجاهليّة والإسلام وأحظاهم بما سيَّر المادحون من مدائحهم في البلاد حتَّى شُهروا بأطرار (أطراف) الأرض وعُرفوا بأقاليم العجم، ودُوِّنت في الكتب آثارهم، وألحق الله تعالى بعشارهم وأعقابهم حميد أفعالهم، فمن شيَّد من أعقابهم ما أسَّسوا له وثمَّر ما غرسوا، أضاف تالدًا لطارفٍ، ومَنْ لم تكن له همَّة في تشييده، فله مع السُّقوط مزيَّة تقديم فضل آبائه، ولا يمتنع النَّاس له من إكرامه، ورفع مجلسه، والرِّقة عليه، وذِكْر فضائل سلفه، واغتفار ما يأتي من زلَلِه. ولهذا رغب الأوَّلون في الذِّكر الجميل، وبذلوا فيه مُهَج النُّفوس وعاقل الأموال، ورغبوا عن الخفض والدَّعة إلى نَصَب المسير، ومكابدة حرِّ الهواجر، وسُرى الليل، ومقارعة الأقران، ومنازلة الأبطال."[3]

ومن مزايا الشِّعر التي ذكرها النَّهشلي، أنَّ له فضائل لا تكون إلاَّ له ولصاحبه أي الشاعر، ومن ذلك مديح النَّفس والضرورات التي لا تُغتفر إلاَّ في الشعر، فيقول: "ومن عجيب الشِّعر أنَّ مديح النَّفس والثناء عليها قبيح على قائله، وزارٍ عليه إلاَّ في الشِّعر. وقد اغتفروا الضرورة في الشعر، ولم يغتفروها في غيره، رغبة في تخليد أخبارهم. وكانوا لا يكتبون فجعلوا روايته بمقام الكتاب."[4]، فالاعتداد بالنَّفس والافتخار بها والثناء عليها يُعدُّ تزكيةً لها –ولو كان حقًّا وصدقًا– وهذا ممَّا نهانا عنه ديننا، وهو فعل قبيح لا يقوم به صاحب مروءة، إلاَّ في الشِّعر فهو مقبول، وصاحبه غير مُلام.

وقال النَّهشلي في موضع آخر مبرزًا فضل الشعر ودوره الخلقي والاجتماعي والتربوي: "وأفضل بيان العرب وأفصحه ما أدَّاه عنها الشعر الجاري على ألسنتها بالبلاغة المحكمة، والحكمة المتقنة الباقية، مضمَّنا حكمها، وسائر أمثالها، شاهدا على أحسابها، وكريم أفعالها، مُخبرا عن مروءاتهم في سالف أيَّامهم، وعن محمود خلائقهم، وجميل وفائهم، ليتأدَّب

[1] – ابن رشيق: العمدة، ج1، ص110.
[2] – النهشلي، الممتع في صنعة الشعر، ص11.
[3] – النهشلي، الممتع في علم الشعر، ص32.
[4] – النهشلي، الممتع في صنعة الشعر، ص24.

غابرهم بفعل فارطهم، وليقتدي متعلِّمهم من الأبناء بسالف من تقدَّمهم من الآباء.."[1]، لهذا كان الشعر عِزَّ العرب وشرفها، استودعت فيه حكمها وسائر أمثالها، وأودعته كريم أفعالها وخلالها، وحرصت على حفظه وروايته ليتأدَّب اللاحق بخلق السابق، ويتعلَّم الخالف من فعل السالف. ولو تصوَّرنا أنَّ هذا الشعر ما كان أو ما حُفظ، فكم من مآثر قد انعدمت، ومفاخر قد طُمست، وأمجاد قد دُرست. فما كان النثر أن يحفظ كلَّ هذه المآثر، قال النَّهشلي: "فلولا الشعر لم يقم لهذه الأفعال علمٌ، ولا رُفع لها منار، ولدُرست آثارُها كما دُرس كثير لم يُقيِّده الشعر، كالذي نُسي من أفعال بني حنيفة وعِجل، إذ لم يكن فيهم شعرٌ، فدخلوا في جملة الخاملين عند كثير من النَّاس، هذا على ما كان لهم من الوقائع، وفيهم من المكارم. ومثل هؤلاء بنو بدر، كانوا مفحمين لا شعراء لهم، فما عرف عن فضلهم الشاكرون، وأغناهم عن تعداد محاسنهم المادحون"[2]، وفي المقابل ما كنَّا لنسمع بوفاء السموأل، وجود حاتم، وشجاعة وعفَّة عنترة لولا الشعر، فيقول في ذلك: "ولولا الشعر ما عُرف جود حاتم وكعب بن أمامة وهرم بن سنان وأولاد جفنة، وإنَّما أشاد بذكرهم الشعر."[3]، فالشعراء منوط بهم–حسب النَّهشلي– أن يقوموا بهذا الدور الإعلامي والإشهاري –إن جاز التعبير– بما يخدم الأمَّة ومقوِّماتها وأخلاقها، فهم يذكرون ذوي الجود بجودهم وجميل إحسانهم، والأوفياء بوفائهم والتزامهم بالعهد، والشجعان بشجاعتهم وإقدامهم... وهم بذلك يُخلِّدون هذه القيم والفضائل بتخليد شخصياتها.

وفي تداخل بديع ومنسجم بين القيم النفسية والخلقية والاجتماعية للشعر يقول النهشلي مبيِّنا الغاية والفائدة من الشعر: "وفي الشعر التياط بالقلوب، ومدخل لطيف إلى النُّفوس، وسلم مختصر إلى الأوهام، ومُعزٌّ شاف، وواعظٌ ناه، ومعقل يأوي إليه المحروب، ويسكن إليه المحزون، ويتسلَّى به المهموم."[4]

وتأكيدا لهذا الكلام يذكر النَّهشلي خبر سليمان بن علي، الذي مات له ولد، "فجزع عليه جزعا شديدا، وأمسك عن الطعام والشَّراب والكلام، فقال كاتبه للحاجب: ائذن للنَّاس، وقعد على طريقهم، فجعل يقول: عزُّوا الأمير وسلُّوه، فكلٌّ تكلَّم، فلم يصغِ إلى أحد، إلى أن دخل يحي بن منصور، فقال: أصلح الله الأمير، عليكم نزل كتاب الله عزَّ وجلَّ، وأنتم أعرف النَّاس بتأويله، وفيكم قال رسول الله ﷺ وأنتم أعلم النَّاس بسُنَّته ولستُ أُعزيك بشيء لم تسبق إلى علمه، أُعزيك بقول الشاعر:

وَهَــوَّنَ مــا ألقَــى مــن الوَجْــدِ أنَّــي أُجَــاوِرُهُ فــي دَارِه اليَــومَ أو غَــدَا

فدعا بالغداء وتسلَّى."[5]

---

[1] – النهشلي، الممتع في علم الشعر، ص44.

[2] – النهشلي: الممتع في صنعة الشعر، ص52.

[3] – المصدر نفسه، ص 269.

[4] – نفسه، ص271.

[5] – نفسه، ص29.

والعرب عظَّمت الشعر وشرَّفته لأنَّها وجدت فيه من المزايا والفضائل ما لم تجده في النثر، قال النهشلي: "لـمَّا رأت العرب المنثور يندُّ عليهم ويتفلَّت من أيديهم، ولم يكن لهم كتاب يتضمَّن أفعالهم تدبَّروا الأوزان والأعاريض، فأخرجوا الكلام أحسن مخرج بأساليب الغناء فجاءهم مستويا. ورأوه باقيا على مرِّ الأيَّام، فألفوا ذلك وسمَّوه شعرا."[1]

ومن صور تعظيم العرب للشعر أنَّها تُهنِّئ بالشاعر إذا نبغ في قبيلة من قبائلها، يقول النهشلي: "وكان الشاعر في الجاهلية إذا نبغ في قبيلة ركبت العرب إليها فهنَّأتها به لذبِّهم عن الأحساب، وانتصارهم به على الأعداء. وكانت العرب لا تُهنِّئ إلاَّ بفرس مُنتج أو مولود وُلد، أو شاعر نبغ. هكذا زعمت علماء العرب."[2]

ويُؤكِّد النهشلي على قيمة الشعر الأخلاقية والاجتماعية، ودوره الهام في نشر الفضائل والمحاسن، ودرء المفاسد والمساوئ في المجتمع، فيقول: "وكم جهد عسير كان الشعرُ فرجَ يُسره، ومعروفٍ كان سبب إسدائه، وحياةٍ كان سبب استرجاعها، ورَحِمٍ كان سبب وصلها، ونار حرب أطفأها، وغضب برَّده، وحقد سلَّه، وغِنًى اجتلبه. وكم اسم نوَّه به، ورجلٍ منسيٍّ عرَّف باسمه، وكم شاعر سعى بذمَّته، فردَّ خيلا بعدما أُبيحت، وأهلا بعدما سُبيت، وفكَّ من أُسارى أكتب أيديها القِدُّ، وأعنَتْها سلاسل القيود."[3]، فللشعر في نظر النهشلي مزايا وفضائل جمَّة أخلاقية واجتماعية؛ فهو سبب لتفريج الكربات، وأداء المكرمات، واسترجاع للحياة، كما كان الشعر سببا في وصل الأرحام والأقارب، وإطفاء نار الحرب بين القبائل والجماعات، وإخماد ثورة الغاضب، ونزع أضغان الحاقد، وكم من فقير أغنى، ومن ذليل أعزَّ، ومن وضيع رفع، وكم من حقوق كانت ضائعة فردَّها، ورقاب كانت مستعبدة ففكَّها، وأيادٍ كانت مأسورة فحرَّرها وأطلقها.

ويُورد النهشلي أمثلة لهذا حتَّى يُثبت صدق مذهبه وصواب رأيه؛ ومن تلك الشواهد شعر قتيلة بن النضر الذي ألقته على مسامع الرسول ﷺ بعدما أمر بقتل أبيها، وكان النبيُّ ﷺ يطوف بالبيت فاستوقفته، وجذبت رداءه حتَّى انكشف منكبه، وأنشدته شعرها بعد قتل أبيها:

يـــــا راكبـــــا إنَّ الأثيـــــل مظنَّـــــةٌ مـــــن صـــــبح خامســـــة وأنـــــت مُوفَّـــــقُ

إلى قولها:

والنَّضْـــرُ أقـــرَبُ مَـــنْ أصـــبْتَ وسِـــيلَة وأحقُّهُـــم إنْ كـــان عِتْقًـــا يُعْتَـــقُ

فقال النبيُّ ﷺ : **«لَوْ كُنْتُ سَمِعْتُ شِعْرَهَا هَذَا ما قَتَلْتُه»**[4]، وهذا دليل على تأثير الشعر على النُّفوس، فقد تأثَّر النبيُّ ﷺ بكلامها، وكان سيعفو عن أبيها لولا أنَّ السيف قد سبق العذل. في حين عفا رسول الله ﷺ على ابن الزِّبَعْرَى، لـمَّا

[1] – النهشلي، الممتع في صنعة الشعر، ص19.

[2] – النهشلي، الممتع في علم الشعر وعمله، ص26.

[3] – المصدر نفسه، ص16.

[4] – يُنظر النهشلي، الممتع في صنعة الشعر، ص14-15.

هرب من رسول الله ﷺ إلى نجران، وسبب ذلك أبيات ألقاها بين يديه. وذلك "أنَّ حسان بن ثابت قال لابن الزِّبَعْرَى لمَّا هرب:

لا تَعْـــدَمَنْ رَجُـــلاً أَحَلَّـــكَ بُغْضَـــه نجْـــرَانَ فـــي عَـــيْشٍ أَحَـــذَّ لَئِـــيم

فلمَّا بلغه البيتُ لم يلبث أن أتى إلى رسول الله ﷺ، فأنشده:

يَـــا رَسُـــولَ الـــمَلِيكِ إنَّ لِسَـــانِي رَاتِـــقٌ مَـــا فَتَقْـــتُ إذْ أنَـــا بُـــورُ

إذْ أُجَـــارِي الشَّـــيْطَانَ فـــي سَـــنَنِ الغَـــ ـــــيِّ وَمَـــنْ مَـــالَ مَيْلَـــهُ مَثْبُـــورُ

أَمَّـــنَ اللَّحْـــمُ والعِظَـــامُ بمَـــا قُلْـــتَ فَنَفْسِـــي الفِـــدَا وأَنْـــتَ النَّـــذيرُ

فعفا عنه رسول الله ﷺ وصفح عنه عمَّا كان منه."[1]

2– أصناف الشعر:

إنَّ الدارس للقضايا النقدية التي أوردها النهشلي في كتابه الممتع ليكشف سريعا الأثر الديني والنزعة الأخلاقية في آرائه ومعالجاته النقدية، ولعلَّ أبرزها تصنيفه الشعر وفق المنظور الدِّيني والأخلاقي. فقد قسَّم النهشلي الشعر إلى أصناف أربعة خاضعة في مجملها إلى المعيار الخلقي والدِّيني. قال ابن رشيق في كتابه العمدة: "وقال عبد الكريم: الشعر أربعة أصناف: فشعر هو خير كلُّه، وذلك ما كان في باب الزُّهد والمواعظ الحسنة، والمثل العائد على من تمثَّل به بالخير، وما أشبه ذلك؛ وشعر هو ظرف كلُّه، وذلك القول في الأوصاف، والنُّعوت والتشبيه، وما يفتنُّ به من المعاني والآداب؛ وشعر هو شرٌّ كلُّه، وذلك الهجاء، وما تسرَّع به الشاعر إلى أعراض النَّاس؛ وشعرٌ يُتكسَّب به، وذلك أن يحمل إلى كلِّ سوق ما ينفق فيها، ويُخاطب كلّ إنسان من حيث هو، ويأتي إليه من جهة فهمه."[2]

فهذا التصنيف لا قِبَلَ لنا به من لدن النقاد القدامى قبل النَّهشلي، وهذا ما يُثبته الدكتور منجي الكعبي، حين قال: "وهذا القول لا وجود له في نسختنا في الممتع، ولم يُقسِّم الشّعر هذا التَّقسيم أحدٌ من النقاد العرب قبل النَّهشلي فيما رأيتُ من كتب الأدب والنقد."[3]

ويُعتبر هذا النص النقدي من أوضح الأدلَّة وأقواها تبيانا للمنهج النقدي الذي اتَّخذه النهشلي حيال الشعر، فالملمح الدِّيني والخلقي جليٌّ واضح في رؤيته للشعر من خلال هذه الأصناف. ولتبيين ذلك نحاول تفسير وتحليل هذا النص النقدي للوقوف على هذه الأبعاد والملامح ذات الاتجاه الدِّيني والخلقي في النقد عند النهشلي.

– أوَّل ما نقف عنده في هذا النص النقدي، والذي يحمل ملمحا دينيا خالصا، هو بعض المصطلحات التي استعملها النهشلي، ومن ذلك: الخير، الشرُّ، الزهد، المواعظ. فمصطلحا: الخير والشر لم نعهدهما وصفا للشعر عند النقاد

[1] – النَّهشلي، الممتع في علم الشّعر، ص371-372.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص101.

[3] – الكعبي المنجي، عبد الكريم النهشلي القيرواني حياته وآثاره، ص139.

السابقين، الذين كانوا يستعملون مصطلحات أخرى إذا أرادوا إصدار حكم على شعر ما، مثل الجودة ونقيضه الرداءة، أو الحُسن ونقيضه القُبح، فيقولون: شعر جيِّد أو رديء، وشعر حسن أو قبيح. لكنَّ النهشلي خرج علينا بوصف جديد للشعر: شعر خير كلُّه، وشعر شرٌّ كلُّه. فهذان المصطلحان مع كلمتي الزهد والمواعظ، هي كلمات دينية خالصة، وهذا يعكس الخلفية الدينية والفكرية للنهشلي.

– أمَّا إذا تطرَّقنا إلى التصنيف في حدِّ ذاته، فإننا نجد النهشلي قد صنَّف الشعر من وجهة نظر دينية أخلاقية بحتة، ويتمثَّل في التَّقسيم الآتي:

1/ شعر هو خيرٌ كلُّه:

يصف النهشلي الصنف الأول من الشعر بأنَّه خير كلُّه، ولفظة (خير) هي اسم تفضيل والأصل فيها (أخير)، بمعنى أحسن وأفضل وأصلح. فأساس هذا الشعر أن تتوفَّر فيه صفة (الخيرية)، في لفظه ومعناه، ومثل هذا الشعر الذي يحمل هذه المواصفات حتما سيكون شعرا نافعا مفيدا مرشدا ومصلحا، وهذه هي الغاية التي يريدها النهشلي من الشعر عامة؛ أن يُحقِّق على المستويين الفردي والجماعي النفع والصلاح والاستقامة، وبذلك يكون الشعر قد ساهم مساهمة فعَّالة في إصلاح المجتمع وتربيته ونشر مكارم الأخلاق بين أفراده، ويكون الشاعر بذلك قد أدَّى رسالة نبيلة وخدمة جليلة تجاه أمته ودينه. وهذه غاية دينية أخلاقية يريد النهشلي تحقيقها من خلال الشعر عامة؛ لأنَّ هذا الصِّنف هو المفضَّل عنده.

والنهشلي هنا يُحمِّل الشاعر مسؤولية عظيمة لا تقل أهمية عن مسؤولية العلماء والوعاظ والمرشدين. وقد مثَّل له (بشعر الزهد والمواعظ والمثل العائد على من تمثَّل به بالخير). ومن المعلوم أنَّ شعر الزهد والمواعظ والحكمة تظهر فيه النزعة الدينية الأخلاقية بصورة واضحة وكبيرة؛ وخاصة شعر الزهد، "الذي لا يلجأ إليه الشعراء إلا في حالات خاصَّة تكون ناتجة عن صفاء النَّفس وتساميها وتوبتها إلى بارئها سبحانه وتعالى. ففي إلقائه تنفيس عن الكربة، وفي الاستماع إليه غسل لأدران السنين. من أجل ذلك عدَّه النَّهشلي في طليعة الأنواع التي يجب أن تسود الشّعر."[1]

فشعر الزهد يغلب عليه طابع الوعظ والدعوة إلى النَّدم على ما فات، والترفُّع عن كلِّ ما يشغل النَّفس والرُّوح عن التعلُّق بالله ونعيم الآخرة، ويُنفِّر من الدنيا وملذَّاتها، ويُذكِّر بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب، والجنَّة وما أعدَّه الله لعباده المتَّقين. كما أنَّ هذا النوع من الشعر يكون نابعا من نفس خالصة، ومشاعر صادقة، وهو خلاصة تجارب طويلة في الحياة، يُقدِّمه الشاعر إلى المتلقِّي للاستفادة والنصح والتوجيه، حاثًّا إيَّاه على التمسُّك بفضائل الأعمال والأخلاق، ومستفزًّا فيه كلَّ معاني الخير والفضيلة. وحتما سيكون تأثير ذلك على المتلقِّي كبيرا وعظيما، لأنَّه حسب النهشلي هو الشعر النَّافع المفيد الصالح المصلح. لهذا السبب كان هذا النوع من الشعر في نظر النهشلي هو الشعر الأفضل والأنفع، ويجب أن يكون على رأس أنواع الشعر؛ فهو كما قال: (شعر هو خيرٌ كلُّه).

[1] – مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص42-43.

والكلام نفسه ينطبق على شعر الحكمة والمواعظ والمثل العائد، فهي أغراض تشترك في الغاية والهدف مع شعر الزهد، والتي تعمل جميعها على تقوية معاني الخير والفضيلة، والحثِّ على مكارم الأخلاق التي يُوصي بها الدِّين ويُؤَكِّد عليها. ولكننا للأسف لا نقف على شواهد كثيرة تُمثِّل هذا الصِّنف من الشعر، فالنَّماذج والأمثلة معدودة محصورة في الكتاب لشعر الزهد والمواعظ والحكمة. والباحث يرى أنَّ النهشلي ما كان له أن يُغفل هذا النوع من الشعر؛ وخاصَّة أنَّه قد اعتبره الأفضل والأحسن من بين أصناف الشعر، بل الرَّاجح أنَّه قد خصَّص له بابا مستقِّلا أو أكثر، ولكن للأسف الشديد ضاع مع جملة ما ضاع من الكتاب، وهذا دليل آخر على أنَّ الكتاب الذي بين أيدينا ليس كاملا، وما جاء من شعر في هذا الباب فقد جاء عرضًا في أبواب مختلفة. وممَّا ذكره النهشلي من الشعر والنثر في هذا الباب ما جاء في (باب البيان)، ومنه: "كتب عليٌّ ﷺ إلى سلمان الفارسي ﷺ: أمَّا بعد فإنَّما مثل الدُّنيا مثل الحيَّة ليِّنٌ مسُّها، شديدٌ سُمُّها، فأعرضْ عمَّا يُعجبُك فيها، لقلَّة ما يصحبك منها، وكن آنَسَ ما تكون بها، أحْذَرَ ما تكون لها، صاحبُها كلَّما اطمأنَّ منها إلى سرور، أشْخصتْه منها إلى محذور، والسَّلام. وقال بعضهم:

مـــــروءة مُعسِـــــر عـــــفٌّ قَنـــــوعٍ يُقـــدَّر فـــي معيشـــته ويُمسِـــكْ
تزيـــد علـــى مـــروءة كـــلّ مُثْـــرٍ يـــروحُ ويغتـــدي جـــمٍّ التملُّـــكْ
وأكثـــرْ مـــن ســـخائك بالعطايـــا سَـــخاءَ الـــنَّفسِ عمَّـــا لـــيس تَمْلِـــكْ[1]

ومن ذلك ذكره خبر قيس بن عاصم الذي عُدَّ أوَّل من حرَّم الخمر على نفسه في الجاهلية، وقال فيها:

رأيـــتُ الخَمْـــرَ صـــالحةً وفيهـــا خلائـــقُ تفضـــحُ الرَّجُـــلَ الكريمَـــا
فـــــلا واللهِ أشـــــربُها صـــــحيحًا ولا أُشـــفِي بهـــا أبـــدًا ســـقيمَا
ولا أُعطِـــي بهـــا ثمنًـــا حيـــاتي ولا أدعُـــو لهـــا أبـــدًا نـــديمَا
فـــإنَّ الخمـــرَ تفضـــحُ شـــاربيها وتجْشـــمْهم بهـــا الأمْـــرَ العظيمَـــا
إذا دارَتْ حُمَيّاهـــــا تعلَّـــــتْ طوالـــعُ تُفسِـــدُ الرَّجـــلَ الحكيمَـــا[2]

وقول أحدهم:

يـــا بـــاكِيَ الأمـــواتِ إنَّـــك ميِّـــتٌ فاجعـــلْ بُكـــاءَك إنْ بكيـــتَ عليكَـــا
لا تبـــكِ غيـــرَك وابْـــكِ نفسَـــك إنَّهـــا أوْلـــى النُّفـــوس بـــذاك مـــن عينيكَـــا

وقال آخر:

إذا أنـــت لـــم تســـتقبل الأمـــرَ لـــم تجـــدْ لكفَّيْـــكَ فـــي إدبـــاره مُتعلِّقَـــا
إذا أنـــت لـــم تتـــرك أخـــاك وزلَّـــةً إذْ زلَّهـــا أوشـــكتُما أنْ تفرَّقَـــا

[1] – النهشلي، الممتع في علم الشعر، ص45.
[2] – المصدر نفسه، ص54.

وكان يُقال: خمسٌ يَقْبُحنَ من خمس: الحرصُ من القُرَّاء، والحِدَّةُ من الأمراء، والبخل من الأغنياء، والفُحش من ذوي الأحساب، والفُتُوَّة من ذوي الأسنان."[1]

فمثل هذا الشعر (شعر الزُّهد والحكمة والوعظ)، الذي تتجلَّى فيه النَّزعة الدّينية، ويغلب عليه الطابع الوعظي، والدعوة إلى النَّدم على ما فات، والإقبال على الآخرة والتَّذكير بما ينتظر العباد يوم القيامة من ثواب وعقاب. قد وجد فيه النَّهشلي الخير كلَّه على المستويين الفردي والجماعي، ويقصد بالخير الصَّلاح والمنفعة والفائدة المحقَّقة من مثل هذا النوع من الشعر على المستوى الشَّخصي، أي على ذات الشاعر، وعلى المستوى الجمعي، أي على الغير من المتلقِّين.

2/ شعر هو ظرفٌ كلُّه:

والنوع الثاني من أصناف الشّعر عند النهشلي هو شعر الظّرف، وهو الشعر الذي يكون في التشبيهات والنُّعوت، وما يفتنُّ به من المعاني والآداب. ووسمه بالظَّرف والظَّرافة، ويعني به الشّعر الممتع والفَكِه واللَّطيف والحسن. جاء لفظ (الظّرف) في لسان العرب بمعانٍ مختلفة، منها: "البراعةُ وذكاء القلب، وقيل: حُسن العبارة، وقيل: الحِذقُ بالشيء، وقد ظَرُفَ ظرفا ويجوز في الشِّعر ظرافة. والظَّريف: البليغ الجيِّد الكلام. وقال محمد بن يزيد: الظَّريف مشتقٌ من الظَّرف، وهو الوعاء، كأنَّه جعل الظَّريف وعاء للأدب ومكارم الأخلاق. وفي حديث ابن سيرين: الكلام أكثر من أن يكذب ظريفٌ؛ أي أنَّ الظَّريف لا تضيق عليه معاني الكلام، فهو يكني ويُعرِّض ولا يكذب."[2]

وشعر الظّرف عند النهشلي هو ما يكون فيه من الظرافة والطرافة وحسن الوصف والتشبيه، ودقَّة المعنى وسُموّه، وجليل الأدب ورفعته، وجميل العبارة ولطيف البراعة، ومن ألوان التَّرويح والتَّرفيه والإمتاع ما يهزُّ النفوس، ويُوقظ الوجدان؛ ويبعث على الإعجاب، ويحمل النَّفس على خوض الصِّعاب وتذليلها، ومجابهة الملل والسأم والضجر، الذي قد يعتريها نتيجة ضغوط الحياة وكثرة مشاكلها، وهذا ما نفهمه من بعض أقوال السَّلف، قال الإمام علي ﷺ: (**إنَّ هذه القُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأَبْدَانُ فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الحِكْمَةِ**)، وقال أبو الدَّرداء ﷺ: (**إنّي لأَسْتَجِمُّ قَلْبِيَ بشيءٍ من اللَّهْو، لِيَكُونَ أَقْوَى لِي عَلَى الحَقِّ**)[3]

فالشعر صوت القلب، ولسان العاطفة، وترجمان خلجات الوجدان، وتأثيره وامتداد سلطانه إلى النفوس واضح جلِّي تكلَّم عنه الكثير من النقاد قديما وحديثا، وذكروا أنَّ فيه من التأثير ما يُشبه السِّحر؛ لأنَّه فنٌّ ممتع لذيذ، يمتلك قيما جمالية متميِّزة؛ حيث يُثير في النَّفس المشاعر النبيلة، فيحملها على الطرب ويُنفِّرها من الرذيلة، ثمَّ يتعدَّى الأمر ليتحوَّل هذا الشعور النفسي إلى سلوكات عملية ومواقف فعلية. وإدراك النهشلي لهذا التأثير الإيجابي للشعر على النَّفس جعله يستحسن هذا النوع، ويُفضِّله ويحث عليه، ويعتبره من الشعر اللاَّحق بالنوع الأول، ألا وهو شعر الخير. ويدخل ضمن

[1] – النهشلي، الممتع في علم الشعر، ص414-415.

[2] – ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص228-229.

[3] – يُنظر القرطبي، بهجة المجالس وأنس المُجالس، ج1، ص115.

هذا النوع من الشعر، شعر الوصف والطَّرد والحماسة والغزل العفيف، وغير ذلك. وهذا ما ذهب إليه محمد مرتاض حين قال: "ذلك أنَّ هناك أغراضا أخرى هي في منزلة الزُّهد، وإن لم تبلغ مبلغه من حيث المدلول مثلما يصدر عن شعراء الغزل والوصف والحكمة والحماسة؛ لما يحمله شعرهم من مزايا تتَّسم بالصِّدق أو بالتخيُّل أو بالبيان المثير."[1]، ويُسعفنا الدكتور مرتاض في سياق شرحه لشعر الظّرف بمثال عن التَّشبيه الجميل الرائع الذي حواه بيت امرئ القيس:

وليـــل كمـــوج البحـــر أرخـــى ســـدوله عليَّ بـــأنواع الـــهموم ليبتلـــي

ثمَّ يقول: "فالصورة التي احتواها هذا البيت ليست غامضة ولا مغرقة في التخيُّل، ولكنَّ الأنظار تُشدُّ نحوها وتنجذب برونقها. والسرُّ في هذا الانبهار الذي هيمن على نفس المتلقِّي هو تعدُّد المشبَّه به، وإن لم يأت المشبَّه إلاَّ مفردا."[2]

وهذا النوع من الشِّعر، نجده في أبواب كثيرة في كتاب الممتع، منها: باب (في ذكر بيوتات العرب)، و(في ذكر اللِّباس والطِّيب)، و(ما قيل في الجمال وحسن الوجوه)، و(في ذكر الهيبة)، و(في الجهارة وخلافها)، و(في ذكر المهيرات والسَّراري)، ومن ذلك قول الطَّائي:

يَـــمْشُونَ فـــي حُلَـــلِ الـــمُلُوكِ عَلَـــيْهِمُ والـــمِسْكُ فـــي عُطُـــفٍ لهُـــمْ ومَـــآزِرِ
قَـــــدُّ اليَمَانِيَّـــــةِ القَوَاطِـــــع قَـــــدُّهُمْ لَيْسُـــوا بِمُمْـــتَلِئِ الـــبُطُونِ ضَـــيَاطِرِ
أُوْلاَكَ يَفْخَـــــرُ بَعْـــــدَهُمْ أبْنَـــــاؤُهُمْ أصْـــحَابُ ألْوِيَـــةٍ ورَكْـــبِ مَنَـــابِرِ[3]

ومنه أيضًا قول الفرزدق:

إنَّ الـــــمَهَالِبَةَ الكِـــــرَامَ تَحَمَّلُـــــوا دَفْـــعَ الـــمَكَارِهِ عَـــنْ ذَوِي المكْـــرُوهِ
زَانُـــوا قَـــدِيمَهُمُ بحُسْـــنِ حَـــدِيثِهِمْ وَكَـــرِيمَ أخْـــلاَقٍ بحُسْـــن وُجُـــوهِ [4]

ومنه قول الفرزدق في الإمام زين العابدين علي بن الحسين **رضي الله عنهما**:

يُغْضِـــي حَيَـــاءً، وَيُغضَـــى مـــن مَهابَتِـــه فَمَـــا يُكَلَّـــمُ إلاَّ حِـــينَ يَبْتَسِـــمُ
هَـــذا الـــذي تَعـــرِفُ البَطْحـــاءُ وَطْأتَـــهُ وَالبَيْـــتُ يعْرِفُـــهُ وَالحِـــلُّ وَالحَـــرَمُ
هـــذا ابـــنُ خَيـــرِ عِبـــادِ اللهِ كُلِّهِـــمُ هـــذا التَّقـــيُّ النَّقـــيُّ الطَّـــاهِرُ العَلَـــمُ
إذَا رَأتْـــهُ قُـــرَيْشٌ قَـــالَ قَائِلُهَـــا إلـــى مَكَـــارِمِ هـــذا يَنْتَهِـــي الكَـــرَمُ
يَكَـــادُ يُمْسِـــكُهُ عِرْفَـــانَ رَاحَتِـــهِ رُكْـــنُ الحَطِـــيمِ إذَا مَـــا جَـــاءَ يَسْـــتَلِمُ[5]

وقال عبد الكريم: ولي أبيات من قصيدة ذكرتُ فيها الهيبة، نقتطف منها:

---

[1] – مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص43.

[2] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3] – النَّهشلي، الممتع في علم الشعر، ص99، والأبيات لا وجود لها في ديوان أبي تمَّام ولا في ديوان حاتم الطَّائي.

[4] – المصدر نفسه، ص105، والبيتان في الديوان، ص645، وفي الديوان نجد (فعالهم) عوض (حديثهم).

[5] – نفسه، ص144. والأبيات في الدِّيوان مع اختلاف قليل في الترتيب، ص511-512.

وَمَجلِـــسٌ موَقُّـــورُ الجَلَالَـــةِ تَنْثَنِـــي عُيُـــونُ الـــوَرَى عَنْـــهُ ويَنْبُـــو خِطَابُهَـــا
تَـــرَى فِيـــهِ رَفْـــعَ الطَّـــرْفِ خَفْضًـــا كَأَنَّمَـــا لِحَـــاظُ الرِّجَـــالِ رِيبَـــةٌ يُسْـــتَرَابُهَا
نَثَـــرْتُ بِـــهِ غُـــرَّ الـــمَعَانِي كَأَنَّهَـــا قَلاَئِـــدُ دُرٍّ زَانَ جِيـــدًا سِـــخَابُهَا
إذا حُكْتُهَـــا ظَلَّـــتْ نَوَاسِـــجُ عَبْقَـــرٍ حَوَاسِـــدَ مَدْسُوسًـــا إلـــيَّ عِتَابُهَـــا
عَلَـــى مَلِـــكٍ تُهْـــدَى إلـــى مَكْرُمَاتـــهِ عَقَائِـــلُ أشْـــعَارٍ يَـــرُفُّ شَـــبَابُهَا
هُمَـــامٌ دَعَـــتْ كَفَّـــاهُ قَاصِـــيةَ العُلَـــى فَلَبَّـــاهُ مِنْهَـــا صَـــفْوُهَا ولُبَابُهَـــا
وَكَيْـــفَ بِهَـــا إلاَّ عَلَيْـــهِ طريقُهَـــا وَأيْـــنَ بِهَـــا إلاَّ إليـــهِ ذَهَابُهَـــا
إذَا وَرَدَ المنصُـــورُ أَرْضًـــا تَهَلَّلَـــتْ وُجُـــوهُ رُبَاهَـــا واسْـــتَهَلَّ رَبَابُهَـــا
إذَا اغْبَـــرَّتِ الآفَـــاقُ بُلَّـــتْ سَـــمَاؤُهُ ثَرَاهـــا بِأَيْـــدٍ مَـــا يَجِـــفُّ رَغَابُهَـــا
كَـــأَنَّ العَـــوَادِي الـــزُّرْقَ عنـــهُ مضـــاؤُها وخُضْـــرُ السَّـــحَابِ مـــن نَـــدَاهُ عُبَابُهَـــا[1]

والنَّهشلي إذْ يُولي شعر الظّرف أهمية كبرى، فلأنَّه يراه سندًا وعونًا للنوع الأول الذي هو خيرٌ كلُّه، فإذا كان الأوَّل واجبًا فإنَّ هذا الصِّنف من الشِّعر مباحًا-في نظر النَّهشلي-؛ لأنَّ النَّفس تحتاج إلى شيء من التَّرويح والتَّسلية، والإجمام ما دام في حيِّز المباح. وأوسع أبواب الأحكام هو المباح؛ لأنَّ الأصل في الأشياء الإباحة، وهذا ما نجده كذلك في الشّعر، فأبواب صنف شعر الظّرف كثيرة وكثيرة جدًّا، ويستطيع الشاعر أن يقول في الأوصاف والنعوت والتشبيهات ممَّا يراه ويسمعه في نفسه ومجتمعه ومحيطه، بل والطبيعة الصَّماء من حوله، كما يتفنَّن في المعاني والقيم السَّامية، ويتحدَّث عن الآداب والفضائل الرَّفيعة. فصدق العواطف والأحاسيس، ودقَّة الوصف، وجودة التشبيه، وجمال الحكمة، وروعة المثل، ورقيّ المعنى والمضمون، وبراعة التخيُّل، كلّها تجعل من هذا الصنف شعرًا راقيًّا، لأنَّه شعر يجمع بين القيمة الجمالية الفنّية، والقيمة النفعية الهادفة. فهو إذن شعر يتواءم وينسجم -في الغالب- مع تعاليم الدِّين ومكارم الأخلاق.

3/ شعر هو شرٌّ كلُّه:

وبنظرته الدينية الأخلاقية لأقسام الشعر، يضع النهشلي صنفا ثالثا من الشعر مقابلا ومضادًّا للصنف الأول؛ إنَّه نوع من الشعر لا خير فيه، بل هو شرٌّ كلُّه كما وصفه. "ويقصد بالشرِّ في قوله هذا، المخالفات الشرعية والأخلاقية التي يحتويها هذا الشعر: كظلم النَّاس والتعدِّي على أعراضهم بشتَّى أنواع الظلم الكلامي، ليضع النَّهشلي غرض الهجاء على رأس هذا النوع من الشعر."[2]

[1] – النَّهشلي، الممتع في علم الشعر، ص146.

[2] – بن جاب الله أنيسة، النظرية النقدية عند عبد الكريم النهشلي، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، إشراف: الدكتور أحمد بن لخضر فورار، السنة الجامعية 2010/2009، ص80.

والشرُّ كما ورد في أُمَّات المعاجم نقيض الخير، وهو السُّوء والفساد، جاء في لسان العرب: "الشَّرُّ: السُّوء والفعل للرَّجل الشِّرِّير، وقومٌ أشرارٌ ضدَّ الأخيار، والفعلُ: شَرَّ يَشُرُّ، بضمِّ الشين وكسرها، وشرَّ إنسانا يَشُرُّه: إذا عابه."[1]، ولعلَّ من أعظم أنواع الإساءة ما يكون بالكلام واللِّسان، وقد نهانا رسول الله ﷺ من إساءة القول كما نهانا من إساءة الفعل، بل ذكر إساءة القول قبل إساءة الفعل؛ وهذا لكثرتها من جهة، ولخطورتها وعِظم شأنها من جهة أخرى، فقد قال رسول الله ﷺ: **«المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ من لِسَانِهِ ويَدِهِ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ »**[2]، ولهذا وقف النَّهشلي موقفا حاسما من شعر الهجاء، وعدَّه على رأس شعر الشَّرِّ كلِّه لما يُسبِّبه من فساد في العلاقات بين النَّاس.

والهجاء فنٌّ من فنون الشعر الغنائي، ومن الموضوعات والأغراض الأساسية التي عرفها الشعر العربي منذ العصر الجاهلي. وهو تعبير عن عاطفة الغضب أو الاحتقار أو الاستهزاء، وهو نقيض المدح، فالعرب–كما قال النَّهشلي–: "تمدح فترفع، وتهجو فتضع، فإذا مدحت الشيء بلطافتها وذلاقة ألسنتها أُختير وبُسِطَ عذرُه، كما غُطِّيتْ بالهجاء محاسنُه. ألا تسمع إلى قول الأوَّل:

فَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا[3]

وأبلغ أنواع الهجاء وأشدُّها وقعا وتأثيرا ما يمسُّ المزايا النَّفسية؛ كأن يصف الشاعر خصمه بالجبن والبخل والكذب... وإذا كان العربي يُسَرُّ ويبتهج لمعاني المديح فإنَّ امتعاضه من الهجاء أشدُّ وأكبر، ويبدو أنَّ خوف العرب من الهجاء كان أظهر من ارتياحهم للمدح، وأنَّهم كانوا من ألسنة الشعراء الحداد على حذر، فهم يعايشونهم ويحاذرونهم حذر الوحوش والسِّباع الضارية وربَّما أشدُّ. فالعربي يخشى أن تُسجَّل عيوبه، أو يُرمى بوصف شنيع يبقى عاره وصمة تُطارده حيًّا وميّتًا، وتُلاحق بعده عقبه، وفي هذا يقول النَّهشلي: "وأكرم العرب في أنفسها يشتدُّ تخوُّفها من الهجاء، وتنفي أن يبقى ذِكْر ذلك في الأعقاب. وكانوا إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق لا يهجوهم، وربَّما شدُّوا لسانه،كما فعل بنو تميم يوم الكُلاب بعبد يغوث، فسألهم أن يُطلقوا لسانه لينُوح على نفسه، فقال:

أَقُولُ وقد شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ أَمَعْشَرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا عَنْ لِسَانِيَا
وتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ عبْشَمِيَّةٌ كَأَنْ لَمْ تَرَ قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيَا
كَأَنِّيَ لم أَرْكَبْ جَوَادًا ولم أَقُلْ لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً عَنْ رِجَالِيَا
فَيَا رَاكِبًا إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ نَدامَايَ مِن نَجْرَانَ أَلاَّ تَلاَقِيَا
أَبَا كَرِبٍ والأَيْهَمَيْنِ كِلَيْهِمَا وقَيْسًا بِأَعْلَى حَضْرَمَوْتَ اليَمَانِيَا[4]

[1] – ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص400.
[2] – البخاري، صحيح البخاري، ج1، كتاب الإيمان، رقم الحديث10، ص63.
[3] – النهشلي، الممتع في علم الشعر، ص267.
[4] – النهشلي، الممتع في صنعة الشعر، ص194-195.

والنَّهشلي تناول غرض الهجاء في أبواب مختلفة في كتاب الممتع، فنجده في (باب احتماء الشعراء بالشِّعر وذبِّهم به عن الأعراض)، وفي مستهلِّه يقول: "كانت العرب لا تعدِلُ بالشِّعر كلامًا لِمَا يُفخِّم من شأنهم ويُنهي من ذكرهم."[1]، فالشِّعر كما يُقال (سلاحٌ ذو حدَّين)، يُعلي من شأن الفرد أو القبيلة، إن كان مدحًا، ويحط من قدرهما ويُزري بهما إن كان هجاءً. والشعراء كما ذكر النَّهشلي: "تستحسن انتصارها بألسنتها، ويُقيم ذلك أحدُهم مقام سيفه ويده"[2]، إلاَّ أنَّ بعض الشعراء قبل أن يُطلق لسانه بالهجاء يُحذِّر ويتوعَّد ويُهدِّد، فإن لم يُسمَع لتحذيره وتهديده نفذَّ ما توعَّد به كما فعل جرير مع بني حنيفة، حيث قال:

أَبَـــنِي حَنيفَـــةَ حَكِّمُـــوا سُـــفَهَاءَكُمْ إِنِّـــي أَخَـــافُ عَلَـــيْكُمْ أَنْ أَغْضَـــبَا

أَبَـــنِي حَنِيفَـــةَ إِنَّـــني إِنْ أَهْجُكُـــمْ أَدَعِ الـــيَمَامَةَ لا تُـــوَارِي أَرْنَبَـــا

فقوله: حكِّموا أي امنعوا، ومنه حَكَمَةُ اللِّجام.[3] وهمَّ الفرزدق بهجاء عبد القيس، فبلغ ذلك زيادًا الأعجم، وهو من عبد القيس، فبعث إليه: لا تعجلْ وأنا أُهدي إليك هديَّة. فانتظر الفرزدق الهديَّة فجاءه من عنده:

وَمَـــا تَـــرَكَ الهَـــاجُونَ لـــي إِنْ هَجَوْتُـــهُ مَصَـــحًّا أَرَاهُ فـــي أَدِيـــمِ الفَـــرَزْدَقِ

ولَا تَرَكُـــوا لَحْمًـــا يُـــرَى فَـــوْقَ عَظْمِـــهِ لآكِلِـــــــه أَبْقَـــــوْهُ لِلمُتَعَـــــرِّقِ

سَأُكْسِـــرُ مـــا أَبْقَـــوا لَـــهُ مِـــن عِظَامِـــهِ وأَنْكُـــتُ مُـــخَّ السَّـــاقِ مِنـــهُ فَـــأنتَقِي

وإِنَّـــا ومَـــا تُهْـــدِي لنَـــا إِنْ هَجَوْتَنَـــا لَكَـــالبَحْرِ، مَهْمَـــا يُلْـــقَ فـــي البَحْـــرِ يَغْـــرَقِ

فلمَّا بلغه الشِّعر قال: ليس لي إلى هجاء هؤلاء سبيلٌ ما بقي هذا العبد! وكان زيادٌ هجَّاءً شديد العارضة.[4]، وهجا رجلٌ من بني حرام الفرزدق، فجاء به قومه إليه يقودونه. فقال الفرزدق:

فَمَـــنْ يَـــكُ خَائِفًـــا لأَذَاةِ شِـــعْرِي فَقَـــدْ أَمِـــنَ الهِجَـــاءَ بَنُـــو حَـــرَامِ

هُـــمْ رَدُّوا سَـــفِيهَهُمْ وَخَـــافُوا قَلَائِـــدَ مِثْـــلَ أَطْـــوَاقِ الحَمَـــامِ[5]

وهذا ما جعل سادات العرب وأشرافهم يترفَّعون عن قول الهجاء، ويرونه منقصة لمروءتهم، ومذهبة لشرفهم ومكانتهم، وقد أفرد النَّهشلي في هذه المسألة بابا سمَّاه (في أنفة السادات من قول الهجاء) حيث افتتح هذا الباب بقوله: "وقد تفعل العرب ذلك أنفًا عن قول الهجاء لما فيه من سوء الأثر، وتدع جواب الهاجي تنزُّهًا عنه."[6]، وهذه الأنفة من

---

[1] – النَّهشلي، الممتع في علم الشعر، ص191.

[2] – المصدر نفسه، ص313.

[3] – نفسه، ص191، والبيتان في الدِّيوان، ص47.

[4] – نفسه، ص192، والأبيات في الدِّيوان، ص 87-88.

[5] – نفسه، ص193. ولا أثر للبيتين في الدِّيوان.

[6] – نفسه، ص301.

بعض العرب ومنهم الشعراء مردُّها إلى نظرهم في عاقبة قول الهجاء، وسوء أثرها، وقد ذكر النَّهشلي بعض الشعراء الذين تعفَّفوا عن قول الهجاء، وعدم ردِّهم على من هجاهم تنزُّهًا وتعفُّفًا منهم. ومن هؤلاء معيذ بن علقمة الذي يقول:

قُـــلْ لزُهَيْـــرٍ إنْ شَـــتَمْتَ سَـــرَاتَنَا فَلَسْـــنَا بشَـــتَّامِينَ للمُتَشَـــتِّمِ

ولَكِنَّنَـــا نَـــأْبَى الظُّـــلامَ ونَعْتَصِـــي بِكُـــلِّ رَقِيـــقِ الشِّـــفْرَتَيْنِ مُصَـــمَّمِ

وَتَجْهَـــلُ أيْـــدِينَا ويَحْلُـــمُ رَأْيُنَـــا وَنَشْـــتِمُ بالأَفْعَـــالِ لَا بـــالتَّكَلُّمِ

وإنَّ التَّمَـــادِي فـــي الـــذي كَـــانَ بَيْنَنَـــا بِكَفَّيْـــكَ فَاسْـــتَأْخِرْ لَـــهُ أوْ تَقَـــدَّمِ [1]

وكذلك من الشعراء الذين أنفوا من قول الهجاء تميم بن مقبل، ويُورد النَّهشلي خبره إعجابًا بما صنع، فيقول : "وكان الأعور ابن براء يهجو بني كعب بن ربيعة فأتت بنو كعب تميم بن مقبل، فقالوا ألا ترى ما يصنع الأعور بقومك؟ فقال: ما تشاؤون؟ قالوا: نشاء أن تهجو بني فلان، قال: انصرفوا، فإذا أتاكم الشِّعر فارؤوا. واندفع وهو يقول:

ولَسْـــتُ وإنْ شَـــاحَنْتُ بَعْـــضَ عَشِـــيرَتي لِأَذْكُـــرَ مَـــا الكَهْـــلُ الكِلَابـــيُّ ذَاكِـــرُ

فَكَـــمْ لـــي مِـــنْ أمٍّ لَعِبْـــتُ بِثَـــدْيِهَا كِلَابِيَّـــةٍ عَـــادَتْ عَلَيْهَـــا الأَوَاصِـــرُ

فسمعت بذلك بنو كعب فشتموه، وسمعت بنو كلاب فركبوا إلى الأعور فنَهَوْهُ عن بني كعب، وقالوا له: العَجْلانيّ خير منك أتوه بنو كعب يأمرونه بهجاء بني كلاب، فمدح بني كلاب. فقال الأعور:

وَلَسْـــتُ بِشَـــاتِمٍ كَعْبًـــا وَلَكِـــنْ عَلَـــى كَعْـــبٍ وشَـــاعِرِهَا السَّـــلَامُ

وَلَسْـــتُ بِبَـــائِعٍ قَوْمًـــا بِقَـــوْمٍ هُـــمُ الأَنْـــفُ المُقَـــدَّمُ والسَّـــنَامُ

وَكَـــائِن فِـــي المَعَاشِـــرِ مِـــنْ قَبِيـــل أخُـــوهُم فَـــوْقَهُم وَهُـــمُ كِـــرَامُ

ولم يقل الأعور بعدها شيئًا."[2]، ويُؤكِّد النَّهشلي أنَّ امتناع بعض الشعراء عن الهجاء مرتبط ارتباطا وثيقا بالمعيار الأخلاقي، فقد نفَرت طائفة من الشعراء منه، وعدَّته غرَضًا غير نبيل، ومنافٍ لمحاسن الأخلاق التي نشأ وتربَّى عليها الإنسان العربي؛ إذ هو في الغالب ضربٌ من السبِّ، ولون من ألوان القذف والشَّتم، وهذا هو الهجاء المرفوض في نظر النَّهشلي، والذي تأباه النُّفوس الأبيَّة. وهو ما وثَّقه بعض الشعراء حين قال:

أَرَادَتْ وَذَاكُـــمْ مِـــنْ سَـــفَاهَةِ رَأْيِهَـــا أَنَ اهْجُوهَـــا لـــمَّا هَجَتْنِـــي مُحَـــارِبُ

مَعَـــاذَ إلَهِـــي إنَّنِـــي لِعَشِـــيرَتي وَنَفْسِـــي عَـــنْ ذَاكَ الـــمَقَامِ لَرَاغِـــبُ

وقيل لصخر بن عمرو بن الشَّريد: ألا تهجو دُريدًا وهاشمًا ابني حرملة المُرِّيين من غطفان، وهما من قتلا أخاه معاوية! فقال: ما بيني وبينهم أقذع من الهجاء، وأنا أصون لساني عن الخنا. ثمَّ خاف أن يُظنَّ به عِيٌّ، فقال هذه الأبيات:

[1] – النَّهشلي، الممتع في علم الشعر، ص301.

[2] – المصدر نفسه، ص301-302.

وَعَاذِلَـــةٍ هَبَّـــتْ عَلَـــيَّ تَلُـــومُنِي ألاَ لاَ تَلُـــومِينِي كَفَـــى اللَّـــوْمَ مَابِيَـــا
تَقُـــولُ أَلَا تَهْجُـــو فَـــوَارِسَ هَاشِـــمٍ وَمَـــا لِـــيَ أَنْ أَهْجُـــوهُمُ ثُـــمَّ مَـــا لِيَـــا
أَبَـــى الشَّـــتْم أَنِّـــي قَـــدْ أَصَـــابُوا كَرِيمَتِـــي وأَنْ لَـــيْسَ إِهْـــدَاءُ الخَنَـــا مِـــنْ شِـــمَالِيَا[1]

لذا كانت قبائل العرب أشدَّ ما تخشاه الشعراء الهجَّائين؛ ولتتحاشى هجاءهم كانت تُكرمهم وتُغدق عليهم الأموال والهدايا، مخافة أن تُوسم بوصف شنيع أو سُبَّة عارية تبقى إلى أبد الآبدين. لهذا نجد النَّهشلي في باب (النَّهي عن تعرُّض الشعراء) يقول: "قالوا: لا ينبغي لعاقل أن يتعرَّض لشاعر فربَّما كلمة جرت على لسانه فصارت مثلاً آخر الأبد. كالذي قال للأُقيشر الأسديّ: يا أُقيشر! وكان يغضب من ذلك فنظر إليه طويلاً، وكان الرَّجل من بني عبْس فقال:

أتَـــدْعُونِي الأُقَيْشِـــرَ ذَاكَ اسْـــمِي وَأَدْعُـــوك ابـــنَ مُطْفِئَـــةِ السِّـــرَاجِ
تُنَـــاجِي خِـــدْنَهَا باللَّيْـــلِ سِـــرًّا وَرَبُّ النَّـــاسِ يَعْلَـــمُ مَـــنْ تُنَـــاجِي

فسُمِّي ذلك الرَّجل ابن مُطفئة السِّراج ويُعرَف به ولده إلى اليوم."[2]، ولهذا قالت العرب: (رُبَّ قول أنفذُ من صول)، "ألا ترى إلى علقمة بن علاثة بن الأحوص بن جعفر بن كلاب كيف بكى من قول الأعشى:

تَبِيتُـــونَ فِـــي الـــمَشْتَى مِـــلاَءً بُطُـــونُكُمْ وَجَـــارَاتُكُمْ غَرْثَـــى يَبِـــتْنَ خَمَائِصَـــا

والعرب لا ذُلَّ عندها أذلُّ من البكاء."[3]، ويذكر أبيات دعبل الخُزاعيّ التي يُحذِّر فيها من التعرُّض للشعراء:

لَا تَعْرِضَـــنَّ بمَـــزْحٍ لامْـــرِئٍ طَـــبِنٍ مَـــا رَاضَـــهُ قَلْبُـــهُ أَجْـــرَاهُ فِـــي الشَّـــفَةِ
فَـــرُبَّ قَافِيَـــةٍ بِالـــمَزْحِ جَارِيَـــةٍ مَشْـــؤُومَةٍ لَـــمْ يُـــرَدْ إِنْمَاؤُهَـــا نَـــمَتِ
إِنِّـــي إِذَا قُلْـــتُ بَيْتًـــا مَـــاتَ قَائِلُـــهُ وَمَـــنْ يُقَـــالُ لَـــهُ وَالبَيْـــتُ لَـــمْ يَمُـــتِ[4]

وفي باب(فيمن نوَّه به المدح وحطَّه الهجاء)، عرض النَّهشلي بعضًا ممَّن حطَّ الهجاء من شأنهم وقدرهم، وكانوا قبل ذلك أهل عزَّة وفخار، منهم بنو نُمير بن عامر، حيث "كان الرَّجل من بني نُمير إذا قيل له ممَّن الرَّجل؟ قال: من بني نُمير بن عامر كما ترى! فما هو إلاَّ أن قال جرير:

فَغُـــضَّ الطَّـــرْفَ إِنَّـــكَ مِـــنْ نُمَيْـــرٍ فَـــلاَ كَعْبًـــا بَلَغْـــتَ وَلاَ كِلاَبَـــا

حتَّى صار الرَّجل من بني نُمير إذا قيل له: ممَّن أنت؟ قال من بني عامر! وفي نسائهم قال جرير أيضًا:

إِذَا جَلَسَـــتْ نِسَـــاءُ بَنِـــي نُمَيْـــرٍ عَلَـــى تِبْـــرَاكَ خَبَّثَـــتِ الـــتُّرَابَا

وتبراك ماء لبني نُمير.

---

[1] – يُنظر النَّهشلي، الممتع في علم الشعر، ص308-309.
[2] – المصدر نفسه، ص239.
[3] – نفسه، ص242-243.
[4] – النَّهشلي، الممتع في صنعة الشعر، ص201، ويُنظر الأبيات في الدِّيوان، ص70.

وهي مسبَّة لا يكاد أحد يذكرها لمكان بيت جرير. وإذا قيل لأحدهم: أين تنزل؟ قال: على ماء، ولم يقل: تِبْرَاكَ."[1]

وقد فعل شعر الهجاء فعله في بعض القبائل، فسلب فضائلهم، وأظهر مثالبهم، وحطَّ من قدرهم بين القبائل، يقول النَّهشلي: "فأمَّا مَن وضعه الشّعر من القبائل وقصَّر به حتَّى صار مثلا، وإن كان فيهم خير كثير وشرف وفرسان، فباهلةُ وغَنيّ وعُكْلُ وسَلُول ومُحَارب وجَسْر وتَيْم والحَبِطَات بن عمرو بن تميم، الذي قال فيهم الشاعر:

رَأَيْتُ الحُمْرَ مِنْ شَرِّ المَطَايَا كَمَا الحَبِطَاتُ شَرُّ بني تَمِيمِ[2]

ومع هذا فقد كان لشعر الهجاء أهمية كبرى في حياة العرب، وقد عرف قدماء النقاد هذه الأهمية والمكانة لهذا النوع من الشعر، واعتبروه من الموضوعات والأغراض الأساسية للشعر العربي، وعدَّوه أصلا من أصول الشعر العربي منذ الجاهلية. فهذا أبو تمام في حماسته يُقسِّم الشعر إلى عشرة أبواب، منها الهجاء، وهي: "الحماسة، فالمراثي، فالأدب، فالنَّسيب، فالهجاء، فالأضياف والمديح، فالصفات، فالسِّير والنعاس، فالمُلح، فمذمَّة النِّساء."[3]. كذلك نجد قدامة ابن جعفر في كتابه (نقد الشعر) يُقسِّم الشعر حسب أغراضه إلى ستَّة أقسام؛ منها غرض الهجاء. فيقول في (باب المعاني الدال عليها الشعر): "وأن أجعل ذلك في الأعلام من أغراض الشعراء وما هم عليه أكثر حوما، وعليه أشدُّ رَوْمًا، وهو: المديح، والهجاء، والنَّسيب، والمراثي، والوصف، والتشبيه."[4]، والنَّهشلي نفسه يجعل الهجاء صنفا من أصناف الشعر، وهذا ما ذكره عنه تلميذه ابن رشيق في العمدة. "وقال عبد الكريم: يجمع أصناف الشعر أربعة: المديح، والهجاء، والحكمة، واللَّهو."[5]

والهجاء قد يراه الكثير من النَّاس شرًّا في معظمه، وفيه الكثير من المساوئ؛ إلاَّ أنَّه لا يخلو من بعض المحاسن ووجوه الخير، "فالهجاء ليس فقط فنَّ السِّباب والشتائم، فإذا تأمَّلنا قصيدة الهجاء نفهم دروسا أخلاقية تُشجِّعنا على العمل بعكس هذه الصفات التي استدعت الهجاء، والشاعر بقوَّة ألفاظه الهجائية يُصوِّر لنا وجهين للحقيقة وللحياة، وجه الخير ووجه الشَّرِّ، فهو إذًا يرسم لنا مثالا أعلى يدعونا للتطلُّع إليه."[6]، ويُفهم من هذا أنَّ غرض الهجاء لا يتناقض مع غرض المدح بل يُكمِّله؛ كلاهما فيه إعلاء لقيم المجموعة، فإذا كان المدح استنهاضا للمتلقِّي كي يتحلَّى بالقيم الممدوحة، فإنَّ الهجاء بتركيزه على الخصال المذمومة، لا يكتفي بتنفير المتلقِّي منها بل يستنهضه للتحلِّي بنقيضها خشية أن يُهجى أو يُحتقر. وهذا يعني أنَّ الاختلاف بين غرضي المدح والهجاء إنَّما يكمن في الطريقة؛ فإذا كان المدح ترغيبا، فإنَّ الهجاء

---

[1] – النَّهشلي، الممتع في علم الشعر، ص209-210.

[2] – المصدر نفسه، ص214.

[3] – أبو تمام، الحماسة، ج1، ص36.

[4] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص91.

[5] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص104.

[6] – سراج الدِّين محمد، الهجاء في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص8.

ترهيبٌ. المدح وصف لما هو كائن أو يجب أن يكون، والهجاء وصف لما يجب أن يتغيَّر أو يزول، المدح يرفع ويُمجِّد، والهجاء يضع ويحقِّر، لكنَّهما يتفقان من جهة الغاية التي ينشدها الكلام، فيرسمان الحدود الفاصلة بين القيمة ونقيضها، ويضطلع كلٌّ منهما بدور نفعيٍّ بالمعنى الاجتماعي. فالشاعر من خلال قصيدة الهجاء يُلامس غاية أخلاقية غير مباشرة –وإن لم يقصد ذلك– لأنَّه يدعو إلى تَرْكِ هذه الخصال المذمومة، ويُحذِّر من الاتصاف أو التمسُّك بها، فعندئذ سيُشهَّر بها وتصبح وصمة عار لا تُمحى في شخصه وفي عقبه. وهذا ما لا يقبله العربي الأصيل صاحب المروءة والطِّباع الكريمة. وهذا المعنى هو ما قصده الجاحظ حين قال: "وربَّما قال الشاعر في هجائه قولا يعيب به المهجُوَّ فيمتنع من فِعله المهجُوُّ، وإن كان لا يلحق فاعله ذمٌّ، وكذلك مدحه بشيء أُولِعَ بفعله، وإن كان لا يصير إليه بفعله مدحٌ."[1]، لذا نُجزم أنَّ النهشلي لم يضع شعر الهجاء جملة في باب الشَّرِّ، فمن المؤكَّد أنَّه لا يخفى على ناقدنا أنَّ هناك هجاء مطلوبا ومرغوبا فيه، وحثَّ عليه الرسول ﷺ ودعا الشعراء إليه، بل واعتبره نوعا من الجهاد ـ كما مرَّ بنا ـ وهو هجاء كفَّار قريش وأعداء الدِّين دفاعا عن الإسلام والرسول ﷺ، وانتصارا للحقِّ. فمثل هذا الهجاء سيظلُّ موجودا ومباحا كلَّما دعت الحاجة إليه؛ لهذا استطرد النهشلي وخصَّ من الهجاء أشنعه وأفظعه، وهو: (ما تسرَّع به الشاعر إلى أعراض النَّاس)، فالهجاء المرفوض في نظر النهشلي ما كان ينبش في أعراض الناس، ويعتدي على الحرمات، ويحطُّ من قدر وقيمة المهجُوِّ، وينال بالسبِّ والشتم والتجريح والإقذاع، وذِكْرِ العيوب الخِلْقية والجسمية، فهذا هو الهجاء المذموم عند النهشلي، وبالتالي لا يجوز للشاعر الخوض فيه كما لا يجوز لغيره روايته، وهذا انطلاقا واعتمادا على كثير من النصوص القرآنية والحديثية التي تنهى وتُحرِّم ذلك، ذلك لأنَّ الهجاء بهذا المفهوم هو أذى وظلم واعتداء على الغير، والله عزَّ وجلَّ يقول:﴿وَالَّذِينَ يُؤذُونَ الْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[2]، والرسول ﷺ يقول: « **الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ على الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ** »[3]

والنَّهشلي إذْ يُصنِّف شعر الهجاء في باب الشرِّ، لدليل على أنَّ الناقد يُدرك تمام الإدراك حقيقة الشعر ووظيفته الإصلاحية، ودوره التَّهذيبي والتربوي، وتأثيره الاجتماعي، فمثل هذا الشعر لا يتفق ولا يخدم وظيفة الشعر ودوره الأخلاقي، بل على العكس من ذلك تماما؛ فهو يهدم ويُفسد هذه الغايات والمرامي. وهذا ما جعل النَّهشلي يمتنع أوَّلا عن قول شعر الهجاء، فهو لم يهجُ أحدًا كما ذكر تلميذه ابن رشيق، ثمَّ اتِّخاذه هذا الموقف النقدي الحاسم من الهجاء لاعتبارات دينية وأخلاقية واجتماعية. فالنهشلي بهذا الموقف "يسعى إلى حماية الساحة الأدبية من كلِّ انفلات أخلاقي؛ لأنَّ المقذع الفاحش منه يُسهم في تعميق الهوَّة بين الأفراد، وما دام أنَّه لا يخدم الجانب التهذيبي التربوي كانت

[1] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج4، ص81.

[2] – سورة الأحزاب، الآية 58.

[3] – مسلم، صحيح مسلم، كتاب البرِّ والصِّلة والآداب، رقم الحديث2564، ص777.

استراتيجيته في التعاطي مع هذا الغرض بتلك الكيفية. فالشعر لا سيما في هذه المرحلة التي نتحدَّث عنها هو العلامة الكاشفة لطبيعة الثقافة وسلوكات المجتمع، والمُحدِّد لاتجاهاتها."[1]

ومن نماذج الهجاء التي ذكرها النَّهشلي نجده في (باب البيان)، يُقابل أبياتًا للنابغة الذبياني يهجو فيها النعمان بن المنذر بأبيات حسَّان بن ثابت التي يمدح فيها آل جفنة، يقول النَّهشلي: ونظير أبيات حسَّان في جمعها وجوه الممادح شعر النّابغة في جمعه وجوه المقابح في هجائه للنُّعمان بن المنذر:

خَبّرُونِـــي بَنِـــي الشَّـــقِيقَةِ مـــا يَمْـــ نَـــــعُ فَقْعًـــا بِقَرْقَـــرٍ أَنْ يَـــزُولَا

قَـــبَّحَ اللهُ ثُـــمَّ ثَنَّـــى بِلَعْـــنٍ وَارِثَ الصَّـــائغ الجَبَـــانَ الجَهُـــولَا

مَـــنْ يَضُـــرُّ الأَدْنَـــى وَيَعْجِـــزُ عَـــنْ ضَـــرِّ الأَقَاصِـــي وَمَـــنْ يَخُـــونُ الخَلِـــيلَا

يَجْمَـــعُ الجَـــيْشَ ذَا الأُلُـــوفِ وَيَغْـــزُو ثُـــمَّ لا يَـــرْزَأُ العَـــدُوَّ قَتِـــيلَا

وتدبَّر هذه الأبيات فإنَّك تجدها غاية فيما تكرهه العرب وتتشاءم به. ألا ترى كيف جمع في بيت واحد القُبح وفيه الاستيلاء على جميع ما يُكره ويُستشنَع، واللَّعن هو النَّفي والطَّرد ثمَّ جعله موضعا لئيم الخال، والعرب تتمادح بالخال، فأمُّ النعمان بن المنذر هي سلمى بنت عطيَّة الصَّائغ اليهودي من أهل فدك. ثمَّ قال: (الجبان الجهولا)، وهما من شرِّ ما يُقذف به المرء. ثمَّ جعله عاجزًا ضعيفًا يضرُّ الأدنى ويقصر عن ضرِّ من بَعُدَ منه، خائنًا لخليله. والخيانة تجمع الغدر وقلَّة الوفاء وخيانة الجار في أهله والتَّقصير والعجز. ثمَّ وصفه بالخيبة في مغازيه وقلَّة الفوز والظَّفر وحرمان التَّوفيق وتأخُّر الإقدام. فسبحان من سيَّره لجمع هذه المخازي.[2]

ولا نفهم من تعليق النَّهشلي أنَّه معجب بهذا الهجاء، فهو يُورد هذا المثال ليُبيِّن فقط ما يكون من شعر الهجاء من ذكر المخازي والعيوب والمقابح لهذا المهجوِّ أو ذاك، والتي قد يبقى أثرها في الأعقاب. والنَّهشلي "يرى أنَّ الهجاء الذي يُصيب به الشاعر الغرض المقصود هو الذي يتضمَّن أكبر قدر من المعاني، وتكثر فيه أضداد المديح، وذلك ما وُفِّق إليه النابغة في هجائه للنعمان بتلك الأبيات المتقدِّمة التي جمعت أكبر قدر من المخازي بما فيها القبح واللؤم، والضعف والخيانة، والفشل والجبن."[3]، وهذا ما أثار استغراب ودهشة النَّهشلي، قائلاً: (فسبحان من سيَّره لجمع هذه المخازي!).

وفي باب(في ألقاب الشعراء) يعرض النَّهشلي أبياتًا لأبي عيينة يهجو فيها ابنَ عمِّه خالدًا، يقول فيها:

---

[1] – بن مدَّاح شميسة، الحركة الأدبية والنقدية في الجزائر من التأسيس إلى نهاية القرن السادس الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، إشراف: محمد مرتاض، السنة الجامعية 2017/2016م، ص308.

[2] – يُنظر النَّهشلي، الممتع في علم الشعر، ص82-84، والأبيات في الدِّيوان مع اختلاف طفيف، ص170، وجاء فيه أنَّ ابن الأعرابي قال: هذه القصيدة لعبد القيس بن خفاف البرجميّ.

[3] – يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص95.

وتَبَـــــدَّلْتُ خَالِـــــدًا لَعْنَـــــةَ الـلَّـــــــــــــهِ عَلَيْـــــهِ ولَعْنَـــــةَ اللاَّعِنِينَـــــا
رَجُـــــلٌ يَقْهَـــــرُ اليَتِـــــيمَ وَلَا يُـــــؤْ تِـــــي زَكَـــــاةً وَيَنْهَـــــرُ المسْـــــكِينَا
وَيَصُـــــونُ الثِّيَـــــابَ وَالعِـــــرْضُ بَـــــالٍ ويُرَائِـــــي وَيَمْـــــنَعُ الـــــمَاعُونَا
نَـــــزَعَ اللهُ منـــــه صَـــــالِحَ مـــــا أَعْـــــ ـــــطَاهُ آمِـــــينَ عَـــــاجِلاً آمِينَـــــا
إنَّ أَضْـــــيَافَ خَالِـــــدٍ وبَـنِـــــيه لَيَجُوعُـــــونَ فَـــــوْقَ مَـــــا يَشْـــــبَعُونَا
وَتَـــــرَاهُم فـــــي غَيْـــــرِ نُسْـــــكٍ يَصُـــــومُو نَ ومِـــــنْ غَيْـــــرِ عِلَّـــــةٍ يَحْتَمُونَـــــا
يَـــــا بَنـــــي خَالِـــــدٍ دَعُـــــوهُ وَفِـــــرُّوا كَـــــمْ عَلَـــــى الجُـــــوعِ وَيْحَكُـــــمْ تَصْـــــبِرُونَا
أَنْشِـــــدُوهُ مَـــــا قُلْـــــتُ فيـــــه مِـــــن الشِّعْـــــ ـــــرِ وَأَنْـــــتُمْ مِـــــنْ مِثْلِـــــه آمِنُونَـــــا
أَيُّكُـــــمْ جَـــــاءَهُ بِمَـــــا قُلْـــــتُ أَهْدَيْـــــ ـــــتُ لَـــــهُ بَطَّـــــةً وَجَـــــدْيًا سَـــــمِينَا
يَـــــا بَنِـــــي خَالِـــــدٍ فَبِـــــئْسَ أَبُـــــو القَـــــوْ مِ وَأَنْـــــتُم واللَّـــــه بِـــــئْسَ البَنُونَـــــا

ويُعلِّق النَّهشلي على الأبيات قائلاً: "هذا شعر مطبوع. وكان أبو عيينة يهجو خالدًا ويعفُّ عن ذكر الحرُمات لقرابته منه ثم يبلغ به منه إلى ما يُهلكه به ويُؤذيه ويتخلَّص أحسن تخلُّص."[1]

4/ شعرٌ يُتكسَّب به:

لـمَّا كانت ظاهرة التكسُّب بالشعر من القضايا البارزة في الشعر والنقد العربيين منذ القديم؛ وذلك لارتباط الشعر بالسلطة والسياسة منذ العصر الجاهلي، "دفعت الرغبة بعطايا الملوك وأرباب الدول، والرَّهبة من بطشهم وسطوتهم، وحبّهم والتعلُّق الشديد بهم، الشعراء إلى مديحهم وترويج سياساتهم، وقام الحُكَّام بدورهم، إذْ أغدقوا الأموال على مقرّبيهم ومادحيهم من الشعراء، فعاش بعضهم حياة رغيدة في أكناف الملوك والأمراء والخلفاء.."[2]

فهذه الحالة الوضيعة التي ارتضاها بعض الشعراء لأنفسهم، بأن أصبحوا شعراء متكسِّبين استدعت حضور هذه الظاهرة في أذهان النقاد العرب القدامى مبكِّرا، فتناولوها بالتَّحليل والنقد، وكانت أحكامهم النقدية في مجملها الاستهجان لهذا التصرُّف من الشاعر، ورفض هذه الظاهرة المقيتة التي غيَّرت قيم الشعر الجميلة وأهدافه النبيلة. وأكَّد النقاد على أنَّ هذه الظاهرة أي التكسُّب بالشعر قد أفقدت الشّعر خصائصه ومزاياه التي تسامى بها من صدق الشعور وقول الحقِّ والحقيقة، وفَقَدَ الشاعر بذلك مكانته وشرفه وكرامته. ولعلَّ أقدم الكتب التي تناولت هذه الظاهرة، كتاب جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي؛ فقد نقل هذا الناقد آراء النقاد العرب القدامى في الشعراء الجاهليين، وكان لظاهرة التكسُّب بالشعر أو الأنفة منها دور مهمٌّ في الحكم على بعض أولئك الشعراء وعلى شعرهم، كما كان لهذه

[1] – النَّهشلي، الممتع في علم الشعر، ص183-184.

[2] – عبد الرحيم رائد، ظاهرة التكسُّب بالشعر وتجلّياتها في النقد العربي القديم، مجلة جامعة الأزهر، غزَّة، فلسطين، سلسلة العلوم الإنسانية، ع1، مج12، السنة2010م، ص422.

الظاهرة حضور في عدد من الكتب النقدية والأدبية مثل الشعر والشعراء لابن قتيبة، والبيان والتبيين للجاحظ، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، وإحكام صنعة الكلام للكلاعي، والصناعتين لأبي هلال العسكري، والعمدة لابن رشيق القيرواني،[1] ومن قبله بطبيعة الحال أستاذه النهشلي في كتابه الممتع. وابن خلدون في مقدِّمته، وغير هؤلاء كثير. وقد عبَّر هؤلاء النقاد والأدباء عن رفضهم التكسُّب بالشعر، وكان رفضهم مبنيًّا على موقف خلقي واجتماعي ونفسي؛ فالشاعر المتكسِّب يضطرُّ إلى التذلُّل، وإراقة ماء الوجه، ومن ثَمَّ الكذب حين يُسبغ على الممدوح صفات غير حقيقية، ويضعه في مرتبة ليس لها أهلًا ، وهذا ما يُؤكِّده ابن خلدون في هذه المسألة بقوله: "فصار غرض الشعر في الغالب إنَّما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للأوَّلين."[2]، وبيَّن هؤلاء النقاد أنَّ التكسُّب بالشعر أسقط الشعراء المتكسِّبين، وقد كانوا أعزَّة في أقوامهم، يقول ابن قتيبة في معرض ترجمته للنابغة الذبياني: "وكان شريفا فغضَّ منه الشعر، وكان مع النعمان بن المنذر ومع أبيه وجدِّه، وكانوا له مُكرمين."[3]

وشعر التَّكسُّب هو الصنف الرابع حسب تقسيم النهشلي. وقال في بيانه: (وشعر يُتكسَّب به، وذلك أن يحمل إلى كلِّ سوق ما ينفق فيها، ويُخاطب كلُّ إنسان من حيث هو ويأتي إليه من جهة فهمه)، فالنَّهشلي يُبيِّن سبب رفضه لشعر المديح التكسُّبي، والتي من أبرزها سخف هؤلاء الشعراء وتلوُّنهم في مواقفهم، فالشاعر المتكسِّب:

1/ يحمل إلى كلِّ سوق ما ينفق فيها: أي أنَّه جعل من شعره سلعة تُباع وتُشترى، يُروِّج لها ويُرغِّب فيها، فتجده يتهافت على أبواب الملوك والأمراء يعرض بضاعته، ويستجدي بشعره. وأخبار هؤلاء الشعراء كثيرة في كتب الأدب، قيل لأحدهم، وهو أبو يعقوب الخُرَيْميّ: "مدائحك لمحمَّد بن منصور–يعني كاتب البرامكة– أشعر من مراثيك فيه وأجود. فقال: كنَّا يومئذ نعمل على الرَّجاء ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد."[4]، فهؤلاء في الحقيقة والواقع هم طُفيليون ومتسوِّلون وليسوا شعراء؛ لأنَّه لا همَّ لهم سوى التنقُّل المدفوع بشراهة الطَّمع والجشع من مائدة إلى أخرى، متباهين بذلك دون حياء، فالشاعر الحقُّ عنده أنفة ومروءة واعتزاز بنفسه تجعله يترفَّع عن هكذا سلوك.

2/ يُخاطب كلَّ إنسان من حيث هو، ويأتي إليه من جهة فهمه: وهو من أجل الوصول إلى مبتغاه والحصول على الجوائز المالية التي يُغدقه بها الممدوح، يُخاطبه بحسب حاله وفهمه، وبما يريده ويرغب فيه، ولو كان ذلك على حساب الحقّ والصِّدق، فيُنافق، ويُزيِّف الحقائق والوقائع، ويتلوَّن ويُغيِّر من خطابه مع كلِّ ممدوح، فيمدح مثلا الملك الظالم كما يمدح الملك العادل، فيُجمِّل قبائحه، ويُحوِّل مثالبه إلى مناقب، ورذائله إلى فضائل، ولا يهمُّه أن يكذب أو يُغالي في الوصف، أو يجعل الحقَّ باطلاً والباطل حقًّا، فمثل هذا الشاعر لا يُميِّز في مديحه الكاذب بين وضيع ورفيع، بين كريم

---

[1] – عبد الرحيم رائد، ظاهرة التكسُّب بالشعر وتجلّياتها في النقد العربي القديم ، ص423.

[2] – ابن خلدون، المقدِّمة، ص602.

[3] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص92.

[4] – المرجع نفسه، ص34.

وبخيل، فهو يمدح الجميع، ويصفهم بأجمل وأنبل الصفات، وإن كانوا عنها بعيدين بُعد الثُّريا عن الثَّرى، لأنَّ المعيار لديه في استحقاق المديح هو حجم المقابل المادي الذي سيحصل عليه.

ولأنَّ التكسُّب بالشّعر من القضايا الهامَّة في تاريخ النقد العربي، وخاصة القديم منه، نجد اهتمام النَّهشلي بهذا النوع من الشعر، بحيث أفرد للقضية بابا كاملا في كتابه الممتع، سمَّاه: (في الأنفة عن الطلب–أو السؤال– بالشعر). وهذا الباب يُقابله في العمدة باب (في التكسُّب بالشِّعر والأنفة منه)، وسنأتي إليه في موضعه، ويستهلُّ النَّهشلي هذا الباب ببيان أفضلية الشاعر على الخطيب عند العرب، قائلاً: "الشاعر عند العرب أفضل من الخطيب، وكانت تُهَنَّأ بالشاعر إذا نبغ، إلاَّ أنَّ المحدثين أخرجوه عن حدِّه وجعلوه مكسبًا، حتَّى قالوا: الشِّعر أدنى مروءة السَّريِّ وأسرى مروءة الدَّنيِّ. وكانت العرب تأنف عن الطلب بالشِّعر.[1]

فالنَّهشلي يُؤَكِّد أنَّ منزلة الشاعر عند العرب كانت أفضل من منزلة الخطيب، ودليل ذلك أنَّها كانت تُهَنَّأ بالشاعر إذا نبغ فيها، ولا تُهَنَّأ بالخطيب، وأنَّ العرب ما كانت تتكسَّب بالشِّعر، إلاَّ أنَّ المحدثين من الشعراء جعلوا من الشّعر وسيلة للتكسُّب، فعلاقة الشِّعر بالمال من حيث تحوُّله إلى حرفة كسبية، علاقة طارئة لم تكن في الأصل، إنَّما أحدثها المتأخِّرون. ثمَّ ازدادت ظاهرة التكسُّب بالمدح وقت صار الخلفاء والأمراء يحرصون على تخليد مآثرهم وصفاتهم الشخصية بما يُقال فيهم من شعر يقبض الشعراء ثمنه، حتَّى أضحى بعضهم يتباهى ويتفاخر بهذه العطايا. وأصبح الشعراء يتنافسون على أبواب الملوك والأمراء يستجدون ويتسوَّلون بالقول من أجل الوصول إلى بُغيتهم. وهذا يُفسِّر تنازل هؤلاء الشعراء عن الكرامة المتمثِّل في قبول الرَّفض والإهانة أحيانًا في سبيل المال أو المنصب. وهذا مناف للأنفة التي كانت تُعطِّر أنوف الشعراء الأوائل. وقديمًا قالت الحكماء: "لا يُواظب أحد على باب السلطان، فيُلقي عن نفسه الأنفة، ويحتمل الأذى، ويكظم الغيظ، إلاَّ وصل إلى حاجته. وقالوا: مَنْ أدْمَن قرع الأبواب يُوشَك أن يُفتَح له."[2]، وحين صار الشِّعر إلى هذه الحال والصفة، بات وسيلة دعائيَّة، ولم يعد فنًّا قوليًّا رفيعًا للمتعة أو التَّهذيب أو للتعبير عن التجربة الإنسانية. وهو انحراف عن الغاية والهدف والوظيفة التي أُنيطت بهذا الفنِّ القولي الجميل.

ويكتفي النَّهشلي بهذا القول في هذا الباب، ولا يذكر سوى بعض الأشعار في أنفة الشعراء عن الطلب بالشِّعر، ويذكر أشعارًا أخرى لا علاقة لها بموضوع التكسُّب بالشِّعر، وهذه هي طريقته التي سار عليها في معظم أبواب هذا الكتاب، فمن النَّادر أن نجد تفصيلا وتحليلا في المسألة المعروضة في هذا الباب أو ذاك. عكس ما نجده عند ابن رشيق، حيث كان يبسط الآراء، ويُدلي برأيه، ويُناقش ويُحلِّل ويُفصِّل بعض مسائل الباب المطروقة.

وذكر النَّهشلي مقاطع شعرية، تُبيِّن أنفة هؤلاء الشعراء عن الطَّلب والتكسُّب بالشِّعر، ومن ذلك قول أحدهم:

[1] – النهشلي، الممتع في علم الشعر، ص197.

[2] – ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج1، ص65.

وإنِّـــي لأَسْـــتَبْقِي إذا العُسْـــرُ مَسَّـــني بَشَاشَـــةَ وَجْهِـــي حِـــينَ تَبْلَـــى المنَـــافِعُ
فـــأُعْفِي قِـــرَى قَـــوْمِي ولَـــوْ شِـــئْتُ نَوَّلُـــوا إذَا مَـــا تَشَـــكَّى الـــمُلْحِفُ الـــمُتَصَادِعُ
مخَافـــةَ أنْ أُقلَـــى إذا جِـــئْتُ زَائِـــرًا ويُرْجِعُنـــي نَحْـــوَ الرِّجَـــالِ الـــمَطَامِعُ
فأَسْـــمَعَ مَنًّـــا أوْ أُشَـــرِّف مُرْغَمًـــا وكـــلُّ مُصَـــادِي نِعْمَـــةٍ مُتَوَاضِـــعُ

وقول الآخر:

وَإنِّـــي امْـــرُؤٌ لا أسْـــألُ النَّـــاسَ مَـــالَهُمْ بِشِـــعْرِي ولا تَعْـــيَ علـــيَّ الـــمَكَاسِبُ

وقال عبيد:

مَـــنْ يَسْـــأَل النَّـــاسَ يَحْرِمُـــوهُ وسَـــائِلُ الله لا يَخِيـــبُ

وقال آخر:

لِسَـــانِي وَقَلْبِـــي شَـــاعِرَانِ كِلاَهُمَـــا وَلَكِـــنَّ وَجْهِـــي مُفْحَـــمٌ غَيْـــرُ شَـــاعِرِ
فَلَـــوْ كَـــانَ وَجْهِـــي شَـــاعِرًا كَسَـــبَ الغِنَـــى وَلَكِـــنَّ وَجْهِـــي مِثْـــلُ وَجْـــهِ ابْـــنِ طَـــاهِرِ
فَتًـــى يَتَّقِـــي أنْ يَخْـــدِشَ اللُّـــؤْمُ عِرْضَـــهُ وَلا يَتَّقِـــي حَـــدَّ السُّـــيُوفِ البَـــوَاتِرِ[1]

ويذكر لنا النَّهشلي بعض الشعراء الذين أنفوا عن التكسُّب بشعرهم، منهم: الشاعر ابن ميَّادة، فَلِعزَّة نفسه، وعلوِّ همَّته، لم يَسْتَجْدِ بشعره، فقد حُكِي عنه " أنَّه مدح أبا جعفر المنصور بكلمته التي يقول فيها:

فَوَجَـــدْتَ حَـــينَ لَقِيـــتَ أَيْمَـــنَ طَـــائِرٍ وَوَلَيْـــتَ حِـــينَ وَلَيْـــتَ بِالإِصْـــلَاحِ
وَعَفَـــوْتَ عَـــنْ كَسْـــرِ الجَنَـــاحِ وَلَـــمْ يَكُـــنْ لِتَطِيـــرَ نَاهِضَـــةٌ بِغَيْـــرِ جَنَـــاحِ
قَـــوْمٌ إذَا جُلِـــبَ الثَّنَـــاءُ إلَـــيْهِمُ بِيـــعَ الثَّنَـــاءُ هُنَـــاكَ بِالأَرْبَـــاحِ

وعزم على الرحلة إليه، فأتاه راعي إبله بلبن فشرب منه شربة، ثمَّ مسح على بطنه فقال: سبحان الله أأفِدُ على أمير المؤمنين وهذه الشربة تكفيني؟! فرجع ولم يأتِه."[2]، ومن الشعراء أيضًا الذين امتنعوا عن التكسُّب بشعرهم، ولم يمدحوا أحدًا قطُّ أنفةً، جميل بن معمر، يُذكر أنَّه "صحب الوليد بن عبد الملك في بعض سفره، والوليد على نجيب، فرجز به ابن العُذريُّ فقال:

يَـــا بَكْـــرُ هَـــلْ تَعْلَـــمُ مَـــنْ عَلاَكَـــا خَلِيفَـــةُ اللهِ عَلَـــى ذُرَاكَـــا

فقال: انزلْ فارجُزْ، وظنَّه يمدحه. فقال:

أنَـــا جَمِيـــلٌ فِـــي السَّـــنَامِ مِـــنْ مَعَـــدْ فِـــي الـــذِّرْوَةِ العَلْيَـــاءِ وَالـــرُّكْنِ الأَشَـــدْ

[1] – يُنظر النَّهشلي، الممتع في صنعة الشعر، ص161-163.
[2] – المصدر نفسه، ص161-162.

وأخذ في مدح نفسه وقومه، فقال: اركبْ لا جمَّلك الله!"[1]، وإنْ كان السُّؤال ممَّا لابُدَّ منه، فليكن على طريقة أميَّة بن أبي الصَّلت، فالنَّهشلي يذكر لنا ما كان بينه وبين عبد الله بن جدعان، وما أورده بين يديه من أبيات جميلة في حسن سؤال، ولطيف تقاضٍ، فيقول: "ومن جميل السُّؤال ولطيف التَّقاضي قول أميَّة بن أبي الصّلت الثقفيّ، وكانت له حاجة عند عبد الله بن جُدعَان، فتقاضاه بقوله:

أَأَذْكُـــرُ حَـــاجَتي أَمْ قَـــدْ كَفَـــاني ... حَيَـــاؤُكَ إِنَّ شِـــيمَتَكَ الحَيَـــاءُ

وَعِلْمُـــكَ بِـــالحُقُوقِ وَأَنْـــتَ فَـــرْعٌ ... لَـــكَ الحَسَـــبُ الـــمُهَذَّبُ وَالسَّـــنَاءُ

كَـــرِيمٌ لا يُغَيِّـــرُهُ صَـــبَاحٌ ... عَـــنِ الخُلُـــقِ الجَمِيـــلِ وَلا مَسَـــاءُ

تُبَـــارِي الـــرِّيحَ مَكْرُمَـــةً وَجُـــودًا ... إِذا مَـــا الكَلْـــبُ أَجْحَـــرَهُ الشِّـــتَاءُ

وَأَرضُـــكَ أَرْضُ مَكْرُمَـــةٍ بَنَاهَـــا ... بَنُـــو تَـــيْمٍ وَأَنْـــتَ لَهَـــا سَـــمَاءُ

إِذَا أَثْنَـــى عَلَيْـــكَ الـــمَرْءُ يَوْمًـــا ... كَفَـــاهُ مِـــنْ تَعَرُّضِـــهِ الثَّنَـــاءُ

وهذا ألطف تقاضٍ وأشرف مدحٍ."[2]، فالنَّهشلي يكره للشاعر أن يستجدي أو يتكسَّب بشعره، ونظر إلى هذا الصِّنف من الشّعر بالمعيار الخلقي كصورة من صور المتاجرة بالكلمة. ودليله أنَّ العرب لم تكن تفعل ذلك، إلاَّ أنَّ المحدثين أو المتأخِّرين من الشعراء أخرجوا الشِّعر عن حدِّه، وجعلوه مكسبًا، وعلَّة ذلك –كما يقول النَّهشلي– أنَّ العرب تأنف من فعل ذلك، وترى فيه تذلُّلاً وحطًّا من قدر صاحبه ومكانته. وهذه العلَّة لا تخرج عن كونها علَّة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بأخلاق العربي وعاداته ونفسيته التي تأبى الذُّلَّ والمهانة، ولا ترضى إلَّا أن تكون عزيزة كريمة، ولو كان في سبيل ذلك هلاكها. ثمَّ إنَّ مديح التكسُّب يُزري بمروءة الشَّاعر، ويسفَحُ ماء كرامته، ويحمله على الكذب والنِّفاق، ويجعل من الشّعر سلعة تُباع بأبخس الأثمان.

وممَّا سبق يبدو لنا جليًّا موقف النهشلي الرافض لمثل هذا النوع من الشعر؛ حيث بيَّن أنَّها عادة مذمومة عند العرب، وأنَّ الكثير من الشعراء تحاشوا هذا التصرُّف الدنيء، الذي يحطُّ من قدرهم ومكانتهم ويُزري بشرفهم وشعرهم. في حين نجد الكثير منهم أيضا "اتَّخذ من المديح وسيلة من وسائل التكسُّب والعيش، والوصول إلى الجاه والسلطان، وقطعوا لذلك كلَّ سبيل، وأراقوا ماء الوجه، وتوسَّلوا الممدوح واستجدوه، وقصص هؤلاء الشعراء تملأ بهم صفحات أدبنا العربيِّ."[3]

ولعلَّ أكثر من اشتهر من الشعراء المدَّاحين تكسُّبا: النابغة الذبياني وأعشى قيس، فقد مدحا ملوك ذلك الزمان وخاصة من المناذرة والغساسنة. وكذلك أكثر الحطيئة السؤال بالشعر، حتَّى مقُت وذُلَّ أهله. وفي هذا انحراف خطير

[1] – النَّهشلي، الممتع في علم الشّعر، ص200.

[2] – المصدر نفسه، ص199–200، والأبيات في الدِّيوان، ص17–19.

[3] – عبد الرحيم رائد، ظاهرة التكسُّب بالشعر وتجلّياتها في النقد العربي القديم، ص423.

للشعر عن غاياته السامية، وأهدافه النبيلة، والتي لا يُمكن للشاعر أن يُحقّقها إنْ لم يكن مُعبِّرا بحريّة تامة عن صدق مشاعره وأحاسيسه، وناقلا للمتلقّي بأسلوب فنّي وجمالي تجربته الشعرية المعبِّرة عنها، ليكون هذا الشعر عند هؤلاء المتكسِّبين من الشعراء مجرَّد حِرفة يمتهنها الشاعر ليُؤمِّن بها قُوته، وينال بها العطايا والصِّلات."ولم تكن هذه العادة معروفة في بدايات الشعر، يوم كان الشعر أفضل الفنون القولية عند العرب، ويُفضَّل حتَّى على فنِّ الخطابة، رغم أهميتها في حياة العرب."[1]، وهذا ما ذكره وأكَّده النَّهشلي، إلاَّ أنَّ هذه الحالة لم تدم طويلا، فسرعان ما انقلبت رأسا على عقب، ولم يعد الشعر هو الأفضل عند العرب، لأنَّ المحدثين من الشعراء جعلوا منه مكسبًا.

فهؤلاء الشعراء المتكسِّبون أفسدوا الشعر، وأزروا بقيمته وبأنفسهم لـمَّا جعلوه مطيَّة لكسب الأموال والظَّفر بالعطايا والهبات من الناس رغبة أو رهبة، واستغلوه لمنافعم وأغراضهم الذاتية المحضة. بعد أن كان معبِّرا بصدق عن مشاعرهم وأحاسيسهم، وخالصا في قيمه الفنِّية وغاياته الجمالية التي يحملها. وفي هذا دليل على سخفهم وتردِّيهم "وسقوطهم وتلوّثهم في مواقفهم؛ لأنَّهم يُخيفون النَّاس بسلاطة ألسنتهم، وبوقاحة أفكارهم، فيُسارع أولئك وهؤلاء لاتِّقاء شرِّهم ولجْم أفواههم بالهبات والهدايا الثمينة خوفا من سياطهم."[2]

ولكنَّ النهشلي يُدرك تمامًا أنَّ بعض الشعراء لم يكن مدحهم عن طمع أو تكسُّبٍ، وإن حصل ذلك فليس عن قصْدٍ، فالشاعر الصَّادق في مدحه لا ينتظر مقابلا من الممدوح، وإنَّما هو وجد صفات أحبَّها في الممدوح ورغب أن يُميِّزه بها عن الآخرين حُبًّا في نشر الفضائل. فالمديح له هدفٌ سَامٍ نحو حثِّ المجتمع على الاقتداء بالصفات الكريمة في شخص الممدوح المستحقّ المدح، وهو غرض شريف يساعد على إشهار الفضيلة ونشرها بين أفراد المجتمع.

فالمدح إذن في سابق عهده ونشأته عند العرب لم يكن بقصد النَّوال، وإنَّما كان–في الغالب– وسيلة شكر على صنيع سلف، لهذا نجد النَهشلي يُنوِّه ببعض المدائح من هذا الطِّراز، وخاصَّة إذا كانت تُمجِّد مقامات العرب وتُنوِّه بأفعالهم، ومن ذلك ما قاله زهير بن أبي سلمى مُثنيًا ومادِحًا سِنان بن أبي حارثة المري وذَوي قرباه من قبيلته:

وفـــيهِمْ مقامـــاتٌ حِســـانٌ وُجُـــوهُهُمْ وأندِيَـــةٌ يَنْتَابُهـــا القَـــوْلُ والفِعْـــلُ

وإنْ جئـــتَهم أَلْفَيـــتَ حَـــوْلَ بُيُـــوتِهِمْ مجـــالسَ قـــد يُشْـــفَى بأحلامِهـــا الجَهْـــلُ

علـــى مُكْثِـــرِيهِمْ رِزْقُ مَـــن يَعْتِـــرِيهِمُ وعنـــدَ المُقِلِّـــينَ السَّـــمَاحةُ والبَـــذْلُ

فمـــا يـــكُ مِـــن خيـــرٍ أَتَـــوهُ فإنَّمـــا تَوَارَثَـــهُ آبـــاءُ آبـــائِهِمْ قَبْـــلُ

وهـــلْ يُنْبِـــتُ الخَطِـــيَّ إلاَّ وَشِـــيجُهُ وتُغْـــرَسُ إلاَّ فـــي مَنَابِتِهـــا النَّخْـــلُ[3]

---

[1] – بن جاب الله أنيسة، النظرية النقدية عند عبد الكريم النهشلي، ص94.

[2] – مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص45.

[3] – النهشلي، الممتع في علم الشعر، ص70، والأبيات في الديوان، ص87.

وأبدى النهشلي إعجابه بقصيدة حسَّان بن ثابت في آل جفنة، فيقول: "ومن أحسن ما يُنشد في دار مقامة القوم من الشِّعر الجامع لخصال المدح قول حسَّان بن ثابت الأنصاري في آل جفنة الغسَّاني:

لِلَّـــــهِ دَرُّ عِصـــــابَةٍ نادَمتُهـــــا يَومـــاً بِجِلَّـــقَ فـــي الزَّمـــانِ الأَوَّلِ
يُغْشَـــونَ حَتَّـــى مـــا تَهِـــرُّ كِلابُهُـــم لا يَســـأَلُونَ عَـــنِ السَّـــوادِ الـــمُقْبِلِ
وَالخَـــالِطُونَ فَقيـــرَهُم بِغَنِـــيِّهِم وَالـــمُنْعِمُونَ عَلـــى الضَّـــعِيفِ الـــمُرْمِلِ
أَوْلَادُ جَفنَـــةَ حَـــوْلَ قَبْـــرِ أَبِـــيهِمُ قَبْـــرِ ابـــنِ مَارِيَـــةَ الكَـــرِيمِ الـــمُفْضِلِ
بِـــيضُ الوُجُـــوهِ كَرِيمَـــةٌ أَحْسَـــابُهُم شُـــمُّ الأُنُـــوفِ مِـــنَ الطِّـــرَازِ الأَوَّلِ[1]

وما يجب التأكيد عليه هاهنا أنَّ النهشلي بتقسيمه هذا قد أخضع الشعر إلى مبدأ أخلاقي يستند إلى الوظيفة التربوية المنوطة بالأدب عموما في المجتمع، فللشعر كما يرى النهشلي مهمة أخلاقية تهذيبية غايتها تنشئة الإنسان نشأة صالحة، مراعية قيم الخير والحقِّ والفضيلة. فما وافق هذه الغاية هو ما يصلح للشعر، وما خالفها فيجب أن يُتجنَّب. يقول الدكتور عبد القادر هنِّي: "إنَّ هذا التَّصنيف للشعر إلى موضوعات تخدم الفضيلة وتُهذِّب النفوس وتُقوِّم ما بها من اعوجاج ترقى بها نحو الكمال، وإلى أخرى مُخلَّة بأخلاقيات المجتمع مفسدة للنفوس بما تُثيره فيها من انفعالات دنيئة، يحمل في حدِّ ذاته دعوة ضمنية إلى ربط الأدب الحق بالموضوعات الجادّة التي تُسهم في تحقيق الغاية الأخلاقية التي ينبغي أن يسعى إليها ليأخذ بيد الإنسان نحو أكمل صورة ممكنة بالنسبة إليه، وإلى تجنُّب الموضوعات المتدنِّية التي تُغري بالانهماك في الملذَّات بشتى أنواعها، وكلِّ ما يُغرق النَّاس في وحل الرذيلة، ويحيد بهم عن جادَّة الحقِّ."[2]

ويبدو جليًّا مراعاة النهشلي للدِّين والأخلاق، وهو يتكلَّم عن أصناف الشِّعر، فجعل من هذا الفنِّ القولي (الشِّعر) خاضعًا كبقية الأقوال والأفعال لمبادئ الدِّين وتعاليمه وحتَّى أحكامه، فاعتمد في تصنيفه للشعر على ثنائية الخير والشرِّ، آخذا بعين الاعتبار أنَّ الشّعر في نهاية الأمر هو قول حسنه حسن وقبيحه قبيح، فما كان يحثُّ على محاسن الأفعال والأقوال والسلوك فهو من الشعر الذي هو خير كلّه، وما كان يدعو إلى مساوئ الأفعال والأقوال والسلوك فهو من الشعر الذي هو شرٌّ كلُّه. ويبقى إلى جانب شعر الخير صنف ليس بالخير المطلق، وإلى جانب شعر الشرِّ صنف ليس بالشرِّ المطلق. ولكنَّهما يقتربان منهما ويأخذان حكمهما في الغالب. ويُمكن اختزال هذا التصنيف في هذه الخطاطة (الشكل رقم **1**):

[1] – النهشلي، الممتع في علم الشعر، ص 79، والأبيات في الدِّيوان، ص361-363.

[2] – هني عبد القادر، نظرية الإبداع في النقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1999م، ص162.

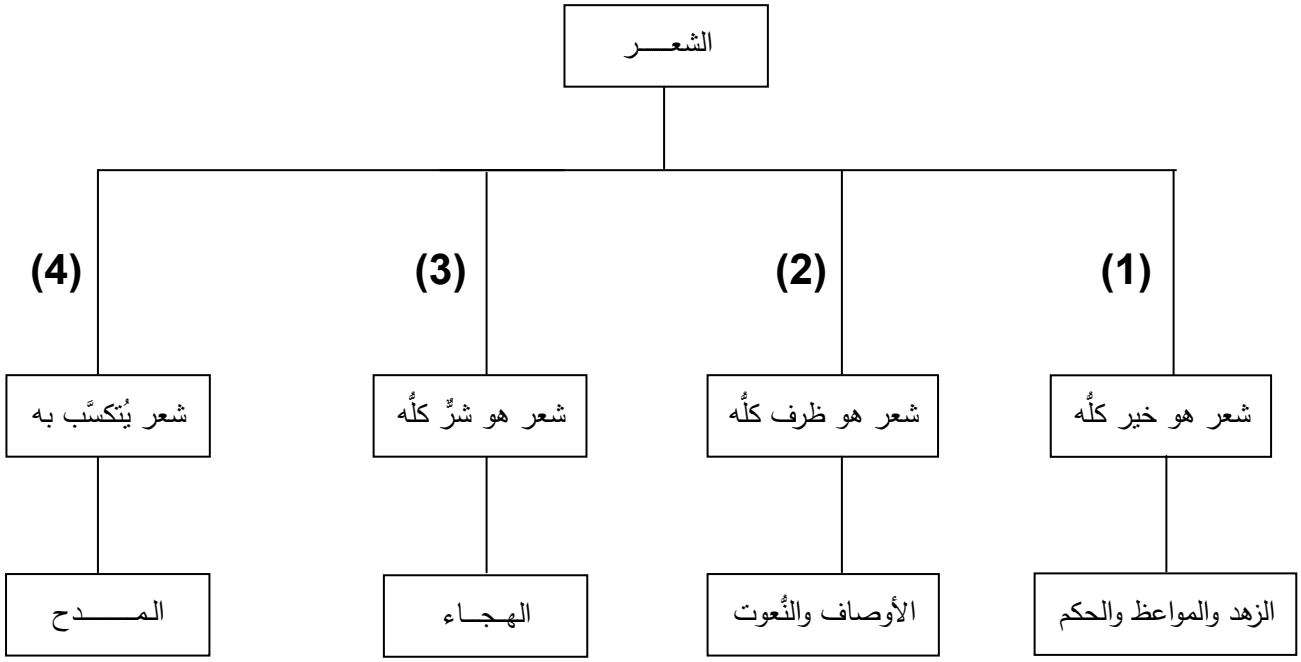

الشكل رقم (1)

واجتهادًا منَّا في تحليل واستقراء هذا التَّقسيم، وبيان الأثر الدِّيني فيه، نرى أنَّ النهشلي قد استمدَّ واستلهم تصنيفه هذا من أقسام الحكم التكليفي أو الشرعي المتعلِّقة بأفعال العباد، والتي هي-كما حدَّدها علماء الأصول- خمسة أقسام: (الواجب، المندوب، المحرَّم، المكروه، المباح)[1]. وبناءً على هذا يكون حكم الصِّنف الأول من الشعر (واجبا أو مندوبا)، والصنف الثاني (مُباحا)، والثالث (مُحرَّما)، والرابع (مكروها). ومعلوم أنَّ الواجب والمندوب متعلِّقان بالأفعال التي طلب الشَّارع من المكلَّف فعلهما بإلزام أو دونه، ويترتَّب على ذلك ثواب أو عقاب، والمباح ما خُيِّر فيه المكلَّف بين الفعل أو الترك، والمحرَّم ما أُمر المكلَّف بتركه على سبيل الإلزام، ويُثاب على تركه، ويُعاقب على فعله، أمَّا المكروه فهو ما طلب الشَّارع تركه من غير إلزام، ويُثاب على الترك، ولا يُعاقب على الفعل.[2]، وبالمحصِّلة فأفعال وأقوال العباد تنقسم إلى قسمين: خير وشرٌّ، وعليهما يكون الثواب والعقاب. وتأسيسًا على هذا، فالشّعر عند النَّهشلي ينقسم إلى قسمين، وكل قسم يتفرَّع عنه صنفان، ويأخذ كلُّ صنف بعدئذ حُكمه وجزاءه.

واختصارًا يُمكن وضع الخطاطة الآتية، موضِّحة ومبيِّنة ما استخلصناه من تصوُّر النهشلي لأصناف الشّعر بمعيار ديني وخلقي، (الشكل رقم 2):

[1] – يُنظر، الزُّحيلي محمد مصطفى: الوجيز في أصول الفقه، دار الخير للنشر والتوزيع، دمشق- بيروت، سوريا- لبنان، ط2، 2006م، ج1، ص299-300.

[2] – يُنظر، المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

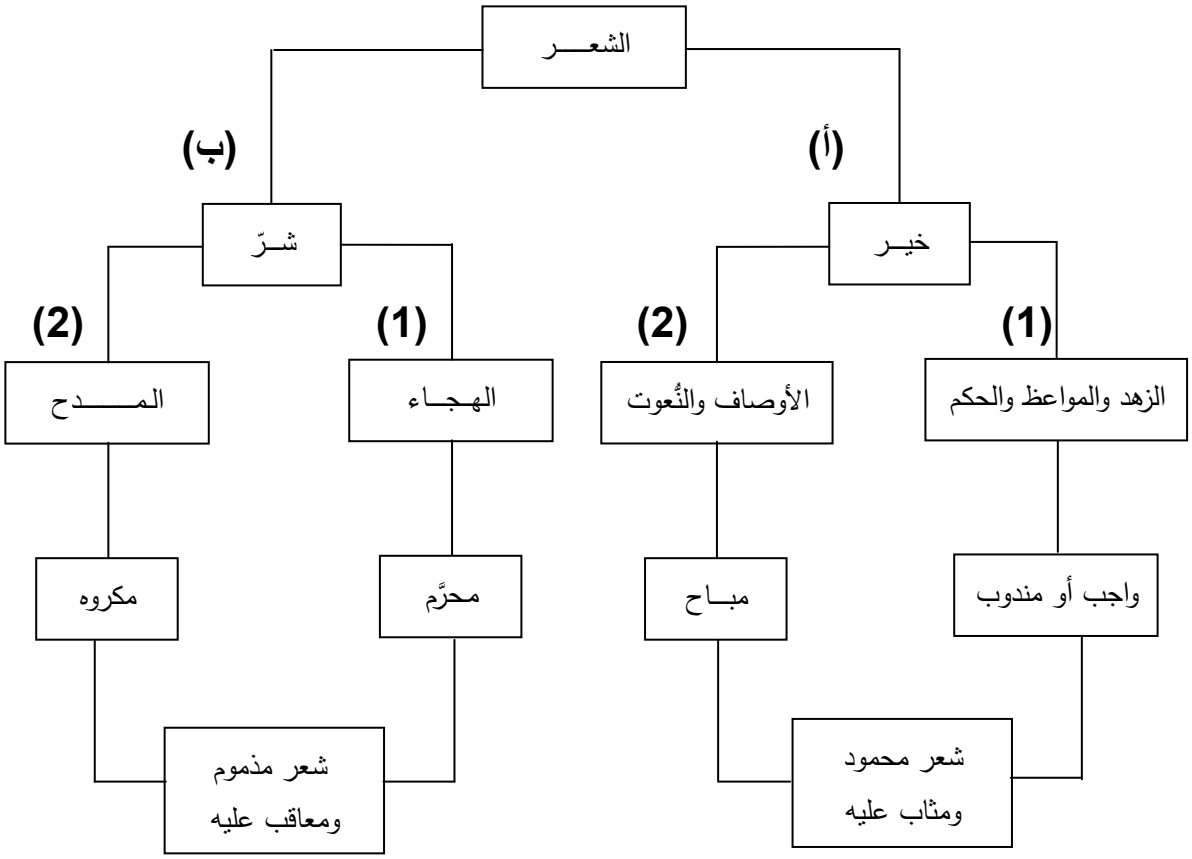
الشعـــر
(ب)
(أ)
شـرّ
خيـر
(2)
(1)
(2)
(1)
المـــــدح
الهـجـاء
الأوصاف والنُّعوت
الزهد والمواعظ والحكم
مكروه
محرَّم
مبـاح
واجب أو مندوب
شعر مذموم
ومعاقب عليه
شعر محمود
ومثاب عليه

الشكل رقم (2)

الفصـــل الثانـــي

الاتجـاه الأخـلاقـي فـي النقـد عند ابن رشيق القيـرواني

التعريف بالناقد ابن رشيق القيرواني:

هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، وُلد بالمسيلة المعروفة بالمحمدية سنة 390هـ، نشأ وتأدَّب بها يسيرا، وعلَّمه أبوه صنعته وهي الصياغة، وقال الشعر قبل أن يبلغ الحُلم. وتاقت نفسه إلى التزيُّد من ذلك، وملاقاة أهل الأدب؛ فرحل إلى القيروان سنة 406هـ، فأخذ عن جِلَّة علمائها، وفيها بدأ مرحلة جديدة من حياته امتدَّت أربعين عاما، درس فيها وصاغ الشِّعر في مدح الأمير المعز بن باديس، وألحقه ابن أبي الرِّجال بخدمة ديوان الإنشاء. وبعد نكبة القيروان ارتحل إلى المهدية ليعيش في كنف الأمير تميم بن المعز، وكانت مرحلة عصيبة في حياته، انتهت بالرَّحيل عنها إلى صقلية التي ظلَّ بها حتّى وافاه أجله سنة 456هـ على الأرجح. وترك ابن رشيق ذخيرة من المؤلفات في مختلف فروع المعرفة، لكن ضاع معظمها، وما سلم منها وطُبع أربعة كتب فقط، هي: العمدة في محاسن الشعر ونقده، قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، وديوان شعر.[1]

وخير ما يُثبت اقتدار ابن رشيق في الشعر والنثر والنقد، تلك الشهادة التي أثبتها ابن بسَّام في ذخيرته؛ حيث جاء فيها: "..وكان أبو عليٍّ ربوة لا يبلغها الماء، وغاية لا ينالها الشدُّ والإرخاء، محلُّه من العلم محلّ الصواب من الحُكم، واقتداره على النثر والنظم، اقتدار الوتر على السَّهم، إنْ نظم طاف الأدب واستلم، أو نثر هلَّل العلم وكبَّر، أو نقد سعى الطبعُ الصقيل وحَفَدَ، أو كتب سجد القلم الضئيل واقترب. ولم يكن لأهل إفريقية قديما في الأدب نبع ولا غَرَب، ولا من لسان العرب وِرْدٌ ولا قَرَب... فلمَّا زال ملكها عن أيدي العرب، تدفَّقت بها بحور الأدب، وطلعت منها نجوم الكتب، وَرَمَتْ أقاصي البلاد، بمثل ذُرى الأطواد، وسمعنا بزهر الآداب، وأنموذج الشِّعر اللباب، وبفلان وفلان، من كلِّ فارس ميدان، وبحر بلاغة وبيان، وقال أبو عليٌّ بن رشيق، ومن أبو عليٍّ؟ شعاع القمر، وحديث السَّمر، ومعجزة الخُبْر والخَبَر، فات الأواخر والأوائل، وأسْكتَ المناظر والمماثلَ."[2]

أمَّا ما كان من تديُّنه وأخلاقه وسلوكه، وهو ما يمتُّ بصلة بموضوع بحثنا، فإنَّ المظانَّ القليلة التي أسعفتنا ببعض أخباره تذكر أنَّ ابن رشيق كان رجلا قنوعا مسالما، ميَّالا إلى الدُّعابة والتظرُّف، متواضعا، يُؤثر المودَّة ويتحاشى معاداة النَّاس، "وإن اضطرَّ إلى شيء من هذا اكتفى في الانتصاف لنفسه بالتلميح دون التصريح"[3]، وكانت هذه أيضا سياسته مع الحُكَّام والأمراء؛ فكثيرا ما كان يرفض اندفاع الشعراء في التصدِّي للحكام والطَّعن في حكمهم، والتعرُّض لهم أو الخروج عليهم، فيقول في ذلك: "وأحمق الشعراء عندي مَنْ أدخل نفسه في هذا الباب أو تعرَّض له، وما للشاعر والتعرُّض للحتوف؟ وإنَّما هو طالب فضل، فلِمَ يُضيِّع رأس ماله؟ لا سيما وإنَّما هو رأسه، وكلُّ شيء يُحتمل إلاَّ الطَّعن في الدول، فإن دعت إلى ذلك ضرورة مجحفة فتعصُّب المرء لمن هو في ملكه وتحت سلطانه أصوب، وأعذرُ له من كلِّ

---

[1] – يُنظر ابن رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص5 وما بعدها، ويُنظر يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان..، التهميش رقم1، ص141.

[2] – ابن بسَّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق4، مج2، ص597-598.

[3] – مخلوف عبد الرؤوف، ابن رشيق القيرواني، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1964م، ص30.

جهة وعلى كلِّ حال."[1]، فالقناعة والدَّعة مبدأ حياة عند ابن رشيق، أوصله إلى حدِّ الخنوع والرِّضا بالمنزل السَّهل، والبُعد عن المغامرة والإقدام، وفي هذا المعنى يقول:

يُعطى الفتى فينالُ في دعة ... ما لم ينل بالكدِّ والتَّعب

فاطلب لنفسك فَضْل راحتها ... إذْ ليست الأشياءُ بالطَّلب

إنْ كان لا رزقٌ بلا سبب ... فرجاء ربِّك أعظمُ السَّبب[2]

وبالجملة –كما يقول صاحب بساط العقيق–: "فإنَّ الحسن كان مُكرَّما مُقرَّبا عند الخاصة لعلمه وفضله، مُبجَّلا عند العامة لتواضعه ونفعه، محبوبا لدى رفقائه، وإن كان بعضهم يحسده على اشتهاره وبلاغته، عدا أنَّ جميع من عرفه من أهل زمانه كان يميل إليه ويتقرَّب منه للين عريكته، ولطف معاشرته."[3]، ومع هذا كلِّه يُلاحظ على ابن رشيق – من خلال شعره– أنَّ فيه ضعفا في تديُّنه، وقد صرَّح بذلك في قوله:

إنِّي لقيتُ مشقَّة ... فابعث إليَّ بِشُقَّه

كَمِثْلِ وَجْهِكَ حُسْنًا ... وَمِثْلِ دِيني رقَّه[4]

ويظهر أنَّه لا يتحرَّج من الإثم، ويُجاهر به، ومن ذلك ولعه بالشَّراب، فما أكثر ما يتحدَّث عن الخمر ومجالسها في شعره، كأن يقول:

قَدْرُ المُدَامةِ فوق قَدْرِ الماءِ ... فارغبْ بِكاسِك عن سوى الأكْفاءِ

ما لي ومزجُ الرَّاح إلاَّ في فمي ... بالرِّيق من فم غادَةٍ حسناءِ[5]

كما نلمس في بعض أشعاره اسخفافا واستهزاء بأركان الدّين، من ذلك قوله في هلال رمضان:

لاح لي حاجبُ الهلال عشيًّا ... فتمنَّيتُ أنَّني من سحابِ

قلتُ أهلاً وليس أهلاً لِمَا قُلْـ ... ـتُ ولكنْ أسمعتُها أصحابِي

مُظهِرًا حُبَّه وعندي بُغْضٌ ... لعدوِّ الكُؤوس والأكوابِ[6]

وقوله أيضا مستخفًّا بالصَّلاة:

---

[1] – ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج1، ص65.

[2] – ابن رشيق أبو علي الحسن القيرواني، الديوان، جمعه ورتَّبه: عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، 1989م، ص31-32.

[3] – عبد الوهاب حسن حسني، بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، تح: محمد العروسي المطوي، منشورات المجمَّع التونسي للعلوم والآداب والفنون، تونس، ط2، 1970م، ص96.

[4] – ابن رشيق القيرواني، الديوان، ص131.

[5] – المصدر نفسه، ص22.

[6] – نفسه، ص26.

سألتُ الأرضَ لِمْ كانتْ مُصلَّى وَلِمْ كانتْ لنا طُهرًا وطيبا
فقالتْ غيرُ ناطقةٍ لأنِّي حويتُ لكلِّ إنسانٍ حبيبا[1]

وينمُّ شعره كذلك عن ميل للغلمان، يعبث معهم، ويتلهَّى بهم، وقد أورد له صاحب البدائع أكثر من قصة في هذا الباب. قال في غلام اسمه ميمون:

غزالٌ لا أزالُ بهِ أهيمُ أُكاتمهُ الوَرَى وأنا كتُومُ[2]

ولكنَّ ابن رشيق طرق أخيرا باب التوبة والنَّدم على ما فرَّط واقترف أيَّام الشَّباب، فيقول وقد تقدَّمت به السنُّ، وكأنَّما يصحو من غفوته:

قَرعْتُ سنِّي على ما فاتني نَدَمًا من الشَّباب ومَنْ باللَّهو للشِّيبِ
فقد ردَدْتُ كُؤوسَ الرَّاح مُترعةً على السُّقاة وكانت جُلَّ مشروبي
أُنزِّه السَّمع والعينين في نَغَمٍ ومَنْظَرٍ عابثٍ بالحُسن والطِّيبِ
من كلِّ لافظةٍ بالدُّرِّ باسمَةٍ عنه مُحلاَّة نوع منه مثقوبِ
أيَّام تَصْحَبُني الغِزلانُ آنِسةً هذا على أنَّني أعْدَى من الذِّيبِ[3]

وحسبك باعترافه الصَّريح في هذه الأبيات بما كان عليه أيَّام الشباب، لذا فهو يرجو رحمة ربِّه قائلا:

إذا أتى اللهُ يومَ الحشر في ظُلَلٍ وَجِيءَ بالأُمم الماضين والرُّسُلِ
وحَاسبَ الخَلْقَ مَنْ أحْصى بِقُدرته أنفاسَهم وتوفَّاهم إلى أجَلِ
ولم أجِدْ في كتابي غيرَ سيِّئَةٍ تسوءُني وعسى الإسلام يسْلَمُ لِي
رجَوْتُ رحمةَ ربِّي وَهْي واسعةٌ ورحمة الله أرْجَى لي من العملِ[4]

والغريب حقًّا والباعث على العجب العُجاب في شخصية ابن رشيق هو: كيف لشخصية أدبية وفكرية بهذا الزَّخم، وبهذه المكانة العلمية والاجتماعية أن تكون أخلاقه وتديُّنه بهذا المجون والضعف، وهو"الفاضل الأديب، الجليل القدر"[5]على قول القفطي، بل إنَّ محقِّق ديوان ابن رشيق قد "قرأ في (كشف الظنون): أنَّ ابن رشيق كان ممَّن شرحوا الموطَّأ في الحديث"[6]، ويُعلِّق على هذا الخبر، قائلا: "ونرجو أن يكون حاجي خليفة مُصيبا في ذلك، وإلاَّ يكون قد التبس عليه الأمر بعبد الرحمن بن محمد بن رشيق، الفقيه الحافظ للحديث وعلله، فإذا صحَّ ذلك كان صاحبنا ممَّن

[1] – ابن رشيق، الديوان ، 35.
[2] – المصدر نفسه، ص183.
[3] – نفسه، ص34.
[4] – نفسه، ص153-154.
[5] – القفطي جمال الدِّين بن يوسف، إنباه الرُّواةعلى أنباه النُّحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي ومؤسسة الكتب الثقافية، القاهرة وبيروت، مصر ولبنان، ط1، 1986م، ج1، ص333.
[6] – ابن رشيق، المصدر السابق، ص12.

شاركوا في الحديث والفقه، وليس في ذلك عجبٌ، فقد كانت صِلاته قوية بالفقهاء والمُحدِّثين والعلماء الذين كانت تزخر بهم القيروان وسائر مدن إفريقية في عصره."[1]

وممَّا هو قمين بالتسجيل كذلك في هذه المسألة، أنَّه إذا تأمَّلنا كتاب العمدة فإنَّنا نتفاجأ بالعدد الهائل من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي رصدها ابن رشيق للاستشهاد والتَّدليل على مختلف الظواهر النقدية التي تناولها في الكتاب. يقول حسين جمعة: "وفي ضوء الذي تقدَّم يبرز الأثر الدّيني الفاعل في تصوراته النقدية، فضلا عن عظمة الاستشهاد بالآيات القرآنية وبيان إعجازها في كلِّ ظاهرة نقدية، وكذلك فيما نقله من حديث رسول الله ﷺ."[2]

لهذا نميل في رأينا إلى أنَّ ابن رشيق كان في شبابه عابثا لاهيا مُدمنا على الخمر، كغيره من الشعراء والأدباء في هذه الفترة، ولكنَّه لم يكن مُفرِّطا في واجباته الدينية وأخلاقه الإسلامية، التي تصل به إلى حدِّ اللامبالاة والزندقة والفجور، وقد ندم وتاب على ذلك في مشيبه. أمَّا ما تعلَّق بلهوه وعبثه مع الغلمان، فابن رشيق مثله مثل الكثير من الشعراء المغاربة الذين كانوا يُجارون سنن الشعراء المشارقة في الشعر وأغراضه، وخاصة الجديدة منها، كالتغزُّل بالمذكَّر الذي فشا في الشعر العربي على يد الكثير من الشعراء، منهم أبو نواس. وما جعلنا نرى هذا الرأي–وإن كنَّا لا نجزم بصحَّته– ما رواه صاحب الذخيرة على لسان أبي عبد الله الصقلي، قائلا: "فلم أزل أتكرَّر على أبي عليٍّ وأُلاطفه حتَّى أطلعني على سرائره مع ذلك الغلام، فوالله ما اطَّلعتُ له معه على ما يُحاسب به من قبيح فعل ولا مذمومه."[3]

وابن رشيق ـ كما ذكرنا ـ شاعر مُجيد، خلَّف ديوان شعر، لكنَّه لم يصل إلينا إلاَّ جزء منه يسير، يقول عبد الرحمن ياغي محقِّق الديوان: "وليس من شكٍّ في أنَّ صاحبنا خلَّف أيضا ديوانا من الشعر، وإن كنَّا لم نعثر إلاَّ على أجزاء منه متفرِّقة في ثنايا الكتب وبين صفحات المخطوطات. وأغلب هذه القطع التي عثرنا عليها غير كاملة، ولكنَّها تشتمل على فنون متنوِّعة: كالوصف، والمدح، والخمريات، والرِّثاء، والغزل بنوعيه، والعتاب، والهجاء..ولعلَّ الوصف أن يكون هو الغالب عليها جميعا."[4]، ومن جميل وصفه ما قاله على البديهة في أُترُجَّة رآها في يد المعزِّ بن باديس لمَّا دخل عليه يوما، فأشار إليه بوصفها، فقال:

أُترُجَّـــةٌ سَـــبْطَةُ الأطـــرافِ ناعمـــة تَلْقَـــى النُّفـــوسَ بحـــظٍّ غيـــرِ منحُـــوسِ
كأنَّمـــا بســـطتْ كفًّـــا لخالقهـــا تـــدعُو بِطُـــول بقـــاءٍ لابـــن بـــاديسِ[5]

---

[1] – ابن رشيق، الديوان، ص12

[2] – جمعة حسين، ابن رشيق وآراؤه النقدية في العمدة، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، مج76، ج3، جويلية 2011م، ص571.

[3] – ابن بسَّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق4، مج2، ص601.

[4] – ابن رشيق، المصدر السابق، ص12–13.

[5] – المصدر نفسه، ص92.

ومن روائع مدحه أبيات قالها في تميم بن المعزّ، قال عنها صاحب خزانة الأدب: "والذي عقد النَّاس عليه الخناصر في باب المديح قول ابن رشيق القيرواني"[1]:

أصــحُّ وأقــوى مــا ســمعناه فــي النَّــدى مــن الخبــر المــأثور منــذ قــديمِ

أحاديــثُ ترويهــا السُّــيول عــن الحَيَــا عــن البحــر عــن كــفِّ الأميــر تميــمِ[2]

وله أيضا شعر في وصف البحر، وقد ركبه إلى صقلية، فعصفت الرِّياح، وثارت الأمواج، ولكن لم يُنسه ذلك كلّه ذكر محبوبته، وتخيُّل مناجاتها:

ولقــد ذكرتُــكِ فــي السَّــفينة والــرَّدى مُتوقَّــعٌ بِــتلاَطُمِ الأمــواجِ

والجَــوُّ يَهْطِــلُ والرِّيــاحُ عواصــفٌ واللَّيــل مُسْــوَدُّ الــذَّوائبِ داجِ

وعلــى السَّــواحلِ للأعــادي غــارةٌ يُتَوَقَّعُــون لغَــارةٍ وَهِيَــاجِ

وعَلَــتْ لأصْــحَاب السَّــفينةِ ضــجَّةٌ وَأنــا وذِكْــرُكِ فــي ألَــذِّ تَنَــاجِي[3]

وقال متغزِّلا بمحبوبته:

وفَــاتِنِ الأجفــانِ ذي وَجْنَــةٍ كَأنَّهَــا فــي الحُسْــن وَرْدُ الرِّيَــاضْ

قلــتُ لــه يــا ظَبْــيُ خــذْ مُهْجَتــي دَاوِ بهــا تلــكَ الــجُفُونَ المِــرَاضْ

فجاوَبَــتْ مــن خــدِّه خَجْلــةٌ كيــفَ تَــرَى الــحُمْرَةَ فــوقَ البَيَــاضْ[4]

وشاعر كابن رشيق عاش بين الحُسَّاد والمنافسين ولاقى من عَنَتِ الأيَّام كما لاقى من نعمائها لا يخلو شعره من شكوى، فمن ذلك قوله يشكو حرفة الأدب:

أشــقى لعقلــك أن تكــون أديبــا أو أن يــرى فيــك الــورى تهــذيبا

مــا دُمْــتَ مُســتويا ففعلُــك كلُّــه عِــوَجٌ وإنْ أخطــأتَ كنــتَ مُصــيبا

كــالنقش لــيس يصــحُّ معنــى خَتْمِــه حتَّــى يكــون بنــاؤُه مقلوبــا[5]

وكان لنكبة القيروان أكبر الأثر وآلمه على نفس ابن رشيق، فانطلق يبكي مجدها وحضارتها بنونيته الرائعة التي عارض فيها قصيدة أبي الفتح البُستي (لكلِّ شيء إذا ما تمَّ نقصان)، والتي يقول في مطلعها:

---

[1] – عبد الوهاب حسن حسني، بساط العقيق، ص108.

[2] – ابن رشيق، الديوان، ص170-171.

[3] – المصدر نفسه، ص48-49.

[4] – نفسه، ص96.

[5] – مخلوف عبد الرؤوف، ابن رشيق القيرواني، ص100.

كَـــمْ كـــانَ فِيهـــا مـــنْ كِـــرامٍ ســـادَة بِـــيضِ الْوُجـــوهِ شَـــوامخِ الإِيمـــانِ
وَأَئِمَّـــةٍ جَمَعُـــوا الْعُلُـــومَ وَهَـــذَّبُوا ســـنَنَ الْحَـــديثِ وَمُشْـــكِلَ الْقُـــرْآنِ

إلى أن يقول:

وَالمسْـــجِدُ المعْمُـــورُ جـــامِعُ عُقْبَـــةٍ خَـــرِبُ المعـــاطِنِ مُظْلِـــمُ الأَرْكـــانِ
أَعْظِـــمْ بِتِلْـــكَ مُصـــيبَةً مـــا تَنْجَلـــي حَسَـــراتُها أَوْ يَنْقضـــي الـــمَلَوانِ
حَزِنَـــت لهـــا كُـــوَرُ الْعِـــراقِ بأَسْـــرِها وَقُـــرى الشَّـــآمِ وَمِصـــرُ والْخُرســـانِ
وَتَزْعَزعَـــت لمصـــابها وَتَنَكَّـــدَتْ أَسَـــفاً بـــلادُ الْهِنْـــدِ والسِّـــندانِ
وَأَرى الْجِبـــالَ الشُـــمَّ أَمْسَـــتْ خُشَّـــعا لِمُصـــابِها وَتَزَعْـــزَعَ الـــثَّقلانِ
وَالأَرْضُ مِـــنْ وَلَـــهٍ بِهـــا قَـــدْ أَصْـــبَحَتْ بَعْـــدَ الْقَـــرارِ شَـــديدَةَ المَـــيَلانِ
أَتَـــرَى اللَّيـــالي بَعْـــدَ مـــا صَـــنَعَتْ بِنـــا تَقْضـــي لَنـــا بِتَواصُـــلٍ وَتَـــدانِ
وَتُعيـــدُ أَرْضَ الْقَيْـــرَوانِ كَعَهْـــدِها فيمـــا مَضـــى مِـــنْ ســـالِفِ الأَزْمـــانِ[1]

كتاب العمدة، مضمونه ومنهجه:

أمَّا كتابه "العمدة في محاسن الشعر ونقده" فهو واسع الشهرة في مجال النقد الأدبي، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدِّمته، فقال منوِّها به: "وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وإعطاء حقِّها، ولم يكتب فيها أحدٌ قبله ولا بعده مثلَه "[2]. ويُعتبر كتاب العمدة أهمَّ كُتب ابن رشيق، التي زادت على الثلاثين مُؤلَّفا، وقد أراده صاحبه أن يكون موسوعة في الشعر ونقده، وفي البلاغة وفنونها المختلفة، وقد زاوج فيه صاحبه بين الآراء النظرية والممارسة التطبيقية في النقد، لهذا يُمكن "إدراج كتاب العمدة ضمن النقد النظري والتطبيقي، وقد تكلَّم عن عدَّة قضايا نقدية.. وهو من الكتب التي تُمثِّل النقد المغربي بامتياز، وبخاصة النقد الجزائري القديم"[3]، وهو كتاب جامع في مادته، ويُعدُّ أحد أهم كتب اللغة والشعر والنقد في التراث العربي الإسلامي، ومن أبرز المراجع التي تناولت صناعة الشعر العربي ودراسته بالنقد والتحليل وقد طارت شهرته شرقا وغربا. "فأدخل صاحبَه ميدانَ البلاغة والنقد من أوسع أبوابه، ولا غرو، فهو الكتاب الذي يُمثِّل مرحلة النضج في التأليف البلاغي والنقدي، كما أنَّه الكتاب الجامع المحكم في موضوعه ومنهجه، والذي لا يزال معينا لا ينضب يفيد منه الدارسون والباحثون بما حفظه من نصوص وآراء السابقين، وبما اختزنه من حُرِّ وجريء الرَّأي الخاص."[4]

---

[1] – ابن رشيق، الدِّيوان، ص204-211.

[2] – ابن خلدون، المقدِّمة، ص593.

[3] – حمد عبد الله خضر، اتِّجاهات النقد العربي القديم، ص137.

[4] – الصّيقل محمد بن سليمان، البحث البلاغي والنقدي في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، رسالة ماجستير، إشراف: د. محمد علي رزق الخفاجي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، السنة الجامعية 1405هـ، المقدِّمة، ص أ.

ويبدو أنَّه أوَّل ما كتب ابن رشيق، إذْ يذكر فيه مَقْدَمه على المعزِّ بن باديس، وإنشاده بين يديه، وأنَّه ألَّفه للسيِّد الأمجد.. رجل الخطب وفارس الكتب أبي الحسن علي بن أبي الرِّجال الكاتب، زعيم الكرم، وواحد الفهم. "فإنْ وقع منه بموقع، وحلَّ من قبوله بموضع بلغتُ الإرادات، ورجوت الزيادات:

وأزرقُ الفجـــر يبـــدو قبـــل أبيضـــه وأوَّلُ الغيـــث قَطْـــرٌ ثـــمَّ ينســـكب"[1]

فكان العمدة أوَّل الغيث من تآليف ابن رشيق، وتلته القطرات الكثيرة في شتى الفنون والعلوم. والكتاب مؤلَّفٌ من جزأين، وفي كلِّ جزء عدَّة أبحاث سمَّاها أبوابا، بلغت في جملتها مائة وسبعة أبواب، منها أربعة وأربعون في الجزء الأول، وثلاثة وستون في الجزء الثاني. يجمع بين تسعة وخمسين بابا منها خط واحد هو الحديث عن الشعر ونقده. ومن القضايا النقدية التي تناولها ابن رشيق في عمدته: فضل الشعر، حدّ الشعر وبنيته، المشاهير من الشعراء، منافع الشعر ومضاره، القدماء والمحدثون، اللفظ والمعنى، المطبوع والمصنوع، الأوزان والقوافي، في آداب الشاعر، مشكلة السرقات... وغير ذلك، ثم يُفرد ابن رشيق الحديث عن البلاغة والبيان في تسعة وثلاثين بابا.

أمَّا عن منهج الكتاب، فقد صرَّح ابن رشيق في المقدِّمة عن الطريقة التي سار عليها في خطَّة الكتاب، قائلا: " فقد وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب..ووجدت الناس مختلفين فيه، متخلِّفين عن كثير منه: يُقدِّمون ويُؤخِّرون، ويُقلّون ويُكثرون، قد بوَّبوه أبوابا مبهمة، ولقَّبوه ألقابا مُتَّهمة، وكل واحد منهم قد ضرب في جهة، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه، وشاهد دعواه، فجمعتُ أحسن ما قاله كلُّ واحد منهم في كتابه؛ ليكون (العمدة في محاسن الشعر وآدابه)، إن شاء الله تعالى. وعوَّلتُ في أكثره على قريحة نفسي، ونتيجة خاطري؛ خوف التكرار، ورجاء الاختصار، إلاَّ ما تعلَّق بالخبر، وضبطتْه الرواية، فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه؛ ليُؤتى بالأمر على وجهه، فكل ما لم أُسنده إلى رجل معروف باسمه، ولا أحلتُ فيه على كتاب بعينه فهو من ذلك، إلاَّ أن يكون مُتداولا بين العلماء، لا يختصُّ به واحد منهم دون الآخر، وربما نحلته أحد العرب، وبعض أهل الأدب تستُّرًا بينهم، ووقوعا دونهم، بعد أن قرنت كلَّ شكل بشكله، ورددتُ كلَّ فرع إلى أصله، وبيَّنتُ للناشئ المبتدئ وجه الصواب فيه، وكشفتُ عنه لبْس الارتياب به، حتَّى أُعرِّف باطله من حقِّه، وأميز كذبه من صدقه"[2]

من هذا الكلام الفصيح الصريح يتبيَّن لنا منهج ابن رشيق في كتابه، وهو ـ دون شكٍّ ـ منهج علمي رصين ـ قلَّ أن نجده في كتب الأولين، ومنه يُمكن أن نُحدِّد دعائم وركائز هذا المنهج الذي حدَّده ابن رشيق لنفسه، وسار عليه في خُطَّة كتابه، وهي:

ـ التخيُّر والانتقاء: ورصْد أحسن ما قيل في فنِّ الشعر ونقده، معتمدا في ذلك على قريحة نفسه، ونتيجة خاطره.

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص17.

[2] – المصدر نفسه، ص15-16.

ـ **الصِّدق والأمانة:** في النقل والرواية مكتوبا كان أو مسموعا، إلاَّ ما كان من الآراء والأقوال المشهورة والمعروفة، والتي أصبحت ملكا مشاعا بين الجميع، فهذه لم ينسبها لأصحابها.

ـ **الابتكار والإبداع:** في ما أضافه من خالص فكره ورأيه، مناقشا ومؤيِّدا ومرجِّحا ومعترضا، كلُّ ذلك بالحجة والبرهان.

وبناء عليه نستطيع أن نستنتج أقساما ثلاثة، تُوضِّح أنماط القضايا التي عالجها ابن رشيق في كتابه، وهي:

ـ **النَّمط الأول:** قضايا ومسائل نقلها ابن رشيق من غيره من العلماء والنقاد دون تصرُّف فيها أو تغيير، فقد نقلها حرفيا دون نقصان أو زيادة، بكل أمانة ونزاهة.

ـ **النَّمط الثاني:** قضايا نقلها ابن رشيق ممَّن سبقه وقرأ لهم، لكنَّه لم يكتف بالأخذ والنقل، بل ناقشها وحلَّلها وأخذ منها ما أخذ، واعترض على ما اعترض، ورجَّح ما رجَّح. وسلاحه في ذلك ذوقُه الأدبي وفكره الثاقب وذكاؤه الحاد، وبصيرته النافذة، وعبقريته الفذّة.

ـ **النَّمط الثالث:** قضايا ومسائل كان لابن رشيق فيها فضل السَّبق والابتكار، فهي من آرائه الخالصة التي لم يأخذها من غيره من العلماء.

هذه نظرة عامة للكتاب، أردنا ذكرها لنُبيِّن مضمون الكتاب وفحواه ولو بإيجاز شديد، حتَّى نكون على بيِّنة من الأمر من القضايا البلاغية والنقدية التي خاض فيها ابن رشيق الحديث في كتاب العمدة.

النقد الأخلاقي عند ابن رشيق القيرواني:

والذي يعنينا الآن هو الوقوف على القضايا النقدية التي تمتُّ بصلة إلى الاتجاه الأخلاقي في النقد. فالدَّارس لكتاب العمدة لابن رشيق سيكتشف سريعا العديد من القضايا التي كانت فيها ميولاته الدينية والخلقية واضحة جليَّة، وهذه القضايا يُمكن حصرها في الآتي:

1/ سلوك الشاعر وأخلاقه:

من القضايا التي أثارها ابن رشيق في كتاب العمدة، والتي يُمكن عدَّها من النقاط التي لها صلة وطيدة بعلاقة الدِّين والأخلاق بالشِّعر، ما ذكره في باب(في آداب الشاعر)؛ فقد بيَّن جملة من الأخلاق الحميدة التي يجب على الشاعر أن يتحلَّى بها، فيقول: "من حُكم الشاعر أن يكون حُلْو الشَّمائل، حسن الأخلاق، طلْق الوجه، بعيد الغَوْرِ، مأمون الجانب، سَهْل النَّاحية، وطيء الأكناف، فإنَّ ذلك ممَّا يُحبِّبه إلى النَّاس، ويُزيِّنه في عيونهم، ويُقرِّبه من قلوبهم، وليكن مع ذلك شريف النَّفس، لطيف الحسِّ، عزوف الهمَّة، نظيف البزَّة، أنِفًا، لِتَهَابَه العامة، ويدخل في جملة الخاصَّة، فلا تمجُّه أبصارهم، سَمْحَ اليدين، وإلاَّ فهو كما قال ابن أبي فنن واسمه أحمد:

وإنَّ أحـــقَّ النَّـــاس بـــاللَّوم شـــاعرٌ يلـوم عـلى البخـل الرِّجـالَ ويبخـلُ[1]

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص165.

ويقول في موضع آخر من هذا الباب، في ما يجب أن يتَّصف به الشاعر من الصفات الخُلقية خاصة: "ولا يجوز للشاعر ـ كما يجوز لغيره ـ أن يكون مُعْجَبًا بنفسه، مُثنيا على شعره، وإن كان جيِّدا في ذاته، حسنا عند سامعه، فكيف إن كان دون ما يظنُّ؟.. وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾[1]، اللَّهم إلاَّ أن يُريد الشاعر ترغيب الممدوح أو ترهيبه فيُثني على نفسه، ويذكر فضل قصيدته؛ فقد جعلوه مُجازا مُسامَحا فيه.. ويجب على الشاعر أن يتواضع لمن دونه، ويعرف حقَّ من فوقه من الشعراء."[2]

فابن رشيق يُحدِّد من جملة المواصفات التي يجب أن يتحلَّى بها الشاعر، الخصال الخُلقية التي لا يُمكن للشاعر أن يُحقِّق تواصله ودوره الرسالي في المجتمع دونها، لأنَّ ابن رشيق يُؤمن أنَّ الشعر رسالة إنسانية مقدَّسة، وله وظيفته التربوية والأخلاقية والاجتماعية والنفسية الهامَّة، ولا يُمكن تحقيق ذلك ما لم يكن الشاعر نفسه متَّصفا بقدر كبير من الخصال الخُلقية التي تُمكِّنه من أن يحتلَّ مكانة مرموقة في نفوس العامة والخاصة، ليقبلوا منه ما يقول ويعملوا به. وهذا المعنى يُؤكِّده ويُثبته قول الرسول ﷺ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»[3]، وحتَّى يسع الشاعر النَّاس يجب أن يكون سمْحَ الخلق، طيِّب المعشر، ليِّن الجانب، باسم الوجه، يألف الناس ويألفونه، متواضعا وخاصة لمن فوقه من الشعراء، وغير مُعجب بنفسه ولا معتدٍّ بشعره.

ومع أنَّ للشعراء ألسنةً حِدادًا كما قال أبو عمرو بن بحر الجاحظ على لسان أحد المولَّدين:

وللشعراء ألسنةٌ حِدادٌ ... على العورات موفيةٌ دَليلَهْ

ومن عقل الكريم إذا اتَّقاهم ... ودَارَاهم مُدَاراةً جَميلَهْ

إذا وضعوا مكاويهم عليه ... وإن كذبوا فليس لهنَّ حِيلَهْ[4]

وقال امرؤ القيس:

ولو عن نَثَا غيره جاءني ... وجُرحُ اللِّسانِ كجُرحِ اليَدِ[5]

"ومع ذلك كلِّه فلا ينبغي للشاعر أن يكون شرسًا شديدا، ولا حَرِجًا عِرِّيضًا؛ لما يدلُّ به من طول لسانه وتوقُّف النَّاس عن مخاشنته. فهذا الفرزدق كان شاعر زمانه ورئيس قومه، لم يكن في جيله أطرفُ منه نادرةً، ولا أغرب مدحًا،

---

[1] – سورة النجم، الآية 32.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص169.

[3] – الألباني محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، ط1، 2000م، ج3، كتاب الأدب وغيره، رقم الحديث2661، ص13.

[4] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص159.

[5] – امرؤ القيس، الدِّيوان، ص87.

ولا أسرع جوابًا: اجتاز بنسوة وهو على بغلة فهمزها فحبقت، فتضاحكن، وكان عريضا، فقال: ما يُضحككنَّ وما حملتني أنثى قطُّ إلاَّ فعلت مثل هذا؟ قالت إحداهنَّ: فما صنعت التي حملتك تسعة أشهر؟ فانصرف خجلاً."[1]

هذه الصفات الخُلقية للشاعر، وغيرها من السِّمات المتعلِّقة بمظهره وهيئته وثقافته ومعارفه، يُؤكِّد ابن رشيق على أن يتحلَّى ويتَّصف بها الشاعر ليكون محبوبا من النَّاس، مُزيَّنا في عيونهم، مُقرَّبا إلى قلوبهم، ومُهابا من العامَّة وداخلا في الخاصَّة. وقبل هذا وبعده ليتمكَّن الشاعر من أداء دوره الاجتماعي، وليقوم الشعر بوظيفته التهذيبية الإصلاحية في المجتمع، ويغرس قيم الخير والفضيلة لدى متلقِّيه.

وفي نفس الباب (في آداب الشاعر)، يُبيِّن ابن رشيق أنَّ أوَّل ما يحتاجه الشاعر معرفة مقاصد الكلام، الذي بدوره يحتاج إلى لباقة وفطانة ودراية، والتي لا تكون إلاَّ برجاحة عقل وحنكة تجربة وحسن سياسة كما يُوضِّح ذلك ابن رشيق فيقول: "فأوَّل ما يحتاج إليه الشاعر بعد الجدِّ الذي هو الغاية، وفيه وحده الكفاية، حسن التأتِّي والسياسة، وعلم مقاصد القول؛ فإنْ نسب ذلَّ وخضع، وإنْ مدح أطرى وأسمع، وإنْ هجا أخلَّ وأوجع، وإنْ فخر خبَّ ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حنَّ ورجع، ولكنَّ غايته معرفة أغراض المخاطَب كائناً من كان؛ ليدخل إليه من بابه، ويُداخله في ثيابه، فذلك هو سرُّ صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا."[2]

فابن رشيق يُحدِّد أنَّ من بين مواصفات الشاعر النَّاجح هو معرفته مقاصد القول، فلكلِّ مقام مقال كما يُقال، فحال ومقال الشاعر في مديحه يختلف كلَّ الاختلاف عن حاله ومقاله في نسيبه أو هجائه. وهذا يجعلنا نقول: أنَّ ابن رشيق يُولي شخصية الشاعر اهتماما كبيرا؛ لأنَّها هي الصانعة للشعر، والمؤثِّرة فيه حقيقةً. فبقدر ما تكون شخصية الشاعر مستوعبة وملمَّة للأحوال والأغراض بقدر ما تكون قادرة على صناعة شعر أفضل وأجود، وهذا الذي تفاضل وتفاوت فيه الشعراء. فشخصية الشاعر بكلِّ مكوِّناتها النَّفسية والاجتماعية والأخلاقية هي التي تصنع شخصية الشعر في نسيبه أو مديحه أو هجائه، أو غير ذلك. ولا أدلَّ على ذلك من تلك العلاقة المبنية على التمازج والتأثير بين شخصية المتنبي وشعره، فمن يستطيع الفصل بين شخصية المتنبي وشخصية شعره؟ بين أنفة المتنبي وأنفة شعره؟ بين غرور وتعالي المتنبي وغرور وتعالي شعره؟

واهتمام ابن رشيق بآداب الشاعر وأخلاقه يتأكَّد لنا أكثر من خلال كتابه الأنموذج؛ حيث كان يترصَّد لأخلاق الشعراء وسلوكاتهم، وما اشتهروا به بين النَّاس، فيذكر ما يتَّصف به الشاعر من أخلاق وصفات حسنة كانت أو قبيحة، ولكن في الغالب كان حريصا على ذِكر الأخلاق الحسنة لدى الشاعر، ومن ذلك ما جاء في ترجمته لأبي طالب الدّلائي؛ حيث قال في حقِّه: "كان شيخا ظريفا ذا رقَّة مُفرطة ولطافة بيِّنة وافتنان، وكان مشهورا بالمحبَّة والكلام عليها،

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص68.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص167.

والوفاء فيها، موصوفا بالصِّيانة والعِفَّة، منسوبا إلى طلب العلم وصحبة الشيوخ الجِلَّة، موسوما بكلِّ خير. إلى أن صنع أبياتا كان لها سبب أوجبها، وهي:

اجعـــل العلـــمَ يـــا فتَـــى لـــك قيـــدا واتَّـــــقِ الله لا تخُنْـــــه رُويـــــدا
لا تكـــــن مثـــــل معشـــــر فقهـــــاء جعلـــوا العلـــم للـــدراهم صـــيدا
طلبـــــوه فصـــــيَّروه معاشًـــــا ثـــمَّ كـــادوا بـــه البريَّـــة كيـــدا
فلهـــذا صُـــبَّ الـــبلاء علينـــا مُســـتحقًّا ومـــادت الأرض ميـــدا

فدخل في عداوة الفقهاء، وعُزل عن إمامة المسجد، ولزم داره."[1]، ووصف الشاعر ابن الأبزاري قائلا: "وكان شاعرا لطيفا مُتفنِّنا في كثير من العلوم، ظريفا، لا تقع العينُ على مثله في زمانه جمالا وحُسن زيٍّ وهيئةٍ. وكان منقطعا إلى القاضي محمد بن عبد الله، ولا يكاد القاضي يصبر عنه لأدبه وفهمه وحلاوة جملته."[2]، وممَّا قاله في أبي القاسم النحوي: "..والغالب عليه علم الشَّرائع والقرآن، وعنده من أصول الجدل والنَّظر في المذاهب نصيبٌ، وكان شديد التواضع، قليل التنازع، يتَّهم نفسه، ويستبعد حسَّه."[3]، وجاء في ترجمة ابن البقَّال الضرير، : "ولم يُر قطُّ ضريرٌ أطيب منه نفسا ولا أكثر حياء مع دين وعفَّة. أدركته وقد جاز التسعين، والتلاميذ يُكلِّمونه فيحمرُّ خجلاً."[4]، وكذلك ما أورده في ترجمة الشاعر عبد الله الجبنياني، فممَّا قاله عنه: "كان عبد الله شاعرا ظريفا، وكانت له نباهة وحدَّة خاطر ولطافة في جميع أحواله، مع نزاهة نفس وعزوف همَّة، وفرط حياء، وغضِّ طرف، ولا يكاد يملأ عينه من وجه أحد."[5]، وما قاله أيضا في الشاعر عبد الله بن محمد الجُرَاوي: "وكان حسن الخلق، جميل العِشرة، مزَّاحًا."[6]، أمَّا أبو عبد الله القزَّاز فكان كما يقول ابن رشيق: "مَهيبا عند الملوك والعلماء وخاصة النَّاس، محبوبا عند العامة، قليل الخوض إلاَّ في علم دين أو دنيا، يملك لسانه مُلكا شديدا. وكان له شعر جيِّدٌ مطبوع ومصنوع، ربَّما جاء به مُفاكهة ومُمالحة، من غير تحفُّز له ولا تحفُّل، يبلغ بالرِّفق والدَّعة على الرَّحب والسَّعة أقصى ما يحاوله أهل القدرة على الشِّعر."[7]، وممَّن حفل ابن رشيق بحسن أخلاقهم جملة دون بيان أو تفصيل، الشاعر ابن كاتب إبراهيم؛ حيث قال عنه: "هو شاعرٌ حسن المرمى، جيِّدُ التخلُّق، يقتضي شعره الزيادة، ومن شعره:

---

[1] – ابن رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص117-118.
[2] – المصدر نفسه، ص130-131.
[3] – نفسه، ص155.
[4] – نفسه، ص158.
[5] – نفسه، ص186-187.
[6] – نفسه، ص216.
[7] – نفسه، ص365- 366.

إنِّـــي إذا خـــان الخليـــلُ تركتـــه وصـــرمتُ بـــالهجران حبـــلَ وصـــاله

لـــو كـــان فـــي عـــزِّ الـــمُعزِّ ومُلكـــه وجلالـــــه ونوالـــــه وجمالـــــه[1]

وفي الغالب ما يكون حسن الخلق سببه تديُّن الشاعر وتفقُّهه في الدِّين، وهذا ما كان عليه الشاعر عبد الله بن رشيق؛ حيث ذكر صاحب الأنموذج أنَّه: "أحاط بعلوم شتَّى وساد فيها، وتفقَّه في الدِّين، وكان عفيفا خيِّرًا، مُستحيًّا، منقطع اللِّسان عن فضول الكلام."[2]

وفي المقابل نجد استهجان ابن رشيق لبعض الشعراء لسوء أخلاقهم، وقُبح أفعالهم، ويُنكر عليهم ذلك، ويُشنِّعهم به، فهذا شبلون بن عبد الله المصاحفي، "كان رجلا مُستهزئا مشهورا بالتنقير، والمقالعة (يُسفِّه النَّاس ويشتمهم)، فيه تلاعب واستخفاف، كان قد دخل الدعوة (الشيعية) تستُّرًا بها، واحتمى بسببها، ثمَّ تاب وتبرَّأ منها. وكان شبلون متوسِّط الشعر، مُنصرف الهمَّة إلى نظمه بلسان القبقبة (الحمق والثرثرة) على مذهب أهل الكُدية إلاَّ في الهجاء فإنَّه كان يُجيده لمكانه من الشرِّ، وطبعه فيه."[3]، وهذا الشاعر عبد الرحمن بن محمد الفراسي، يقول فيه ابن رشيق: "كان شاعرا خليعا ماجنا شرِّيرا كثير المهاجاة، قليل المُداراة، خبيث اللِّسان."[4]، وكذلك الشاعر عبد الله بن إبراهيم المعروف بابن المؤدّب، فقد وصفه قائلا: "وكان شاعرا مذكورا، مشهورا، مُتصرِّفا، قليل الشِّعر، مُفرطًا في حُبِّ الغلمان، مُجاهرا بذلك، ذا حيلة وكيد، محروما، مُقتَّرًا عليه، مِتلافا إذا أفاد."[5]، أمَّا الشاعر عتيق بن عبد العزيز المعروف بالمجدولي، فقد "كان شاعرا شرِّيرا، مُنابشا، هجَّاءً، مُعجبا بما يصنعه، لا يرى أحدا مع نفسه، مُسامحا لنفسه في العربية، إنْ أعوزته لفظة صنعها على ما يشاء، ويروي بيتا شاهدا عليها، فإنْ طُولِب به أحال على كتاب لم يُسمع بذكره قطُّ."[6]، فالمجدولي – كما ترى– قد جمع خصال الشرِّ كلِّها زيادة على ذلك الكذب الذي هو أقبح الصفات.

ويصف ابن رشيق بعض الشعراء المدمنين على شرب الخمر، باعتبارها أمّ الخبائث، فهذا الشاعر أبي الحسن النَّمدجاني: "كان شاعرا مُشتهرا بالمجانة سكِّيرا، لا يكاد يُرى صاحيا البتَّة، سلك طرق أبي الرقعمق[7] في التهتُّك والتهكُّم والتحامق.

ومن شعره يقول في نفسه:

---

[1] – ابن رشيق، أنموذج الزمان، ص400.

[2] – المصدر نفسه، ص191.

[3] – نفسه، ص133-134.

[4] – نفسه، ص146.

[5] – نفسه، ص177.

[6] – نفسه، ص248.

[7] – أبو الرقعمق، هو أبو حامد أحمد بن محمد، شاعر فَكِهٌ، تصرَّف بالشعر جِدًّا وهزلا. أقام بمصر طويلا يمدح ملوكها ووزراءها. تُوفِّي سنة 399هـ، الأنموذج، التهميش رقم (2)، ص292.

تبـــــــــدَّيتُ إلـــــــــى النَّـــــــــاس فقـــــــــالوا: أنـــــــــت إبلـــــــــيسُ

رأوا شـــــــــيخًا قبـــــــــيح الوجـــــــــه ـــــــــه فـــــــــي طِمريـــــــــه تـــــــــدنيسُ[1]

أمَّا الشاعر عمَّار بن علي بن جميل، فيقول عنه: "وكان مُرَّ المذاق، شرس الأخلاق."[2]، وهناك شعراء يدَّعون الأدب، ويتظاهرون بحسن الخلق، وكان الشاعر عمر بن معمر الفارسي من هذه الشاكلة؛ حيث " كان ترفَ الكلام، نزْر الشعر، قليل التطويل، مُتظاهرا بالتأدُّب، مُستعملاً لحسن الأخلاق، ولُطف المباشرة."[3]

وممَّا يُلاحظ على الكثير من الشعراء الذين وصفهم ابن رشيق بالمجون وفساد الأخلاق أنَّهم كانوا يتعاطون الخمر، لكنَّ الشاعر محمد بن مغيث بلغ المنتهى في تعاطيها، فيقول فيه: "وكان مفتونا بالخمر، متبذِّلا فيها، مُدمِنًا عليها، لا يُفيق منها، مُولعًا ببيت الخمَّار ومخالطة العامة، فطار اسمه لذلك واشتهر به. وسأله بعض إخوانه –ليختبر قوة نفسه في المرض الذي مات فيه– هل تقدر على النُّهوض لو رُمته؟ فقال: لو شئتُ مشيتُ من ههنا إلى حانوت النَّبَّاذ. فقال: أفلا قلتَ إلى الجامع؟ فقال:

لكـــــلِّ امـــــرئ مـــــن دهـــــره مـــــا تعـــــوَّدا

ولم تجْرِ العادة بذلك."[4]، والجدير بالذكر في هذا المقام، أنَّ ابن رشيق، وإن لم يُسقط أسماء هؤلاء الشعراء المشهورين بالمجون وسوء الخلق وتعاطي الخمر وعشق الغلمان وغير ذلك من أنموذجه، إلاَّ أنَّه راعى في ترجمته لهم أخلاقَهم وصفاتِهم وما اشتهروا به من محاسن ومساوئ الأفعال، وهذا تأكيد منه لِمَا أورده في كتاب العمدة فيما يتعلَّق بأخلاق الشاعر وما يجب أن يكون عليه، وهو نقد ضمني لهؤلاء الشعراء يتعلَّق أساسًا بالجانب الأخلاقي والدِّيني.

2/ البسملة والدعاء في الشعر:

يقول ابن رشيق في الباب الثالث بعد المائة من كتاب العمدة: أنَّ العلماء اختلفوا في جواز كتابة البسملة في الشعر، وأورد بعض آرائهم: "قال أبو جعفر النَّحاس: اختلف العلماء في كَتْبِ (بسم الله الرحمن الرَّحيم) أمام الشِّعر؛ فكَرِه ذلك سعيد بن المسيَّب والزهري، وأجازه النخعي، وكذا يُروى عن ابن عبَّاس قال: أُكتبْ (بسم الله الرحمن الرَّحيم) أمام الشِّعر وغيره، قال أبو جعفر: ورأيتُ عليَّ بن سليمان يميل إلى هذا، وقال، ينبغي أن يكتب أمام الشِّعر (بسم الله الرحمن الرَّحيم) لأنَّه يجيء بعده (قال فلان) وما أشبه ذلك.. قلتُ أنا: إنَّما هذا في الشِّعر إذا دُوِّن، فأمَّا قصيدة رفعها الشاعر إلى ممدوحه فلا يُكتب قبلها اسم قائلها، لكن بعدها، وإذا كان الأمر هكذا فلا سبيل إلى كتاب البسملة؛ لأنَّ العذر حينئذ ساقط."[5]

---

[1] – ابن رشيق، أنموذج الزمان ص292.

[2] – المصدر نفسه، ص305.

[3] – نفسه، ص308.

[4] – نفسه، ص404-405.

[5] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص269.

وهذه القضية من النَّادر أن نجد ناقدا أو أديبا تناولها وخصَّص لها بابا مستقِّلا، وأكثر من تناول هذه المسألة هم الفقهاء وعلماء الدِّين، وكانت آراؤهم متباينة إلى حدٍّ ما. جاء في الموسوعة الفقهية في كتابة البسملة قبل الشِّعر ما يلي: " ذهب الفقهاء إلى أنَّه يُسنُّ ذكر «بسم الله الرحمن الرَّحيم» في ابتداء جميع الأفعال والأقوال غير المحظورة، وفي ابتداء الكتب والرَّسائل، عملا بقول النبيِّ ﷺ: **«كلُّ أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرَّحيم فهو أقطع»**، أي: ناقص غير تام، فيكون قليل البركة."[1]، وقال البهوتي في كتابه (كشَّاف القناع): "ونقل ابن الحكم: لا تُكتب أمام الشِّعر ولا معه، وذكر الشعبي: أنَّهم كانوا يكرهونه. قال القاضي: لأنَّه يشوبه الكذب والهجو غالبًا."[2]، وفي كتاب تصحيح الدُّعاء جاء: "كلُّ مُحرَّم أو مكروه، من قول أو عمل، لا يجوز افتتاحه بشيء من ذكر الله تعالى؛ لما فيه من الامتهان، وافتتاح المعصية بالطَّاعة. وذلك مثل: كتابة البسملة أمام الشِّعر غير الحسن، واستفتاح اللَّعب المُحرَّم، والرِّهان المُحرَّم.."[3]

ويُبدي ابن رشيق رأيه، ويتَّفق مع من يقول بكتابتها إذا كان الشِّعر حسنًا، ويستثني من ذلك قصيدة رفعها شاعر إلى ممدوحه، وهذه عادة ما يكون اسم صاحبها بعدها وليس قبلها، فحينئذ لا سبيل إلى كتابة البسملة، وكأنَّه يربط كتابتها بوجود اسم الشاعر قبل شعره، وفي هذا تعظيم لاسم الجلالة؛ حيث يُذكر أولا، ويُستفتح الشِّعر به، ثمَّ يُذكر اسم الشاعر بعده.

أمَّا ما تعلَّق بالدعاء في الشعر، فهو يُشير إليه إشارة سريعة في (باب المبدأ والخروج والنهاية)، فيقول أولا في مبحث (من دعاء الشعراء للملوك): "ومن هذه الجهة أكثر النَّاس من الدُّعاء لهم بطول العمر، حتَّى بلغوا بهم ما لا يُمكن، فقالوا: عشْ أبدًا، واسلمْ مدى الدَّهر، وابقَ بقاء الزَّمان، ودُمْ مُدَّة الأيَّام. واعترض النُّقاد في ذلك واختلفوا بحسب ما ينتحل كلُّ واحد منهم في قول أبي نواس للأمين:

يـــــا أمـــــين الله عـــــشْ أبـــــدًا دُمْ علـــــى الأيَّـــــام والـــــزَّمن

أنـــــت تبقـــــى والفنـــــاء لنـــــا فـــــإذا أفنيتنـــــا فَكُـــــنِ

وفي كثير من مثله. وإذا خرج الكلام عن حدِّ الإمكان فإنَّما يُراد به بلوغ الغاية لا غير ذلك."[4]، ويبدو أنَّ ابن رشيق لا يرى غضاضة في هذا المعنى، الذي لا يعدو عنده خروج الكلام عن حدِّ الإمكان، والقصد منه إيراد بلوغ الغاية لا غير، ونتساءل: أيَّة غاية يُرادها بمثل هذا المعنى في هذا الدعاء؟ إنَّ مثل هذا الخروج في المعنى عدَّه النقاد عيبًا كبيرًا من عيوب المعاني التي لا تجوز. جاء في نقد الشعر: "وممَّا جاء في الشعر وقد وُضع الممتنع في ما يجوز وقوعه، قول أبي نواس:

---

[1] – مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفقهية، دار الصفوة للنشر والتوزيع، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط1، 1992م، ج26، ص120.

[2] – البهوتي منصور بن يونس بن إدريس،كشَّاف القناع عن مَتن الإقناع، عالم الكتب، بيروت، لبنان، دط، 1983م، ج1، ص336.

[3] – أبو زيد بكر بن عبد الله، تصحيح الدُّعاء، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 1999م، ص47-48.

[4] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص186-187.

يـــــا أمـــــين الله عـــــشْ أبـــــدًا دُمْ علـــــى الأيَّـــــام والـــــزَّمن

فليس يخلو هذا الشاعر من أن يكون تفاءل لهذا الممدوح بقوله: (عش أبدا) أمرا أو دعاء، وكلا الأمرين ممَّا لا يجوز ومستقبحٌ."[1]، ويزيد قدامة الأمر توضيحا وبيانا، على افتراض أنَّ أحدا يعترض ويعتبر هذا القول من الغلوِّ الذي أجازه الناقد من قبل، فيقول: "ولعلَّ معترضا يعترض هذا القول منَّا في هذا الموضع، فيقول: إنَّه مناقضة لِمَا استجزناه ورأيناه صوابا في صدر هذا الكتاب من الغلوِّ، ويجعل قول أبي نواس هذا غلُوًّا فيلزمنا تجويزه كما فصلنا تجويز الغلوِّ. ونحن نقول: إنَّ هذا وما أشبهه ليس غلوًّا ولا إفراطًا بل خروجا عن حدِّ الممتنع الذي لا يجوز أن يقع؛ لأنَّ الغلوَّ إنَّما هو تجاوز في نعت ما للشيء أن يكون عليه وليس خارجا عن طباعه إلى ما لا يجوز أن يقع له...وليس في طباع الإنسان أن يعيش أبدا."[2]

ثمَّ يقول ابن رشيق في (ختم القصيدة بالدعاء): "وقد كره الحُذَّاق من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء؛ لأنَّه من عمل أهل الضعف، إلاَّ للملوك؛ فإنَّهم يشتهون ذلك كما قدَّمتُ، ما لم يكن من جنس قول أبي الطيِّب يذكر الخيل لسيف الدولة:

فـــلا هَجَمْـــتَ بهـــا إلاَّ عـــلى ظَفَـــرٍ ولا وَصَـــلْتَ بهـــا إلاَّ إلـــى أمـــل

فإنَّ هذا شبيه ما ذُكِر عن بغيض: كان يُصابحُ الأمير فيقول: لا صبَّح الله الأمير بعافية، ويسكت ثمَّ يقول: إلاَّ ومسَّاه بأكثر منها، ويُماسيه فيقول: لا مسَّى الله الأمير بنعمة، ويسكت سكتة ثمَّ يقول: إلاَّ وصبَّحه بأتمَّ منها، أو نحو هذا، فلا يدعو له حتَّى يدعو عليه؛ ومثل هذا قبيح، لا سيما عن مثل أبي الطيِّب."[3]

ويتَّفق الكلاعي مع ابن رشيق في مسألة الدعاء إلى حدٍّ كبير، بيد أنَّ الكلاعي يقصد المنثور من الكلام، فيقول: "الإكثار من الدعاء في الرَّسائل من أبهر الدَّلائل على ضعف البضاعة في الصناعة. وقد يُستسهل الإطناب في الدُّعاء في مخاطبة الملوك والأمراء."[4]

فإذا كان الحذَّاق من الشعراء قد كرهوا ختم القصيدة بالدعاء، لما في ذلك من ضعف وعدم قدرة على الإتيان بخاتمة فيها من الإبداع والاختراع ما يُدهش المتلقِّي، وتكون آخر ما يعلق بذهنه. إلاَّ أنَّهم استثنوا من ذلك القصائد التي يُمدح بها الملوك؛ لأنَّهم يشتهون ذلك. لهذا وجدنا الكثير من قصائد المدح يختمها أصحابها بالدعاء للمدوح، ولأنَّ المادح الصادق يرسم في ممدوحه المثالية الخُلقية الرَّفيعة التي تُقدِّرها الجماعة، مثل: الكرم والشجاعة والعفَّة والعدل...وسعيًا منه إلى تخليد تلك المآثر والفضائل، كان ختمُ القصيدة بالدُّعاء مناسبا جدًّا لما يدلُّ عليه الدعاء من مشاعر وأحاسيس دينية وأخلاقية. فالشاعر بدعائه للممدوح ـ خاصة الملوك والأمراء ـ بالخير والصِّحة والسلامة والنصر على الأعداء،

---

[1] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص202.

[2] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص199-200.

[4] – الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص72-73.

ليُعبِّر عن وفائه وإخلاصه وإجلاله للممدوح، وتعظيمه لتلك المناقب والفضائل التي تحلَّى بها، وفي هذا تأكيد وحفاظ على تلك المنظومة الأخلاقية العربية والإسلامية الممثَّلة في شخص الممدوح، وتقديم النموذج الأخلاقي الذي يجب أن يُقتدى. ولكنَّ ابن رشيق لا يُجنِّد أن يكون الدعاء على شاكلة وصف المتنبي لخيل سيف الدولة، أو ما كان من بغيض حين يُصابح أو يُماسي الأمير، فهو يراه قبيحا؛ لأنَّه لا يدعو له حتَّى يدعو عليه. وفي هذا تلاعب بالمعنى المُراد.

3/ فضل الشِّعر ووظيفته:

أكَّد ابن رشيق بوصفه شاعرا أولا ثمَّ ناقدا على فضل الشِّعر ومكانته عند العرب، ومن ثمَّ راح يسوق الباب تلو الباب، والمبحث تلو الآخر ليُثبت فضل المنظوم من الكلام على المنثور، فباب فضل الشعر، وباب في الردِّ على من يكره الشِّعر، وباب في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء، وباب من رفعه الشِّعر ومن وضعه، وباب من قضى له الشِّعر ومن قضى عليه، كلُّ هذه الأبواب وغيرها رصدها ابن رشيق ليُظهر مكانة الشِّعر والشعراء. وساق أدلَّة كثيرة على أفضلية الشعر، بعضها يتعلَّق بالجانب الفنِّي الجمالي للشعر، فذكر أولاً أنَّ العرب أفضل الأمم، وحكمتها أشرف الحكم، وأنَّ كلام العرب نوعان: منظوم ومنثور، ولكلٍّ منهما ثلاث طبقات: جيِّدة، ومتوسطة، ورديئة. وأنَّ كلَّ منظوم أحسن من كلِّ منثور من جنسه. وأنَّ النَّاس قد اجتمعوا على أنَّ المنثور في كلامهم أكثرُ، وأقلُّ جيِّدا محفوظا، وأنَّ الشِّعرَ أقلُّ، وأكثرُ جيِّدا محفوظا؛ لأنَّ في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يُقارب به جيِّد المنثور.[1] وبعضها يتعلَّق بوظيفته الاجتماعية والأخلاقية، فيقول: "وكان الكلام كلُّه منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيِّب أعراقها، وذِكر أيَّامها الصَّالحة، وأوطانها النَّازحة، وفرسانها الأنْجَاد، وسُمحائها الأجواد؛ لتهزَّ أنفسها إلى الكرم، وتدلَّ أبناءها على حُسن الشِّيم، فتوهَّموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلمَّا تمَّ لهم وزنه سمَّوه شعرًا؛ لأنَّهم شعروا به، أي: فطنوا."[2] فابن رشيق يرى أنَّ الباعث الأساس في ظهور الشعر هو احتياج العرب لتسجيل مفاخرهم ومآثرهم، وتأريخ فضائلهم وأمجادهم، وذِكر أيامهم وأوطانهم؛ لتبقى خالدة على مرِّ الأجيال وتعاقب الأزمان. وهذا تأكيد على أنَّ من أهمِّ وظائف الشِّعر عند العرب هو الحفاظ على قيمهم وأخلاقهم، وتسجيل مآثرهم ومفاخرهم، بعد أن رأوا أنَّ الكلام المنثور لا يفي بهذه الغاية بشكل كبير. وهذه الرؤية تبرز الوظيفة الأخلاقية والتربوية والتعليمية للشعر التي يراها ابن رشيق، ويعتقد أنَّها من أهمِّ وظائفه وأدواره، وهذا ما عناه بقوله أيضًا: "وإنَّما الشّعر ما أطرب وهزَّ النُّفوس وحرَّك الطِّباع، فهذا باب الشّعر الذي وُضع له وبُني عليه لا ما سواه"[3]، فهو لم يقف عند حدِّ المتعة، أو ما سمَّاه بالإطراب، بل تجاوز ذلك إلى تحقيق المنفعة، وهو ما سمَّاه هزَّ النفوس وتحريك الطِّباع، فالشّعر في نظر ابن رشيق له أثر كبيرٌ على النَّفس، وتأثير قويٌّ على الطَّبع.

---

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج1، ص17-18.

[2] – المصدر نفسه، ص18.

[3] – نفسه، ج1، ص110.

ولتأكيد هذه الوظيفة الأخلاقية وهذا الدور التربوي للشِّعر، ردَّ بإسهاب على بعض الكُتَّاب المنتصرين للنثر، الطاعنين على الشِّعر، الذين يحتجُّون بأنَّ القرآنَ كلامَ الله تعالى منثورٌ، وأنَّ النبيَّ ﷺ غير شاعر، فيقول: "إنَّ الله تعالى إنَّما بعث رسوله أميًّا غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك، حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة؛ آيةً للنُبوَّة وحجةً على الخلق، وإعجازا للمتعاطين، وجعله منثورا ليكون أظهر برهانا لفضله على الشِّعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادرا على ما يُحبُّه من الكلام، وتحدَّى جميع النَّاس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك، فكما أنَّ القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة، والمترسِّلين وليس بترسُّل، وإعجازه الشعراء أشدُّ برهانا، ألا ترى كيف نسبوا النبيَّ ﷺ إلى الشعر لمَّا غُلبوا وتبيَّن عجزهم؟ فقالوا: هو شاعرٌ، لما في قلوبهم من هيبة الشِّعر وفخامته، وأنَّه يقع منه ما لا يُلحَق، والمنثور ليس كذلك."[1]

ومن فضائل الشعر كذلك حسب ابن رشيق "أنَّ الكذب ـ الذي اجتمع النَّاس على قبحه ـ حَسَنٌ فيه؛ وحسبك ما حَسَّن الكذبَ، واغتفر له قُبحَه."[2]واستدلَّ بقول النبيِّ ﷺ: **«إنَّ من البيان لسحرًا، وإنَّ من الشِّعر لحكما»**، وبيَّن أنَّ مقارنة البيان بالسِّحر فصاحة منه ﷺ، جعل من الشِّعر حُكَمًا؛ لأنَّ السِّحر يُخيِّل للإنسان ما لم يكن للطافته وحيلة صاحبه، وكذلك البيان يتصوَّر فيه الحقَّ بصورة الباطل، والباطل بصورة الحقِّ؛ لرقَّة معناه، ولطف موقعه، وأبلغ البيانين عند العلماء الشِّعر بلا مدافعة.[3]، فأيُّ فضيلة أعظم بعد هذه للشِّعر، إذا كان الكذب ـ وهو المحرَّم والقبيح شرعا وعُرفا ـ مستحسنا فيه، ومُتجاوزا له.

وفي باب(في الردِّ على مَنْ يكره الشِّعر) يسوق ابن رشيق الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الصحابة والتابعين ليُبرز من خلالها موقف الإسلام من الشِّعر، ونظرة الرسول ﷺ إليه؛ وكأنَّ ابن رشيق من خلال هذا العنوان يُريد أن يقول بأنَّ الخصومة بين أنصار الشِّعر ورافضيه ما زالت إلى عصره ظاهرة متميِّزة في المجالس الأدبية والنقدية. بل ووصل الأمر ببعضهم إلى حدِّ إصدار أحكام شرعية في قول الشِّعر وروايته، فيردُّ على هؤلاء الكارهين للشِّعر مستدلاً بقول الرسول ﷺ: «إنَّما الشِّعر كلام مؤلَّف فما وافق الحقَّ منه فهو حسن، وما لم يُوافق الحقَّ منه فلا خير فيه»، وقوله ﷺ: **«إنَّما الشِّعر كلام، فمن الكلام خبيث وطيِّب»**، وقوله أيضا: **«الشِّعر كلام من كلام العرب جَزْل، تتكلَّم به في بواديها، وتَسُلُّ به الضغائن من بينها»**، وقول عائشة **رضي الله عنها**: « الشِّعر فيه كلام حسن وقبيح، فخذ الحسن واترك القبيح»، كما استشهد بأقوال بعض الصحابة الكرام وخاصة عمر بن الخطاب ﷺ الذي كتب إلى أبي موسى الأشعري: (مُرْ من

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص19.
[2] – المصدر نفسه، ص20.
[3] – يُنظر نفسه، ص22-23.

قِبَلِكَ بتعلُّم الشِّعر؛ فإنَّه يدلُّ على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب)، وقول معاوية ﷺ: (يجب على الرَّجل تأديب ولده، والشِّعر أعلى مراتب الأدب.[1]

ويستشهد كذلك بآراء وأقوال بعض السادة العلماء والفقهاء في الشِّعر، ومن ذلك أنَّه قيل لسعيد بن المسيّب: إنَّ قوما بالعراق يكرهون الشِّعر، فقال: نَسَكُوا نُسُكًا أعْجَميًّا. وسُئل ابن سيرين في المسجد عن رواية الشِّعر في شهر رمضان ـ وقد قال قوم: إنَّها تنقض الوضوء ـ فقال:

نُبِّئْتُ أنَّ فتاةً كنتُ أخطبها عُرقوبُها مثلُ شهرِ الصَّومِ في الطول

ثمَّ قام فأمَّ النَّاس، وقيل: بل أنشد:

لقد أصبحتْ عِرْسُ الفرزدق ناشزًا ولو رضيتْ رُمْح اسْتِه لاستقرَّت

وسُئل ابن عبَّاس ﷺ: هل الشِّعر من رفث القول؟ فأنشد:

وهُنَّ يمشين بنا هميسا إنْ تصدُق الطيرُ.....لميسَا

وقال: إنَّما الرَّفث عند النِّساء، ثمَّ أحرم للصِّلاة. كما يذكر مقولة العمري[2] التي يحثُّ فيها على رواية الشِّعر، قائلا: رَوُّوا أولادكم الشِّعر؛ فإنَّه يَحُلُّ عُقدة اللسان، ويُشجِّع قلب الجبان، ويُطلق يد البخيل، ويحضُّ على الخلق الجميل. ويذكر حُبَّ أبي السَّائب للشِّعر ـ على شرفه وجلالته وفضله في الدِّين والعلم ـ فيقول: أمَا والله لو كان الشِّعر مُحرَّمًا لوردنا الرَّحبة كلَّ يوم مرارًا. والرَّحبة: الموضع الذي تُقام فيه الحدود، يُريد أنَّه لا يستطيع الصَّبر عنه فيُحدُّ كلَّ يوم مرارًا ولا يتركه.[3]

أمَّا ما تعلَّق بالآيات (**224–226**) من سورة الشُّعراء، وبعض الأحاديث النَّبوية، والتي كانت مثار الأفهام المختلفة والآراء المتعدِّدة، من أهل التَّفسير والحديث وغيرهم ، فيخصِّص لها مبحثا بعنوان: (الردُّ على حجَّة مَن يكره الشِّعر)، حيث يقول لهم: "فأمَّا احتجاج مَن لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى: **﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾**، فهو غلط، وسوء تأوُّل؛ لأنَّ المقصودين بهذا النصِّ شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء، ومسُّوه بالأذى، فأمَّا مَن سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألاَ تسمع كيف استثناهم الله عزَّ وجلَّ ونبَّه عليهم فقال: **﴿إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ**

---

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج1، ص23–24.

2 – العمري هو الإمام القدوة الزاهد العابد أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله ابن صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر بن الخطاب العمري المدني، ت 184هـ، يُنظر الذَّهبي شمس الدين محمد، سير أعلام النبلاء، تح: خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ط6، 2014م، ج7، ص579.

[3] – يُنظر ابن رشيق، المصدر السابق، ج1، ص25–26.

مَا ظُلِمُوا﴾، يُريد شعراء النبيِّ ﷺ الذين ينتصرون له، ويُجيبون المشركين عنه: حسَّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة."[1]

"وأمَّا قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: **«لأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدكم قَيْحًا حتَّى يَرِيَه خيرٌ لَهُ مِنْ أنْ يَمْتَلِئَ شِعرًا »**، فإنَّما هو مَنْ غلب الشِّعرُ على قلبه، وملك نفسه حتَّى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومَنَعَه من ذِكْرِ الله تعالى وتلاوة القرآن. والشِّعر وغيره ـ ممَّا جَرَى هذه المجرى من شطرنج وغيره ـ سواء. وأمَّا غير ذلك ممَّن يتَّخذ الشِّعر أدبا وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه، وقد قال الشِّعر كثير من الخلفاء الرَّاشدين، والجِلَّة من الصَّحابة والتَّابعين، والفقهاء المشهورين."[2]

ويبدو أنَّ قضية الشِّعر قد أخذت أبعادًا دينية متباينة بين العلماء والفقهاء ما بين قائل بجوازه، وقائل بتحريمه أو كراهيته، وابن رشيق ـ وإن لم يكن من الفقهاء وعلماء الدِّين المعدودين ـ إلاَّ أنَّه يذكر رأيه صراحة بجواز وإباحة الشِّعر، قائلا: "فلو أنَّ الشِّعر حرام أو مكروه ما اتَّخذ النبيُّ ﷺ شعراء يُثيبهم، ويأمرهم بعمله، ويسمعه منهم."[3]

ولكي نتبيَّن الرأي الفصل في هذه المسألة لا بأس أن نقف عند آراء بعض العلماء والفقهاء في حكم إنشاء الشِّعر وإنشاده واستماعه، فقد جاء في الموسوعة الفقهية ما يلي: قال ابن قدامة: ليس في إباحة الشِّعر خلافٌ، وقد قاله الصحابة والعلماء، والحاجة تدعو إليه لمعرفة اللغة العربية، والاستشهاد به في التَّفسير، وتعرُّف معاني كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ، ويُستدلُّ به أيضا على النَّسب والتاريخ وأيَّام العرب. وقال ابن العربي: الشِّعر نوع من الكلام، قال الشافعي: حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيحه: يعني أنَّ الشِّعر ليس يُكره لذاته وإنَّما لمتضمناته. وقال النَّووي: قال العلماء كافة: الشِّعر مباح ما لم يكن فيه فُحش ونحوه، وهو كلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح، وهذا هو الصَّواب. وقال ابن حجر: الذي يتحصَّل من كلام العلماء في حدِّ الشِّعر الجائز أنَّه إذا لم يكثر منه في المسجد، وخلا عن هجو وعن الإغراق في المدح والكذب المحض والغزل الحرام، فإنَّه يكون جائزا.[4]، وما دام حكم الشِّعر كحكم الكلام؛ حسنه حسن، وقبيحه قبيح، فالأصل فيه عند جمهور العلماء الجواز والإباحة، ونصوص فقهاء المذاهب في هذا الحكم متقاربة: "قال الحنفية: اليسير من الشِّعر لا بأس به إذا قُصِدَ به إظهار النُّكات والتشابيه الفائقة والمعاني الرَّائقة، وما كان من الشِّعر في ذِكْر الأطلال والأزمان والأمم فمباح. وقال المالكية: يُباح إنشاد الشِّعر وإنشاؤه ما لم يكثر منه فيكره، إلاَّ في الأشعار التي يُحتاج إليها في الاستدلال. وقال الشافعية: يُباح إنشاء الشِّعر وإنشاده واستماعه، ما لم يتضمَّن ما يمنعه أو يقتضيه اتِّباعا للسَّلف والخلف، ولأنَّه ﷺ كان له شعراء يُصغي إليهم كحسَّان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك ﷺ."[5]، ولكنَّ هذا الحكم قد يتبدَّل بحسب ما يكون عليه الشعر ويتضمَّنه لفظًا ومعنًى، ويأخذ بذلك جميع

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص26.

[2] – المصدر نفسه، ص26-27.

[3] – نفسه، ص26.

[4] – مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفقهية، ج26، ص113-114.

[5] – المرجع نفسه، ص116-117.

الأحكام الشرعية، "فقد يكون فرضا كما نقل ابن عابدين عن الشهاب الخفاجي، قال: معرفة شعر أهل الجاهلية والمخضرمين والإسلاميين رواية ودراية فرض كفاية عند فقهاء الإسلام؛ لأنَّ به تثبت قواعد العربية التي بها يُعلم الكتاب والسنَّة المتوقف على معرفتهما الأحكام التي يتميَّز بها الحلال من الحرام، وكلامهم وإن جاز فيه الخطأ في المعاني فلا يجوز فيه الخطأ في الألفاظ وتركيب المباني."[1]

وقد يكون الشِّعر مندوبا، "وذلك إذا تضمَّن ذكر الله تعالى أو حمده أو الثناء عليه، أو ذكر رسوله ﷺ أو الصَّلاة عليه أو مدحه أو الذبَّ عنه، أو ذكر أصحابه أو مدحهم، أو ذكر المتَّقين وصفاتهم وأعمالهم، أو كان في الوعظ والحكم أو التحذير من العاصي أو الحثِّ على الطاعات ومكارم الأخلاق."[2]

وقد يكون الشعر حراما "إذا كان في لفظه ما لا يحلُّ كوصف الخمر المهيِّج لها، أو هجاء مسلم أو ذميّ، أو مجاوزة الحدِّ والكذب في الشِّعر، بحيث لا يُمكن حمله على المبالغة، أو التشبيب بمعيَّن من أمرد أو امرأة غير حليلة، أو كان ممَّا يُقال على الملاهي."[3]

ويأخذ الشِّعر حكم الكراهية، وللمذاهب في ذلك تفصيل: "فعند الحنفية أنَّ المكروه من الشِّعر ما داوم عليه الشَّخص وجعله صناعة له حتَّى غلب عليه وشغله عن ذكر الله تعالى وعن العلوم الشرعية، وما كان من الشِّعر في وصف الخدود والقدود والشعور، وكذلك تُكره قراءة ما كان فيه ذكر الفسق والخمر. وقال المالكية: يُكره الإكثار من الشِّعر غير المحتاج إليه لقلَّة سلامة فاعله من التجاوز في الكلام؛ لأنَّ غالبه مشتمل على مبالغات. وقال الشافعية: يُكره أن يُشبِّب من حليلته بما حقُّه الإخفاء، وذلك ما لم تتأذَّ بإظهاره، وإلاَّ حُرِّم. وقال الحنابلة: يُكره من الشِّعر الهجاء والشِّعر الرَّقيق الذي يُشبِّب بالنِّساء."[4]

وفي السِّياق ذاته، وفي باب آخر (باب في أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء) يذكر ابن رشيق بعض أشعار الخلفاء الرَّاشدين وغيرهم من الخلفاء والقضاة والفقهاء، ليُؤكِّد دائما على فضل الشِّعر ومكانته، وأنَّ إنشاءه وإنشاده جائز مباح لا ضير فيه، ولو لم يكن كذلك ما كان لهؤلاء الصفوة من النَّاس أن يتعاطوه إنشاءً وإنشادًا واستماعًا. وعلى رأس هؤلاء الخليفة الأول أبو بكر الصِّديق ﷺ؛ حيث ذكر شعرا يُنسب إليه، منه هذه الأبيات:

أمـــن طيـــف ســـلمى بالبطـــاح الرمائـــث أرقـــت، أو آمـــرٍ فـــي العشـــيرة حـــادث؟
تـــرى مـــن لـــؤي فرقـــة لا يصـــدُّها عـــن الكفـــر تـــذكيرٌ ولا بعـــثُ باعـــث
رســـولٌ أتـــاهم صـــادقٌ فتكـــذَّبُوا عليـــه، وقـــالوا: لســـتَ فينـــا بماكـــث

ثمَّ ذكر بعض المقاطع من الشعر تُنسب لعمر بن الخطاب ﷺ، منها قوله:

---

[1] – مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفقهية، ج26، ص115.
[2] – المرجع نفسه، ص115.
[3] – نفسه، ص116.
[4] – نفسه، والصفحة نفسها.

توعَّـــدني كعـــبٌ ثلاثـــا يعـــدُّها ولا شـــكَّ أنَّ القـــول مـــا قـــال لـــي كعـــبُ
ومـــا بـــيَ خـــوفُ المـــوت؛ إنِّـــي لميِّـــتٌ ولكـــنَّ خـــوف الـــذنبِ يتبعـــه الـــذنبُ

وبعد ذلك روى بيتين من الشِّعر يُنسبان للخليفة الثالث عثمان بن عفَّان ﷺ، هما:

غنـــى الـــنَّفس يغنـــي الـــنَّفس حتَّـــى يكفَّهـــا وإنْ عضَّـــها حتَّـــى يضـــرَّ بهـــا الفقـــرُ
ومـــا عُســـرة – فاصـــبرْ لهـــا إن لقيتهـــا– بكائنـــــــة إلاَّ سيتبعـــــــها يُسْـــــــرُ

ثمَّ أورد بعض المقاطع الشعرية لعلي بن أبي طالب ﷺ، ومنها ما قاله يوم صفِّين:

ولـــمَّا رأيـــتُ الخيـــل تـــرجم بالقنـــا نواصـــيُّها حمـــرُ النُّحـــور دوامـــي
وأعـــرض نقـــعٌ فـــي السَّـــماء كأنَّـــه عجاجـــةُ دجـــنٍ مُلْـــبَسٍ بقَتَـــامِ

وذكر بعدها شعرا للحسن بن عليٍّ، ومعاوية بن أبي سفيان، والحسين بن عليٍّ **رضي الله عنهم أجمعين**. ويُفرد بني عبد المطَّلب بهذا الفضل فيقول: وليس من بني عبد المطَّلب رجالا ونساء مَنْ لم يقل الشِّعر حاشا النبيَّ ﷺ. فيذكر شعرا لحمزة بن عبد المطَّلب، وللعبَّاس بن عبد المطَّلب، ولعبد الله بن العبَّاس، ولجعفر بن أبي طالب، وغيرهم.

كذلك أورد بعض الأشعار لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وعبد الله بن الزُّبير، ومن القضاة ذكر شعرا للقاضي شُريح بن الحارث، ويقول عنه: كان شاعرا مُجوِّدًا، ومن الفقهاء ذكر شعرا للفقيه عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، ومن العلماء أصحاب المذاهب يختم بذكر بعض المقاطع للإمام محمد بن إدريس الشافعي، وعبَّر عن إعجابه بشعره قائلا: فكان من أحسن النَّاس افتنانًا في الشعر، ومن قوله:

ومُتْعِـــبِ العـــيس مرتاحـــا إلـــى بلـــد والمـــوتُ يطلبـــه فـــي ذلـــك البلـــد
وضـــاحكٍ والمنايـــا فـــوق مفرقـــه لـــو كـــان يعلـــم غيبـــا مـــات مـــن كَمَـــدِ
مـــن كـــان لـــم يُـــؤتَ علمًـــا فـــي بقـــاءِ غـــد مـــاذا تفكُّـــره فـــي رزق بعـــد غـــدِ[1]

وفي (باب من رفعه الشعر، ومن وضعه) يُبيِّن ابن رشيق دور وقيمة الشعر الاجتماعية، فقد رفع أفرادًا وأقوامًا، وخفض أفرادًا وأقوامًا، وعادة ما يكون الرفع بالمدح والخفض بالهجاء، "ومن ههنا عظُم الشعر، وتهيَّبَ أهلُه، خوفًا من بيت سائر تُحْدَى به الإبل، أو لفظة شاردة يُضرَب بها المثل، ورجاء في مثل ذلك؛ فقد رفع كثيرًا من النَّاس ما قيل فيهم من الشعر بعد الخمول والإطراح، حتى افتخروا بما كانوا يُعيَّرون به، ووضع جماعة من أهل السَّوابق والأقدار الشريفة حتى عُيِّروا بما كانوا يفتخرون به."[2]

فممَّن رفعه ما قيل فيه من الشِّعر بعد الخمول المُحلَّق، وذلك أنَّ الأعشى قَدِمَ مَكَّةَ وتسامع الناس به، وكانت للمحلَّق امرأةٌ عاقلة وقيل: بل أمٌّ، فقالت له: إنَّ الأعشى قَدِمَ، وهو رجلٌ مُفَوَّهٌ، مجدُودٌ في الشِّعر ما مدح أحدًا إلا

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج1، ص27–34، ويُنظر الأبيات، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس، الديوان، تح: محمد عبد المنعم الخفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، ط2، 1985م، ص72.

[2] – ابن رشيق، المصدر نفسه، ص41.

رفعه، ولا هجا أحدًا إلا وضعه، وأنت رجلٌ كما عَلِمْتَ فقيرٌ خاملُ الذِّكر ذو بنات، وعندنا لَقْحَةٌ نعيشُ بها، فلو سبقْتَ النَّاس إليه فدعوتَهُ إلى الضِّيافة، ونحْرتَ له واحتلْتُ لك فيما تشتري به شرابًا يتعاطاه؛ لَرَجَوْتُ لك حُسْنَ العاقبة، فسَبقَ إليه المحلَّق، فأنزله ونحر له، ووجد المرأة قد خبزت خبزًا وأخرجت نِـحْيًا فيه سمن وجاءت بوَطْبِ لبن، فلمَّا أكل الأعشى وأصحابُه، وكان في عِصَابة قَيْسية، قَدَّمَ إليه الشَّراب واشتوى له من كبد الناقة، وأطعمه من أطايبها، فلمَّا جرى فيه الشَّراب وأخذَتْ منه الكأس سأله عن حاله وعِيالِه فعرف البُؤْسَ في كلامه، وذكر البنات، فقال الأعشى: كُفِيتَ أمرهُنَّ، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته:

أَرِقْـــتُ وَمَـــا هَـــذَا السُّـــهَادُ الـــمُؤَرِّقُ وَمَـــا بِـــيَ مِـــنْ سُـــقْمٍ وَمَـــا بـــيَ مَعْشَـــقُ[1]

ورأى المحلَّق اجتماع النَّاس، فوقف يستمع، وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله، إلى أن سمع:

لَعَمـــرِي لَقَـــد لاحَـــتْ عُيُـــونٌ كَثيـــرَةٌ إلـــى ضَـــوءِ نَـــارٍ فـــي يَفَـــاعٍ تُحَـــرَّقُ
تُشَـــبُّ لـــمقْرُورَيْنِ يَصْـــطَلِيَانِهَا وَبَـــاتَ عَلـــى النَّـــارِ النَّـــدَى وَالمـــحَلَّقُ
رَضِـــيعَيْ لَبَـــانٍ ثَـــدْيَ أُمٍّ تَحَالَفَـــا بِأَسْـــحَمَ داجٍ عَـــوْضُ لا نَتَفَـــرَّقُ
تـــرَى الجُـــودَ يَجـــرِي ظـــاهرًا فـــوْقَ وَجْهِـــهِ كَمَـــا زَانَ مَـــتنَ الهِنـــدُوَانيِّ رَوْنَـــقُ
نَفَـــى الـــذَّمَّ عَـــنْ آلِ المـــحَلَّقِ جَفنَـــةٌ كَجابيَـــةِ الشَّـــيْخِ العِرَاقـــيِّ تَفْهَـــقُ[2]

فما أتمَّ القصيدة إلا والنَّاس ينسلون إلى المحلَّق يُهنِّئونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جريًا يخطبون بناته؛ لمكان شعر الأعشى، فلم تُـمْسِ منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها ألف ضعف.[3]

وكذلك بنو أنف النَّاقة، كانوا يَفْرَقُون من هذا الاسم، حتى إنَّ الرَّجلَ منهم يُسألُ: ممن هو؟ فيقول: من بني قريع، فيتجاوز جعفرًا أنف النَّاقة بن قريع بن عوف بن مالك ويُلْغِي ذِكْرَهُ فِرَارًا من هذا اللقب، إلى أن نقل الحُطيئةَ أحدُهم، وهو بغيضُ بن عامر بن لؤي بن ثمَّاس بن جعفر أنف النَّاقة من ضيافة الزِّبرقان بن بدر إلى ضيافته وأحسن إليه فقال الحطيئة فيهم:

سِـــيري أَمَـــامَ فـــإنَّ الأكْثَـــرِينَ حصًـــى وَالأكْـــرَمِينَ إذَا مَـــا يَنْسَـــبُونَ أبَـــا
قَـــوْمٌ هُـــمُ الأنْـــفُ، والأذْنَـــابُ غَيـــرَهُمُ وَمَـــنْ يُسَـــاوي بـــأنْفِ النَّاقَـــةِ الـــذَّنَبَا[4]

فصارُوا يتطاولون بهذا النَّسب ويمدُّون به أصواتَهم في جَهَارة. وإنَّما سُمِّيَ جعفرُ أنفَ النَّاقة لأنَّ أباه قسَّم ناقة جزورًا ونَسِيَهُ، فبعثته أمُّه ولم يبق إلا رأسُ النَّاقة، فقال له أبوه: شأنك بهذا، فأدْخَلَ أصابعَه في أنف النَّاقة وأقبل يجرُّه، فسُمِّيَ

[1] – الأعشى الكبير ميمون بن قيس، الدّيوان، تح: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، مصر، دط، دت، ص217.
[2] – المرجع نفسه، ص225.
[3] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج1، ص41-42.
[4] – الحُطيئة، الديوان، ص21.

بذلك.[1]، وممن وضعه ما قيل فيه الشعر حتَّى انكسر نسبه، وسقط عن رُتبتِه، وعِيبَ بفضيلته بنو نمير، وكانوا جَمْرَةً من جَمَرات العرب، إذا سُئِلَ أحدُهم: ممَّن الرَّجلُ؟ فَخَّم لَفْظَه ومدَّ صوتَه وقال: من بني نمير، إلى أن صنع جرير قصيدته التي هجا بها عُبَيْد بن حُصَين الراعي، فسهر لها، وطالت ليلتُه إلى أنْ قال:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلا كَعْبًا بَلَغْتَ ولاَ كِلابَا

فأطْفَأَ سراجَه ونام وقال: قد والله أخزيتُهم آخرَ الدَّهر، فلم يرفعوا رأسًا بعدها إلا نُكِّسَ بهذا البيت.[2]

ويذكر ابن رشيق في باب (من قضى له الشعر ومن قضى عليه)، أنَّه "لـمَّا أنشد حسَّان بن ثابت الرسول ﷺ حين جاوب عنه أبا سفيان بن الحارث بقوله:

هجوتَ محمَّدًا فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاءُ

فقال له الرسول ﷺ: **« جزاؤك عند الله الجنَّة يا حسَّان »**، فلمَّا قال:

فإنَّ أبي ووالدَه وعرضي لعرض محمَّد منكم وقاءُ

قال له: **«وقاك الله حرَّ النَّار»**. قال ابن رشيق مُعلِّقا: فقضى له بالجنَّة مرَّتين في ساعة واحدة، وسبب ذلك شعره."[3]، وممَّن قضى له الشِّعر أيضا من الرسول ﷺ النابغة الجعدي، "لـمَّا أنشد بين يديه قصيدة يقول فيها:

علونا السَّماء عفَّة وتكرُّما وإنَّا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فغضب النبيُّ ﷺ، وقال: أين المظهر يا أبا ليلى؟ فقال: الجنَّة بك يا رسول الله، فقال له النبيُّ ﷺ: أجل، إن شاء الله. فقضت له دعوة النبيِّ ﷺ بالجنَّة، وسبب ذلك شعره.[4]

ومن طرائف ما رواه ابن رشيق من مواقف في هذا الباب "أنَّ الفرزدق كان يجلس إلى الحسن البصري، فجاءه رجل فقال: يا أبا سعيد، إنَّا نكون في هذه البعوث والسَّرايا فنُصيب المرأة من العدوِّ، وهي ذات زوج، أفتحلُّ لنا من قبل أن يُطلِّقها زوجها؟ فقال الفرزدق: قد قلتُ أنا مثل هذا في شعرين، فقال الحسن: وما قلتَ؟ قال: قلتُ:

وذاتِ حليلٍ أنكحتْنا رماحُنا حلالاً لمن يبني بها لم تُطلق

فقال الحسن: صدق، فحكم بظاهر قوله."[5]، وفي باب احتماء القبائل بشعرائها يذكر ابن رشيق مقولة شيخه عبد الكريم النهشلي المتعلِّقة بمظاهر تمجيد العرب للشعراء، ولكن دون أن ينسبها إليه، ومع زيادة فيها، فيقول: "كانت القبيلةُ من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنَّأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النِّساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص42.
[2] – المصدر نفسه، ص43
[3] – نفسه، ص45.
[4] – نفسه، والصفحة نفسها.
[5] – نفسه، ص47.

في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنَّه حماية لأعراضهم، وذَبٌّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يُهنِّئون إلا بغلام يُولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج"[1]

فمكانة الشاعر الجاهلي بين قبيلته مكانة كبيرة بلا شكٍّ، وهذا ما نفهمه من نصِّ ابن رشيق؛ إذ هو المدافع والحامي لأعراضها وأحسابها، والمُخلِّد بشعره مآثر القبيلة وأيَّامها وكلَّ ما يتعلَّق بعاداتها وتقاليدها وأخلاقها، والمُشيد لمفاخرها وأمجادها، والمُحرِّك لمشاعرها في سلمها وحربها. ويذكر ابن رشيق أنَّ "ممَّن حمى قبيلته زياد الأعجم، وذلك أنَّ الفرزدق همَّ بهجاء عبد القيس، فبلغ ذلك زيادًا وهو منهم، فبعث إليه: لا تعجل وأنا مُهْدٍ إليك هديَّةً، فانتظر الفرزدق الهدية، فجاءه من عنده:

ومَـــا تَـــرَكَ الهَـــاجُون لـــي إنْ هَجَوتُـــه مَصَـــكًّا أرَاهُ فـــي أَدِيـــمِ الفَـــرَزْدَقِ
وَلاَ تركُـــوا لَـــحْمًا يُـــرى فَـــوْقَ عَظْمِـــهِ لآكِلِـــــــهِ أَبْقَـــــوهُ لِلْمُتَعَـــــرِّقِ
سَأُكْسِـــرُ مَـــا أَبْقَـــوْا لَـــهُ مِـــنْ عِظَامِـــهِ وَأَنْكُـــتُ مُـــخَّ السَّـــاقِ مِنْـــهُ فَـــأَنْتَقِي
وَإِنَّـــا ومَـــا تُهْـــدِي لنَـــا إنْ هَجَوْتَنَـــا لَكَـــالْبَحْرِ مَهْمَـــا يُلْـــقَ فـــي البَحْـــرِ يَغْـــرَقِ[2]

فلما بلغته الأبيات كفَّ عمَّا أراد، وقال: لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاش هذا العبد فيهم."[3]، وفي خبر آخر بين الفرزدق وبني حرام، حيث "هجا رجلٌ من بني حرام الفرزدق، فجاء به قومه يقودونه إليه، فقال الفرزدق:

ومَـــن يَـــكُ خَائِفًـــا لأذَاةِ شِـــعْرِي فَقَـــدْ أَمِـــنَ الهِجَـــاءَ بنُـــو حَـــرَامِ
هـــم قَـــادُوا سَـــفِيهَهُم، وخَـــافُوا قَلائِـــدَ مثـــلَ أطْـــواق الحَمَـــامِ[4]

وفي باب آخر، باب(في منافع الشِّعر ومضارِّه)، يذكر ابن رشيق أنَّ الشِّعر كلام يحسن فيه ما يحسن في الكلام، ويقبح منه ما يقبح في الكلام، وبقدر حسنه وقبحه يكون نفعه وضرره، واستشهد على ذلك بجملة من المواقف التي كان فيها الشِّعر مصدر نفع أو ضرٍّ لصاحبه، ومن ذلك " أنَّ المأمون سمع منشدا يُنشد قول عمارة بن عقيل:

أأتـــركُ إنْ قلَّـــتْ دراهـــمُ خالـــد زيارتَـــــــه؟ إنِّـــــي إذًا للئيـــــمُ

فقال: أوَ قلَّت دراهمُ خالد؟ احملوا إليه مائتي ألف درهم، فدعا خالد بعمارة، فقال: هذا مطرٌ من سحائبك، ودفع إليه عشرين ألفا. وَوَجِدَ أبو جعفر المنصور على أحد الكُتَّاب، وأمر به لِيُضْرَبَ، فقال:

ونحـــن الكـــاتبون وقـــد أســـأنا فهبنـــا للكـــرام الكاتبينـــا

فخلَّى سبيله إعجابا ببديهته."[5]

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص55.

[2] – أبو أمامة زياد الأعجم، الديوان، تح: يوسف حسين بكَّار، دار المسيرة، عمَّان، الأردن، ط1، 1983م، ص87-88.

[3] – ابن رشيق، المصدر السابق، ج1، ص55-56.

[4] – المصدر نفسه، ص56، والبيتان لا وجود لهما في الديوان.

[5] – نفسه، ص60.

وممَّن ضرَّه شعرُه وأهلكه سُدَيف؛ "فإنَّه طعن في دولة بني العبَّاس بقوله لـمَّا خرج محمد بن الحسن بالمدينة على أبي جعفر المنصور في أبيات له:

إنَّـــا لنأمـــلُ أن ترتـــدَّ ألفتنـــا بعـــد التباعـــد والشَّـــحناء والإحَـــنِ

وتنقضـــي دولـــةٌ أحكـــامُ قادتهـــا فينـــا كأحكـــام قـــومٍ عابـــدي وثـــنِ

فـــانهضْ ببيعـــتكم نـــنهضْ بطاعتنـــا إنَّ الخلافـــة فـــيكم يـــا بنـــي الحســـنِ

فكتب المنصور إلى عبد الله بن علي بأنْ يدفنه حيًّا، ففعل. وممَّن ضرَّه شعره أيضا المتنبي؛ لـمَّا فرَّ ورأى الغلبة، قال له غلامه: لا يتحدَّث النَّاس عنك بالفرار أبدًا وأنت القائل:

الخيـــلُ واللَّيـــلُ والبيـــداء تعرفنـــي والطَّعـــنُ والضَّـــربُ والقرطـــاسُ والقلـــمُ

فكرَّ راجعا فقُتِلَ، وكان سبب ذلك هذا البيت."[1]

4/ النِّية في الشِّعر:

وابن رشيق مثله مثل بقية النقَّاد القدامى تناول قضية حدِّ الشِّعر وبنيته في باب مستقلٍّ، ويقول فيه: "الشِّعر يقوم بعد النِّية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية. فهذا هو حدُّ الشِّعر، لأنَّ من الكلام موزونا مقفًّى وليس بشعر؛ لعدم القصد والنِّية، كأشياء اتَّزنت من القرآن ومن كلام النبيِّ ﷺ، وغير ذلك ممَّا لم يُطلق عليه أنَّه شعر."[2]

وهنا لن أتناول بالتحليل حدَّ الشِّعر عند ابن رشيق من جانبه الفنِّي أو العروضي، والذي يتقاطع فيه مع غيره من النقاد، خاصة مع قدامة الذي عرَّفه بأنَّه "قول موزون مقفًّى يدل على معنى."[3]، وإنَّما سأتناول ما جاء في مقدِّمة التعريف، وهو قوله: (الشِّعر يقوم بعد النِّية)، فهو بقوله هذا يضع النِّية –والتي تعني القصد والإرادة– أساس العملية الإبداعية الشعرية؛ لأنَّ النِّية أو القصد في مفهومنا الإسلامي هي أصل الأعمال ومدار القبول والجزاء، وهذا ما يُفهم من الحديث الشَّريف الذي يُؤكِّد على قيمة النِّية في كلِّ الأعمال، والذي يقول فيه الرسول ﷺ: **«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ» – وفي رواية: بالنِّيَّات – «وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكَحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»**متَّفق عليه.[4]، فإذا كانت النِّية قيمة وأساسا حاضرا في كلِّ الأعمال الفعلية، فلا ضير أن تكون حاضرة في الأعمال القولية، فلا تمايز بين الأعمال سواء كانت عضلية أو فكرية، فالنِّية تُعتبر فاتحة كلِّ عمل، ومبدأ حصوله،"فلا فرق في ذلك بين شعيرة دينية محضة، وبين عمل دنيوي كأن

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص64–65.

[2] – المصدر نفسه، ص103.

[3] – قدامة بن جعفر، نقد الشِّعر، ص64.

[4] – المنذري الحافظ عبد العظيم بن عبد القوي، التَّرغيب والتَّرهيب، باب الترغيب في الإخلاص والصِّدق والنِّية الصالحة، اعتنى به: قسم التحقيق والبحث العلمي، دار الإمام مالك للطباعة والنشر، باب الوادي، الجزائر، ط2، 2013م، ج1، ص9–10.

يكون تجربة أدبية أو صناعة حرفية، حتَّى الشِّعر فإنَّ النِّية فيه تُعدُّ عماد بيته وأُسَّه المتين، كما أشار إلى ذلك ابن رشيق"[1]، وقياسا على الحديث نستطيع أن نقول: إنَّما الأشعار بالنِّية أو بالنِّيات.

ويرد مصطلح (النِّية) في موضع آخر من الكتاب، وتحديدا في (باب عمل الشِّعر، وشحذ القريحة له)، حيث يذكر ابن رشيق هذا المصطلح في حديثه عن (أفضل ما استعان به شاعر)، فيقول: "...وإنَّما ذلك لأنَّ الشاعر إذا صنع القصيدة وهو في غنى وسعة نقَّحها وأنعم النظر فيها على مهل، فإذا كان مع ذلك طمع قَوِيَ انبعاثها من ينبوعها، وجاءت الرغبة بها في نهايتها محكمة، وإذا كان فقيرا مضطرًا رضي بعفو كلامه، وأخذ ما أمكنه من نتيجة خاطره، ولم يتَّسع في بلوغ مراده ولا بلوغ مجهود **نيَّته**؛ لما يُحفِّزه من الحاجة والضرورة، فجاء دون عادته في سائر أشعاره وربَّما قصر عمَّن هو دونه بكثير."[2]

وإذا سلَّمنا أنَّ الأشعار بالنِّيات، فإنَّ هذه النّيات هي التي تُكسب هذه الأعمال الشعرية التميُّز والخلود؛ ذلك أنَّ العمل الأدبي –أيًّا كان– هو نسيج صاحبه، يحمل بصماته، ويُجسِّد روحه وفكره، ويكشف عن ظاهره وباطنه. "فالشعر كمؤلِّفه تماما، يملك هو الآخر قلبا وباطنا يكون محشوا بالخبايا والأسرار، وفيه تعلق المقاصد والنوايا."[3]

إنَّ تأكيد ابن رشيق على شرط النّية في الشعر لم يكن عبثيا أو هامشيا، فهي معيار ديني خالص، يهدف من خلاله الناقد إلى الفصل التَّام بين الشِّعر، وبين أيِّ كلام آخر قد يأتي موزونا مقفًّى، كما جاء في بعض آي القرآن الكريم، أو كلام النبيِّ ﷺ، وهذا ما وضَّحه وبيَّنه أكثر في باب(الرَّجز والقصيد)، لـمَّا ذكر "أنَّ قوما يرون أنَّ مشطور الرَّجز ليس بشعر؛ لقول النبيِّ ﷺ:

هـــــل أنـــــتِ إلاَّ إصْـــــبَعٌ دَمِيـــــتِ وَفـــــي سَـــــبيل اللهِ مَـــــا لَقِيـــــتِ

فيردُّ عليهم، قائلا: وليس هذا دليلا، وإنَّما الدليل في قول النبيِّ ﷺ عدم القصد والنِّية؛ لأنَّه لم يقصد به الشِّعر ولا نواه، فلذلك لا يُعدُّ شعرا، وإن كان متَّزنا."[4]

ويبدو أنَّ شرط النِّية في الشعر قد استلهمه ابن رشيق ممَّن سبقوه، ونعني بذلك الجاحظ ثمَّ الباقلاني، فهذا الشرط نجد إشارة وتلميحا إليه في كتاب البيان والتبيين، حين قال الجاحظ: "اعلمْ أنَّك لو اعترضتَ أحاديث النَّاس وخطبهم ورسائلهم لوجدتَ فيها مثل (مستفعلن مستفعلن) كثيرا، و(مستفعلن مفاعلن)، وليس أحدٌ في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرا. ولو أنَّ رجلا من الباعة صاح: من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلَّم بكلام في وزن (مستفعلن مفعولات)،

[1] – سمير حميد، الشعر العربي القديم(رؤية إسلامية)، كتاب دعوة الحق، العدد13، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 2002م، ص122.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص179.

[3] – سمير حميد، المرجع السابق، ص125.

[4] – ابن رشيق، المصدر السابق، ص155.

وكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشِّعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيَّأ في جميع الكلام. وإذا جاء المقدار الذي يُعلم أنَّه من نتاج الشِّعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها، كان ذلك شعرا."[1]

وفي بيان وشرح وجوه إعجاز القرآن، ونفي الشِّعر منه، يذكر الباقلاني كلاما فيه إشارة إلى أنَّ الشِّعر يجب أن يكون مقصودا من صاحبه، وإلا فهو ليس بشعر. فيقول: "فثبت بهذا أنَّ ما وقع هذا الموقع لم يُعَدَّ شعرا، وإنَّما يُعدُّ شعرا ما إذا قصده صاحبه: تَاَتَّى له، ولم يمتنع عليه. فإذا كان هو مع قصده لا يتأتَّى له، وإنَّما يعرض في كلامه عن غير قصد إليه، لم يصحَّ أن يُقال: إنَّه شعر، ولا إنَّ صاحبه شاعر، ولا يصحُّ أن يُقال: إنَّ هذا يُوجب أنَّ مثل هذا لو اتَّفق من شاعر فيجب أن يكون شعرا؛ لأنَّه لو قصده لكان يتأتَّى له."[2]

فابن رشيق –وإنْ سُبِقَ– كما رأينا إلى هذا الرأي، بوجوب وجود النِّية والقصد في الشِّعر، إلاَّ أنَّنا نُسجِّل أولا أنَّه استعمل مصطلحًا لم يُستعمل من طرف سابقيه، ألا وهو مصطلح (النّية)، فالجاحظ والباقلاني استعملا مصطلح (القصد)، ومعلوم ما لهذا اللفظ (النّية) من دلالة ومعنى من الناحية الدّينية، فهي معيار ديني وخلقي خالص، مجرَّد غير محسوس، يسبق ويتجاوز الحدود الشكلية، والمعايير الفنِّية والجمالية للنصِّ. وهذا المعيار كما يقول حميد سمير: "بمثابة مولِّد معنوي يستقرُّ في بنية النصِّ العميقة ثمَّ يُوجِّه بنيته السطحية."[3]، كما نسجِّل ثانيا في هذه المسألة أنَّ بعض النقاد والدارسين المعاصرين تحاملوا على ابن رشيق في قضية حدِّ الشِّعر وبنيته، ولم يُنصفوه، بل قالوا: أنَّه لم يأت بجديد، وكان يعرض فقط لآراء قدامة والرماني والجرجاني وغيرهم.[4]

وبعض هؤلاء النقاد يرى أنَّ إضافة ابن رشيق لشرط النِّية لا قيمة له ولا طائل؛ لأنَّ النِّية تحصيل حاصل في كلِّ عمل، فهذا عثمان موافي يقول: "وواضح من هذا النصِّ أنَّ ابن رشيق قد حافظ على جوهر تعريف قدامة، ولم يُضف إليه إلاَّ كلمة (النِّية)، وليس هناك ما يدعو لذكر هذه اللفظة في تعريف الشعر؛ لأنَّها ليست خاصة به وحده، ولكنَّها عامة في كلِّ عمل وصناعة أدبية. فالنِّية سابقة لكلِّ عمل، يقصد إليه الإنسان قصدا، وهذا من البديهيات."[5]

ونتساءل إذا كانت النِّية من البديهيات في كلِّ الأعمال، فَلِمَ يُؤَكِّد العلماء على ذكرها كلَّما تناولوا فرائض أو شروط عبادة من العبادات كالصَّلاة والصَّوم وغيرهما. ولم نسمع بشخص يقول بعدم ذكرها لأنَّها من البديهيات في كلِّ الأعمال. ثمَّ إنَّ الخلاف والتباين في مفهوم الشِّعر ما زال قائما إلى يومنا هذا، فلا نجد إلى ساعتنا هذه مفهوما جامعا مانعا للشِّعر، فبناء المعرفة عملية تراكمية، تُنقل من جيل إلى جيل. وابن رشيق باشتراطه النِّية والقصد في الشِّعر قد أضاف لمصطلح الشِّعر معنى جديدا يتعلَّق أساسا بقصدية توليده واختراعه والشعور به، كما استطاع بذلك تمييزه عن

---

[1] – الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص188-289.

[2] – الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيِّب، إعجاز القرآن، تح: السيّد أحمد الصقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، دت، ص55.

[3] – سمير حميد، الشعر العربي القديم (رؤية إسلامية)، ص123.

[4] – يُنظر على سبيل المثال عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص455.

[5] – موافي عثمان، في نظرية الأدب (من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، ط3، 2000م، ج1، ص21.

غيره من الكلام الموزون، والذي ليس بشعر. ومع ذلك، فهذا التعريف ما زال قاصرا عن تحديد مفهوم الشِّعر تحديدا دقيقا وافيا.

وشرط النِّيَّة والقصد في الشعر كما يراه ابن رشيق، لم يُقنع بعض النقاد المعاصرين، مثل عبد الملك مرتاض الذي يرى أنَّ القصد والنِّية لا علاقة لهما بشعرية النصِّ الشعري. فيقول بعد عرضه حدَّ الشعر عند ابن رشيق: "والحقُّ أنَّ هذا الرأي يحتاج إلى نقد، ذلك بأنَّ النقد الحديث لا ينظر إلى الشعرية التي تكون في النصِّ الشعري من حيث القصد والنِّيَّة، أو انعدامهما؛ فقد يقصد الشاعر إلى أن يقول شعرا ألف قَصْدٍ وقَصْدٍ، ويتكلَّف وزن كلامه ويتجشَّم تقفيته ما شاء الله له ذلك، فيدقِّق ويُحقِّق، ولا يرتكب أيَّ خطإٍ عروضيّ، غير أنَّ ذلك كلَّه ما كان ليشفع لكلامه الذي قصد هو إلى شعريته كيما يكون شعرا، حتَّى بوجود خالص النِّيَّة لديه، ومُثُول سَبْق القصد المُصرّ في نفسه، وإنَّما يكون شعرا فقط إذا توافرت فيه خصائصُ الشعرية... فما فيه من مقدار هذه الشعرية هو الذي يُحدِّد شعريَّته أو عدم شعريَّته."[1]

وعدم الاقتناع هذا من لدن مرتاض ينمو متسارعا، ليصل في نهاية المبحث إلى اعتراض صريح لشرط النِّية والقصد في الشعر، ويرى أنَّ مصطلحي القصد والنِّية من المصطلحات الفقهية، وكان من الأجدى ألاَّ يُقحما في الشعر، فيقول: "ونعود إلى شرطيَّة ابن رشيق المتمحّضة لقصدية قول الشعر، فنعترض على رأيه هذا، لأنَّ القصد والنِّيَّة هما من مصطلحات الفقهاء في السلوك التَّعبُّدي، فلا مدعاة لاصطناعهما في مسألة تحديد جمالية الشِّعر. وقد كنَّا رأينا أنَّ الشاعر إذا كان محروما مُفْحَمًا، باصطلاح القدماء، لا يشفع له التَّعلُّق بالنِّيَّة، ولا إخلاص القصد في قرْضِه الشِّعر، إذا خرج له نظما ركيكا، ونسجا من الشِّعر سخيفًا."[2]، وإذا كان كلام مرتاض الأول على قدر كبير من الصِّحة، ويكاد يكون من المسلَّمات في زماننا؛ لأنَّ الشِّعر لا يكون شعرا إذا فَقَد الخصائص التي تجعل منه شعرا، وهذه التي أُصطلح عليها حديثا بعناصر الشعرية في النصِّ الأدبي، "إنَّ الشعرية في ذاتها هي ما يجعل الشعر شعرا، وما يسبغ على غير الشِّعر صفة الشِّعر، ولعلَّها جوهره المطلق."[3]، ولكن نتساءل: ألم يُشر ابن رشيق في كتابه العمدة إلى بعض عناصر الشعرية هذه التي هي لُبُّ الشِّعر وحقيقته، أم اكتفى بالمفهوم الظاهر للشعر، والذي لا يعدو أن يكون مجرَّد كلام ووزن وقافية، ونيّة سابقة لهذه العناصر؟ إنَّه يجب علينا أن نتريَّث في الحكم، وأن نقف عند كلِّ قول لابن رشيق يتعلَّق بالشعر، حتَّى يتسنَّى لنا أن نضع النَّص الأوَّل في سياقه العام، ونستطيع بذلك أن نستوعب نظرة ابن رشيق للشِّعر، ونُصدر أحكامنا أو مواقفنا تُجاهها. فهو القائل: "وكذلك الشِّعر يعرفه أهل العلم به"[4]، وهو دون شكٍّ من أهل الشِّعر وخاصَّته، وكيف لا يكون كذلك وهو الشاعر المُجيد والناقد الحصيف.

---

[1] – مرتاض عبد الملك، قضايا الشعريات (متابعة وتحليل لأهمِّ قضايا الشعر المعاصر)، منشورات دار القدس العربي، وهران، الجزائر، ط1، 2009م، ص48.

[2] – المرجع نفسه، ص52.

[3] – الزبيدي مرشد، اتِّجاهات نقد الشعر العربي في العراق، منشورات اتِّحاد الكُتَّاب العرب، دمشق سوريا، دط، 1999م، ص103.

[4] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص102.

فابن رشيق قد أشار إلى أنَّ الشِّعر –زيادة عن كونه كلاما موزونا مقفًّى بنيَّة وقصد– فهو روح شعرية فيها تصوير وخيال وإبداع، وظلال وانفعالات وايحاءات، ودلالات وعواطف وتأثير، وهذا من خلال بعض أقواله، كجوابه عن السؤال: بم سُمِّي الشاعر شاعرا؟ فيقول: "وإنَّما سُمِّي الشاعر شاعرا؛ لأنَّه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استظراف لفظ وابتداعه، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص ممَّا أطاله سواه من الألفاظ، أو صَرْف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة، ولم يكن له إلاَّ فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير."[1]، وفي حديثه عن غاية الشِّعر تناول تأثيره في النفوس، وتحريكه الطِّباع، وتفاعل وتناغم المتلقِّي مع الشِّعر، لذا يُبدي إعجابه بهذه المقولة، ويعتبر صاحبها أنقد النَّاس، حين قال: "ولم أر أنقد من الذي قال: أشعر النَّاس مَنْ أنت في شعره."[2]، ويُبيِّن أنَّ الشعر لم يُجعل للتعبير عن المفاهيم الفلسفية، والنظريات العلمية، وسرد الأخبار والوقائع، وإنْ كان فبقدر ضئيل، إنَّما الشِّعر هو التصوير الخيالي للعواطف ومدى تأثيرها في المتلقِّي، فيقول: "..والفلسفة وجرُّ الأخبار باب آخر غير الشِّعر؛ فإنْ وقع فيه شيء منهما فبقدر، ولا يجب أن يُجعلا نُصْبَ العين فيكونا متَّكأً واستراحة، وإنَّما الشِّعر ما أطرب، وهزَّ النُّفوس، وحرَّك الطِّباع، فهذا باب الشِّعر الذي وُضِع له، وبُنِي عليه، لا ما سواه."[3]

أمَّا ما تعلَّق باعتراضه في كلامه الثاني، واعتبار النِّية من مصطلحات الفقهاء المرتبطة بالسلوك التعبُّدي، فهذا الاعتراض سيدخلنا في إشكال آخر كبير، ألا وهو: أنَّ الرسول ﷺ لم يقل في الحديث الشريف: إنَّما العبادات بالنِّيات، وإنَّما قال: **«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات»**، ولم يُحدِّد لنا جنس أو نوع العمل، ومن المعروف أيضا كما قال الكثير من النقاد، منهم الجاحظ وابن خلدون أنَّ الشعر صناعة كبقية الصناعات، وما دام الأمر كذلك فلا مناص من ارتباط وتعلُّق هذه الصناعة بالنِّيَّة والقصدية. وبالتالي فالنِّيَّة ليست مقصورة على العبادات، "فإذا كانت النِّية قيمة أساسا، تحضر في أكثر الأعمال الفعلية كالهجرة مثلا، فمن باب أولى حضورها في بقية الأعمال الأخرى ذات الطابع اللسني، كالنصوص الشعرية التي تُعتبر مجالا رحبا ترتبط به المقاصد والنَّوايا وتَعْلَقُ ببنياته العميقة."[4]

في حين نجد أحمد يزن يرى أنَّ ابن رشيق كان مُحقًّا ومُصيبًا في اشتراط النِّية والقصد في الشِّعر، فبعد أن ذكر حدَّ الشِّعر أو تعريفه الجامع المانع عند ابن رشيق، يقول: "وابن رشيق على حقٍّ فيما قال، لأنَّنا إذا نظرنا في القرآن نجد قوله تعالى مثلا: **﴿مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾**[5] من مجزوء الخفيف، كما أنَّ قول الرسول ﷺ: **هل أنتِ إلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي**

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص100.

[2] – المصدر نفسه، ص78.

[3] – نفسه، ص110.

[4] – سمير حميد، الشعر العربي القديم(رؤية إسلامية)، ص124.

[5] – سورة فاطر، الآية:18.

سَبيل اللهِ مَا لَقِيتِ. عبارة تُشبه الشِّعر في وزنه. وبما أنَّ هذا الكلام لم تتحقَّق فيه أركان الشِّعر، وإنَّما جاء موزونا عرضا فلذا قال باشتراط النِّية والقصد، ولا سيما أنَّه رأى القرآن ينفي عن نفسه أن يكون شعرًا."[1]

ونفهم من هذا الكلام أنَّ اشتراط النِّية في حدِّ الشعر كان لغرض تمييز القرآن وبعض كلام النبيِّ ﷺ الموزون عن الشِّعر، مثل ما تُميِّز النِّية العبادات عن العادات، لذا أكَّد العلماء على وجودها واعتبارها شرطا لصحَّة معظم العبادات، بل اعتبرها البعض ركنا من أركان العبادة؛ لأنَّها داخلة فيها. ولا يُفهم من هذا، أنَّ قول الشِّعر عبادة كالصَّلاة والصَّوم، فالشِّعر يظلُّ مجرَّد كلام يُثاب عليه المرء ويُعاقب. ولكنَّ القصد والنِّية متعلِّقان بالوزن لكي يُتأكَّد من كونه شعرا، وليس شيئا آخر موزونا، لا علاقة له بالشعر، ولا مقصد لصاحبه في إقامة وزنه.

ومن المعتدلين أيضا في موقفهم من هذه القضية، نجد حسين جمعة، الذي يقول: "..وإذا افترضنا أنَّ ابن رشيق لم يطَّلع على الباقلاني فإننا نُسجِّل لناقدنا أسبقية في مفهوم تحليل حدِّ الشِّعر المستقى أصلا من (قدامة بن جعفر)، ولكنَّه وفق مبدأ نقدي جديد مرتبط بالقصد.. وهو ما تبنَّاه القرطاجنّي من بعد وطوَّره وبنى الشِّعر على أسَاسٍ من المقاصد والأغراض."[2]

وخلاصة القول في المسألة، أنَّ ابن رشيق لمَّا اعتبر أنَّ أساس الشِّعر النيَّة، كان المراد منه تمييز وفصل بعض آي القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشَّريفة عن دائرة الشعر، رغم توفُّر شرط الوزن فيها، فالوزن وحده لا يكفي ليُقال عن هذا الكلام أو ذاك شعرٌ. وربَّما كان يُريد القول بأنَّ جمالية المقصد ومثاليَّته هي أساس نَظم الشعر الجيِّد والملتزم، فإذا كان أَعذب الشِّعر أكذبه؛ فإنَّ أحسن الشِّعر أصدقه، والصِّدق والعذوبة هنا تَرتبطان بخِطاب العقل والقلب، إلا أنَّ العذوبة هنا لا قيمة لها؛ لقيامها على الكذب.

5/ استحسان المعاني الدينية والخلقية، واستقباح المعاني الخارجة عليهما:

إنَّ ما يتَّفق عليه الكثير من النقَّاد العرب القدامى –رغم تنوُّع مشاربهم وآرائهم– حول علاقة الشعر بالدِّين والأخلاق هو استحسانهم وإعجابهم بالشعر ذي المعاني الدينية والخلقية السامية، واستهجانهم واستقباحهم لتلك المعاني التي تخدش القيم والفضائل، وفي بعض الأحيان تكون خارجة على تعاليم الدِّين ومستهزئة بمقدّساته ورموزه. لهذا نجد مواقف شديدة وصريحة عند بعض النقاد من أولئك الشعراء الذين غالوا وتمادوا، وتجرَّأوا على الدِّين والعقيدة، وأفسدوا الأخلاق والقيم. وفي المقابل نجد الرِّضا والاستحسان لبعض الشعراء الذين كانوا ملتزمين دينيا وخلقيا، وكانت أشعارهم تلتزم بقيم الدِّين وتحثُّ عليها، وتدعو إلى الخير، وتخوض في أغراض الزهد والحكمة والوعظ والإرشاد، وما شاكل ذلك من المعاني المستحسنة الفاضلة.

[1] – يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص145.

[2] – جمعة حسين، ابن رشيق وآراؤه النقدية في العمدة، ص581.

وابن رشيق وقف عند هذه النقطة قليلا، ففي استحسانه للمعاني الدينية والخلقية يتحدَّث ابن رشيق عن استحسان الفأل الحسن في الشِّعر، وعدم التطيُّر، في بابين منفصلين، الأول منهما في الجزء الأول من الكتاب جاء تحت عنوان(باب من فأل الشِّعر، وطيرته)، والباب الآخر في الجزء الثاني منه بعنوان(باب من الزَّجر والعيافة)، ويذكر أنَّ الرسول ﷺ كان يتفاءل ويُحبُّ الفأل، ولا يتطيَّر ويكره الطِّيرة، ويُحبُّ الاسم الحسن، فقال ﷺ: **« ثَلاثَةٌ لا يَسْلَمُ مِنْهُنَّ أَحَدٌ: الطِّيَرَةُ، وَالظَّنُّ، وَالْحَسَدُ، قِيلَ: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهُنَّ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: إِذَا تَطَيَّرْتَ فَلا تَرْجِعْ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلا تُحَقِّقْ، وَإِذَا حَسَدْتَ فَلا تَبْغِ »**[1]، ويبدو أنَّ هذا الحديث مختلف في صحَّته، فالألباني يُورده في السلسلة الضعيفة باعتباره حديثا ضعيفا بلفظ قريب من هذا، وهو: **«في المؤمن ثلاثُ خِصالٍ: الطِّيَرةُ والظَنُّ والحَسَدُ، فَمخْرَجُه من الطِّيَرةِ ألاَّ يَرجِع، ومَخْرَجُه من الظنِّ ألاَّ يُحقِّقَ، ومَخْرَجُه من الحَسَد ألاَّ يبغي»**[2]، ثمَّ يقول عنه بعد ذكر رواياته المختلفة، والكتب التي ورد فيها: "وبالجملة فالحديث ضعيفٌ مُرسلا ومتَّصلا. ثمَّ يقول: وورد بلفظ: **«إذَا ظَنَنْتُم فلا تُحَقِّقُوا، وإذَا حَسَدْتُم فلاَ تَبْغوا، وإذا تطيَّرتُم فامضُوا، وعلى الله تَوَكَّلُوا»**، وقد خرَّجته في الصحيحة رقم: (**3942**)."[3]، وأورد كذلك الحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول ﷺ: **«لا عَدْوَى، ولا طِيرَة، ولا هَامَة، ولا صَفَر»** [4]، ثمَّ بيَّن ابن رشيق الفرق بين الفأل والطِّيَرة، فقال: "وبين الطِّيَرة والفأل فرقان عند أهل النظر والمعرفة والحقائق، وذلك أنَّ الفأل تقوية للعزيمة، وتحضيض على البغية، وإطماع في النِّيَّة، والطِّيَرة تُكسر النِّية، وتصدُّ عن الوجهة، وتُثني العزيمة، وفي ذلك ما يُعطِّل الإحالة على المقادير."[5]، ومن هذا الفرق يتبيَّن لنا الأثر النَّفسي والخلقي للتفاؤل والطِّيَرة التي هي التشاؤم، فإذا كان التفاؤل عنصرا إيجابيا يُقوِّي النَّفس، ويشحذ الهمم، ويُريح القلب، ويُحقِّق السعادة، فإنَّ التشاؤم عنصرٌ سلبيٌّ، يُشتِّتُ القلب، ويُميت روح الأمل، ويُضعف الإرادة، ويُكدِّر صفو الحياة. ومن أمثلته في التفاؤل، ما كان من حسَّان بن ثابت، حيث تفاءل للنبيِّ ﷺ بفتح مكة، "فقال في كلمته المشهورة يُخاطب بذلك مشركي مكَّة ويتوعَّدهم:

عَـــــدِمنا خيلنـــــا إن لـــــم تروهـــــا تُثيـــــرُ النَّقـــــع موعـــــدها كـــــداءُ

يُبـــــارين الأعنَّـــــة مُصـــــغيات علـــــى أكتافهـــــا الأسَـــــلُ الظِّمـــــاءُ

تظـــــلُّ جِيادنـــــا مُتمطِّـــــرات يلطمهُـــــنَّ بالـــــخُمُر النِّســـــاءُ

---

[1] – يُنظر ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مختلف الحديث، تح: أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي، دار ابن القيم ودار ابن عفَّان، الرياض والقاهرة، السعودية ومصر، ط2، 2009م، ص225.

[2] – الألباني محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيِّء في الأمَّة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ط1، 2001م، ج9، ص23.

[3] – المرجع نفسه، ص24.

[4] – مسلم صحيح مسلم، كتاب السَّلام، رقم الحديث2220، ص682.

[5] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص224.

فلمَّا كان يوم الفتح أقبل النِّساء يمسحن وجوه الخيل، وينفضن الغبار عنها بخُمُرهنَّ، فقال قائل: لله درُّ حسَّان إذْ يقول: وأنشد الأبيات. وروى قومٌ أنَّ النَّاس أُمِرُوا بالسَّير إلى كداء تفاؤلا بهذا البيت ليصحَّ؛ فكان الأمر كما قال."[1]

فالمعاني الحسنة التي تضمَّنتها هذه الأبيات، تتمثَّل في الدعوة إلى خُلق التفاؤل، هذا الخلق الذي يبعث على الرَّاحة والمسرَّة، وهو من باب: تفاءلوا بالخير تجدوه، وإن لم يكن هذا حديثا شريفا، إلاَّ أنَّ معناه صحيح، فالفأل مرغوب فيه، وحثَّ عليه النبيُّ ﷺ، كما نهى عن الطِّيَرة وهي التشاؤم من كلمة ما، أو شيء سمعه أو رآه. فالفأل هو الكلمة الطيِّبة التي يسمعها المؤمن فيرتاح لها وتسرُّه. لهذا تفاءل النبيُّ ﷺ بكلمة حسَّان بن ثابت ﷺ في فتح مكة.

وكذلك من التفاؤل الجميل الذي سرَّى عن الغير، وأُكْرِمَ به صاحبه، ما كان من تفاؤل الشاعر أبي الشمقمق لخالد بن يزيد، يقول ابن رشيق: "ومن مليح ما وقع في التفاؤل ما حكى محمد بن الجراح، وذلك أنَّ أبا الشمقمق شخص مع خالد بن يزيد، وقد تقلَّد الموصل، فلمَّا مرَّ ببعض الدروب اندقَّ اللِّواء، فاغتمَّ خالدٌ لذلك وتطيَّر منه، فقال أبو الشمقمق:

مـــا كـــان منـــدقُّ اللِّـــواء لطيـــرةٍ تُخشـــى ولا ســـوء يكـــون مُعجَّـــلا

لكـــنَّ هـــذا العـــودَ أضـــعف متنـــه صِـــغَرُ الولايـــة فاســـتقلَّ الموصـــلا

فسُرِّيَ عن خالد، وكتب صاحبُ البريد بخبر ذلك إلى المأمون، فزاده ديار ربيعة، وأعطى خالدًا عشرة آلاف درهم."[2] فانظر كيف حوَّل أبو الشمقمق غمَّ خالد وتطيرَّه بسبب انكسار اللِّواء إلى مسرَّة وفأل خير بما حمله البيتان من معنى مستحسن جميل يبعث على التفاؤل والاستبشار بالخير. وقريب من التفاؤل، نجد التأويل الحسن للفظ أو عبارة معيَّنة، فتُسرِّي النَّفس، وتُثير الإعجاب والاستحسان، خاصة إذا كان لها دلالة أو رمزية دينية. وفي هذا السياق يسرد لنا ابن رشيق ما كان من "قول المفضَّل الضَّبي بين يدي الرَّشيد والكسائي حاضر في معنى قول الفرزدق:

أخـــذنا بآفـــاق السَّمـــاء علـــيكم لنـــا قمراهـــا والنُّجـــوم الطَّـــوالعُ

وقد سأل الأمينَ والمأمونَ: ما معناه؟ فقالا: معناه في قوله (قمراها) تغليب المستعمل عندهم؛ لأنَّ القمر أكثر استعمالا عند العرب من الشَّمس، وكذلك قولهم (العُمران) لمَّا كان عُمرُ أطولا أيَّاما وأكثر تأثيرا. فقال الرَّشيد: هكذا أخبرنا هذا الشيخ، وأشار إلى الكسائي، فقال المفضَّل: بل مُراده بالقمرين جدَّاك إبراهيم ومحمد **صلَّى الله عليهما**، وبالنُّجوم الطوالع أنت وآباؤك الطيِّبون، فأُعجِب الرَّشيد بذلك ووصله. والفرزدق ما قصد إلى شيء من ذلك، ولا أراده، ولا علم أنَّ الرَّشيد بعده يكون أمير المؤمنين، وإنَّما أراد أنَّ كلَّ مشهور فاضل فهو لنا عليكم، ومنَّا لا منكم، فنحن أشرف بيتا، وأطهر فضلا، وأبعد صوتا. إلاَّ أنَّ التي جاء بها المفضَّل مُلحة أفادت مالا."[3]

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص58.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص58-59.

[3] – نفسه، ج2، ص82.

أمَّا الطِّيَرَةُ، وهي خلق ذميم، تعني التَّشاؤم والتضايق بسبب ذكر اسم ما، كريه أو معيب، أو التطيُّر من رؤية حيوان أو طير كالغراب أو البوم، أو غير ذلك. وكان العرب يتطيَّرون، وجاء الإسلام ونهى عنها. ومن أخبار الطِّيرة التي رواها ابن رشيق، "أنَّ أبا الهول تطيَّر على جعفر بن يحي البرمكي، فقال:

أصـــبحتَ مُحتاجًـــا إلـــى ضـــرب فـــي طلـــب العُـــرفِ مـــن الكلـــب
إذا شـــكا صـــبٌّ إليـــه الهـــوى قـــال لـــه: مـــا لـــي وللصـــبِّ
أعنـــي فتًـــى يطعـــن فـــي ديننـــا يشـــبُّ معـــه خشـــبُ الصَّـــلبِ

فكان من أمر جعفر ما كان."[1]، ويعني: نكبة البرامكة، والتي قتل فيها هارون الرشيد الكثير منهم، ومن رؤوسهم جعفر بن يحي البرمكي. ومن الشعراء الذين اشتهروا بالتطيُّر ابن الرومي، الذي قال عنه ابن رشيق: "وكان ابن الرومي كثير الطِّيَرَة، ربَّما أقام المدَّة الطويلة لا يتصرَّف تطيُّرًا بسوء ما يراه ويسمعه، حتَّى إنَّ بعض إخوانه من الأمراء افتقده فأُعْلِمَ بحاله في الطِّيَرَة، فبعث إليه خادما اسمه إقبال ليتفاءل به، فلمَّا أخذ أُهبتَه للركوب قال للخادم: انصرفْ إلى مولاك فأنت ناقص، ومنكوس اسمك لا بَقَا..، وابن الرومي القائل: الفأل لسان الزَّمان، والطِّيَرَة عنوان الحدثان. وله فيه احتجاجات وشعر كثيرٌ."[2]، ومن الشعراء الذين تطيَّروا على أنفسهم، "مجنون ليلى، حيث قال:

قضـــاها لغيـــري وابتلانـــي بحبِّـــها فهـــلاَّ بشـــيء غيـــر ليلـــى ابتلانيـــا

فما مات حتَّى بَرِصَ، ورأى في منامه قائلا يقول له: هذا ما تمنَّيتَ. وكذلك المؤمَّل بن أميل، لمَّا قال:

شـــفَّ المؤمَّـــل يـــوم الحيـــرة النظـــرُ ليـــت المؤمَّـــل لـــم يُخلـــق لـــه بصـــرُ

نام ذات ليلة صحيحا، فأصبح مكفوف البصر."[3]، وفي موضع آخر يذكر ابن رشيق أنَّ "من قبيح ما وقع لأبي نواس الذي أساء فيه أدبه، وخالف فيه مذهبه؛ أنَّ بعض بني برمك بنى دارًا استفرغ فيها مجهوده، وانتقل إليها، فصنع أبو نُواس في ذلك الحين أو قريبا منه قصيدة يمدحه بها يقول أولها:

أَربْـــعَ البـــلى، إنَّ الخشـــوعَ لَبـــادِ عليـــك، وإنِّـــي لـــم أخُنْـــكَ ودَادِي

وختم أو كاد بقوله:

ســـلامٌ علـــى الـــدنيا إذا مـــا فُقِـــدْتُمُ بنـــي بَرْمَـــكٍ مـــن رَائِحِـــين وغَـــادِ

فتطيَّر منها البرمكي، واشمأزَّ حتَّى كلح وظهرت الوجمة عليه، ثم قال: نعيتَ إلينا أنفسنا يا أبا نُواس، فما كانت إلاَّ مُدَيدة حتَّى أوقع بهم الرَّشيد وصحَّت الطِّيرةُ."[4]

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص59.
[2] – المصدر نفسه، ص59-60.
[3] – نفسه، ص59.
[4] – نفسه، ص187، والبيتان في الديوان، ص220-221، وجاء في الديوان أنَّ الأبيات قيلت في الفضل بن يحي البرمكي.

وفي(باب مَن رفعه الشِّعر، ومَن وَضَعَه) ذكر ابن رشيق بعض مَن رفعهم شعرُهم، مثل الحارث ابن حِلِّزَة اليشكري من القدماء، وحسَّان بن ثابت من المخضرمين، ومن الفحول المتأخِّرين الأخطل، ومع أنَّ ابن رشيق يُقرُّ له بالسَّبق والمكانة إلاَّ أنَّه لم يقبل منه طعنه في الدِّين، واستخفافه بالمسلمين، فقد استقبح منه هذه المعاني الخارجة على الدِّين والخلق، رغم كونه نصرانيًّا، وهذا لا يُبيح له أن يطعن في الإسلام، وهو يعيش في كنف وحماية المسلمين. فيقول عنه: "ومن الفحول المتأخِّرين الأخطل، واسمه غياث بن غوث، وكان نصرانيًّا من تغلب، بلغت به الحالُ في الشِّعر أن نادم عبدَ الملك بن مروان، وأركبه ظهر جرير بن عطية بن الخَطَفَى، وهو تقيٌّ مسلم، وقيل: أمره بذلك بسبب شعر فاخره فيه بين يديه وطوَّل لسانَه، حتَّى قال مُجاهرًا: لعنة الله عليه، لا يستتر في الطَّعن على الدِّين والاستخفاف بالمسلمين:

ولستُ بصائمٍ رمضانَ طَوْعًا ولستُ بآكِلٍ لحمَ الأضاحي
ولستُ بزاجِرٍ عَنْسًا بكورًا إلى بطحاء مكَّة للنَّجاح
ولستُ مُناديًّا أبدًا بليلٍ كمثل العير (حيَّ على الفلاح)
ولكنِّي سأشربها شَمُولا وأسجد قبل مُنبلج الصَّباح

ثم يقول: وهذه غاية عظيمة ومنزلة غريبة حملت من المسامحة في الدِّين على مثل ما نسمع، والملوك ملوك بزعمهم. قيل: ولولا شعره لقُتِلَ دون أقلٍّ من ذلك.. وقد ردَّ على جرير أقبح ردٍّ، وتناول من أعراض المسلمين وأشرافهم، ما لا ينجو مع مثله عَلَويٌّ، فضلا عن نصرانيٍّ."[1]، فابن رشيق حين يستهجن هذه المعاني السَّاقطة التي تضرب صميم الدِّين، يعجب في الوقت نفسه على جرأة الأخطل بتحقير فرائض الدِّين، وجهره بمعاقرة الخمرة، كما يتعجَّب من سكوت عبد الملك عليه. ولكنْ إذا عُرف السبب بطُل العجب كما يُقال؛ فليس حسنُ شعره هو الذي أهَّله ليتقدَّم معاصريه وخاصة جريرا والفرزدق. وإنَّما الذي جعل الخليفة عبد الملك يسكت عنه ويتغاضى عن مساوئه،رغم "أنَّه كان يجيئه وعليه جُبَّة خزٍّ، وفي عنقه صليب ذهب، وفي ملامحه نشوة الصَّهباء"[2]، هو السياسة ومقتضيات الحكم، "فالشعر وحده لم يكن كافيا لنجاة الأخطل من أن يُؤخذ بجرائره، ولكنَّ دفاعه عن بني أميَّة، وهجاءه لخصومهم كان سببا في تعصُّب الأمويين له، حتَّى حكم عبد الملك بتقدُّمه على الشعراء."[3]، وحتَّى ظهرت منه كلُّ هذه الجرأة ليستهتر ويستهزئ بأمور الدِّين الإسلامي، ويُجاهر بنصرانيته وتعاطيه الخمر، على مرأى ومسمع من الخليفة المسلم عبد الملك بن مروان، دون أن يجد رقيبا ينهاه أو حسيبا يردعه.

وفي (باب الاتِّساع) يقف ناقدنا على شعر أبي نواس، الذي يقول فيه:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص37-38.
[2] – مبارك زكي، الموازنة بين الشعراء، ص20.
[3] – المرجع نفسه، ص21.

ويُبيِّن ما فيه من خلاعة واستهتار ومجاهرة بالمعاصي، لا كما فسَّره بعض الشَّارحين، فيقول عن هذا البيت: "فزعم مَن فسَّره أنَّه إنَّما قال: (وقل لي هي الخمر) ليتلذَّذ السَّمع بذكرها كما اِلتذَّت العينُ برؤيتها، والأنفُ بشمِّها، واليدُ بلمسها، والفمُ بذوقها، وأبو نواس ما أظنُّه ذهب هذا المذهب، ولا سلك هذا الشِّعبَ، ولا أراه أراد إلاَّ الخلاعة والعَبَث الذي بنى عليه القصيدة، ودليلُ ذلك أنَّه قال في تمام البيت:

ولا تســـــقني سِـــــرًّا إذا أمكـــــن الجَهـــــرُ

ويُروى: (فقد أمكن الجهر) فذهب إلى المجاهرة، وقلَّة المبالاة بالنَّاس، والمداراة لهم في شُرب الخمر بعينها التي لا اختلاف بين المسلمين فيها."[1]، فناقدنا يرى في هذا المعنى لبيت أبي نواس خلاعة ومجونا وعبثا، ومجاهرة في شرب الخمر، وليس كما يظنُّه بعض المفسِّرين -كما تقدَّم-، وهنا يتجلَّى النقد الأخلاقي والدِّيني في هذا الاعتراض الذي أبداه ابن رشيق حول هذا البيت.

وتأكيدا على فجور أبي نواس ومجاهرته بالمعاصي، ذكر ابن رشيق "أنَّ المأمون ذمَّ أخاه الأمين على المنابر، وذكر في مذامِّه أنَّه صَاحَبَ شاعرًا من أمره ومن قصَّته أنَّه يُجاهر بالمعاصي، ويقول في قصيدة أوَّلها كذا وأنشد البيت:

فبتْنـــــا يرانـــــا اللهُ شـــــرَّ عصابـــــةٍ نجُـــرُّ بأذيـــال الفســـوق ولا فخـــرُ[2]

أمَّا في الأنموذج فابن رشيق لم يحفل كثيرا بهذه القضية، ولا نعثر إلاَّ على نماذج قليلة، من قبيل الاستحسان أو الاستهجان. فمن الشعراء الذين استحسن ناقدنا بعض أشعارهم لما تحمله من معانٍ ذات صلة بقيم دينية وخلقية، نجد الشاعر إبراهيم بن غانم بن عبدون المعروف بأبي إسماعيل الكاتب، حيث قال عنه: "كان شاعرا كتابيَّ الشِّعر، لطيف الألفاظ نظيفها، رشيق المعاني وجيزها، صافي مزاج الطَّبع على أسلوب واحد، غوَّاصا في بحر الحكمة على دُرِّ البديع، كَلِفًا بالمواعظ في شعره. ومن جميل ما قال في ذمِّ البخل ومدح البذل:

قـــل للبخيـــل: وإن أصـــبحتَ ذا ســـعةٍ لأنـــت بالبخـــل فـــي ضيـــق وإقـــلال
لتأســـفنَّ علـــى تـــرك النَّـــدى ندمًـــا إذا تخلَّيـــت مـــن أهـــلٍ ومـــن مـــال
ومَـــن رأى فـــي العُـــلا مـــن مالـــه عوضًـــا أفضـــى إلـــى خيـــر أعـــواض وأبـــدال

وقال في حُسن الصَّبر والتوكُّل على الله، وذمِّ ضيق الصَّدر:

ربَّمـــا كانـــت الخـــلائق إنْ ضـــا قـــت بخطـــب معـــدودةٍ فـــي الخطـــوب
وتهـــون الأحـــداث عنـــد معـــان بفـــؤاد شَـــهْمٍ وصَـــدْرٍ رَحِيـــب
ورجـــاء المعســـور يُثمـــر فـــي الأنفـــس يُســـرًا تنالـــه مـــن قريـــب
والصَّـــبور الـــدَّاعي إلـــى الله محبُـــوٌّ مُـــجابٌ مـــن السَّمـــيع الـــمُجيب

[1] - ابن رشيق، العمدة، ج2، ص81.
[2] - المصدر نفسه، ج2، ص 81-82.

فتوكَّـــــل عليـــــه يكْـــــفِكَ والـــــزَمْ حُكْـــــمَ ذي حكمـــــة ورأيٍّ مُصـــــيب[1]

ووقف أيضًا عند الشاعر عليّ بن حبيب التنُّوخي، فقال عنه: "هو شاعر عذب اللفظ، لطيف المعنى، سهل الطريقة، قليل التكلُّف، ظاهر الرِّقة. ويُورد بعضا من مقطوعاته الجيِّدة. ثمَّ يقول: وفوق النِّهاية من شعره قوله في الوعظ والزُّهد:

للمـــــرء فـــــي أيَّامـــــه واعـــــظٌ لـــــو فكَّـــــر المغـــــرور فـــــي أمْسِـــــهِ

كـــــم مـــــن قريـــــر العـــــين فـــــي غبطـــــةٍ أعـــــراه صـــــرف الدَّهـــــر مـــــن لبسِـــــهِ

ففـــــارق الأحبـــــاب عـــــن كرهـــــه واستبـــــدل الوحشـــــة مـــــن أُنسِـــــهِ

يـــــا ربِّ غُفـــــرانك يرجـــــو الـــــذي أســـــرف فـــــي الدُّنـــــيا علـــــى نفسِـــــهِ[2]

أمَّا الشعراء الذين استهجن واستقبح ابن رشيق بعض أشعارهم لمعانيها الخارجة على الدِّين والأخلاق، فنجد بعض شعراء الرَّافضة، الذين غالوا وتنطَّعوا في بعض أمور الدِّين، ومنهم أبو الحسن علي بن سعيد المعروف بابن القيني، حيث قال عنه: "وإليه تُنسب القصيدة التي وُجدت في دار الدَّاعي يوم انتقالهم إلى قصر المنصور حين ضاق بهم الأمر، وكثُر فيهم القتل، أوَّلها:

الجـــــهادَ الجـــــهادَ قومـــــوا حميَّـــــةْ قـــــد تمـــــادت فـــــي هَـــرِّهـــــا المالكيـــــةْ

وفيها كُفرٌ عظيمٌ خارجٌ عن القياس، وسبٌّ شنيعٌ في النبيِّ **صلَّى الله عليه وسلَّم** وفي أصحابه وأزواجه **رضوان الله عليهم أجمعين**، وجاوبه عنها جماعة من شعرائنا."[3]

والشاعر الرافضي إسحاق بن إبراهيم، فقد قال عنه: "كان رافضيًّا سبَّابًا، عليه لعنة الله، وقتله سيِّدنا سنة **420**هـ، وكان اعتماده في الشِّعر على أبي القاسم بن هانئ، وله كان يتعصَّب، وإن جانب طريقته فلم يسلكها..ولا أعرف من شعر إسحاق إلاَّ قوله في مكاتبة إلى بعض إخوانه، يقول في مطلعها:

ثنـــــاؤُك كـــــالرَّوض فـــــي نشـــــره وجـــــودُك كالغيـــــث فـــــي قَطْـــــرِهِ[4]

ونرى أنَّ ابن رشيق قد امتنع عن إيراد بقية أبيات ابن القيني لما فيها من كفر وسبٍّ في النبيِّ ﷺ وصحبه الكرام وأزواجه الطاهرات، وهذا تأدُّبا وتحرُّجا من مثل هذا الكلام القبيح، وإن كان كما يقول أهل الفقه: ناقل الكفر ليس بكافر، كذلك نجده لا يذكر ولا يعرف شعرا من هذا القبيل للشاعر إسحاق بن إبراهيم، الذي يُعتبر من غُلاة الرافضة.

وهذا يجعلنا نعتقد: أنَّ ابن رشيق كان يحترز ويتجنَّب أن يصل مسامعه مثل هذا الشعر الذي يتجرَّأ على ذات الله عزَّ وجلَّ وعلى رسوله ﷺ، وهو من الكفر العظيم، كما قال ابن رشيق.

---

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص50-51.

[2] – المصدر نفسه، ص279-281.

[3] – نفسه، ص287.

[4] – نفسه: ص78.

6/ التكسُّب بالشعر:

لقد كانت ظاهرة التكسُّب بالشعر حاضرة في أذهان النقاد العرب القدامى وهم يحكمون على الشعراء، ويصوغون نظريتهم النقدية، فهي من القضايا النقدية القديمة التي وقف إزاءها النقاد غير موقف، ويُمكن إجمالها في الآتي:

أوَّلاً: عبَّر فريق من النقاد عن رفضه المطلق لتكسُّب الشاعر بشعره، وكان رفضهم مبنِّيًّا على موقف خلقي واجتماعي ونفسي؛ ذلك أنَّ الشاعر المتكسِّب يضطرُّ إلى التذلُّل والتزلُّف والكذب، وإراقة ماء الوجه، لأنَّه سيُسبغ على ممدوحه من الصفات والفضائل ما لا يستحقها، وسيُنزله مراتب ومنازل ليس لها أهلا. ويتجلَّى هذا الموقف خاصة عند أبي عمرو بن العلاء في ثنايا حديثه عن الأعشى، حيث قال: "هو أشعر القوم، إلاَّ أنَّه وضعه إلحافه بالسُّؤال، وهو الإلحاح."[1]، كما يرى ابن قتيبة أنَّ بعض الشعراء قد أسقطهم التكسُّب بالشعر، وقد كانوا أعزَّةً في أقوامهم، فيقول عن النابغة الذبياني مثلا: "وكان شريفا فغضَّ منه الشِّعر"[2]، أمَّا الجاحظ فيحمل على الشعراء المُتكسِّبين، ويُحذِّر من خداعهم وأساليبهم للاحتيال على النَّاس، وجاء ذلك في رسالة ابن التوأم إلى الثَّقفي، التي يقول فيها: "...إنَّ التربُّح والتكسُّب والاستئكال بالخديعة والطعم الخبيثة فاشية غالبة، ومستفيضة ظاهرة. على أنَّ كثيرا ممَّن يُضاف اليوم إلى النزاهة والتكرُّم، وإلى الصِّيانة والتوقِّي، ليأخذ من ذلك بنصيب وافٍ. فما ظنُّك بدهماء النَّاس وجمهورهم؟ بل ما ظنُّك بالشعراء والخطباء الذين إنَّما تعلَّموا المنطق لصناعة التكسُّب؟ وهؤلاء قومٌ بودِّهم أنَّ أرباب الأموال قد جاوزوا حدَّ السلامة إلى الغفلة، حتَّى لا يكون للأموال حارسٌ، ولا دونها مانعٌ. فاحذرهم، ولا تنظرْ إلى بزَّة أحدهم، فإنَّ المسكين أقنع منه، ولا تنظر إلى مركبه، فإنَّ السَّائل أعفُّ منه...فاحذر رقاهم وما نصبوا لك من الشَّرَك، واحرس نعمتك وما دسُّوا لها من الدَّواهي، واعمل على أنَّ سحرهم يسترق الذِّهن، ويختطف البصر. قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا»**، واحذر احتمال مديحهم، فإنَّ مُحتمل المديح في وجهه، كمادح نفسه."[3]

ومن أدباء ونقَّاد الأندلس الذين يمقتون التكسُّب بالشعر، بل ويعدُّونه من عيوبه، نجد أبا القاسم عبد الغفور الكلاعي، حيث ذكر عيوبا كثيرة للشعر في الفصل الذي عقده للترجيح بين المنظوم والمنثور، والتي منها، وهو ما يعنينا في هذا المقام: "ومن معايبه أنَّه قلَّما يُجيده إلاَّ مُكتسبٌ به، والدليل على ذلك قولهم: بيع الشِّعر بالسِّعر، وقولهم: لسان الشاعر أرضٌ لا تُخرج الزَّهر حتَّى ينسكب المطر، وقال أبو سعيد المخزومي:

الكلـــبُ والشـــاعرُ فـــي حالـــة يـــا ليـــت أنِّـــي لـــم أكـــن شـــاعرا

أمَـــا تـــراه باســـطا كفَّـــه يســـتطعم الـــوارد والصـــادرا

---

[1] – القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ج1، ص201.

[2] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص92.

[3] – الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البخلاء، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، ط1، 2012م، ص118.

وما أعدل قول أبي العلاء في خطبة الفصيح: (الشِّعر إذا جُعل مكسبا لم يترك للشاعر حسبا، وإذا كان لغير مكسب حسن في الصفات والنَّسب)."[1]

ثانيًا: أمَّا أصحاب الرأي الثاني، فهم لا يرون بأسا وحرجا من تكسُّب الشاعر بشعره، ويعتبرون هذه العطايا والمكافآت التي يُعطيها الممدوح للشاعر حقًّا له. مستدلِّين ومستأنسين في رأيهم هذا بمواقف عدَّة للرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، كافأوا فيها الشعراء مكافأة دنيوية. جاء في الجليس الصالح أنَّ عديًّا دخل على عمر بن عبد العزيز، "فقال: يا أمير المؤمنين! الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة، قال: ويحك يا عديُّ! ما لي وللشعر، قال: أعزَّ الله أمير المؤمنين، إنَّ رسول الله ﷺ قد أُمتُدِح فأعطى، ولك في رسول الله ﷺ أُسوةٌ حسنةٌ، فقال: كيف؟ قال: امتدحه العبَّاس بن مرداس السُّلمي فأعطاه حُلَّةً قطع بها لسانه."[2]، وأيضا كافأ الرسول ﷺ كعب بن زهير حين أتاه مسلما، ومدحه بقصيدته المشهورة، فكساه بُردته الشريفة.[3]

وقد اتَّخذ الشاعر الأحوص من مواقف الرسول ﷺ هذه وغيرها التي ثبت فيها أنَّه أعطى الشعراء وكافأهم، وسيلة لتذكير الخليفة عمر بن عبد العزيز، حين توقَّف عن عطاء الشعراء، فقال:

وقبلَـــك مـــا أعطـــى هُنيـــدَة جِلَّـــة على الشِّـــعر كعبًـــا مـــن سَـــديسٍ وبَـــازِلِ

رســـولُ الإلـــه الـــمُستضاءُ بنـــوره عليـــه السَّـــلامُ بالضُّـــحى والأصـــائلِ[4]

ولكن أصحاب هذا الرأي يشترطون شرطين، هما:

1- الالتزام، بمعنى أن يلتزم الشاعر بالفكر الإسلامي، وأن تكون مضامين أشعاره متناغمة مع الإسلام، فلا يمدح الرَّجل إلاَّ بما يكون فيه، ولا يخوض في موضوعات حرَّمها الإسلام، تُثير النزعات والخصومات، والشهوات الإنسانية، مثل شعر الهجاء، والعصبية القبلية، والغزل الماجن الفاحش الصريح، وشعر الخمرة، وما شابه ذلك.

2- أن يُعطِي الممدوح من ماله الخاص، لا من بيت مال المسلمين؛ لأنَّها أموال عامَّة، لا حقَّ له في إنفاقها إلاَّ في موضعها الصحيح، ولا حقَّ للشاعر فيها إلاَّ وفق ضوابط شرعية، حدَّدتها مصادر التشريع الإسلامي.[5]

جاء في بعض الأخبار "أنَّ أعرابيًّا وقف على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ يستمنحه، فقال:

---

[1] – الكلاعي، إحكام صنعة الكلام، ص37-38.

[2] – النَّهرواني أبو الفرج المعافى بن زكريا، الجليس الصالح الكافي والأنيس النَّاصح الشَّافي، تح: محمد مرسي الخولي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1993م، ج1، ص252.

[3] – يُنظر ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص85.

[4] – يُنظر اليوسي أبو علي الحسن بن مسعود، زهر الأكم في الأمثال والحكم، تح: محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات معهد الأبحاث والدراسات للتعريب، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1981م، ج1، ص49.

[5] – يُنظر عبد الرحيم رائد، ظاهرة التكسُّب بالشعر وتجلّياتها في النقد العربي القديم، ص435.

يـــا عمـــرَ الخيـــرات جُزيـــتَ الجنَّـــة أُكـــــــسُ بُنيَّـــــــاتي وأُمَّـــــــهنَّه
وكـــــن لنـــــا مـــــن الزَّمـــــان جُنَّـــة أُقســـــــمُ بـــــــالله لتفعلنَّـــــــه

فلم يَرتَحْ لترقُّقه، ولا راعَه قسمه عليه؛ بل قال: فإنْ لم أفعل يكون ماذا؟ قال:

إذن أبـــــــــا حفـــــــــص لأذهبنَّـــــــــه

فقال: وإذا ذهبْتَ يكون ماذا؟ فقال:

يكـــــون عـــــن حـــــالي لتسألنَّـــــه يـــــوم تكـــــون الأعطيـــــات هنَّـــــه
وموقـــــــف المســـــــؤول بينهنَّـــــــه إمَّـــــا إلـــــى نـــــار وإمَّـــــا جنَّـــــه

فلمَّا ذكر له الجنَّة والنَّار، والموقف بين يدي المولى الجبَّار، بكى حتَّى اخضلَّت لحيته بدموعه، وقال: يا غلام، أعطه قميصي هذا لذلك اليوم لا لشعره. أمَّا والله لا أملك غيره."[1]

وقد أثنى السَّبكي على موقف عمر بن الخطاب هذا في سياق هجومه على أولئك الخلفاء والأمراء الذين ضيَّعوا أموال المسلمين وبدَّدوها على الشعراء ومجالس اللَّهو والطرب وغير ذلك، فقال: "فانظره مع ما حصل عنده من الرقَّة الدينية لم يُنعم إلاَّ بما هو من خاصَّة ماله، ولم يجد غير قميصه. وقد كانت خزائن الأموال مملوءة بين يديه. وقال العلماء: ولم يُعطه من بيت مال المسلمين وإن كان الأعرابيُّ فقيرا مستحقًّا؛ لأنَّه لـمَّا استنزله بشعره لم يكن العطاء لمصلحة المسلمين، فلم يُعطه من مالهم. قالوا: أو أنَّه لم يثبت عنده أنَّ الأعرابيَّ من جملة مصارف مال الصدقات."[2]

ولعلَّه من الضروري أن نُشير إلى أنَّ بعض النقاد العرب القدامى قد أسقطوا نظرتهم إلى ظاهرة التكسُّب بالشعر على شعر التكسُّب ذاته، فنظروا إليه نظرة دينية أخلاقية، فرفضوه وأنكروه؛ لأنَّه يدخل في باب الكذب والنِّفاق وأكل أموال النَّاس بالباطل، وغيرها من الشرور. "فالشاعر إذا عُرف من حاله أنَّه قد اتَّخذ الشِّعر طريقا للتكسُّب، فيُفرط في المدح إذا أُعطِي وفي الهجو والذمِّ إذا مُنِعَ، فيُؤذي النَّاس في أموالهم وأعراضهم، فلا خلاف في أنَّ مَن كان على مثل هذه الحالة فكلُّ ما يكتسبه بالشِّعر حرام، وكلُّ ما يقوله من ذلك حرام عليه، ولا يحلُّ الإصغاء إليه، بل يجب الإنكار عليه، فإن لم يمكن ذلك لمن خاف من لسانه قطعا تعيَّن عليه أن يُداريه بما استطاع، ويُدافعه بما أمكن، ولا يحلُّ له أن يُعطي شيئا ابتداءً، لأنَّ ذلك عون على المعصية، فإن لم يجد من ذلك بُدًّا أعطاه بنيَّة وقاية العرض، فما وقى به المرءُ عرضه كُتِبَ له به صدقة."[3]

---

[1] – السَّبكي تاج الدِّين عبد الوهاب، مُعيد النّعم ومُبيد النّقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1986م، ص22-23.
[2] – المرجع نفسه، ص23.
[3] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج16، ص92-93.

في حين رآه بعض النقاد الآخرين "من وجهة نظر فنِّية وإبداعية وجمالية، تتعلَّق بصياغته، وقوة تأثيره وجاذبيته، فرأوا فيه شعرا تتجسَّد فيه أعلى درجات الإبداع، لأنَّ التكسُّب والرغبة حافزٌ من حوافز الإبداع."[1]، ويُؤيِّد هذا ما أجاب به الحُطيئة عبد الرحمن بن أبي بكرة، حين سأله: "يا أبا مُليكة، أيُّ النَّاس أشعر؟ فأخرج لسانا دقيقا كأنَّه لسان حيَّة، فقال: هذا إذا طمع."[2]، وأيَّد ابن قتيبة رأي الحطيئة، حين تكلَّم عن حوافز الإبداع الشعري، وجعل الطمع والرغبة في مقدِّمة تلك الحوافز، فقال: "وللشعر دواعٍ تحثُّ وتبعث المتكلِّف منها الطمع."[3]

أمَّا ابن رشيق فقد أفرد لها بابا سمَّاه (باب التكسُّب بالشِّعر والأنفة منه)، واستفتح هذا الباب بحديث رسول الله **صلَّى الله عليه وسلَّم**، الذي يقول فيه: **« أَنْهَاكُم عَنْ قِيلٍ وَقَال، وَعَنْ كَثْرَة السُّؤَال، وَإِضَاعَة المَال، وعُقُوق الأُمَّهَات، وَوَأْد البَنَات، ومَنْع وَهَات »**[4]، ليستدلَّ به على كراهية القيل والقال، وكثرة السؤال، والاستجداء لكسب المال بأي وسيلة كانت، ومن ضمنها بطبيعة الحال، الاستجداء بالشعر. وفي سياق تمجيد الشِّعر وبيان فضله ومكانته الذي تناوله ابن رشيق في أبوابه الأولى من الكتاب، نجده كذلك في هذا الباب وغيره يسعى جاهدا لإبعاد الشِّعر عن كلِّ ما يحطُّ قدره، ويُنزل من مكانته؛ ومن ذلك تكسُّب الشاعر بشعره؛ حيث وجَّه حملة شرسة على المتكسِّبين من الشعراء، خاصة ذوي المكانة المرموقة في أقوامهم، أمثال النابغة الذبياني والأعشى. وبيَّن أنَّ تكسُّب هؤلاء بشعرهم انحطاط لهممهم، وتقصير لمروءتهم، وإسفاف لشعرهم؛ لأنَّهم لا حاجة لهم بالمال والجاه، وشعرهم أبقى لهم منه. ولم يكن هذا شأن الشِّعر في بدايته، فقد "كانت العرب لا تتكسَّب بالشعر، وإنَّما يصنع أحدهم ما يصنعه فَكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقِّها إلاَّ بالشكر إعظاما لها، كما قال امرؤ القيس يمدح بني تيم رهط المُعلَّى:

أقــرَّ حشــا امــرئ القــيس بــن حُجْــر بنــــو تـــيم مصـــابيح الظَّـــلام

لأنَّ المُعلَّى أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء لقتله بني أبيه الذي قتل بدير مرينا، فقيل لبني تيم (مصابيح الظلام) من ذلك اليوم لبيت امرئ القيس. وقال أيضا لسعد بن الضباب:

ســـأُجزيك الـــذي دافعـــتَ عنِّـــي ومـــا يُجزيـــك عنِّـــي غيـــرُ شـــكري

فأخبره أنَّ شكره هو الغاية في مجازاته كما قدمتُ"[5]. وهذا ما جعل الشِّعر في بداياته أعلى منزلة وأرقى مكانة من الخطابة، ولكن بسبب تكسُّب بعض الشعراء بشعرهم تدنَّت منزلة الشِّعر، وصارت الخطابة أعلى منزلة منه: "وقالوا: كان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب؛ لحاجتهم إلى الشِّعر في تخليد المآثر، وشدَّة العارضة، وحماية

---

[1] – عبد الرحيم رائد، ظاهرة التكسُّب بالشعر وتجلياتها في النقد العربي القديم، ص444.

[2] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص204.

[3] – المرجع نفسه، ص34.

[4] – ورد الحديث في الصحيحين وغيرهما بألفاظ متقاربة، يُنظر البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، رقم الحديث7292، ج4، ص340، ويُنظر مسلم، صحيح مسلم، كتاب الأقضية، رقم الحدبث1715، ص529.

[5] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص69-70.

العشيرة، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل، فلا يُقدم عليهم خوفا من شاعرهم على نفسه وقبيلته، فلمَّا تكسَّبوا به وجعلوه طُعمة وتولَّوا به الأعراض وتناولوها صارت الخطابة فوقه. وعلى هذا المنهاج كانوا حتَّى فشت فيهم الضَّراعة، وتطعَّموا أموال النَّاس، وجشعوا فخشعوا، واطمأنَّت بهم دارُ الذلَّة، إلاَّ مَنْ وقر نفسه وقارها، وعرف لها مقدارها، حتَّى قبض نقيّ العرض مصونَ الوجه، ما لم يكن به اضطرار تحِلُّ به الميتةُ، فأمَّا مَن وجد البُلغة والكفاف فلا وجه لسؤاله بالشِّعر."[1]

ويتَّضح ممَّا سبق موقف ابن رشيق الرافض لظاهرة التكسُّب بالشعر، ولا يسمح للشاعر بالتكسُّب بشعره إلاَّ عند الضرورة القصوى، والتي شبَّهها بضرورة المُشرف على الهلاك الذي تحلُّ له أَكْل الميْتة، أمَّا ما عدا ذلك فلا سبيل للشاعر السؤال بشعره، مادام يجد بُلغة وكفاف عيش. وهو لهذا يأخذ باللاَّئمة على الشعراء المُتكسِّبين إجمالا؛ فيعيب بشدَّة تصرُّف النابغة الذبياني الذي اعتبره أوَّل المتكسِّبين بالشِّعر، "حتَّى نشأ النابغة؛ فمدح الملوك، وقَبِل الصِّلة على الشِّعر، وخضع للنعمان بن المنذر، وكان قادرا على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسَّان، فسقطت منزلته، وتكسَّب مالا جسيما، حتَّى كان أكله وشربه في صِحَاف الذَّهب والفضَّة وأوانيه من عطاء الملوك."[2]، واستشهد ابن رشيق بمقولة أبي عمرو بن العلاء، حين سُئل: "لِـمَ خضع النابغة للنعمان؟ فقال: رغب في عطائه وعصافيره."[3]

وجاء الأعشى فزاد الطِّين بِلَّةً؛ فقد جعل من الشِّعر متجرًا كما يقول ابن رشيق: "فلمَّا جاء الأعشى جعل الشِّعر متجرا يتَّجر به نحو البلدان، وقصد حتَّى ملك العجم فأثابه وأجزل عطيته علمًا بقدر ما يقول عند العرب، واقتداءً بهم فيه، على أنَّ شعره لم يحسن عنده حين فُسِّر له، بل استهجنه واستخفَّ به، لكن احتذى فعل الملوك ملوك العرب."[4]

أمَّا في عصر صدر الإسلام، وتحديدا في عصر الخلفاء الرَّاشدين، فقد كان الحطيئة على رأس المتكسِّبين بالشِّعر، "ثمَّ إنَّ الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر، وانحطاط الهمَّة فيه، والإلحاف، حتَّى مقت وذلَّ أهله وهَلُمَّ جرًّا، إلى أن حُرِم السَّائل وعُدِم المسؤول."[5]، كذلك أورد ابن رشيق أسماء مجموعة أخرى من الشعراء اعتبرهم من المجدِّدين في التكسُّب بالشعر، وهذا في باب (سيرورة الشِّعر، والحظوة في المدح)، منهم: سلْم الخاسر، وأبو العتاهية، ومروان بن أبي حفصة، وأبو نواس، والبحتري، وأبو تمَّام، وأبو الطيِّب المتنبي. يقول ابن رشيق فيهم: "وأمَّا المجدِّدون في التكسُّب بالشعر والحظوة عند الملوك فمنهم: سلْم الخاسر، مات عن مائة ألف دينار، ولم يترك وارثا، وأبو العتاهية صنع:

تعـــالى الله يـــا ســـلْم بـــن عمـــرو أذلَّ الـــــحرصُ أعنـــــاقَ الرِّجـــــال

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص72.

[2] – المصدر نفسه، ص70.

[3] – نفسه، والصفحة نفسها.

[4] – نفسه، والصفحة نفسها.

[5] – نفسه، ص71.

وكان صديقه جدًّا، فقال سَلْمُ: ويلي من ابن الفاعلة، جمع القناطير من الذَّهب ونسبني إلى ما ترون من الحِرْصِ، ومروان بن أبي حفصة: أُعطِي مائة ألف دينار غير مرَّات، وكان لا يُقابَل إلاَّ بالكثير، وهو لعمري من ذوي البيوتات، والمعرَّقين في التكسُّب بالشعر، وكان أبو نواس محظوظا لا يدري ما وصل إليه، لكنَّه كان مِتلافا سَمْحًا، وكان يتساجل في الإنفاق هو وعبَّاس بن الأحنف وصريع الغواني، وكان البحتري مَلِيًّا قد فاض كسبه من الشِّعر، وكان يركب في موكب من عبيده، وأبو تمَّام فما وفَّى حقَّه مع كثرة ما صار إليه من الأموال؛ لأنَّه تبذَّل، وجاب الأرض، وكذلك أبو الطيِّب."[1]

وفي باب آخر، وتحديدا في(باب من رفعه الشِّعر، ومن وضعه)، يتعرَّض ابن رشيق لقضية التكسُّب بالشعر، حين يذكر من رفعهم الشِّعر ومَن وضعهم، فهو يقول: "إنَّما قيل في الشِّعر (إنَّه يرفع من قدر الوضيع الجاهل، مثل ما يضع من قدر الشَّريف الكامل، وإنَّه أسنى مروءة الدَّنيِّ، وأدنى مروءة السَّريِّ)، لأمر ظاهر غاب عن بعض النَّاس فتأوَّله أشدَّ التَّأويل، وظنَّه مَثْلَبة وهو مَنْقبة؛ وذلك أنَّ الشِّعر لجلالته يرفع من قدر الخامل إذا مُدِحَ به، مثل ما يضع من قدر الشريف إذا اتَّخذه مكسبًا، كالذي يُؤثر من سقوط النابغة الذبياني بامتداحه النعمان بن المنذر، وتكسُّبه عنده بالشِّعر، وقد كان أشرف بني ذبيان.. وكاشتهار عرابة الأوسي بشعر الشمَّاخ بن ضِرار، وقد بذل له في سنة شديدة وَسْق بعير تمرًا، فقال:

رأيـــتُ عَرابـــة الأوسِـــيَّ يســـمو إلـــى الخيـــرات منقطـــع القـــرين

إذا مـــا رايـــةٌ رُفعـــت لمجـــد تلقَّاهـــا عرابـــة بـــاليمين

حتَّى صار ذلك مثلا سائرا، وأثرا باقيا، لا تبلى جِدَّتُه، ولا تتغيَّرُ بهجته، وقدح ذلك في مروءة الشمَّاخ، وحطَّ من قدره؛ لسقوط همَّته عن درجة مثله من أهل البيوتات وذوي الأقدار."[2]

ويُواصل في موضع آخر بقية شرحه لهذه العبارة، قائلا: "وأمَّا تفسير القول الآخر في السَّريِّ والدَّنيِّ؛ فإنَّه إذا بلغت بالدَّنيِّ نفسه، وطمحتْ به همَّته إلى أن يصنع الشِّعر– الذي هو أخو الأدب، وتجارة العرب، تُكافأ به الأيادي، ويُحَلُّ به صدر النَّادي، ويرفع صوته على مَنْ فوقه، ويزيده في القدر على ما استحقَّه – فقد صار سريًّا، على أنَّه القائل، فإن كان المقول له فذلك أعظم مزية، وأشرف خطَّة ومنزلة، وإذا انحطَّت بالسَّريِّ همَّته، وقصرت مروءته، إلى أن يصنع الشِّعر ليتكسَّب به المال ويُكافئ به الأيادي دون غيره، وهو يعلم أنَّه أبقى من المال، وأنفس ذخائر الرِّجال، وأنَّه إن خاطب به مَنْ فوقه فقد رضي بالضَّراعة، وإن خاطب به كفأه ونظيره فقد نزل عن المساواة، وإن خاطب به مَنْ دونه سقط جملة."[3]

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص162.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص34-35.

[3] – نفسه، ج1، ص36-37.

فإذا كان التكسُّب بالشِّعر قد وضع من قدر الكثير من الشعراء–وإنْ كانوا أشرافا–لأنَّهم اتَّخذوا من شعرهم مطيَّة وسبيلا لكسب المال ونيل العطايا والهبات، فإنَّ بعض الشعراء قد رُفعت مكانتهم وعلا شأنهم بسبب رفضهم التكسُّب بشعرهم، وذكر منهم ابن رشيق وليَّ نعمته أبا الحسن، فقال: "فأمَّا من صنع الشِّعر فصاحة ولَسَنًا، وافتخارًا بنفسه وحسبه، وتخليدا لمآثر قومه، ولم يصنعه رغبة ولا رهبة، ولا مدحا ولا هجاءً، كما قال واحدُ دهرنا وسيِّد كُتَّاب عصرنا أبو الحسن، أحسن الله إليه، وإلينا فيه:

وجـــدتُ طريـــق البـــأس أســـهلَ مســـلكًا وأحْـــرَى بِـــنُجْح مـــن طريـــق المطـــامع

فلســـتُ بِمُطْـــرٍ مـــا حييـــتُ أخـــا نـــدًى ولا أنـــا فـــي عـــرض البخيـــل بواقـــع

فلا نقص عليه في ذلك، بل هو زائد في أدبه، وشهادة بفضله، كما أنَّه نباهة في ذكر الخامل، ورفع لقدر الساقط، وإنَّما فضل امرؤ القيس – وهو مَنْ هو – لما صنع بطبعه، وعلا بسجيته، عن غير طمع ولا جزع."[1]

وإذا كان ابن رشيق يأسف أن يتكسَّب الشعراء بشعرهم رغم كفايتهم وعدم اضطرارهم وحاجتهم لذلك، فإنَّه في الوقت نفسه يُظهر إعجابا ببعض الشعراء الذين رفضوا أن يكون شعرهم وسيلة عيشهم وتكسُّبهم، أمثال: جميل وعمر المخزومي وعباس بن الأحنف، هؤلاء الشعراء الذين صانوا كرامتهم عن التزلُّف بالمدح، لأنَّهم يعلمون جيِّدا أنَّ المدح مدعاة للكذب. فذكر أنَّه يُروى عن جميل بن عبد الله بن معمر أنَّه ما مدح أحدا قط إلاَّ ذويه وقراباته، وأنَّه صحب الوليد بن عبد الملك في سفره، فكلَّفه أن يرجز به، وظنَّ أنَّه يمدحه، فأنشأ يقول:

أنَـــا جَمِيـــلٌ فِـــي السَّـــنَامِ مِـــنْ مَعَـــدْ فِـــي الـــذِّرْوَةِ العَلْيَـــاءِ وَالـــرُّكْنِ الأَشَـــدْ

فقال له الوليد: اركب لا حُمِّلْتَ. ويذكر عمر بن أبي ربيعة المخزومي، وكان يُشبَّه به من المولدين العباس بن الأحنف، فإنَّه ممَّن أَنِفَ عن المدح تظرُّفا، وقال فيه مصعب الزبيري: العباس عمر العراق، يريد: أنَّه لأهل العراق كعمر بن أبي ربيعة لأهل الحجاز، استرسالا في الكلام، وأنفة عن المدح والهجاء، واشتهر بذلك فلم يكن يُكلِّفه إيَّاه أحدٌ من الملوك ولا الوزراء.[2]

ويُبدي إعجابه ببعض الشعراء الذين كبُرت نفوسهم عن الاستجداء بالشعر، وإن نالوه فليس عن طلبٍ منهم أو سؤال، أمثال: علي بن الجهم، "الذي يقول:

ومـــا الشِّـــعر ممَّـــا أســـتظلُّ بظلِّـــه ولا زادنـــي قـــدرًا ولا حـــطَّ مـــن قـــدري

ولكـــنَّ إحســـانَ الخليفـــة جعفـــرٍ دعـــاني إلـــى مـــا قلـــتُ فيـــه مـــن الشِّـــعر[3]

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص35.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص72–73.

[3] – ابن الجهم أبو الحسن علي بن بدر، الديوان، تح: خليل مردم بك، وزارة المعارف السعودية، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ط2، 1980م، ص146–147.

فذكر أنَّه لا يستظلُّ بظلِّ الشِّعر، أي: لا يتكسَّب به، وأنَّه لم يزده قدرا؛ لأنَّه كان نَابِهَ الذِّكرِ قبل عمل الشِّعر، ثمَّ قال: (ولا حطَّ من قدري) فأحسن الاعتذار لنفسه وللشعر، يقول: ليس الشِّعر ضَعَةً في نفسه، ولا صنعته فيمن دون الخليفة، وما كفاه ذلك حتَّى جعل نفسه بإزاء الخليفة، بل مُكافئًا له بشعره على إحسان بدأه الخليفة به، ولم يرض أن يجعل نفسه راغبا ولا مُجتديا."[1]

ولكنَّ هذا الموقف الصَّارم من ابن رشيق في قضية تكسُّب الشاعر بشعره، سرعان ما يتغيَّر ويظهر عليه نوع من اللِّين والتَّساهل، فها هو يقول: "وعلى كلِّ حال فإنَّ الأخذ من الملوك كما فعل النابغة، ومن الرؤساء الجِلَّة كما فعل زهير؛ سَهْلٌ وخفيفٌ. فأمَّا الحطيئة فقبَّح الله همَّته السَّاقطة على جلالة شعره وشرف بيته، وقد كانت الشعراء ترى الأخذ ممَّن دون الملوك عارًا، فضلا عن العامة وأطراف النَّاس."[2]، فقد تساهل ابن رشيق في موقفه من الشاعرِ ضَئيلِ المنزلةِ، فأحبَّ أن يرتفع فيها، فكان سبيله في ذلك شعره الذي قصد به الملوك والأمراء فمدحهم ونال هداياهم، فهذا عنده لا حرج فيه، وليس مستنكرًا ولا مستغربا. ويستدلُّ على هذا الحكم الجديد الذي يرى فيه أنَّ الأخذ من الملوك ورؤساء القوم أمرٌ سهلٌ ومقبولٌ، ولا شُبهة في عطاياهم وصِلاتهم، بل يعتبرها هدايا، بقبول الكثير من الصحابة والتَّابعين والعلماء صِلات الملوك، فيقول: "أنَّ عبد الله بن عمر على جلالته، والحسن البصري، وعكرمة، ومالك بن أنس، وجملة من أهل العلم غير هؤلاء كانوا يقبلون صِلات الملوك. وقد سُئل عثمان بن عفَّان ﷺ عن مال السلطان، فقال: لحمُ طير زكيٌّ."[3]، ثمَّ يأتي إلى بيت القصيد، ليستنتج ويستخلص ممَّا سبق أنَّ "الشعراء في قبولها مال الملوك أعذرُ من المتورِّعين وأصحاب الفُتيا؛ لما جرت به العادة قبل الإسلام وعلى عهد رسول الله ﷺ وبعده."[4]، ويذكر على سبيل التمثيل الشاعر ذا الرِّمة الذي هجا مروان بن أبي حفصة بذلك، ويفتخر عليه بأنَّه لا يقبل إلاَّ صلة الملك الأعظم وحده، فيقول:

عطايـــا أميـــر المـــؤمنين ولـــم تكـــن مقســـــمةً مـــــن هـــــؤلا وأولائكـــــا
ومـــا نلـــتَ حتَّـــى شِـــبْتَ إلاَّ عطيَّـــةً تقـــوم بهـــا مصـــرورة فـــي ردائكـــا

وأُنشِد له أو لغيره:

ومـــا كـــان مـــالي مـــن تـــراث ورثتـــه ولا دِيَـــــة كانـــــت ولا كســـــب مـــــأثم
ولكـــن عطـــاء الله مـــن كـــلِّ رحلـــة إلـــى كـــلِّ محجـــوب السُّـــرادق خِضْـــرم[5]

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص35-36.
[2] – المصدر نفسه، ج1، ص73.
[3] – المصدر نفسه، ص72.
[4] – نفسه، ص72.
[5] – نفسه، ص73-74.

وفي مبحث مستقلٍّ بعنوان(الأنفة من عطاء غير الملوك) يستشهد ببعض الشعراء الذين لا يجدون حرجا من عطايا وصلات الملوك والأمراء، بل يتباهون ويفتخرون بها، ومن هؤلاء: مروان بن حفصة الذي يقول:

ولقد حُبيتُ بألف ألف لم تكن إلاَّ بكفٍّ خليفة ووزير

ما زلتُ آنف أن أؤلِّفَ مدحة إلاَّ لصاحب منبر وسرير

ما ضَرَّني حسدُ اللِّئام ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

وقال آخر فيما يُناسب هذا ويُشاكله، ويشدُّ على مَن تمذهب به أو اعتقده:

وإذا لم يكن من الذُلِّ بُدٌّ فَأَلْقِ بالذُلِّ إن لقيتَ الكبارا

وافتخر بشار بن برد بقرعه أبواب الملوك والأمراء، فقال:

وإنِّي لنهَّاض اليدين إلى العُلا قروعٌ لأبواب الهمام المُتوَّج[1]

وابن رشيق في موقفه هذا يُحاول جاهدا أن يجد مبرِّرات ليدافع بها عن هؤلاء الشعراء المتكسِّبين من الخلفاء والأمراء، ولكنَّه في حقيقة الأمر، وقبل كلِّ أحد، كان ابن رشيق يُدافع عن نفسه، "لأنَّه كان شاعرَ بَلاطٍ وصاحبًا لأميرين هما: المعزّ بن باديس الصنهاجي وابنه تميم.

ولهذا ما فتئ ابن رشيق يُلحُّ على أنَّ هناك فرقا في دواعي المدح، فَمَن يمدح ملكا ليس كمن يمدح سوقة "[2]، وابن رشيق قد مدح المعزَّ بن باديس وابنه تميما وابن أبي الرِّجال وغيرهم، وقد مرَّ بنا مدحه لتميم، ومن مدحه للمعزِّ قوله:

ذُمَّتْ لعينك أعينُ الغزلان قمرٌ أقرَّ لحُسنه القمران

يا ابن الأعزَّة من أكابر حِمْير وسُلالة الأملاك من قحطان

من كلِّ أبلج آمِرٍ بلسانه يضعُ السُّيوف مواضع التِّيجان[3]

وقال في وليِّ نعمته، علي بن أبي الرِّجال:

إنِّي لأعجبُ كيف يحسُنُ عنده شعرٌ من الأشعار مع إحسانه

ما ذاك إلاَّ أنَّه دُرُّ النُّهى يَفِدُ التُّجارُ به على دِهْقَانه[4]

ويبدو أن تكسُّب ابن رشيق بشعره كان اضطرارا؛ لأنَّه عاش حياة غير مستقرّة، وفي بيئة مضطربة، وبالتالي فليس بالإمكان أن يجد البلغة والكفاف في العيش، زيادة على كونه ليِّن النَّفس، يُحبُّ الأمن والدَّعة، ويكره المجازفة والمخاطرة، وكان بشهادته على نفسه: في سوء مكان، وقلَّة إمكان، وزمانة زمان، وحدوث حدثان، إلى أن عَلِقَ بحبل عناية ابن أبي

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج1، ص74-75.

[2] – خلدون بشير، الحركة النقدية على أيَّام ابن رشيق المسيلي، ص123.

[3] – ابن رشيق، الديوان، ص202-203.

[4] – المصدر نفسه، ص216.

الرِّجال، وصار في حرم حمايته.[1]، لذا فقد كان شعره في هذه الظروف القاسية وسيلة لدفع الفقر، وإصلاح المعيشة، وطلب الغِنى، وهو القائل: "وأفضل ما استعان به الشاعر فضل غنى أو فرط طمع، والفقر آفة الشِّعر..."[2]

فقد تكسَّب ابن رشيق بشعره، وهو عن ذلك غير راض، لما فيه من مذلَّة ومهانة. ودليل ذلك أنَّه في الوقت الذي أنكر فيه على الشعراء المتكسِّبين فعلهم هذا، وأخذَهم بالملامة والعتاب، نجده في مقابل ذلك يُظهر إعجابا شديدا بأولئك الشعراء الذين صانوا كرامتهم بامتناعهم عن التكسُّب بالشعر، ونحسُّ من حديثه عنهم-كما يقول أحمد يزن-: "أنَّه في قرارة نفسه يُؤيِّدهم فيما ذهبوا إليه، ويحنُّ إلى أن يكون مثلهم، لذا فهو غير راض عن التكسُّب بالشعر، ولكنَّ ظروف حياته فرضت عليه التكسُّب به، كما فرضت عليه أن لا يُعبِّر عن رأيه بصراحة فيلجأ إلى الإيماء والتلميح"[3]، فلا مفرَّ إذن أن يختار ابن رشيق أهون الشَّرين، وهو الاعتدال والتوسُّط في التكسُّب بالشعر، وقَصَّرَ هذا الصنف منه على الملوك والخلفاء والرؤساء، ملتمسا لنفسه العذر والعزاء في سلوكه هذا بأنَّ شخصيات مرموقة من خيرة التابعين والعلماء والفقهاء كالحسن البصري وعكرمة ومالك بن أنس قد قبلت عطايا وصلات الملوك والأمراء.

وبينما نجد أحمد يزن قد تفهَّم إلى حدٍّ كبير موقف ابن رشيق من مسألة التكسُّب بالشعر التي عرضناها، نجد موقفا مغايرا تماما من قِبل بشير خلدون، فهو كان يأمل "أن لا يقع ابن رشيق في هذه الزَّلة، والشعر كما يُقال: فنٌّ جميل وكلمة صادقة ومسؤولية خطيرة، والشاعر الفحل هو الذي يحفظ ماء وجهه ويعفُّ عن السؤال، ولو كان ذلك للملوك أنفسهم، بل إنَّنا نستطيع القول بأنَّه قد يُغفر لمن مدح واحدا من عامة النَّاس من السوقة؛ لأنَّه إنَّما مدحه لا طمعا في ماله، ولا خوفا من سلطانه وبطشه، أو رغبة في مدحه، بخلاف الشاعر الذي يمدح ملكا أو صاحب جاه، إنَّما يفعل ذلك بدافع الخوف أو الطمع."[4]

إذن فقد تساهل ابن رشيق في موقفه من الشاعر المتكسِّب بالشعر إذا ما كان في خفض عيش من جهة، وكان اتِّصاله قاصرا على الملوك وسادة القوم. رغم علمه أنَّ أكثر مَن تقدَّم من الشعراء "الغالب على طباعهم الأنفةُ من السؤال بالشِّعر، وقلَّة التعرُّض به لما في أيدي النَّاس، إلاَّ فيما لا يُزري بقدر ولا مروءة كالفلتة النَّادرة والمهمة العظيمة."[5]، وكأنَّه يقول: وهذا ما كانت عليه حالتي، وما فعلته بالضبط. متَّكِئًا في ذلك على مقولة عمر بن الخطاب ﷺ التي يقول فيها: "نِعْمَ ما تعلَّمته العرب الأبيات من الشعر يُقدِّمها الرَّجل أمام حاجته."[6]، وعلى موقف شاعر فحل سابق هو لبيد بن ربيعة، فيذكر ابن رشيق: "أنَّ لبيد بن ربيعة لمَّا بعث إليه الوليد بن عقبة مائة من الإبل ينحرها

---

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج1، مقدِّمة الكتاب، ص15.

[2] – المصدر نفسه، ص179.

[3] – يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص151.

[4] – خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، ص123.

[5] – ابن رشيق، المصدر السابق، ج1، ص71.

[6] – المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

كعادته عند هبوب الصَّبا، وقد أسنَّ وأقلَّ، وكان يُطعم النَّاس ما هبَّت الصَّبا، قال لابنته أُشكُري هذا الرَّجل فإني لا أجد نفسي تُجيبني، ولقد أراني لا أعيا بجواب شاعر، فقالت هذه الأبيات:

إذا هبَّـــت ريـــاحُ أبـــي عقيـــل دَعَوْنـــا عنـــد هبَّتهـــا الوليـــدا

أغـــرَّ الوجـــه أبـــيضَ عَبْشَـــمِيًّا أعـــان علـــى مروءتـــه لبيـــدا

بأمثـــال الهضـــاب كـــأنَّ رَكْبًـــا عليهـــا مـــن بنـــي حـــامٍ قُعُـــودا

أبـــا وَهْـــبٍ جـــزاك الله خيـــرًا نحرناهـــا وأطعمنـــا الثَّريـــدا

فَعُـــدْ إنَّ الكـــريم لـــه معـــادٌ وظَنِّـــي بـــابن أروى أن يعـــودا

وعرضتها عليه، فقال: لقد أجدتِ لولا أنَّك استعدتِ، كراهية في قولها:(فعُدْ إنَّ الكريم له معاد)، ويُروى: لولا أنَّك استزدتِ."[1]، وفي الجمهرة: "فقال لها لبيد: أجَدْتِ وأحسنتِ، لولا أنَّك سألتِه في شعرك الزيادة. قالت: إنَّه أميرٌ، ولا بأس بسؤاله، ولو كان غيره ما سألناه. فقال: نعم، إنَّه على ما ذكرتِ."[2]، وفي لُباب الآداب: "فقال لها أبوها لبيد: أحسنتِ، لولا أنَّك سألتِ! فقالتْ: إنَّ الملوك لا يُسْتَحَى من مسألتهم. قال: وأنتِ في هذه أشعرُ."[3]

ولأنَّ موقف ابن رشيق كان مضطربا نوعا ما في مسألة تكسُّب الشاعر بالشِّعر، فنجده يبحث لنفسه ولغيره من الشعراء المتكسِّبين عن مبرِّرات تحفظ لهم كرامتهم، وتقيهم -في الوقت نفسه- ذُلَّ السؤال، وتصون شعرهم من النِّفاق والكذب الممقوت، الذي يفرضه مثل هذا النوع من الشِّعر. ورأينا كيف كان موقفه بداية صارما ومتشدِّدا مع النابغة والأعشى وخاصة الحطيئة، ثمَّ يلين ويتساهل، معتبرا مدح الملوك والأمراء أمرا سهلا وخفيفا، ولا ترى فيه الشعراء قُبحًا وعَارًا.

هذا الاضطراب في الموقف جعل ابن رشيق يتناول بعض الشعراء في هذه المسألة على استحياء، في نقده التطبيقي في كتاب الأنموذج. فقد ذكر بعض الشعراء الذين كانوا يرفضون التكسُّب بالشعر بعبارة صريحة، منهم: الشاعر عبد الرحمن بن أحمد الذي قال فيه: "ولم يكن مُتكسِّبا بالشِّعر، ولا طالبا ثوابا عليه، إلاَّ ما وصله به محمد بن هشام بن عبد الجبَّار."[4]، وكذلك الشاعر عبد الله بن رشيق، الذي وصفه قائلا: "كان له في الشِّعر حظٌّ كبير، إلاَّ أنَّه لم يمدح لمثوبة."[5]، وأيضا عبد الله بن أسباط الكاتب؛ حيث كان "قليل الشِّعر، لا يتبذَّل به"[6]، أي لا يستعطف به. أمَّا القاسم بن مروان القفصي البزَّاز، الذي أمسك لسانه تورُّعا وكفاية، فقال فيه: "وليس له مدح ولا هجاء لكفايته وديانته

---

[1] - ابن رشيق، العمدة، ج1، ص71.

[2] - القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، ج1، ص205-206.

[3] - ابن منقذ أسامة بن مرشد، لُباب الآداب، تح: أحمد محمد شاكر، مكتبة السُّنَّة، القاهرة، مصر، دط، 1987م، ص94.

[4] - ابن رشيق، الأنموذج، ص142.

[5] - المصدر نفسه، ص191-192.

[6] - نفسه، ص194.

وما عليه من طلاوة العلم الشرعي."[1]، وقال في النُّعمان بن ميمون الخولاني: "وشعره في أيدي النَّاس قليلٌ لقلَّة مدحه وهجائه، وانقطاعه إلى طلب الدنيا من غير باب الأدب."[2]

أمَّا الشعراء الذين مدحوا الأمراء والوجهاء، ونالوا الحظوة والمكانة عندهم، وقبلوا صلاتهم وعطاياهم، فقد ذكر منهم: خلف بن أحمد السَّعدي، الذي "صَحِبَ الأمير تميم بن معدٍّ والأمراء إخوته بالمنصورية حينا طويلا. وامتدحهم، وكانت له عندهم حظوة ومكانة."[3]، وعبد الله بن محمد التنوخي، المعروف بابن قاضي ميلة؛ حيث جاء في ترجمته: أنَّه "شاعرٌ لَسِنٌ مُقتدِرٌ، يُؤثِرُ الاستعارة، صحب أباه إلى جزيرة صقلية، وكان مُفخَّمًا حاذقا، فعرف ثقة الدولة (أحد أمراء بني الحسين في صقلية) بسببه، واتَّصل لاتِّصاله به، فأوطن البلد وصنع فيه قصيدته الفائية، وما أعلم لأحدٍ في وزنها ورويِّها مثلها، فأجزل صلته، وقرَّب منزلته، وألحقه في أحد دواوين الخاصة."[4]، والشأن نفسه مع الشاعر ابن أبي النوق الطبيب، الذي كان "أكثر تأدُّبه بالأندلس، ولقي بها أُناسا وملوكاً، وأخذ الجوائز، وقارع فحول الشعراء."[5]

وذكر ابن رشيق بالتحديد بعض الأعطيات التي نالها الشعراء من بعض الممدوحين كأمير أو وزير، ومن هؤلاء عليّ ابن أحمد الصفَّار السوسي، الذي قال عنه: "لقي الموفَّق مجاهد بن عبد الله كرَّتين، إحداهما بنيَّة الغزو، فامتدحه وأقام عنده مُدَّة في جرايته وضيافته. ثمَّ أجزل صلته وخلَّى سبيله. وكان دخوله عليه بقصيدة يائية طويلة جدًّا، منها:

بكـــتْ وشـــكتْ واســـترجعتْ وتوجَّعـــتْ فظلـــــتُ لهـــــا مُســـــترجعا متباكيـــــا

وقالـــت: أمَـــا ينهـــاك أن تـــذكر النَّـــوى نُهَّـــى قـــد نهـــت عنـــك الصِّـــبا والتَّصـــابيا

وهـــذا أوان الحلـــم فاســـمعْ وكـــن لـــه مُطيعـــا وكـــن للغـــيِّ والجهـــل قاليـــا

إلى أن يقول:

وقـــد كنـــتُ أُدْعَـــى نابـــةَ الـــذِّكر شـــاعرًا فقـــد صـــرتُ أُدْعَـــى عـــالي القـــدر غازيـــا

وحســـــبي بهـــــذا بعـــــد ذاك فعنـــــده محاســـــن تمحـــــو حُســـــنهنَّ المســـــاويا

ولـمَّا أنشده هذه القصيدة وقعت منه موقعا لطيفا، وأمر له بمائتي دينار وخمسة من الرَّقيق واعتذر إليه."[6]، أمَّا علي ابن يوسف التونسي، فقد "كان مخصوصا ببني أبي العرب، محظوظا عندهم، وفيهم عامة شعره. أنشد المنصور بن محمد قصيدته التي أوَّلها:

يـــا عـــذولي أكثـــرت عـــذلا وعـــدما كـــم مـــلامٍ أعـــزى فهـــوَّن سُـــقمَا

---

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص320.

[2] – المصدر نفسه، ص421.

[3] – نفسه، ص127.

[4] – نفسه، ص209-210.

[5] – نفسه، ص241.

[6] – نفسه، ص265-268.

فلمَّا فرغ منها دفع إليه كيسا فيه أربعمائة دينار عينًا، ورُقعة بإقطاع قرية من نواحي تونس."[1]، ولـمَّا وضع ابن رشيق نفسه آخر الشعراء في كتابه الأنموذج، وهذا من باب الأدب والتواضع؛ فقد كان في الوقت نفسه خاتمة الشعراء الذين تكسَّبوا بالشعر، أو على حدِّ قوله: أخذوا الصِّلة، فيقول متحدِّثا عن نفسه بعد أنْ قَدِمَ القيروان، والتحق بأميرها المعزِّ: "ولـمَّا تحقَّق مكانته من الأدب ومحلّه من قول الشِّعر قرَّبه، فامتدحه بقصيدة صار بها في جملته، ونُسب لأجلها إلى خدمته، ولَزِمَ ديوانه، وأخذ الصِّلة منه، وحُمِلَ على مركب يُمَيَّزُ به."[2]

وما يُمكن قوله آخر المطاف في هذه المسألة، وكخلاصة لما ذكرناه: أنَّ ابن رشيق حاول أن يقف موقفا وسطا ومتَّزنا في قضية تكسُّب الشاعر، فقال: أنَّ العرب لم تكن تتكسَّب بالشعر، وهو أمرٌ مرفوض ومقيت من شاعر لا حاجة له بالمال، وله مكانة وجاه في قومه، أمَّا إن كان عن حاجة وقلَّة مال فلا حرج في ذلك، إنْ لم يُزرِ بمروءة الشاعر، ولم يتذلَّل أو يتبذَّل به، بشرط أن تكون هذه العطايا والمكافآت من الملوك والأمراء، فهذا ممَّا تسامح وتساهل فيه النقاد، وفي كلِّ الأحوال إذا كان التكسُّب يُزري بالشاعر أو يُنقص من قيمته وقدره فهو مرفوض ومنبوذ، حتَّى تبقى قيمة ومكانة الشاعر مصونة وسامية.

7/ المبالغة والغُلوُّ في الشعر:

ممَّا هو جدير بالذكر أن نُشير إلى أنَّ النَّهي والتحذير من الغُلوِّ والإفراط سواء في أمور الدين أو الدنيا الذي تضمَّنته الكثير من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، قد كان له الأثر البالغ على الشعراء والنقاد والبلاغيين في مواقفهم من ظاهرة الغلوِّ في الشِّعر؛ ذلك أنَّ عددا كبيرا منهم كان على اتِّصال وثيق بالدِّين وعلومه بشكل أو بآخر، ولاعتبار آخر هو أنَّ البلاغة –والنقد كان فرعا منها– قد نشأت في أحضان العلماء الذين كانوا مهتمِّين بالإعجاز القرآني خاصة، وبالدراسات القرآنية عامة. لذا كانت آراء الشعراء والنقاد متباينة حول ظاهرة المبالغة والغلوِّ في الشعر.

فمن الشعراء من التزم مذهب الكذب في الشِّعر، ودافع عنه، وردَّ على الذين يُلزمون الشاعر أن يُجري مقاييس الشعر على حدود المنطق والعقل، ذلكم هو البحتري القائل:

كلَّفتمونـــــا حـــــدود مـــــنطقكم والشِّـــعر يُلْغَـــى عـــن صـــدْقِهِ كَذِبُـــه
ولـــم يكـــن ذو القُـــرُوح يلهـــج بالمَنْـــ ـــــطق مـــا نوعـــه، ومـــا سَبَبُـــه
والشِّـــــعر لمـــــحٌ تكفـــــي إشـــــارته ولـــيس بالهـــذر طُوِّلـــت خُطَبُـــه[3]

في حين نجد قبله الشاعر حسَّان بن ثابت ينتصر للحقِّ والصِّدق في الشعر، فقد قيل له: "لان شعرُك، أو هرُم شعرك في الإسلام يا أبا الحُسام، فقال للقائل: يا ابن أخي، إنَّ الإسلام يحجُز عن الكذب، أو يمنع من الكذب، وإنَّ الشِّعر

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص298.
[2] – المصدر نفسه، ص440.
[3] – البحتري أبو عبادة الوليد بن عبيد الطَّائي، ديوان البحتري، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت، ص234.

يُزيِّنه الكذب."[1]، ويُعلِّق صاحب الاستيعاب قائلا: "يعني: إنَّ شأن التجويد في الشِّعر الإفراط في الوصف، والتزيين بغير الحقِّ، وذلك كلُّه كذب."[2]، وقد أكَّد حسَّان بن ثابت هذا المعنى في بيتيه المشهورين:

وإنَّما الشِّعرُ لُبُّ المرء يعرضُه على المجالس إنْ كَيْسًا وإنْ حُمُقا

وإنَّ أشعرَ بيت أنت قائله بيتٌ يُقالُ، إذا أنشدتَه صَدَقَا[3]

يقول وليد الأعظمي تعليقا على البيتين: "وواضحٌ ما يُريده حسَّان من الشِّعر، وما ينبغي أن يكون عليه، وهذا هو الذي يُريده الإسلام، وهو الذي يُريده الشاعر المسلم، إنَّه لا يُريد إعجاب النَّاس بمبالغته ووصفه المعقَّد وتركيبه الغريب، وإنَّما يُريد التأثير بالحقِّ، والنَّاس دائما تتأثَّر بالصِّدق ولو كان غير مُنمَّق العبارة."[4]

والمبالغة أحد فنون البديع التي دار حولها صراع كبير بين الشعراء وبين النقاد على حدٍّ سواء، بين مُؤيِّد ورافض ومعتدل؛ وذلك لِمَا اعتورها من إفراط وغُلوٍّ، فكانت محلَّ استحسان من طرف، ومحلَّ استهجان من طرف آخر. وقد ذكر العلوي مذاهب العلماء في المبالغة، وهي ثلاثة:

- **المذهب الأول**: أنَّها غير معدودة من محاسن الكلام، ولا من جملة فضائله، وحجَّتُهم على هذا هو أنَّ خير الكلام ما خرج مخرج الحقِّ وجاء على منهاج الصِّدق من غير إفراط ولا تفريط، والمبالغة لا تخلو عن ذلك كما جاء في أشعار المتأخِّرينمن الإغراق والغُلُوِّ.

- **المذهب الثاني**: على عكس هذا وهو أنَّ المبالغة من أجلِّ المقاصد في الفصاحة، وأعظمها في البراعة، ومن أجلها نشأت المحاسنُ في المعاني الشعرية، وحجَّتُهم على هذا أنَّ خير الشعر أكذبه، وأفضل الكلام ما بُولغ فيه.

- **المذهب الثالث**: مذهب من توسَّط، وهو أنَّ المبالغة فنٌّ من فنون الكلام ونوع من محاسنه، ولا شكَّ أنَّ للكلام بها فضل بهاء وجودة رونق وصفاء لا يخفى، ولكن ليس على جهة الإطلاق، فإنَّ الصِّدق فضله لا يُجحدُ، وحُسنُه لا يُنكر، فمهما كانت المبالغة جارية على جهة الاعتدال بالصِّدق فهي حسنة جميلة، ومهما كانت جارية على جهة الغُلُوِّ والإغراق فهي مذمومة.[5]

لهذا ارتبطت المبالغة ارتباطا وثيقا بفكرة الصِّدق والكذب في الشعر، وهذا ما جعل الكثير من النقَّاد يربطون الموضوع بالأخلاق."ولمَّا كان الصِّدق والكذب مرتبطين بحياة النَّاس الاجتماعية والإنسانية، وكان الأدب شعره ونثره

---

[1] - القرطبي، ص165-166.

[2] - المرجع نفسه، ص166.

[3] - حسَّان بن ثابت، ص167.

[4] - الأعظمي وليد، شاعر الإسلام حسَّان بن ثابت الأنصاري دراسة أدبية تاريخية، مكتبة المنار، الكويت، دط، 1962م، ص126.

[5] - يُنظر العلوي يحي بن حمزة بن إبراهيم، الطرَّاز المتضمِّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، القاهرة، مصر، دط، 1914م، ج3، ص117-119.

نشاطا إنسانيا مرتبطا بالحياة الاجتماعية والنفسية للنَّاس، فقد نُقل هذا المفهوم من دائرة الدِّين والأخلاق إلى الشِّعر، وأصبح الصِّدق معيارا من معايير قبول الشِّعر والحكم بجودته عند بعض النَّاس والنقاد."[1]

وابن رشيق يُفرد لهذه المسألة في كتابه العمدة بابين مهمين، هما باب المبالغة، وباب الغلوّ، وهذا في الجزء الثاني من الكتاب. فيذكر أولا آراء النَّاس في المبالغة، فيقول: "وهي ضروب كثيرة. والنَّاس فيها مختلفون: منهم من يُؤثرها، ويقول بتفضيلها، ويراها الغاية القُصوى في الجودة، وذلك مشهور من مذهب نابغة بني ذبيان، وهو القائل: أشعر النَّاس من أُستُجيد كذبه، وضُحِك من رديئه، هكذا أعرفه...وروى قوم من حديث النابغة ومطالبته حسَّان بن ثابت بالمبالغة ونسبته إيَّاه بالتقصير في قوله:

لنـــا الجفنـــات الغُـــرُّ يلمعـــن بالضُّـــحى وأســـيافنا يقطـــرن مـــن نجـــدة دمـــا

ما هو مشهور عندهم مشهور في كتبهم، ومنهم من يعيبها ويُنكرها، ويراها عيبا وهُجنة في الكلام، قال بعض الحُذَّاق بنقد الشِّعر: المبالغة ربما أحالت المعنى، ولبَّسته على السَّامع؛ فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره، لأنَّها لا تقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه؛ لأنَّه ينبغي أن يكون من أهمِّ أغراض الشاعر والمتكلِّم أيضا الإبانةُ والإفصاح، وتقريب المعنى على السَّامع؛ فإنَّ العرب إنَّما فُضِّلت بالبيان والفصاحة."[2]

فبعد هذا العرض والتفصيل، ومن خلال ما جاء به من شواهد شعرية في هذا الباب، نجد أنَّ ابن رشيق يُفرِّق بين المبالغة والغُلوّ، ولهذا فصل بينهما في الدراسة. فالمبالغة مقبولة وحسنة، إذا لم تخرج إلى حدِّ الغُلوّ والإفراط؛ "فأمَّا الغُلوُّ الذي يُنكره مَن يُنكر المبالغة من سائر أنواعها، ويقع فيه الاختلاف لا ما سواه ممَّا بيَّنتُ، ولو بطُلت المبالغة كلُّها وعيبت لبطُل التشبيه وعيبت الاستعارة، إلى كثير من محاسن الكلام."[3]، وضروب المبالغة كثيرة، فقد تكون تتميما وإيغالا، ولكنَّ "من أحسن المبالغة وأغربها عند الحُذَّاق: التقصِّي، وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يُمكن من وصف الشيء، كقول عمرو بن الأيهم التغلبي:

ونُكـــــرمُ جارنـــــا مـــــا دام فينـــــا ونُتبعـــــه الكرامـــــة حيـــــث كانـــــا

فتقصَّى بما يُمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه."[4]، أمَّا في باب الغُلوّ، فيقول عن أسمائه وميزته: "ومن أسمائه أيضا الإغراق، والإفراط، ومن النَّاس مَنْ يرى أنَّ فضيلة الشاعر إنَّما هي في معرفته بوجوه الإغراق والغُلوّ، ولا أرى ذلك إلاَّ مُحالا؛ لمخالفته الحقيقة، وخروجه عن الواجب والمتعارف.. وقد قال الحُذَّاق: خير الكلام الحقائق، فإن لم يكن فما قاربها وناسبها."[5]

---

[1] – صابر نجوى، النقد الأخلاقي أصوله وتطبيقاته، ص68.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص45-46.

[3] – المصدر نفسه، ص47.

[4] – نفسه، والصفحة نفسها.

[5] – نفسه، ص52.

فالغُلوُّ عند ابن رشيق هو مغالاة في المبالغة، وتجاوزُ حدِّ الإغراق والإفراط، ومخالفةُ الحقائق، لذا فهو مستهجن ومرفوض عنده، فيقول: "وأصحُّ الكلام عندي ما قام عليه الدليل، وثبت فيه الشاهد من كتاب الله تعالى، ونحن نجده قد قرن الغُلوَّ فيه بالخروج عن الحقِّ؛ فقال جلَّ من قائل: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾[1]

ولا يكتفي ابن رشيق بذكر رأيه فقط، بل يُورد آراء غيره من النقاد، سواء كانوا من المؤيِّدين أو المعارضين، ليدُلَّ بذلك على أنَّ المسألة فيها من الاختلاف والتباين ما وصل حدَّ التناقض بينهم. فيذكر مثلا قول قدامة في الغُلوِّ، فيقول: والغُلوُّ عند قدامة: تجاوز في نعت ما للشيء أن يكون عليه، وليس خارجا عن طباعه."[2]، ومعلوم أنَّ قدامة بن جعفر من مُؤيِّدي الغُلوِّ في الشعر، فيقول في كتابه (نقد الشعر): "إنَّ الغُلوَّ عندي أجود المذهبين، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشِّعر والشعراء قديما وحديثا، وقد بلغني عن بعضهم أنَّه قال: أحسن الشعر أكذبه."[3]، كما يقول في نقد النثر: "وللشاعر أن يقتصد في الوصف أو التشبيه أو المدح أو الذمِّ، وله أن يُبالغ، وله أن يُسرف حتَّى يُناسب قولُه المحالَ ويُضاهيه. ولا يُستحسن السَّرف والكذب والإحالة في شيء من فنون القول إلاَّ في الشعر."[4]

فاهتمام قدامة منصبٌّ نحو الصنعة فقط، فلا يحفل أبدا بصدق الشاعر أو كذبه، ولا يعنيه أن يكون في الشِّعر كذب من أيِّ نوع كان، بل ربَّما يكون هذا الكذب مظهرا من مظاهر الحسن والإبداع في الشِّعر، فالمهمُّ عنده أن تبرأ صنعته من كلِّ عيب، والكذب ليس بعيب عنده.

كذلك نجد من النقاد الذين رفضوا الصِّدق كمعيار للحكم على الشِّعر، باعتبار أنَّ الشعر أساسه التخييل، ولا يكون التخييل إلاَّ بالكذب، لهذا قالوا: (أنَّ أعذب الشعر أكذبه) الخليل بن أحمد، الذي يقول: "الشعراء أمراء الكلام يُصرِّفونه أنَّى شاؤوا، ويجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ومن تصريف اللفظ وتعقيده، ومدّ المقصور وقصر الممدود، والجمع بين لغاته والتفريق بين صفاته، واستخراج ما كلَّت الألسن عن وصفه ونعته، والأذهان عن فهمه وإيضاحه، فيُقرِّبون البعيد ويُبعِّدون القريب، ويُحتجُّ بهم ولا يُحتجُّ عليهم، ويُصوِّرون الباطل في صورة الحقِّ، والحقَّ في صورة الباطل."[5]

فالخليل لا يضع حدًّا أو حاجزا أمام الشاعر، فكلُّ شيء له مباحٌ، سواء في اللغة، فله أن يتصرَّف فيها كيفما شاء، أو في المعاني التي تعارف عليها النَّاس واتَّفقوا عليها، فيجوز له أن يُغيِّرها ويجعلها رأسا على عقب، كأن يجعل الحقَّ باطلا، والباطل حقًّا. وفوق ذلك كلِّه، لا يجب أن يُحتجَّ عليه، بل يجب أن يُحتجَّ به.

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص52، والآية 77من سورة المائدة.

[2] – المصدر نفسه، ص52.

[3] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص94.

[4] – قدامة، أبو الفرج بن جعفر، نقد النثر أو كتاب البيان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1993م، ص90.

[5] – القرطاجنِّي أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1986م، ص143-144.

أمَّا الرأي الآخر، والذي يُؤيِّده أصحاب مقولة: (خير الشعر أصدقه)، والتي نادى بها عددٌ من النقاد، نجد من أبرزهم ابن طباطبا، الذي جعل من الصِّدق معيارا لجودة الشعر وحسنه، مرتكزا في انتصاره لمبدأ الصِّدق في الشعر إلى الشِّعر الجاهلي والإسلامي، وما كان يجنح إليه من تحرِّي وقول الصِّدق، فيقول: "إنَّ شعراء الجاهلية والإسلام كانوا يُؤسِّسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصِّدق فيها مديحا وهجاء، وافتخارا ووصفا، وترغيبا وترهيبا، إلاَّ ما قد احتمل الكذب فيه في حكم الشِّعر من الإغراق في الوصف، والإفراط في التشبيه، وكان مجرى ما يُوردونه منه مجرى القصص الحقّ، والمخاطبات بالصِّدق، فيُحابون بما يُثابون، ويُثابون بما يُحابون."[1]

ويتوقَّف إحسان عبَّاس عند هذا المفهوم ليُعقِّب بقوله: "ذلك هو الصِّدق في مجمله العام، ولكنَّه لابدَّ من أن يتحقَّق أيضا في الفنان نفسه وفي بعض عناصر العمل الفنِّي، ولهذا كانت لفظة الصِّدق متفاوتة الدلالة عند ابن طباطبا."[2]، لهذا نجده يُعدِّد لنا ضروب الصِّدق بشيء من التوضيح والبيان، والتي حصرها في الآتي:

1- الصِّدق عن ذات النَّفس: وهو ما نُسمِّيه:(الصِّدق الفني)، ويعني إخلاص الفنان في التعبير عن تجربته الذاتية.

2- صدق التجربة الإنسانية عامة: وهذا يتمثَّل في قبول الفهم للحكمة، لصدق القول فيها وما أتت به التجارب منها.

3- الصِّدق التاريخي: وذلك يتمثَّل عند اقتصاص خبر أو حكاية كلام.

4- الصِّدق الأخلاقي: وهو ما لا مدخل فيه للكذب، بنسبة الكرم إلى البخيل، أو نسبة الجبن إلى الشجاع. وإنَّما هو نقل للحقيقة الأخلاقية على حالها.

5- الصِّدق التصويري: أو ما يُسميه ابن طباطبا: (صدق التشبيه)، وهو ينصُّ عليه في غير موطن من كتابه. على الشاعر أن يتعمَّد الصدق والوفق في تشبيهاته.[3]

في حين نجد طرفا آخر لم يتَّضح له موقف فاصل في المسألة، فنجده تاره يُعجب بالصِّدق ويعتبره المعيار الأساس في تقويم الشعر، وتارة يميل إلى الكذب ويعدُّه ضرورة في الشعر، ولا يُمكن بحال الاستغناء عنه. ولعلَّ الآمدي واحد من هؤلاء، ففي موقف له مُؤيِّدا للنظرة الأولى، يرى في الشعر الذي يلتزم صاحبه الصِّدق في التعبير عن واقعه الحقيقي، زيادة على صدق إحساسه وشعوره هو الأجود والأحسن والأفضل، فقد أورد أبياتا للبحتري، يقول فيها:

أيـــا ســـكنًا فـــات الفـــراقُ بأُنســـه وحـــالَ التَّـــعادي دونـــه والتَّزيُّـــلُ

بِكُرهـــي رضـــا العُـــذَّال عنِّـــي وإنَّـــه مضـــى زمـــنٌ كنـــتُ فيـــه أُعَـــذَّلُ

إلى أن يقول:

---

[1] - ابن طباطبا، عيار الشِّعر، ص15.

[2] - عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص130.

[3] - يُنظر المرجع نفسه، ص130-132.

فمـــا بلـــغ الـــدَّمعُ الـــذي كنـــتُ أرتجـــي ولا فعـــل الوجـــدُ الـــذي خِلْـــتُ يفعَـــلُ

ومـــا كـــلُّ نيـــران الجَـــوى تحـــرقُ الحشَـــا ولا كـــــلُّ أدواء الصَّـــــبابة تقتُـــــلُ

ويُعلِّق قائلاً: "وقد كان قوم من الرواة يقولون: أجود الشِّعر أكذبه. ولا والله، ما أجوده إلاَّ أصدقه، إذا كان له من يُلخِّصه هذا التَّلخيص، ويُورده هذا الإيراد على حقيقة الباب."[1]، ثمَّ نراه في قول آخر يُعارض فيه تماما ما جاء في موقفه الأول، فيقول: "والشاعر لا يُطالبُ بأن يكون قوله صدقا، ولا أن يُوقعه موقع الانتفاع به، لأنَّه قد يقصد إلى أن يُوقعه موقع الضَّرر."[2]، وكأنَّه يقول: ليس بالضرورة أن يكون الشاعر صادقا في قوله، فإن كذب فلا حرج عليه، ولا يُعدُّ هذا عيبا، كما أنَّه ليس من الواجب أن يُقصد بالشعر الانتفاع، فقد يكون للضَّرر.

ويستشهد ابن رشيق أيضا لاختلاف النَّاس في الإفراط بمقال الجرجاني في الوساطة، فيذكر: "وقال الجرجاني في كتاب الوساطة: والإفراط مذهب عام في المحدثين، وموجود كثير في الأوائل، والنَّاس فيه مختلفون: من مستحسنٍ قابلٍ، ومستقبحٍ رادٍّ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز بالوصف حدَّها سَلِمَ، ومتى تجاوزها اتَّسعت له الغاية، وأدَّته الحال إلى الإحالة، وإنَّما الإحالة نتيجة الإفراط، وشعبة من الإغراق."[3]

والجرجاني في الوساطة يُورد بعد حديثه عن غلوّ القدامى الكثيرَ من الشواهد من عيون الشعر العربي تجاوز فيها الشعراء حدَّ الاعتدال، وأفرطوا في الوصف إلى حدِّ الاستقباح والاستهجان، ويُعلِّق بعدها قائلا: "وأمثال هذا ممَّا لو قصدنا جمعه لم يُعوز الاستكثار منه وجد مَنْ بعدهم سبيلا مسلوكا وطريقا مُوطَّئًا، فقصدوا وجاروا، واقتصدوا وأسرفوا، وطلب المتأخِّر الزيادة، واشتاق إلى الفضل فتجاوز غاية الأول، ولم يقف عند حدِّ المتقدِّم، فاجتذبه الإفراط إلى النَّقص، وعَدَلَ به الإسراف نحو الذَّمِّ."[4]

أمَّا عبد القاهر الجرجاني فقد ناقش المقولة المشهورة: (خير الشعر أصدقه أو أكذبه)، قائلا: "وأمَّا من قال: (خير الشِّعر أصدقه)، فقد يجوز أن يُراد به أنَّ خير الشِّعر ما دلَّ على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب به الفضل، وموعظة تُروِّض جِماح الهوى وتبعث على التَّقوى، وتُبيِّن موضع القُبح والحُسن في الأفعال، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخِصال، وقد يُنحى بها نحو الصِّدق في مدح الرِّجال، كما قيل: كان زُهير لا يمدح الرَّجل إلاَّ بما فيه."[5]

ويتجلَّى بوضوح من مقال عبد القاهر اهتمامه بالصِّدق في الشعر كقيمة أخلاقية لا يُمكن تجاهلها أو إغفالها، فخير الشعر ما دعا إلى تلك القيم والفضائل التي تُزيِّن الإنسان وتُرشده وتجعله محمودا بين النَّاس. وسبيل من مال إلى (خيره

---

[1] – الآمدي أبو القاسم الحسن بن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمَّام والبحتري، تح: السيّد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، 1994م، ج2، ص57-58.

[2] – المرجع نفسه، ج1، ص428.

[3] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص53.

[4] – الجرجاني عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص350.

[5] – الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن، أسرار البلاغة في علم البيان، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ص196.

أصدقه)، "كان تركُ الإغراق والمبالغة والتجوُّز إلى التحقيق والتصحيح، واعتماد ما يجري من العقل على أصل صحيح، أحبَّ إليه وآثر عنده، إذْ كان ثمره أحلى، وأثره أبقى، وفائدته أظهر، وحاصله أكثر."[1]

وأمَّا من قال: (خير الشعر أكذبه)، "ذهب إلى أنَّ الصنعة إنَّما تمُدُّ باعها، وتنشر شعاعها، ويتَّسع ميدانها، وتتفرَّع أفنانها، حيث يُعتمد الاتِّساع والتخييل، ويُدَّعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتخيُّل وحيث يُقصد التلطُّف والتأويل ويذهب بالقول مذهب المبالغة والإغراق في المدح والذمِّ والوصف والنَّعت والفخر والمباهاة، وسائر المقاصد والأغراض، وهناك يجد الشاعر سبيلا إلى أن يُبدع ويزيد، ويُبدي في اختراع الصُّور ويُعيد."[2]

كما يستأنس ابن رشيق بقول الحاتمي في الغُلوِّ، فيقول: "وقال الحاتمي: وجدت العلماء بالشِّعر يعيبون على الشاعر أبيات الغلوِّ والإغراق، ويختلفون في استحسانها واستهجانها، ويُعجب بعضٌ منهم بها، وذلك على حسب ما يُوافق طباعه واختياره، ويرى أنَّها من إبداع الشاعر الذي يُوجبُ الفضيلة له، فيقولون: أحسنُ الشِّعر أكذبُه، وأنَّ الغُلوَّ إنَّما يُراد به المبالغة والإفراط، وقالوا إذا أتى الشاعر من الغُلوِّ بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم، فإنَّما يُريد به المثل وبلوغ الغاية في النَّعت، واحتجُّوا بقول النابغة – وقد سُئل: من أشعر النَّاس؟ – فقال: من أُستُجيد كذبه وأضحك رديئه، وقد طعن قوم على هذا المذهب بمنافاته الحقيقة، وأنَّه لا يصحُّ عند التأمُّل والفكرة."[3]

ولـمَّا كان هذا الموضوع من أقدم الموضوعات في النقد العربي القديم، وأكثرها إثارة للجدل، فقد شغل هذا الموضوع حيِّزا غير قليل من اهتمام النقاد القدامى الذين اختلفت نظرتهم حوله، فتحليل القضية في كتب التراث النقدي خلط بين الصِّدق الفنِّي والكذب الفنِّي، وبين الصِّدق والكذب كقيمتين خلقيتين. وفي خضمِّ هذا الخلاف والصراع حول هذه القضية الشائكة والمتعدِّدة الأبعاد، وجدنا من النقاد من جاء بموقف وسط يجمع بين الفريقين، ويُوفِّق بين الرأيين، ويُمثِّل هذا الفريق المرزوقي، الذي عرضه في شرح الحماسة، بعد إيراده الموقفين المتعارضين، وحجَّة كلِّ فريق منهما، ثمَّ قال: "...وبعضهم قال: (أحسن الشِّعر أقصده)؛ لأنَّ على الشاعر أن يُبالغ فيما يصير به القول شعرا فقط، فما استوفى أقسام البراعة والتَّجويد أو جُلَّها، من غير غُلُوٍّ في القول ولا إحالة في المعنى، ولم يُخرج الموصوف إلى أن لا يُؤمَنَ بشيء من أوصافه، لظهور السَّرف في آياته، وشُمُول التَّزيُّد لأقواله، كان بالإيثار والانتخاب أولى."[4]

فالمرزوقي يتبنَّى رأيا وسطا، ساعيا من وراء ذلك إلى إيجاد مقاربة بين الفريقين المتناقضين، وتحقيق موازنة بين طرفي هذه المعادلة النقدية: الصِّدق والكذب، وهذا من خلال إقراره ما أسماه بالقصد في الشعر، أي: خير الشِّعر أقصده.

وبعد هذا كلِّه يأتي ابن رشيق على ذكر بعض أبيات الغُلوِّ، مع تعليقات موجزة منه، ومن ذلك "قول مهلهل:

فلـــولا الـــريحُ أُسْـــمِع مَـــنْ بحُـــجْرٍ صـــــليلَ البِـــيض تُقـــرعُ بالذُّكـــور

---

[1] – الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، ص196.

[2] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[3] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص53.

[4] – المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد، شرح ديوان الحماسة لأبي تمَّام، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ج1، ص12.

وقد قيل: إنَّه أكذب بيت قالته العرب، وبين حُجر وبين مكان الواقعة عشرة أيَّام. ومن الغُلوِّ أيضًا قول أبي نواس:

وأخفْتَ أهْلَ الشّرك حتَّى إنَّه لتخافك النُّطفُ التي لم تُخلقِ

إذ جعل ما لم يُخلق يخافه."[1]، ولكنَّه في استشهاداته يقف مطوَّلا عند المتنبي، ويُفرد له مبحثا خاصا (من غُلوِّ المتنبي)، ويقول فيه: وزعم بعض المتعقِّبين أنَّ الذي كثَّر هذا الباب أبو تمَّام، وتبعه النَّاس بعد، وأين أبو تمَّام ممَّا نحن فيه؟ فإذا صرت إلى أبي الطيِّب صرت إلى أكثر النَّاس غُلوًّا، وأبعدهم فيه همَّة، حتَّى لو قَدَرَ ما أخْلى بيتا واحدا، وحتَّى تبلغ به الحال إلى ما هو عنه غنيٌّ، وله في غيره مندُوحة، كقوله:

يترشَّفن من فمي رشفات هُنَّ فيه أحلى من التَّوحيد

وإن كان له في هذا تأويل ومخرج بجعله التَّوحيد غاية المثل في الحلاوة بفيه. وقوله:

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لمَّا أتى الظلمات صِرْنَ شُموسا

أو كان صادف رأس عازِرَ سيفُه في يوم معركة لأعيا عيسى

أو كان لجُّ البحر مثلَ يمينه ما انشقَّ حتَّى جاز فيه موسى

فما دعاه إلى هذا وفي الكلام عِوضٌ منه بلا تعلُّقٍ عليه؟ فكيف إذا قال:

كأنِّي دَحَوْتُ الأرضَ من خبرتي بها كأنِّي بنى الإسكندر السدَّ من عزمي

فشبَّه نفسه بالخالق، تعالى الله عمَّا يقول الظالمون علوًّا كبيرا، ثمَّ انحطَّ إلى الإسكندر، وربَّما أفسد أبو الطيِّب إغراقه هكذا ونقص منه بما يظنُّه إصلاحا له وزيادة فيه.[2]

فابن رشيق يرى أنَّ إيراد مثل هذه المعاني الفجَّة والطافحة بالتعالي والتجبُّر، حتَّى تصل بغلوِّها إلى ذات الله عزَّ وجلَّ أمر مرفوض ومُنكر لا يُقبل أبدا تحت أيِّ مسمَّى، فحريَّة الشاعر لا تعني أن يُبالغ ويُغالي في المعاني حتَّى يجعل من نفسه نبيًّا مرسلا أو إلها يُعبد من دون الله.

بقي أن نُشير فقط إلى أنَّ ابن رشيق لم تكن هذه المقارنة الأولى التي يعقدها بين أبي الطيَّب المتنبي وبين أبي تمَّام الطائي، فقد عقد مقارنة أو بالأحرى موازنة بينهما في الجزء الأول من الكتاب، ويبدو أنَّ ميله لأبي تمَّام واضحٌ جدًّا لا يحتاج إلى بيان أو استدلال، يقول ابن رشيق في موازنة بين المتنبي والطائي: "وقال بعض من نظر بين أبي تمَّام وأبي الطيِّب: إنَّما حبيب كالقاضي العدل؛ يضع اللفظة موضعها، ويُعطي المعنى حقَّه، بعد طول النظر والبحث عن البيِّنة، أو كالفقيه الورع؛ يتحرَّى في كلامه ويتحرَّج خوفا على دينه. وأبو الطيِّب كالملك الجبَّار؛ يأخذ ما حوله قهرًا وعنوة، أو كالشجاع الجريء، يهجم على ما يُريده لا يُبالي ما لقي، ولا حيث وقع."[3]

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص53-54.

[2] – يُنظر المصدر نفسه، ص54-55.

[3] – نفسه، ج1، ص114.

فتأمَّل ما وصف به ابن رشيق أبا تمَّام، وما وصف به المتنبي، وشتَّان بين الوصفين، فأبو تمَّام شبَّهه بالقاضي العدل الحريص في كلامه، والمتأمِّل طويلا باحثًا عن البيِّنة والدليل، ليكون بذلك حكمه عدلا، لا يجور ولا يضير، أو كفقيه ورع تقيٍّ يتحرَّى الحقَّ ويتحرَّج من الباطل خوفا على دينه. وأمَّا المتنبي فشبَّهه بمَلِكٍ جَبَّارٍ، لا يعرف من المعاملة إلاَّ القهر والقوَّة والغصب، أو كشجاع جريء يهجم ولا يُبالي بما يقع، فهو أقرب إلى المتهوِّر منه إلى الشجاع. وإذا كان الأمر بهذا الوصف فانظر كيف يكون شعر كلِّ واحد منهما؟ وهذا الذي قصده ابن رشيق، فشتَّان بين شعر أبي تمَّام: القاضي العدل أو الفقيه الورع ، وبين أبي الطيِّب: الملك الجبَّار أو الشجاع الجريء المتهوِّر.

وفي نهاية المبحث يُوصي ابن رشيق قائلا: وإذا لم يجد الشاعر بُدًّا من الإغراق –لحبِّه ذلك، ونزوع طبعه إليه– فليكن ذلك منه في الندرة، وبيتا في القصيدة إن أفرط، ولا يجعل هِجِّيراه كما يفعل أبو الطيِّب.[1]، ثمَّ يذكر في مبحث ختامي (أحسن الإغراق)، أي: ما استحسنه النقاد من الإغراق في الشِّعر والكلام عموما، فيقول: "وأحسن الإغراق ما نطق فيه الشاعر أو المتكلِّم بكاد أو ما شاكلها، نحو: كأنَّ ولو ولولا، وما أشبه ذلك ممَّا لم يُناسب أبيات أبي الطيِّب المتقدِّم ذكرها في البشاعة، ألا ترى ما أعجب قول زهير:

لـو كـان يقعُـدُ فـوق الشَّـمس مـن كـرم قـومٌ بأحسـابهم أو مجـدهم قعـدوا

فبلغ ما أراد من الإفراط، وبنى كلامه على صحَّةٍ. وإذا نظرتَ إلى قول أبي صخر:

تكـاد يـدي تنـدى إذا مـا لمسـتُها وينبُـتُ فـي أطرافهـا الـوَرَقُ الـنَّضْرُ

وقول أبي الطيِّب:

عجبـتُ مـن أرضٍ سـحابُ أكُـفِّهم مـن فوقهـا وصُخُـورُها لا تُـورقُ

لم يخفَ عنك وجه الحكم فيهما، على أنَّ في قول أبي الطيِّب بعض الملاحة والمخالفة لطبعه حبّ الإفراط وقلَّة المبالاة فيه؛ إذ كان ممكنا أن يقول: إنَّ الصخور أورقت. ولغة القرآن أفصح اللغات، وأنت تسمع قول الله تعالى: **﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾**، وقوله أيضا: **﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾**، وقوله سبحانه:**﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾**[2]. وفي بداية الكتاب نجد ابن رشيق يبسط الحديث عن الكذب في باب فضل الشِّعر أوَّلا، فيقول في هذا الباب: "ومن فضائله أنَّ الكذب –الذي اجتمع النَّاس على قُبحه– حَسَنٌ فيه، وحسبُك ما حَسَّن الكذبَ، واغتفر له قُبحه. ثمَّ يستدلُّ بقول أحد المتقدِّمين لـمَّا سُئل عن الشعراء، فقال: ما ظنُّك بقوم الاقتصاد محمود إلاَّ منهم، والكذب مذموم إلاَّ فيهم؟ كما أورد اعتذار حسَّان من قوله في الإفك لعائشة **رضي الله عنها** في أبيات مدحها بها:

حَصَـانٌ رَزَانٌ مَـا تُـزَنُّ بريبـةٍ وتُصْـبِحُ غَرْثَـى مِـنْ لُـحُومِ الغَوَافِـلِ

فـإنْ كنـتُ قـد قلـتُ الـذي زعمـتم فـلا رفعـت سـوطي إلـيَّ أنـاملي

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج2، ص54–55.

[2] – يُنظر المصدر نفسه، ص55–56، والآيات على الترتيب: البقرة، الآية20. النور، الآية35. النور، الآية40.

فـــإنَّ الـــذي قـــد قيـــل لـــيس بلائـــطٍ ولكنَّـــــه قـــــولُ امـــــرئ بـــــي ماحـــــلِ

فاعتذر كما تراه مغالطا في شيء نَفَذَ فيه حكم رسول الله ﷺ بالحدِّ، وزعم أنَّ ذلك قول امرئ ماحِلٍ، أي: مُكَايد، فلم يُعاقب لما يرون من استخفاف كذب الشاعر، وأنَّه يُحتجُّ به ولا يُحتجُّ عليه."[1]

وقد يبدو لنا أنَّ هناك خلطا وتناقضا في موقف ابن رشيق، فكيف يرفض الغلوَّ والإفراط من جهة؛ لأنَّه خروج عن الحقِّ والحقائق، وهو في النهاية كذب محض، وبين قوله: أنَّ الكذب من فضائل الشِّعر، وأنَّه قبيح إلاَّ في الشعر فهو حسن فيه. وكأنَّه يقول صراحة بقبول الكذب في الشِّعر. ولتبيين الأمر يجب علينا أن نُذكِّر أولا برأي ابن رشيق في مقولة عمر بن الخطاب ﷺ في زهير ابن أبي سلمى، التي جاء فيها: (...ولا يمدح الرَّجل إلاَّ بما فيه)؛ حيث عقَّب ابن رشيق على كلام عمر بقوله: "لأنَّ عمر إنَّما وصفه بالحذق في صناعته، والصِّدق في منطقه؛ لأنَّه لا يَحْسُنُ في صناعة الشعر أن يُعطى الرَّجل فوق حقِّه من المدح، لئلا يخرج الأمر إلى التنقُّص والإزراء، كما أُخِذ ذلك على أبي الطيِّب وغيره، وقد استحسن عمر الصِّدق لذاته، ولِمَا فيه من مكارم الأخلاق، والمبالغة بخلاف ما وصف."[2]

ويتأكَّد لنا أنَّ ابن رشيق مُعجب أيَّما إعجاب برأي عمر ﷺ ويتبنَّاه لِمَا فيه من صحَّة وصواب؛ فهو يرى أنَّ إعطاء الرَّجل فوق حقِّه من المدح تنقُّصًا وازدراءً، وهذا ليس من الفضائل في شيء، كما يُوضِّح استحسان عمر ﷺ للصِّدق، فكان استحسانه له لذاته كخلق عظيم من أخلاق الإسلام، ولأنَّه أُسُّ المكارم والفضائل كلِّها، وبالتالي فإنَّ الكذب أساس الشرور والمفاسد. وصدق رسول الله ﷺ: حين قال: **«إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»**[3]، ثمَّ إنَّ قناعات ابن رشيق في المبالغة والغُلوِّ تتراوح بين الفنِّي والأخلاقي؛ فهو يُقرِّب لنا مفهومه للكذب باعتباره كذبا فنِّيًا يدعو إلى الصِّدق أو التصديق، ويُوضِّح ذلك من خلال تعقيبه على بيت جرير، الذي يقول فيه:

فإنَّـــك لـــو رأيـــتَ عبيـــدَ تَيْـــم وتَيْـــمًا قلـــتَ: أيُّـــهُمُ العبيـــد

فلو قال (عبيدهم) أو (خيرٌ منهم) لَمَا ظُنَّ به الصِّدق، فاحتال في تقريب المشابهة؛ لأنَّ في قربها لطافة تقع في القلوب وتدعو إلى التَّصديق."[4]، فالكذب الفنِّي غير الكذب الواقعي الذي ينصرف إلى تغيير الحقائق، أو الكذب الذي يكون لمجرَّد الزينة والتخييل المفرط، فكلاهما مستهجن قبيح عند ابن رشيق والكثير من النقاد. أمَّا الكذب الفنيِّ الذي يلجأ إليه الشعراء والأدباء فيُغتفر قبحُه، ولا يُخضع لمعايير المنطق والأخلاق كما يرى ذلك ابن رشيق.

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص20–21، والأبيات في الديوان، ص202–203.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص85.

[3] – مسلم، صحيح مسلم، كتاب البرِّ والصِّلة والآداب، رقم الحديث 2607، ص787. وأخرجه البخاري في كتاب الأدب، رقم الحديث6094، ج3، ص534.

[4] – ابن رشيق، المصدر السابق، ج2، ص46.

وإذا كانت المبالغةُ وَصْفَ الممكن، والغُلوُّ وَصْفَ المستحيل، نفهم لماذا يرفض ابن رشيق الغُلوَّ، ويعتبره من الكذب المحرَّم دينيًّا وخُلُقيًّا – إلاَّ إذا كان من قبيل الإغراق الحسن الذي ذُكر أعلاه – في حين يقبل المبالغة وإن كانت هي الأخرى من الكذب، لكن هذا الكذب هو من الكذب الفنِّي الجمالي المُتجاوز عنه عند كثير من النقاد.

والكذب في الشِّعر قد يُغتفر قبحه –كذلك– إذا جعله الإنسان مادة للاستعطاف والاعتذار ويُتجاوز عن صاحبه إذا اتَّجهت نيَّته إلى الخير. ولهذا ساق ابن رشيق قصة كعب بن زهير مع رسول الله ﷺ وإنشاده قصيدته (بانت سعاد)، واعتذار حسان بن ثابت ممَّا كان منه في حادثة الإفك.[1]، ويكفي من جهة أخرى كما يقول الدكتور بهجت عبد الغفور: "على فرض صحة القول؛ فإنَّنا نشعر من خلال أبياتهما بصدق الإحساس، وهذا هو الأساس عندنا في الصِّدق والكذب في الشعر."[2]

والكذب في الشعر يُستملح كذلك إذا أخرج الصورة إخراجا رائقا، رقيق المعنى، عذب اللفظ، لطيف الموقع في نفس المتلقِّي، ومن هنا جاء ابن رشيق بحديث النبيِّ ﷺ: **«إنَّ من البيانِ لسحرا، وَإنَّ من الشِّعْرِ لِحِكَمًا» وقيل «لِحِكْمَة»**، يعني: أنَّ بعض البيان كالسحر في استمالة القلوب أو في العجز عن الإتيان بمثله، وهذا النوع ممدوح إذا صُرِفَ إلى الحقِّ ومذموم إذا صُرِفَ إلى الباطل، "فقرن البيان بالسحر فصاحة منه ﷺ، وجعل من الشِّعر حكما؛ لأنَّ السِّحر يُخيِّل للإنسان ما لم يكن للطافته وحيلة صاحبه، وكذلك البيان يُتصوَّر فيه الحقُّ بصورة الباطل، والباطل بصورة الحقِّ؛ لرقَّة معناه، ولطف موقعه، وأبلغ البيانين عند العلماء الشِّعر بلا مدافعة."[3]

أمَّا إذا عرَّجنا إلى الأنموذج، فلا نعثر على كثير نماذج تتناول قضية المبالغة والغُلوِّ، كما فعل في كتاب العمدة. ومن هؤلاء الشعراء القلِّة الذين ذكرهم ابن رشيق في الأنموذج، نجد الشاعر ابن قاضي ميلة، الذي قال عنه ابن رشيق: "وله في الشِّعر قدم سابقة ومجال مُتَّسع، وربَّما بلغ الإغراق والتعمُّق إلى فوق الواجب. وهو لَهِجٌ بذلك، مُطالِب له."[4]، كما ينعت طريقة ابن البغدادي، عبد الله بن محمد في الشعر قائلا: "وطريق عبد الله في الشعر خارجة عن طرقات أهل العصر تعاليًا وتغالِيًا."[5]، ويرد لفظ المبالغة في تعليق له على بيتين لعبد العزيز بن خلوف، حيث يقول:

ومن دونها طود من السّمر شامخٌ إلى النَّجم أو بحر من البيض مُتْأقُ

وأسود لا تبدو به النَّار حالكٌ وبيداءُ لا تجتازها الرِّيح سَمْلَقُ

فقال: لا أعلم مثل هذه المبالغة إلاَّ قول الكمُّوني:

---

[1] – يُنظر جمعة حسين، ابن رشيق وآراؤه النقدية في العمدة، ص582.

[2] – عبد الغفور بهجت، الصِّدق والكذب في الشعر، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، دار الحرية للطباعة، العراق، ع25، 1979م، ص425.

[3] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص23.

[4] – ابن رشيق، الأنموذج، ص209.

[5] – المصدر نفسه، ص204.

تأمَّـــلُوا مـــا دهانـــي تُبصـــروا قصصًـــا ظلامُـــها لـــيس يُمشـــى فيـــه بالسُّـــرُج[1]

وفي البيتين مبالغة في وصف شدَّة سواد الليل. كما لمَّح إلى المبالغة عند الشاعر أبي القاسم عبد الرزاق بن علي، فقال: "ويستعمل القوافي العويصة، ويُبعد المرامي تحلُّقًا على المعاني، ولا يكاد يُهمل من التَّصنيع إلاَّ ما أفلته."[2]

أمَّا الشعراء المعتدلون في مواقفهم من المبالغة، الحريصون على الصِّدق في قولهم، فذكر منهم: أبا الطاهر بن الخازن، الذي قال عنه: "وطريقته في الشِّعر طريقة العلماء، يستعمل ما عليه النَّاس، ولا يكاد يُبدع طلبا للحقائق، واتِّباعا للمناهج."[3]، ومنهم عبد الوهاب بن خلف، حيث قال عنه: "هو شاعر متدرِّبٌ حسن المسلك، في اعتدال وقوَّة، غزير الينبوع، قليل التكلُّف والتخلُّف، قد جمع إلى رقَّة المعنى رشاقة اللفظ وقرب المقصد."[4]، ويُعجب ابن رشيق بالشاعر عتيق بن محمد، لأنَّه "شاعر مطبوع، يكره عويص الكلام ويجتنبه. ومن جميل قوله:

تعبـــي راحتـــي وأُنســـي انفـــرادي وشـــفائي الضَّـــنى ونـــومي سُـــهادي

لســـتُ أشـــكو بِعَـــادَ مَـــنْ صـــدَّ عنِّـــي أيُّ بُعْـــدٍ، وقـــد ثـــوى فـــي فُـــؤادي

هـــو يختـــالُ بـــين عينـــي وقلبـــي وهـــو ذاك الـــذي يُـــرى فـــي ســـوادي

ويُعلِّق مُعجبًا بصدق إحساس صاحبها: وأنت تحُسُّ هذه الأنفاس الحارَّة على أيِّ نار انبعثت، ومن أيِّ صدر نفثت."[5]

ونستطيع أن نخلص في الأخير إلى أنَّ ابن رشيق وإنْ كان يُجيز الكذب الفنِّي في المبالغات الممكنة، فإنَّه في الوقت نفسه حريص على الصِّدق بشطريه الفنِّي والخلقي، لأنَّه يرى بعدم إمكانية الفصل بين الفنِّية والخلقية، فالعمل الفنِّي تعبير عن عواطف معيَّنة أو نقلها لها، ولا مريَّة في أنَّ هذه العواطف تحمل في ذاتها مميِّزات خُلقية، كما أنَّ هذا التعبير عن تلك العواطف يُخلِّص النَّفس من ضغوطها فتصفو وتزكو خُلُقيًّا، وهذا ما حرص عليه المسلمون الأوائل إرساءً لهذا المقياس الخلقي والتأكيد عليه، تعبيرا عن روح الدِّين الجديد، الذي جاء يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويُواجه ويقضي على تلك الاتجاهات المنحرفة التي تدعو إلى الضلال والعصبية والممارسات غير الأخلاقية.

8/ المعيار الأخلاقي في أغراض الشعر:

ممَّا هو قمين بالذكر أوَّلًا، أنَّ النُّقاد العرب القدامى لم يحصلْ بينهم توافق وتصورٌ موحَّدٌ حول أغراض الشِّعر، فالتقسيمات والتفريعات مختلفة متباينة من ناقد لآخر، مع تسجيل تقارب أو تطابق في بعض الأحيان بين ناقدين أو أكثر، كما نُسجِّل أيضا الفروق في المصطلحات والتسميات، فنجد أغراض الشِّعر في كتب النقد القديمة تُسمَّى:

---

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص164.

[2] – المصدر نفسه، ص155.

[3] – نفسه، ص82.

[4] – نفسه، ص231.

[5] – نفسه، ص253.

الأغراض، والمعاني، والأقسام، والأركان، والأنواع، والأصناف، والفنون، والمذاهب...، كما نجد النقاد في تقسيماتهم لهذه الأغراض مختلفين في الأسس التي اعتمدوا عليها، وتتمثَّل خاصة في الأساس الفنِّي والأخلاقي وحتَّى العاطفي.

وقد أشار ابن رشيق في العمدة إلى أغراض الشعر إجمالا في الجزء الأول من الكتاب، وتحديدا في بابي (الشعراء والشعر)، و(حدّ الشعر وبنيته). ففي الباب الأول يذكر ابن رشيق مقولة أستاذه عبد الكريم النهشلي الذي يُصنِّف فيها الشعر أربعة أصناف: (فشعر هو خيرٌ كلُّه....)، وهذا التصنيف تناولناه في الفصل السابق مع النهشلي. لكنَّ إيراد ابن رشيق هذه المقولة، ودون تعقيب منه أو ردٍّ يُفهم منه تبنيه لهذا التقسيم والتصنيف للشِّعر، وقد أشرنا إلى الطابع الدِّيني والأخلاقي الذي يكتنزه هذا التصنيف. وفي الباب الثاني، يذكر ابن رشيق بعد بيان حدِّ الشعر، أركانَه، وقواعدَه، وأغراضَه، وهذه التقسيمات كلُّها تشترك في معيار واحد هو المعيار الفنِّي، فيقول عن أركان الشعر: وقال بعض العلماء بهذا الشأن: بُني الشِّعر على أربعة أركان، وهي: المدح، والهجاء، والنَّسيب، والرِّثاء. وعن قواعد الشِّعر، فقالوا: قواعد الشِّعر أربع: الرغبة، والرَّهبة، والطَّرب، والغضب. فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرَّهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطَّرب يكون الشَّوق ورقَّة النَّسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعُّد والعتاب المُوجِعُ. أمَّا عن أغراض الشِّعر، فجاء بتقسيم علي ابن عيسى الرُّماني، الذي يقول: أكثر ما تجري عليه أغراض الشعر خمسة: النَّسيب، والمدح، والهجاء، والفخر، والوصف. ويدخل التشبيه والاستعارة في باب الوصف.[1]

ويأتي بتقسيم النهشلي لأصناف الشِّعر، وهو تصنيف فنِّي، يختلف كلَّ الاختلاف عن التصنيف السابق، حيث يقول: "وقال عبد الكريم: يجمع أصناف الشِّعر أربعة: المديح، والهجاء، والحكمة، واللَّهو. ثمَّ يتفرَّع من كلِّ صنف من ذلك فنون؛ فيكون من المديح المراثي والافتخار والشكر، ويكون من الهجاء الذمُّ والعتاب والاستبطاء، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ، ويكون من اللَّهو الغزل والطَّرد وصفة الخمر والمخمور."[2]

وابن رشيق بعد هذا كلِّه لا يتناول أغراض الشِّعر بصورة مفصَّلة في الجزء الأول من العمدة، إلاَّ أنَّه يعود إلى الحديث عنها بالتفصيل في جزئه الثاني، ففي باب(في أغراض الشِّعر وصنوفه) يُتحفنا ابن رشيق بقصيدتين لأبي العبَّاس الناشئ يُبيِّن فيهما حقيقة الشِّعر ويذكر أغراضه وصنوفه، وسأكتفي بذكر ما رأيتها أجمل وأجود. يقول الناشئ الأكبر:

الشِّـــعرُ مـــا قوَّمـــت زيـــغَ صـــدوره وشَـــدَدْتَ بالتَّهـــذيب أسْـــرَ مُتُونِـــه
ورَأَبْـــتَ بالإطنـــاب شَـــعْبَ صُـــدُوعِه وفتحـــتَ بالإيجـــاز عُـــورَ عُيُونِـــه
وجمعـــتَ بـــين قريبِـــه وبعيـــدِه ووصَـــلْتَ بـــين مَجَمِّـــه ومَعِينِـــه
فـــإذا بكيـــتَ بـــه الـــدِّيارَ وأهلَهـــا أجريْـــتَ للمحـــزون مـــاءَ شُـــؤُونِه
وإذا مـــدحْتَ بـــه جَـــوادًا مَاجِـــدًا وَفَّيتَـــه بالشُّـــكرِ حـــقَّ دُيُونِـــه
أَصْـــفَيْتَه بِنَفِيسِـــه ورَصِـــينِه وخَصَّصْـــتَه بخَطِيـــرِه وثَمِينِـــه

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج1، ص103.
[2] – المصدر نفسه، ج1، ص104.

فيكـــونُ جَـــزْلاً فـــي اتِّســـاقِ صُـــنُوفِه ويكـــونُ سَـــهْلاً فـــي اتِّفـــاقِ فُنُونِـــه
فـــإذَا أرَدْتَ كِنَايـــةً عـــن رُتبَـــةٍ بَايَنْـــتَ بـــين ظُهُـــورِه وبُطُونِـــه
فَجَعَلْـــتَ ســـامعَهُ يشـــوبُ شُـــكُوكَه ببيانِـــه وظُنُونَـــه بيقِينِـــه
وإذَا عَتبْـــتَ علـــى أخٍ فـــي زَلَّـــةٍ أَدْمَجْـــتَ شِـــدَّتَه لـــه فـــي لِينِـــه
فتركتَـــهُ مُستأنسًـــا بدَمَاثَـــةٍ مُستيئِسًـــا لوُعُوثِـــه وخُزُونِـــه
وإذا نَبَـــذْتَ إلـــى التـــي عُلِّقْتَهـــا إنْ صَـــارَمَتْكَ بفَاتِنَـــاتِ شُـــؤُونِه
تَيَّمْتَهَـــا، بِلَطِيفِـــه ودَقِيقِـــه وشَـــغَفْتَها بِخَبِيـــه وكَمِينِـــه
وإذَا اعْتـــذَرْتَ إلـــى أخٍ مـــن زلَّـــةٍ واشـــكت بـــين مَحِيلِـــه ومَبِينِـــه[1]

ويأتي الكلام بعدئذ عن أغراض وصنوف الشعر، مُفردا كلَّ غرض في باب مستقلٍّ، ومن خلال هذه الأبواب يتجلَّى لنا التَّقسيم الذي اعتمده ابن رشيق لأغراض الشعر، ويشمل: (النَّسيب، المديح، الافتخار، الرِّثاء، الاقتضاء والاستنجاز، العِتاب، الوعيد والإنذار، الهجاء، الاعتذار، الوصف).

فابن رشيق قد تناول مختلف أغراض الشعر العربي وفنونه، ومن خلالها أبان عن نظراته وآرائه، والتي لا تخلو من ملامح دينية وأخلاقية، وهو بهذا لا يشذُّ عن معظم نقاد المغرب العربي القديم في توجُّههم هذا التوجُّه، فهم يريدون الشعر الذي يحمل قيمًا وفضائل تُوحِّد وتُقوِّي وتنشر الخير بين النَّاس، وفي هذا يقول محمد مرتاض: "وتكاد آراؤهم مع ذلك تجتمع على الشعر الذي يُوحِّد ولا يُشتِّت، ويُنمِّي سلوكًا حسنًا، أو يبعث في النُّفوس صلابةً، ويدعو إلى البرِّ، ويُصحِّح السُّلوكات، وكانوا يعيبون كثيرًا الأغراض التي تزرع الفتنة، وتُقوِّي الشَّحناء، وتفلُّ العزيمة. من أجل ذلك وقفوا طويلًا إزاء الأغراض الشعريَّة، وأيُّها أصلح للنَّاس من غيره."[2]

وهنا سأقْصُر الدراسة في هذه الأغراض على بيان وتوضيح ما تعلَّق بالمعايير الدِّينية والخلقية، أمَّا المعايير الفنِّية فيها فسوف أتجنَّبها قدر المستطاع؛ حتَّى لا تنحرف الدراسة عن وِجهتها المرسومة لها، ومن هذه الأغراض:

*** النَّسيب:**

النَّسيب من الأغراض الشعرية القديمة التي ارتبطت بمشاعر الإنسان وعواطفه، وهو كما يقول قدامة بن جعفر: "ذِكْرُ الشاعر خَلْقَ النِّساء وأخلاقهنَّ، وتصرُّف أحوال الهوى به معهنَّ."[3]، وقد جرت عادة الشعراء منذ العصر الجاهلي

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص99-100.
[2] – مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص169-170.
[3] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص134.

ابتداء قصائدهم بالنَّسيب، ثمَّ ينتقلون إلى الغرض الذي نظَّموا القصيدة فيه مدحا أو هجاء أو فخرا، أو غير ذلك. والتزموا بهذا التقليد وتمسَّكوا به، حتَّى عدَّوا القصيدة التي لا تُفتتح بالنَّسيب قصيدة بتراء.[1]

وأوَّل ما استهلَّ به ابن رشيق هذا الباب حديثه عن حقِّ النَّسيب، فقال: "حقُّ النَّسيب أن يكون حُلو الألفاظ رسْلَها، قريبَ المعاني سهْلَها، غيرَ كزٍّ ولا غامض، وأن يُختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى، ليِّن الإيثار، رَطْبَ المكسر، شفَّاف الجوهر، يُطربُ الحزين، ويستخفُّ الرَّصين."[2]، فهو يرى أنَّ النَّسيب من الأغراض الأولى في الشعر العربي، لهذا استفتح به جملة الأغراض الشعرية، كما أنَّه لا يرفضه جملة وتفصيلا كما فعل بعض النقاد الذين حذَّروا منه، ونهوا عنه، مثل ابن حزم، الذي قال: "وينبغي أن يُتجنَّب من الشِّعر أربعة أضرب: أحدها: الأغزال والرَّقيق، فإنَّها تحثُّ على الصَّبابة وتدعو إلى الفتنة، وتحضُّ على الفتوَّة وتصرف النَّفس إلى الخلاعة واللَّذات، وتُسهِّل الانهماك في الشطارة والعشق وتنهى عن الحقائق، حتَّى ربما أدَّى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدِّين وتبذير المال في الوجوه الذميمة وإخلاق العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجبات."[3]

ولـمَّا كان النَّسيب يتعلَّق بمشاعر الإنسان وعواطفه، فلا قدرة للإنسان أيًّا كان أن يتجافى عنه أو ينفر منه، فحتَّى الشيوخ والعلماء قد اكتووا بلهيبه. ذكر ابن رشيق "أنَّ راوية كُثيِّر قال: كنتُ مع جرير–وهو يُريد الشَّام– فطرب، وقال: أنشدني لأخي بني مليح، –يعني كُثيِّرًا– فأنشدته حتَّى انتهيتُ إلى قوله:

وأدْنَيْتِنِـــي حتَّـــى إذا مـــا سَـــبَيْتني بِقَـــوْلٍ يُحِـــلُّ الـــعُصْمَ سَـــهْلَ الأبـــاطِحِ

تجافَيْـــتِ عنِّـــي حـــين لا لـــيَ حيلـــةٌ وخلَّفـــتِ مـــا خلَّفـــتِ بـــين الجـــوانحِ

فقال: لولا أنَّه لا يحسُن بشيخ مثلي النَّخير لنخرتُ حتَّى يسمع هشام على سريره. وقيل لأبي السَّائب المخزومي(وهو من قُرَّاء مكة): أترى أحدًا لا يشتهي النَّسيب؟ فقال: أمَّا من يُؤمن بالله واليوم الآخر فلا."[4]

ويشترط ابن رشيق في النَّسيب أن تكون المعاني قريبة سهلة، وغير مستقبحة أو مستكرهة، وأن لا تكون غامضة. وهذا يدلُّك على أنَّه لا يقبل الغزل الفاحش الماجن الذي يتغنَّى بجسد المرأة بشكلٍ صريح، ويصف جسدها ومفاتنها دون خجلٍ. وما يُؤكِّد ذلك مختاراته من المقاطع في هذا الباب، فنجدها كلَّها من الغزل العفيف الذي لا تستحي الفتاة الحيية من إنشاده في ستر أبيها، كما قال نُصيب. ومن ذلك، قول المرار العدوي:

---

[1] – يُنظر الحمداني إبراهيم محمود، المصطلح النقدي في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2014م، ص256.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص100.

[3] – ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي، رسائل ابن حزم الأندلسي رسالة مراتب العلوم، تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ج4، ص67-68.

[4] – ابن رشيق، المرجع السابق، ص100.

وَهْـــيَ هيفـــاءُ هَضِـــيمٌ كشـــحُها فخمـــةٌ حيـــث يُشَـــدُّ المُؤتَـــزَرْ
يُضْـــرَبُ السَّـــبعون فـــي خَلْخَالِـــها فـــإذا مـــا أكْرَهَتْـــهُ يَنْكَسِـــرْ
لا تمَـــسُّ الأرضَ إلا دُونَهـــا عـــن بَـــلاَطِ الأرضِ ثَـــوْبٌ مُنْعَفِـــرْ
تَطَـــأُ الخـــزَّ ولا تُكْرِمُـــه وتُطِيـــلُ الـــذَّيْلَ مِنْـــهُ وتَجُـــرْ
ثـــمَّ تَنْهَـــدُّ علـــى أنماطِهَـــا مثـــلَ مـــا مَـــالَ كَثِيـــبٌ مُنْقَعِـــرْ

ويُورد ابن رشيق قول عبد الكريم النهشلي في هذه الأبيات، حيث قال: هذه أملح وأشرف ما وقع فيه الوصف، وهي أشبه بنساء الملوك. ثمَّ يأتي على تعليقه، فيقول: وأنواع النَّسيب كثيرة، وهذا الذي أنشدته أفضلها في مذاهب المتقدِّمين.[1]

أمَّا المحدثون فلهم طريق غير هذه كثيرة الأنواع أيضا، كما يذكر ابن رشيق، ويختار منها مقاطع لأبي نواس، ومسلم بن الوليد، والبحتري، وأبي تمَّام، والمتنبي. وكلُّها من الغزل العفيف الذي لا يُستَحْيَ من إنشاده. ونختار منها "قول أبي نواس:

حلَّـــت ســـعاد وأهلُهـــا سَـــرَفا قومًـــا عِـــدًى ومحلـــةً قُـــذُفَا
وكـــأنَّ سُـــعدى إذْ تُودِّعُنـــا وقـــد اشْـــرَأبَّ الـــدَّمع أن يكفَـــا
رَشـــأٌ تواصـــين القيـــانُ بـــه حتَّـــى عَقـــدْنَ بأُذنـــه شَـــنفَا

ويقول ابن رشيق معلِّقًا: فإنَّ هذا في غاية الجودة ونهاية الإحسان."[2]، وكذلك الأمر في اختياراته لأغزل بيت، فابن رشيق لم يأت ببيت واحد فيه تفحُّش أو مجون، ومن ذلك أنَّ الأصمعي روى عن أبي عمرو بن العلاء قوله: أغزل بيت قالته العرب قول عمر بن أبي ربيعة:

فتضـــاحكن وقـــد قُلْـــن لهـــا حَسَـــنٌ فـــي كـــلِّ عـــين مـــن تَـــوَدْ

وكان الأصمعي يقول: أغزل بيت قالته العرب قول امرئ القيس:

ومـــا ذرفَـــتْ عينـــاكِ إلاَّ لِتضْـــرِبي بِسَـــهْمَيْكِ فـــي أعشـــار قلـــبٍ مُـــقتَّلِ

وحكى عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك أنَّه قال: لم تقل العرب بيتا أغزل من قول جميل بن معمر:

لكـــلِّ حـــديث بيـــنهُنَّ بشاشـــةٌ وكـــلُّ قتيـــلٍ عنـــدَهُنَّ شـــهيدُ

وفضَّلته بهذا البيت سُكينة بنت الحسين بن علي **رضوان الله عليهم أجمعين**، وأثابته به دون جماعة من حضر من الشعراء.[3]

---

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج2، ص101-102.
[2] – المصدر نفسه، ص102.
[3] – يُنظر نفسه، ص104.

وفي مبحث مستقلٍّ من هذا الباب يذكر ابن رشيق بعض عيوب هذا الغرض، والتي منها العيوب الفنِّية الجمالية، وسوف أتجاوزها، وسأكتفي ببعض ما له علاقة بالأخلاق والعادات والقيم. ومنها ما كان من ابن أبي عتيق لـمَّا سمع قول ابن أبي ربيعة المخزومي:

بينمـــــا ينْعتْنَنـــــي أبْصَـرْنَنـــــي دون قيـــد الميـــل يعـــدُو بـــي الأغَـــرْ
قالـــت الكبـــرى: أتعـــرفْن الفتـــى؟ قالـــت الوســـطى: نعـــم، هـــذا عُمَـــرْ
قالـــت الصـــغرى وقـــد تيَّمتـهـــا قـــد عرفنـــاه، وهـــل يخفـــى القَمَـــرْ

فقال: أنت لم تنسُبْ بهنَّ، وإنَّما نسبْتَ بنفسك، وإنَّما كان ينبغي لك أن تقول: قالتْ لي فقلتُ لها، فوضعتُ خدِّي فوطِئتْ عليه. وكذلك قال له كُثيِّر لـمَّا سمع قوله:

قـالـــتْ لهـــا أختـــها تُعـاتبـــها لا تُفسِـــدَنَّ الطَّـــوافَ فـــي عُمَـــرِ
قومـــي تصـــدَّيْ لـــه لأبـــصرَه ثـــمَّ اغمزيـــه يـــا أُختُ فـــي خَفَـــرِ
قالـــتْ لهـــا: قـــد غمزتـــه فأبـــى ثـــمَّ اسْـــبطَرَّتْ تشتـــدُّ فـــي أَثَـــرِي

أهكذا يُقال للمرأة؟؟ إنَّما تُوصَف بأنَّها مطلوبة ممتنعة. ثم يذكر ابن رشيق قولا يظنُّه لأستاذه عبد الكريم، يقول فيه: العادة عند العرب أنَّ الشاعر هو المتغزِّل المتماوت، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هي الطالبة والراغبة المخاطبة، وهنا دليل كرم النَّحِيزة في العرب وغِيرتها على الحُرَم.[1]

فابن رشيق يرى أنَّ هذا النقد الموجَّه لغزل عمر بن أبي ربيعة قد طوى ملمحا خُلُقيًّا، إذْ أُخِذَ عليه خروجه على قواعد الخُلق العربي في الغزل، وانسلاخه من الأدب والعُرف في حديثه عن المرأة، وامتهانه شأنها، حتَّى لتبدو صورتها فيما يسوقه عنها مبتذلة متقحِّمة، بدل أن تكون عفيفة حييَّة شأن النِّساء الحرائر الشريفات. فعادة العرب في الغزل تحفظ للمرأة كرامتها وعفَّتها، أمَّا ما ورد على لسان ابن أبي ربيعة فهذا من عادة العجم الذين يُهينون المرأة ويحتقرونها.

ومن المعايب التي ذكرها ابن رشيق في النَّسيب أيضا، ما جاء على لسان كُثيِّر لـمَّا سمع قول نُصيب:

أهـــيمُ بدعـــدٍ مـــا حييـــتُ، فـــإنْ أمُـــتْ فيـــا ليـــت شـــعري مَـــن يهـــيم بهـــا بعـــدي

حيث قال له: كأنَّك اغتممتَ لمن يفعل بها بعدك. ومثل هذا ما قاله بعض الكُتَّاب، وقد دخل على علي بن عبد الله بن جعفر وهو محبوسٌ- فقال: أين هذا الجعفريُّ الذي يتديَّثُ في شعره؟ قال علي: فعلمتُ أنَّه يُريدني لقولي:

ولـــمَّا بَـــدَا لـــي أنَّـــها لا تُحبُّنـــي وأنَّ هـواهـــا ليـــس عنِّـــي بِمُنْجَلِـــي
تمنَّيـــتُ أن تهـــوى ســـوايَ، لعلَّـــها تـــذوق صبابـــات الهـــوى فَـــتَرِقَّ لـــي
فمـــا كـــان إلاَّ عـــن قليـــلٍ وأشـــغفتْ بحُـــبِّ غـــزالٍ أدعـــجَ الطَّـــرْفِ أكْحَـــلِ
وعـــذَّبها حتَّـــى أذاب فُـــؤادهـــا وذوَّقـــها طَعْـــمَ الهـــوى والتَّذلُّـــلِ

[1] - يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج2، ص107، والنَّحيزة: الطبيعة.

فقلـــتُ لـــها: هـــذا بهـــذا، فأطْرَقـــتْ حيـــاءً، وقالـــتْ: كـــلُّ مَـــنْ عايَـــبَ أبْتُلِـــي

ويُعاب أيضا ما ناسب قول الآخر، وهو جميل:

فلـــو تركـــتْ عقلـــي معـــي مـــا طلبتُـــها ولكـــنْ طِلابيـــها لِـــمَا فـــات مـــن عقـــلي

لأنَّ الصواب قول عبَّاس أو مسلم:

أبكـــي وقـــد ذهـــب الفُـــؤاد، وإنَّـــما أبكـــي لفَقْـــدِكِ لا لِـفَقْـــدِ الـــذَّاهِبِ[1]

فمثل هذا الغزل يراه ابن رشيق يعكس غياب النَّخوة والرُّجولة عند هؤلاء الشعراء، وقلَّة غَيْرة على المرأة التي يُحبُّونها، وهذا ما لا يرضاه العرب قبل وبعد الإسلام، فأخلاقهم تأبى عليهم ذلك.

ومن معايب النَّسيب أيضا، ما سمَّاه ابن رشيق(الأماني غير المقبولة)، ويذكر قول عزَّة لكُثيِّر: "ما أردْتَ بنا حين قلتَ:

ألا ليتنـــا يـــا عـــزّ كنَّـــا لـــذي غنًـــى بعيـــرين نرعـــى فـــي الخـــلاء ونعـــزُبُ
كِلانَـــا بـــه عَـــرٌّ فَمَـــنْ يَـــرَنَا يَـــقُلْ عَلَـــى حُسْـــنِهَا جَرْبـــاءُ تُعْـــدِي وأَجْـــرَبُ
إذا مَـــا وَرَدْنَـــا مَـــنْهلاً صَـــاحَ أهْلُـــهُ عَلَيْنـــا، فَـــلاَ نَنْـــفَكُّ نُرْمَـــى ونُضْـــرَبُ
نكـــون بعيـــريْ ذي غنًـــى فيُضـــيعنا فـــلا هـــو يرعانـــا ولا نحـــن نُطلـــبُ
يُطرِّدنـــا الرُّعيـــانُ مـــن كـــلِّ تلعـــةٍ ويُمنَـــع منَّـــا أن نُـــرى فيـــه نشـــربُ
وَدِدْتُ وبَيْـــتِ الله أنَّـــكِ بَكْـــرَةٌ هِجَـــانٌ وأنِّـــي مُصْـــعَبٌ ثـــمَّ نَهْـــرُبُ

لقد أردت بنا الشقاء، أمَا وجدت أمنيةً أوطأ من هذه؟! فخرج من عندها خجلاً."[2] وإنما اقتدى بالفرزدق حيث يقول، وهذا من سوء الاتِّباع:

فيـــا ليتَنَـــا كُنَّـــا بعيـــرين لا نَـــرِدْ علـــى مَنْهَـــلٍ إلاَّ نُشَـــالُ ونُـــقْذَفُ
كِلانـــا بـــه عَـــرٌّ يُخَـــافُ قِرافُـــهُ علـــى النَّـــاسِ مَطْلِـــيُّ المسَـــاعِرِ أخْشَـــفُ
بـــأَرْضِ خَـــلاءٍ وحْـــدَنَا وثِيابُـــنا مـــن الزَّيـــطِ والـــدِّيبَاجِ دِرْعٌ ومِلْحَـــفُ
ولا زَادَ إلاَّ فضـــــلتان: سُـــــلافَةٌ وأبْـــيضُ مـــن مَـــاءِ الغَمامَـــةِ قَـــرْقَـــفُ
وأشْـــلاءُ لحْـــمٍ مـــن حُبَـــارى يَصِـــيدُهَا إذا نحـــنُ شِـــئْنَا صَـــاحِبٌ مُتَـــأَلِّفُ
لنـــا مـــا تَـــمنَّينَا مـــن العـــيش مَـــا دَعَـــا هَـــدِيلاً حمامـــاتٌ بِنَعْمـــانَ هُتَّـــفُ

ويعقِّبُ ابن رشيق قائلا: وإذا كان بعيراً فما هذه الأمنية التي كلُّها للحيوان النَّاطق؟ لولا أنَّه ردَّها إلى نفسه حقيقة، وإلا فما أملح الجَمَلَ نَشْوانَ يَصِيدُ الحُبَارى بالبَازي.[3]، فكُثيِّرٌ يتمنَّى لنفسه ومحبوبته عزَّة أماني مستغربة مستهجنة ومنفِّرة، لا يُمكن تصورها أو تقبُّلها، ولا نتصوَّر أنَّها صادرة من شاعر، وأيّ شاعر! وهذه الحالة تستدعي منَّا نقدا

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج2، ص107-108.
[2] – المصدر نفسه، ص109، والأبيات من الدِّيوان، ص161-162.
[3] – يُنظر نفسه، ص109-110، والأبيات من الدّيوان، ص385-386.

نفسيًّا، نقف من خلاله على نفسية الشاعر وندرس الأسباب والظروف التي أوصلته إلى هذه الحالة التي يُرثى لها. ويبدو أنَّ هذه الحالة هي انعكاس للكبْت الذي عاشه الشاعر بسبب الحرمان من محبوبته (عزَّة) بعد أن تزوَّجت ورحلت. فلمَّا عجز عن لقائها والاجتماع بها في واقعه الحقيقي لجأ إلى عالم الخيال ليصنع واقعا آخر يجد فيه نفسه مع من يُحبُّ. فحقَّق مرغوبه واطمأنَّت نفسه، ولو كان ذلك في أبشع صورة وأقذر منظر، لأنَّ هذا المُتخيَّل أو المُتمنَّى هو السبيل الوحيد والملاذ الأخير لتحقيق هذه الغاية.

وهذه الحالة النفسية انعكست سلبا على تفكيره ومشاعره وحتَّى أخلاقه، فأصبح يتمنَّى لها ولنفسه كلَّ مكروه ومذموم وقبيح، كأنَّه هائم في حالة لا وعي ولا شعور من أجل أن يجتمع بمن يُحبُّ. وأيُّ حبٍّ هذا، الذي يتمنَّى فيه المحب لمحبوبته أن تكون حيوانا؟! وليته كان غزالا سارحا في الصحراء أو طيرا سابحا في الفضاء، بل هو جمل أجرب مطرود وممنوع من الشرب حتى لا يُعدي الآخرين، وهذا ما جعله يخرج من عندها خجلا عندما بيَّنت له سوء ما تمنَّاه لهما.

ويتأكَّد التزام ابن رشيق بالمعايير الخلقية في غرض النَّسيب من خلال ما رصدناه من شعر الغزل في كتاب الأنموذج لبعض شعراء القيروان، فهذا أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحُصْري يقول متغزِّلاً:

كَتَمْتُ هَوَاك حتىَّ عِيلَ صَبْرِي ... وَأَذْنَتْنِي مُكَاتَمَتي لِرَمْسِي
ولم أقْدِرْ علَى إخْفَاءِ حَالٍ ... يَحُولُ بهَا الأَسَى دُونَ التَّأَسِّي
وحُبُّك مَالِكٌ لَحْظِي ولَفْظِي ... وإظْهَارِي وإضْمَارِي وَحِسِّي
فإنْ أَنْطِقْ فَفِيك جَمِيعُ نُطْقِي ... وإنْ أَسْكُتْ فَفِيك حَدِيثُ نَفْسِي[1]

وهذا الشاعر إبراهيم بن القاسم المعروف بالرَّقيق النَّديم يقول في الغزل:

رِئْمٌ إذا ما معاريض المُنى خطرتْ ... أجلّه المُتمنِّي عن أمانيه
يا إخوتي أأقاح فيه أقبل لي ... أم خطُّ رائين من مسْكٍ على فيه
أم حسنُ ذاك التَّراخي في تكلُّمه ... أم حسنُ ذاك التَّهادي في تثنِّيه
أم سخطُه أم رضاه أم تجنُّبُه ... أم عطفُه أم نواه أم تدانيه
نفسي فِداك وما لي عنك مصطبرٌ ... يا قاتلي كلُّ معنى من معانيه[2]

ويقول القاسم سلمان بن محمد بن الأبزاري:

ولمَّا التَقَيْنَا بَعْدَ أنْ ظَنَّ حَاسِدٌ ... عَلَى الحُبِّ ألاَّ نَلْتَقِي آخِرَ الدَّهْرِ
بَثَثْنَا شَكَايَا أَنْفُسٍ لم يَكُنْ لَهَا ... عَلَى طُولِ أَيَّامِ التَّفَرُّقِ مِنْ صَبْرِ

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص47.
[2] – المصدر نفسه، ص63.

وَكَـــادَتْ لَـــذَاذَاتُ التَّدَانِـــي لِقُرْبِنَـــا مـــن الوَصْـــلِ أنْ تَقْضِـــيَ عَلَيْنَـــا ولاَ نَـــدْرِي[1]

وكثيرا ما يُظهر الشعراء الاستعطاف والإخلاص والوفاء للمحبوب، والتَّفاني في حبِّه. ومن جميل هذا الغزل ما قاله الشاعر عبد الرحمن بن محمد الفراسي، وهو يشكو هجر محبوبته، ويرجو وصالها، فيقول:

مِسْـــكِينُ هَجْـــرِك أوْ أســـيرُ هَواكَـــا أمســـى وأصـــبح يَرْتَجيـــك عَسَـــاكَا
ضَـــاقَتْ بـــه سَـــعَةُ الـــبلادِ وأمســـكَتْ كَـــفُّ الغَـــرَامِ لقلبِـــه إمْسَـــاكَا
قـــد كـــان مُنقطـــعَ الرَّجـــاءِ فمـــا تـــرى فـــيمَن أضـــرَّ بـــه الهَـــوَى فـــدَعَاكَا
يـــا أيُّهـــا الرَّشَـــأُ الـــذي بِلِحَاظِـــه مـــا زالَ ينصـــبُ للهَـــوَى أشْـــرَاكَا
أَتَـــرَى جَمـــيلاً أن تُعـــذِّبَ فـــي الهـــوى قَلْبـــي، وقـــد عَبَثَـــتْ بـــه عَيْنَاكَـــا
ولقـــدْ عَكَفْـــتُ علـــى هَـــوَاك أُلُومُـــهُ فَأَبَـــى وأقْسَـــمَ: لا يُحـــبُّ سِـــواكَا[2]

وحتَّى في الغزل الحسِّي أو المادّي الذي يعتمد على وصف المرأة وبعض أجزاء جسمها، يُحافظ الشاعر على عفَّة غزله وطهارته، فلا نجد فيه وصفا مُثيرا للشهوات أو تصويرا قبيحا يُستَحْيَ من إنشاده أو سماعه. ومثاله شعر أبي القاسم عبد الرحمن المعروف بابن الخوَّاص الكفيف، حيث يقول:

أَرَاكَ عَيْنَـــيْ كَحِيـــل الطَّـــرْفِ ذِي حَـــوَرٍ ظَبـــيٌ خَـــلاَ أنَّـــه ظَبـــيٌ مـــن البَشَـــرِ
أَغْنَـــى عـــن الغُصْـــن قَـــدًّا بـــالقَوَامِ كَمَـــا أَغْنَـــى بغُرَّتِـــه عـــن طَلْعَـــةِ القَمَـــرِ
يَفْتَـــرُّ عـــن أَشْـــنَب عَـــذْبٍ مَرَاشِـــفُه كالمسْـــكِ نُكْهَتُـــه فـــي سَـــاعَة السَّـــحَرِ
مُسْـــتَمْلَحُ الـــدَلِّ حُلْـــوُ الشَّـــكْلِ مَـــا نَظَـــرتْ إليـــه عـــينٌ فلـــم تُفْـــتَنْ مـــن النَّظَـــرِ
مَـــا كَـــانَ أحْسَـــنَ إذْ تَمَّـــتْ مَحَاسِـــنُه لَـــو تَـــمَّ لـــي منـــه إشْـــفَاقٌ عَلَـــى ضَـــرَرِي
جَـــرَى هَـــوَاه مَجَـــارِي الـــرُّوحِ مِـــن جَسَـــدِي وحَـــلَّ مِنِّـــي مَحَـــلَّ السَّـــمْعِ والبَصَـــرِ[3]

ومن روائع شعر الغزل في الأنموذج كذلك قول الشاعر أبي محمد المعروف بابن قاضي ميله، وهي قصيدة طويلة اخترت منها:

يُـــذيلُ الهَـــوَى دَمْعِـــي وقَلْبِـــي الـــمُعنَّفُ وتَجْنِـــي جُفُـــوني الوَجْـــدَ وهـــو الـــمُكَلَّفُ
ولـــمَّا التَقَيْنَـــا مُحْـــرِمَين وسَـــيْرُنَا بلَبَّيْـــكَ ربَّـــا والرِّكَائِـــبُ تَعْسُـــفُ
نَظَـــرْتُ إليْهَـــا والـــمَطِيُّ كَأنَّمـــا غَوارِبُهـــا مِنْهَـــا مَعَـــاطِسُ رُعَّـــفُ
فَقَالَـــتْ: أَمَـــا مِـــنْكُنَّ مَـــنْ يَعـــرِفُ الفَتَـــى فقـــد رَابَنِـــي مِـــن طُـــولِ مـــا يَتَشَـــوَّفُ
أَرَاهُ إذا سِـــرْنا يَسِـــيرُ حَـــذَاءَنا ونُوقِـــفُ أخْفَـــافَ الـــمَطِيِّ فَيُوقِـــفُ

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص131.
[2] – المصدر نفسه، ص148.
[3] – نفسه، ص153- 154.

فَقُلْـــتُ لِتَربَيْهـــا أبْلِغَاهـــا بـــأنَّني بهَـــا مُسْـــتَهَامٌ قَالَتَـــا نَتَلَطَّـــفُ
وقُـــولا لهَـــا يـــا أمَّ عمـــرو ألـــيس ذا مِنـــىً والـــمُنَى فـــي خِيفِـــه لـــيس يخْلُـــفُ
وفـــي عَرَفَـــات مـــا يخَبِّـــرُ أنَّنـــي بعَارفـــةٍ مـــن عَطْـــفِ قَلْبِـــك أُسْـــعَفُ
وأمَّـــا دمَـــاءُ الهَـــدْي فَهِـــي هُـــدًى لنـــا يـــدومُ ورأْي فـــي الهَـــوى يتَـــألَّفُ
وتقبيـــلُ أركـــانِ البيـــتِ إقْبَـــالُ دَوْلَـــةٍ لنـــا وزَمَـــانٌ بـــالمودَّةِ يَعْطِـــفُ

قال ابن رشيق: لو أنَّ هذا الشعر لمن تقدَّم ذِكرُه كابن أبي ربيعة ومن سلك مسلكه لاستُجيد لهم وذُكِرُوا به وقُدِّم على كثير من أشعارهم ولا عيب له إلاَّ أنَّه مُتأخِّرٌ.[1]، ونقف أيضًا على نموذج رائق رائع في الغزل للشاعر محمد بن سلطان الأقلامي، والتي قال عنها ابن رشيق: ومن أحسن ما رأيتُ له قوله:

مُقْلَـــةٌ إنســـانُها غَـــرِقٌ حشـــوُها التَّســـهيدُ والأرَقُ
وصَـــبَابَاتٌ مُضَـــاعَفَةٌ ودُمُـــوعٌ ثَـــرَّةٌ دُفُـــقُ
وفُـــؤَادٌ لا مُـــقَامَ لَـــهُ فـــي ضُلُـــوعٍ بينهـــا حُـــرقُ
وفَتًـــى أشـــفى علـــى جُـــرُفٍ مـــن هَـــلاكٍ مـــا بـــه رَمَـــقُ
وحشًـــا يســـطو بـــه لهـــبٌ عـــن قَليـــلٍ ســـوف يحتـــرِقُ
وَيْـــحَ أهْـــلِ الحُـــبِّ وَيْحَهُـــمْ ليـــتَ أهـــل الحُـــبِّ مـــا خُلِقُـــوا
يعلـــمُ الواشُـــون ســـرَّهُم وهـــم صَـــمْتٌ ومـــا نَطَقُـــوا
إنَّ أهـــلَ الحُـــبِّ لـــو حَلَفُـــوا إنَّهـــم مـــوتى إذَنْ صَـــدَقُوا
مـــا احْتِيَـــالي فـــي مُخَـــبَّأَةٍ كَهِـــلالٍ ضَمَّـــه الأُفُـــقُ
خُبِّئْـــتَ فـــي رأس شَـــاهِقَةٍ دُونَـــه الـــحُجَّابُ والغَلَـــقُ
دِعْـــصُ رمْـــلٍ فوقـــه غُصـــنٌ يتثنَّـــى مـــا لـــه وَرَقُ

قال صاحب الكتاب: فدونك هذه الألفاظ العذبة الغزلة الرَّائقة التي تلصق بالقلب وتعلق بالنَّفس، وتجري مجرى النَّفس. وهذه طريق الحُذَّاق في التغزُّل خاصة لأنَّ المراد منه استدعاء المحبوب واستعطافه برقَّة الشكوى ولُطف العتاب، وإظهار الغلوب، والإقرار بالغلبة. وقد جمع هذا الشعر فنونا ممَّا ذكرتُ، واشتمل على طائفة ممَّا سمطتُ.[2]

ونختم هذه النَّماذج الحسنة من الغزل، والتي لا تستحي الفتاة من إنشادها أباها، بما قال عنه ابن رشيق: "ومن عجيب ما قيل في هذا الغرض، قول محمد بن عبدون الورَّاق:

أَتُبْصِـــرُ أَمْ أَنْـــتَ لا تُبْصِـــرُ هـــو الحُـــبُّ يَجْـــرِي بِمَـــا يَقْـــدِرُ
تـــذلَّلْ وكُـــنْ خَاضِـــعًا خَاشِـــعًا فَـــذُلُّ الهَـــوَى عِـــزُّك الأكْبَـــرُ

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص210-213.
[2] – المصدر نفسه، ص384-385.

ولا تُنْكِـــــرَنَّ احْتِكَـــــامَ الهَـــــوَى ولا تُنْكِـــــرَنَّ احْتِكَـــــامَ الهَـــــوَى
إذَا عَـــــزَّ دَمْـــــعٌ فـــــأغْرِ الهَـــــوَى بـــــه وابْـــــكِ إنَّ البُكَـــــا أعْـــــذَرُ
أيَـــــا وَاحِـــــدَ الحُسْـــــنِ أَوْحَـــــدْتَنِي لِـــــمَا بـــــي وإنْ كَـــــانَ لـــــي مَعْشَـــــرُ
يُحَـــــامُون دُونـــــي ولكِـــــنْ حِمَـــــى فُـــــؤَادِي أُبِـــــيحَ ولَـــــمْ يَشْـــــعُرُوا
عَزمْـــــتَ بِهَجْـــــرِي وغرَّقْتَنِـــــي بِـــــدَمْعٍ يَفِـــــيضُ ولا يَقْطُـــــرُ
وعَـــــايَنْتَنِي كَيـــــفَ أَشْـــــكُو الهَـــــوَى كَمَـــــا يَشْـــــتَكِي فَقْـــــرَهُ الـــــمُعْسِرُ

ثمَّ يقول: لله خفَّة أنفاس البغداديين النفيسة لم يخنها طبع ولا أعجزتها صنعةٌ، ولو مُزج هذا الكلام بكلام العبَّاس بن الأحنف ظريف الشعراء لامتزج به امتزاج الخمر بالماء والنور بالهواء."[1]

هذه المختارات وغيرها كثير من الغزل والنَّسيب لشعراء القيروان في كتاب الأنموذج تُؤَكِّد أنَّ شعراء المغرب العربي لم يكن معظمهم ماجنين وعابثين في تغزُّلهم بالمرأة، فقد اتَّسم غزل الغالبية منهم بالعفَّة والطهارة، وقد يكون سبب ذلك أنَّ هؤلاء الشعراء على قدر من التديُّن والالتزام بشعائر الإسلام، أو بسبب حداثة الدولة الفاطمية في المغرب العربي، والتي كانت تتظاهر بالحرص على الدِّين.

ومع هذا فإنَّ كتاب الأنموذج لم يخلُ من بعض النَّماذج في الشعر الغزلي الماجن والعابث، وقد رصدنا نموذجين أحدهما للشاعر أبي حبيب عبد الرحمن بن أحمد، حيث يقول:

وإنِّـــي علـــى شـــوقي إليـــه وصـــبوتي أغـــار عليـــه فـــي دُجـــى الليـــل إذْ يســـري
فَبِـــتُّ ودمعـــي مـــزج فـــيض دموعـــه أُقبِّـــلُ مـــا بـــين التَّرائـــب والنَّحـــر
إذا هـــمَّ أن يمضـــي جـــذبتُ بثوبـــه وأطبقـــتُ مـــن خـــوفٍ علـــى مقلتـــي شـــفري
وكـــم ليلـــة هانـــتْ علـــيَّ ذنوبهـــا بمـــا بـــات يروينـــي مـــن الرِّيـــق والخمـــر
أُقبِّـــلُ منـــه الـــوردَ فـــي غيـــر حينـــه وألـــثمُ بـــدر الـــتّمِّ فـــي غيبـــة البـــدْرِ[2]

والنموذج الثاني من شعر الغزل الماجن هو للشاعر عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن الغطَّاس، حيث يقول:

وكـــم ليلـــةٍ قـــد جاذبَـــتْ راحتـــي بهـــا نُهُـــودَ العـــذارى فـــي قمـــيص الـــدُّجى الوَحْـــفِ
وبِـــتُّ يُعـــاطيني العقـــارَ مُهفهـــفٌ هضـــيمُ الحشـــا مخطوفُـــه أهيـــل الـــرِّدْفِ
وأظمـــا فأستســـقي ثنايـــاه ظلمهـــا فتُغنـــي ثنايـــاه عـــن القهـــوة الصِّـــرْفِ
وأعْـــيُنُ دهـــري مغضـــياتٌ علـــى القـــذى وأيَّامُـــه يقطعـــن بـــاللَّهو والقَصْـــفِ[3]

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص393-394.
[2] – المصدر نفسه، ص143.
[3] –نفسه، ص232.

هذه أمثلة الغزل الماجن في الأنموذج، ونجد فيها ذلك الشاعر المستهتر الذي لا تهمُّه إلاَّ لذَّته وشهوته، فيسعى لإشباعها واصفا مجونه وعربدته في تعاطي الخمر والاستمتاع بمحبوبته أو بنهود مجموعة من الفتيات العذارى دون حياء أو خجل، بل وقد هانت على الشاعر الأول حتَّى الذنوب فلم يعد يحسب لها حسابا، أو يُلقي لها بالاً.

وهذا الشعر الماجن والخليع يتنافى مع تعاليم الدِّين والأخلاق الفاضلة. وابن رشيق نفسه يُؤَكِّد على أنَّ الغزل أو النَّسيب يجب أن يكون بعيدا عن المعاني المستقبحة المستكرهة، والغزل كما يراه النقاد ومنهم ابن رشيق هو إلف النِّساء، والتخلُّق بما يُوافقهنَّ، وذِكرُ خَلْقَهنَّ وأخلاقهنَّ، وما يكون من تصرُّف الهوى معهنَّ، ولكن لم يقل أحدٌ هو ذِكرُ الشاعر ما يفعل بمحبوبته في خلوتهما، أو وصفُ ما يكون بينهما، كما كان يفعل امرؤ القيس. ومع هذا فإنَّ مجون هذا الشعر لا يُقاس إذا ما قورن بالغزل الفاحش والماجن الذي كان من لدن شعراء المشرق.

وقريبا من هذا الشعر الماجن والعابث نجد نوعا آخر من الغزل هو التغزُّل بالغلمان، الذي ظهر بداية في المشرق في عهد الدولة العباسية في زمن بذخها وترفها، وكان ظهوره على يد مجموعة من الشعراء عُرفوا بمجونهم وفسقهم، ولعلَّ من أبرزهم أبا نواس، الذي لم يكتَفِ بالتغزُّل الفاحش بالمرأة، بل راح يتغزَّل بالذكور، وعادة ما يكونون غلمانا يافعين، بنفس ذلك الفحش والمجون والخلاعة، وربَّما فضَّل بعض الشعراء الغلمان على المرأة الجميلة الأنيقة المتبرِّجة. وهذه الظاهرة تُعدُّ شذوذا جنسيا، والتي "بدأت كما يقول النويهي في منتصف القرن الثاني الهجري ثمَّ امتدَّ طوفانها بعد ذلك. وقد أُبتُليت الحضارة الإسلامية بهذا الداء الذي ظهر في حضارات أخرى كثيرة حينما وصلت طور نضوجها، وبدأ يتطرَّق إليها الانحلال الخلقي. وأهمُّ الأسباب الدَّاعية إلى ظهور الشذوذ الجنسي اختلاط عدد كبير من الأجناس البشرية المختلفة الأديان والعقائد والعادات والتقاليد."[1]

وأصبحت الظاهرة فعلا مُمارسًا في الواقع الاجتماعي المتفسِّخ من قِبل المُجَّان والفُسَّاق والشَّاذين جنسيا، بتشجيع بطبيعة الحال من هؤلاء الشعراء أمثال أبي نواس والحسين بن الضحاك ووالبة بن الحباب ومسلم بن الوليد ومطيع بن إياس وغيرهم كثير. يقول شوقي ضيف: "والولع بالغلمان كان آفة من آفات هذا العصر، ومن يقرأ الأغاني يُخيَّل إليه أنَّ هذا الولع كان عامًّا بين الشعراء، وكانت دُور اللَّهو تعجُّ بهم، فقلَّما توجد دار لهو دون أن يكون فيها ظبي غرير أو ظبية غريرة بل ظباء مختلفة، ولعلَّنا لا نغلو إذا زعمنا أنَّ ما خلَّفه العصر العباسي من الغزل الشَّاذ بالغلمان يعدل ما خلَّفه من الغزل بالجواري والقيان. وكان الشعراء في هذا الغزل جميعه لا يُعبِّرون غالبا عن عواطف روحية، إنَّما يُعبِّرون عن لذائذ حسِّية مسفَّة."[2]

وسرعان ما انتشر هذا النوع الجديد من الغزل، وكاد يُصبح أمرا مألوفا في المشرق، وسرى في أنحاء البلاد طولا وعرضا سريان النَّار في الهشيم، وانتقل بذلك إلى المغرب العربي وأصبح غرضا من أغراض الشعر الوجداني العربي يتنافس فيه

[1] – هدَّارة محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1963م، ص220.

[2] – ضيف شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص108.

الشعراء ويتسابقون. ومن تلك النماذج في كتاب الأنموذج، قول الشاعر ابن مفرّج، "وكان يعشق غلاما، فأصابت دارَه نارٌ من قِبَل الباب، فاتُّهِم بذلك لكثرة اجتيازه بتلك الناحية، فلم يُنكره، فلمَّا أكثروا عليه وسُئِل كيف القصَّة؟ قال، وهو عندي من أملح الشعر:

لـــمَّا تَمَـــادَى علـــى بِعَـــادِي وأَضْـــرَمَ النَّـــارَ فـــي فُـــؤَادِي
ولـــم أجِـــدْ مـــن هَـــوَاهُ بُـــدًّا ولا مُعينًـــا علـــى السُّـــهَادِ
حَمَلْـــتُ نَفْسِـــي علـــى وُقُـــوفِي بِبَابِـــه حَمْلَـــةَ الـــجَوَادِ
فَطَـــارَ مـــن بَعْـــضِ نَـــارِ قَلْبِـــي أَقَـــلُّ مـــن الوَصْـــفِ مـــن زنَـــادِ
فَـــاحْتَرَقَ البَـــابُ دُونَ عِلْمِـــي ولـــم يَكُـــنْ ذَاكَ مـــن مُـــرَادِي

قال ابن رشيق: هل يكون أعجب من هذا الإقرار، وأظرف من هذا الاعتذار. والملاحة كلُّها في ما دونها من الكلام فضلا عنها.[1]، وممَّا صنعه ابن رشيق في التغزُّل بالغلمان، قوله:

رَضِـــيتُ بحُبِّـــه فـــي كُـــلِّ حَـــالِ ولـــم أَعْطِـــفْ علـــى قِيـــلٍ وقَـــالِ
فَـــلا تـــنقص بلاَمَـــي عارضـــيْه فـــإنَّ الـــلاَّم خَاتمَـــةُ الـــكَمَالِ

وقال أيضا:

غَـــزَا القلـــوبَ غَـــزَالٌ حَجَّـــتْ إليـــه العُيُـــونُ
قـــد خَـــطَّ فـــي الصَّـــدْغِ خطًّـــا وآخِـــرُ الـــحُسْنِ نـــونُ[2]

ويحكي ابن رشيق عنه وعن الشاعر محمد بن حبيب التَّنوخي قائلا: "وكان كثيرا ما يُجالسنا غلامٌ مليحٌ ذو خالٍ تحت لَحْيِه، فنظر إليَّ محمد بن حبيب يوما، وأشار إلى الخال، ثمَّ أطرق ساعةً، ففهمتُ عنه أنَّه يصنع شيئًا. فصنعتُ بيتين وأمسكتُ عنهما خوف الوقوع دونه، فلمَّا رفع رأسه قال: اسمع، وأنشد:

يَقُولُـــونَ لِـــمْ مـــن تحـــتِ صَـــفْحَةِ خَـــدِّهِ تَنَـــزَّلَ خَـــالٌ كـــانَ مَنْزِلَـــهُ الـــخَدُّ
فَقُلْـــتُ: رَأى بَهَـــرَ الـــجَمَالِ فَهَابَـــهُ فَحَـــطَّ خُضُـــوعًا مِثْـــلَ مـــا خَضَـــعَ العَبْـــدُ

فقلتُ: أحسنتَ، أحسنَ الله إليك، ولكن اسمع. قال: أوَ صنعتَ شيئًا؟ قلتُ: نعم، وأنشدتُه:

حَبَّـــذَا الـــخَالُ كَامِنًـــا منـــه بـــين الجِيـــ ـــــدِ والخَـــدِّ رَقْبَـــةً وحـــذَارَا
رَامَ تَقْبِيلَـــه اخْتِلاَسًـــا ولَكِـــنْ خَـــافَ مـــن لَـــحْظِ طَرْفِـــه فَتَـــوَارَى

فقال: فضحتني قطع الله لسانك."[3]، وهذا محمد بن الحسين المعروف بابن ميخائيل القرشي يقول في غلام اسمه عبد الله:

---

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص258-259.
[2] – المصدر نفسه، ص291.
[3] – نفسه، ص372-373.

صُـــوِّرَ عبـــدُ اللهِ مـــن مِسْـــكَةٍ وَصُـــوِّرَ النَّـــاسُ مـــن الطِّـــينِ
أبْدَعَـــهُ الرَّحْمَـــانُ سُـــبْحَانَهُ كَمِثْـــلِ حُـــورِ الجَنَّـــةِ العِـــينِ
مُهَفْهَـــف القـــدِّ هَضِـــيم الحَشَـــا يَكَـــادُ ينْقَـــدُّ مـــن اللِّيـــنِ
كَـــأنَّ فـــي أجْفَانِـــه مُنْتَضَـــى سَـــيْفِ عَلِـــيٍّ يَـــوْمَ صِفِّيـــنِ
فـــي مِثْلِـــهِ يُوصَـــلُ حَبْـــلُ الصِّـــبَا وَتُـــؤْثَرُ الـــدُّنْيَا علـــى الـــدِّينِ[1]

وأمَّا الشاعر محمد بن عطيَّة فقد وصل به الأمر إلى المجاهرة بالمعاصي، ويدعو إلى عدم نهيه وزجره، فهو لا يُداري مجونه، ولا يستحي منه، ولو كان مَن يُحبُّه غلامًا، فيقول في ذلك:

أقِلُّـــوا مـــن مُطَالَبَـــة ازْدِجَـــارِي فَمَـــا أنَـــا فـــي الـــمَجَانَةِ بالـــمُدَارِي
إذا اِتَّسَـــعَ الـــمَلامُ عَلَـــيَّ فِيمَـــا أُحِـــبُّ وأَشْـــتَهِي ضَـــاقَ اصْـــطِبَارِي
وكَيْـــفَ الصَّـــبْرُ عـــن شَـــمْسٍ وغُصْـــنٍ عَلَـــى حِقْـــفٍ تَرَجْـــرَجَ فـــي الإزَارِ
أَقَـــامَ عِـــذَارُهُ للنَّـــاسِ عُـــذْرِي وقَـــدْ أَصْـــبَحْتُ مَخْلُـــوعَ الـــعِذَارِ
فَقَلْبِـــي مـــن غَرَامِـــي فـــي حَرِيـــقٍ وعَيْنِـــي مـــن دُمُـــوعِي فـــي بِحَـــارِ
أَقُـــولُ لَهُـــمْ، وقَـــدْ لاَمُـــوا: دَعُـــونِي وَمَـــنْ أَهْـــوَى وشُـــرْبِي للعُقَـــارِ
إذا عَجَـــلَ الـــمَشِيبُ عَلَـــيَّ ظُلْمًـــا فـــإنِّي لَسْـــتُ أعْجَـــلُ للوَقَـــارِ[2]

ومع هذه النَّماذج القليلة مقارنة بالتغزُّل بالمرأة، إلاَّ أنَّ وجودها في كتاب الأنموذج لدليل على أنَّ لوثة الشذوذ قد أصابت بعض شعراء المغرب العربي وعلى رأسهم صاحب الكتاب ابن رشيق، فله في هذا الكتاب وفي ديوانه الكثير من المقاطع الشعرية في التغزُّل بالغلمان. ووجود هذه الظاهرة في الشعر المغربي دلالة على ذلك الانحراف الديني والخلقي والفطري لدى هؤلاء الشعراء بغضِّ النظر عمَّا إذا كانوا يُجارون ويُحاكون فقط الأغراض الشعرية المعروفة في المشرق العربي، وهذه الأشعار هي من باب التقليد والمحاكاة فحسب، أم أنَّهم كانوا أيضا من الشعراء الماجنين العابثين الذين وجدوا في الغلمان متعة أكثر من النِّساء.

وتجدر الإشارة ههنا إلى أنَّ هذه النماذج المعروضة في التغزُّل بالغلمان لبعض الشعراء المغاربة لا نجد فيها ذلك التفحُّش والإسفاف والخلاعة التي نجدها عند شعراء المشرق، وهذا ما جعل بعض الدارسين يعتقد أنَّ مثل هذا الشعر لا يعدو أن يكون جريا وتقليدا لِمَا هو كائن في المشرق، وبذلك ينفي عن هؤلاء الشعراء صفة المجون والخلاعة، يقول

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص375-376.
[2] – المصدر نفسه، ص396-397.

قلقيلة: "ولعلَّ هذا الشعر أن يكون تقليديًّا من المغاربة للمشارقة على جاري عادتهم، وهو في دلالته على براعتهم مثله في دلالته على براءتهم من الإسفاف الذي استخفَّ أهل المشرق فيه وفي غيره من فنون المجون الأخرى."[1]

وأيًّا كانت الحقيقة، فابن رشيق قد روى هذه الأشعار البعيدة كلّ البعد عن تعاليم الدِّين والخلق القويم، وربَّما ما يشفع له ذلك أنَّه نقل لنا بصدق وأمانة هذه الأغراض الشعرية التي يتداولها شعراء المغرب في عصره بغثِّها وسمينها، وأنَّ هذه النماذج كانت خالية من ذلك الفحش والإسفاف الذي يُستحي منه. ومع هذا نقول أنَّ ابن رشيق لم يُراعِ المعيار الديني والأخلاقي؛ لأنَّ مجرَّد رواية مثل هذا الشعر هو خروج عن تلك القيم والأخلاق والفضائل الدّينية والإنسانية، فمثل هذا الشعر لم يأت به حتَّى شعراء العرب في جاهليتهم الجهلاء. كذلك نقف في الأنموذج على بعض الأشعار الماجنة التي لا تدخل ضمن الغزل أو الهجاء، وإنَّما هي أشعار عامة تتَّسم بالخلاعة والفسق، وإن كانت تميل إلى الدُّعابة والعبث، لكنها تحمل ألفاظا نابية ومعاني قبيحة، من ذلك ما ذكره ابن رشيق عن الشاعر عبد الرحمن بن محمد الفراسي؛ حيث كان يوما جالسا إلى بعض شيوخ تونس، وكان نهاية في المجون، فاجتاز بهما رجلٌ يسأل عن دار ابن عبدون، فقال له الشيخ: هي تلك الرائقة حيث يقوم أيرك، فقال الفراسي: والله لأنظمنَّه فما رأيت كهذا المعنى. وقال من ساعته:

إنْ شئتَ أن تعرفَ عن صحَّةٍ دارَ التي تُعزى لِعبدُونِه

فامْشِ فإنْ أيرك أبصرته قام فإنَّ البابَ من دُونِه[2]

ومن أعابيث أبي الحسن محمد بن أحمد الصَّرائري قوله في بعض أحداث بني زرت:

يا سيِّد النَّاس من بني زرتِ أُحبُّ لو نِمتَ ساعةً تحتي

ولا تَخَفْنِي فإنَّ عيني ما تراك إلاَّ كما ترى أختي[3]

وكان محمد بن عبد الله الضرير يُعلِّم الصِّبيان، يقول عنه ابن رشيق: رأيته في المكتب يومًا طافحا، وهو يقول للصبيان:

يا فِراخَ المزابل ونِتاج الأراذل

اقرؤوا لا قرأتم غير سحر وباطل

روَّح الله عنكم عاجلا غير آجل[4]

فهذه النَّماذج من الشعر الماجن والخليع، وإن كانت قليلة فهي تتنافى والدور التربوي والخلقي للشعر الذي أكَّد عليه ابن رشيق في عمدته في أكثر من موضع، فمثل هذا الشعر ينسف فضائل الشعر ودوره الخلقي من الأساس، فابن رشيق لم يكترث للقيم والفضائل والأخلاق في رواية مثل هذا الشعر، وبالتالي فالمعيار الخلقي ها هنا غائب تماما. وابن رشيق

[1] – قلقيلة عبدة عبد العزيز، البلاط الأدبي للمعزّ بن باديس دراسة أدبية نقدية، دار جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية، دط، 1983م، ص244.

[2] – ابن رشيق، الأنموذج، ص149-150.

[3] – المصدر نفسه، ص357.

[4] – نفسه ، ص388.

لم يكن على خطٍّ واحد في التزامه بالمعيار الخلقي في نقده، ونلاحظ تذبذبا واضطرابا في تطبيقه، ولعلَّ هذا الاضطراب في الالتزام بالنقد الخلقي والدِّيني عند الناقد ابن رشيق هو صورة وانعكاس لذلك الاضطراب أيضا من بعض الشعراء في حياتهم بصفة عامة، فقد روى لنا ابن رشيق عن الشاعر عتيق بن محمد الورَّاق قائلا: "دخلتُ الجامع في بعض الجُمع فوجدتُه في حَلْقَة يقرأ الرَّقائق والمواعظ ويذكر أخبار السَّلف الصَّالحين ومَن بعدهم من التَّابعين، وقد بدا خشوعه، وترقرت دموعُه، فما كان إلاَّ أن جئته عشيَّة ذلك اليوم إلى داره فوجدته وفي يده طنبورٌ وعن يمينه غلامٌ مليح وقدَّامه شرابٌ، فقلتُ له: ما أبعد ما بين حاليك في مجلسيك؟ فقال: ذاك بيتُ الله. وهذا بيتي أصنع في كلٍّ واحد منهما ما يليق به وبصاحبه. فأمسكتُ عنه."[1]، فإمساك ابن رشيق عن الشاعر ليس بالضرورة اقتناعه بكلامه، ولكن أردنا من خلال هذه المقارنة أن نتبيَّن أنَّ الالتزام الدِّيني والخلقي عند الشعراء خاصة في هذه الفترة كان متذبذبا إن لم نقل كان ضعيفا، فانعكس ذلك على النقد، فنراه تارة حاضرا وبقوَّة، وتارة غائبا تماما.

*** المـدح:**

ذكر ابن منظور في اللِّسان:"المدح نقيض الهجاء، وهو حُسن الثَّناء"[2]، وفي الاصطلاح:"هو غرض من أغراض الشعر، يقوم على فنِّ الثَّناء، وتَعداد مناقب الإنسان الحيّ، وإظهار آلائه، وإشاعة محامده وفِعاله التي خلقها الله فيه بالفطرة، والتي اكتسبها اكتسابًا، والتي يتوهَّمها الشاعر فيه."[3]

ويُعدُّ المديح من الأغراض الشعرية القديمة التي عرفها الشعر العربي؛ ذلك أنَّه إذا رجعنا إلى دواوين الشعر الجاهلي وجدنا المدح يحتلُّ حيِّزا كبيرا من هذه الدواوين، وهذا دليلٌ على أنَّه غرضٌ مُقدَّم على غيره عند الشعراء. ولعلَّ من أبرز دوافع المدح الأصيلة خاصة في العصر الجاهلي، نجد إعجاب المادح بالممدوح، كإعجاب زهير بن أبي سلمى بالحارث بن عوف وهرم بن سنان، أو شكر المادح الممدوح، كما فعل امرؤ القيس مع بني تيم رهط المُعلَّى. "ثمَّ تطوَّرت الدوافع، وطغى حبُّ المال على المدح والمادح، وأضاف هذا الطغيان إلى الدافع الأصيل النَّبيل دافعًا طارئًا، هو التكسُّب. ثمَّ زاحم الدَّافعُ الطارئُ الدَّافعَ الأصيلَ حتَّى كاد يُلغيه، وصار الشعراء يتكسَّبون بالمدح، لا يبعثهم على نظمه حبٌّ لمن يمدحون، بل طمعٌ فيما يربحون."[4]

وبديهي أن يكون لشعر المديح صلة وثيقة بالأخلاق والفضائل؛ فالشاعر يسعى من خلال قصيدته المدحية إلى إبراز المزايا الفاضلة، والسِّمات الحسنة، والصفات الطيِّبة التي يتحلَّى بها ممدوحه، وإن لم يكن ممدوحه متَّصِفًا بهذه الخلال حاول أن يُسبغه بها. "وقد كان همُّ المادحين في أكثر مدائحهم للرؤساء والحُكَّام أن يُجسِّموا الصفات الطيِّبة والمزايا الرَّفيعة والأخلاق السَّامية، أو أن يخترعوها ويُلصقوها بالممدوحين ليربحوا في حلبة المديح، وليرفعوا لواء الممدوح بين

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص255.
[2] – ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص589.
[3] – طليمات والأشقر، الأدب الجاهلي، ص160.
[4] – المرجع نفسه، ص161.

النَّاس."[1]، ويضع لنا شوقي ضيف تفسيرا وتعليلا لذلك، فيقول: "وقد يكون الخليفة سيء السلوك مثل الأمين، ولكنَّ الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الكريمة للخلفاء؛ لأنَّهم لا يمدحونه من حيث هو، وإنَّما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم، وكأنَّما يريدون أن يرفعوا أمام عينه الشعارات التي تطلبها الأمَّة في خليفتها وراعيها لعلَّه يثوب إلى طريق الرَّشاد."[2]، وهذا الكلام لا يصدُق مع كلِّ الشعراء؛ فهناك الكثير منهم مَن كان مديحهم تزلُّفًا وكذبًا وتملُّقًا لغاية خسيسة في أنفسهم، وغالبا ما تكون الطَّمَعَ في المال والجاه. وهذا ما جعل النقاد يُقسِّمون شعر المدح إلى قسمين:

1- مدح طمع: وهو مدح تكسُّبي، والمادح -دون شكٍّ- كاذبٌ فيه؛ لأنَّ هدفه هو الحصول على المال والمتاع والحظوة، ولا سبيل لذلك إلاَّ بالكذب والمبالغة والتملُّق، وإسباغ ممدوحه بصفات ليست فيه. لهذا وجدنا من الشعراء مَن امتنع عن قول شعر المديح، فهذا عَبيد بن الأبرص يقول:

مَـــــنْ يســـــأل النَّـــــاسَ يَحْرِمُـــــوه وسائـــــــــــلُ الله لا يَخِيـــــــــــبُ[3]

وقال آخرٌ:

وإنِّـــي امـــرؤٌ لا أســـأل النَّـــاسَ مـــالَهُمْ بشِـــعْري ولا تَعْيَـــا علـــيَّ المكاســـبُ[4]

وكذا نجد من النقاد من نفَّر من شعر المديح؛ لأنَّه -في الغالب- مدعاة للكذب، يقول ابن حزم: "ثمَّ صنفان من الشِّعر لا يُنهى عنهما نهيًّا تامًّا ولا يُحضُّ عليهما، بل هما عندنا من المُباح المكروه، وهما: المدح والرِّثاء، فأمَّا إباحتهما فَلِأنَّ فيهما ذكر فضائل الميِّت والممدوح، وهذا يقتضي للراوي ذلك الشعر الرغبة في مثل ذلك الحال، وأمَّا كراهيتنا فإنَّ أكثر ما في هذين النوعين الكذب، ولا خير في الكذب."[5]

2- مدح إعجاب: وهو المدح الذي يُثير عاطفة المادح ونرى تأثُّره الواضح بأخلاق الممدوح محاولًا إبرازها لتشيع بين الناس، والشِّعر هنا يصدر عن شعور صادق خالص، لا تملُّق فيه ولا تزلُّف. وهذا المدح يكون نتيجة إعجاب المادح بأخلاق الممدوح وأفعاله، والتي يرى فيها الشاعر قدوة له ولغيره، فيُحاول إبرازها وإظهارها، وذلك لاعتبارين: أنَّ الممدوح أهل لهذا الثناء والشكر والمدح لِمَا اتَّصف به أو فعله، ولإشاعة ذلك بين النَّاس ليكون قدوة لغيره، فيتنافس النَّاس في القيام بتلك الأعمال، والتحلِّي بتلك الفضائل. وحامل لواء هذا النوع من المدح في الجاهلية هو شاعر الحكمة زهير بن أبي سلمى، وهو نفسه قد ازدرى التكسُّب بالشعر، إذ رأى فيه منقصة ومذلَّة للشاعر، فأنِفَ منه، حيث قال:

سَأَلْنَـــا فَأَعْطَيْتُـــمْ وَعُـــدْنَا فَعُدْتُـــمُ وَمَـــنْ يُكْثِـــرِ التِّسْـــآلَ يَوْمًـــا سَيُحْـــرَمِ[6]

---

[1] – الدَّهان سامي، المديح، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، 1992م، ص6.

[2] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي- العصر العباسي الأول، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط16، 2004م، ج3، ص161.

[3] – عبيد بن الأبرص، الديوان، تح: حسين نصَّار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط1، 1957م، ص15.

[4] – النهشلي، الممتع في علم الشعر، ص198.

[5] – ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي(رسالة مراتب العلوم)، ج4، ص68.

[6] – زهير بن أبي سلمى، الدِّيوان، ص112.

ولا يختلف اثنان في أنَّ هذا النوع من المدح، ونعني به مدح الإعجاب، هو الوجه المشرق والجميل لغرض المدح، فالمادح وهو يرسم صورة ممدوحه لا يكتفي بوصف الصفات التي يراها فيه، بل يتعدَّاها إلى صفات أخرى يودُّ أن تكون فيه، لأنَّه يُريد أن يُجسِّد صورة رجل يكون مثلاً أعلى يُحتذى به في أخلاقه وأعماله، ومن هذا المنطلق يُصبح هذا النَّمط من الشعر أسلوبًا ناجعًا في التربية والتوجيه، "يُلقِّن الناشئة الفضيلة، ويبثُّ فيهم روح السَّخاء والإباء، ويحثُّهم على العفَّة والأنفة، ويُرغِّبهم في الشجاعة والتَّضحية، ويشقُّ لهم سُبل المجد، ويبعثهم على العمل الذي يُرضي المجتمع كلَّه، لا العمل الذي يُشبع شهوات الأفراد. وربَّما كان الأقدمون أصحَّ إدراكًا لطبيعة المدح، وأقدرَ على فهم وظيفته التربوية، إذ اعتقدوا أنَّ في الممدوح أسوة وقدوة، وأنَّ الفضيلة بمفهومها النظري المجرَّد عاجزة عن التَّرغيب في الخير. أمَّا الفضيلة الحيَّة في ممدوح حيٍّ فإنَّها الدافع الأوَّل إلى جلائل الأعمال، وأمَّا الممدوحون فإنَّهم وحدهم الجديرون بالخلود، والميِّتُ الحقيقي مَنْ دُثِرَ ذكرُه بدثور جسده. قال يزيد الحارثي:

وإذَا الفَتَـــى لاقَـــى الحِمَـــامَ رَأيْتَـــهُ لَـــوْلَا الثَّنَـــاءُ كَأنَّـــه لَـــمْ يُولَـــدِ

وآية ذلك أنَّ غطفان أنجبت آلاف الكرماء والفرسان، ولم يخلد منهم إلاَّ اثنان: الحارث بن عوف وهرم بن سنان، لم يُخلِّدهما دفعهما ديات القتلى فحسب، بل خلَّدهما مدح زهير وتغنِّيه بفضائلهما."[1]

أمَّا إذا نظرنا إلى المدح من زاوية دينية بشيء من التَّفصيل والتعمُّق فإنَّنا سنجد بعض الاختلاف في آراء العلماء للمدح، وهذا تبعا لتباين فهم النقاد للأحاديث النبوية الشريفة الواردة في المدح عامة سواء كان شعرًا أو نثرًا. جاء في كتاب الأذكار: "أنَّ مدح الإنسان والثناء عليه بجميل صفاته قد يكون في وجه الممدوح، وقد يكون بغير حضوره، فأمَّا الذي في غير حضوره فلا مانع منه إلاَّ أن يُجازف المادح ويدخل في الكذب، فيحرم عليه بسبب الكذب لا لكونه مدحًا، ويُستحبُّ هذا المدح الذي لا كذب فيه إذا ترتَّب عليه مصلحة ولم يجرَّ إلى مفسدة بأن يبلغ الممدوح فيُفتن به، أو غير ذلك. وأمَّا المدح في وجه الممدوح فقد جاءت فيه أحاديث تقتضي إباحته أو استحبابه، وأحاديث تقتضي المنع منه."[2]، وهذه الأحاديث الشريفة سواء تقتضي إباحة المدح أو منعه دليل على عِظَمِ تأثير المدح على الفرد والجماعة سلبا وإيجابا، وبيان أنَّ أثره يلحق المادح كما يلحق الممدوح، وهذا ما جعل الكثير من علماء الحديث يُخصِّصون له بابا مستقلاًّ؛ فالإمام مسلم مثلا في صحيحه وفي كتاب الزهد والرَّقائق، يُفرد بابا سمَّاه (باب النَّهي عن المدح إذا كان في إفراطٍ، وخِيفَ منه فتنة على الممدوح)، ويُورد الكثير من الأحاديث في ذلك، منها أنَّ النبيَّ ﷺ سمع رجلا يُثني على رجل ويُطريه في المِدْحَة، فقال: **«لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ»**[3]، وروى همَّام بن الحارث أنَّ رجلا جعل يمدح عثمان

---

[1] – طليمات والأشقر، الأدب الجاهلي، ص163.

[2] – النَّووي أبو زكريا محي الدين يحي بن شرف الدمشقي، الأذكار المُنتخبة من كلام سيِّد الأبرارﷺ، تح: أحمد عبد الله جابور، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، ط1، 1988م، ص350.

[3] – مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، رقم الحديث3001، ص896.

فَعَمِدَ المقداد فجثا على ركبتيه، فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان ما شأنُك؟ فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ المَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ»[1].

أمَّا الأحاديث التي تُبيح المدح فهي كثيرة، ويكفي أن نُشير فقط إلى استماع النبيِّ ﷺ إلى قصائد بعض الصحابة رضي الله عنهم في مدحه، ومنهم حسَّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وهؤلاء الثلاثة لُقِّبوا بشعراء الرسول ﷺ؛ لأنَّهم دافعوا عنه وتصدوا للشعراء الكفار، وفي نفس الوقت فقد مدحوا الرسول ﷺ وأثنوا عليه في كثير من أشعارهم، وكان الرسول ﷺ يستمع إليهم، وإلى غيرهم، ويدعو لهم ويُجازيهم في بعض الأحيان، كما فعل مع كعب بن زهير حيث أعطاه بردته الشريفة. وهذا من السنَّة العملية، فقد استمع الرسول ﷺ لشعر المدح وأثاب عليه. كذلك إشادة النبيِّ ﷺ ببعض أصحابه وذكر أفضالهم عليه وعلى الإسلام يدخل أيضا ضمن المدح، وخاصة إشادته وثناؤه على أبي بكر الصدِّيق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وغيرهما من الصحابة.

والمديح كغيره من الأغراض الشعرية؛ لقي اهتمام النقاد والبلاغيين العرب منذ القديم، وعدَّوه من الأركان الأربعة التي بُني عليها الشِّعر، والتي هي: المدح والهجاء والنَّسيب والرثاء. بل هناك مَن حصر الشِّعر كلَّه في نوعين: مدحٌ وهجاءٌ.[2]

وأوَّل ما يستهلُّ به ابن رشيق باب المديح هو(سبيل الشاعر في المدح)، فيقول: "وسبيل الشاعر-إذا مدح ملكًا-أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح، وأن يجعل معانيه جَزْلة، وألفاظه نقية، غير مبتذلة سوقية، ويجتنب – مع ذلك- التَّقصير والتجاوز والتطويل؛ فإنَّ للملك سآمة وضجرا، ربَّما عاب من أجلها ما لا يُعاب، وحَرَم من لا يُريد حرمانه."[3]

وتخصيص ابن رشيق الحديث عن مدح الملوك معلوم السبب؛ فأكثر شعر المديح مُوجَّه للملوك والأمراء وسادة القوم. ثمَّ بيَّن ابن رشيق بعض العيوب التي يقع فيها الشعراء في مدح الملوك، ومنها: أنَّه لا يجب أن يُمدح الملك ببعض ما يتَّجه في غيره من الرؤساء، وإن كان فضيلة. وذلك مثل قول البحتري يمدح المعتزَّ بالله:

لا العَـــذْلُ يردعُـــه ولا التَّـــــــــــ ـــعنيـــــفُ عـــــن كـــــرمٍ يَصُـــــدُّهُ

فإنَّه ممَّا أنكره عليه أبو العبَّاس أحمد بن عبد الله، وقال: مَنْ ذا يُعنِّفُ الخليفة على الكرم أو يصدُّه؟ هذا بالهجاء أَوْلَى منه بالمدح. وعِيبَ على الأخطل قوله في عبد الملك بن مروان:

وقـــــد جعـــــل اللهُ الخـــــلافة منهـــــم لأبـــيض لا عـــاري الخِـــوان ولا جَـــدْبِ

وقالوا: لو مُدِحَ بها حَرَسِيًّا لكان قد قصَّر به. كما عابوا على الأحوص قوله للملك:

وأراك تفعـــــل مـــــا تقـــــول، وبعضـــــهم مَـــــذِقُ الحـــــديث يقـــــول مـــــا لا يفعـــــل

---

[1] – مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، رقم الحديث3002، ص896.

[2] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج1، ص103-104.

[3] – المصدر نفسه، ج2، ص110-111.

ثم يقول ابن رشيق معلِّقًا على ما جاء في هذه الأبيات: إنَّ الملوك لا تُمدح بما يلزمها فعلُه كما تُمدح العامة، وإنَّما تُمدح بالإغراق والتفضيل بما لا يتَّسع غيرهم لبذله.[1]، ويعضد هذا الكلام ويُؤيِّده ما قاله القرطاجنِّي: "فأمَّا مدح الخلفاء فيكون بأفضل ما يتفرَّع عن تلك الفضائل وأجلِّها وأكملها كنصر الدِّين وإفاضة العدل وحسن السيرة والسياسة والعلم والحلم والتُّقى والورع والرأفة والرحمة والكرم والهيبة وما أشبه ذلك. وينبغي أن يتخطَّى في أوصافهم من جميع ذلك حدود الاقتصاد إلى حدود الإفراط، وأن يترقَّى عن وصفهم بفعال ما يكون حقًّا واجبا إلى تقريظهم بما يكون من ذلك نافلة وفضلا."[2]

كما بيَّن ابن رشيق ما يُمدح به بعض السَّادة والقادة، فيُمدحون بحسن الرويَّة، وسرعة الخاطر بالصواب، وشدَّة الحزم، وقلَّة الغفلة، وجودة النَّظر للخليفة، والنيابة عنه في المُعضلات بالرأي أو بالذَّات، وبأنَّه محمود السِّيرة، حسن السياسة، لطيف الحسِّ، فإن أُضيف إلى ذلك: البلاغة، والخط، والتفنُّن في العلم، كان غاية. والقادة يُمدحون بالجود والشجاعة، وما تفرَّع منهما، نحو التخرُّق في الهيئات، والإفراط في النَّجدة، وسرعة البطش، وما شاكل ذلك. ويُمدح القضاة بما يُناسب العدل والإنصاف، وتقريب البعيد في الحقِّ، وتبعيد القريب، والأخذ للضعيف من القويِّ، والمساواة بين الفقير والغنيِّ، وانبساط الوجه، ولين الجانب، وقلة المبالاة في إقامة الحدود واستخراج الحقوق، فإن زاد إلى ذلك ذكر الورع، والتحرُّج، وما شاكلهما، فقد بلغ النهاية.[3]

ومن العيوب أيضا أن لا يأتي الشاعر على ذكر شيء يُنغِّص به على الممدوح لذَّته ومتعته. "رُوِي عن بعض الملوك أنَّه قال: ما لهؤلاء الشعراء قاتلهم الله، ربَّما ذكَّرونا شيئا نحن أكثر ذِكْرًا له منهم، فيُنغِّصون به علينا أوقات لذَّتنا!!؟ يعني بذلك الموت. ومن أشنع ما في ذلك قول أبي تمَّام:

فلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ في طُو سَ مُقِيمًا بِهَا لَمَاتَ غَرِيبَا

فما الذي دعاه إلى ذكر الموت ههنا إلاَّ النَّكد والنَّغاصة؟"[4]

ويبرز المعيار الأخلاقي في غرض المدح من خلال هذه العيوب متمثِّلا في وجوب مراعاة بعض الآداب في مخاطبة الملوك، ولو كان ذلك شعرا وفي معرض المدح، فللملوك مكانة ومنزلة يجب أن تُراعى، ومخاطبتهم ليست كمخاطبة عامة النَّاس، فلكلٍّ منزلته. والملوك تُحبُّ المبالغة والإغراق في المدح، لذا كان لزاما على الشاعر أن يعرف كيف يُخاطب الملوك، ويتحاشى ما يُفسد صَفْوَ يومهم، ويُعكِّر مِزاجَهم. رُوِيَ "أنَّ النعمان بن المنذر رأى شجرة ظليلة ملتفَّة الأغصان، في مرج حسن كثير الشقائق، وكان مُعجبا بها، وإليه أُضيفت (شقائق النعمان)، فنزل وأمر بالطعام والشَّراب فأُحْضِرَ،

---

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج2، ص111-112.

[2] – حازم القرطاجنِّي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص170.

[3] – يُنظر ابن رشيق، المصدر السابق، ج2، ص116.

[4] – المصدر نفسه، ص117.

وجلس للذَّاته، فقال عدي بن زيد العباديّ وكان كاتبه: أتعرف أبَيْتَ اللَّعنَ ما تقول هذه الشجرة؟ فقال: وما تقول؟ قال: تقول:

رُبَّ رَكْـــبٍ قـــد أنَـــاخُوا عِنْـــدَنا يَشـــرَبُونَ الخَمْـــرَ بالمـــاء الـــزُّلالْ
ثُـــمَّ أضْـــحَوا أخْنَـــعَ الـــدَّهرُ بهـــم وكَـــذَاكَ الـــدَّهرُ يُـــودِي بالجِبَـــالْ
وكَـــذَاكَ الـــدَّهرُ يرمِـــي بـــالفَتَى فـــي طِـــلاَبِ العَـــيْشِ حَـــالاً بعـــد حَـــالْ
مَـــنْ رَآنَـــا فَلْيُحَـــدِّثْ نَفْسَـــه أنَّـــه مُـــوفٍ علـــى قَـــرْنِ زَوَالْ[1]

كأنَّه قصد موعظته، فتنغَّص عليه ما كان فيه، وأمر بالطعام والشراب فَرُفِعَا من بين يديه، وارتحل من فوره، ولم ينتفع بنفسه بقيَّة يومه وليلته، وكانا جميعا نصرانيين، فهذا شأن الملوك قديمًا وحديثًا."[2]

ويذكر ابن رشيق في باب(المبدأ والخروج والنهاية) أنَّه "قيل لبعض الحُذَّاق بصناعة الشعر: لقد طار اسمك واشتهر، فقال: لأنِّي أقللتُ الحزَّ، وطبَّقتُ المَفْصِلَ، وأصبتُ مقاتل الكلام، وقرطستُ نُكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم ولُطف الخروج إلى المدح والهجاء."[3]، ويُعلِّق ابن رشيق على هذا الكلام قائلا: "وقد صدق، لأنَّ حُسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطيَّة النَّجاح، ولطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام أبقى في السَّمع، وألصق بالنَّفس. وإنَّ الشعر قُفلٌ أوَّله مفتاحه، وينبغي للشاعر أن يُجوِّد ابتداء شعره؛ فإنَّه أوَّل ما يقرع السَّمع، وبه يُستدلُّ على ما عنده من أوَّل وهلةٍ."[4]

وحسن الافتتاح يكون لفظًا ومعنًى؛ فيتخيَّر الشاعر اللفظ الحسن الذي يُفهم منه المعنى الحسن أيضا. فحسن الافتتاح مدعاة لانشراح الممدوح ونجاح المادح، لهذا ذكر ابن رشيق بعض الأبيات التي عِيب على أصحابها، وأُخِذَ عليهم – وإن كان دون قصد منهم– سوءُ أدبهم مع الملوك، ومن ذلك ما أُخِذ على جرير لـمَّا دخل على عبد الملك بن مروان، فابتدأ يُنشده:

أتصـــحُو بَـــلْ فُـــؤادُك غيـــرُ صَـــاحِ عشـــيَّةَ هَـــمَّ صـــحبُك بـــالرَّواحِ

"فقال له عبد الملك: بل فُؤادُك يابْنَ الفاعلة، كأنَّه استثقل هذه المواجهة، وإلاَّ فقد علم أنَّ الشاعر إنَّما خاطب نفسه."[5]، وجاء في ديوان جرير: "أنَّ عبد الملك ظلَّ غاضبا عليه حتَّى وصل جرير إلى قوله:

ألســـتُمْ خيـــرَ مَـــنْ رَكِـــبَ الـــمَطَايَا

---

[1] – عديُّ بن زيد العباديُّ، الديوان، تح: محمد جبَّار المعيبد، وزارة الثقافة والإرشاد، دار الجمهورية للنشر، بغداد، العراق، دط، 1965م، ص82-83.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص186.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص181.

[4] – نفسه، والصفحة نفسها.

[5] – نفسه، ص185، والبيت في ديوان جرير، ص76.

فَسُرِّيَ عن عبد الملك، وقال: من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو يسكت."[1]، فعبد الملك –وبحسب ما رأيناه كان على دراية كبيرة بالشعر ونقده– ولا نعتقد جهله أو عدم علمه بأنَّ جريرًا لا يعنيه بقوله (أتصحو..)، ولكنَّه مع ذلك فقد رفض هذا الابتداء والاستفتاح، بل وشتم جريرًا وغضب عليه لسوء هذا المطلع في قصيدة مدح، والتي لم يُراعِ فيه الشاعر خُلُق التأدُّب في مخاطبة الملوك. وممَّا ذكره ابن رشيق في هذا الباب، ما كان من المتنبي مع كافور، فيقول: "ومن هذه الجهة بعينها عابوا على أبي الطيِّب قوله لكافور أوَّل لقائه مبتدئًا، وإن كان إنَّما يُخاطب نفسه لا كافورًا:

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى المَوْتَ شَافِيَا وحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنَّ أمَانِيَا

فالعيب من باب التأدُّب للملوك، وحسن السياسة لازمٌ لأبي الطيّب في هذا الابتداء، لاسيما وهذا النوع –أعني جودة الابتداء– من أجلِّ محاسن أبي الطيّب، وأشرف مآثر شعره إذا ذُكر الشِّعر."[2]

كما أُخِذَ على ذي الرُّمة لـمَّا استنشده عبد الملك بن مروان شيئا من شعره، فأنشده قصيدته التي مطلعها:

ما بالُ عينك منها الماءُ ينسكبُ كأنَّه من كُلَى مَفرِيَّةٍ سَرِبُ[3]

وكانت بعين عبد الملك ريشة، وهي تدمع أبدًا، فتوهَّم أنَّه خاطبه أو عرَّض به، فقال: وما سؤالك عن هذا يا جاهل؟!! فمقته وأمر بإخراجه. وكذلك فعل ابنه هشام بأبي النَّجم وقد أنشده في أرجوزة:

حَتَّى إذَا الشَّمْسُ اجْتَلاهَا المُجْتَلِي
بَيْنَ سِمَاطَيْ شَفَقٍ مُهَوِّلِ
فَهْيَ على الأُفْقِ كَعَيْنِ الأحْوَلِ
صَغْوَاءَ قَدْ كَادَتْ، ولَمَّا تَفْعَلِ[4]

وكان هشام أحْوَلَ، فأمر به فَحُجِبَ عنه مدَّة، وقد كان قبل ذلك من خاصَّته؛ يسمرُ عنده ويُمازحه.[5]

ومن آداب مدح الملوك والأمراء أن يتجنَّب الشاعر التَّقصير والتَّطويل، لأنَّهما سبيل للسآمة والضَّجر، وقد أُعجِب ابن رشيق بعمل البحتري في المدح، فهو إذا مدح الخليفة يُقلُّ الأبيات، ويُبرز وجوه المعاني، وإذا مدح الكُتَّاب عمل طاقته، وبلغ مُراده. واستدلَّ أيضا بمقولة جرير لبنيه: يا بنيَّ، إذا مدحتم فلا تُطيلوا الممادحة؛ فإنَّه يُنسى أوَّلُها، ولا يُحفظ آخرُها. "لهذا لـمَّا دخل الفرزدق على عبد الرحمن بن أم الحكم، قال له عبد الرحمن: أبا فراس، دعني من شعرك

---

[1] – جرير، الديوان، التهميش رقم(1)، ص76.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص185، والبيت في ديوان المتنبي، ص403.

[3] – ذو الرُّمة أبو الحارث غيلان بن عقبة بن مسعود، الديوان، تح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995م، ص10.

[4] – العجلي أبو النَّجم الفضل بن قدامة: الديوان، تح: محمد أديب عبد الواحد، مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا، دط، 2006م، ص358-359.

[5] – يُنظر ابن رشيق، المصدر السابق، ج1، ص185.

الذي ليس يأتي آخره حتّى يُنسى أوَّلُه، وقال: قل فيَّ بيتين يعلقان بالرواة، وأنا أُعطيك عطية لم يُعْطِكَها أحدٌ قطُّ قبلي، فغدا عليه وهو يقول:

فَأَنْتَ ابنُ بَطْحَاوَيْ قُرَيْشٍ، فَإِنْ تَشَأْ تَنَلْ مِنْ ثَقِيفٍ سَيْلَ ذِي حَدَبٍ غَمْرِ

وأَنْتَ ابنُ فَرْعٍ مَاجِدٍ لِعَقِيلَةٍ تَلَقَّتْ لَهُ الشَّمْسُ المُضِيئَةُ بِالبَدْرِ

فقال: أحسنت، وأمر له بعشرة آلاف درهم."[1]، ومن الآداب أيضا التي يجب على الشاعر أن لا يغفل عنها، أن لا يُطيل النَّسيب بحضرة الملوك، ويُفرغ فيه جُهده، حتَّى إذا ما جاء للغرض الأساس وهو المدح قال بيتين أو ثلاثة واكتفى بهنَّ، فهذا يُعدُّ من المعايب التي يُؤاخذ عليها الشاعر. "مدح أبو العتاهية عُمر بن العلاء، فأعطاه سبعين ألفا وخلع عليه حتَّى لم يستطع أن يقوم، فغار الشعراء لذلك، فجمعهم ثمَّ قال : عجبا لكم معشر الشعراء ما أشدَّ حسد بعضكم لبعض، إنَّ أحدكم يأتينا ليمدحنا فينسُب في قصيدته بصديقته بخمسين بيتا، فما يبلغنا حتَّى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره، وقد أتى أبو العتاهية فنسب في أبيات يسيرة"[2]، ثمَّ قال:

إنِّي أمِنْتُ مِنَ الزَّمَانِ وريبِهِ لَمَّا عَلِقْتُ مِنَ الأميرِ حِبالا

لو يستطيع النَّاسُ مِن إجْلاله لَحَذَوْا لَهُ حُرَّ الوُجُوهِ نِعالا

ما كان هذا الجُودُ حتَّى كنتَ، يا عَمْرو، ولو يومًا تزولُ لَزالا

إنَّ المَطايا تشتكيك؛ لأنَّها قطعتْ إليك سَبَاسِبًا ورِمَالا

فإذا وَرَدْنَ بنا وَرَدْنَ خفائفا وإذا صَدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثِقالا[3]

ويبرز المعيار الأخلاقي في غرض المدح بصورة جليَّة عند ابن رشيق عندما يبسط الحديث في مضمون المدح، أي ما هي الأشياء التي يُمدح بها الإنسان؟ وهنا نرى بوضوح تأثُّر ابن رشيق بقدامة بن جعفر؛ حيث اقتبس من كتاب (نقد الشعر) معظم ما أورده في هذه المسألة. ومعلوم أنَّ قدامة يرى الشِّعر صناعة، والأساس فيها البلوغ إلى غاية التجويد والكمال في هذه الصناعة، إلاَّ أنَّه لمَّا تناول غرض المديح بالدراسة تسلَّل المعيار الأخلاقي إلى أحكامه، وكان منطلقه ومتَّكأه قول الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ في زهير بن أبي سلمى: "ما أحسن ما قال عمر بن الخطاب في وصف زهير، حيث قال: إنَّه لم يكن يمدح الرَّجل إلاَّ بما يكون للرجال."[4]

ويتَّخذ ابن رشيق من مقولة قدامة بن جعفر الآتية منطلقا لتحديد ما يُمدح به الإنسان، وهي في جوهرها فضائل أخلاقية تُميِّز الإنسان عن سائر الحيوان. يقول قدامة: "إنَّه لمَّا كانت فضائل النَّاس، من حيث إنَّهم ناسٌ، لا من طريق

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص111، والبيتان في الدّيوان، ص178.

[2] – المصدر نفسه، ص114- 115.

[3] – أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1986م، ص377.

[4] – قدامة بن جعفر، نقد الشِّعر، ص95.

ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب، من الاتِّفاق في ذلك، إنَّما هي: العقل، والشجاعة، والعدل، والعفَّة. كان القاصد لمدح الرِّجال بهذه الأربع الخِصال مُصيبًا، والمادح بغيرها مُخطِئًا."[1]

ولا يخفى هنا أنَّ قدامة بن جعفر قد لجأ إلى ثقافته الفلسفية في تحديد موضوع المدح؛ فهو يقتفي أثر الفلاسفة اليونانيين، وخاصة أفلاطون وأرسطو في تقسيم الفضائل التي تضبط قوى النَّفس، وهي المذكورة سابقا. وإن كان أفلاطون يضع فضيلة الحكمة بدل العقل، ويعتبر الحكمة تُكمِّل العقل بالحقِّ.[2]

فقدامة وابن رشيق وغيرهما من النقاد يُؤكِّدون على أنَّ المدح يكون بالفضائل التي تختصُّ بها النَّفس، والتي حصرها قدامة في فضائل أربع: العقل والشجاعة والعدل والعفَّة. وهي في صميمها فضائل أخلاقية، لهذا عدَّ النقاد مَدْحَ أوصاف الجسم عِوضَ ذكر فضائل النَّفس من عيوب المديح، قال العسكري: "ومن عيوب المديح عدولُ المادح عن الفضائل التي تختصُّ بالنَّفس: من العقل والعفَّة والعدل والشَّجاعة، إلى ما يليق بأوصاف الجسم: من الحُسن والبهاء والزِّينة. كما قال الرقيَّات في عبد الملك بن مروان:

يـــأتلقُ التَّـــاج فـــوق مفرقيـــه علـــى جبـــين كأنَّـــه الـــذَّهبُ

فغضب عبد الملك، وقال: قد قلتَ في مصعب:

إنَّمـــا مصـــعبٌ شـــهابٌ مـــن الله تجلَّـــت عـــن وجهـــه الظلمـــاء

فأعطيته المدح بكشف الغُمم، وجلاء الظُّلم، وأعطيتني من المدح ما لا فخر فيه؛ وهو اعتدال التَّاج فوق جبيني الذي هو كالذَّهب في النَّضارة."[3]، وكان الخلفاء والملوك كثيرًا ما يعقدون مثل هذه المقارنات، رغبة منهم في أن يُقال فيهم من مدح أفضل وأجمل ممَّا قيل في غيرهم، خاصة ما تعلَّق بحفظ الدِّين وإقامة العدل، والإحسان للرعية، والتحلِّي بمكارم الأخلاق، فهذا المعتصم وقد اجتمع الشعراء ببابه، فبعث إليهم: من كان منكم يُحسن أن يقول مثل قول منصور النَّمري في أمير المؤمنين الرشيد:

إن أخلـــف الغيـــث لـــم تُخلـــف مخايلـــه أو ضـــاق أمـــرٌ ذكرنـــاه فيتَّســـعُ
أيُّ امـــرئ بـــات مـــن هـــارون فـــي سخـــط فلـــيس بالصَّـــلوات الخمـــس ينتفـــعُ
إنَّ المكـــارم والمعـــروف أوديـــةٌ أحلَّـــك الله منهـــا حيـــث تجتمـــعُ
إذا رفعـــت امـــرأً فـــالله يرفعـــه ومـــن وضـــعت مـــن الأقـــوام يتَّضـــعُ[4]

فليدخل. فقال محمد بن وهب: فينا من يقول خيرا منه، وأنشد:

---

[1] – قدامة بن جعفر، نقد الشِّعر، ص96.

[2] – يُنظر كرم يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، دط، 2012م، ص115-116.

[3] – العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر، ط1، 1952م، ص98.

4 – النَّمري أبو الفضل منصور بن الزبرقان، شعر منصور النَّمري، تح: الطيِّب العشاش، مجمع اللغة العربية بدمشق، دار المعارف، دمشق، سوريا، دط، 1981م، ص97-101.

ثلاثـــــةٌ تُشـــــرق الـــــدنيا ببهجـــــتهم شـــمسُ الضُّـــحى وأبـــو إســـحاق والقمـــرُ
يحكـــــي أفاعيلـــــه فـــــي كـــــلِّ نائلـــــة الغيـــــثُ واللَّيـــــثُ والصَّمصـــــامة الذَّكـــــرُ

فأمر بإدخاله وأحسن صلته.[1]

ويأتي قدامة بعد ذلك إلى توضيح متى تكون الإصابة في المدح، ومتى يكون التقصير فيه، باعتبار استيعاب هذه الفضائل كلِّها أو بعضها في المديح، أو حتَّى تخصيص ما يتفرَّع عنها به، فيقول: "وقد يجوز في ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض والإغراق فيه دون البعض؛ مثل أن يصف الشاعر إنسانا بالجود الذي هو أحد أقسام العدل وحده فيُغرق فيه، ويتفنَّن في معانيه، أو بالنجدة فقط، فيعمل فيها مذل ذلك، أو بهما، أو يقتصر عليهما دون غيرهما، فلا يُسمَّى مُخطئًا؛ لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله، لكن يُسمَّى مُقصِّرا عن استعمال جميع المدح، فقد وجب أن يكون على هذا القياس المُصيبُ من الشعراء مَنْ مدح الرِّجال بهذه الخلال، لا بغيرها، والبالغُ في التجويد إلى أقصى حدوده مَنْ استوعبها، ولم يقتصر على بعضها."[2]، وعليه فإنَّ ابن رشيق يتبنَّى آراء قدامة في هذه المسألة، ويعتبر غرض المدح لا يصحُّ تمام الصِّحة، ولا يكون فيه الشاعر مُصيبا غاية الإصابة إلاَّ إذا كان المديح مُستوعبا للفضائل الأربع. ويستدلُّ على مَن استوفى هذه الفضائل الأربع في مديحه بزهير بن أبي سلمى، وهو الشاهد نفسه الذي ذكره قدامة في كتابه. "يقول زُهير من قصيدة في مدح هرم بن سنان:

أخـــي ثقـــةٍ لا تهلِـــكُ الخمـــرُ مالَـــه ولكنَّـــه قـــد يُهلِـــكُ المـــالَ نائلُـــه

فوصفه في هذا البيت بالعفَّة، لقلَّة إمعانه في اللَّذات، وإنَّه لا ينفد ماله فيها، وبالسَّخاء لإهلاكه ماله في النَّوال وانحرافه إلى ذلك عن اللَّذات، وذلك هو العدل. ثمَّ قال:

تـــــراه إذا مـــــا جِئْتَـــــهُ مُتهلِّـــــلاً كأنَّـــك مُعطيـــه الـــذي أنـــت سائـــلُه

فزاد في وصف السَّخاء بأن جعله يهشُّ له، ولا يلحقه مضضٌ، ولا تكرُّهٌ لفعله. ثمَّ قال:

فمَـــنْ مثـــلُ حِصْـــنٍ فـــي الحـــروب ومثلـــه لإنكـــــار ضَـــــيمٍ أو لخَـــــصْمٍ يُجادلُـــــه

فأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل، فاستوعب زهير في أبياته هذه المديح بالأربع الخِصال، التي هي فضائل الإنسان على الحقيقة. وزاد في ذلك ما هو –وإنْ كان داخلا في هذه الأربع– فكثير من النَّاس لا يعلم وجه دخوله فيها، حيث قال: (أخي ثقة) صفة له بالوفاء، والوفاء داخلٌ في الفضائل التي قدمنا ذكرها."[3]

ولا نحتاج هنا إلى إثبات أخلاقية هذا المعيار الذي رضيه ابن رشيق ومن قبله قدامة، والذي يهتمُّ بالقيم والفضائل الكبرى، وهي: العقل والشجاعة والعدل والعفَّة. ومن خلالها تُضبط وتُقوَّم النفس الإنسانية، وتُنشر الفضيلة ويعمُّ الخير في المجتمع بصفة عامة. ولكنَّ قدامة يعتبر هذه الفضائل ككليات عامة ولها أقسامٌ تتفرَّع عنها:

---

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج2، ص119.
[2] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص96.
[3] – المرجع نفسه، ص97.

– فمن أقسام العقل: ثقافة المعرفة، والحياء، والبيان، والسياسة، والكِفاية، والصَّدع بالحجة، والعلم، والحلم عن سفاهة الجهلة، وغير ذلك ممَّا يجري هذا المجرى.

– ومن أقسام العفَّة: القناعة، وقلَّة الشَّره، وطهارة الإزار، وغير ذلك ممَّا يجري مجراه.

– ومن أقسام الشجاعة: الحماية، والدفاع، والأخذ بالثأر، والنِّكاية في العدوِّ، والمهابة، وقتل الأقران، والسير في المهامه الموحشة، وما أشبه ذلك.

– ومن أقسام العدل: السَّماحة، ويُرادف السَّماحة التغابن، وهو من أنواعها، والانظلام، والتبرُّع بالنَّائل، وإجابة السَّائل، وقِرى الأضياف، وما جانس ذلك.[1]

ثمَّ قام قدامة بتركيب هذه الخصال بعضها مع بعض بصورة ثنائية، فكان منه ستَّة أقسام:

– فيحدث عن تركيب العقل مع الشجاعة: الصبر على الملمَّات ونوازل الخطوب، والوفاء بالإيعاد.

– وعن تركيب العقل مع السَّخاء: فإنجاز الوعد وما أشبه ذلك.

– وعن تركيب العقل والعفَّة: فالرغبة عن المسألة، والاقتصار على أدنى معيشة، وما أشبه ذلكز

– وعن تركيب الشجاعة مع السَّخاء: الإتلاف، والإخلاف، وما أشبه ذلك.

– وعن تركيب الشجاعة مع العفَّة: إنكار الفواحش، والغيرة على الحُرم.

– وعن السَّخاء مع العفَّة: الإسعاف بالقوت، والإيثار على النَّفس، وما شاكل ذلك.[2]

وقد أبدع قدامة عندما زاوج وركَّب بين هذه الفضائل اثنتين اثنتين، ليستخلص من كلِّ ثنائية قيما وفضائل أخرى، وهذه سابقة من قدامة كما يقول عباس ثابت حمود: "وقد أفاد قدامة من أفلاطون هذه الفضائل، غير أنَّه بتأليفه بين هذه الفضائل اثنتين اثنتين كان مبتدعا، لم يأخذه عن اليونان، ولم يسبقه أحد من العرب الذين ألَّفوا في الأخلاق."[3]

ونلمس كذلك الملمح الخلقي في هذا الغرض عند ابن رشيق في مختاراته لأمدح بيت قالته العرب، فنجد كلَّ هذه المختارات طافحة بالقيم النبيلة والأخلاق العظيمة التي يتباهى بها العرب ويعتزُّون بها. ومن ذلك، قال ابن رشيق: أجمع النَّاس على تقديم كعب بن زهير يمدح الرسول ﷺ:

تحملـــــه النَّاقـــــة الأدْمـــــاء مُعتجِـــــرًا بالبُـــــرد كالبـــــدر جلَّـــــى ليلـــــة الظُّلَـــــمِ

وفـــــي عِطافيْـــــه أو أثنـــــاء رَيْطتِـــــه مـــــا يعلـــــمُ الله مـــــن ديـــــن ومـــــن كَـــــرَمِ[4]

وقالوا: لمَّا حضرت الحطيئة الوفاة، قال: أبلغوا الأنصار أنَّ أخاهم –ويعني به حسَّان بن ثابت– أمدح النَّاس حيث يقول:

---

[1] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص98.

[2] – يُنظر المرجع نفسه، ص98.

[3] – حمود عباس ثابت، المعيار الأخلاقي في نقد الشعر العربي، ص165.

[4] – كعب بن زهير، الديوان، ص92.

يُغشـــون حتَّـــى مـــا تهـــرُّ كـــلابُهم لا يســـألون عـــن السَّـــواد الـــمُقبل

وقال ثعلب: بل قول الأعشى:

فتًـى لـو يُبـاري الشَّـمْسَ ألقـتْ قناعهـا أوِ القمـرَ السَّـاري لألقـى المفالِـدا

وأمدح منه، كما قال أبو عمرو بن العلاء بيت جرير:

ألسـتم خيـر مـن ركـب المـطايا وأنْـدَى العـالمين بطـون راحِ

وغير هذا كثير من مختارات النقاد لأمدح بيت.[1]

ولـمَّا كان المديح مُتعلِّقا بالفضائل والقيم كما قال بذلك معظم النقاد، فإنَّ شعر المدح قد قام بدور تربوي وخلقي كبير، من خلال تلك النماذج الرائعة التي قدَّمتها العديد من قصائد المدح في تاريخ أدبنا العربي، "وبذلك ظلَّت المِدْحَةُ تبثُّ في الأمَّة التربية الخُلقية القويمة، حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة."[2]

وإذا توجَّهنا إلى الأنموذج فإننا سنجد الكثير من شعر المدح، وسنقف على بعضها فقط لنستدلَّ من خلالها على ما يخدمنا في دراستنا. فهذا عبد العزيز بن خلوف الحروري يمدح المُعزَّ بن باديس، فيقول:

لـو يسـتطيعُ لأدْخـلَ الأمْـواتَ مـن نُعمـاه فيمَـا نَالَـت الأحيـاءُ
سـوَّت رعايـاه يـدَا إنصـافِه حتَّـى الشَّـوامِخُ والوِهـادُ سـواءُ
مُتنـوِّعُ العزمـات مـاءٌ مُغـدِقٌ فـيهم وعـنهم صـخرةٌ صـمَّاءُ
مـا أنـت بعـضُ النَّـاس إلاَّ مثلمـا بعـضُ الحصـى الياقوتـةُ الحمـراءُ
فتحَـتْ لنـا نُعمـاك كـلَّ بلاغـة فجـرى اليـراعُ وقالـت الشـعراءُ[3]

ويمدح أبو بكر عتيق بن تمام المعروف بابن أبي النوق الطبيب أمير قرطبة عليَّ بن حمود، فيقول:

تركـتُ أهلـي وأوطـاني لِقصْـدِ فتًـى يـداهُ أخصـبُ مـن أهلـي ومـن وطنـي
علـيٌّ الماجـدُ الحـرُّ الجـوادُ ومَـن فـي حَزْمِـه جمـعُ الأشْـتَاتِ للحَسَـنِ
ومَـنْ إذا اسْـتَمْطرَ العَـافُون راحتَـه سـقتْهم فـوق سَـقْي الوابِـلِ الهَـتِنِ
ومَـن حَـوَى رُتَبًـا لـم يَحْوِهَـا بَشَـرٌ إلاَّ الـذي وَلَـدُوه مَعْـدِنُ الـمِنَنِ
تجْـري النَّجابـةُ طبعًـا فـي شـمائِلِه والمجـدُ والبِشْـرُ جَـرْيَ المـاءِ فـي الغُصُـنِ[4]

وأمَّا الشاعر عليُّ بن أحمد الصفَّار السوسي فيمدح أبا الجيش مجاهد بن عبد الله العامري، فيقول:

فيـا أيُّهـذا الحاجـبُ الـمُبتنِي الـعُلا وهـل يبتنـي إلاَّ الكـرامُ المعَالِـيَا

---

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج2، ص120.

[2] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي– العصر العباسي الأول، ص160.

[3] – ابن رشيق، الأنموذج، ص163–164.

[4] – المصدر نفسه، ص243–244.

إليـــك رحلناهـــا تطـــاير فـــي الـــدُّجَى تطـــايُرَ أشـــباه القَطَـــا مُتبَارِيَـــا
تـــراه فتخشـــاه وتســـمع حولـــه غُطـــامِط يحكـــي مـــن أُنـــاسٍ تلاحِيَـــا
وأنـــت بحمـــد الله فـــذُّ زمانـــه وأوحَـــدُ عصْـــرٍ مـــا أرى لـــك ثَانِيَـــا[1]

وأمَّا الشاعر عليّ بن يوسف التونسي فنجده يمدح المُعزَّ بن باديس، قائلا:

صـــدَدْت العِـــدا عـــن هيجِـــه وهـــو وادِعٌ وقلـــت لهـــم: إنَّ الفتـــى ليـــثُ غابِـــهِ
هـــو البحـــرُ يجتـــاحُ السَّـــفينَ إذا طَمَـــا فـــلا تـــركبنَّ البحـــرَ وقـــتَ عُبابِـــهِ
وحســـبُكم أن تطلبـــوا السِّـــلم عنـــده وأن تفخـــروا بالمشْـــي تحـــت رِكابِـــهِ
ألـــم تعلمُـــوا أنَّ اللَّيـــالي تعلَّمـــتْ تنقُّلَهـــا عـــن عَفْـــوِهِ وعِقَابِـــهِ[2]

ومن الشعراء المُجيدين في المدح قرهب بن جابر الخزاعي، الذي تبرَّأ في المدح من كلِّ عيب وقدح، كما قال ابن رشيق: "ومن جميل شعره، قوله يمدح الوزير محمد بن أبي العرب:

إلـــى الســـيِّد الـــماجِدِ الألمعـــيِّ تحـــــثُّ الرِّكَـــــابُ بزُوَّارِهـــــا
إلـــى ابـــن أبـــي العَـــرَب الـــمُرتَجَى تفـــــرُّ الرِّجـــــالُ بأخطارِهـــــا
فتـــــدرك غايـــــة آمالـــــها وأعلـــــى النِّهايـــــة مـــــن ثأرِهـــــا
لأحذقِـــــها بطعـــــان الـــــكُمَاة لـــدى الحـــرب مـــن فَـــوْر تيَّارِهـــا
طويـــت الأمـــور علـــى غرِّهـــا فقـــدَّرتها خيـــرَ مقدارِهـــا
وأضـــحتْ ســـجاياك مثـــل الرِّيـــاض كســـاها الحَيَـــا زهـــرَ نوَّارِهـــا

وقال ابن رشيق مُبديًّا إعجابه بالأبيات: "الشاعر الحاذق يجعل الشِّعر كسوة للممدوح لائقة بشكله مناسبة لقدره لا تضيق عنه ولا تضطرب عليه. وهذه الأبيات لَبُوس محمد بن أبي العرب –لا شكَّ– لِمَا جمع من شرف الوزارة ولطف الكتابة إلى شهامة الفؤاد ونوادر الشجعان الأجواد، فقابله بكلِّ فنٍّ فنًّا وبكلِّ معنى معنى."[3]

وهذا الشاعر إبراهيم التميمي من المُجيدين والمكثرين في مدح الأمير ابن باديس، ومن مدائحه قوله:

أقـــامَ صـــدرَ قنـــاةِ الـــمُلكِ فاعتـــدلَتْ وقـــوَّمَ الـــدَّهرَ بعـــد الميـــل فاعْتَـــدَلا
بِعزْمـــةٍ لـــو رمـــى ركـــنُ الزَّمـــانِ بهـــا مـــا عـــاث صـــرفٌ لـــه فينـــا ولا عمـــلا
إنْ قـــال وفَّـــى، وإنْ أعطـــى أتـــمَّ، فمـــا أوفـــاه مـــن مَلِـــكٍ إنْ قـــال أو فعـــلا[4]

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص267.
[2] – المصدر نفسه، ص302–303.
[3] – نفسه، ص326.
[4] – نفسه، ص332.

وأمَّا عبد الله بن محمد بن شرف الجذامي القيرواني فقد أبدع في مدح السيِّد أبي الحسن علي بن أبي الرِّجال، في قوله:

جَـــاوِزْ عليًّـــا ولا تحفـــلْ بحادثـــةٍ إذا ادَّرعْـــتَ فـــلا تســـألْ عـــن الأسَـــلِ
اســمٌ حكـــاه الـــمُسمَّى فـــي الفِعـــال فقـــد حـــاز العليَّـــين مـــن قـــولٍ ومـــن عمَـــلِ
فالماجِـــدُ الســـيِّدُ الحـــرُّ الكـــريمُ لـــه كالنَّعـــت والعطـــف والتَّوكيـــد والبـــدَلِ
زانَ العُلـــى وســـواه شـــانها وكـــذا للشَّـــمس حـــالان فـــي الميـــزان والحمَـــلِ
ســلْ عنـــه وانطـــقْ بـــه وانظـــرُ إليـــه تجـــدْ مـــلءَ المســـامعِ والأفـــواه والـــمُقَلِ[1]

وقد حظي بعض رجال الدولة بنصيبهم من المدح من بعض الشعراء، فهذا الشاعر محمد بن يوسف المنجَّم امتدح نصير الدولة الحسين بن عسكر مرَّات، ومنها قوله:

لقـــد طبـــعَ اللهُ الـــحُسينَ بـــن عســـكرٍ علـــى الـــخُلُقِ الفضـــفاضِ والكَـــرمِ المحْـــضِ
فتـــى الدَّهـــرِ مـــتْلافٌ لكـــلِّ ذخيـــرةٍ ســـماحًا وجُـــودًا سالـــمُ الـــدِّينِ والعِـــرْضِ[2]

وممَّا هو قمين بالملاحظة أنَّ ابن رشيق كان شحيحا في تعليقاته وأحكامه النقدية، والتي كان يُصدرها من حين لآخر حول بيت شعري أو أكثر، سواء كان في المدح أو غيره من الأغراض، وهذا ما يُصعِّب علينا الأمر، لأنَّنا نحتاج إلى ما يقوله ابن رشيق من آراء وأحكام نقدية لتقييمها والحُكم عليها، وليس حكمنا على العمل الأدبي في حدِّ ذاته. ومع هذا نحاول استجلاء هذه النماذج المدحية باعتبار المعيار النقدي الأخلاقي الذي وقفنا على تنظيره في كتاب العمدة.

والسؤال الذي يُطرح، ما مدى التزام ابن رشيق بالمعيار الخلقي والدِّيني في غرض المدح من مختاراته في الأنموذج؟ والجواب، أنَّ ابن رشيق قد التزم إلى حدٍّ كبير بهذا المعيار، وهذا يتجلَّى في النقاط الآتية:

1– النَّماذج المدحية المقدَّمة في الأنموذج كانت تتناول ذِكْر المحاسن والإشادة بالفضائل النَّفسية للممدوح من كرم وشجاعة وعفَّة وورع وغير ذلك.

2– ذكر ابن رشيق أنَّ بعض الشعراء امتنعوا عن المدح تعفُّفًا واستغناءً ومروءة.

3– الملاحظ على المدائح القِصر وعدم التطويل خاصة مدائح الملوك، وهذا ما أكَّد عليه ابن رشيق، حتّى لا يشعر الملك بالسَّأم أو الضَّجر، فيكون منه ما لا يُراد.

4– إذا أُستُفتحت المدائح بالنَّسيب فلا يُطيل الشاعر فيه، وينتقل مباشرة إلى الغرض الأساس في القصيدة ألا وهو المدح.

5– استعمل الشعراء بعض المبالغات المحمودة، التي لم يرفضها ابن رشيق في العمدة، كقول الشاعر:

لـــو يســـتطيعُ لأدْخـــلَ الأمْـــواتَ مـــن نُعمـــاه فيمَـــا نَالَـــت الأحيـــاءُ

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص345.

[2] – المصدر نفسه، ص408-409.

فبالغ في كرم وَجُودِ المعزِّ في أنَّه لو استطاع لمنح الأموات من أنعمه وعطاياه كما يمنح الأحياء، وما جعل المبالغة مقبولة محمودة هو أنَّ الشاعر بنى الإفراط والمبالغة على صحَّة بقوله: لو يستطيع، كما اشترط ابن رشيق وغيره.

6- إعجاب ابن رشيق بتوظيف بعض الشعراء المعاني الدينية في المدح، "كقول محمد بن إبراهيم بن عمران القفصي يمدح أحد الأمراء يُسمَّى يوسف:

كُلَّمـــــا خِفـــــتُ بـــــأن يـــــدمغني مَاطَـــــه يوســـــفُ عنِّـــــي فانْـــــدَمَغْ

الأميـــــرُ الباســـــلُ البـــــأسِ الـــــذي دَبَغَتْـــــه الحـــــربُ عَزَّكـــــا فانْـــــدَبَغْ

مَلِـــــكٌ قـــــد صـــــبغتْ وجْنَتَـــــه صـــــبغةُ الله التـــــي كـــــان صَـــــبَغْ

قال ابن رشيق مُعجبا بالأبيات: فهذا كلامٌ ليِّن الشكيمة، غالي القيمة، قد صحَّت أساليبه، واطَّردت أنابيبه."[1]، ولا يخفى اقتباس الشاعر معنى البيت الثالث من قوله تعالى: **﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾**[2]. ولكنَّ ابن رشيق الشاعر الحاذق والناقد الحصيف يقع في ما حذَّر ونبَّه عليه في باب (المبدأ والخروج والنهاية)، حين يكون الشعر مدحا للملوك والأمراء والرؤساء، ألا وهو الكلام الذي يُفهم منه سوء الأدب في مخاطبة الملوك وخاصة في الابتداء، وهذا ما ذكره صاحب كتاب الذخيرة، حيث قال: "ولمَّا طلع نجمُ النُّحوس بمُلْكِ المعزِّ بن باديس، وخرج إلى المهديَّة بسماء كاسفة الأقمار، وذَماء أقصر من ظِمْءِ الحمار، كان أبو علي (ابن رشيق) ممَّن انحسر في زمرته المحروبة، وتحيَّز إلى فئته المفلولة المنكوبة، فأقام معه بها أنفةً من الجلاء، وإشفاقًا من فُرقة الأحبَّة والخُلصاء، وغَشِيَ المهديَّةَ أسطولُ الرُّوم فأصبح البحرُ ثنايا، تُطلع المنايا، وآكامًا تحمل موتًا زُؤامًا. فدخل يومئذ على المُعزِّ حين وضُح الفجرُ، وقد تمَّ الذُّعرُ، وضاق ذاتُ الصَّدر، فوجده في مُصلاَّه والرِّقاعُ عليه تَرِدُ، والشَّمع بين يديه يتَّقد، فقام على رأسه يُنشد قصيدته التي أوَّلُها:

تثبَّـــــتْ لا يُخـــــامرْكَ اضـــــطرابُ فقـــــد خضـــــعتْ لعزَّتـــــك الرِّقـــــابُ

فقال له: مَهْ، أحال عهدك أم تغيَّر، أم قد أدبر بك الزَّمان في ما أدبر؟ ويلك! متى عهدتني لا أتثبَّتُ؟ إذا لم تحثنا إلاَّ بمثل هذا فما لك لا تسكت عنَّا؟ وأمر بالرُّقعة التي كانت فيها القصيدة فمُزِّقتْ، ولم يُقنعه ذلك حتَّى أدْنَوْها إلى السِّراجِ فأُحْرِقَتْ، فخرج ابن رشيق يومئذ من عنده على غير طريق، لا يعقل ما يطأ، ولا يدري إلى أين ينكفئُ."[3]

فابن رشيق رغم أنَّه نبَّه على هذا العيب وحذَّر منه، إلاَّ أنَّه وقع فيه، فمطلع البيت لا يُخاطَبُ به الملوك، فلمَّا افتقر الابتداء من الحُسن والإجادة والتأدُّب، أقرع سَمْعَ المعزِّ بما يُثير غضبه وحنقه، وكان منه ما كان، وما حصل ابن رشيق إلاَّ على عكس ما أراد وابتغى، وخرج من عند المعزِّ على غير هدى.

---

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص339.

[2] – سورة البقرة، الآية 138.

[3] – ابن بسَّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق4، مج1، ص598، والبيت في الدِّيوان، ص24.

*** الافتخار:**

ويقول عنه ابن رشيق: "الافتخار هو المدح نفسه، إلاَّ أنَّ الشاعر يخصُّ به نفسه وقومه، وكلُّ ما حسُنَ في المدح حسُنَ في الافتخار، وكلُّ ما قبُح فيه قبُح في الافتخار."[1]، أي أنَّ الفخر مثله مثل المدح؛ فهو إشادة واعتزاز بالفضائل الحميدة التي يتحلَّى بها الشاعر، أو تتحلَّى بها قبيلته. والصفات التي يفتخر بها الشعراء عادة هي: الشجاعة والكرم والنَّجدة ومساعدة المحتاج، وغيرها من الفضائل والخصال الحميدة. ويذكر ابن رشيق بعض المختارات في الافتخار، فيرى أنَّ "قول بكر بن النَّطَّاح الحنفي من جيِّد الافتخار، وهو:

ومَـــنْ يَفتَقِـــرْ منَّـــا يَـــعِشْ بِحُســـامِه ومَـــنْ يَفتَقِـــرْ مـــن سائـــر النَّـــاس يســـأَلِ

ونحـــــنُ وُصِـــــفنا دون كـــــلِّ قبيلـــــةٍ ببـــأسٍ شـــديد فـــي الكتـــاب المُنـــزَّلِ

وإنَّـــا لنلهـــو بالـــحروب كمـــا لَهَـــتْ فتـــاةٌ بعقـــدٍ أو سَخَـــابِ قَرَنْقُـــلِ

يعني قول الله تعالى:**﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾**[2]، فدُعُوا في خلافة أبي بكر ﷺ إلى قتال أهل الرِّدة من بني حنيفة، وبسبب هذا الشِّعر وأشباهه طلبه الرَّشيد أشدَّ طلبٍ، وقال:كيف يفتخرُ على مُضر ومنهم رسول الله ﷺ خير البشر؟ فهذا افتخارٌ بالشَّجاعة خاصة."[3]

والفخر مثل المدح له بعض المعايب التي نظر إليها ابن رشيق من زاوية أخلاقية واجتماعية، ومن ذلك أنَّه يُؤيِّد ما ذهب إليه قدامة في المدح، فيقول: "وقد أنكر قدامة أن يُمدح الإنسان بآبائه دون أن يكون ممدوحا بنفسه، لأنَّ كثيرا من النَّاس لا يكونون كآبائهم ، والذي ذهب إليه حَسَنٌ."[4]، وإن كان قدامة يتحدَّث عن المدح هنا، فابن رشيق يُريد إسقاط هذا الحكم على الفخر كذلك، فهو يُريد أن يقول: ليس من الأدب أن يفتخر الإنسان بنفسه دون آبائه وأجداده، وأن ينسب الفضل والشرف لنفسه دونهم، لهذا استحسن ابن رشيق أيضا "إنكار الجرجاني قول أبي الطيِّب المتنبي:

مـــا بقـــومي شَـــرُفْتُ بـــل شَرُفُـــوا بـــي وبنفســـــي فَخَـــــرْتُ لا بِجُـــــدُودي

ثمَّ يُعقِّب قائلا: وإنَّما أخذه من قول علي بن جَبَلَة حيث يقول:

ومـــا سَـــوَّدَتْ عِجْـــلاً مَآثـــرُ غيرهـــم ولكـــن بهـــم سَـــادَتْ علـــى غيرهـــم عِجْـــلُ

قال: وهذا معنى سوء يقصر بالممدوح، ويغضُّ من حسبه، ويحتقر من شأن سلفه، وإنَّما طريقة المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه، والآباء تزداد شرفا به؛ فجعل لكلِّ واحد منهم حظًّا في الفخر وفي المدح نصيبا، وإذا حصلت الحقائق

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص124.

[2] – سورة الفتح، الآية 16.

[3] – ابن رشيق، المصدر السابق، ج2، ص125.

[4] – المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

كان النَّصيبان مقسومين، بل كان الكلُّ خالصا لكلِّ فريق منهم؛ لأنَّ شرف الوالد جزءٌ من ميراثه، ومُنتقلٌ إلى ولده كانتقال ماله، فإن رعى وحرس ثبت وازداد، وإن أهمل وضيَّع هلك وباد. وكذلك شرف الوالد يعمُّ القبيلة، وللولد منه القسم الأوفر، والحظُّ الأكبر."[1]

لقد كان المتنبي متعاظماً شديد الذهاب بنفسه لا يري أحداً فوقه ولا أحدًا مثله، وقد ملأ قصائده بالفخر والاعتزاز بنفسه، حتَّى تلك التي كان يُلقيها بين يدي الممدوحين وربَّما رفع نفسه فوقهم، وكان يفتخر بأسلافه وبأهله وبنفسه؛ يفتخر بعفَّته ووفائه وعزمه وبنفوذ بصره في الأمور، كما كان يفتخر بشعره. ولكنَّ فخر المتنبّي بقومه كان قليلا، وإذا افتخر بهم أوجز وأجمل لقلَّة ما عُرف عن آبائه الأقربين من المآثر والمفاخر، ولأنَّه كان يعدُّ نفسه مفخرة قومه، وهذه هي المثلبة التي أُخِذَت عليه.

فأجمل الفخر عند النقاد هو ما جمع بين فخر الفرد بجماعته وفخر الجماعة بالفرد، وبه يُوازن الشاعر بين إثبات عراقة نسبه وإثبات مجده هو. وفخر المتنبي السابق يُعتبر هجاء لقومه أكثر من أن يكون بيت فخر عند غالبية النقاد، فهذا الجرجاني في وساطته يُعلِّق على بيت المتنبي سالف الذكر، قائلا: "فختم القول بأنَّه لا شرف له بآبائه. وهذا هَجْوٌ صريحٌ، وقد رأيتُ من يعتذر به فيزعم أنَّه أراد: ما شرُفتُ فقط بآبائي، أي لي مفاخر غير الأبوَّة، وفِيَّ مناقب سوى الحسب. وباب التأويل واسعٌ، والمقاصد مغيَّبة، وإنَّما يُستشهد بالظاهر، ويتبع مواقع اللفظ."[2]

ويعترض أحمد بدوي على نقد الجرجاني للمتنبي في هذا البيت، فيقول: "ولا أرى لهذا النقد وجهًا؛ لأنَّ أبا الطيِّب التزم جانب الصِّدق فيما قال، عندما جعل مصدر الفخار نفسه؛ بينما القاضي ينظر إلى ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان الكامل، ولكنَّا لا نريد من الشاعر أن يصف نفسه بالكمال، بل أن يكون صادقا في التعبير عمَّا يشعر به. والمتنبي لا يريد أن يستمدَّ فخره إلاَّ من آثاره هو، لا آثار قومه وآبائه."[3]

ويبدو أنَّ اعتراض بدوي ليس في محلِّه، لأنَّ الجرجاني لا يعترض على المتنبي لأنَّه افتخر بنفسه فقط، فهذا لا يُنكره عليه أحد، وإنَّما اعتراضه وإنكاره عليه هو تعاليه وتباهيه على قومه وآبائه، فهو يراهم أقلَّ منه منزلة ومكانة وقيمة، ولهذا فهو يرى الشرف والفخر والفضل له وحده، وأمَّا قبيلته وأهله فلا حظَّ لهما في ذلك، وهذا كلام لا يقوله عاقل، ولا يقبله فاهم. وفي هذا جحود ونُكران لقومه عامة ولآبائه خاصة. ولا نرى للمسألة علاقة بالصِّدق والكمال هاهنا؛ فهل يكون المتنبي صادقا عندما يفتخر بنفسه، وكاذبا عندما يفتخر بقومه؟! وهل افتخاره بقومه وآبائه يعني الكمال المطلق، وافتخاره بنفسه يعني النَّقص المطلق؟! إنَّ هذا الكلام لم يقل به ناقد من النقاد قديما أو حديثا.

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص125- 126.

[2] – الجرجاني عبد العزيز، الوساطة، ص312.

[3] – بدوي أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، ص223.

صحيحٌ أنَّه من السماجة أن يمدح ويُطري الإنسان نفسه؛ لأنَّ في ذلك تزكية للنَّفس، وفي ديننا نهي عن ذلك، قال تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[1]، ويقول الإمام النَّووي في الأذكار: "أنَّ ذِكْرَ الإنسان محاسن نفسه ضربان: مذموم ومحبوب، فالمذموم أن يذكره للافتخار وإظهار الارتفاع والتميُّز على الأقران وشبه ذلك. والمحبوب أن يكون فيه مصلحة دينية، وذلك بأن يكون آمرًا بمعروف أو ناهيا عن منكر أو ناصحا أو مُشيرا بمصلحة أو معلِّما أو مُؤدِّبا أو واعظًا أو مُذكِّرا أو مُصلحا بين اثنين أو يدفع عن نفسه شرًّا أو نحو ذلك."[2]، لكنَّ افتخار الشاعر بنفسه وشهادته لها بالفضائل ومدحه إيَّاها ورغم كونه تزكية لها، إلاَّ أنَّه يجوز له ذلك، وهذا من فضائل الشعر كما يقول ابن رشيق: "وقيل: ليس لأحد من النَّاس أن يُطريَ نفسه ويمدحها، في غير منافرة، إلاَّ أن يكون شاعرًا، فإنَّ ذلك جائزٌ له في الشعر، غير مَعيب عليه."[3]

وخلاصة القول: أنَّ الشاعر يجوز له الافتخار بنفسه، ولكن لا يكون ذلك على حساب قومه وأهله، بحيث ينتقص من حقِّهما ويتنكَّر لهما كما فعل المتنبي، فالعرب في جاهليتهم وإسلامهم كانوا يتباهون ويتفاخرون بالأصل من الآباء والأجداد والنَّسب والحسب، وما كان لهم من مفاخر وأمجاد. أمَّا أن يفخر الشاعر بنفسه، ويغض الطَّرف على قومه، أو يُعلي من شأنه، ويحطُّ من قدر قومه كما فعل المتنبي؛ حيث نسب الشرف والفخر له دون قومه وأجداده، فهذا لم يقله شاعر من قبل، فعادات العرب وأخلاقهم في الجاهلية والإسلام تأبى وتمقت أن يترفَّع المرء على قومه وعشيرته وأهله، وهو تصرُّف لا يمتُّ بصلة إلى المروءة والشهامة التي عُرِف بها الإنسان العربي في جاهليته وفي إسلامه.

والموقف المشترك بين الجرجاني وابن رشيق نجده كذلك عند أبي هلال العسكري، وهو يُعقِّب على أبيات لأيمن بن خزيم في بِشْر بن مروان، والتي مطلعها:

يـــابْنَ الأكَـــارِمِ مِـــنْ قُـــرَيْشٍ كُـــلِّهَا وابـــنَ الخَلاَئِـــفِ وابْـــنَ كـــلِّ قَلَمَّـــسِ

فيقول: وإنَّما ذُكر سؤدد الآباء، وفيه فخرٌ للأبناء، ولكن ليس العظاميُّ كالعصاميِّ، ورُبَّما كان سؤدد الوالد وفضيلته نقيصةً للولد إذا تأخَّر عن رتبة الوالد، ويكون ذِكرُ الوالد الفاضل تقريعًا للولد النَّاقص. وقيل لبعضهم: لِمَ لا تكون كأبيك؟ فقال: ليت أبي لم يكن ذا فضلٍ؛ فإنَّ فضله صار نقصًا لي. وقد قال الأوَّلُ:

إنَّـــما المجـــدُ مـــا بنـــى والِـــدُ الصِّـــدْ قِ وأحيـــا فِعَالَـــهُ المولـــودُ

وقال غيره في خِلافِه:

لَئِـــنْ فَخَـــرْتَ بآبـــاءٍ ذوي شـــرفٍ لقـــد صَدَقْـــتَ ولكـــنْ بِـــئسَ مـــا وَلَـــدُوا[4]

---

[1] – سورة النَّجم الآية32.

[2] – النَّووي، الأذكار المُنتخبة من كلام سيِّد الأبرارﷺ، ص353.

[3] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص22.

[4] – يُنظر أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص99.

وعطفا على ما سبق من قول ابن رشيق، فهو يرى أنَّ المختار في الفخر ما ناسب قول المتوكِّل الليثي:

إنَّـــــا وإنْ أحســـــابنا كَـــــرُمتْ لَسْنـــا علـــى الأحســـاب نتَّكِـــلُ

نبنـــي كمـــا كانـــت أوائلنـــا تبنـــي ونفعـــل مثـــل مـــا فعـــلُوا

وقول عامر بن الطفيل الجعفري:

فإنِّـــي وإنْ كنـــتُ ابـــنَ ســـيِّدِ عامـــر وفارسَـــها المشهـــور فـــي كـــلِّ موكـــب

فمـــا سوَّدتْنـــي عامـــرٌ عـــن وراثـــةٍ أبَـــى الله أن أسمـــو بـــأمٍّ ولا أب[1]

ويُشيد ابن رشيق بأبيات "للسيِّد أبي الحسن، ابن أبي الرجال الشيباني وزير المعزّ بن باديس مفتخرا بقومه آل شيبان، يقول فيها:

يـــا آل شـــيبان لا غـــارت نجـــومُكُمُ ولا خَبـــتْ نـــاركم مـــن بعـــد توقيـــدِ

أنـــتم دعـــائم هـــذا الملـــك مـــذ ركضـــت قُبْـــلُ الخيـــول لإبـــرام وتوكيـــدِ

الـــمُنعمُون إذا مـــا أزمـــةٌ أَزِمَـــتْ والواهبـــون عَتِيقَـــات الـــمَزَاويدِ

ســـيوفُكم أَفْقَـــدَتْ كِسْـــرَى مَرازِبَـــه فـــي يـــوم ذى قَـــار إذْ جـــاؤوا لموعـــودِ

فيقول: وهذا هو الفخر الحلال غير المدعي فيه ولا المُنتحَل."[2]، وابن رشيق عندما يصف هذه الأبيات بالفخر الحلال، فكأنَّه يقول بأنَّ هناك فخرا محرَّما، وهذا صحيح، فالفخر في عصر صدر الإسلام يختلف كلِّيا عن الفخر في الجاهلية؛ لأنَّ القيم التي كانت تدفع الشاعر الجاهلي إلى هذا الغرض تختلف كثيرا عن القيم التي زرعها الإسلام في نفوس المسلمين، لذلك نرى أنَّ الفخر قد اتَّخذ في الإسلام منحى جديدا يتوافق مع العقيدة الدّينية الجديدة، فأصبح الافتخار بالانتماء إلى الإسلام، والذود عنه وعن رسول الله ﷺ، وبذل النَّفس من أجل إعلاء كلمة الله، والظَّفر بمرضاته وجنَّته. وأمَّا فخر الجاهلية فكثيره قد سقط وانتهى؛ وذلك لوجود قيم ومبادئ وقضايا أعظم وأجلُّ لأنْ يفتخر بها الشاعر المسلم، وهي تُشكِّل بديلا عن تلك العصبيات والنعرات القبلية التي كانت مدار الفخر في الجاهلية، –وخبر النابغة الجعديِّ مع النبيِّ ﷺ الذي مرَّ بنا سالفًا خير مثال على ذلك–، أمَّا الفخر بالمكارم والفضائل والنَّسب الشريف دون مباهاة أو تَعَالٍ فقد ظلَّ سائدا في صدر الإسلام وبعده.

وإن كنَّا نلاحظ أنَّ أبا الحسن يعود بنا إلى العصر الجاهلي، ويذكر ما فعله قومه في موقعة ذي قار مع الفُرس، حيث "يفتخر بقومه آل شيبان، ويدعو أن تظل نجومهم مضيئة فى سماء العروبة وأن تظل نيرانهم متَّقدة لا تنطفئ أبدا، إذ هم دعائم الملك العربى منذ نشبت الحروب وصهلت فيها خيول الفرسان لفرض المعاهدات وعقد المواثيق، وقد اشتهروا بما ينعمون فى الأزمات ويهبون من العطايا الجزيلة، ويرفع أمام الأعين بطولتهم العظيمة يوم ذي قار الذي نكَّلوا فيه بالفرس

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص126.

[2] – المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

تنكيلا شديدا، وهي منقبة عظيمة لقبيلته شيبان في الجاهلية لا ينساها العرب ولا ينساها التاريخ."[1]، إلاَّ أنَّ هذا كلَّه ليس من قبيل الافتخار أو التفاخر الذي نهى عنه الإسلام، وحذَّر منه الرسول ﷺ، فالفخر المنهي عنه هو الذي يُؤدي إلى إثارة نعرات العصبية والقبلية، والتي تُؤدي إلى الشِّقاق والخلاف بين الناس، والتفريق بين المجتمع الواحد، بل وتُؤدي بهم إلى قطع أواصر الصِّلة والمحبة بينهم. ويُصبح عندئذ الفخر محرَّما؛ لأنَّ مبعثه الكِبر، وغمط الناس واحتقارهم، وكان كذبًا ومبالغة وادِّعاء. جاء في الموسوعة الفقهية: "قال الجرجاني: الفخر التَّطاول على النَّاس بتعديد المناقب، وقال صاحب دستور العلماء: الفخر الاستعظام على النَّاس بتعديد المناقب. والفخر من الأمور المنهي عنها شرعا في الجملة، وقد ورد النهي عنه في أحاديث كثيرة."[2]

ومن هذه الأحايث الشريفة في النهي عن الفخر، قوله ﷺ: **«أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ.»**[3]

وقد ورد ذِكْرُ الفخر في القرآن العزيز في خمسة مواضع، كلُّها في مقام الذمِّ، وجاء مقرونا بصفة مقاربة من الصفات غير المحمودة، كالفرح، والاختيال، كقوله تعالى: **﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾**[4]، والفرح في القرآن إذا جاء مطلقاً فهو مذموم كما ذكر المفسِّرون، وكقوله تعالى: **﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾**[5]

والفخر عادة ما يكون متعلِّقًا بالأنساب، وعلم الأنساب هو علم عظيم النَّفع جليل القدر، يُتعرَّف منه أنساب النَّاس، والغرض منه الاحتراز عن الخطأ في نسب شخص. والعربي قد اعتنى في ضبط نسبه، ولكي لا يصل الهدف من النَّسب إلى التباهي والتفاخر بالآباء، حدَّد الرسول ﷺ الغاية من تعلُّم الأنساب، فقال: **« تَعَلَّمُوا من أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ»**[6]، كما حذَّر ونبَّه الفاروق عمر ﷺ من تجاوز الحدِّ والغاية من هذا العلم، فقال: (**وتعلَّمُوا من الأنْسَاب ما تَصِلُون به أرْحَامَكم وتعرفون به ما يحلُّ لكم ممَّا حُرِّم عليكم من النِّساء، ثمَّ انتهوا.**)[7] ويُفهم التحذير من قوله: (انتهوا)، أي: انتهوا عن التفاخر المؤدِّي إلى العصبية المقيتة.

فالفخر خصلة ذميمة؛ لأنَّه مُباهاة وتعاظمٌ في غير محلِّه، وإذا قُدِّر أنَّ محلَّ الافتخار موجودٌ لدى المفتخِر، فإنَّه لا ينبغي له أن يتظاهر أمام النَّاس بمظاهر العظمة والكبرياء. لهذا جاء في الحديث الشريف أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ**

---

[1] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي–عصر الدول والإمارات، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، دت، ج10، ص150.

[2] – مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفقهية، ج32، ص57–58.

[3] – مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجنائز، رقم الحديث934، ص260.

[4] – سورة هود، الآية10.

[5] – سورة الحديد، الآية23.

[6] – الترمذي، الجامع الكبير، ج3، باب ما جاء في تعليم النَّسب، رقم الحديث1979، ص521.

[7] – السَّمعاني أبو سعد عبد الكريم بن منصور، الأنساب، تح: عبد الله عمر البارودي، دار الجِنان، بيروت، لبنان، ط1، 1988م، ص23.

آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلَا فَخْرَ»[1]

ويختم ابن رشيق هذا الباب بتفضيل قصيدة السَّموأل في غرض الفخر، ويعتبرها من أجود ما قيل في الافتخار، ويُعلِّل ذلك قائلا: "ومن أجود قصيدة افتخر بها شاعرٌ قصيدة السَّموأل بن عادياء اليهودي، فإنَّها جمعت ضروب الممادح وأنواع المفاخر، وهي مشهورة."[2]، وابن رشيق يعني بهذه القصيدة المشهورة (لامية السَّموأل)، تلك القصيدة التي تُعتبر من أجمل وأحسن ما قيل في الفخر في الشعر العربي. فالشاعر يفخر بقبيلته، وعشيرته وهذا من عادة العرب إذ إنَّ فخره وعزَّه من عزِّ قبيلته. ولكن بم يفتخر السَّموأل في قصيدته هذه؟ إنَّه يفتخر بكلِّ جميل وعظيم من الأخلاق والفضائل التي يسعى كلُّ عربي لأن يتَّصف ويتحلَّى بها، لهذا قال عنها ابن رشيق: إنَّها جمعت ضروب الممادح، وأنواع المفاخر. ومن المناسب أن نقف عند بعض أبيات هذه القصيدة، يقول السَّموأل:

إذا المَرءُ لَم يدنَسْ من اللُّؤمِ عِرضُهُ فَكُلُّ رِداءٍ يَرتَديهِ جَميلُ
وإنْ هو لم يَحمِلْ على النَّفسِ ضَيمَها فليس إلى حُسنِ الثَّناء سَبيلُ
تُعَيِّرُنا أَنَّا قَليلٌ عَديدُنا فقُلتُ لَها إِنَّ الكِرامَ قَليلُ
وَما قَلَّ مَن كانَت بَقاياهُ مِثلَنا شَبابٌ تَسامى لِلعُلى وَكُهولُ
وَما ضَرَّنا أَنَّا قَليلٌ وَجارُنا عَزيزٌ وَجارُ الأَكثَرينَ ذَليلُ
وَإِنَّا لَقَومٌ لا نَرى القَتلَ سُبَّةً إِذا ما رَأَتهُ عامِرٌ وَسَلولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ المَوتِ آجالَنا لَنا وَتَكرَهُهُ آجالُهُم فَتَطولُ
وَما ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنفِهِ وَلا طُلَّ مِنَّا حَيثُ كانَ قَتيلُ
تَسيلُ عَلى حَدِّ الظُباتِ نُفوسُنا وَلَيسَت عَلى غَيرِ الظُباتِ تَسيلُ
فَنَحنُ كَماءِ المُزنِ ما في نِصابِنا كَهامٌ وَلا فينا يُعَدُّ بَخيلُ
إِذا سَيِّدٌ مِنّا خَلا قامَ سَيِّدٌ قَؤولٌ لِما قالَ الكِرامُ فَعُولُ
وَما أُخمِدَت نارٌ لَنا دونَ طارِقٍ وَلا ذَمَّنا في النازِلينَ نَزيلُ
وَأَيّامُنا مَشهورَةٌ في عَدُوِّنا لَها غُرَرٌ مَعلومَةٌ وَحُجولُ
سَلي إِن جَهِلتِ النّاسَ عَنّا وَعَنهُمُ فَلَيسَ سَواءً عالِمٌ وَجَهولُ[3]

وشتَّان بين هذه القصيدة للسَّموأل التي عدَّها النقاد من أجود قصائد الفخر، والتي يفتخر فيها الشاعر بقومه. ومفاخرها كلُّها متعلِّقة بمكارم الأخلاق لم تتجاوزها، فيذكر فضائل قومه وأخلاقهم من طهارة العرض، وسلامة النَّفس،

---

[1] – الترمذي، الجامع الكبير، ج6، باب في فضل النبيِّ ﷺ، رقم الحديث3615، ص11.
[2] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص127.
[3] – السَّموأل، الديوان، ص11-14.

وشجاعتهم في الحروب، وأنَّهم أصحاب عزَّة ومنعة وشرف، يُجيرون من استجار بهم، ويُكرمون من نزل بهم ضيفا. ومن قبلها أبيات أبي الحسن ابن أبي الرِّجال التي يفتخر فيها بقومه آل شيبان وصنيعهم في موقعة ذي قار مع الفُرس، وبين مَن يتباهى ويفتخر بكثرة غاراته على القبائل، وقتل رجالهم، وبَقْر بطون نسائهم الحوامل، فهذا عامر بن الطفيل يقول:

وَفَـــدْنَا فَآوَيْنَـــا بأشْـــرافِ دارِمٍ غـــداةَ جَزَيْنـــا الجَـــوْن بـــالجَوْن صَـــيْلَمَا
ولـــمْ يَكْفِنَـــا قَـــوْمٌ مَقامـــاً ولـــمْ نَعُـــذْ بغَيـــرِ القَنـــا فـــي خَشْـــيَةٍ أوْ تَجَرُّمَـــا
وَلَـــمْ أرَ قَوْمـــاً يَرْفَعُـــونَ لِـــواءَهُمْ لغايَتِنَـــا فـــي الـــمَجْدِ مِمَّـــنْ تكَلَّمَـــا
ونحـــنُ صَـــبَحْنا حَـــيَّ أسْـــماءَ بالقَنـــا ونَحْـــنُ تَرَكْنَـــا حَـــيَّ مُـــرَّةَ مأتَمَـــا
بَقَرْنـــا الحَبـــالى مـــن شَـــنُوءَة بَعْـــدَمَا خـــبَطْنَ بفَيـــفِ الـــرّيحِ نَهْـــداً وخَثْعَمَـــا
ونَحْـــنُ صَـــبَحْنَا حَـــيَّ نَجْـــرانَ غـــارَةً تُبيـــلُ حَبالاهَـــا مَخافَتَنَـــا دَمَـــا[1]

وفي غرض الافتخار لا نكاد نعثر على كثير نماذج في كتاب الأنموذج، سواء كان افتخارا بالذَّات واعتزازا بالنَّفس، أو افتخارَ الشاعر بقبيلته وقومه. ومن أحسن ما قيل في الفخر، ما قاله الشاعر عبد الله بن أبي العباس، مُفتخرا بقومه:

وحـــول بيـــوت الحـــيِّ جَـــرْدٌ تـــرى لهـــا إذا مـــا عـــلا صـــوتُ الصـــريخِ تحمحُمـــا
وفـــي الحـــيِّ فتيـــان تخـــالُ وجـــوهَهم إذا ســـفَرُوا فـــي ظلمـــة اللَّيـــل أنجُمـــا
زنـــود النُّهـــى سُـــحُب النَّـــدى أنجـــم الهـــدى بُـــدُور السَّـــنا عـــرقُ الوفـــا أُسْـــدُ الحمـــى
هـــم أقـــدمُ الأمـــلاك ملكـــا وسُـــؤدَدَا ومجـــــدا وآلاءً وفخـــــرًا مُســـــلَّما
فمـــنهم زُهيـــر بـــن جنـــاب الـــذي ســـقى كُـــؤوس الـــرَّدى حـــيَّ معـــدٍّ وأطعمـــا
معـــالي بنـــي قحطـــان بِـــيضٌ زواهـــرُ يـــرى غيـــرهم بـــين الســـماكَيْن معلَمـــا
إذا مـــا تتوَّجنـــا فـــلا نـــاس غيرنـــا ونمنـــــع مـــــن شـــــئناه أن يتعمَّمـــــا
وكنَّـــا ذوي التيجـــان قبـــل محمَّـــد ومـــن بعـــده نلنـــا الفخـــارَ المعظَّمـــا
نصـــــرنا وآوينـــــا ونلنـــــا بنصـــــرنا لـــــه شـــــرفا ضـــــخمًا وعـــــزًّا مُقـــــدَّما
فقـــــل لمناوينـــــا: صَـــــهٍ إنَّ عزَّنـــــا جميـــع ملـــوك العجـــم والعـــرب أرغَمـــا
إلـــى أن عـــلا الإســـلام وانتشـــر الهـــدى وأصـــــبح ديـــــن الله أكـــــرم منتمَـــــى
وأشـــــرقت الـــــدُّنيا لأحمـــــد وارتمـــــت بنـــــا همَّـــــة الإســـــلام أبعـــــد مُرتمَـــــى
ففـــاخرْ بقحطـــان بـــن هـــود ويعـــرب إذا أنـــت فـــاخرت امـــرءًا فَهُمـــا هُمَـــا[2]

ونجد كذلك الشاعر أبا الحسن علي بن زياد الأنصاري يذكر قومه مفتخرا:

[1] – ابن الطفيل عامر بن مالك، الدِّيوان، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1979م، ص116-118.
[2] – ابن رشيق، الأنموذج، ص184-185.

مـــن كـــلِّ عـــالي القَـــدْرِ ســـامي الـــذُّرى ينميـــــــه للخـــــــزرج أنصـــــــارُ
لـــيس علـــى مَـــنْ قـــد عـــلا فخـــرُه إن طالـــــــه فخـــــــرُهم عـــــــارُ[1]

وهناك شعراء افتخروا بشعرهم، منهم الشاعر عبد الخالق بن أبي حاتم، حيث يقول:

سَأَصُـــونُ غِرَّاتِـــي بِغُـــرٍّ قصـــائد تعيـــا بهـــا حِـــيلاً ذوو الألبـــابِ
حـــارتْ سَـــحَائبُ فِكْـــرِ كُـــلِّ مُهـــذَّبٍ فيهـــا وصِـــيبَ عقلُـــه بِعُجَـــابِ
فتنفسَـــتْ منهـــا الرِّيـــاض وأعْلَقَـــتْ منهـــا القلـــوبُ برائـــق خـــلَّابِ[2]

وكذلك نجد الشاعر عنترة التميمي التونسي، يقول مفتخرا بقريضه:

أنـــا الـــذي يفخـــرُ القـــريضُ بـــه والجـــودُ والمرهفـــات والقلـــمُ
قـــد فُـــتُّ مَـــنْ فـــات فـــي القـــريض ولـــي علـــى قفـــا كـــلِّ شـــاعر قَـــدَمُ[3]

وهذا الشاعر أبو الحسن محمد بن أحمد المعروف بالصَّرائري، يقول معتزًّا بنفسه:

هانَـــتْ علـــيَّ الـــنَّفسُ وهـــي كريمـــةٌ مـــن أجـــل قـــومٍ بيـــنهم أتصـــرَّفُ
فلقيـــتُهم فيمـــا يليـــقُ بمـــثلهم ورجـــوتُ أنِّـــي بيـــنهم لا أُعْـــرَفُ
وإذا خلـــوتُ بهمَّتـــي لـــم يُرضـــني إلاَّ الأجـــلُّ مـــن الأمـــور وأشـــرَفُ[4]

وهذه المختارات من الأنموذج في الفخر تعكس تصوُّر ابن رشيق لهذا الغرض الشعري، فهو كالمدح تماما، إلاَّ أنَّ الشاعر يمدح نفسه أو يمدح قبيلته، وعليه فكلُّ ما هو حسن في المدح هو حسن كذلك في الفخر، وكلُّ ما هو قبيح في المدح هو كذلك في الفخر. ونُسجِّل أوَّلا قلَّة النماذج في غرض الفخر، وهذا يدلُّ على انصراف الشعراء المغاربة عن هذا النوع من الشِّعر لِمَا فيه تطاوُل وتَعَالٍ قد يُؤدي إلى التكبُّر والتعاظم على النَّاس، وهذا منهيٌّ عنه في ديننا. كما نرى أنَّ الفخر الجماعي أو القبلي يُشيد فيه الشاعر بأمجاد وبطولات القبيلة والاعتزاز بفضائلها الحميدة، وهذا كلُّه محمود في الفخر ولا تثريب عليه مادام أنَّ الغرض منه ليس إثارة النعرات القبلية والعصبية الجاهلية المقيتة، كما أنَّ هذا الفخار مبنيٌّ على حقائق ووقائع صادقة لا كذب فيها ولا زيادة، فلا يفتخر الشاعر بما ليس فيه أو في قبيلته من صفات. ومن مميزات الفخر الجماعي أو القبلي في الأنموذج هو عدم الاقتصار على الفخر بالأمجاد والفضائل التي كانت تتحلَّى بها القبيلة، بل أصبح الافتخار بالانتماء للدِّين الإسلامي ونصرته، وخوض الحروب من أجل إعلاء رايته والاستشهاد في سبيله. وهذا الذي كان في صدر الإسلام، فقد أضحى الافتخار بالإسلام عوض القبيلة، وبالدفاع عن الرسول ﷺ ونصرة الإسلام بدل الفخر بالعادات والتقاليد القبلية الجاهلية. وشعراء المغرب العربي من خلال هذه

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص284.
[2] – المصدر نفسه، ص140.
[3] – نفسه، ص314-315.
[4] – نفسه، ص357.

النَّماذج قد تخطَّوا الفخر الذي كان في العصرين الأموي والعباسي والذي عاد في عمومه إلى النَّمط الذي كان سائدا في العصر الجاهلي، وتمثَّلوا الفخر في صدر الإسلام بصبغته الدّينية الجديدة، وخروجه عن حدود الفردية والقبلية الضيِّقة المتعصِّبة إلى آفاق الإسلام السَّمحة والرَّحبة.

وفي الافتخار بالذَّات، نجد شعراء المغرب العربي قد افتخروا بعزَّة أنفسهم وعلوِّ همَّتهم، وأنَّهم لا يقبلون الضَّيم أبدا مهما كانت النتائج، وهذا ليس بمذموم في الفخر،كما افتخروا بشعرهم وقريضهم، وهو ما كان من الشاعر عنترة التميمي التونسي، ونلاحظ –وللأسف– عدم تعليق ابن رشيق على البيتين ممَّا يجعلنا لا نستطيع أن نتبيَّن حكمه وموقفه النقدي؛ لأنَّ الشاعر قد ابتعد في افتخاره عن الحدِّ المسموح به، فنرى استعلاء وتطاوُلا وتعاظُمًا مقيتًا؛ فقد جعل الشعر هو الذي يفتخر به وليس العكس، كما وضع نفسه موضع السَّبق والرِّيادة في الشعر عن جميع الشعراء السابقين والمتأخِّرين، وهذا مُنافٍ لخلق التواضع الذي أكَّد عليه ابن رشيق في سلوك الشاعر وأخلاقه، كما ترك أثر قدمه على قفا كلِّ شاعر صورة شنيعة من صور الكبرياء والعنجهية الممقوتة، التي بسببها كان التَّحذير والنَّهي عن الفخر شديدا. ولكنَّ الشاعر –أوَّلا وأخيرا– يجوز له ما لا يجوز لغيره، وهذا ما يشفع له.

*** الرِّثاء:**

من الأغراض الشعرية التي يتجلَّى فيها المعيار الأخلاقي الرثاء، وهو فنٌ من فنون الشعر العربي القديمة، وهو عبارة عن التأسُّف والبكاء والنَّوح على الميِّت، مقتولا كان أو ميِّتا، وتصوير الشاعر لحزنه وألمه وفجعه بفقدان هذا الميِّت. ورثاء الشاعر الميِّت هو في حقيقة الأمر رثاءٌ وبكاءٌ على محاسن هذا الميِّت وما اتَّصف به من فضائل وأخلاق. يقول الرافعي: "الشعر في المراثي إنَّما يُقال على الوفاء، فيقضي الشاعر بقوله حقوقا سلفت، أو على السجيَّة إذا كان الشاعر قد فُجِعَ ببعض أهله، أمَّا أن يُقال على الرغبة فلا؛ لأنَّ العرب التزموا في ذلك مذهبا واحدا، وهو ذِكْرُ ما يدلُّ على أنَّ الميِّت قد مات؛ فيجمعون بين التفجُّع والحسرة والأسف والتلهُّف والاستعظام، ثمَّ يذكرون صفات المد مُبلَّلةً بالدموع."[1]

وقد ظلَّ الرثاء بعد ظهور الإسلام عمَّا كان عليه في الجاهلية، إلاَّ أنَّ الإسلام غيَّر النفوس، وهذَّب الطِّباع، وأصبح العربي المسلم يُؤمن بقضاء الله وقدره عند مُصيبة الموت، فلا يقول ولا يفعل ما يُغضب الله عزَّ وجلَّ، أو يُنافي إيمانه بالقدر خيره وشرِّه. ولمَّا كان الرثاء ذِكْرًا لمحاسن الميِّت وأخلاقه وفضائله فهو لا يختلف كثيرا عن المدح، وهذا ما بيَّنه ابن رشيق في بداية هذا الباب، فيقول: "وليس بين الرثاء والمدح فرقٌ، إلاَّ أنَّه يُخلط بالرثاء شيءٌ يدلُّ على أنَّ المقصود به ميِّتٌ، مثل: كان أو عدمنا به كيت وكيت، وما يُشاكل هذا ليُعلم أنَّه ميِّتٌ."[2]

[1] – الرافعي مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ج3، ص81.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص127.

وابن رشيق هنا يذكر ما قاله معظم النقاد، من أنَّه لا فرق بين المدح والرِّثاء إلاَّ في بيان أنَّ المدح لحيٍّ، والرِّثاء لميِّت. يقول قدامة بن جعفر: "ليس بين المرثية والمدحة فصل إلاَّ أن يُذكر في اللفظ ما يدلُّ على أنَّه لهالكٍ، مثل: كان، وتولَّى، وقضى نحبه، وما أشبه ذلك؛ لأنَّ تأبين الميّت إنَّما هو بمثل ما كان يُمدح به في حياته."[1]

ويبرز المعيار الأخلاقي في الرثاء بالبكاء على الميِّت بما كان يُوصف به في حياته من شجاعة وجُود وسماحة وإغاثة ملهوف، أو غير ذلك من مناقبَ أصبحت موضوع التَّأبين بعد الإسلام، كأن يُوصف الميِّت بالتَّقوى، والعدل، والإيمان، والطُّهر، والرحمة، وفعل الخيرات، ونصرة الدِّين..، ومن مختارات ابن رشيق في أجود ما قيل في الرِّثاء نجد قول حسين بن مطير يُرثي معن بن زائدة:

فيـــا قبـــرَ مَعْـــن، كُنْـــتَ أوَّلَ حُفـــرة ... مـــن الأرض خُطَّـــت للسَّـــماحة مَضْـــجَعَا
ويـــا قبـــرَ مَعْـــن، كيـــفَ واريْـــتَ جُـــودَه ... وقـــد كـــان منـــه البـــرُّ والبحـــر مُتْـــرَعَا
بلـــى قـــد وسِـــعْتَ الجـــودَ، والجـــودُ ميِّـــتٌ ... ولـــو كـــان حيًّـــا ضِـــقْتَ حتَّـــى تصـــدَّعَا
ولـــمَّا مضـــى مَعْـــنٌ مضـــى الجـــودُ وانقضـــى ... وأصـــــبح عِـــــرنينُ المكـــــارمِ أجْدَعَـــــا
فتـــى عِـــيشَ فـــي معروفـــه بعـــد موتـــه ... كمـــا كـــان بعـــد السَّيـــل مجـــراه مَرتَـــعَا[2]

ولكن، كيف يذكر ابن رشيق مثل هذه المراثي –ولا نختلف معه على جودتها– لابن مطير، وأبي تمام وقد أكثر له من مختاراته، وينسى أو يغضُّ الطَّرف عن تلك المراثي التي قيلت في سيِّد ولد آدم محمد ﷺ، من لدن الصحابة وغيرهم من الشعراء من بعدهم! فإذا كان ما اختاره قد اعتبره من جيِّد ما قيل في الرثاء، فإنَّ ما رُثِيَ به الرَّسُول ﷺ يُعدُّ من أنفس عيون الشِّعر العربي في الرِّثاء، ومرثيات حسَّان بن ثابت ﷺ وهو يبكي فيها الرَّسُولَ ﷺ لدليل على ذلك، ومنها قوله على سبيل المثال:

بِطَيْبَـــةَ رَسْـــمٌ لِلرَّسُـــولِ وَمَعْهَـــدُ ... مُنِيـــرٌ وَقَـــدْ تَعْفُـــو الرُّسُـــومُ وَتَهْمَـــدُ
وَلا تَنْمَحِـــي الآيَـــاتُ مِـــنْ دَارِ حُرْمَـــةٍ ... بِهـــا مِنبَـــرُ الهَـــادِي الـــذي كـــانَ يَصْـــعَدُ
عَرفْـــتُ بِهـــا رَسْـــمَ الرَّســـولِ وَعَهْـــدَهُ ... وَقَبْـــراً بِهـــا وَارَاهُ فـــي التُّـــرْبِ مُلْحِـــدُ
فَبُورِكْـــتَ يـــا قَبْـــرَ الرَّسُـــولِ وَبُورِكَـــتْ ... بِـــلادٌ ثَـــوَى فِيهَـــا الرَّشِـــيدُ الـــمُسَدَّدُ
يُبَكُّـــونَ مَـــن تَبْكِـــي السَّـــمَواتُ يَومَـــهُ ... وَمَـــنْ قَـــدْ بَكَتْـــهُ الأَرْضُ فَالنَّـــاسُ أَكْمَـــدُ
فَبَكِّـــي رَسُـــولَ اللهِ يـــا عَـــينُ عَبْـــرَةً ... وَلا أَعرِفَنْـــكِ الـــدَّهرَ دَمْعَـــكِ يَجْمَـــدُ
وَمَـــا فَقَـــدَ الماضُـــونَ مِثْـــلَ مُحَمَّـــدٍ ... وَلاَ مِثْلُـــهُ حَتَّـــى القِيامَـــةِ يُفقَـــدُ[3]

---

[1] – قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص118.

[2] – الحسين بن مطير الأسدي، شعر الحسين بن مطير، مُستلّ من مجلة معهد المخطوطات العربية، الدوحة، قطر، مج15، ج1، 1969م، ص59.

[3] – حسَّان بن ثابت، الديوان، ص142-148.

ثمَّ يأتي ابن رشيق على ذِكْرِ بعض خصائص ومميزات غرض الرِّثاء التي تُميِّزه عن غيره من الأغراض، فيقول: "وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجُّع، بيِّن الحسرة، مخلوطًا بالتلهُّف والأسف والاستعظام، إن كان الميِّت ملكا أو رئيسا كبيرا"، كما قال النابغة الذبياني في رثاء حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري:

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثُمَّ تَأْبَى نُفُوسُهُمْ وَكَيْفَ بِحِصْنٍ والجِبَالُ جُنُوحُ
وَلَمْ تَلْفِظِ الأَرْضُ القُبُورَ ولم تَزَلْ نُجُومُ السَّمَاءِ والأَدِيمُ صَحِيحُ
فَعَمَّا قَلِيلٍ ثم جَاشَ نَعِيُّهُ فَبَاتَ نَدِيُّ القَوْمِ وهو يَنُوحُ[1]

فهذا وما شاكله رثاء الملوك والرؤساء الجِلَّةِ."[2]، والرثاء من الفنون الشعرية المؤثِّرة في النفوس البشرية تأثيرا قويًّا ومباشرا؛ لأنَّه يُخاطب القلب والعقل معا، بعاطفة صادقة صادرة عن خلجات النَّفس المكلومة المهمومة، حتَّى عدَّه بعض النُّقاد أجود وأحسن أنواع الشِّعر، "قال أبو عبيدة معمر بن المثنَّى: أحسن مناطق الشعر المراثي والبكاء على الشَّيب. وقيل له: ما أجود الشِّعر؟ قال: النَّمط الأوسط، يعني المراثي. وقال: سألت أعرابيا: ما أجود الشِّعر عندكم؟ قال: ما رثينا به آباءنا وأولادنا؛ وذلك أنَّا نقولها وأكبادنا تحترق."[3]

ومعلوم أنَّ مُصيبة الموت لا تُفرِّق بين غنيٍّ وفقير، كبير وصغير، سيّد وعبد. ولكنَّ حال النَّاس عندما يكون الميِّت من أصحاب الجاه والمكانة، كأن يكون ملكا أو رئيسا، فالخطب عندئذ يكون جللا، والمصيبة أعمَّ وأعظم، وفي هذه الحالة يكون الرِّثاء مُستعظمًا، ظاهر التفجُّع والحسرة. يقول ابن رشيق: "وإلى هذا المعنى ذهب أبو العتاهية حين قال:

مـــــات الخليفـــــة أيُّهـــــا الثَّقـــــلان

فرفع النَّاس رؤوسهم، وفتحوا عيونهم، وقالوا: نعاه إلى الجنِّ والإنس، ثمَّ أدركه اللِّين والفَتْرةُ، فقال:

فكأنَّـــــني أفـــــطرْتُ فـــــي رمضـــــان

يُريد: إنِّي بمجاهرتي بهذا القول كأنَّما جاهرتُ بالإفطار في رمضان نهارا، وكلُّ أحد يُنكر ذلك عليَّ، ويستعظمه من فعلي، وهذا معنى جيِّدٌ غريبٌ في لفظ رديء غير مُعْربٍ عمَّا في النَّفس."[4]

فابن رشيق يُريد القول أنَّ الملوك والرؤساء يُؤبَّنون ويُرثَوْن بما يليق بهم، وعلى الشاعر أن يُراعي هذه الآداب كما رُوعيت في غرض المدح، وهذا عملا بالحديث الذي ذُكر عن عائشة **رضي الله عنها**، أنَّها قالت: **«أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»**[5]، فالنَّاس يتفاضلون على حسب منازلهم ومراتبهم، فما بالك إن كانوا ملوكا ورؤساء، لهذا أوجب النقاد –عند مخاطبتهم أو الحديث عنهم– آدابًا يجب أن تُراعى سواء كانوا أحياء أو أمواتا. وهذا ما جعل

---

[1] – النابغة الذبياني، الديوان، ص190.
[2] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص127.
[3] – البيهقي إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوئ، تح: عدنان علي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ج2، ص257.
[4] – ابن رشيق، المصدر السابق، ج2، ص127– 128.
[5] – مسلم، صحيح مسلم، مقدِّمة الكتاب، ص6.

القدماء من الشعراء يضربون الأمثال في المراثي بالملوك الأعزَّة والأمم السالفة وغير ذلك. وهذا في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر.[1]

فالنقاد يُؤكِّدون على الشعراء أن يُراعوا مقام الميِّت في مراثيهم، وبالأخصِّ إن كان من ذوي الجاه والسلطان، ولكن كيف يكون الحال إذا كان المرثيُّ هو سيِّد الخلق رسول الله ﷺ ؟! فالأمر سيكون دون شكٍّ أعظم وأجلَّ، وهذا لمقام وعظمة الرسول ﷺ. وبالمقابل فإنَّ الانتقاص من مكانته ﷺ، وعدم إيفائه حقّه، ومساواته بعامَّة النَّاس يُعدُّ عيبا وحطًّا من قدره الشريف، لهذا ذكر ابن رشيق أنَّ الجاحظ عاب قول الكميت في رثاء رسول الله ﷺ، حين قال:

فاعتَتَبَ الشَّوقُ من فؤادي والـ ... شِّعرُ إلى مَنْ إليه مُعتَتَبُ
إلى السِّراج المنيرِ أحمدَ لا ... تعْدِلني رغبةٌ و لا رَهَبُ
عنه إلى غيره ولو رفع الـ ... نَّاسُ إليَّ العُيُونَ وارتقَبُوا
وقيل: أفرطتَ، بل قَصَدتُ ولو ... عَنَّفَني القائلون أو ثَلَبُوا
إليك يا خيرَ من تَضَمَّنَت الـ ... أرضُ، وإن عَاب قَولي العَيَبُ
لَجَّ بتَفْضيلِك اللِّسَانُ، ولو ... أُكثِرَ فيك الضَّجَاجُ واللَّجَبُ[2]

يقول الجاحظ: ومن غرائب الحُمق: المذهب الذي ذهب إليه الكميت بن زيد في مديح النبيِّ ﷺ، فمَنْ رأى شاعرا مدح النبيَّ ﷺ فاعترض عليه واحدٌ من جميع أصناف النَّاس، حتَّى يزعمَ هو أنَّ ناسًا يعيبونه ويثلبونه ويُعنِّفونه. ولقد مدح النبيَّ ﷺ، فما زاد على قوله:

وبُورِكَ قَبرٌ أنْتَ فيه وبُورِكَتْ ... بِه ولَهُ أهلٌ لِذَلِكَ يَثْرِبُ
لقد غيَّبُوا بِرًّا وصِدْقاً ونَائِلاً ... عَشيَّةَ وَارَاكَ الصَّفيحُ المُنَصَّبُ

ويُعقِّب الجاحظ على البيتين قائلا: وهذا شعر يصلح في عامة النَّاس.[3]، ويعجب ابن رشيق من قول عبدة بن الطبيب في تأبين قيس بن عاصم، حين قال:

عليك سلامُ الله قيسُ بن عاصمٍ ... ورحمتُه ما شاء الله أن يترحَّما
تحيةُ مَن ألبسته منك نعمةً ... إذا زار عن شَحْطٍ بلادَك سلَّما
فما كان قيسٌ هُلكُهُ هُلْكَ واحدٍ ... ولكنَّه بُنيانُ قومٍ تهدَّما[4]

ثمَّ يقول: ويقول الكميت في تأبين رسول الله ﷺ هذا القول.[5]

---

[1] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج2، ص130.

[2] – الكميت بن زيد الأسدي، الديوان، تح: محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2000م، ص561-562.

[3] – يُنظر الجاحظ البيان والتبيين، ج2، ص239-240، والبيتان في ديوان الكميت، ص526.

[4] – عبدة بن الطبيب يزيد بن عمرو التميمي، الديوان، تح، يحي الجبوري، دار التربية للطباعة والنشر، بغداد، العراق، ط1، 1971م، ص15.

[5] – يُنظر ابن رشيق، المصدر السابق، ج2، ص132.

ونُشير هنا إلى أنَّ بائية الكُميت التي أورد منها الجاحظ الأبيات المذكورة تُعتبر من أجود أشعار الكميت في مدح الرسول ﷺ خاصة، وآل هاشم عامة، وهذا بشهادة الكثير من الدارسين والنقاد، بل وحتَّى الشعراء، ومع ذلك فالجاحظ ومعه ابن رشيق قد رأياها دون المستوى من الوجهة النقدية الإسلامية أو الأخلاقية؛ بحكم أنَّ المعاني التي تضمَّنتها هذه الأبيات عامةٌ مشتركة بين النَّاس جميعهم، وليس فيها ما يخصُّ مكانة الرسول ﷺ، الذي بُعث هاديا ومُبشِّرا ورحمة للعالمين ومُتمِّما لمكارم الأخلاق، ومن ثَمَّ كان قول الكميت في نظر الجاحظ مُجانبا الصَّواب، بل كان أقرب إلى العيِّ والحمق كما قال. أمَّا ابن رشيق فحتَّى يُبيِّن لنا قِصَرَ أبيات الكُميت عن وصف مكانة الرسول ﷺ وفضله وشرفه، جاءنا بالأبيات المشهورة لعبدة بن الطبيب قالها في تأبين قيس بن عاصم، "وهي من أشهر مراثي عبدة، وقد قالهنَّ حين ذهب إليه ليُصالحه بعد جفوة وقعت بينهما، فوجده قد مات. وهذه الأبيات شغلت الأدباء والشعراء، فقالوا في مطلعها (عليك سلام الله): أنَّها تحيَّة الموتى، وقالوا في البيت الثالث: أنَّه أرثى بيت قالته العرب، وهو قائم بنفسه ما له نظيرٌ في الجاهلية ولا الإسلام."[1]

ومع الفرق بطبيعة الحال بين الشخصيتين المرثيتين، ولكن نرى كما رأى ابن رشيق البون الشَّاسع بين القولين، فأبيات عبدة في رثاء قيس بن عاصم بيَّنت منزلة عاصم في قومه، والخسارة التي كانت بفقدانه، كما نجد فيها صدقًا وعاطفةً وإصابةَ معنى وحرارةً وحزنًا، للأسف الشديد تفتقر إليه أبيات الكميت في رثاء النبيِّ ﷺ. ثمَّ يقول ابن رشيق: "فهلاَّ قال مثل قول فاطمة **رضي الله عنها**، في رثاء أبيها:

اغْبَـــرَّ آفـــاقُ السَّـــماءِ وكُـــوِّرَتْ شـــمسُ النَّهَـــارِ وأَظْلَـــمَ العَصْـــرانِ
فـــالأرضُ مـــن بعـــد النبـــيِّ كئيبـــةٌ أســـفًا عليـــه كثيـــرةُ الرَّجَفَـــانِ
فَلْيَبْـــكِه شـــرقُ الـــبلاد وغَرْبُهـــا وَلْيَبْـــكِه مُضَـــرٌ وكـــلُّ يَمَانِـــي
ولْيَبْـــكِه الـــطَّودُ المُعظَّـــمُ جَـــوُّه والبَيْـــتُ ذو الأسْـــتَارِ والأرْكَـــانِ
يـــا خَاتِـــمَ الرُّسُـــل المبـــارك صـــنوُهُ صلَّـــى عليـــك مُنَـــزِّلُ القُـــرآنِ

ويقول مُعقِّبا: والنِّساء أشجى النَّاس قلوبًا عند المصيبة، وأشدُّهم جزعًا على هالكٍ؛ لِمَا رَكَّبَ الله عزَّ وجلَّ في طبعهنَّ من الخَوَرِ وضعف العزيمة."[2]، ويتأكَّد لنا الاتجاه الأخلاقي في الرثاء أكثر في مبحث آخر عنونه ابن رشيق بـ(لا يُقدِّمون نسيبًا على الرثاء)، فيقول: "وليس من عادة الشعراء أن يُقدِّموا قبل الرثاء نسيبا كما يصنعون في المدح والهجاء، وقال ابن الكلبيّ –وكان علاَّمة– لا أعلم مرثيةً أولها نسيب إلاَّ قصيدة دريد بن الصمَّة:

أرثَّ جديـــدُ الـــحبل مـــن أمِّ مَعْبَـــدِ بعافيـــة وأخلفـــت كـــلَّ موعـــدِ

ثم يُعقِّب، وأنا أقول: إنَّه الواجب في الجاهلية والإسلام، وإلى وقتنا هذا، ومن بعده؛ لأنَّ الآخذ في الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحسْرة والاهتمام بالمصيبة، وإنَّما تغزَّل دريد بعد قتل أخيه بسنة، وحين أخذ ثأره،

[1] – عبدة بن الطبيب، الدِّيوان، ص14– 15 .
[2] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص132–133.

وأدرك طِلْبَتَه. وربَّما قال الشاعر في مقدِّمة الرثاء: (تركت كذا) أو (كبرت عن كذا) و(شُغلت عن كذا)، وهو في ذلك كلِّه يتغزَّل ويصف أحوال النِّساء، وكان الكميت ركَّابا لهذه الطريقة في أكثر شعره. فأمَّا ابن مُقبل فمن جفاء أعرابيته أنَّه رثى عثمان بن عفَّان ﷺ بقصيدة حسنة أتى فيها على ما في النَّفس، ثم عطف وقال:

ولَـمْ تُنْسِنِي قَتْلَى قُرَيْشٍ ظَعَائِنٌ تَحَمَّلْنَ حَتَّى كَادتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ
يُطِفْنَ بِغِرِّيدٍ يُعَلِّلُ ذَا الصِّبَا إِذَا رَامَ أُزْكُوبَ الغَوَايَةِ أَزْكَبُ
فَدَعْ ذَا، ولكِنْ عُلِّقَتْ حَبْلَ عَاشِقٍ لإِحْدَى شِعَابِ الحَيْنِ والقَتْلِ، أَرْنَبُ
مِنَ الهِيفِ مَيْدَانٌ تَرَى نَطَفَاتِهَا بِمَهْلِكَةٍ أَخْرَاصُهُنَّ تَذَبْذَبُ[1]

ثمَّ يقول ابن رشيق: والنَّسيب في أوَّل القصيدة على مذهب دريد خيرٌ ممَّا ختم به هذا الجِلْفُ، على تقدُّمه في الصِّناعة، إلاَّ أن تكون الرواية: (ظعائنٌ) بالرَّفع.[2] لأنَّ ابن رشيق رواها (ظعائنًا) بالفتح. وتُعلِّق مُحقِّقة الديوان عزَّة حسن على كلام ابن رشيق، قائلة: "ورواية الديوان (ظعائن) بالرَّفع، هكذا الأصل في المخطوط، كما قدَّر ابن رشيق. على أنَّ اعتذاره لابن مُقبل برواية الرَّفع هذه لا يُقلِّل من إساءته وجفائه؛ لأنَّه لم يقف عند البيت أو البيتين، بل أطال النَّسيب، وأتى منه بأفانين. ولم يصنع أحدٌ من الشعراء صنيعه في هذه القصيدة، لا قبله ولا بعده."[3]

إنَّ استهلال القصائد الرثائية بالغزل كما فعل دريد بن الصمَّة، أو ختامها به كما فعل ابن مُقبل يُعدُّ انحرافا شنيعا عن الفطرة الإنسانية السليمة، وبُعدا عن الأخلاق السويَّة، واعتبره محمد صادق حسن شذوذا عن سُنَّة الشعراء.[4]

فهل يُعقل في خضمِّ طغيان عاطفة الحزن والألم والتفجُّع على الفقيد، أن يلتفت الشاعر أوَّلا إلى محبوبته أو مكانها القديم ليتغزَّل أو يتذكَّر؟! إنَّ الحالة الظرفية للشاعر في الرثاء لا تسمح له ألبتَّة أن يصرف قلبه للتشبيب ثمَّ يُعيده للحزن والبكاء بعد ذلك. يقول الدكتور حسين عطوان: "ومن المهمِّ أن نعلم أنَّ العُرف لم يَجْرِ على أن تبدأ المراثي بتلك المقدِّمات التقليدية، إلاَّ في قصائد قليلة تُعدُّ خروجا على هذه القاعدة."[5]، ولهذا نجد جُلَّ الشعراء قد راعوا هذه الخصوصية الشعورية من منطلق أخلاقي بحت، وحافظوا على الآداب العامة من قيم وعادات وتقاليد، واحترموا قبل هذا وبعده الفطرة السليمة للإنسان؛ حتَّى ولو كان في ذلك كَسْرٌ لتلك القاعدة الثابتة التي دأبوا على احترامها والمحافظة عليها في مقدِّمات قصائدهم. ولم يشُذْ منهم إلاَّ القليل ممَّن ابتدأوا بعض مراثيهم بمقدِّمة غزلية، مثل: المرقش الأكبر في رثاء ابن عمِّه ثعلبة بن عوف، والمهلهل بن ربيعة في رثاء أخيه كُليب، والنابغة الذبياني يُرثي النعمان بن الحارث الغساني،

---

[1] – ابن مُقبل تميم بن أُبيّ بن عوف القيسي، الديوان، تح: عزَّة حسن، دار الشروق العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1995م، ص34.

[2] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج2، ص131-132.

[3] – ابن مُقبل، المرجع السابق، تهميش البيت رقم28، ص34.

[4] – يُنظر حسن محمد صادق، خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجدِّدة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 1985م، ص436.

[5] – عطوان حسين، مقدِّمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، دط، 1970م، ص110.

وزُهير يُرثي هرم بن سنان[1]. ومن ملامح النقد الخلقي في الرثاء ما ذكره ابن رشيق في مبحث (أشدّ الرثاء صعوبة)، فقال: "ومن أشدِّ الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا أو امرأة؛ لضيق الكلام عليه فيهما، وقلّة الصفات، ألا ترى ما صنعوا بأبي الطيِّب في قوله يذكر أمَّ سيف الدولة:

صـــــلاةُ الله خَالِقِـــــنا حَـــــنُوطٌ على الـــوَجْه المُكفَّـــن بالجَمَـــالِ[2]

فقالوا: ما له ولهذه العجوز يصف جمالها؟!"[3]، فمتى كان حقًّا تأبين الميِّت بذكر جماله وصفاته الخِلْقِية؟ إنَّها بالفعل لمن عجائب المتنبي، وإنَّها لمن سقطاته وعيوبه التي تناولها الصَّاحب بن عبَّاد بشيء من التفصيل، كما ذكر ذلك ابن رشيق. يقول الصاحب بن عبَّاد في كتابه الكشف عن مساوئ المتنبي: ولقد مررتُ على مرثيَّة له في أمِّ سيف الدولة تدلُّ مع فساد الحسِّ على سوء أدب النَّفس، وما ظنُّك بمَنْ يُخاطب ملكا في أمِّه بقوله:

بعَيشِـــكِ هَـــلْ سَـــلَوْتِ فـــإنَّ قلبـــي وإنْ جَانَبْـــتُ أرضَـــك غيـــرُ سَالِـــي[4]

فيتشوَّق إليها، ويُخطئ خطأً لم يُسبق إليه، وإنَّما يقول مثل ذلك مَنْ يرثي بعض أهله، فأمَّا استعماله إيَّاه في هذا الموضع فدالٌّ على ضعف البصر بمواقع الكلام. وفيها يقول:

وهـــــذا أوَّلُ النَّـــــاعِينَ طُـــــرًّا لأوَّلِ مَيْتَـــــةٍ فـــــي ذا الجَـــــلالِ[5]

ومن سمع باسم الشعر؛ عرف تردُّده في انتهاك الستر. ولـمَّا أبدع في هذه المرثية واخترع قال:

صـــــلاة الله خالقنـــــا حَـــــنُوطٌ على الـــوَجْه المُكفَّـــن بالجَمَـــالِ

وقد قال لي بعض مَنْ يغلو فيه: هذه استعارةٌ، فقلتُ: صدقتَ، ولكنَّها استعارة حِداد في عُرسٍ، فلا أدري هذه الاستعارة أحسن؛ أم وصفه وجه والدة مَلِكٍ يُرثيها بالجمال؛ أم قوله في وصف قرابتها وجواريها:

أتَتْهُـــــنَّ المُصِيبَـــــةُ غافـــــلاتٍ فَـــدَمْعُ الحُـــزنِ فـــي دَمْـــعِ الـــدَّلالِ[6]

ولـمَّا أحبَّ تقريظ المتوفاة، والإفصاح عن أنَّها من الكريمات، أعمل دقائق فكره، واستخرج زبدة شعره، فقال:

ولا مَـــنْ فـــي جَنَازَتِـــهَا تِـــجارٌ يكـــون وداعُهَـــا نَفْـــضَ النِّـــعَالِ[7]

ولعلَّ هذا البيت عنده وعند كثير ممَّن يقول بإمامته أحسن من قول القائل:

أرادُوا لِيُـــخْفُوا قبـــرَه عـــن عـــدوِّه فطِيـــبُ تُـــرابِ القبـــر دلَّ علـــى القبـــر

وكان النَّاس يستبشعون قول مسلم:

---

[1] – يُنظر عطوان حسين، مقدِّمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، ص111.

[2] – المتنبي، الديوان، ص256.

[3] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص134.

[4] – المتنبي، المرجع السابق، ص257.

[5] – المرجع نفسه، ص256.

[6] – نفسه ص258.

[7] – نفسه، والصفحة نفسها.

سُـــلَّتْ فَسُـــلَّتْ ثُـــمَّ سُـــلَّ سليلُـــها فَأَتَـــى سَلِيـــلُ سَلِيلِـــهَا مَسْـــلُولا[1]

حتَّى جاء هذا المبدع بقوله:

وأفجـــعُ مَـــنْ فَـــقَدْنا مَـــنْ وجـــدْنَا قُبيـــلَ الفَقْـــدِ مَفْقُـــودَ المِثَـــالِ[2]

وأظنُّ المصيبة في الرَّاثي أعظم منها في المرثيِّ.[3]، هذا موقف ابن عبَّاد في مرثية المتنبي لأمِّ سيف الدولة، ولكن ما يعنينا هو رأي وموقف ابن رشيق من هذه المرثية، وذلك لأنَّ هذا الحكم من ابن عبَّاد قد يكون انتقاما من المتنبي الذي طعن كبرياءه في الصَّميم لمَّا كتب إليه يُلاطفه في استدعائه، وتضمَّن له مشاطرته جميع ماله، فلم يُقم له المتنبي وزنًا، ولم يُجبه عن كتابه ولا إلى مُراده، هذا ما حكاه الثعالبي في يتيمته.[4]

فابن رشيق وهو يُورد رأي ابن عبَّاد يُعقِّب قائلا: "فإن كان أراد الصَّاحب بالاستعارة الحنوط فقد والله ظلم وتعسَّف، وإن كان أراد استعارة الكفن بجمال العجوز فقد اعترض في موضع اعتراض إلى مواضع كثيرة في هذه القصيدة، على أنَّ فيها ما يمحو كلَّ زلَّةٍ، ويعفِّي على كلِّ إساءة."[5]، ويتبيَّن لنا موقف ابن رشيق المعتدل من أبيات المتنبي في رثاء أمِّ سيف الدولة؛ فهو يُقرُّ بأنَّ فيها إساءةً وسوءَ أدبٍ في مخاطبته ملكًا في أمِّه المرثيَّة، إلاَّ أنَّه يعترف بأنَّ قصيدته تلك فيها من المعاني الحسنة والصور الرائقة ما يمحو كلَّ زلاَّته، ويعفو عن كلِّ إساءاته.

ونختم غرض الرثاء بمسألة مهمَّة أشار إليها ابن رشيق، وهي(الجمع بين التهنئة والتعزية)، حيث قال: "ومن صَعْبِ الرثاء أيضا جمع تعزية وتهنئة في موضع، قالوا: لمَّا مات معاوية اجتمع النَّاس بباب يزيد، ولم يقدرْ أحدٌ على الجمع بين التهنئة والتعزية، حتَّى أتى عبد الله بن همَّام السَّلُولي فدخل، فقال: يا أمير المؤمنين، آجرك الله على الرزيَّة، وبارَك لك في العَطيَّة، وأعانك على الرَّعيَّة، فقد رُزِئْتَ عظيمًا، وأُعطِيتَ جسيمًا، فاشكر الله على ما أُعطِيتَ، واصبر على ما رُزِئتَ، فقد فَقَدْتَ خليفة الله وأُعطيتَ خلافة الله، ففارقتَ جليلًا، ووُهبتَ جزيلًا؛ إذْ قَضى معاويةُ نَحْبَه ووُلِّيتَ الرياسةَ وأُعطيتَ السّياسة، فَأورده الله موارد السرور ووفَّقك لصالح الأمور. ثمَّ قال:

اصـــبِرْ يزيـــدُ فَقَـــد فارَقْـــتَ ذا ثِقـــةٍ واشْـــكُر بـــلاءَ الـــذي بـــالودِّ أصـــفاكا

أصـــبحتَ تملـــكُ هـــذا الخلـــقَ كلَّهـــم فأنـــــتَ ترعَـــــاهُمْ، والله يَرعَاكـــــا

فـــإنْ رُزِيَ أحـــدٌ فـــي النَّـــاس نعلمُـــهُ كمـــا رُزِئـــتَ، ولا عُقبـــى كعُقباكـــا

---

[1] – مسلم أبو الوليد بن الوليد الأنصاري ديوان صريع الغواني، تح: سامي الدَّهان، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1985م، ج2، ص57.

[2] – المتنبي، الدِّيوان، ص258.

[3] – يُنظر الصَّاحب أبو القاسم إسماعيل بن عبَّاد، الكشف عن مساوئ شعر المتنبي، تح: محمد حسين آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، العراق، ط1، 1965م، ص45-48.

[4] – يُنظر الثعالبي، يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر، ج1، ص152.

[5] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص134.

وفـــي معاويـــةَ البـــاقي لنـــا خَلَـــفٌ إذا نُعيـــتَ، ولا نَسْـــمَعْ بِمَـــنْعَاكا[1]

ففتح للنَّاس باب القول."[2]، ويتَّضح لنا أنَّ هذا الغرض (الجمع بين التعزية والتهنئة) يُعدُّ غرضا إسلاميا خالصا، ظهر في بداية العصر الأموي، كما أنَّه كثيرا ما يحصل في قصور الخلفاء والملوك. والتعزية والتهنئة من الأمور المستحبَّة التي حثَّ عليها الإسلام ورغَّب فيها؛ لِمَا لهما من أثر طيِّب في النفوس، ومظهر من مظاهر التضامن والتآزر والتعاون بين المسلمين. فالتعزية تعني التَّصبير، بذكر ما يُسلِّي صاحب الميِّت، ويُخفِّف حزنه، ويُهوِّن مُصيبته. كما أنَّ التهنئة تعني مواجهة مَن أصابه خيرٌ بالفرح والسرور مع الدُّعاء له بالاستمتاع بهذا الخير ونيل بركته.

ولا يخفى أنَّ الجمع بين التعزية والتهنئة في الشعر من الصعوبة بمكان، ويحتاج من الشاعر إلى الكثير من اللَّباقة النَّادرة، والحَصَافة الموفَّقة، وشفوف الطَّبع، ورهافة الحسِّ، والمقدرة على مطابقة مقتضى الحال؛ ليبلُغ الإجادة فيه، ويحوز الرِّضا والإعجاب. كما يُعدُّ من الغرائب؛ وذلك لأنَّ الشاعر يُزاوج في عباراته وتراكيبه بين حقلين دلاليين متناقضين (التعزية والتهنئة)، فيجمع بين (الحزن والفرح) و(التسلية والبِشارة)، و(المحنة والمنحة)، وغير ذلك ممَّا يتطلَّب من الشاعر الموهبة والإبداع والمهارة. فيُظهر حزنه على مَن فُقِدَ، وسروره بِمَن قَدِمَ، كما يقتضي منه ذِكْر مناقب من ولَّى والترحُّم عليه والدعاء له بالرَّحمة والغفران، وبيان صفات وخصال مَن قَدِم، والدعاء له بالتَّمكين والعافية والنصر على الأعداء. لهذا يكون مضمون هذا اللَّون من الشِّعر مُفعمًا بالمعاني التي يتجلَّى فيها الاتجاه الوجداني العاطفي والدِّيني الأخلاقي.

ويبرز المعيار الأخلاقي في هذا الغرض في وجوب تقديم الشاعر التَّعزية على التهنئة؛ بحيث يُقدِّم أوَّلا العزاء للخليفة الجديد بِفَقْدِ سلفه، وغالبا ما يكون والده أو أخاه، ثمَّ يُقدِّم له مباركته وتهنئته بالخلافة بعد ذلك، مع الدعاء لمن ولَّى بالسَّلام والمغفرة، ولمن قَدِمَ بالسَّلامة والعزَّة. وأرى أنَّ تقديم التَّهنئة على التَّعزية سوء أدب من الشاعر، وعيبا فنِّيًا وأخلاقيا دالاًّ على خُمق صاحبه أو خُبث نيَّته. وإذا ما قصدنا الأنموذج فإنَّنا سنجد نماذج رائعة من رثاء المغاربة لموتاهم، يتجلَّى فيها صدق الشعور، وحرارة التَّعبير عن الإحساس، ودقَّة التَّصوير. كما تدلُّ بالفعل على أنَّ الرِّثاء من أفضل أنواع الشِّعر وأكثرها أهميَّة كما ذكر ذلك بعض النُّقاد. ومن المراثي المختارة ما جاء على لسان الشاعر إبراهيم بن القاسم المعروف بالرَّقيق النَّديم، حيث قال يُرثي:

أُهَـــوِّنُ مـــا ألْقَـــى ولـــيس بهَـــيِّنٍ بـــأنَّ المنايـــا للنُّفـــوسِ بمَرْصَـــدِ
وإنِّـــي وإنْ لـــم ألْقَـــك اليـــومَ رائِحًـــا لصَـــرْفِ رَزَايَاهَـــا لَقِيتُـــكَ فـــي غَـــدِ
فـــلا يُبْعِـــدَنْكَ الله مَيْتًـــا بِقَفْـــرَةٍ مُعَفَّـــر خَـــدٍّ فـــي الثَّـــرَى لـــم يُوَسَّـــدِ
تَـــرَدَّى نَجِيعًـــا حـــينَ بَـــزَّتْ ثِيَابُـــه كَـــأنَّ علـــى أعْطَافِـــه فَضْـــلَ مُجْسَـــدِ
مَضَـــاءُ سِـــنَانٍ فـــي سِـــنَانٍ مـــذَّلَقٍ وفَتْـــكُ حُسَـــامٍ فـــي حُسَـــام مُهَنَّـــدِ

[1] – السَّلولي عبد الله بن همَّام، الديوان، تح: وليد محمد السَّراقبي، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، الإمارات، ط1، 1996م، ص83-84.
[2] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص134- 135.

قال ابن رشيق: حقُّ الرِّثاء أن يكون مُثيرًا للشَّجن مهيجًا للحزن على هذا الأسلوب وفي هذا المعنى.[1]، ومن جيِّد ما سمع ابن رشيق للشاعر الحسن بن علي الكاتب المعروف بابن زنجي قوله يُرثي الشيخ أبا علي بن خلدون:

لَـــولاَ الـــحَيَاءُ وأنْ أَجِـــيءَ بِفِعْلَـــةٍ تَنْضَـــى علـــيَّ بهـــا سُـــيُوفُ مَـــلاَمِ

وأكُـــونَ مُتَّبِعًـــا لأشْـــنَعِ سُـــنَّةٍ قـــدْ سَـــنَّهَا قَبْلِـــي أبُـــو تَمَّـــامِ

لَلَبِسْـــتُ لَـــبْسَ الشَّـــاكِلاَتِ وكنـــتُ فـــي سُـــودِ الوُجُـــوه كَـــأنَّنِي مـــن حَـــامِ

أشار إلى ما صنعه أبو تمَّام يوم نَعي محمد بن حميد، لأنَّه غَمَسَ طرف ردائه في مِداد ثمَّ ضرب به كتفيه وصدره ثمَّ أنشد:

كـــذا فَلْيَجِـــلَّ الخَطْـــبُ ولْيَفْـــدَحِ الأمـــرُ فلـــيسَ لِعَـــينٍ لـــم يَفِـــضْ مَاؤُهَـــا عُـــذْرُ[2]

ومن جميل ما رُثِيَ به المنصور بن محمد بن أبي العرب قول الحسن بن محمد المعروف بابن الرَّبيب، حيث قال:

يَـــا قَبْـــرُ لا تُظْلِـــمْ عليـــه فَطَالَمَـــا جَلَّـــى بِغُرَّتِـــه دُجَـــى الإظْـــلاَمِ

أَعْجِـــبْ بِقَبْـــرٍ قَـــيْسَ شِـــبْرٍ قـــد حَـــوَى لَيْثًـــا وبَحْـــرَ نَـــدًى وبَـــدْرَ تَمَـــامِ[3]

وأمَّا الشاعر أبو طالب الدَّلائي الجهني، فيقول عنه ابن رشيق: "وحكى لي غير واحد أنَّه فَقَدَ من أحبَّتِه نيفًا وأربعين غريقًا في البحر، فصار شعره رثاء كلُّه تفجُّعًا عليهم ووفاءً لهم، من ذلك قوله:

أوْدَعْتُـــه بَطْـــنَ الثَّـــرَى وتَرَكْتُـــه فـــي رَمْسِـــه والـــمَوتُ مـــا لا يُنْكَـــرُ

قَدَّمْتُـــه ولَـــوْ أنَّنـــي أنْصَـــفْتُه مـــا كُنْـــتُ عنـــه سَـــاعَةً أتَأخَّـــرُ

ثم يقول ابن رشيق: فهذه أنفاس مُشتعلة عن نفس مُشتغلة، قد دلَّت على ما في الصَّدر دلالة الشواظ على الجمر. ومثل ذلك أيضا قوله:

نَـــأَى بسُـــروري وصَـــبْري مَعًـــا وأبْقَـــى فُـــؤَادِي عليـــه صَـــدِيعَا

ومَـــاتَ فَمَـــاتَ سُـــروري بـــه وصُـــنْتُ حَيَـــاتِي فَمْتُنَـــا جَمِيعَـــا

أَصَـــابَتْهُ عَـــيْنٌ مـــن الحَادِثَـــاتِ أصَـــابَ العَمَـــى نَاظِرَيْهَـــا سَـــرِيعَا

ممَّا يزيدك على هذا التفجُّع والتوجُّع الذي يقطع القلوب حسرات ويُذهب العيون عَبرات."[4]، وهذا الشاعر أبو القاسم عبد الرحمن بن يحي الأسدي يُرثي أبا محمد بن أبي زيد الفقيه، فيقول:

---

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص63-64.

[2] – المصدر نفسه، ص110، والبيت في شرح ديوان أبي تمَّام للخطيب القزويني، ج2، ص218.

[3] – نفسه، والصفحة نفسها.

[4] – نفسه، ص118-119.

هَـــــذَا لِعَبْـــــدِ اللهِ أَوَّلُ مَصْـــــرَعِ تُـــرْزَى بـــه الـــدُّنْيَا وآخِـــرُ مصْـــرَعِ
كَـــادَتْ تَمِيـــدُ الأَرْضُ خَاشِـــعَةَ الرُّبَـــى وتَمُـــورُ أفْـــلاكُ النُّجُـــومِ الطلَّـــعِ
عَجَبًـــا أيَـــدْرِي الحَـــامِلُون لِنَعْشِـــهِ كيـــفَ اسْـــتَطَاعَتْ حَمْـــلَ بَحْـــرٍ مُتْـــرَعِ
عِلْمًـــا وحِلْمًـــا كَـــامِلاً وبَرَاعَـــةً وتُقًـــى وحُسْـــنَ ســـكينَةٍ وتَـــوَرُّعِ
وسَـــعَتْ فِجَـــاجُ الأَرْضِ سَـــعْيًا حَوْلَـــه مـــن رَاغِـــبٍ فـــي سَـــعْيِهِ مُتَبَـــرِّعِ
يَبْكُونَـــهُ ولِكُـــلِّ بَـــاكٍ مِـــنْهُمُ ذُلُّ الأَسِـــيرِ وحُرْقَـــةُ الـــمُتَوَجِّعِ[1]

وممَّن فُجِع بولده الشاعر محمد بن عبدون الورَّاق، فقال يرثيه:

قَبْـــرٌ بِسُوسَـــةَ قـــد قَبَـــرْتُ بـــه النُّهـــى أدْرَجْـــتُ قَلْبِـــي فـــي مَـــدَارِجِ لَحْـــدِهِ
أسْـــكَنْتُهُ سُـــكْنَى ورُحْـــتُ كـــأنَّني فـــي الأَرْضِ لا بَشَـــرًا أرَى مـــن بَعْـــدِهِ
عَجَبًـــا لِمَـــنْ أَلْقَـــى عليـــه رِدَاءَهُ أوْ مَـــدَّ كَفًّـــا فـــي الصَّـــعِيدِ لِـــرَدِّهِ
صَـــمَّتْ علـــيَّ مَسَـــامِعي فـــي رَجَّـــة وصُـــعِقْتُ مـــن صَـــعْقِ الصُّـــرَاخِ ورَعْـــدِهِ
وجَهِـــدْتُ أنْ أبْكِـــي فلـــم أجِـــد البُكَـــا فَسَـــكَتُّ ســـكْتَةَ صَـــارِمٍ فـــي غِمْـــدِهِ
هَبْنِـــي بَكَيْـــتُ لـــه ومـــا يُجْـــدِي البُكَـــا مَـــاءٌ بخَـــدِّي والتُّـــرَابُ بخَـــدِّهِ
مـــا الشَّـــأْنُ فـــي جَزَعِـــي عليـــه وحَسْـــرَتِي الشَّـــأنُ فـــي قُـــرْبِ الـــخَيَالِ وبُعْـــدِهِ
طَـــالَ انْتِظَـــارِي للهُـــدُوء ولـــيسَ لـــي جَفْـــنٌ يُطَـــابِقُ جَفْنَـــهُ فـــي بـــرْدِهِ
هَيْهَـــاتَ قـــد منـــع الهـــدوءُ لنَـــاظِرِي قَبْـــران ذا وَلَـــدٌ وذاك لِـــوُدِّهِ[2]

وختام هذه النَّماذج قصيدة يُرثى بها صاحب الكتاب قاضي بلدة المحمدية طاهر بن عبد الله وقد بلغته وفاتُه بالقيروان، منها:

العَفْـــرُ فـــي ذَاكَ الصَّـــارِخِ النَّـــاعِي ولا أُجِيبَـــتْ بِخَيْـــرٍ دَعْـــوَةُ الـــدَّاعِي
فَقَـــدْ نَعَـــى مِـــلْءَ أَفْـــوَاهٍ وأَفْئِـــدَةٍ وقَـــدْ نَعَـــى مِـــلْءَ أبْصَـــارٍ وأَسْـــمَاعِ
أَمَـــا لَـــئِنْ صَـــحَّ مـــا جـــاءَ البَريـــدُ بـــه لَيُكْثِـــرَنَّ مـــن البَـــاكِين أشْـــيَاعِي
يـــا شُـــؤْمَ طـــائرٍ أخْبَـــارٍ مُبَرِّحَـــةٍ يَطِيـــرُ قَلْبِـــي لهَـــا مـــن بـــين أضْـــلاَعِي
مـــا زِلْـــتُ أفْـــزَعُ مـــن يَـــأْسٍ إلـــى طَمَـــعٍ حتَّـــى تَرَبَّـــعَ يَأْسِـــي فـــوقَ أطْمَـــاعِي
فـــاليَومَ أُنْفِـــقَ كَنْـــزُ العُمْـــرِ أجْمَعُـــهُ لـــمَّا مَضَـــى واحِـــدُ الـــدُّنْيَا بإجْمَـــاعِ
تُـــوُفِّيَ الطَّـــاهِرُ القَاضِـــي فَوَاأَسَـــفَا إنْ لـــم يُـــوفِّ تَبَـــارِيحي وأَوْجَـــاعِي
فَلِلْدِيَانَـــة فيـــه لَـــبْسُ ثَاكِلَـــةٍ وللقَضَـــاءِ عليـــه قَلْـــبُ ملْتَـــاعِ[3]

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص153.
[2] – المصدر نفسه، ص394– 395.
[3] – ابن رشيق، الأنموذج، ص442.

إنَّ المتأمِّل في كتاب الأنموذج يجد صورًا راقية من الرِّثاء، تحمل عميق المشاعر من الحزن والألم واللَّوعة والشعور بالوحدة؛ فقد بكى الشعراء المغاربة آباءهم وأبناءهم وأصدقاءهم وملوكهم وعلماءهم وغيرهم في قصائد ومقطوعات شعرية كثيرة، مُظهرين توجُّعهم وتفجُّعهم فيمن فقدوا من أحبابهم وأصحابهم. ويتبيَّن لنا من خلال هذه النَّماذج أنَّ الرِّثاء المغاربي كان في معظمه تأبينا للميِّت بذكر خصاله وفضائله وبطولاته، وما فُقِدَ بسبب موته، وما خسره النَّاس بفقدانه، ففي مُصابهم الجلل ينعون أنفسهم، ويُذكِّرون غيرهم بأعمال الفقيد الصَّالحة وأخلاقه الفاضلة وأياديه البيضاء، ويبثون من خلال ذلك بالغ حزنهم وشديد ألمهم.

وابن رشيق في مختاراته لنماذج الرثاء لم يذكر لنا بعض العيوب التي يُؤاخذ عليها الشاعر في مثل هذه المواطن، كأن يُقدِّم الشاعر النَّسيب على الرِّثاء، أو يُقصِّر في نعي الميِّت خاصة إذا كان من الخاصة والجِلَّة. وقد أظهر إعجابه الشديد ببعض النَّماذج لِمَا اشتملت عليه من صدق العاطفة وشدَّة الجزع، وقوَّة التفجُّع، وعِظم التلهُّف والأسف. وهذا يدلُّك على أنَّ المعيار الأخلاقي كان حاضرا في اختيار هذه النَّماذج، ولو بصورة غير مباشرة. ومع هذا فقد غاب عن شاعرنا وناقدنا ابن رشيق أنَّ التشاؤم منهي عنه، فقوله في رثاء قاضي بلدة المحمدية: (يا شُؤْمَ طائر) تشاؤم من هذا الخبر المفجع، وهذا ليس من الدِّين في شيء، وكان الأوْلى أن يذكر ما يليق دينيا وخلقيا في مثل هذه المواطن من التصبُّر والاسترجاع والتَّسليم لقضاء الله وقدره.

*** الاقتضاء والاستنجاز، العتاب، الوعيد والإنذار، الاعتذار:**

ونحاول هنا أن نجمع بين مجموعة من الأغراض المتقاربة حسب تقسيم ابن رشيق لأغراض الشعر، والتي وجدنا فيها ما تيسَّر من ملامح نقدية أخلاقية. ونبدأها بالاقتضاء والاستنجاز، وهما بمعنى واحد، طلب قضاء حاجة أو إنجازها. ويقول ابن رشيق فيما يستوجبه الاقتضاء: "حسب الشاعر أن يكون مدحه شريفا، واقتضاؤه لطيفا، وهجاؤه إن هجا عفيفا؛ فإنَّ الاقتضاء الخشن ربَّما كان سبب المنع والحرمان، وداعية القطيعة والهجران، وقوم يُدرجون العتاب في الاقتضاء، والاقتضاء في العتاب، وأنا أرى غير هذا المذهب أصوبَ؛ فالاقتضاء طلب حاجة، وباب التَّلطيف فيه أجود؛ فإن بلغ الأمر العتاب فإنَّما هو طلب الإبقاء على المودَّة والمراعاة، وفيه توبيخ ومعارضة لا يجوز معها بعدُ الاقتضاء، إلاَّ أنَّ النَّاس خلطوا بين هذين البابين وساووا بينهما."[1]، فابن رشيق يرى أنَّ سبيل الاقتضاء هو اللُّطف واللِّين والرِّفق، أمَّا الاقتضاء الخشن العنيف فقد يكون سببا للمنع والحرمان، ومدعاة للقطيعة والهجران. وكأنَّه يُذكِّرنا بأحاديث رسول الله ﷺ الكثيرة التي تحثُّ على الرِّفق والسَّماحة في المعاملة، ومنها قوله ﷺ: **«إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلَّا زَانَه، ولا يُنْزَعُ من شَيءٍ إلَّا شَانَه»**[2]، وقوله أيضا: **«رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إذَا بَاعَ، وإذَا اشْتَرَى، وإذَا اقْتَضَى»**[3]، فالمسلم يجب عليه أن

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص137.

[2] – مسلم، صحيح مسلم، كتاب البرِّ والصلة والآداب، رقم الحديث2594، ص783.

[3] – البخاري، صحيح البخاري، كتاب البيوع، رقم الحديث2076، ج2، ص86.

يكون سمحًا في جميع معاملاته أيًّا كان نوعها وشكلها، وأن يتعامل مع غيره معاملة حسنة ليِّنة، ولو كان هذا التعامُل مجرَّد كلام بينه وبين غيره. فباللِّين والرِّفق تُنال المطالب وتُؤخذ الحقوق، بعكس العنف والغلظة والفظاظة لا يكون من ورائها إلاَّ الشرور من عداوة وهجران وتعطيل مصالح. واختار ابن رشيق من جميل الاقتضاء قول أميَّة بن أبي الصَّلت لعبد الله بن جُدْعان:

أأذكُـــرُ حَـــاجَتي أمْ قـــد كَفَـــاني ... حَيَـــاؤُك إنَّ شـــيمتَك الحيـــاءُ
وعِلْمُـــك بالأمُـــورِ وأنـــتَ قَـــرْمٌ ... لـــك الحســـبُ المهَـــذَّب والسَّـــناءُ
كـــريمٌ لا يغيِّـــرهُ صـــباحٌ ... عـــن الخُلُـــق السَّـــنيِّ ولا مَسَـــاءُ
تُبَـــارِي الـــرِّيحَ مَكرُمَـــةً وجُـــودًا ... إذا مـــا الكلـــبُ أجْحَـــرَهُ الشِّـــتاءُ
إذَا أثْنَـــى عَليْـــكَ الـــمَرْءُ يَوْمًـــا ... كَـــفَاه مـــن تَعرُّضـــهِ الثَّنَـــاءُ
فَـــأَرْضُك كـــلُّ مَكْـــرُمَةٍ بَنَـــاها ... بنُـــو تَـــيْمٍ وأنـــتَ لـــهَا سَـــمَاءُ[1]

ويُبيّن ابن رشيق إعجابه بهذا الاقتضاء قائلًا: "فأنت ترى هذا الاقتضاء كيف يُلين الصخر، ويستنزل القطْرَ، ويحُطُّ العُصْمَ إلى السَّهل."[2]، ولهذه الأبيات في الاقتضاء مناسبة ذكرها ابن دريد في كتاب الاشتقاق، فقال: "وكان أُميَّة بن أبي الصَّلت مدَّاحا له ونديمًا، فشرب يوما، وكانت لابن جُدعان قَيْنتَان، فلمَّا شرب أُميَّة نظر إلى إحدى القينتين فغامزته، فوقعت في قلبه فبات ساهرا، فلمَّا أصبح غَدَا على عبد الله بن جُدعان، وأنشأ يقول، وذكر الأبيات. فقال ابن جُدعان: قد عرفتُ حاجتك، هي الجارية، خذ بيدها.[3]، ويذكر ابن أبي الدنيا في كتابه مكارم الأخلاق أنَّ أُميَّة لمَّا خرج بالجارية، "لَقِيَه فِتْيَةٌ من قريش فقالوا له: ما صنعتَ؟ دخلتَ إلى شيخنا وسيِّدنا وقد عمل فيه الشَّرابُ فأخذتَ إحدى حَظِيَّتَيْه وأحبَّ ماله إليه. ارجعْ فارْدُدْها عليه، فإنَّه سيُعوِّضك أضعافها. فرجع إليه، فقال: ما الذي ردَّك إلينا يا أُميَّة؟ قال: أحَبَّتْ أن تُؤْنِسَ أُخْتَها. قال: لا، ولكنْ قيل لك: فرَّقْتَ بين الشيخ وأحبِّ ماله إليه، والله لَتَأْخُذَنَّ بيد الأخرى. فأخذهما جميعًا، وخرج وهو يقول:

عَطَـــاؤُكَ زَيْـــنٌ لامْـــرِئٍ إنْ حَبَوْتَـــه ... بِفَضْـــلٍ ومَـــا كـــلُّ العَطَـــاءِ يَزِيـــنُ
ولـــيسَ بِشَيْـــنٍ لامْـــرِئٍ بَـــذْلُ وَجْهِـــهِ ... إلَيْـــكَ كمـــا بعـــضُ الـــسُّؤَالِ يَشِـــينُ[4]

وقد يأتي من غرض الاقتضاء ما سمَّاه ابن رشيق الاستبطاء، ومثاله ما ذكره محمد بن يزيد الأموي لعيسى بن فرخان شاه؛ "إذْ يقول له مستبطئًا:

---

[1] – أميَّة بن أبي الصَّلت بن عوف، الديوان، تح: سجيع جميل الجبيلي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ص17-18.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص137.

[3] – ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن، الاشتقاق، تح: عبد السَّلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ص143-144.

[4] – ابن أبي الدنيا أبو بكر بن محمد، مكارم الأخلاق، تح: محمد أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1989م، ص288-289.

أبـــا موســـى، ســـقى أرضَـــ ـــكَ دَانٍ مُسْـــبِلِ القَطْـــرِ
وزادَ اللهُ فـــي قَـــدْرِ كَ مـــا أخْمَلْـــتَ مـــن قَـــدْرِي
لقـــدْ كنـــتُ أُرَجِّيـــكَ لِـــمَا أخْشَـــى مـــنَ الـــدَّهْرِ
فَقَـــدْ أصْـــبَحْتَ مـــن أَوْكَـــ ـــدِ أسْبَابِـــي إلـــى الفَقْـــرِ
أَتَرْضَـــى لـــي بِـــأَنْ أَرْضَـــى بِتَقْصِـــيرِكَ فـــي أَمْـــرِي؟
وقَـــدْ أَفْنَيْـــتُ مَـــا أفْنَيْـــ ـــتُ فـــي شُـــكْرِكَ مـــنْ عُمْـــرِي
مَواعِيـــدُ كَمَـــا أخْبَـــتْ سَـــرَابُ الـــمَهْمَهِ القَفْـــرِ
فَمِـــنْ يَـــومٍ إلـــى يَـــومٍ وَمِـــنْ شَـــهْرٍ إلـــى شَـــهْرِ
فَلَـــمْ أَحْصُـــلْ عَلَـــى قِيمَـــ ـــةٍ مَـــا قَلَّمْـــتَ مـــن ظُفْـــرِي
لعـــلَّ اللهَ أنْ يَصْنَـــ ـــعَ لـــي مـــن حيـــثُ لا أَدْرِي
فَأَلْقَـــاكَ بِـــلاَ شُـــكْرٍ وتَلْقَـــاني بِـــلاَ عُـــذْرِ
ولاَ أَرْجُـــوكَ فـــي الحَالَيـــ ـــن لاَ العُسْـــرِ ولاَ اليُسْـــرِ

فهذا هو العتاب المُمِضُّ، والتَّوبيخ الذي دونه الجَلْدُ بالسَّوط، بل بالسَّيف."[1]، ولا ندري تحديدا، هل الاستبطاء في هذه الأبيات كما قال ابن رشيق يدخل في غرض الاقتضاء والاستنجاز أو في غرض العتاب؟ ومرَّ بنا سابقا في تعريف الاقتضاء أنَّه يفصل بينهما. وقد يكون-كما فهمتُ- الاستبطاءُ حالةً وسطى بين الاقتضاء والعتاب عند ابن رشيق. ومن أملح ما رآه ابن رشيق في الاقتضاء والاستبطاء قول أبي العتاهية لعمرو بن العلاء، وابن المعتزِّ يُسمِّي هذا النوع مَزْحًا يُراد به الجدّ، وكان أبو العتاهية امتدح عمرو بقصيدة فتأخَّر عنه بِرُّه، فكتب إليه يستبطئه:

أصَـــابتْ علينـــا جُـــودَكَ العـــينُ يـــا عمـــرُو فـــنحنُ لهـــا نَبْغِـــي التَّمـــائمَ والـــنُّشَرْ
أَصَـــابتْكَ عـــينٌ فـــي ســـخائِكَ صُـــلْبَةٌ ويـــا رُبَّ عـــيْنٍ صُـــلْبَةٍ تَفْلِـــقُ الـــحَجَرْ
ســـنَرْقِيكَ بالأشْـــعَارِ حتَّـــى تَمَلَّـــها فَـــإِنْ لـــم تَفُـــقْ منهـــا رَقَيْنَـــاكَ بالسُّـــوَرْ[2]

وما يُمكن قوله في المنحى النقدي الخلقي في غرض الاقتضاء، أنَّه كما يرى ابن رشيق يجب أن تكون طريقة الشاعر فيه اللُّطف واللِّين والرِّفق، فبذلك يصل إلى مُراده، وينال مبتغاه، أمَّا إذا سلك طريق التَّعنيف واللَّوم، فقد يكون الحرمان نصيبه، والهُجران مآله.

[1] - ابن رشيق، العمدة، ج2، ص137-138.

[2] - يُنظر المصدر نفسه، ص138، والأبيات في ديوان أبي العتاهية، ص216.

وأمَّا العتاب فيقول عنه ابن رشيق: "وإن كان حياة المودَّة، وشاهد الوفاء، فإنَّه بابٌ من أبواب الخديعة، يُسرع إلى الهجاء، وسببٌ وكيدٌ من أسباب القطيعة والجفاء، فإذا قلَّ كان داعيةَ الألفة، وقَيْدَ الصُّحبة، وإذا كَثُرَ خَشُنَ جانبُه، وثقُل صاحبُه."[1]

فالعتاب من الأغراض الشعرية التي لم تَحْظَ بكثير اهتمام من النقاد القدامى، ويبدو أنَّ مردَّ ذلك إلى قلَّته ونُدرته في الشعر العربي مقارنة مع الأغراض الأخرى، ودليل ذلك أنَّ الكثير منهم لم يُصنِّفوه ضمن تقسيمات أغراض الشعر، وفي أحسن الأحوال نجد مَنْ يضعه تحت غرض الهجاء أو الاعتذار، ومع هذا فقد أصبح غرضا مستقلاً على يد بعض النقاد مثل ابن رشيق وهلال العسكري وغيرهما. وممَّا نلاحظه أنَّ ابن رشيق لم يُعرِّف لنا العتاب كغرض شعري من الناحية الفنِّية، ولكن نحا في تعريفه منحى أخلاقيًّا؛ (فالعتاب حياة المودَّة، وشاهد الوفاء...)، وهذا يدلُّك على أنَّ هذا الغرض مرتبط ارتباطا وثيقا بالأخلاق؛ فللعتاب غايات تربوية وأخلاقية، والغرض الأساس منه هو الحفاظ على أواصر المودَّة والمحبَّة بين الناس في علاقاتهم، والالتزام بالقيم الإنسانية النَّبيلة التي تحفظ للمجتمع تماسُكَه ووحدته، من خلال الكشف عمَّا يضعف العلاقات الاجتماعية بين النَّاس وعدم الرِّضا عن تلك الهنات التي تُفرِّق وتُشتِّت شمل الإخوان والمتحابِّين. لهذا وجب أن يكون المقصد من العتاب مقصدًا شريفًا؛ أي لأجل التَّنبيه والتَّوجيه والتحذير، فالأصل أنَّ العتاب لا يكون إلَّا على زلَّة. والمُعاتِبُ إنَّما ينصح ويرجو الخير لمن يُعاتبه. ولا يكون العتاب لمجرَّد اللَّوم وإظهار الزَّلات والسَّقطات، فإنْ كان هدف العتاب كذلك خرج عن غايته النَّبيلة، وأصبح إلى الهجاء أقرب، وسببًا في القطيعة والجفاء، وحصول العداوة والشحناء. وقد قال بعض العقلاء: "إنَّ المعاتبة تبعث التجنِّي والتجنِّي يبعث المخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شيء ثمرته العداوة. وقال الشاعر:

فـــدع ذكـــر العتـــاب فـــربَّ شـــرٍّ طويـــل هـــاج أوَّلـــه العتـــاب"[2]

لهذا نجد أنَّ هذا الغرض يضع الشاعر في موقف حرج للغاية، يحتاج فيه إلى براعة، وحكمة، وحَيْطَةٍ، لكي يكون عتابُه متوازنًا بين عواطفه وعواطف المُعاتَبِ، كما يجب على الشاعر أن يُوازن في أسلوبه بين الشدَّة واللِّين لكي يُحقِّق الغرضين معا، يُوجِّه ويُحذِّر وينصح المُعاتَب، ويُحافظ في الوقت نفسه على أواصر الإخاء والمودَّة التي تربط بينهما.

وسبيل الشاعر في ذلك أن لا يُكثر من العتاب، وإن عاتب فلا يكون بطريقة واحدة؛ لأنَّ للعتاب "طرائق كثيرة، وللنَّاس فيه ضروب مختلفة؛ فمنه ما يُمازجه الاستعطاف والاستئلاف، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف، وقد يعرض فيه المنّ والإجحاف، مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف."[3]، ولهذا فضَّل ابن رشيق طريق شيخ الصناعة وسيِّد الجماعة، أبي عُبادة البحتري في عتاب الأشراف؛ وذلك لقوله:

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص139.

[2] – الأبشيهي، المستطرف في كلّ فنٍّ مستظرف، ص281.

[3] – ابن رشيق، المصدر السابق، ج2، ص139.

يُرَيِّبُنـــــي الشـــــيءُ تـــــأتي بـــــهِ وأُكْبِـــــرُ قَـــــدْرَكَ أنْ أسْـــــتَرِيبَا
وأكْـــــرَهُ أنْ أتَمَـــــادَى عَلـــــى سَـــــبيلِ اغْتِـــــرَارٍ، فـــــألقَى شَـــــعُوبَا
أُكَـــــذِّبُ ظَنِّـــــي بـــــأنْ قـــــدْ سَخِطْـــــ ـــــتَ، وَمَـــــا كنـــــتُ أعهَـــــدُ ظَنّـــــي كَـــــذُوبَا
وَلَـــوْ لـــم تكُـــنْ ســـاخِطاً لـــمْ أكُـــنْ أذُمُّ الزَّمـــــانَ، وأشـــــكُو الخُطُوبَـــــا
ولا بُـــــدَّ مِـــــن لَوْمَـــــةٍ أنْتَحِـــــي عَلَيـــــكَ بهـــــا، مُخطِئـــــاً، أو مُصِـــــيبَا
أيُصْـــــبِحُ وِرْدِيَ فـــــي سَاحَتَيْـــــ ـــــكَ طَرْقـــــاً، وَمَرْعَـــــايَ مَحْـــــلاً جَـــــدِيبَا؟!
أبِيـــــعُ الأحِبَّـــــةَ بَيْـــــعَ السَّـــــوَامِ وآسَـــــى عَلَـــــيْهِمْ: حَبيبًـــــا حَبيبَـــــا
فَفِـــــي كُـــــلِّ يَـــــوْمٍ لَنَـــــا مَوْقِـــــفٌ يُشَـــــقِّقُ فِيـــــهِ الـــــوَداعُ الجُيُوبَـــــا
وَمَـــــا كَـــــانَ سُـــــخطُكَ إلا الفِـــــرَاقَ أفـــــاضَ الـــــدّموعَ، وأشـــــجَى القُلُوبَـــــا
وَلَـــوْ كُنـــتُ أعْلَـــمُ ذَنْبـــاً لَمَـــا كَـــا نَ خَـــالَجَني الشـــكُّ فـــي أنْ أتُوبَـــا
سأصْـــبرُ حتَّـــى أُلاقِـــي رِضَـــاكَ إمَّـــا بَعيـــداً، وإمَّـــا قَـــرِيبَا
أُرَاقِـــبُ رَأْيَـــكَ حَتَّـــى يَصِـــحَّ وأَنْظُـــرُ عَطْفَـــكَ حتَّـــى يَثُـــوبَا [1]

أمَّا المتنبي فقد كان له شأنٌ آخر مع سيف الدولة، فيذكر ابن رشيق عتاب أبي الطيِّب المتنبي لسيف الدولة قائلا: "وأمَّا أبو الطيِّب فكان في طبعه غلظة، وفي عتابه شدَّة، وكان كثير التحامُل، ظاهر الكِبْرِ والأنفة، وما ظنُّك بِمَنْ يقول لسيف الدولة:

يـــا أعـــدَلَ النَّـــاسِ إلاّ فـــي مُعـــامَلَتي فيـــكَ الخِصـــامُ وَأنـــتَ الخَصْـــمُ وَالحَكَـــمُ
أُعِيـــذُها نَظَـــراتٍ مِنْـــكَ صـــادِقَةً أن تحسَـــبَ الشَّـــحْمَ فِـــيمَنْ شَـــحْمُهُ وَرَمُ
وَمَـــا انْتِفَـــاعُ أخـــي الـــدُّنْيَا بِنَـــاظِرِهِ إذا اسْـــتَوَتْ عِنْـــدَهُ الأنْـــوارُ وَالظُّـــلَمُ
أنَـــا الـــذي نَظَـــرَ الأعْمَـــى إلـــى أدَبـــي وَأسْـــمَعَتْ كَلِمـــاتي مَـــنْ بـــهِ صَـــمَمُ
أنَـــامُ مِـــلْءَ جُفُـــوني عَـــنْ شَـــوَارِدِهَا وَيَسْـــهَرُ الخَلْـــقُ جَرَّاهَـــا وَيخْتَصِـــمُ
وَجاهِـــلٍ مَـــدَّهُ فـــي جَهْلِـــهِ ضَـــحِكي حَتَّـــى أتَتْـــهُ يَـــدٌ فَرَّاسَـــةٌ وَفَـــمُ
إذا نَظَـــرْتَ نُيُـــوبَ اللَّيْـــثِ بـــارِزَةً فَـــلاَ تَظُـــنَّنَّ أنَّ اللَّيْـــثَ يَبْتَسِـــمُ [2]

فهذا الكلام في ذاته في نهاية الجودة، غير أنَّه من جهة الواجب والسياسة غاية في القُبح والرَّداءة، وإنَّما عرَّضَ بقوم كانوا ينتقصونه عند سيف الدولة ويُعارضونه في أشعاره، والإشارة كلُّها إلى سيف الدولة، ثمَّ قال بعد أبيات:

يَـــا مَـــنْ يَعِـــزُّ عَلَيْنَـــا أنْ نُفَـــارِقَهُمْ وِجـــدانُنا كُـــلّ شَـــيءٍ بَعْـــدَكُمْ عَـــدَمُ
إنْ كَـــانَ سَـــرَّكُمُ مـــا قـــالَ حاسِـــدُنَا فَمَـــا لجُـــرْحٍ إذا أرْضَـــاكُمُ أَلَـــمُ

[1] – البحتري، الديوان، ج1، ص107-108.
[2] – المتنبي، الديوان، ص312-313.

كـــم تَطْلُبُـــونَ لَنَـــا عَيْبـــاً فيُعْجِـــزُكُمْ وَيَكْـــــرَهُ الله مـــــا تَـــــأتُونَ وَالكَـــــرَمُ
مَـــا أَبْعَـــدَ العَيْـــبَ والنُّقْصَـــانَ مِـــنْ شـــرَفي أنَـــــا الثُّرَيَّـــــا وَذانِ الشَّـــــيبُ وَالهَـــــرَمُ
لَيْـــتَ الغَمَـــامَ الـــذي عِنْـــدِي صَـــواعِقُهُ يُـــزيلُهُنَّ إلـــى مَـــنْ عِنْـــدَهُ الـــدِّيَمُ
أرَى النَّـــوَى تَقتَضِـــيني كُـــلَّ مَرْحَلَـــةٍ لا تَسْـــتَقِلُّ بهـــا الوَخَّـــادَةُ الرُّسُـــمُ
لَـــئِنْ تَـــرَكْنَ ضُـــمَيْراً عَـــنْ مَيامِنِنَـــا لَيَحْـــدُثَنَّ لمـــنْ وَدَّعْـــتُهُمْ نَـــدَمُ[1]

وإنَّما قال أوَّلًا: ليحدثنَّ لسيف الدولة النَّدم، ثمَّ بدَّله، وليس هذا عتابا، لكنَّه سِبَابٌ، وبسبب هذه القصيدة كاد يُقتل عند انصرافه من مجلس إنشادها، وهذا الغرور بعينه."[2]، وأمَّا عتاب الأكْفَاء، وأهل المودَّات، والمُتعشِّقين من الظرفاء، فبابةٌ أخرى جارية على طرقاتها، واختار لنا ابن رشيق من أشدِّ العتاب وأوجعه قول إبراهيم الصولي يُعاتب محمد ابن عبد الملك الزيَّات، وقد تغيَّر عليه لمَّا وَزَرَ:

وَكُنْـــتَ أَخِـــي بِإِخَـــاءِ الزَّمَـــانِ فَلَمَّـــا انْقَضَـــى صِـــرْتَ حَرْبًـــا عَوَانَـــا
وكُنْـــتُ أَذُمُّ إِلَيْـــكَ الزَّمَـــانَ فَقَـــدْ صِـــرْتُ فِيـــكَ أَذُمُّ الزَّمَانَـــا
وَكُنْـــتُ أُعِـــدُّكَ لِلنَّائِبَـــاتِ فَهَـــا أَنَـــا أَطْلُـــبُ مِنْـــكَ الأَمَانَـــا[3]

أمَّا أكرم العتاب عند ابن رشيق فهو "قول السيِّد أبي الحسن أدام الله سيادته وسعادته:

وَإِنِّـــي لَأُطْـــرِي كُـــلَّ خِـــلٍّ صَـــحِبْتُهُ وَأَنْـــتَ تَـــرى شَـــتْمي بغيـــر حيـــاءِ
ســـتعلمُ يومًـــا مـــا أســـأتَ لصـــاحبٍ تكَـــرُّمَ أخلاقـــي وحُسْـــنَ وفَـــائِي"[4]

ومن مختارات ابن رشيق المليحة في العتاب قول سعيد بن حميد، يُعاتب فيها صديقًا له على كثرة العتاب، منها:

أَقْلِـــلْ عِتَابَـــك فالبَقَـــاءُ قَلِيـــلُ والـــدَّهرُ يَعْـــدِلُ تَـــارةً ويَمِيـــلُ
والمُنْتمُـــون إلـــى الإخَـــاءِ جَمَاعـــةٌ إنْ حُصِّـــلُوا أفْنَـــاهُمُ التَّحْصِـــيلُ
ولعـــلَّ أحـــدَاثَ المَنيَّـــةِ والـــرَّدَى يومًـــا ستَصْـــدَعُ بيننـــا وتَحُـــولُ
وأَرَاكَ تَكْلَـــفُ بالعِتَـــابِ ووُدُّنَـــا صَـــافٍ عليـــه مـــن الوَفَـــاءِ دَلِيـــلُ
ودٌّ بَـــدَا لـــذَوِي الإخـــاءِ جَمَالُـــه وبَـــدَتْ عليـــه بَهْجَـــة وقَبُـــولُ
ولعـــلَّ أيَّـــامَ الحَيَـــاةِ قَلِيلـــةٌ فَعَـــلامَ يَكْثُـــرُ عَتْبُنَـــا ويَطُـــولُ ؟![5]

[1] – المتنبي، الديوان ، ص313-314.
[2] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص143-144.
[3] – الصولي إبراهيم بن العباس، الديوان، ضمن كتاب الطرائف الأدبية، تح: عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، دط، 1937م، ج2، ص166-167.
[4] – ابن رشيق، المصدر السابق، ج2، ص145.
[5] – المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

وممَّا يدلُّ على فضل العتاب، وأثره الطيِّب في إصلاح النُّفوس وتقوية أواصر المحبَّة والأخوة بين النَّاس أنَّه من آكد ما يُبقي المودَّة ويُشعر بالرحمة والقُرب والألفة. ولذلك نجد في القرآن الكريم كيف أنَّ الله عزَّ وجلَّ كان يُعاتب أنبياءه ورسله وعباده الصالحين. ويكفي استدلالا أن نُشير إلى سورة (عبس)، التي اشتملت على عتابٍ للنبيِّ ﷺ على ما كان منه من إعراضه عن ابن أمِّ مكتوم، وعبوسه في وجهه حين جاءه سائلا للاسترشاد والتعلُّم والهداية، وكان صلوات الله عليه مشغولا بدعوة رجل أو رجال من سادات قريش إلى الإسلام، رجاء أن يُسلموا، فيُسلم بإسلامهم خَلْقٌ كثيرٌ. ومع ذلك فقد نزل الوحيُّ من قِبل الحقِّ سبحانه معاتبًا الرسول ﷺ: **﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى* أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى* وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى* أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى* فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى* وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى* وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى* وَهُوَ يَخْشَى* فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى* كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾**[1]، وكان النبيُّ ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن مكتوم يبسط له رداءه ويقول: **«مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»**[2]

والعتاب شاهدُ المحبة ودليل الوفاء، فلا يكون إلاَّ من الصديق النَّاصح لصديقه، أو من حبيب لحبيبه، قال شاعرٌ:

أُعَاتِبُ ذَا المَوَدَّةَ مِنْ صَدِيقٍ إِذَا مَا رَابَنِي مِنْهُ اجْتِنَابُ
إِذَا ذَهَبَ العِتَابُ فَلَيْسَ وُدٌّ وَيَبْقَى الوُدُّ مَا بَقِيَ العِتَابُ[3]

وقال آخر:

أُعَاتِبُ مَنْ يَحْلُو لِي عِتَابُه وَأَتْرُكُ مَنْ لا أَشْتَهِي وَأُجَانِبُه[4]

ولأنَّ العتاب يُسرع إلى الهجاء، وسبب وكيد من أسباب القطيعة والجفاء، كما يقول ابن رشيق، نجد البعض قد ذمَّه وحذَّر منه، قال بعض الحكماء: "العتاب رسول الفرقة وداعي القِلى وسبب السلوان وباعث الهجران. وقال بعضهم: العتاب التجنِّي، والتجنِّي ابن المحاجة، والمحاجة أخت العداوة، والعداوة أمُّ القطيعة. وقيل: العتاب داعية الاجتناب، فإذا انبسطت المعاتبة انقبضت المصاحبة. وقيل أيضا: العتاب مقدِّمة القطيعة، وطليعة الفرقة، فتجنَّبه قبل أن يُجنِّبك حظَّك من السرور برؤية أحبابك، وانتقلْ عنه قبل أن ينتقل بك عن مقرِّ غبطتك بمشاهدة أودائك، وإن لم تجد منه بُدًّا، فاقتصدْ فيه ولا تُكثرْ منه، فإنَّ الكثير من المحبوب مملول، فكيف من المكروه، والاقتصاد في المحمود ممدوح فكيف في المذموم."[5]

---

[1] – سورة عبس، الآيات1-11.

[2] – يُنظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج22، ص71.

[3] – بيتان نُسبا في بهجة المجالس لعلي بن الجهم، ولكن لا أثر لهما في ديوانه. والكثير من المصادر تذكرهما دون نسبة لأحد. يُنظر القرطبي يوسف بن عبد البر، بهجة المجالس وأُنس المُجالس، تح: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ق1- مج2، ص728.

[4] – جميل بن معمر، الديوان، ص31.

[5] – العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله، ديوان المعاني، تح: أحمد حسن سبج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، ص163.

فالعاقل اللَّبيب لايعاتب إخوانه عند كل صغيرةٍ وكبيرة، بل يلتمس لهم المعاذير، ويحمل زلاَّتهم على أحسن المحامل. ثم إنْ كان هناك ما يستوجب العتاب عاتبهم عتاباً ليِّنًا رقيقًا. ثم ما أحسن المرء أن يتغاضى عن الهفوات ويتغافل عن الهنات؛ فذاك من أخلاق الأكابر والعظماء؛ وهو دليل على سُمُوِّ النَّفس، وهو ممَّا يرفع المنزلة، ويُعلي المكانة. وهذا ما جعل "الزِّبرقان بن بدر لمَّا هجاه المُخبَّل السَّعدي يُجاوبه بعتاب؛ لأنَّه رآه أهلا لذلك من أجل شرف بيته وجلالته في نفسه، فلمَّا هجاه الحُطيئة لم يره مكانا للجواب، على أنَّه ابن عمِّه وجاره في النَّسب؛ لأنَّهما جميعا من مُضر، بل استعدى عليه عمر بن الخطاب ﷺ فأنصفه."[1]، وكفى في هذا المقام بما قاله بشَّار بن برد في العتاب نصحًا وتوجيهًا:

فَخُذْ مِنْ أَخِيكَ العَفْوَ واغْفِرْ ذُنُوبَه ولا تَكُ فِي كُلِّ الأُمُورِ تُجَانِبُهْ
إذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الأُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الذي لَمْ تُعَاتِبُهْ
فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهْ
وَمَنْ ذَا الذي تُرْضَى سَجَاياه كُلّهَا كَفَى المَرْءَ نُبْلاً أنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ
إذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى القَذَى ظَمِئْتَ وأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ[2]

ومع هذا يبقى العتاب غرضا دقيقا، وليس من السَّهل أن يخوض فيه الشاعر دون ارتباك أو قلق؛ لأنَّ النَّجاح فيه غير مأمون الجانب، لذا وجب الحذرُ إذا ركب الشاعر بحره، وأن يتوسَّط ويعتدل فيه؛ فالعتاب إنْ قلَّ شدَّ من أواصر الوُدِّ والألفة، وقوَّى روابط المحبَّة والأخوَّة، وإن كَثُرَ خَشُن جانبه وثقُل صاحبه، وتسارع إلى الهجاء، وصار سببا للقطيعة والجفاء، كما قال ابن رشيق. وأمَّا ما جاء في باب الوعيد والإنذار فيقول ابن رشيق: "كان العقلاء من الشعراء وذوو الحزم يتوعَّدون بالهجاء، ويُحذِّرون من سوء الأحدوثة، ولا يُمضُون القولَ إلاَّ لضرورة لا يحسن السُّكوت معها."[3]، وهذا ما رأيناه من زُهير بن أبي سلمى مع بني الصَّيداء، وسيِّدها الحارث بن ورقاء الأسدي، الذين أغاروا على إبل كانت لزهير واستاقوها وأسروا غلامه الذي كان يرعاها. فما كان من زُهير إلاَّ أن لاذ بالعقل والحكمة فترفَّق في الطلب ليُعيدوها، فلم يفعلوا، فمال إلى الوعيد والتَّهديد، فأبوا، ولم يكترثوا به، فهجاهم هجاء مقذعا فاحشا، فعندئذ عاد إليهم صوابهم ورشدهم، وأعادوا لزهير إبله وغلامه.

والوعيد والإنذار من الأغراض التي طرقها الشعراء منذ العصر الجاهلي، وهذا يدلُّك على قوَّة الشعر وعمق تأثيره في النفوس، وتهيُّب النَّاس منه، والوعيد هو"تخويفٌ بسوء المُجازاة في المستقبل تحذيرا من الوقوع في المخالفات."[4]

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص93.

[2] – بشار بن برد، الديوان، ص44-45.

[3] – ابن رشيق، المصدر السابق، ج1، ص146.

[4] – ابن قيم الجوزية، شمس الدّين محمد بن بكر: الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص202.

وحسب ما يُفهم من كلام ابن رشيق، فإنَّ الوعيد والإنذار هما الملاذ الأخير الذي يلجأ إليه الشاعر قبل أن يُطلق العِنان لِلِسَانِه، وربَّما لِسِنَانِه، فيتوعَّد ويُهدِّد ويُنذر مَن هجاه أو هجا قومه، أو ظلمهم واعتدى عليهم، أو تمادي في ضلاله وغيِّه سواء كانوا فردا أو جماعة، لعلَّهم يثيبون إلى رشدهم، ويعودون عن غيِّهم، وإلاَّ فإنَّ العاقبة وخيمة، والعقاب شديدٌ. فالشاعر هنا يتأجَّج غضبا وثورة، فيلتهب قوله، وتشتدُّ لهجته، ويزداد انفعاله، ولكنَّه ما زال يملك زمام أمره، فيضبط نفسه ويتمالك غضبه، ويُسيطر على جِنانه ولسانه؛ فلا يقول ولا يفعل ما لا يُحمد عقباه.

وهذا ما عناه ابن رشيق؛ وليس كلُّ الشعراء يستطيعونه، بل هو خاصٌّ بالعقلاء وذوي الحزم منهم فقط، فأيُّ شاعر يلجأ قبل الهجاء إلى العتاب ثم الوعيد والإنذار فهو صاحب عقل وبصيرة وحزم وحلم. كما يُمكن أن نعتبر أنَّ وعيد الشعراء وإنذارهم هو نصح ووعظ لهؤلاء المتمادين أو المعتدين، يُقدِّمونه كدليل على عدم رغبتهم في إيذائهم بالقول أو الفعل، وخاصة إذا كانوا من أهل القربى والمودَّة. فالوعيد لا يكون إلاَّ من الشاعر العاقل الحازم الحليم النَّاصح، يُحذِّر القوم من مغبَّة أفعالهم غير المحمودة العواقب، إبقاء على بعض الوشائج التي تربط بينهما، وقياما بحقوق النُّصح والتَّوجيه لهم. ومن مختارات ابن رشيق في الوعيد قول ابن مُقبل لبني عامر:

بنـــي عَـــامِرٍ، مَـــا تَـــأْمُرونَ بِشَـــاعِرٍ تَخيَّـــر بَابَـــاتِ الكِتَـــابِ هِجَائِيَـــا؟
أَأَعْفُـــو كَمَـــا يعفُـــو الكَـــرِيمُ فـــإنَّني أرَى الشَّـــغْبَ فيمـــا بيننـــا مُتَمَادِيَـــا
أم أغْمِـــضُ بـــين الجِلْـــد واللَّحـــمِ غَمْضَـــةً بِـــمِبْرَدِ رُومِـــيٍّ يَـــقُطُّ النَّوَاصِـــيَا
فَأَمَّـــا سُـــرَاقَاتُ الهِجَـــاءِ فَإنَّهـــا كَـــلامٌ تهَـــادَاهُ اللِّئَـــامُ تهَادِيَـــا
أم أَخـــبِطُ خَـــبْطَ الفِيـــلِ هَامَـــةَ رَأْسِـــه بِحَـــرْدٍ فـــلا يُبْقِـــي مـــن العَظْـــم بَاقِيَـــا
وعِنْـــدِي الـــدُّهَيمُ لَـــوْ أَحُـــلُّ عِقَالَهَـــا فَـــتُصْعِدُ لـــم تَعْـــدَمْ مـــنَ الجِـــنِّ حَادِيَـــا[1]

ويشرح ابن رشيق الأبيات شرحا موجزا، قائلا: "شبَّه لسانه بمبرد روميّ لمضائه، وشبَّه القصيدة التي لو شاء هجاهم بها بالدُّهيم وهي الدَّاهية، وأصل ذلك أنَّ الدُّهيم ناقة عمرو بن زبَّان الذُّهلي التي حملت رؤوس بنيه معلَّقةً في عنقـها، فجاءت بها الحيَّ، فضُرِبَ بها المثل للدَّاهية."[2]

وتبرز المعايير الأخلاقية في هذا الغرض في أنَّ أكثر مَن يلجأ من الشعراء إلى الوعيد قبل الهجاء هم الذين يتَّصفُون برجاحة العقل ونفاذ البصيرة، كما يُعتبر الوعيد والإنذار من وسائل النُّصح والإرشاد والتَّنبيه، فهو وسيلة إصلاحية تربوية، وتتجلَّى أيضا في مضمونه فهو دعوة إلى استعمال العقل والحكمة، وتغليب المنفعة على المفسدة، ومصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، وحثّ على الخضوع للحقِّ والإذعان له، والإنصاف من حظِّ النَّفس والهوى. وهذا كلُّه من أجل دفع شرور وعواقب لا تُحمد عقباها، وخاصة مع أهل القربى والمودَّة. فتُراعى تلك القرابات، وتُصان تلك الوشائج

[1] – ابن مُقبل، الديوان، ص287-288.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج2، 147.

والعلاقات. أمَّا إذا تمادى المُعتدي بعد الوعيد، وزاد بعد التَّهديد، ولم يَرْعَوِ بعد الإنذار الشَّديد، فلابُدَّ عندئذ ممَّا ليس منه بُدٌّ.

وفي باب الاعتذار يقول ابن رشيق: "ينبغي للشاعر أنْ لا يقول شيئًا يحتاج أن يعتذر منه، فإن اضطرَّه المقدار إلى ذلك، وأوقعه فيه القضاء؛ فليذهبْ مذهبًا لطيفًا، وليقصدْ مقصدًا عجيبًا، وليعرفْ كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه، وكيف يمسح أعطافَه، ويستجلب رضاه، فإنَّ إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدليل خطأ، لا سيما مع الملوك وذوي السلطان، وحقُّه أن يلطف برهانه مدمجا في التضرُّع والدُّخول تحت عفو الملك، وإعادة النظر في الكشف عن كذب الناقل، ولا يعترف بما لم يَجْنِه خوف تكذيب سلطانه أو رئيسه، ويُحيل الكذب على النَّاقل والحاسد، فأمَّا مع الإخوان فتلك طريقة أخرى."[1]

والاعتذار من الأغراض القديمة في الشعر العربي، وعادة ما يكون مقترنا بغرض المدح. والاعتذار هو محو أثر المَوْجِدة، فقالوا: اعتذرت المنازل والرُّسوم: إذا دَرَسَت وامَّحت، لهذا أُعتُبِر الاعتذار دارسًا للذنوب، واعتذر فلانٌ: أي احتجَّ لنفسه، للخروج من الذَّنب، وأعذر الفرسَ وعذَّره: ألجمه، وكأنَّ المعتذِر يُلجم نفسه من التمادي في الخطأ، وتعذَّر عليه الأمر: صَعُب وضاق.وعَذَّرَ الرَّجلُ: قصَّر، وعَذَرَ: كثرت ذنوبه وأخطاؤه. ويُقال اعتذر الرَّجل: احتجز، وعذَّرته، أي: جعلت له بقبول ذلك حاجزا بينه وبين العقوبة، ومنه جارية عذراء، أي: لها حاجز يحجز عن وطئها.[2]

والاعتذار في الشعر يحمل كلَّ هذه المعاني، فهو محاولة يقوم بها الشاعر لاستعطاف المرغوب في عفوه، ومحو آثار ذنب ارتكبه، ويعتمد على مقدرته في التأثير على المتلقِّي (المُعتذَر إليه)، والتلطُّف في ألفاظه للوصول إليه ونيل عفوه، فيجمع الشاعر بين قوة الألفاظ ودلالتها ولطافة المعنى وقبوله. وبهذا المعنى فالاعتذار حسن، والأحسن منه أن يحذر الشاعر من الوقوع فيما يجعله مضطرًّا للاعتذار، كما قال ابن رشيق، ويُؤكِّد هذا المعنى قول الرسول ﷺ للرجل الذي طلب موعظة موجزة، فقال له: **«وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا »**[3]، وقال بعض الحكماء: **"إيَّاك وما يسبق للقلوب إنكارُه، وإنْ كان عندك اعتذارُه"**[4] وإن أُضطُرَّ إليه فيجب عليه أن يتلطَّف ويعرف كيف الوصول إلى قلب المعتذَر إليه ليصل إلى مبتغاه وينال عفوه ورضاه. وهذا ما جعل غرض الاعتذار صعبا، ولا يُجيده إلاَّ القليل من الشعراء، فهو يتطلَّب علما وأدبا وذوقا وحلما وفكرا سديدا، لكي يعترف الشاعر بخطأه، ويُحسن الاعتذار عنه، طالبا العفو والصَّفح. وقد قيل: (مَنْ وُفِّقَ لحُسْنِ الاعتذارِ خرج من الذَّنب)[5]

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص154.

[2] – يُنظر ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص545 وما بعدها.

[3] – الألباني محمد ناصر الدِّين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، دط، 1995م، ج4، رقم الحديث401، ص758.

[4] – القرطبي، بهجة المجالس وأنس المُجالِس، ق1- مج2، ص491.

[5] – المرجع نفسه، ص488.

ومن عيوب الاعتذار كما يرى ذلك ابن رشيق أن يأتي الشاعر من باب الاحتجاج وإقامة الدَّليل، خاصة مع الملوك وذوي السلطان، وإنَّما الصَّواب أن يأتي ببرهانه مُدْمِجًا في التضرُّع وطلب العفو، ويعترف بما جناه، ويُنكر ما لم يفعله، ولكن مخافة تكذيب سلطانه أو رئيسه يُحيل الكذب على النَّاقل والحاسد. وإلى هذا المعنى أو قريب منه ذهب أيضا أبو هلال العسكري في حديثة عن أحسن الاعتذار، فقال: "ولا يُمعن في تبرئة ساحته في الإساءة والتَّقصير؛ فإنَّ ذلك ممَّا يكرهه الرؤساء، والذي جرت به عادتهم الاعتراف من خدمهم وخوَلهم بالتَّقصير والتفريط في أداء حقوقهم وتأدية فروضهم؛ ليكون لهم فيما يُعقبون ذلك من العفو والتجاوز موضع مِنَّة مُستأنفة تستدعي شكرا، وعارفة مُستجدَّة تقتضي نشرا، فأمَّا إذا بالغ المتنصِّل في براءة ساحته من كلِّ ما قُذِف به فلا موضع للإحسان إليه في إعفائه عن ترك السخط، بل ذلك أمرٌ واجبٌ له. وفي منع الرئيس من حصَّته منه ظلمٌ وإساءةٌ."[1]، ولهذا كان الاعتذار خلقًا رفيعًا، ينفي عن الشاعر قبل العقوبة شعور الكبرياء والعظمة، وإساءة الظنِّ به، وهو من شيم الشعراء الكبار أمثال النابغة الذبياني، الذي خلَّد أجلَّ ما وقع في الاعتذاريات من مشهور قصائد العرب، والتي يمدح فيها النُّعمان بن المنذر، ويعتذر إليه ممَّا بلغه عنه من الوُشاة والحُسَّاد، ونذكر منها قصيدته التي جاء فيها:

أَتَـــانِي أَبَيْـــتَ اللَّعْـــنَ أَنَّـــكَ لُمْتَنِـــي وَتِلْـــكَ التـــي أَهـــتمُّ منهـــا وأنْصَـــبُ

وقصيدته الأخرى التي يقول فيها:

أُنْبِئْـــتُ أنَّ أبَـــا قَـــابُوسَ أوْعَـــدَني ولاَ قَـــرَارَ علـــى زأْرٍ مـــن الأسَـــدِ[2]

ومن مختارات ابن رشيق في الاعتذار ما جاء على لسان محمد بن علي الأصبهاني، حيث يقول:

العـــذرُ يلحقـــه التَّحريـــف والكـــذبُ ولـــيسَ فـــي غيـــر مـــا يُرضـــيك لـــي أربُ

وقـــد أســـأْتُ فبـــالنُّعمى التـــي ســـلفَتْ إلاَّ مَنَنْـــتَ بعَفْـــوٍ مـــا لـــه ســـببُ

وقد أحسن أبو علي البصير حين سلك مذهب الحجة وإقامة الدَّليل بعد إنكار الجناية، فقال:

لـــم أَجْـــنِ ذنبًـــا فـــإنْ زعمْـــتَ بـــأنْ جَنَيْـــتُ ذنبًـــا فغيـــرُ مُعتَمـــدِ

قـــد تطـــرفُ الكـــفُّ عـــينَ صـــاحبِها ولا يـــرى قطعهـــا مـــن الرَّشَـــدِ[3]

أمَّا ما يكون من شأن المُعتذِر، فقد يكون صادقًا في اعتذاره، وقد لا يكون، فالمعاذير يشوبها الكذب في بعض الأحيان، ومع هذا يبقى الغالب في الاعتذار أنَّه يُستدلُّ به على غزارة المروءة وحُسن الوفاء، وسماحة الأخلاق وسموِّها، ونُضج في العقل والتفكير، ورغبة في الإبقاء على المودَّة والمحبَّة، وتأكيد على الإصلاح والتغيير.

أمَّا عن النَّماذج من هذه الأغراض السَّالفة في الأنموذج فهي قليلة جدًّا مقارنة بالأغراض الأخرى، وسنذكر ما جمعناه منها بقصد معرفة مدى التزام ابن رشيق بالمعيار الخلقي فيها. فمن جميل ما قيل في غرض الاقتضاء والاستنجاز قول

[1] – أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص158.

[2] – يُنظر النابغة الذبياني، الديوان، البيت الأول، ص72، والبيت الثاني، ص14.

[3] – يُنظر ابن رشيق، العمدة، ج2، ص154.

الشاعر ابن عبدون، وكان قد ارتحل سنة **393**هـ إلى أمير صقلية ثقة الدولة وامتدحه، فأحسن إليه وأضافه إلى ولده جعفر، فأدناه وقرَّبه، وكان من أكرم النَّاس عنده. وسأله الرجوع إلى وطنه، ورفع إليه قصيدة يتشوَّق فيها مَعَاهِدَه، منها:

بـــــالله يـــــا جبـــــلَ المعســـــكر دعْ ريـــــح الجنـــــوب لعلَّهـــــا تســـــري
كيمَـــــا أُســـــائلُها فتُخبرنـــــي مـــــا يفعـــــلُ الجيـــــرانُ بالقصْـــــرِ
يـــا قصـــرَ طـــارق الـــذي طرقـــت أحشـــائي فيـــه بلابـــلُ الصَّـــبرِ
والله مـــا قصَّـــرتُ عـــن قلـــقٍ لكنَّنـــي قصَّـــرتُ بالقسْـــرِ
فســـقاكَ مُنْهَـــلُّ الحَيَـــا وســـقى عصـــرًا تقضَّـــى فيـــك مـــن عصْـــرِ
يـــا ربْـــعُ كـــم لـــي فيـــك مـــن غصـــن يهفـــو صَـــبَاه بـــه وكـــم بـــدْرِ
قـــد طالمـــا عقـــدتُ قلائـــده منِّـــي مكـــان قلائـــد النَّحْـــرِ
ولثمـــتُ صـــدرًا فـــاح عنبـــره مـــن غيـــر مـــا طيـــب ولا عِطْـــرِ
وضـــممتُ أنفاســـي عليـــه وقـــد أشـــفقتُ مـــن نَفَســـي الـــذي يســـري
وكـــأنَّ صـــدري لا ضـــلوعَ لـــه وكـــأنَّ قلبـــي بـــانَ عـــن صـــدري
لـــو أســـتطيع ســـبحتُ مـــن طَـــرَبٍ شـــوقًا إليـــك ســـوادَ ذا البحـــرِ
حتَّـــى أُقبِّـــل جانبيـــكَ كمـــا قبَّلـــتُ فيـــك مراشـــفَ البـــدْرِ
وأُفـــيضُ أجفـــاني لـــديكَ كمـــا فاضـــتْ عليـــك ومـــا بهـــا تـــدري[1]

قال ابن رشيق: "رقَّة الشَّوق ظاهرةٌ على هذا الشِّعر، ولُطفُ الحضارة مع مياه تكاد تنبع من جانبه فهو أندى من الزَّهر غِبّ القطر، وأحلى من الوصل بعد الهَجْر. ولمَّا سمعها جعفرُ ازداد به إعجابا وفيه رغبة، فمنعه من السَّفر، فكتب إلى ثقة الدولة يسأله فيما سأل فيه ولدَه، ويشكر ما ناله من الجود، ويذكر وطنه أيضا:

يـــا قصـــرَ طـــارق همِّـــي فيـــك مقصـــورُ شـــوقي طليـــقٌ وخَطْـــوي عنـــك مأســـورُ
إنْ نـــام جـــارُك إنِّـــي ســـاهرٌ أبـــدًا أبكـــي عليـــك وبـــاكي البَـــيْنِ معـــذورُ
عنـــدي مـــن الوَجْـــد مـــا لـــو فـــاض مـــن كبـــدي إليـــك لاحترقـــت مـــن حولـــك الـــدُّورُ
لا هـــمَّ إن الجَـــوى والوَجْـــدَ قـــد غلبـــا صـــبري فكـــلُّ اصـــطباري فيهـــا زُورُ
فاجعـــل لكـــفِّ ابـــن عبـــد الله عارفـــةً عنـــدي فـــإنِّي بهـــذا البَـــيْنِ موتـــورُ

ومدح فيها ثقة الدولة فلم يجدْ عندهما ما يشتهي فخرج عنهما مُسارقة."[2]، ثمَّ يقول: "ومن مُلح ما رأيتُ له قوله لجعفر حين استأذنه في الرجوع إلى وطنه فعتب عليه وحجبه:

---

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص391.

[2] – المصدر نفسه، ص392.

ولـــمَّا رأيـــتُ البـــدرَ قُمـــتُ مُســـلِّمًا عليـــه وأظهـــرتُ الخضـــوعَ لديْـــهِ
وقلـــتُ لـــه: إنَّ الأميـــر ابـــن يوسُـــفَ شـــبيهَك قـــد عـــزَّ الوصـــولُ إليْـــهِ
فكـــنْ لـــي شـــفيعًا عنـــده ومُـــذكِّرًا إذا جِئتَـــه تبغـــي السَّـــلامَ عليْـــهِ

فكتب هذه الأبيات ولقيه بها في منتزه له فطرب وأُعجِب بها إعجابًا شديدًا، وأمر له بمال كثير."[1]، ومن شعر الاقتضاء نجد ما قاله الشاعر محمد بن ربيع، لمَّا حضر عند جعفر بن عبد الجبَّار بن مُهذَّب صاحب بيت مال المعزِّ ابن باديس، فدعاه لحضور المأدبة، وقال له: هلُمَّ يا ينونشي (نسبة إلى قرية بتونس)، فغضب وصنع على البديهة:

بحُرمتِـــك التـــي عَظُمـــتْ لـــدَيَّا ونعمتِـــك التـــي صـــارتْ إليَّـــا
أجِرْنـــي أن تُنـــاديني بلقـــب أرى الإغضـــاء منِّـــي عنـــه عِيَّـــا
ولا توقـــع علـــيَّ اســـمًا معـــارًا بـــلا معنـــى فلســـت ينونشـــيَّا
وإنْ أكُ قـــد رضـــيتُ بـــه مجـــازًا وأوجبـــه الرِّضـــى حكمـــا عليَّـــا
فلـــيس تفاضـــلُ البلـــدان ممَّـــا يزيـــد وينـــقص الرَّجـــل الـــذكيَّا
فكـــم مـــن درَّة حســـناء راقـــت وكـــان وعاؤهـــا صـــدفًا دنِيَّـــا
وذات ملابـــس زُيِّنـــت بحَلْـــي فقبَّحـــت الملابـــس والـــحُلِيَّا

فلم يخاطبه أحد بعد ذلك بشيء ممَّا كرهه من التَّسمية.[2]

ومن شعر العتاب نجد أبياتًا للشاعر محمد بن سلطان الأقلامي، يقول فيها مُعاتبا ومُفتخرا بنفسه:

بلغْـــتَ بأصـــحابي ذُرى كـــلِّ شـــاهقٍ وأخَّرتنـــي عنهـــا كـــأنِّي أخيرُهـــا
ومـــا أنـــا بالمســـتأخر الشـــاذِّ عـــنهم ولا ضـــوء زنـــدي فـــي الوقـــود حســـيرُها
وإنِّـــي لســـوَّاق القـــوافي ذليلـــةً أُذلِّلُهـــا حتَّـــى يلـــينَ عســـيرُها
وإنِّـــي لـــمُثْنٍ بالـــذي أنـــت أهلُـــه حمُـــولٌ لأعبـــاء الأيـــادي شـــكورُها
فـــلا تحسَـــبَنْ أنِّـــي عتبـــتُ فإنَّمـــا هـــي الـــنَّفسُ لـــن تخفـــى عليـــك أُمورُهـــا
وكـــم قائـــلٍ أكثـــرتَ مـــدح ابـــن جعفـــرٍ ورُبَّتمـــا قـــد نِيـــل منهـــا كثيرُهـــا
فقلـــتُ لـــه: عنِّـــي إليـــك فـــإنَّني وهبـــتُ لـــه نفســـي لأنِّـــي أميرُهـــا[3]

وهذا يعلى بن إبراهيم الأزْبُسي يُعاتب أخاه أبا الفضل جعفرًا كاتب المُعزِّ؛ حيث أتاه زائرا فحجب، فغضب، وقال: والله لولا المحافظة لكانت قطيعة، وأنشد:

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص392-393.
[2] – المصدر نفسه، ص382.
[3] – نفسه، ص385-386.

أتيتُـــــك زائـــــرًا فحجبـــــتَ عنِّـــــي ولـــــم يُعـــــرفْ مكانُـــــك بالحجـــــابِ
فـــــلا تحْسَـــــبْ بـــــأنِّي ذو اغتنـــــامٍ لأكْـــــلٍ عنـــــد مثلـــــك أو شـــــرابِ
فلـــــي نفـــــسٌ إذا الـــــلَّأواءُ هـــــزَّت جوانبهـــــا تقنَّـــــعُ بـــــالتُّرابِ
وتطمـــــح فـــــي ذُرى الخـــــيلاء كِبْـــــرًا إذا سِـــــيمتْ بضـــــيقِ الاكتســـــابِ
ولـــــولا أنَّ فـــــي خُلُقـــــي اتِّئـــــادًا تركتُـــــك بعـــــدها خَلِـــــقَ الإهـــــابِ
ولكنِّـــــي رأيـــــتُ الصَّـــــبْرَ أوْلـــــى بمثلـــــي فانصـــــرفتُ إلـــــى العِتـــــابِ[1]

ولابن رشيق قصيدة يُعاتب فيها صديقًا، نقتطف منها:

أجـــــدّك لـــــم أجِـــــدْ للصَّـــــبر بابًـــــا فتدخلـــــه علـــــى ســـــعةٍ وضـــــيقِ
بلـــــى وأقـــــلُّ مـــــا لقيـــــتُ يســـــلي ولكـــــن لا أرى عَتْـــــبَ الصَّـــــديق
نهضـــــتُ بعـــــبء إخـــــواني فـــــزادوا وأثقـــــل مـــــا يُـــــرى حَمْـــــلُ الـــــمُطيقِ
ولكـــــن رُبَّ إحســـــانٍ وبـــــرٍّ دعـــــا بعـــــض الرِّجـــــال إلـــــى العقـــــوقِ
فـــــإن أصـــــبرْ فعـــــن إفـــــراط جَهْـــــدٍ وإنْ أقلَـــــقْ فحســـــبُك مـــــن قَلـــــوقِ
حصـــــلتُ مـــــن الهـــــوى فـــــي لُـــــجِّ بحـــــرٍ بعيـــــد القعـــــر منخـــــرقٍ عميـــــقِ
ســـــأعرض عنـــــك إعراضـــــا جميـــــلا وأُبـــــدي صـــــفحة الوجـــــه الطَّليـــــقِ
ولا ألقـــــاك إلاَّ عـــــن تـــــلاقٍ بعيـــــد العهـــــد بالـــــذِّكرى ســـــحيقِ
لـــــتعلمَ أنَّنـــــي عـــــفُّ السَّـــــجايا عـــــزوفُ الـــــنَّفس متَّبـــــعُ البـــــروقِ
وإنِّـــــي مـــــذْ قصـــــرتُ يـــــديَّ طالـــــتْ إليـــــك يـــــدُ العـــــدوِّ المســـــتفيقِ[2]

وفي الوعيد والإنذار نقف على نموذج واحد هو للشاعر محمد بن يوسف المنجّم، حيث يقول:

لعمـــــري لـــــئن كُنَّـــــا حَلِيفَـــــيْ صـــــناعَةٍ لقـــــد ســـــبقتْ ريـــــشَ الخـــــوافي القَـــــوادِمُ
فقُـــــلْ للـــــذي اســـــتهزا بنـــــا فـــــي فِعالِـــــهِ مقـــــالي يقظـــــان وعِرضُـــــك نـــــائمُ
سيغسِـــــلُ عنِّـــــي المـــــاءُ فعلَـــــك كُلَّـــــه وقـــــولي بـــــاق والعِظـــــامُ رمَـــــائِمُ
تَـــــدِبُّ علـــــى الأعضـــــاء منـــــه عقـــــاربُ وتنفُـــــثُ فـــــي الأحشـــــاء منـــــه أراقِـــــمُ
فـــــإنْ كـــــان ذا عِـــــرْض تلـــــوحُ كُلُومُـــــه فعنـــــدي ضِـــــمَادَاتٌ لـــــه ومَـــــراهِمُ[3]

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص431.
[2] – المصدر نفسه، ص441.
[3] – نفسه، ص409.

أمَّا في غرض الاعتذار فنقف على شعر علي النَّاسخ، وهو يُخاطب ولده، وقد سافر إلى مصر وهو صغير السِّنِّ:

يـــا دهـــرُ مَالَـــكَ لا ترثـــى لـــمُكتئب ... مـــا بـــات منـــك خليًّـــا قـــطُّ مـــن كَـــرَبِ
لـــم يَنْـــبُ نابُـــك عـــن عمـــرٍ بفادحـــةٍ ... عظمـــى تصـــغَّر عنهـــا معظـــم النُّـــوَبِ
لـــم يكْـــفِ صـــرفُك صـــرفي عـــن ذوي ثقتـــي ... حتَّـــى تعقَّـــب بـــالتفريق فـــي عقبـــي
ابـــنٌ وكـــان أبًـــا لـــي فـــي محبَّتـــه ... أمســـى بـــأرضِ الفـــلا فـــردًا بغيـــر أبِ
أمســـيتُ فـــي وطنـــي فـــي مثـــل غربتـــه ... يـــا مَـــن لمغتـــربٍ بـــاكٍ لمغتـــربِ
لـــئن تخلَّيـــتَ منِّـــي يـــا مـــدى أملـــي ... لقـــد تخلَّيـــت مـــن لهـــوي ومـــن طربـــي
وكيـــف ألهـــو بـــأرضٍ لســـت ســـاكنها ... أم كيـــف أســـكنُها هـــذا مـــن العجـــب
والله يـــا ولـــدي المجـــذوب مـــن كبـــدي ... للـــرَّأيُ ذاك وإنْ أمســـى بـــه عطبـــي
رقـــى بـــك البيـــدُ مرقـــى السَّـــهم فـــي وتَـــرٍ ... هَـــمٌّ تبيـــتُ بـــه للمجـــد فـــي نَصَـــبِ
لقـــد تأهَّلـــتَ مـــن عقـــلٍ بـــلا كبـــر ... وقـــد تأدَّبْـــتَ مـــن طبـــع بـــلا أدَبِ

قال صاحب الكتاب: "هذا كلامٌ يظهر عليه التوجُّع والتفجُّع، وتشوبه رأفة الإشفاق، ورقَّة الاشتياق حتَّى تدرّ عليه الجفون بحلب الشؤون، وليس يخفى على أحدٍ ممَّن يعرف الكلام حُسن هذا التخريج، والتلطُّف في الاعتذار عمَّا فعل الغلام. وإنَّ هذا الشعر ليُهوِّن رزيَّة من أصابه مثل هذا المُصاب في ولده حتَّى يسهل على الآباء فَقْدَ الأبناء، ويجسرُ الغلمان على مفارقة الأوطان."[1]، وهذا الشاعر محمد بن مغيث وكان مفتونًا بالخمر، مُدمنًا عليها، لقي يوما صاحبَ المظالم المرناقي، وهو مخمور، فسلَّم عليه وقال: كيف تجدُك؟ فقال: بخير ما لم أَرَكَ يا مولاي. وأراد أن يقول: بخير ما رأيتُك. فأطرق المرناقي، ومضى محمَّد وَجِمًا، فعمل قصيدة يعتذر إليه فيها، أوَّلها:

فَـــرْطُ الـــحَيَاءِ وهيبـــةُ السُّـــلطانِ ... جَبَـــرَا علـــى ضـــدِّ الصَّـــوابِ لســـاني[2]

*** الهجاء:**

الهجاء غرض مهمٌّ وخطيرٌ من أغراض الشعر العربي، امتاز منذ العصر الجاهلي بخصائصه وأساليبه ومقوِّماته، كما انماز في أسبابه ومبرِّراته. وكان الهجاء دائما السلاح الرَّهيب الذي يخافه الجميع، ويحذرون منه حذرهم من الموت. وكان الشعراء يستخدمونه ضدَّ أعدائهم ومخالفيهم في زمن كانت للشعر فيه صولة وجولة، وسلطان ودولة. ولحرص القبيلة على سمعتها في العصر الجاهلي فقد كانت تخاف الهجاء وتخشاه، يقول الجاحظ: "ولأمر مَّا بكت العربُ بالدُّموع الغِزار من وَقْعِ الهجاء، وهذا من أوَّل كرمها."[3]، والهجاء مثل المدح من أكثر الأغراض عُلوقًا بالأخلاق؛ ذلك أنَّ الشاعر

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص262-263.
[2] – المصدر نفسه، ص405.
[3] – الجاحظ،كتاب الحيوان، ج1، ص364.

يجعل غالبا من الأخلاق مادته الأولى في الهجاء. فإذا كان المديح قد بُني على الإشادة بالقيم والفضائل السامية، كالشجاعة والكرم والعدل وما إليها، فلا غرو أن يُؤسَّس الهجاء على ما يُناقض هذه القيم والفضائل، كالجُبن والبخل والظلم وغير ذلك. وبذلك يُصبح الهجاء –على رأي شوقي ضيف– "الصحيفة التربوية المقابلة للمديح، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية، والهجاء يرسم المساوئ الفردية والاجتماعية التي ينبغي أن يتخلَّص منها المجتمع الرَّشيد."[1]

لهذا يرى ابن رشيق أنَّ "أجود ما في الهجاء أن يُسلب الإنسان الفضائل النَّفسية وما تركَّب من بعضها مع بعض، فأمَّا ما كان في الخِلْقة الجسمية من المعايب فالهجاء به دون ما تقدَّم، وقدامة لا يراه هجوًا ألبتَّة، وكذلك ما جاء من قِبل الآباء والأمَّهات من النَّقص والفساد لا يراه عيبًا، ولا يُعدُّ الهجو به صوابًا."[2]

ويُمكن القول: أنَّ أكثر النقاد على هذا الرأي؛ فهم يرون أنَّ أفضل الهجاء وأجوده ما اقتصر على العيوب النَّفسية، ونال من المرء في طباعه وأخلاقه. أمَّا ما تطرَّق إلى العيوب الخِلقية والجسدية، أو تناول عيوب ومفاسد الآباء والأمَّهات، فإنَّهم ذهبوا إلى عدم اعتباره هجاء مُصيبا، والتقليل من قيمته وأهميته. قال العسكري: "والهجاء أيضا إذا لم يكن يسلب الصفات المستحسنة التي تختصُّها النَّفس؛ ويُثبتُ الصفات المستهجنة التي تختصُّها أيضا لم يكن مختارا. والاختيار أن يُنسب المهجوُّ إلى اللُّؤم والبخل والشَّره، وما أشبه ذلك. وليس بالمختار في الهجاء أن ينسبه إلى قُبح الوجه وصِغر الحجم وضؤولة الجسم. يدلُّ على ذلك قول القائل:

فقلتُ لها: ليس الشُّحوبُ على الفتى بِعَارٍ ولا خيرُ الرِّجالِ سمينُها

وقول الآخر:

تنالُ الخيرَ ممَّا تزدريه ويُخلِفُ ظنَّك الرَّجلُ الطَّريرُ

وقول الآخر:

رأوْهُ فَازْدَرَوْهُ وهو خِرْقٌ وينفعُ أهلَهُ الرَّجلُ القبيحُ[3]

وهذا ما ذهب إليه أيضا حازم القرطاجنِّي، مُتَّبعا في ذلك آراء من سبقه من النقاد، فقال: "فأمَّا خِلْقَةُ الإنسان وصورتُه فليس في قدرته نقل شيء منها عمَّا وُجد عليه. فحمدُ الإنسان بما يُستحسنُ من هذا القبيل مخادعة له، وذمُّه بما يُستقبح من ذلك تحاملٌ عليه. ويشهد لهذا ما حكاه الرواة من أنَّ المغيرة بن حبناء وزيادا الأعجم لم يزالا يتهاجيان، حتَّى عيَّره زيادٌ بعلل كانت أصابت بعض أهل بيته، فقال المغيرة: ما ذنبنا فيما ذكره، هذه أدواءٌ، وإنَّما يُعيَّر المرء بما اكتسبه."[4]، ويروي ابن رشيق في مستهلِّ هذا الباب "عن أبي عمرو بن العلاء أنَّه قال: خير الهجاء ما تُنشده العذراء في خدرها فلا يقبح بمثلها، نحو قول جرير:

---

[1] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي– العصر العباسي الأول، ج3، ص167.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص152.

[3] – العسكري، الصناعتين، ص104.

[4] – حازم القرطاجنِّي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص169.

وَلَـــوَ انَّ تَغْلِـــبَ جَمَّعَـــتْ أَحْسَـــابَهَا يَـــوْمَ التَّفَاضُـــلِ لَـــم تَـــزِنْ مِثْـــقَالا "[1]

ومثل قوله:

فَغُـــضَّ الطَّـــرْفَ إِنَّـــكَ مِـــنْ نُمَيْـــرٍ فَـــلا كَعْبًـــا بَلَـــغْتَ ولاَ كِـــلابَا[2]

والقصيدة التي منها هذا البيت " تُسمِّيها العرب الفاضحة، وقيل: سمَّاها جرير الدمَّاغة، تركت بني نُمير ينتسبون بالبصرة إلى عامر بن صعصعة، ويتجاوزون أباهم نُميرًا إلى أبيه، هربا من ذِكْرِ نُمير، وفِرارًا ممَّا وُسِمَ به من الفضيحة والوصمة."[3]، ثمَّ بيَّن ابن رشيق الهجاء المقذع من خلال هذين البيتين، فيقول: "وبين الاختيارين تناسبٌ في عِفَّة المذهب، غير أنَّ بيت جرير الثاني أشدُّ هجاءً لِمَا فيه من التَّفضيل، فقد حكى محمَّد بن سلاَّم الجمحي عن يونس بن حبيب أنَّه قال: أشدُّ الهِجَاءِ الهِجَاءُ بالتَّفضيل، وهو الإقذاع عندهم."[4]، وهذا الفهم للهجاء المقذع قد أخذه يونس بن حبيب من مقولة عمر بن الخطاب ﷺ للحطيئة لَمَّا أطلقه من حبْسِه مُحذِّرًا إيَّاه: "إيَّاك والهجاء المقذع، قال: وما المُقذِع يا أمير المؤمنين؟ قال: المُقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبني شعرًا على مَدْحِ لقومٍ وذمٍّ لمَن تُعاديهم."[5]

ولَمَّا كان الهجاء المقذع ظلمًا واعتداء على الغير في الأعراض خاصَّة، فقد كان موقف الإسلام منه صارمًا ومشدَّدًا؛ فحرَّمه ونهى عنه، واستشهد ابن رشيق في عقوبة الهجاء في الإسلام بحديث الرسول الله ﷺ الذي جاء فيه: **«مَنْ قَالَ فِي الْإِسْلَامِ شِعْرًا مُقْذِعًا فَلِسَانُهُ هَدَرٌ»**[6]، وقد فصَّل العلماء والفقهاء في حكم الهجاء؛ فممَّا جاء في الموسوعة الفقهية: ذهب الفقهاء إلى عدم جواز هجو المسلم، واستثنى الشافعية المبتدع والفاسق المعلن بفسقه، فيجوز هجوهم. وقد استدلُّوا على عدم جواز هجو المسلم بقول الله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾**[7]، وقوله أيضا: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[8]، وقول الرسول ﷺ: **«لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ»**[9]

---

1 – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص148–149، والبيت في الدِّيوان، ص363.

2 – المصدر نفسه، ج1،ص63.

3 – نفسه، ج1، ص43.

4 – نفسه، ج2، ص149.

5 – نفسه، ج2، ص149.

6 – العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين بن حجر، مختصر زوائد البزَّار على الكتب السِّتة ومسند أحمد، تح: صبري عبد الخالق، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ج2، باب أحكام الشِّعر، رقم الحديث 1765، ص232–233.

7 – سورة الأحزاب، الآية 58.

8 – سورة الحجرات، الآية 11.

9 – الترمذي، الجامع الكبير، باب ما جاء في اللَّعنة، رقم الحديث1977، ج3، ص520.

وجاء في حكم التَّهاجي: إذا هجا شخص آخرَ دون حقٍّ، فبادله المهجوُّ الهجاء، فهل يأثمان أو يأثم البادي منهما؟ روى أبو هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«المُسْتَبَّانِ مَا قَالَا فَعَلَى البَادِئِ مِنْهُمَا، مَالَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ»**[1]. أمَّا في تعزير الهَجَّاء، فجاء: وللإمام أن يُعزِّر مَن يهجو النَّاس بغير حقٍّ؛ وذلك لأنَّ هذا النوع من الهجاء محرَّمٌ وفعله معصيةٌ، وكلُّ معصية ليس فيها حدٌّ وجب فيها التعزير.[2]

وفي مبحث آخر يُبيِّن ابن رشيق أبلغ الهجاء، فيذكرُ قول خلف الأحمر: أشدُّ الهجاء أعفُّه وأصدقه، وفي قول آخر: ما عفَّ لفظه وصدق معناه. ويستدلُّ أيضا بكلام صاحب الوساطة، الذي يقول: "فأمَّا الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتَّهافت، وما اعترض بين التَّصريح والتعريض، وما قرُبت معانيه وسهُل حفظُه، وأسرع عُلُوقُه بالقلب ولُصُوقُه بالنَّفس؛ فأمَّا القَذفُ والإفحاشُ فَسِبَابٌ محض، وليس للشاعر فيه إلاَّ إقامة الوزن وتصحيح النَّظم."[3]

ويُؤيِّد ابن رشيق ما ذهب إليه الجرجاني في تعليقه، قائلا: "وممَّا يدلُّ على صحَّة ما قاله صاحب الوساطة وحُسن ما ذهب إليه إعجابُ الحُذَّاق من العلماء وفرسان الكلام بقول زُهير في تشكُّكه وتهزُّله وتجاهله فيما يعلم:

وَمَـــا أَدْرِي وَسَـــوْفَ إِخَـــالُ أَدْرِي أَقَـــوْمٌ آلُ حِصْـــنٍ أَمْ نِسَـــاءُ

فَـــإِنْ قَالُـــوا: النِّسَـــاءُ مُخَبَّـــآتٍ فَحُـــقَّ لِكُـــلِّ مُحْصِـــنَةٍ هِـــدَاءُ[4]

وهذا عندهم من أشدِّ الهجاء وأمضِّه.[5]، فابن أبي سلمى وإن لم يُفحش في القول، ولم يُقذع في الهجاء بسبٍّ ونحوه، إلاَّ أنَّ هجاءه كان شديدا مُوجِعًا؛ لأنَّه سلك مسلك السُّخرية والاستهزاء بالقوم، وتساءل تساؤل المتشكِّك، هل قوم آل حصن رجال أم نساء؟ وهذا يُغني عن كلِّ سبٍّ وقذف وشتم، ولهذا كان مثل هذا الهجاء عند النقاد من أشدِّ وأمضِّ أنواع الهجاء.

ويأتي ابن رشيق بعد ذلك على ذكر مذاهب الشعراء في الهجاء، ليُدلِي بدلوه ويُصرِّح برأيه في غرض الهجاء، فيَعْرِضُ أوَّلًا رأي بعض الشعراء، فيقول: "وجميع الشعراء يرون قِصَرَ الهجاء أجود، وتَرْكَ الفُحش فيه أصوب، إلا جريراً فإنَّه قال لبنيه: إذا مدحتم فلا تُطيلوا الممادحة، وإذا هجوتم فخالفوا، وقال أيضًا: إذا هجَوْتَ فَأضْحِكْ. وسلك طريقته في الهجاء سواء عليُّ بن العبَّاس بن الرُّومي، فإنَّه كان يُطيل ويُفْحِشُ."[6]

وهذا معلوم عند النقاد قديما وحديثا، فجرير كان من أهجى الشعراء، وخاصة إذا ما قُورن بصاحبيه، ونعني الأخطل والفرزدق، وقد حكم الكثير من النقاد على أنَّ الأخطل كان أمدح الثلاثة وأوصفهم للخمر، والفرزدق أفخرهم، وجرير

---

[1] – مسلم، صحيح مسلم، كتاب البرّ والصّلة والآداب، رقم الحديث2587، ص782.

[2] – يُنظر مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفقهية، ج42، ص160-162.

[3] – الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص30.

[4] – زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص17.

[5] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص149-150.

[6] – المصدر نفسه، ص151.

أهجاهم وأنسبهم، وأجمعهم لفنون الشعر. جاء في مقدِّمة ديوان جرير: "والتحم الهجاء بين أعضاء هذا المثلث الأموي زهاء أربعين سنة، فكان هجاء الفرزدق وجرير مملوءا فحشا وتعهُّرا وتعييرا، أمَّا الأخطل فكان نزيه الهجاء، يُعيِّر ولا يُفحش، ولا يتعهَّر، وقد اضطرَّنا ما في هذا الدِّيوان (ديوان جرير) من بذاءة وإفحاش في الشتائم، إلى أن نحذف الأبيات والمقطوعات البذيئة ضنًّا بالأخلاق العامَّة، وتيسيرا لدخول هذا الدِّيوان إلى البيوت والمدارس، ثم ليقيننا أنَّ ما حذفناه لا قيمة أدبية أو تاريخية له، فيُبخل به ويُستبقى."[1]

وكذلك ابن الرُّومي؛ فقد عاش في عصر استفحل فيه الهجاء، وتداخل مع المجون تداخلا كبيرا، فصار الهجاء معرضا لمبلغ قدرة الشاعر على التهتُّك والتبذُّل. وقد حاز ابن الرومي في الهجاء الرتبة العليا، وبزَّ أقرانه وتفوَّق عليهم، فخافوا لسانه السَّليط. قال المرزباني: "كثير من أهل الأدب يُنكر خُبث لسان علي بن العبَّاس الرُّومي، ويطعن عليه بكثرة هجائه، حتَّى جعلوه في ذلك أوحد لا نظير له."[2]، وهجاؤه نوعان: مُضحك ساخر، ومُقذع فاحش فيه هتكٌ للأعراض. وقد اعتمد في هجائه السَّاخر على عيوب المهجوِّ الخِلْقِيةِ، مُلتمسا ببراعته وجوه الشبه بين موضوع هجائه وبين أقبح الصور من حوله، فيأتي هجاؤه غايةً في السخرية، وقد يكون مبعثا للإشمئزاز والتقزُّز من فظاعة تلك الصور. وهذا مثال عن هجائه السَّاخر:

وَجْهُـــك يـــاعمرو فيـــه طُـــولُ وفـــي وُجُـــوهِ الكِـــلابِ طُـــولُ
فـــأينَ مِنْـــكَ الحيـــاءُ قـــل لـــي يـــا كلـــبُ والكلـــبُ لا يقـــولُ
والكلـــبُ مـــن شـــأنه التعـــدِّي والكلـــبُ مـــن شَـــأْنِه الغُلُـــولُ
مقـــابحُ الكلـــبِ فيـــك طُـــرًّا يـــزولُ عنهـــا ولا تـــزولُ
وفيـــه أشـــياءٌ صـــالحاتٌ حَمَاكَهـــا اللهُ والرَّسُـــولُ
فيـــه هَريـــرٌ وفيـــه نَـــبْحٌ وحظُّـــهُ الـــذُلُّ والخُمُـــولُ
والكلـــبُ وافٍ وفيـــك غَـــدْرٌ فَفِيـــكَ عـــن قَـــدْره سُـــفُولُ
وقـــد يُحـــامِي عـــن المواشِـــي ومَـــا تُحـــامِي ولا تَصُـــولُ[3]

وبعد ذلك يعرض ابن رشيق رأيه ومذهبه في الهجاء، فيقول: "وأنا أرى أنَّ التَّعريض أهجى من التَّصريح؛ لاتِّساع الظَّنِّ في التَّعريض، وشدَّة تعلُّق النَّفس به، والبحث عن معرفته، وطلب حقيقته، فإذا كان الهجاء تصريحًا أحاطت به النَّفس علمًا، وقبلته يقينًا في أوَّل وَهْلَةٍ، فكان كل يوم في نقصان لنسيان أو ملل يعرض، هذا هو المذهب الصحيح،

[1] – جرير، الديوان، ص5–6.
[2] – المرزباني، الموشَّح، ص417.
[3] – ابن الرومي أبو الحسن علي بن العباس، الديوان، تح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002م، ج3، ص139.

على أن يكون المهجوُّ ذَا قَدْرٍ في نفسه وحسبه؛ فأمَّا إن كان لا يوقظه التَّلويح، ولا يُؤلمه إلا التَّصريح؛ فذلك، ولهذه العلَّة اختلف هجاء أبي نواس، وكذلك هجاء أبي الطيِّب فيه اختلاف؛ لاختلاف مراتب المهجوِّين."[1]

فابن رشيق –كما صرَّح بذلك– يرى التَّعريض أهجى من التَّصريح؛ للأسباب التي ذكرها من اتِّساع الظَّنِّ في التعريض، وشدَّة علوقه بالنَّفس، والبحث الدَّائم لمعرفة مُراده وفهمه وطلب حقيقته، أمَّا التَّصريح فقد أُحيط به علما، وقُبِل يقينا من الوهلة الأولى، فيصير بذلك إلى نقصان ونسيان. وفي تداخل بين الفنِّي والأخلاقي في الرؤية عند ابن رشيق في مذهبه في الهجاء، يقول الدكتور حسين لفته حافظ: "وينطلق ابن رشيق من مفهوم الشِّعر بصفة عامة والالتزام بمبدأ الاعتدال في كلِّ شيء، ومراعاة المقصد والمُخاطَب وموضوع القول في وقت واحد، فالشاعر يجب أن يُلبس غرضه ما يلزمه من الألفاظ والأساليب بحسب ما يقتضيه الحال، ويُوافق الشخص المُتَّجه إليه مع مراعاة طبيعة الشعر من جهة بُعده عن التَّصريح والمباشرة."[2]

فالعدول عن التَّصريح إلى التَّعريض معناه عدول عن اللفظ القبيح والمعنى الفاحش والنَّعت الشنيع إلى اللفظ السمح والمعنى الحسن، كما أنَّ التَّعريض يدلُّ على اللَّطافة والترفُّق بالمهجُوِّ، وهذا من سَنَن العرب؛ فكانوا يُعرِّضون ويُلمِّحون لبلوغ مآربهم ومقاصدهم بوجه ألطف وأحسن من الكشف والتَّصريح. ولا أدري كيف فهم الدكتور مصطفى عليان عبد الرحيم من كلام ابن رشيق هذا ابتعاده عن الالتزام بالمقياس الخلقي، حين قال: "ولئن كان الأندلسيون متفقين مع ابن رشيق في قوله: (إنَّ التَّعريض أهجى من التَّصريح..)، فإنَّهم مخالفون له في المبدأ والالتزام؛ لأنَّ ابن رشيق لا يأخذ من ذلك إلاَّ سَمْتًا ظاهرا، إذْ أنَّه بعيدٌ عن الالتزام بالمقياس الخُلقي، ولذلك فسرعان ما انسلخ من دعوته بالأخذ بحال المهجُوِّ في تخيُّر التَّعريض به أو هجائه إذْ يقول: فأمَّا إن كان لا يُوقظه التَّلويح ولا يُؤلمه إلاَّ التَّصريح فذلك."[3]، إنَّ المقياس الخلقي في كلام ابن رشيق يتَّضح لنا في عدَّة نقاط، منها: أنَّ التَّعريض في غايته يتطابق ويتلاءم مع مراعاة العِفَّة التي أكَّد عليها ابن رشيق في غرض الهجاء، كما أنَّ العدول عن التَّصريح فيه تنزيهٌ للشاعر وللشعر من استعمال اللفظ القبيح والمعنى السَّاقط والصور الشنيعة، وفي التعريض أيضا صون لحدِّ ما لكرامة المهجُوِّ بذكر مثالبه وعيوبه لكن بصورة غير مباشرة. وفيه أيضا تنزيه المتلقِّي من قراءة أو سماع ما يخدش الحياء، ويُفسد الخلق الكريم. ومع هذا كلِّه فابن رشيق يُبيح التَّصريح ويُجيزه إذا لم يُجْدِ التَّعريض نفعا، أو حسب قوله: فأمَّا إن كان لا يوقظه التَّلويح، ولا يُؤلمه إلا التَّصريح؛ فذلك. ولكن هل التَّصريح يعني بالضرورة الفحش والسبَّ والبذاءة؟ إنَّ هذا مرفوض في الأصل عند ابن رشيق، فهو ليس من الهجاء ولا يُهتمُّ به، فالمقصود هو التَّصريح بالمعايب النَّفسية التي يُهجى بها المرءُ، كأن يُهجى بالبُخل أو الجُبن، فالأوْلى أن يكون الهجاء أوَّلا تعريضا، فإن لم يتألَّم المهجُوُّ ولم يتأثَّر كان التَّصريح بالبُخل والجبن أنفع وأجدى. وهذا ما

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص151.

[2] – حافظ حسين لفته، المعنى في النقد العربي القديم، ص93.

[3] – عليان مصطفى عبد الرحيم، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص338-339.

جعله يذكر أبا نواس والمتنبي لاختلاف مراتب الهجاء لديهما حسب المهجُوِّين، ولكن لم يصل بهما الأمر إلى التفحُّش في الهجاء إلاَّ نادرًا وخاصة المتنبي.

ويختم ابن رشيق باب الهجاء بذكر أهجى بيت قالته العرب، حيث قال: "يقال: إنَّ أهجى بيت قاله شاعر قول الأخطل في بني يربوع رَهْطِ جرير:

قَـــومٌ إذا اسْـــتَنْبَحَ الأضـــيافُ كلـــبَهُمُ قَـــالُوا لأمِّهـــم: بُـــولِي علـــى النَّـــار

لأنَّه قد جمع فيه ضروباً من الهجاء: فنسبهم إلى البخل بوقود النار لئلا يهتدي بها الضيفان، ثم البخل بإيقادها إلى السَّائرين والسَّابلة، ورماهم بالبخل بالحطب، وأخبر عن قِلَّتِها وأنَّ بَوْلَةً تُطفئُها، وجعلها بولةَ عجوز، وهي أقلُّ من بولة الشَّابة، ووصفهم بامتهان أمِّهم وابتذالها في مثل هذا الحال، يدلُّ بذلك على العقوق والاستخفاف، وعلى أنَّ لا خادم لهم، وأخبر في أضعاف ذلك ببخلهم بالماء."[1]

أمَّا إذا قصدنا الأنموذج، فنجد أنَّ ابن رشيق قد عرَّفنا ببعض الشعراء الهجَّائين، وذكر بعض أشعارهم في الهجاء، وفي الغالب ما يكون ذلك دون تعليق، ومنهم الشاعر بكر بن علي الصابوني، حيث جاء في ترجمته: "كان شاعرا مطبوعا حلوا صاحب نوادر ومقالعة وهجاء خبيث..وهجا ابن الوسطاني أقبح هجاء، وذكر أنَّه يستتر بالعزائم والرُّقى ويُسِرُّ الفسق والزنا، وزاد على الإقذاع."[2]، ومن أهاجيه القبيحة المشتملة على ألفاظ نابية قوله:

أذابَ والٍ بسُوســـــــــة مُخـــــــــي يُعـــــرف بـــــين الأنـــــام بـــــالفَرخِ

يـــــزعمُ عبـــــد العزيـــــز والـــــده وأيـــــر عبـــــد العزيـــــز مســـــترخي[3]

ومن هجائه أيضا، قوله:

كـــــــلُّ سُوســـــــيٍّ بسوســـــــهْ نفسُـــــــه نفـــــــسٌ خسيســـــــهْ

بعضُـــــــهم يـــــــنهشُ بعضًـــــــا كَـــــــكِلابٍ فـــــــي فَريسَـــــــهْ

ومن هجائه المقذع جدًّا، قوله:

واعجَبًـــــا منـــــه كيـــــف يشـــــتمني هـــــذا وعنـــــدي مـــــن أصـــــله خبـــــرُ

أبـــــوه يُـــــؤْتَى وأمُّـــــه أبـــــدًا تـــــأتي وبالسَّـــــحق فهـــــي تفتخِـــــرُ

هـــــذا الـــــذي بُـــــدِّلتْ أُبُوَّتُـــــه أبـــــوه أُنثـــــى وأُمُّـــــه ذكـــــرُ[4]

ويذكر أيضًا الشاعر عبد الرحمن بن محمد الفراسي، وقال عنه: "كان شاعرا خليعا ماجنا شرِّيرا كثير المهاجاة قليل المداراة خبيث اللِّسان. ومن هجائه قوله في القاضي عبد الرحمن بن محمد لـمَّا تولَّى قضاء تونس:

---

[1] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص153.

[2] – ابن رشيق، الأنموذج، ص94-95.

[3] – المصدر نفسه، ص98.

[4] – نفسه، ص98.

يقـــــول فراســـــيُّ هـــــذا الزمـــــان ومـــــا زال فـــــي قولـــــه يعـــــدلُ
متـــــى يملـــــك الأرضَ دجَّالُهـــــا فقـــــد صـــــار قاضـــــينا أحـــــولُ[1]

ومنهم الشاعر عتيق بن عبد العزيز المعروف بالمجدولي، قال عنه: "وكان شاعرا شرِّيرا مُنابشا، هجَّاءً. قال يهجو كاتبا:

وكاتِـــــبٌ يمســـــخُ مـــــا ينســـــخُ جميـــــع مـــــا يكتبـــــه يفســـــخُ
حِـــــرتُ فـــــلا أدري أأثوابُـــــه أم عِرضُـــــه أم حِبْـــــرُه أوســـــخُ[2]

ومن شعر عتيق بن محمد الورَّاق في الهجاء، وقد بالغ:

لـــو أنَّ أكفـــانَهم مـــن حَـــرٍّ أوجههـــم قـــاموا إلـــى الحشـــر فيهـــا مثـــل مـــا رقـــدُوا
خُـــزْرُ العُيـــونِ إذا مـــا عُوتبُـــوا، وإذا مـــا عـــاتَبُوا أنفـــذوا بـــاللَّحظ مـــا قصـــدُوا[3]

وهجا عليُّ بن أحمد المعروف بابن الماعز الطبيب ابنَ القَيني، وهو من شعراء الأنموذج، لمَّا مازحه مزاحا مُرًّا، فقال:

إذا حَضـــرَ القَيْنِـــيُّ يومًـــا بمجلـــسٍ ترفَّـــع منـــه الـــنَّحسُ مـــن كـــلِّ جانـــبِ
تـــراه لَسُـــوعًا وهـــو مُـــذكـــان مُـــدبرٌ ومـــا ذاك إلاَّ مـــن طِبـــاعِ العَقـــاربِ
نُســـبْتَ إلـــى قَـــيْنٍ وإلاَّ فَقَيْنَـــةٍ فيَـــا لـــك مـــن حُـــرٍّ كـــريم المناســـبِ[4]

بل وصل الأمر ببعضهم وهجا نفسه، كما فعل الحطيئة؛ وهو أبو الحسن علي بن عطاء النَّمدجاني وكان أعرج، فوصف نفسه هاجيًّا، يقول:

تبـــــدَّيتُ إلـــــى النَّـــــاس فقـــــالوا: أنـــــت إبلـــــيسُ
رأوا شـــــيخًا قبـــــيحَ الوجـــــ ـــــه فـــــي طِمريْـــــه تـــــدنيسُ
ورِجْـــــلٌ فعلُهـــــا فـــــي الأر ضِ مـــــا لا تفعـــــل الـــــفُوسُ
فلـــــمَّا اســـــتثبتوا أمـــــري وأمـــــري فيـــــه تلبـــــيسُ
رمَـــــوْني بالـــــذي فـــــيَّ وقـــــالوا: إنَّـــــه بِيـــــسُ
فقلـــــتُ: الحســـــنُ محمـــــودٌ هَبُـــــوا أنِّـــــيَ طـــــاووسُ[5]

ومن الشعراء من ركَّز في هجائه على المعايب الخِلقية والجسمية، وتشويه صورة المهجُوِّ وتقبيحها لتكون مثارًا للسخرية والاستهزاء، فهذا الشاعر عبد الملك بن محمد المعروف بالدركادو يهجو رجلا صاحب أنف كبير، فيقول:

[1] – ابن رشيق، الأنموذج ، ص146-147.
[2] – المصدر نفسه، ص248-249.
[3] – نفسه، ص253-254.
[4] – نفسه، ص271.
[5] – نفسه، ص292-293.

نقِّــرْ علـــى المنقـــار إن كنـــتَ قـــد أنكـــــرتَ منـــــه عِظَـــــمَ الأنْـــــفِ
أنْـــــفٌ إذا أقبـــــل يمشـــــي بـــــه حَسِـــــبْتَه يمشـــــي إلـــــى خَلْـــــفِ
لـــــو أنَّـــــه مـــــوردُه مـــــا انتهـــــى فيـــــه بريـــــدُ اليـــــومِ للنِّصْـــــفِ[1]

وهذا أبو بكر عتيق بن محمد الورّاق يهجو رجلا أعجميًّا، فيقول:

ابـــــــن "اندريـــــــه" عِلْـــــــجٌ نِتَـــــــاجُ أمٍّ كريمَـــــــهْ
ذو لحيـــــــةٍ ذاتِ عـــــــرضٍ طويلـــــــةٍ مستقيمـــــــهْ
كأنَّهـــــــا بَنْـــــــدُ جـــــــيشٍ مُـــــــنكَّسٌ فـــــــي هزيمَـــــــهْ

وقال ابن رشيق: ولم أر لأهل عصرنا أظرف منه[2]. ومن شعر عتيق بن مفرّج العتقي يهجو رجلا ذا لحية طويلة:

ولحيـــــــة ليِّنـــــــة الجـــــــسِّ تنســـــاب فـــــي الشـــــقِّ بـــــلا جَـــــسِّ
لـــــو قعـــــد الجـــــالسُ فـــــي وســـــطها لَـــــمَا رأتـــــه أعـــــين الإنـــــس
كأنَّهـــــــا التِّـــــــرس ولكنَّهـــــــا أحســـــن فـــــي العـــــين مـــــن التِّـــــرس[3]

وهذا أبو بكر عتيق بن حسَّان الخرقي يهجو رجلا شتمه، فقال:

عَبْـــدٌ تكلَّـــف شـــتمي وهـــو يشـــرق بـــي يبغـــي بـــذلك مـــن عُشَّـــاقه سَـــببَا
وظـــلَّ يزهـــى علينـــا والصَّـــغار لـــه ويركـــب النَّهـــي فينـــا بعـــدما ركِبَـــا
يرجـــو إعـــادة أيَّـــام قـــد انصـــرمتْ ويحلـــق الخـــدَّ مـــن شـــعر قـــد التهبَـــا
يُســـتِّرُ القـــبحَ منـــه وهـــو منكشـــفٌ جســـمٌ حطـــامٌ ووجـــهٌ لونُـــه شـــحبَا
يُمضـــي السِّـــواك علـــى ثغـــر بـــه قلـــحٌ لـــو مـــجَّ ريقتَـــه فـــي النِّيـــل مـــا شُـــرِبَا[4]

أمَّا محمد بن شرف الجذامي القيرواني، فيسلك في الهجاء مسلكا عجيبا؛ حيث يُوظِّف المعاني الدّينية مقتبسًا إيَّاها من القرآن الكريم، فيقول مثلا:

مـــــا فُـــــلانٌ إلاَّ كَجِيفَـــــةِ كَلْـــــبٍ والضـــــروراتُ ألجَأَتْنـــــا إليـــــه
فَمَـــــنِ اُضْـــــطُرَّ غيـــــرَ بـــــاغٍ ولا عَـــــا دٍ فـــــلاَ إثـــــمَ فـــــي الكتـــــابِ عليـــــه[5]

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص224.
[2] – المصدر نفسه، ص254.
[3] – نفسه، ص260.
[4] – نفسه، ص247.
[5] – نفسه، ص346.

وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]

ونقف في الأنموذج على نوع آخر من الهجاء، هجاء له علاقة وطيدة بالحياة الدّينية والسياسية آنذاك، وهو هجاء الشيعة الرَّافضة، والتشفِّي بقتلهم؛ لجرائرهم السَّابقة وظلمهم النَّاس أيَّام قوَّتهم وسطوتهم زمن الدولة الفاطمية. ومثال ذلك ما جاء على لسان الشاعر الحسن بن علي المعروف بابن زنجي:

شَفَى الغَيْظَ في طيِّ الضَّمير المُكَتَّمِ ... دِمَاءُ كِلاَبٍ حُلِّلَتْ في المحرَّمِ
وكنَّا نَظُنُّ الكُفْرَ في جَاهليةٍ ... فتَعْسًا لكلِّ جَاهليٍّ مُخضْرَمِ
يَقُولونَ مولاهُم عليٌّ وإنَّهم ... لأعظمُ بُغْضًا فيه من آل مِلْجَمِ
سَبَبْتُمْ عَتِيقًا والإمامين بَعْدَهُ ... فلم تُعْتَقُوا يوم الحريق المُضَرَّمِ
وسُؤْتُم نبيَّ الله في خَيْرِ أهْلِه ... وأفْضَلِ بِكْرٍ في النِّسَاءِ وأيِّمِ
فكَمْ عَاثِرٍ منكم إذا صَافَحَ الثَّرى ... من الذُّعْر قُلْنَا لليَدَين وللفَمِ
فَلاَ نَفَقٌ في الأرضِ أَخْفَى مكانَكُمْ ... ولا شَاهِقٌ يُرْقَى إليه بِسُلَّمِ
لَقَدْ رَفَضَتْكُمْ كلُّ أَرْضٍ وبُقْعَةٍ ... وقَدْ ضَرَحَتْ مِنْكُمْ بِقَاعُ جَهَنَّمِ
فَذُوقُوا كَمَا ذُقْنَاهُ أيَّام كُفْرِكُمْ ... مِنَ الغَيْظِ في أكْبَادِنَا والتَّأَلُّمِ[2]

وكان الشاعر محمد بن أبي معتوج الباجي هجَّاءً، لا يتَّقي دائرة، وهو القائل في أبي حاتم الزُّبُنِّي، وكان مولعا بهجائه:

وإذا مررتَ ببابِ شَيخِ زُبُنَّةٍ ... فاكتُبْ عليه قوارعَ الأشعارِ
يُؤْتَى ويُؤْتَى شيخُه وعجوزُه ... وبناتُه وجميعُ مَن في الدَّارِ[3]

وأمَّا الشاعر محمد بن مغيث، فقد أتى عبد المجيد بن مهذَّب زائرًا فحجبه، فقال هاجيا:

زُرتُ عبد المجيد زورةَ مُشتا ... قٍ إليه فصدَّ عنِّي صُدودَا
فكأنِّي أتيتُه أنزع العِـ ... ـمَّة عن رأسه وأُخصي سعيدَا

قال ابن رشيق: وهذا من أخبث الهجاء، وأقبح التَّعريض، إشارة إلى قُروح كانت برأسه، وعبدٍ له كان يُعرف به.[4]

وأمَّا صاحب الكتاب، الحسن بن رشيق، فله أبيات يهجو بها رجلا اسمه فرات، وهي:

قالوا رأينا فُراتًا ليس يُوجعه ... ما يُوجع النَّاس من هجو به قُذِفَا
فقلتُ: لو أنَّه حيٌّ لأوجعه ... لكنَّه مات من جهل وما عَرَفَا

---

[1] – سورة البقرة، الآية 173.
[2] – ابن رشيق، الأنموذج، ص108-109.
[3] – المصدر نفسه، ص351-352.
[4] – نفسه، ص406.

ومـــا هجـــوتُ فُراتًـــا غيـــر تجربـــةٍ وذو الرِّمايـــة مَـــن يستصـــغر الهَـــدَفَا[1]

ومع أنَّ ابن رشيق قد ذكر هذه النَّماذج من الهجاء المقذع الفاحش الذي استهجنه ومقته في كتابه العمدة، إلاَّ أنَّه كان يُشيد ببعض الشعراء الذين رفضوا الهجاء مطلقا، معتبرين إيَّاه منقصة في حقِّهم. قال ابن رشيق: "ومنهم من لا يهجو كفئًا ولا غيره؛ لِمَا في الهجو من سوء الأثر، وقُبح السُّمعة: كالذي يُحكى عن العجَّاج أنَّه قيل له: لِمَ لا تهجو؟ فقال: ولِمَ أهجو؟ إنَّ لنا أحسابًا تمنعنا من أن نُظلَم، وأحلامًا تمنعنا أن نظلِمَ..وقد كان في زماننا من انتحل هذا المذهب، وهو أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم، لم يَهْجُ أحدًا قط. ومن أناشيده في كتابه المشهور، لغيره من الشعراء، وهو منظور بن سحيم الفقعسي:

ولســـتُ بهَـــاجٍ فـــي القِـــرَى أهـــلَ مَنْـــزِلٍ عَلَـــى زَادِهـــم أبْكِـــي وأُبْكِـــي البَواكِيَـــا
فإمَّـــا كِـــرَامٌ مُوسِـــرُون أتَيـــتُهم فَحَسْـــبيَ مِـــن ذو عِنْـــدَهم مَـــا كَفَانِيَـــا
وإمَّـــا كِـــرَامٌ مُعْسِـــرُون عَـــذَرْتُهم وإمَّـــا لِئَـــامٌ فـــادَّخَرْتُ حَيَائِيَـــا[2]

وقال عن الشاعر أحمد بن القاسم المعروف بابن حديدة: "شاعرٌ فَكِه الشعر، رائق التشبيه،..يرفض المدح والهجاء."[3]، وقال عن عبد الله بن رشيق: "كان له في الشعر حظٌّ كبير إلاَّ أنَّه لم يمدح لمثوبة، ولا أعلمه هجا أحدًا قط."[4]، وأمَّا محمد بن أبي علي، فهو "شاعرٌ حلوٌ، ذكيٌّ، ممتازٌ، لا يمدح ولا يهجو ثقةً وإكبارًا."[5]

وما يُمكن استنتاجه من هذه النَّماذج في الأنموذج أنَّ الهجاء عند شعراء المغرب العربي متنوِّعٌ ما بين الهجاء اللَّين أو المعتدل –إن جاز التعبير– وبين الهجاء المُقذع والفاحش والسَّاخر، وإن لاحظنا غلبة النوع الثاني منهما على الأوَّل، فوجدنا في النماذج الهجائية البذاءةَ والفُحشَ والتشهير بالأعراض والتعيير بالمعايب والصفات الخِلقية، واستعمال التَّصريح بدل التَّعريض في الكثير منها، وقد يكون السبب تأثير البيئة المتحضِّرة التي عاش فيها معظم هؤلاء الشعراء، وهي بيئة القيروان وما شابهها، قال فوزي عيسى وهو يتحدَّث عن الهجاء في الأندلس: "وربَّما ساهمت البيئة المتحضِّرة في تهيئة الجوِّ الملائم للهجاء بما تنطوي عليه من تعقيد وعلاقات متشابكة وبما يشيع فيها من فراغ وجِدة، وهي في جُملتها أسباب تدعو إلى الهجاء وتُحفِّز الشعراء إليه. وهم يتناولون ما وقعت عليه أعينهم من نقائص وعيوب بصورة مغايرة تتميَّز بالسخرية والتَّهكُّم وتناسب الذوق المتحضِّر."[6]

---

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص442.
[2] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص96-97.
[3] – ابن رشيق، الأنموذج، ص71.
[4] – المصدر نفسه، ص191-192.
[5] – نفسه، ص347.
[6] – عيسى فوزي، الهجاء في الأدب الأندلسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ط1، 2007م، ص18.

ولكنَّ السؤال الجوهري في هذا المقام، هل التزم ابن رشيق بالمعايير الأخلاقية في الهجاء التي حدَّدها وبيَّنها في كتابه العمدة؟ والجواب، وبعد عرض تلك النماذج وبعد ما استنتجناه منها، نخلص إلى أنَّ ابن رشيق قد تساهل كثيرا مع هؤلاء الشعراء الهجَّائين عندما عرض أهاجيهم التي تتنافى مع ما حدَّده من قواعد وضوابط للهجاء، والتي هي في مجملها ضوابط أخلاقية، كاعتبار أنَّ أفضل الهجاء وأجوده ما اقتصر على العيوب النَّفسية، وابتعاده عن العيوب الخِلقية، وتجنَّب الإقذاع والإفحاش والسِّباب والألفاظ القبيحة في الهجاء، فأبلغ الهجاء ما كان عفيف اللفظ، صادق المعنى، والتَّعريض في الهجاء أوْلى من التَّصريح. كلُّ هذه الضوابط لا نكاد نجدها إلاَّ في بعض النَّماذج التي ذكرها.

الفصـــل الثالـــــث

الاتجاه الأخلاقي في النقد

عند ابن شرف القيرواني

التعريف بالناقد ابن شرف القيرواني:

هو أبو عبد الله محمَّد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذاميُّ القيرواني[1]، صاحب الشخصية المتعدِّدة المواهب؛ فهو الأديب الكاتب والشاعر الناقد، وُلد بالقيروان سنة **390**هـ في أحد البيوت الشريفة القادمة مع الجيش العربي الفاتح، وكانت القيروان آنذاك زاهية بالعلوم والفنون والآداب، فأتاح ذلك لابن شرف تلمذة مبكِّرة ومثمرة على أساتذة فضلاء أجلاَّء كأبي الحسن القابسي وأبي إسحاق الحُصري ومحمد بن جعفر القزَّاز وغيرهم. وظلَّ ابن شرف يتلقَّى العلم والأدب عنهم حتَّى نبغ وأجاد، وأصبح من شعراء الدولة الصنهاجية المقربين، والتحق بديوان المعزِّ بن باديس، أمير إفريقية، ونال حظوة كبيرة لديه حتَّى أصبح هو وابن رشيق صاحب العمدة من نُدمائه وخاصَّته والمتقدِّمين عنده على سائر مَن في حضرته من العلماء والأدباء، "وكان المعزُّ يُقرِّب هذا تارة ويُدني ذاك تارة، فتنافسا وتنافرا ثم تهاجيا، ولكن لم يتغيَّر أحدهما على الآخر بما جرى بينهما من المتناقضات"[2]، وهذه المُلاحاة بين الشاعرين ذكرها معظم المترجمين سواء لابن رشيق أو لابن شرف، فهذا صاحب فوات الوفيات يقول: "وكان بينه وبين ابن رشيق مهاجاة ومعاداة جرى الزَّمان بها كعادته بين المتعاصرين. ولابن رشيق فيه عدَّة رسائل يهجوه فيها، ويذكر أغلاطه وقبائحه."[3]

واستمرَّ ابن شرف في خدمة المعزِّ إلى أن زحف عرب الصَّعيد من الهلاليين وغيرهم، واستولوا على غالب القطر التونسي بعدما خرَّبوه ودمَّروه، واضطرَّ الأميرُ المعزُّ إلى ترك القيروان، فاستقرَّ بالمهدية واتَّخذها دار مُلكه، وقد تبعه إليها شعراؤه وحاشيته، ومنهم ابن شرف.

أقام ابن شرف مدَّة بالمهدية، يخدم الأمير المعزَّ وابنه تميمًا، إلى أن رحل عنها قاصدا جزيرة صقلية لـمَّا سمع من كرم أميرها. وإليها لحقه رصيفُه ابن رشيق، فلمَّا اجتمعا بصقلية تسامحا وتصالحا، وأصبحت العلاقة بينهما طيِّبة. ولـمَّا همَّ ابن شرف بالذهاب إلى الأندلس استنهض رفيقه ابن رشيق أن يصحبه، لكنَّ ابن رشيق لم يقبل، وأنشد البيتين المشهورين:

ممَّـــا يُزهِّـــدني فـــي أرض أنـــدلسٍ ســـماعُ مُقتـــدر فيهـــا ومُعتضـــد

ألقـــاب ســـلطنة مـــن غيـــر مملكـــة كـــالهرِّ يحكـــي انتفاخـــا صـــولة الأســـد

فأجابه ابن شرف بديهة:

إن ترمـــك الغربـــةُ فـــي معشـــر قـــد جُبِـــل الطبـــعُ علـــى بُغضـــهم

فـــدَارهم مـــا دُمـــتَ فـــي دارهـــم وأرضِـــهم مـــا دُمـــتَ فـــي أرضـــهم

---

[1] – يُنظر ترجمته كاملة إلى ابن شرف أبو عبد الله محمد القيرواني، رسائل الانتقاد(في نقد الشعر والشعراء)، تح: حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ص9 وما بعدها. وابن شرف أبو عبد الله محمد القيرواني، ديوان ابن شرف القيرواني، تح: حسن ذكرى حسن، دار مصر للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت، ص19 وما بعدها.

[2] – الفاخوري حنَّا، تاريخ الأدب العربي في المغرب، منشورات المكتبة البولسِيَّة، بيروت، لبنان، ط1، 1982م، ص110.

[3] – الكُتبي محمد بن شاكر بن أحمد، فوات الوفيات والذَّيل عليها، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1974م، ج3، ص359.

واجتاز ابن شرف وحده الأندلس، وتنقَّل في بلادها وسكن المَريَّة بعد مقارعة أهوال ومقاومة خطوب، وتردَّد على ملوك طوائفها كآل عبَّاد بإشبيلية وغيرهم. وبمدينة إشبيلية كانت وفاته سنة **460هـ**[1]

خلَّف ابن شرف مؤلَّفات كثيرة، لكنَّها لم تسلم من يد الزمان، فلم يصل إلينا منها إلاَّ القليل، أشاد بها الكثير من الكُتَّاب قديما وحديثا؛ فهذا ابن بسَّام يُنوِّه بتآليف ابن شرف قائلا: "ولأبي عبد الله عدَّةُ تواليف أفاضها بحارًا، وأطلعها شموسا وأقمارًا، منها كتابه الموسوم بـ(أعلام الكلام) وكتاب (أبكار الأفكار)"[2]، ومن المحدثين نجد الأستاذ حسني عبد الوهاب يقول: "أمَّا تآليف محمد بن شرف فكثيرة على ما نقله إلينا المؤرِّخون"[3]، ويُمكن حصر هذه المؤلَّفات في الآتي:

1– أبكار الأفكار: "وهو من أدبه الإنشائي شعرا ونثرا، ولم يصلنا لكن رأينا قطعة منه في كتاب (بدائع البدائه) لعلي بن ظافر الصابوني"[4]، فالكتاب إذن يشتمل على مختارات ممَّا أنتجه ابن شرف من شعر ونثر، يقول فيه ياقوت: "أبكار الأفكار جمع فيه ما اختاره من شعره ونثره"، ويقول الصَّفدي: "وهو كتاب حسن في الأدب يشتمل على نظم ونثر من كلامه"، ويقول ابن دحية: "ولابن شرف مصنَّفات عديدة وأوضاع مفيدة منها (أبكار الأفكار) في سفرين، وهو اختراع كله في الحكم والأمثال والنظم والنثر"[5]، ويُحدِّثنا ابن شرف نفسه عن كتابه هذا من خلال كلامه في صدر الكتاب الذي قدَّمه وأهداه للمعتضد، وبعث به إليه، وقال فيه: "..وقد كنتُ حاولتُ منه ما لم أسبق إليه، ولم أجعل سوى ناظري مُعيني عليه، فصنَّفتُ الكتاب المُلقَّب بـ(أبكار الأفكار)، يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال، وحكايات قصار وطوال، ممَّا عزوتُها إلى مَن لم يحْكِها، وأضفتُ نسجها إلى مَن لم يحُكْها، قد طُرِّزتْ بلُمح الجدِّ والهزل، وحُسِّنت بمقابلة الضدِّ للمثل، ليس في ذلك كلِّه رواية رويتها عن قديم ولا جديد، ولا حُدِّثتُ بها عن قريب ولا بعيد."[6]

2– أعلام الكلام أو رسائل الانتقاد: ويُسمَّى أيضا(مسائل الانتقاد)،"وقد حدَّثنا ياقوت عن هذا الكتاب وموضوعه، حيث يقول وهو بسبيل تعداد مؤلَّفات ابن شرف: (وأعلام الكلام مجموع فيه فوائد ولطائف ومُلح منتخبة)، ثمَّ يُشير عقب ذلك مباشرة إلى أنَّ لابن شرف كتابا آخر بعنوان (رسالة الانتقاد)، ويُحدِّثنا عنه قائلا: (ورسالة الانتقاد وهي على طراز مقامة، نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهليين والإسلام)"[7]

---

[1] – يُنظر ابن شرف القيرواني، رسائل الانتقاد، ص11–12.

[2] – ابن بسَّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق4–مج1، ص171.

[3] – ابن شرف القيرواني، المصدر السابق، ص13.

[4] – قلقيلة عبده عبد العزيز، النقد الأدبي في المغرب العربي، ص218.

[5] – يُنظر يوسف محمد سلامة، ابن شرف القيرواني وآراؤه النقدية في رسالته أعلام الكلام، مجلة عالم الفكر، منشورات وزارة الإعلام، الكويت، مج9، ع2، 1971م، ص224.

[6] – ابن بسَّام الشنتريني، المرجع السابق، ق4–مج1، ص179–180.

[7] – يوسف محمد سلامة، المرجع السابق، ص225.

وقد نُشر ما تبقَّى من هذا الكتاب أوَّل الأمر في مجلة المقتبس الدمشقية سنة **1911م** تحت عنوان (رسائل الانتقاد) بتحقيق الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب على نسخة في خزانته وأخرى في خزانة الأسكُورْيَال، وهذا ما صرَّح به الأستاذ في مقدِّمة الكتاب، حيث يقول: "عثرتُ على كتاب صغير الحجم، جميل الخط عتيقه، فتأمَّلته فوجدته لمؤلِّف تونسي معدود من البلغاء. ولمَّا أخذتُ أتلو رشيق معانيه وجدتُ نقصا فادحا بين أوراقه، أفسد عقد جُمله، وبعد مدَّة وقعتُ في فهرست القسم العربي من مكتبة الأسكُورْيَال بجزيرة الأندلس على اسم مقامة تحت رقم 356 منسوبة إلى أبي عبد الله محمد بن شرف القيرواني، فبادرتُ في الحال لطلب نسخة منها وطابقتها بما لديَّ، فكانت القطعة الأندلسية مطابقة للقسم الأول من النسخة التونسية بزيادة ما نقص. فأسرعت حينئذ إلى النسخ، وأتممتُ هاته بتلك حتَّى كملت."[1]، كما نُشر مرة أخرى ضمن (رسائل البلغاء) في طبعته الثانية سنة 1913م للأستاذ محمد كرد علي، تحت مُسمَّى(رسائل الانتقاد)، ولا ندري لماذا أُختير هذا الاسم رغم أنَّ الرسالة تنتهي بهذه العبارة: "تمَّت المقامة المعروفة بمسائل الانتقاد بلطف الفهم والاقتصاد"[2]، وفي سنة 1926م طبعته مطبعة الخانجي المصرية تحت اسم (أعلام الكلام)، ضمن سلسلة "كتب نادرة"، وكان الكتابُ العددَ الأوَّل منها. وآخر طبعات هذا الكتاب كانت من نصيب مطبعة المدني المصرية سنة 1982م، وهذه المرَّة بعنوان (مسائل الانتقاد) من تحقيق الأستاذ النبوي عبد الواحد شعلان.

ونحن إزاء هذه العناوين والأسماء نُرجِّح –كما رجَّح بعض الدَّارسين والباحثين المحدثين–[3] أنَّ هذه الأسماء والعناوين هي لكتاب واحد، ودليلنا هو ما أشار إليه ابن بسَّام في الذخيرة من أنَّ "لابن شرف مقامات عارض بها البديع في بابه، وصبَّ فيها على قالبه، منها مقامة فيها بعض طول، لكنَّه غير مملول، آخذة بطرف مُستطرف من أخبار الأدباء، وذِكْرِ الشِّعر والشعراء."[4] ثم يذكر مقتطفات منها، وهي متطابقة مع ما يوجد في هذه النسخ جميعها.

3– ديوان ابن شرف القيرواني: يُعدُّ ابن شرف القيرواني من فحول الشعراء في المغرب العربي القديم، وقد شهد له خصمه ابن رشيق القيرواني بالقدرة على إبداع الشعر، وقوة البديهة والارتجال فيه. ويبدو أنَّ شعر ابن شرف كان غزيرا، فقد بلغ حجم ديوانه كما أشار صاحب المطرب خمس مجلَّدات. يقول ابن دحية في معرض حديثه عن مؤلَّفات وآثار ابن شرف: "فمن شعر ابن شرف ما أنشدنا غير واحد عن ولده عنه، وشعره في خمس مجلَّدات"[5]، لكنَّ هذا الديوان أصابته حوادث الزمن، وتعرَّض لعوامل الفقد والضياع، ولم يبق منه سوى شذرات قليلة ونُتف يسيرة احتفظت بها بعض المصادر والمراجع القديمة، التي عاصرته أو كانت قريبة العهد به؛ ككتاب أنموذج الزمان لابن رشيق، والذخيرة لابن بسَّام، وخريدة القصر لعماد الدين الأصفهاني، وغيرها.

---

[1] – ابن شرف القيرواني، رسائل الانتقاد، ص7.

[2] – علي محمد كرد، رسائل البلغاء، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، مصر، ط2، 1913م، ص268.

[3] – منهم محمد سلامة في مقاله ابن شرف القيرواني وآراؤه النقدية في رسالته أعلام الكلام، وبشير خلدون في كتابه الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي.

[4] – ابن بسَّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق4–مج1، ص196–197.

[5] – ابن دحية أبو الخطاب عمر بن حسن، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح: إبراهيم الأبياري وآخرون، دار العلم، بيروت، لبنان، دط، دت، ص69.

وهكذا ظلَّ شعر ابن شرف بين طيَّات وثنايا بعض كتب الأدب، والتي بدورها لم تر النور إلاَّ حديثا. فجاء الأستاذ عبد العزيز الميمني وجمع مجموعة من أشعار ابن رشيق وابن شرف، وأخرجها في كتاب سمَّاه (النُّتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين)، واستطاع أن يجمع لابن شرف ما يقرب من مائة بيت.[1] ثم يأتي بعده الدكتور حسن ذكرى حسن ليُعيد من جديد ديوان ابن شرف بعد جهد جهيد، وبحث متواصل بين جمعٍ وتحقيقٍ وضبطٍ وترتيبٍ، كما عبَّر عن ذلك بقوله: "وبعد جهد شاق، وبحث جاد ومتواصل، ومراجعة متأنِّية لمعظم هذه المصادر، استطعت أن أعثر على ما يقرب من ستمائة بيت من أشعاره، صحَّحتُ خطأها، وجمعتُ متفرِّقها، وشرحتُ بعض ما يحتاج منها إلى شرح، ورتَّبتها ترتيبا هجائيا، مع الإشارة إلى بعض ما نُظِّمت فيه من مناسبات وأحداث."[2]

وقد كان ابن شرف أيضًا من الشعراء المجيدين الذين حفلت بهم بلاد المغرب، وتردَّدت أصداء أشعارهم في جنبات القيروان، وشتَّى مدن الأندلس، وكانت لهم مكانة خاصة بين الشعراء آنذاك. وقد تناول ابن شرف في أشعاره شتَّى الأغراض الشعرية المعروفة، من مدح وهجاء، وغزل ورثاء، ووصف وفخر، وزهد وعتاب، وهذا ما اتَّفق عليه كلُّ من تناول هذه الشخصية بالترجمة والتعريف.

وصفه ابن بسَّام في ذخيرته بالأديب الكامل، وقال عنه: "كان أبو عبد الله بن شرف بالقيروان من فرسان الشان، وأحد من نظم قلائد الآداب، وجمع أشتات الصواب، وتلاعب بالمنظوم والموزون تلاعُب الرياح بأعطاف الغصون... ولابن شرف أصالة منزعه، وجلالة مقطعه، ومتانة لفظه، وسعة حفظه، فتسمع بشعره ملآن من وعوعة وجعجعة، ولكنْ ما أبعد ما يرومه وأبدعه!.."[3]

ويقول عنه العمري في مسالكه: "هو محمد بن أبي سعيد بن أحمد الجذامي، أشرقت به جذام، وصدقت حَذَام، وأقرَّ بفضله حتَّى من لا عرف، وتطامنت به لابن شرف ذروة كلِّ شرف، وأصبح وأمسى والمسامع له مُصغية، يلتقط بدائع الطُّرف."[4]

كما ترجم له ابن رشيق في كتاب الأنموذج، فقال عنه: شاعر حاذق، متصرِّفٌ كثير المعاني والتوليد، جيِّدُ المقطَّعات والتَّقصيد، لا يُنكر حذقه ولا يُدفع سبقه، أشعر أهل زمانه من شقَّ غبارَه، وأحذقهم من اقتفى آثارَه، وما منهم إلاَّ أغرُّ نجيب. ولقد شهدته مرَّات يكتب القصيدة في غير مسوَّدة كأنَّه يحفظها، ثم يقوم فيُنشدها، وأمَّا المقطَّعات فما أحصي ما يصنع منها كل يوم بحضرتي –صاحيا كان أم سكرانا– ويأتي بها بديعا مخترعا لا تنساغ لغيره على الفكرة والرويَّة إلاَّ

[1] – يُنظر الميمني أبو البركات عبد العزيز بن عبد الكريم، النُّتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين، المطبعة السَّلفية ومكتبتها، القاهرة، مصر، دط، 1343هـ، ص90-115.

[2] – ابن شرف القيرواني، الديوان، ص29.

[3] – ابن بسَّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق4-مج1، ص169-170.

[4] – العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج17، ص88-89.

جهدًا.. وكان بيننا –قبل أن يجذبنا سيِّدُنا المعزُّ إلى محلِّ حرمه ويُشركنا في سابغ نعمه– مُكاتبات ومُحاوبات من ذلك قصيدة بعثها إليَّ مُتشوِّقا وأنا بالمهدية أولها:

عَـــدِمْناك مـــن بُعْـــدٍ وإنْ زدتنـــا قُربَـــا علـــى أنَّ فيمـــا بيننـــا سببـــًا سَـــهْبَا

فأجبته بقصيدة أوَّلها:

عِتابًـــا عســـى أنَّ الزَّمـــان لـــه عتبـــى وشـــكوى فكـــم شـــكوى ألانَـــتْ لنـــا قَلْبَـــا

إذا لـــم يكـــن إلاَّ إلـــى الـــدَّمع راحـــة فـــلا زال دمـــعُ العـــين مُـــنهملا سَـــكْبَا[1]

من هذه الترجمات والشهادات يتأكَّد لنا أنَّ ابن شرف كان من ألمع شعراء القيروان، وأنشطهم وأغزرهم شعرا وشاعرية في القرن الخامس الهجري، ولعلَّ أبرز هذه الشهادات وأدلَّها على ذلك ما كان من منافسه وغريمه الأول ابن رشيق، فعلى الرغم ممَّا كان بينهما، لم يُغمط الرَّجل حقَّه ولم ينتقص من فضله وشاعريته، بل اعترف بما كان يتمتَّع به ابن شرف من موهبة وإبداع في مجال الشعر، وبيَّن ما يمتلكه من قدرة فنّية على تصريف القول فيه، وخوض غماره في مهارة وبراعة.

ويأتي بعد ذلك ابن خلدون ليُؤكِّد على شاعرية ابن شرف وسبقه في الشعر وعلوِّ مرتبته بين شعراء ذاك العصر، فيقول: "ما كان بإفريقية من مشاهير الشعراء إلاَّ ابن رشيق وابن شرف."[2]

وهذه مقتطفات من أشعاره في شتَّى الأغراض نستدلُّ من خلالها على شاعرية ابن شرف، فمن نظمه في الشوق والحنين إلى بلاده القيروان مدة إقامته بالأندلس، قوله:

يـــا قيـــروانُ وددتُ أنِّـــي طـــائرٌ فـــأراكِ رُؤيـــةَ باحـــثٍ متأمِّـــلِ

آهًـــا وأيَّـــةُ آهَـــةٍ تشـــفي جَـــوى قلـــبٍ بنيـــران الصَّـــبابةِ مُصْـــطَلي

أبْـــدَتْ مفـــاتيحُ الخُطُـــوب عجائبًـــا كانـــت كـــوامنَ تحـــت غيـــب مُقْفـــلِ

يـــا لـــو شـــهدت إذا رأيتُـــكِ فـــي الكـــرى كيـــف ارتجـــاعُ صِـــبَايَ بعـــد تَكَهُّـــلِ

لا كثـــرةُ الإحســـان تُنسِـــي حَسْـــرَةً هيهـــات تـــذهب عِلَّـــةٌ بتعلُّـــلِ

لـــو كنـــتُ أعلـــمُ أنَّ آخـــرَ عهـــدهم يـــومُ الرَّحيـــل فعلـــتُ مـــا لـــم أفْعَـــلِ[3]

وقال يصف ما حلَّ بالقيروان من خراب ودمار على يد الأعراب:

كـــأنَّ الـــدِّيارَ الخاليـــاتِ عـــرائسٌ كواســـدُ قـــد أزرتْ بهـــنَّ الضَّـــرائرُ

وَتُنكِـــرُ بُقياهـــا الأَسِـــرَّةُ حُسَّـــرًا عَواطِـــلَ لا تَفشـــى لهُـــنَّ السَّـــرائِرُ

إذا أَقبَـــلَ اللَّيـــلُ البَهـــيمُ تَمكَّنَـــتْ بِهـــا وَحشَـــةٌ مِنهـــا القُلـــوبُ نَـــوافِرُ

فَلَـــو نَطَقَـــت مـــا كـــانَ أَكثَـــرَ نُطِقِهـــا سِـــوى قَولهـــا أَيـــنَ الخَلـــيطُ المعاشِـــرُ

---

[1] – يُنظر ابن رشيق، الأنموذج، ص340-341.

[2] – ابن خلدون، المقدِّمة، ص584.

[3] – ابن شرف القيرواني، الديوان، ص86-87.

تُـــرى سَـــيِّئاتِ القَيـــرانِ تَعاظَمَـــت فَجَلَّـــتْ عَـــنِ الغُفـــرانِ وَاللَّـــه غـــافِرُ
تَراهـــا أُصـــيبَت بِالكَبـــائِرِ وَحْـــدَها أَلَـــم تَـــكُ قِـــدْمًا فـــي الـــبِلادِ الكَبـــائِرُ
تَرَحَّـــلَ عَنهـــا قاطنوهـــا فَـــلا تَـــرى سِـــوى ســـائِرٍ أَو قـــاطِنٍ وَهْـــوَ ســـائِرُ
فَيـــا لَيـــتَ شِـــعري القَيـــرَوانِ مَـــواطِني أَعائِـــدَةٌ فيهـــا اللَّيـــالي القَصـــائِرُ
وَيـــا رَوْحَتـــي بِـــالقَيرَوانِ وَبُكرَتـــي أَراجِعَـــةٌ رَوْحاتُهـــا وَالبَـــواكِرُ
كَـــأَنْ لَـــم تَكُـــن أَيّامَنـــا فيـــكِ طَلقَـــةٌ وَأَوْجُـــهُ أَيّـــامِ السُـــرورِ سَـــوافِرُ
كَـــأَن لَـــم يَكُـــن كُـــلٌّ وَلا كـــانَ بَعضُـــهُ سَيمضـــي بِـــهِ عَصْـــرٌ وَيَمضـــي المعاصِـــرُ[1]

ومن غُرر قصائده لاميَّته التي نظَّمها في الحِكَم والأمثال، بلغت المائة بيتا، ولكن لم يرد منها إلاَّ القليل، ومنها يصف ليلة قمرية سعد فيها بلقاء الأصحاب والأحباب:

للهِ لَيلَتُنـــــا إذ صَـــــاحِبَايَ بِهـــــا بَـــــدْرٌ وَبَـــــدْرُ سَـــــمائِيٌّ وَأَرضِـــــيُّ
إِذِ الهـــوَى وَالهَـــواء الطَّلـــقُ مُعتَـــدِلٌ هَـــذا وَهَـــذا رَبيعِـــيٌّ طَبيعِـــيُّ
بِتنـــا جَميعًـــا وَكُـــلٌّ فـــي السَّـــمَاعِ وَفـــي شُـــربِ الـــمُدَامِ حِجَـــازِيٌّ عِراقِـــيُّ
أُسْـــقَى وَأَسْـــقِي نَـــديمًا غـــابَ ثالِثُـــهُ وَالـــدَّورُ مِنَّـــا شِـــمالِيٌّ يَمينِـــيُّ
تَحـــتَ الظَّـــلامِ الَّـــذي مِثـــل الظَّلـــيمِ جَثَـــا وَالبَـــدرُ بَيضَـــتُهُ وَالجَـــوُّ أَدْحِـــيُّ
وَقَـــد تَوَلَّـــت بَنـــاتُ الـــنَّعشِ هابِطَـــةً كَأَنَّمـــا هِـــيَ فـــي بَحـــرٍ سُـــمَارِيُّ
وَقَيصَـــرُ الشَّـــرقِ قَـــد أَبْـــدَى طَلائِعَـــهُ فَانهَـــدَّ بـــالمغرِب الجَـــيشُ النَجاشِـــيُّ
حَتَّـــى إِذا مـــا التَقَـــى الجمْعَـــانِ فُـــتَّ بِـــهِ مَعَـــرَّةُ الجَـــيشِ كَالـــمَنْشُورِ مَلْـــوِيُّ

وقال صاحب الأنموذج مُبديا رأيه في هذه الأبيات: "وهذا الكلام قد اشتدَّت مُتونُه، واستقامت بطونُه، وراقت من كلِّ ناحية محاسنُه وفُنونُه."[2]، وقال يمدح عليَّ بنَ أبي الرِّجال:

جـــاوِرْ عليًّـــا ولا تحفـــلْ بحادثـــةٍ إذَا ادَّرعْـــتَ فـــلا تســـألْ عـــن الأسَـــلِ
اســـمٌ حكـــاهُ الـــمُسمَّى فـــي الفِعَـــال فقـــدْ حـــازَ العَلِيَّـــين مـــن قَـــولٍ ومـــن عمـــلِ
فالسَّـــيِّدُ الماجِـــدُ الحُـــرُّ الكـــريم لـــه كالنَّعـــتِ والعطْـــفِ والتَّوكيـــدِ والبَـــدَلِ
زَانَ العُلَـــى وســـواه شَـــانَها وكـــذا للشَّـــمسِ حـــالانِ فـــي الميـــزان والحَمَـــلِ
ورُبَّمـــا عابَـــه مـــا يفخـــرون بـــه يُشْـــنَا مـــن الخَصْـــرِ مـــا يُهْـــوَى مـــن الكَفَـــلِ

[1] – ابن شرف، الديوان، ص61-63.
[2] – ابن رشيق، الأنموذج، ص343.

وفي الغزل قال:

وشـــمسٍ تراخَـــتْ أن تغيـــبَ لِقِبْلَتِـــي كمـا أمسَـكَتْ فيمـا مضـى شـمسُ يُوشَـعِ

فيَـا قاطِعًـا وَصْـلِي ويَـا وَاصِـلاً غَـدِي بأمْسِـي ويـومي فـي العـذاب الـمُمتّعِ

صـرَفْتَ رَجَـائي عـن لعـلَّ وعـن عسـى وأبْعَـدْتَنِي باليـأسِ مـن كـلِّ مَطْمَـعِ

أَعِنِّـي بإطمَـاعِ الوِصـالِ علـى النَّـوى إذا لـم تُقاتِـل يـا جَبَـانُ فَشَـجِّعِ

لـديْكَ فُـؤادٌ مـا لـه مـن مُطالِـبٍ أأطلُـبُ فـي بعضـي وقـد بَـانَ أجْمعِـي

وديعَـةُ مَيْـتٍ أنـتَ فيهـا مُحَكَّـمٌ وإنْ شِـئْتَ فاحْفَظْهـا وإنْ شِـئْتَ ضَـيِّعِ

ومن شعر ابن شرف الذي أورده الصّفدي في كتابه (الشُّعور بالعور) ونال إعجابه، قوله:

ولقـد نعمـتُ بليلـة جمـد الحيـا بـالأرض فيهـا والسَّـماء تـذوبُ

جمـع العشـاءين المصـلِّي وانـزوى فيهـا الرقيـب كأنـه مرقـوب

والكـأس كاسـية القمـيص يـديرها سـاقٍ كخـود كفـه مخضـوب

هـي وردة فـي خـده وبكأسـها الـد دري منهـا عسـجد مصـبوب

منـي إليـه ومـن يديـه إلـى يـدي الشـمس تطلـع تـارة وتغيـب

ويقول الصَّفدي: "ما وقعتُ على أرشق من هذا المعنى ولا أتمَّ، وهو عندي أكمل وأحسن من قول أبي نواس حيث قال:

طالعـاتٌ مـن السـقاة علينـا فـإذا مـا غـربن يغـربن فينـا

ومن قول مسلم بن الوليد:

ينحسـر الليـل عـن دجـاه وتطلـع الشَّـمس فـي الصَّـوانِي[2]

أمَّا نثره، فالتزم فيه السَّجع، وكان كَلِفًا بالمحسِّنات البديعية، فجاءت كتاباته المنثورة مسجوعة ومحشوة حشوا بالمحسِّنات وتزيين الألفاظ وتزويق العبارات، فقد كان هذا شأنه في كلِّ ما أُثر لنا عنه من نثر، سواء أكان نثرا إنشائيا صرفا كالرَّسائل والفصول التي أوردها ابن بسَّام، أم كان نثرا تناول فيه الأبحاث الأدبية مثل رسالته (أعلام الكلام)، التي تناول فيها الشعراء بالنقد. ومن نماذج نثره التي أوردها ابن بسَّام، أنَّ أوَّل ما بعث إلى المعتضد بإشبيلية خمس قصائد من شعره مع رقعة خاطب بها وزيره أبا الوليد بن زيدون، يقول في فصل منها: "الآداب –أعزَّك الله– لأربابها كالمحارم لذوي أنسابها، تُبدي البنتُ زينتها لأبيها، وترفُّ الأختُ لأخيها، ولمَن كان له في المحرم شبيها، وكذلك حكم ذوي الآداب فيها، يرفعون بينهم حُجب التحفُّظ بيد الاسترسال، ويدفعون ستر التقبُّض بأكُفِّ البِشْرِ والإقبال. وقد رفعتُ إلى

[1] – ابن رشيق، الأنموذج، ص71.

[2] – أبو البركات الميمني، النُّتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين، ص207.

حضرته الرَّفيعة خمس أبكار عُرب، تخدمهنَّ وليدةٌ ذات حُسنٍ وأدبٍ، خصَصْتُ بالخمس القرائض خير الملوك، وبالوليدة برَّ الحرِّ المملوك. وهنَّ وإن زِدْن على أربع الشَّرع واحدة، فليست في دين الشِّعر بزائدة، ولمَّا جاز أكثرُ من أربع لخير الأنام، اقتدينا بذلك في خير الكرام."[1]

ومن نثره أيضا ما كتبه مستعطفا على محبوس في دَيْنٍ: "قد حكَمْتَ بسجن الأشباح، وهي سجون الأرواح، فامنُنْ على ما شئتَ منهما بالسَّراح، فالحبْسُ نزاعُ الأرواح، والعقلة أختُ القتلة، وكلاهما فَقْدٌ، ومهرٌ للخُطوبِ ونقدٌ، وإنَّما بينهما نَفَسٌ مُتصَاعدٌ، وأجلٌ مُتباعدٌ، فَالحَقْ منهما ما أجَّلْتَ بما عجَّلْتَ، وقد أخَّرْنا الدَّيْن، إلى يوم الدِّين."[2]

وممَّا جاء في أبكار الأفكار من نثر ابن شرف قوله في العداوة: "كم قاطعك مَن راضعك وقابحك مَن مالحك، ونافقك مَن وافقك، وناصبك مَن صاحبك، وحادَّك مَن وادَّك. وقوله في أنواع شتَّى: الجُودُ أنصرُ من الجنود. الباذلُ كثيرُ العَاذِلِ. الكريمُ كثيرُ الغريمِ. احذر الكريم إذا افتقر، واللئيم إذا اقتدر. احذر التَّقيَّ إذا أنكر، والذكيَّ إذا فكَّر. المُطلُ أحد المنْعَين، واليأسُ أحدُ الصُنْعين. رفث الكلام أحد السِّفاحين. جميل الردِّ أحدُ الجُودين، وبقاء الذِّكر أحد الخلودين. طولُ الجمود أحدُ القبرين، وبقاء الثَّناء أحدُ العُمْرين.مَن كثُر فُجْرُه وَجَبَ هَجْرُه، ومَن كَرُمتْ خِصَالُه وجب وصالُه."[3]

كتاب رسائل الانتقاد، مضمونه ومنهجه:

اتَّبع ابن شرف في كتابه(رسائل الانتقاد)أسلوب المقامات، مُقلِّدا في ذلك بديع الزمان الهمذاني، الذي كان معاصرا له، وفي هذا يقول: "وزوَّر أيضا بديع الزمان الحافظ الهمذاني، وهو الأستاذ أبو الفضل أحمد بن الحسين مقامات كان يُنشئها بديها في أواخر مجالسه وينسبها إلى راوية رواها له يُسميه عيسى بن هشام، وزعم أنَّه حدَّثه بها عن بليغ يُسميه أبا الفتح الإسكندري...إلى أن يقول: فأقمتُ من هذا النحو عشرين حديثا، أرجو أن يتبيَّن فضلها، ولا تُقصِّرُ عمَّا قبلها."[4]غير أنَّ ابن شرف لم يتقيَّد بأسلوب المقامة؛ فقد نقل المقامة من حديث سريع مقتضب إلى كتاب له مقدِّمة وفصول وخاتمة، وله قبل ذلك كلّه موضوعه الذي لا يكاد يخرج عنه، ألا وهو نقد الشِّعر والشعراء.

ويذكر ابن شرف أنَّ عدد مقاماته عشرون مقامة، لكنَّها لم تسلم جميعها من يد الزمن؛ فقد ضاع معظمها، ولم يصلنا منها إلاَّ مقامتان فقط. ويُعرِّفنا ابن شرف في مقدِّمة كتابه ببطل مقامته، وهو شخصية خيالية سمَّاه (أبا الرَّيَّان الصَّلت بن السَّكن)، فيقول: "هذه أحاديث صنعتُها مختلفة الأنواع، مؤتلفة في الأسماع، عربيَّات المواشم، غريبات التَّراجم، واختلفتُ فيها أخبارا فصيحات الكلام، بديعات النِّظام، لها مقاصد ظراف، وأسانيد طِراف، يروق الصغيرَ معناها، والكبيرَ مغزاها. وعزوتها إلى أبي الرَّيَّان الصَّلت بن السَّكن، من سلامان، وكان شيخًا هِمًّا في اللِّسان، وبدرًا تِمًّا

[1] – ابن بسَّام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق4-مج1، ص173.

[2] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص17.

[3] – يُنظر المصدر نفسه، والصفحة نفسها، ويُنظر قلقيلة عبده، النقد الأدبي في المغرب العربي، ص219.

[4] – ابن شرف، المصدر نفسه، ص20-21.

في البيان، قد بقي أحقابا، ولقي أعقابا، ثمَّ ألقته إلينا من باديته الأزمات، وأوردته علينا المعجزات، فمَتَحْنا من علمه بحرًا جاريًا، وقَدَحْنا من فهمه زَنْدًا وارِيًا، وأدرنا من برّه طَرَفا، واجتنينا من ثمره طُرَفا."[1]

وابن شرف إذْ يصف بطله بأنَّه:(بقي أحقابا، ولقي أعقابا) ليدلَّ على أنَّه عاش طويلا، وعاشر كثيرا من النَّاس، فاكتسب بذلك أخبار المتقدِّمين والمتأخِّرين. وأنَّه كان (هِمًّا في اللِّسان، وبدرًا تِمًّا في البيان) ليقول على أنَّه على قدر كبير من العلم والأدب والفصاحة، فلا يقول إلاَّ صوابا. ولا يحكم إلاَّ عدلا.

وتحدَّث ابن شرف على لسان هذا بطل مقاماته عن مشاهير الشعراء الجاهليين والإسلاميين، القدامى والمحدثين؛ فوصف كل واحد منهم باختصار، وعرض لمزاياه وعيوبه في إيجاز، وأغفل المغمورين منهم والمجاهيل ولم يُشر إليهم، مُجريا بذلك على لسان أبي الرَّيَّان أحكامًا وآراء نقدية مختلفة حول الشِّعر والشعراء في مختلف العصور واحدًا واحدًا، في عبارات موجزة مُرَكَّزة. قال ابن شرف: "وجاريتُ أبا الرَّيَّان في الشِّعر والشعراء ومنازلهم في جاهليَّتهم وإسلامهم، واستكشفتُه عن مذهبه فيهم، ومذاهب طبقته في قديمهم وحديثهم. فقال: الشعراء أكثر من الإحصاء، وأشعارهم أبعدُ من شُقَّة الاستقصاء. فقلت: لا أُعْنِتُك بأكثر من المشهورين، ولا أُذاكرُك إلَّا في المذكورين، مثل الضلِّيل، والقتيل، ولبيد، وعبيد.."[2]

وفي المقامة الثانية يُبيِّن ابن شرف منهجه وطريقته في النقد، فيبدأُها بالحديث عن بعض المبادئ النقدية العامة؛ فيُلقي توجيهات ونصائح لكلِّ مَن يتناول نقد الشِّعر والشعراء. فيقول على لسان أبي الرَّيَّان: "النقد هبة الموالد وفيه زيادة طارفٍ إلى تالد، ولقد رأيتُ علماء بالشِّعر ورُواةً له ليس لهم نفاذ في نقده، ولا جودة فَهْمٍ في ردِّيِّه وجيِّده؛ وكثيرٌ ممَن لا علم له يفطن إلى غوامضه، وإلى مُستقيمه ومتناقضه."[3]

ويطلب ابن شرف بعد سماع هذا الكلام من أبي الرَّيَّان أن يُفهمه من مَيزه وعقله؛ ليستهدي به على فهم الشِّعر، والوقوف على بعض سرائره ومعانيه. ويستجيب أبو الرَّيَّان للطلب قائلاً: "أوَّل ما عليه تعتمد، وإيَّاه تعتقد أن لا تستعجل باستحسانٍ ولا باستقباحٍ، ولا باستيراد ولا باستملاح، حتَّى تُنْعِمَ النَّظر، وتستخدم الفكر، واعلَمْ أنَّ العجلة في كلِّ شيءٍ موطئ زَلُوق، ومركب زهوق؛ فإنَّ من الشِّعر ما يملأ لفظُه المسامع، ويردُّ على السَّامع منه فقاقع؛ فلا يَرُعْكَ شماخة مبناه، وانظر إلى ما في سُكناه من معناه؛ فإنْ كان في البيت ساكن، فتلك المحاسن ، وإنْ كان خاليا فأَعْدِمْه جسما باليا. وكذلك إذا سمعتَ ألفاظًا مُستعملة، وكلمات مبتذلة، فلا تَعجَل باستضعافها، حتَّى ترى ما في أضعافها؛ فكم من معنى عجيب في لفظ غريب، والمعاني هي الأرواح، والألفاظ هي الأشباح؛ فإنْ حَسُنا فذلك الحظُّ الممدوح، وإنْ قَبُحَ أحدهما فلا يكن الرُّوح."[4]

---

[1] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص19.

[2] – المصدر نفسه، ص21-22.

[3] – نفسه، ص38.

[4] – نفسه، ص38-39.

فابن شرف يدعو الناقد أو المشتغل بالشِّعر أن يتروَّى ويُمعن النظر كثيرا في النصِّ الذي بين يديه، ولا يتسرَّع في إصدار الحكم له أو عليه، حتَّى يُفرغ فيه جهده تأمُّلا وتفكيرا وتحليلا، فبذلك يكون التوفيق والسَّداد في الآراء والأحكام. وهذا ما دعا إليه الآمدي أيضا حين قال: "فينبغي أن تُنعم النَّظر فيما يرد عليك، ولن ينتفع بالنَّظر إلاَّ مَن يُحسن أن يتأمَّل، ومَن إذا تأمَّل علم، ومَن إذا علم أنصف."[1]

ثمَّ ينتقل ابن شرف إلى فكرة التفاضل بين اللفظ والمعنى، هذه القضية التي أخذت حيِّزًا معتبرًا في النقد العربي القديم. فبيَّن أنَّ من الشِّعر ما يملأ المسامع بفخامة مبناه وقوة ألفاظه وقعقعتها، ولكن إذا فتَّشت عن معناه وجدته خاليا، كالبيت تماما لا يكتمل جماله إلاَّ بسُكَّانه. وكذلك قد يأتي الشَّاعر بألفاظ متداولة، كثيرة الاستعمال، وقد تكون مبتذلة، ولكنَّها تحمل في طيَّاتها معاني شريفة عجيبة.

وهذا الموقف يجعلنا نعتقد أنَّ ابن شرف قد تأثَّر تأثُّرًا كبيرا برأي ابن قتيبة في هذه المسألة، فهو يُريد أن يقول كما قال ابن قتيبة من قبله أنَّ الشِّعر أربعة أضرب:

- ما حسُن لفظه ومعناه.
- ما حسُن لفظه وساء معناه.
- ما حسُن معناه وساء لفظه.
- ما ساء لفظه ومعناه.

ويبدو أنَّ ابن شرف أراد أن يقف موقفا وسطا ومتوازنا بين اللفظ والمعنى، كما فعل معاصره ابن رشيق حين ذهب إلى أنَّ "اللفظ جسم وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه، ويقوى بقوته"[2]، فقال: (والمعاني هي الأرواح، والألفاظ هي الأشباح؛ فإنْ حَسُنا فذلك الحظُّ الممدوح)، فالشِّعر عند ابن شرف لفظ ومعنى، واللفظ بمثابة الجسم، والمعنى بمثابة الرُّوح، ويعتريهما الحُسن والقبح، الجودة والرَّداءة، لكنَّه يرى القبح والرَّداءة في المعنى أشدَّ منه في اللفظ، وهو بذلك يكون قد انحاز واهتمَّ بالمعنى أكثر من اهتمامه باللفظ. (وإنْ قَبُحَ أحدهما فلا يكن الرُّوح). ومن المبادئ النقدية الهامَّة التي أثارها ابن شرف وحثَّ عليها، ودعا إلى التريُّث وعدم العجلة قبل الفصل فيها مسألة القديم والحديث، التي يقول فيها: "وتحفَّظ عن شيئين: أحدهما أن يحملك إجلال القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تستمع له؛ والثاني أن يحملك إصغارُك المعاصر المشهود على التَّهاون بما أنشدت له، فإنَّ ذلك جَوْرٌ في الأحكام، وظُلْمٌ مع الحُكام؛ حتَّى تُمحِّص قولهما، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما."[3]

---

[1] – الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمَّام والبحتري، ج1، ص411.

[2] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص106.

[3] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص39.

ففي هذه القضية يُحذِّر ابن شرف من تفضيل القديم واستحسانه لا لشيء إلاَّ لأنَّه قديم، واستهجان المحدث وذمِّه لا لشيء إلاَّ لأنَّه حديث، وهذه مقاييس علماء اللغة والرواة، "ولعلَّهم كانوا مدفوعين فيما ذهبوا إليه من تفضيلهم الشِّعر القديم وإيثاره واستحسانه إلى أنَّه كان موضع الاستشهاد والاحتجاج به للغة، فالشعر القديم حتَّى الرَّديء منه صالح للاحتجاج والاستشهاد به في إثبات اللغة وقواعدها وضوابطها وتفسير كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله، أمَّا الشِّعر المحدث فغير صالح لشيء من ذلك."[1]

وبيَّن ابن شرف أنَّ هذا الباب فيه استصعاب وإتعاب، لِمَا كان عليه النَّاس منذ القديم من حبِّهم وتمسُّكم بالقديم، ونفورهم من الجديد المحدث، فنزعة التعلُّق بالقديم تكاد تكون صفة مشتركة بين بني البشر، واستشهد بقوله تعالى في تشبُّث القلوب بسيرة القديم، ونفارها من الجديد المحدث، فقال جلَّ شأنه حاكيا لقولهم: ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**﴾[2]، وهو ما عبَّر عنه ابن شرف –وقد أحسن التعبير– حين قال:

أُغْـــرِي النَّـــاسُ بامتـــداحِ القـــديمِ وبـــذمِّ الجديـــدِ غيـــر ذمـــيمِ

لـــيس إلاَّ لأنَّهـــم حَسَـــدوا الحـــيَّ ورَقُّـــوا علـــى العظـــام الـــرَّميمِ[3]

وقال أيضا في بيتين آخرين:

قُـــل لمـــن لا يـــرى الـــمُعاصر شـــيئًا ويـــرى للأوائـــل التَّقـــديمَا

إنَّ ذاك القـــديمَ كـــان جديـــدًا وســـيغدو هـــذا الجديـــد قـــديمَا[4]

فابن شرف في هذه القضية لا يضع اعتبارا لتقدُّم الشاعر أو تأخُّره، فلا مزيَّة للشعر بسبب تقدُّم صاحبه، ولا انتقاص منه بسبب تأخُّر قائله، فهو لا يرى إلاَّ معيار الجودة والإحسان حَكَمًا في الشعر؛ فإن كان الشعر جيِّدا تقدَّم وإن كان صاحبه من المتأخِّرين، وإذا جاء الشِّعر رديئا تأخَّر وإن كان قائله من المتقدِّمين، فهذا ما يراه ابن شرف سبيل الحقِّ وطريق العدل الذي قامت عليه السَّموات والأرض، "فلا يرُعك أن تجري على منهاج الحقِّ، في جميع الخَلق؛ فيه قامت السَّموات والأرض، وبه أُحكِم الإبرامُ والنَّقض، وسأُمثِّل لك في ذلك مثالاً، وأملأ أسماعك مقالاً، وفهمك عدلاً واعتدالاً."[5]

النقد الأخلاقي عند ابن شرف القيرواني:

استهلَّ ابن شرف رسالته بالحديث عن بعض المبادئ النقدية العامَّة كمنطلق للحديث عن سقطات وهنات مجموعة من أكابر وفضلاء الشعراء الجاهليين والإسلاميين والمحدثين من الأمويين والعباسيين، دون أن ينسى بعض الشعراء

[1] – يوسف محمد سلامة، ابن شرف وآراؤه النقدية في رسالته أعلام الكلام، ص241.

[2] – سورة الزخرف، الآية22.

[3] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص39.

[4] – المصدر نفسه، ص40.

[5] – نفسه، والصفحة نفسها.

المغاربة والأندلسيين، معتمدا في أحكامه ونظراته لتلك السقطات والهنات في بعض منها على المقياس الخلقي، وإن لم يُغفل الجانب الفنِّي أيضا. لهذا نستطيع تأكيد ما ذهب إليه الأستاذ غسان عبد الخالق، بأنَّ:"رسالة (رسائل الانتقاد) تصلح أن تكون نموذجًا تطبيقيًّا في النقد الأخلاقي المستند إلى تحليلات نفسية عميقة."[1]

ففي القسم الأوَّل من رسالته، ونعني المقامة الأولى، عرض ابن شرف لكلِّ شاعر عرضًا موجزًا جمع فيه آراء المتقدِّمين ممزوجة بآرائه، وبيَّن ميزاته الخاصَّة من غير منهج نقديٍّ شامل ولا تحليل منهجيٍّ مُعلَّل، عكس ما رأيناه في مقامته الثانية في نقده لامرئ القيس وزهير بن أبي سلمى، حيث رأينا شيئًا من التعليل والاستدلال.

وفي هذه المقامة ذكر ابن شرف ما لا يقلُّ عن ثمانية وأربعين شاعرًا، ينتمون إلى عصور مختلفة، ومن المشرق والمغرب، وقدَّم تعريفًا موجزًا لكلِّ شاعر، وجاءت التعريفات في معظمها مقتضبة في عبارات مسجوعة، فهو "لم يزد على أن وضع بإزاء كلِّ شاعر بطاقة تعريف أبرز فيها خصائصه الفنّية، وأهمَّ ما اشتهر به، وقد حرص على أن يتمَّ ذلك في تركيز شديد، حتَّى أنَّ بعضها جاء في سطر وبعضها في نصف سطر."[2]، ونجد أنَّ المعيار الأخلاقي كان حاضرًا، –ولو بصورة باهتة أو غير مباشرة– في هذا القسم، يتخلَّل بعض هذه التعريفات الموجزة من حين لآخر، ويتجلَّى لنا ذلك من خلال نقده لبعض الشعراء منهم:

– نقد طرفة بن العبد:

فهذا الشاعر طرفة بن العبد، يقول عنه ابن شرف: "ولقد خُصَّ بأوفر نصيب من الشّعر، على أيسر نصيب من العمر؛ فملأ أرجاء ذلك النَّصيب بصنوف من الحكمة، وأوصاف من علوِّ الهمَّة والطَّبع."[3]، فطرفة شاعر جاهلي، قَصُر عمره، وطال ذكره بشعره، فهو صاحب معلَّقة من أفضل المعلَّقات، ورغم أنَّه عاش حياة لهو مجون وسكر، وبسبب ذلك طردته القبيلة منها، وأصبح حاله كحال البعير الأجرب المبعد. ومع ذلك فقد نظَّم تلك المعلَّقة التي ارتفعت به إلى الصفِّ الأوَّل من شعراء العربية على حداثة سنّه وقلّة إنتاجه، وجاء شعره بما فيه المعلَّقة متميِّزًا بذلك الحسِّ الإنساني الفريد من نوعه في جاهلية القصيدة العربية، وأضفت نظراته العميقة للموت والحياة وتصاريفهما فلسفة شعرية قلَّما انتبه إليها المتقدِّمون من الشعراء. وهذا ما جعل ابن شرف يغضُّ الطَّرف عن مجونه ولهوه، ويكتفي بذكر أهمِّ ما تميَّز به شعره: (صنوف من الحكمة، وأوصاف من علوِّ الهمَّة). وابن شرف لم يبتعد كثيرا عمَّا قاله بديع الزمان الهمذاني في المقامة القريضيَّة، حيث قال عندما سُئل عن طرفة: "هو ماء الأشعار وطينها، وكنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أغلاق خزائنه."[4]

---

[1] – الفطافطة غسان إسماعيل عبد الخالق، الأخلاق في النقد العربي من ق3 إلى ق6 الهجريين، ص156.

[2] – المرجع نفسه، ص223.

[3] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص24.

[4] – الهمذاني أبو الفضل أحمد بن الحسين، مقامات بديع الزمان الهمذاني(المقامة القريضية)، تح: الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2005م، ص9.

إنَّ الذي جعل ابن شرف يُعجب أيَّما إعجاب بشعر طرفة هو ما اشتمل عليه من صنوف الحكمة، التي تُفيد الإنسان وتُعلِّمه دروسًا في غاية النَّفع والفائدة، استقاها الشاعر من تجاربه وتدبُّره في الحياة، بل إنَّ بعض شعره فاق كلام الحكماء، فها هو النبيُّ ﷺ –وقد أُنشد بيت طرفة– (ستُبدي لك الأيَّام...) البيت، فيقول ﷺ: **«إِنَّه مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ»**، وكان يتمثَّل به، ولا يُقيم وزنه. "وكان ابن عبَّاسرضي الله عنه يقول: إنَّه كلام نبيٍّ يجمع الحكمة والمثل."[1]، وهذه بعض درره وحكمه التي عناها ابن شرف من ديوانه:

أَرَى العَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصِ الأَيَّامُ و الدَّهْرُ يَنْفَدِ
وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ
سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهْلاً وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَار مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ[2]

والقائل:

عَنِ المَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمُقَارِنِ يَقْتَدِي[3]

ولطرفة قصيدة أخرى مشهورة تذخر بالحكمة، يقول فيها:

إِذا كُنتَ في حاجَةٍ مُرسِلاً فَأَرسِل حَكيماً وَلا تُوصِهِ
وَإِن ناصِحٌ مِنكَ يَومًا دَنا فَلا تَنأَ عَنهُ وَلا تُقْصِهِ
وَإِن بابُ أَمرٍ عَلَيكَ اِلتَوى فَشاوِر لَبيباً وَلا تَعْصِهِ
وَذو الحَقِّ لا تَنتَقِص حَقَّهُ فَإِنَّ القَطيعَةَ في نَقْصِهِ
وَلا تَذكُرِ الدَّهرَ في مَجلِسٍ حَديثاً إِذا أَنتَ لَم تُحْصِهِ
وَنُصَّ الحَديثَ إِلى أَهلِهِ فَإِنَّ الوَثيقَةَ في نَصِّهِ
وَلا تَحرِصَنَّ فَرُبَّ اِمرِئٍ حَريصٍ مُضاعٍ عَلى حِرْصِهِ
وَكَم مِن فَتىً ساقِطٍ عَقلُهُ وَقَد يُعجَبُ الناسُ مِن شَخْصِهِ[4]

وهو القائل أيضًا:

قَد يَبعَثُ الأَمْرَ العَظِيمَ صَغِيرُهُ حَتَّى تَظَلَّ لَهُ الدِّمَاءُ تَصَبَّبُ
وَالإِثْمُ دَاءٌ لَيْسَ يُرْجَى بُرْؤُهُ وَالبِرُّ بُرْءٌ لَيْسَ فِيهِ مَعْطَبُ
وَالصِّدْقُ يَألَفُهُ الكَرِيمُ المُرْتَجَى وَالكِذْبُ يَألَفُهُ الدَّنِيءُ الأَخْيَبُ

---

[1] – الثعالبي، خاص الخاص، ص144.
[2] – طرفة بن العبد، الدِّيوان، ص26–29.
[3] – المرجع نفسه، ص32.
[4] – نفسه، ص51.

أَدُّوا الحُقُـــوقَ تَفِـــرْ لَكُـــم أَعْراضُـــكُم إِنَّ الكَـــــرِيمَ إِذَا يُحَـــــرَّبُ يَغْضَـــــبُ[1]

إنَّ هذه الحِكَم الشعرية تنطوي على كثير من الأخلاق الكريمة التي يعتزُّ بها العربي، ويحرص على التحلِّي بها، وما إشارة ابن شرف لها إلاَّ لهذا الغرض النبيل، فالشعر وسيلة تهذيب وتربية وتعليم. ولقد كانت معلَّقة طرفة زاخرة بالحكم والوصايا الأخلاقية والفوائد التاريخية. يقول حنَّا الفاخوري: "يتجلَّى لنا طرفة، ممَّا تقدَّم شاعرًا جليلَ الأثر، على قلَّة ما بقي من شعره، والذي يزيد معلَّقته شأنًا وفرةُ ما هنالك من الفوائد التاريخية؛ فإنَّها تصوِّر لنا ناحية واسعة من أخلاق العرب الكريمة.. زد على ذلك أنَّ هنالك وثائق تاريخية تُطلعنا على ما كان للعرب إذْ ذاك."[2]

– نقد لبيد بن ربيعة:

وأمَّا الشيخ أبو عقيل، وهو لبيد بن ربيعة: "فشعره ينطق بلسان الجزالة، عن جنان الأصالة، فلا تسمع له إلاَّ كلامًا فصيحًا، ومعنى مُبينًا صريحًا؛ وإنْ كان شيخ الوقار، والشَّرف والفخار؛ لبادئات في شعره وهي دلائله، قبل أن يُعلم قائله."[3]

فقول ابن شرف: (فلا تسمع له إلاَّ كلامًا فصيحًا، ومعنى مبينًا صريحًا) فيه إشارة إلى أنَّ لبيدًا كان يقول شعره عن صراحة بدوي، يعيش على البساطة والفطرة، ويرى الصِّدق والإخلاص والفضيلة أهمَّ الخصال التي يجب أن يكون عليها الشاعر، ولم يكن في وصفه أو رثائه أو فخره أقلَّ صدقًا والتزامًا للحقِّ. يقول الفاخوري: "أمَّا صدقه فهو ناطق في جميع شعره، ولبيد شاعر قويٌّ يستمدُّ قوته من صدقه، وشدَّة إيمانه بجمال ما ينصرف إليه من أعمال وما يسمو إليه من مُثُل في الحياة. ولهذا نراه إن تحدَّث عن ذاته، رسم لنا صورته كما هي، وإذا هو في السِّلم رجل لهو وعبث، ورجل كرم وجود، وإذا هو في الحرب شديد البأس والشجاعة، وإذا هو وقد تقدَّمت به السنُّ، رجل حكمة وموعظة ورزانة."[4]، ولعلَّ هذا هو السبب الذي جعل الإمام الشافعي يخصُّ لبيدًا دون غيره من الشعراء في قوله:

ولـــــولا الشّـــــعر بالعلمـــــاء يُـــــزري لكنـــــتُ اليـــــوم أشـــــعر مـــــن لبيـــــد [5]

وكيف لا يكون كذلك وهو من أشراف قومه وفرسانهم، وما يدعم هذا الرأي قول القرشي في الجمهرة: "وقال الذين قدَّموا لبيدًا: هو أفضلهم في الجاهلية والإسلام، وأفصحهم، وأعرفهم في فصحاء العرب، وأقلّهم لغوًا في شعره. وقد رُوي عن عائشة **رضي الله عنها** أنَّها قالت: رحم الله لبيدًا، ما كان أشعره في قوله:

---

[1] – طرفة بن العبد، الدِّيوان، ص12.

[2] – الفاخوري حنّا، تاريخ الأدب العربي، منشورات المكتبة البولسية، بيروت، لبنان، ط12، 1987م، ص110.

[3] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص24.

[4] – الفاخوري حنّا، المرجع السابق، ص185–186.

[5] – الشافعي، الديوان، ص73.

ذَهَـــبَ الـــذينَ يُعَـــاشُ فـــي أَكْنَـــافِهِمْ وَبَقَيْـــتُ فـــي خَلْـــفٍ كَجِلْـــدِ الأَجْـــرَبِ

لاَ يَنْفَعُـــــونَ وَلاَ يُرَجَّـــــى خَيْـــــرُهُمْ وَيُعَـــابُ قَـــائِلُهُمْ وَإِنْ لَـــمْ يَشْـــغَبِ[1]

ولا أدلَّ على صدق لبيد من قول النبيِّ ﷺ في حقِّه: أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد:

ألا كـــــلُّ شـــــيء مـــــا خـــــلا الله باطـــــل

وذكر الثعالبي أنَّ "الفرزدق سمع رجلًا ينشد قصيدة لبيد التي أوَّلها:

عفَّـــــت الـــــدِّيار محلّهـــــا فمقامهـــــا

فلمَّا بلغ قوله فيها:

وجـــلا السُّـــيول عـــن الطُّلـــول كأنَّهـــا زبـــر تجـــد متونهـــا أقلامهـــا

سجد الفرزدق، فقيل له: يا أبا فراس! ما هذه السجدة؟ فقال: إنَّكم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشِّعر."[2]

ويذكر الثعالبي خبرًا آخر لبشار بن برد لمَّا قيل له: "أخبرنا عن أجود بيت للعرب! فقال: إنَّ تفضيل بيت واحد على سائر شعر العرب لشديد، ولكن أحسن لبيد كلَّ الإحسان في قوله:

وأكـــــذب الـــــنَّفس إذا حـــــدَّثتها إنَّ صـــــدق الـــــنَّفس يُـــــزري بالأمـــــل[3]

ويُفسِّر إحسان عبَّاس سبب محبَّة بعض النقاد للبيد واستحسانهم لشعره، فيقول: "لقد وضَّح بعضُ النقاد موقفهم من العلاقة بين الدِّين والشّعر، فأثنوا على تديُّن لبيد، وأنَّهم يُحبُّونه لذكره الله عزَّ وجلَّ ولإسلامه، ولذكره الدِّين والخير. ولكنَّهم نفوا أن يكون لهذا كلّه أثرٌ في حكمهم على شعره. إلاَّ أنَّنا نعلم أنَّ هذا إنْ صحَّ عند بعض النَّاس فربَّما لم يصحَّ عند بعضهم الآخر. ولا ريب في أنَّ الأتقياء والذين تستهويهم النغمة الأخلاقية في الشّعر كانوا يجدون بعض شعر لبيد مُحبَّبًا إلى نفوسهم."[4]

وأمَّا قوله: (وإنْ كان شيخ الوقار، والشَّرف والفخار)، ففيه إشارة إلى حالين كان عليهما لبيد في جاهليته وإسلامه، ففي جاهليته كان لبيد شديد الاعتزاز والافتخار بنفسه وبقومه، فقد نشأ على الشجاعة والكرم والفتك في الحروب، فكان يفكُّ قيود الأسرى، ويهدي الضَّالين ويُؤمِّن الخائفين، ويقوم بحقِّ الضيف والجار، ويحمي العِرض والشرف، ويُنفق ماله في سبيل ذلك. فكانت هذه الخصال الحميدة وغيرها مفاخر لبيد وغايته، ولآلئ ترصَّع بها شعره:

أَقِـــي العِـــرْضَ بِالـــمَالِ الـــتِّلاَدِ وَأَشْـــتَرِي بِـــهِ الـــحَمْدَ إِنَّ الطَّالِـــبَ الـــحَمْدَ مُشْـــتَرِي

---

[1] – القرشي، جمهرة أشعار العرب، ج1، ص203-204.

[2] – الثعالبي، خاص الخاص، ص148.

[3] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[4] – لبيد بن ربيعة العامري، الدّيوان، تح: إحسان عبَّاس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، دط، 1962م، ص34-35.

أُبَــاهِي بِــهِ الأَكْفَــاءَ فــي كُــلِّ مَــوْطِنٍ وَأَقْضِــي فُــرُوضَ الصَّــالِحِينَ وَأَقْتَــرِي[1]

وأمَّا في إسلامه، فتبدَّل الحال، وأصبح لبيدُ شيخَ الوقار، وامتنع عن قول الشّعر –وإن اختلفت الآراء في ذلك– فابن سلاَّم يروي ما يُثبت أنَّ لبيدًا هجر الشّعر واستبدله بالقرآن الكريم، فيقول: "وكتب عمر إلى عامله: أن سلْ لبيدًا والأغلبَ ما أحدثا من الشّعر في الإسلام؟ فقال الأغلب:

أَرَجَــــــزًا سَــــــأَلْتَ أَمْ قَصِــــــيدًا فَقَــــدْ سَــــأَلْتَ هَيِّنًــــا مَوجُــــودَا

وقال لبيد: قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران."[2]، أمَّا صاحب كتاب أدباء العرب، فيرى خلاف ذلك، فيقول: "وزعم الرواة أنَّ لبيدًا لم يقل شعرًا في الإسلام إلاَّ بيتًا واحدًا، وهو:

الــــحَمْدُ للهِ إِذْ لــــم يَــــأْتِنِي أَجَلِــــي حَتَّــــى كَسَــــانِي مِــــن الإِسْــــلاَمِ سِــــرْبَالا

وقيل: بل هو:

مَــــا عَاتَــــبَ الــــحُرَّ الكَــــرِيمَ كَنَفْسِــــهِ وَالــــمَرْءُ يُصْــــلِحُهُ الجَلِــــيسُ الصَّــــالِحُ

أمَّا نحن فنرى أنَّ لبيدًا نظَّم الشّعر في الإسلام كما نظَّمه في الجاهلية، ومن تدبَّر أشعاره برويَّة، استروح في بعضها نفحة قرآنية لا تخفى، مثال ذلك قوله:

إِنَّ تَقْــــوَى رَبِّنَــــا خَيْــــرُ نَفَــــل وَبِــــإِذْنِ اللهِ رَيْثِــــي وَعَجَــــل

أَحْمَــــدُ اللهَ فَــــلاَ نِــــدَّ لَــــهُ بِيَدَيْــــهِ الخَيْــــرُ مَــــا شَــــاءَ فَعَــــل

مَــــنْ هَــــدَاهُ سُــــبُلَ الخَيْــــرِ اِهْتَــــدَى نَــــاعِمَ البَــــالِ وَمَــــنْ شَــــاءَ أَضَــــل

فمثل هذا الشعر –إذْ صحَّ– لا يقوله إلاَّ شاعر عرف الإسلام، وتأثَّر بالقرآن."[3]

والباحث يرى أنَّ لبيدًا إن لم يمتنع كليَّة عن قول الشّعر، فإنَّ شعره في إسلامه قليل جدًّا إذا ما قُورن بشعره في جاهليته، ويبدو أنَّ السبب الرئيس في ذلك هو تورُّعه وتوقيره للقرآن الكريم وانشغاله به.

– نقد عنترة بن شدَّاد:

وتتراوح النظرة الأخلاقية في النقد عند ابن شرف بين الشِّعر والشاعر، "لتكون الأخلاق إطارًا عامًّا لأحكامه النقدية في النظرية والتطبيق، وهي أحكام متداخلة بين الشِّعر والشاعر."[4]، فهذا العبسيُّ، عنترة بن شدَّاد "مُجيدٌ في أشعاره، ولا كمعلَّقته فقد انفرد بها انفراد سُهيل، وغبر في وجوه الخيل؛ وجمع فيها بين الحلاوة والجزالة، ورقَّة الغزل وغلظة البسالة؛ وأطال واستطال، وأمن السآمة والكلال."[5]

---

[1] – لبيد بن ربيعة العامري، الدّيوان، ص92–93.

[2] – الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص135.

[3] – البستاني بطرس، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص131–132، والأبيات في الدّيوان، ص220.

[4] – حمود ثابت عباس، المعيار الأخلاقي في نقد الشعر العربي، ص262.

[5] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص24.

ويتجلَّى لنا المعيار الخلقي مع عنترة بن شدَّاد في مظهرين اثنين، أحدهما (رقَّة الغزل)، وهو حكم متعلِّق بالشّعر، ورقَّة الغزل تعني الغزل العفيف أو الغزل العذري أو الغزل البدوي، وهو الذي تنمو فيه حرارة العواطف الطاهرة العفيفة التي يستخدمها الشاعر لإبراز مكابد العشق، وآلام الفِراق والبُعد عن الحبيبة. وهذا الغزل يبتعد عن وصف المحاسن الجسدية لدى المحبوبة، بل يقتصر على إظهار المشاعر الجيّاشة اتجاهها. ويشغل هذا النوع من الغزل الجزء الأكبر في الشعر العربي، وعنترة بن شدَّاد أحد الشعراء المعروفين بغزله العفيف، "والغزل عند عنترة غزل عذري يُعنى بالمرأة من خُلُقها وصفاتها، ويُعنى بها كمثال، كما يهدف إلى التغنِّي بجمال نفسها:

وقَـــالَ لَهَـــا البَـــدْرُ الـــمُنيرُ ألاَ أسْـــفِرِي فَإِنَّـــكِ مِثْلِـــي فـــي الكَمَـــالِ وفـــي السَّـــعْدِ

والغزل العذري أمرٌ طبيعي عند عنترة ينسجم مع توجُّهه الخُلُقي. والذي يُطالعُ الدّيوان يجد أنَّه يكاد يخلو من وصف الجمال الجسدي، وإذا وردت بعض الأوصاف فإنَّها تكون بعيدة عن الفُحش ومحاطة بسياج من الحشمة.

وَأَلْـــثُمُ أَرْضًـــا أَنْـــتِ فِيهَـــا مُقِيمَـــةٌ لَعَـــلَّ لَهِيبِـــي مِـــنْ ثَـــرَى الأَرْضِ يَبْـــرُدُ "[1]

وأمَّا المظهر الآخر وهو(غلظة البسالة)، وهم حكم متعلِّق بالشاعر، ويعني الشدَّة والشجاعة والجرأة، فابن شرف يبرز هذه الصفة الخُلُقية للشاعر عنترة، لأنَّها من أهمِّ صفاته؛ فقد كان عنترة من أشدِّ أهل زمانه، ومن فرسان العرب المعدودين، وقد رسم من خلال شعره صورة كاملة عن الفارس الشجاع المغوار، الذي يخوض ساحات القتال وميدان الأبطال، فلا يهاب الموت، ولا يُداخل نفسه خوف أو وجل، يقول عنترة:

سَـــكَتُّ فَغَـــرَّ أعْـــدَائِي السُّـــكُوتُ وَظَنُّـــوني لأَهْلِـــي قَـــدْ نَسِـــيتُ
وكَيْـــفَ أَنَـــامُ عَـــنْ سَـــادَاتِ قَـــوْمٍ أَنَـــا فـــي فَضْـــلِ نِعْمـــتِهِمْ رَبِيـــتُ
وَإِنْ دَارْتْ بِهِـــمْ خَيْـــلُ الأَعَـــادِي ونَـــادَوْني أجَبْـــتُ مَتَـــى دُعِيـــتُ
بِسَـــيْفٍ حَـــدُّهُ يُزْجِـــي الـــمَنَايَا وَرُمْـــحٍ صَـــدْرُهُ الحَتْـــفُ الـــمُمِيتُ
خُلِقْـــتُ مَـــنَ الحَدِيـــدِ أَشَـــدَّ قَلْبًـــا وَقَـــدْ بَلِـــيَ الحَدِيـــدُ وَمَـــا بَلِيـــتُ
وَإِنِّـــي قَـــدْ شَـــرِبْتُ دَمَ الأَعَـــادِي بِأَقْحَـــافِ الـــرُّؤُوسِ وَمَـــا رَوِيـــتُ
وَفـــي الحَـــرْبِ العَـــوانِ وُلِـــدْتُ طِفْـــلًا ومِـــنْ لـــبَنِ الـــمَعَامِعِ قَـــدْ سُـــقِيتُ
فَمَـــا لِلْـــرُمْحِ فـــي جِسْـــمِي نَصِـــيبٌ وَلَا للسَّـــيْفِ فـــي أَعْضَـــايَ قُـــوتُ[2]

ولم تكن شجاعة عنترة ناجمة عن تهوُّر وقلَّة تبصُّر بالعواقب، فهو لم يكن ذاك الرجل الهائج الأرعن، بل كانت شجاعته متعقِّلةً متَّزنةً، يُقدِم وقت الإقدام، ويُحجم وقت الإحجام، "قيل لعنترة: أنت أشجع العرب وأشدُّها. قال: لا. قيل: فبماذا شاع لك هذا في النَّاس؟ قال: كنتُ أُقدمُ إذا رأيتُ الإقدام عزمًا، وأُحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا. ولا أدخل إلاَّ موضعا أرى لي منه مخرجًا. وكنت أعتمد الضعيف الجبان، فأضربه الضربة الهائلة، يطير لها قلب الشجاع فأُثني

[1] – عنترة بن شدَّاد، الدِّيوان، ص11.
[2] – المرجع نفسه، ص38.

عليه فأقتله"[1]. ولم تكن الشجاعة هي الصفة التي كان يتمتَّع بها عنترة، وإن كانت هي الغالبة والبارزة، لهذا "حاول عنترة أن يظهر متحلِّيًا بكلِّ الأخلاق الحميدة والصفات الكريمة التي يتَّصف بها خيار النَّاس والفرسان. وكانت غايته من حديثه عن الأخلاق رسم صورة خُلُقية كاملة تُغطِّي بإشراقها نشأته في ظلِّ العبودية والرِّق. فكانت البطولة جزءًا من الفروسية والرجولة الحقَّة تُزيِّنها الأخلاق العربية الأصيلة من صبر ونجدة وكرم وعفَّة ورقّة."[2]، يقول عنترة:

إِذَا قَنِـــعَ الفَتَـــى بِـــذَمِيمِ عَـــيْشٍ ... وَكَـــانَ وَرَاءَ سَـــجْفٍ كَالبَنَـــاتِ
وَلَـــمْ يَهْجِـــمْ عَلَـــى أُسْـــدِ الـــمَنَايَا ... وَلَـــمْ يَطْعَـــنْ صُـــدُورَ الصَّـــافِنَاتِ
وَلَـــمْ يَقْـــرِ الضُـــيُوفَ إِذَا أَتَـــوْهُ ... وَلَـــمْ يُـــرْوِ السُّـــيُوفَ مِـــنَ الكُمَـــاةِ
وَلَـــمْ يَبْلُـــغْ بِضَـــرْبِ الهَـــامِ مَجْـــدًا ... وَلَـــمْ يَـــكُ صَـــابِرًا فـــي النَّائِبَـــاتِ
فَقُـــلْ لِلنَّاعِيَـــاتِ إِذَا نَعَتْـــهُ ... أَلَا فَاقْصِـــرْنَ نَـــدْبَ النَّادِبَـــاتِ
وَلَا تَنْـــدُبْنَ إِلَّا لَيْـــثَ غَـــابٍ ... شُـــجَاعًا فـــي الحُـــرُوبِ الثَّـــائِرَاتِ
دَعُـــونِي فـــي القِتَـــالِ أَمُـــتْ عَزِيـــزًا ... فَمَـــوْتُ العِـــزِّ خَيْـــرٌ مِـــن حَيَـــاةِ
لَعَمْـــرِي مَـــا الفَخَـــارُ بِكَسْـــبِ مَـــالٍ ... وَلَا يُـــدْعَى الغَنِـــيُّ مِـــنَ السَّـــرَاةِ
سَـــتَذْكُرُنِي الـــمَعَامِعُ كُـــلَّ وَقـــتٍ ... عَلَـــى طُـــولِ الحَيَـــاةِ إِلـــى الـــمَمَاتِ
فَـــذَاكَ الـــذِّكْرُ يَبْقَـــى لَـــيْسَ يَفْنَـــى ... مَـــدَى الأَيَّـــامِ فـــي مَـــاضٍ وَآتِ
وَإِنِّـــي اليَـــوْمَ أَحْمِـــي عِـــرْضَ قَـــوْمِي ... وَأَنْصُـــرُ آلَ عَـــبْس عَلَـــى العُـــدَاةِ
وَآخُـــذُ مَـــا لَنَـــا مِـــنْهُم بِحَـــرْبٍ ... تَخِـــرُّ لَهَـــا مُتُـــونُ الرَّاسِـــيَاتِ
وَأَتـــرُكُ كُـــلَّ نائِحَـــةٍ تُنَـــادِي ... عَلَـــيْهِمْ بِـــالتَفَرُّقِ وَالشَـــتَاتِ[3]

إنَّ هذه الصفات التي تحلَّى بها عنترة بن شدَّاد من شجاعة ونجدة وكرم وغيرها هي محلُّ إعجاب ابن شرف، وهي قيم خلقية نبيلة تستحقُّ الإشادة والتنويه والإعجاب، وهي التي يحرص النَّاس جميعًا على غرسها في نفوسهم وفي أبنائهم وذويهم، ومثل هذا الشّعر كفيل بالقيام بهذه المهمَّة التهذيبية الأخلاقية ولو بصورة نسبية.

– نقد الحارث بن حلّزة اليشكري:

وهذا ابن حِلّزة، وهو الحارث بن مكروه بن زيد اليشكري، يقول عنه ابن شرف: " وأمَّا ابن حلِّزَة فسهلُ الحُزون، قام خطيبًا بالموزون؛ والعادة أن يُسهل شرح الشّعر بالنثر، وهذا أسهل بالوعر؛ وذلك مثل قوله:

أبرَمـــوا أمْـــرَهم عِشـــاءً فلمَّـــا ... أصـــبحوا أصـــبحتْ لهـــم ضوضـــاءُ
مـــن مُنـــادٍ ومـــن مُجيـــبٍ ومـــن ... تَصْـــهَالِ خيـــلٍ خِـــلَالَ ذَاكَ رُغـــاءُ

[1] – طليمات والأشقر، الأدب الجاهلي..، ص410.
[2] – عنترة بن شدَّاد، الديوان، ص10-11.
[3] – المرجع نفسه، ص39.

فلو اجتمع كلُّ خطيب ناثر، من أوَّل وآخر؛ يصفون سَفْرًا نهضوا بالأسحار، وعَسْكرًا تُنادَى بالنُّهوض إلى طلب الثار: ما زادوا على هذا إنْ لم يَنقصوا منه، ولم يقصروا عنه. وسائر قصيدته في هذا السلك شكايةٌ وطِلابُ نَصَفَة، وعتابٌ في عزَّة وأنفة؛ وهو من شعراء وائل، وأحدُ أسنَّة هاتيك القبائل."[1]

والحارث بن حلّزة من شعراء قبيلة بكر المجيدين، ومن خطبائها المحنَّكين. ويُشير ابن شرف في كلامه هذا إلى الدور العظيم الذي قام به ابن حلّزة مدافعًا عن قومه، ومفنِّدًا اتِّهامات وشكايات خصمه عمرو بن كلثوم شاعر تغلب، في قضية الاحتكام التي كانت بين يدي ملك الحيرة عمرو بن هند، وأنشد فيها معلَّقته كاملة. وتُعتبر هذه المعلَّقة من أجود القصائد الجاهلية، "قال أبو عبيدة: أجود الشعراء قصيدة واحدة جيِّدة طويلة ثلاثة نفر: عمرو بن كلثوم، والحارث بن حِلِّزة، وطرفة بن العبد. وكان أبو عبيدة الشيباني يعجب لارتجال الحارث هذه القصيدة في موقف واحد، ويقول: لو قالها في حَوْلٍ لم يُلَمْ."[2]

وقيل أنَّ ابن حلِّزة قد أعدَّها وروَّاها جماعة من قومه لينشدوها نيابة عنه لأنه كان برصًا، وكره أن ينشدها من وراء سبعة ستور ثم يُغسل أثرُه بالماء، كما كان عمرو بن هند يفعل بسائر البرص، ثم عدل عن رأيه، لأنَّه لم ير أحدًا يقوم بها مقامه، واحتمل إنشادها بين يدي الملك وبنفس الشروط السابقة. ولمَّا سمعها الملك وقعت في نفسه موقعًا حسنًا، فأمر برفع الستور واحدًا تلو الآخر، وأدناه منه وأطعمه من جفنته، ومنع أن يُغسل أثرُه بالماء.[3]

ويُمكن استخلاص الملمح الأخلاقي في هذا النقد من خلال قول ابن شرف: (وسائر قصيدته في هذا السلك شكايةٌ وطِلابُ نَصَفَة، وعتابٌ في عزَّة وأنفة). فغاية الشاعر من قصيدته هو الدفاع عن قبيلته، وهي غاية نبيلة وموقف خلقي عظيم قام به معظم الشعراء، وخاصة في العصر الجاهلي، وفي سبيل ذلك احتمل الشاعر على نفسه أن يُنشد قصيدته من وراء سبعة ستور، وكانت قصيدته "كأنَّها خطبة ألقاها داهية من دُهاة السياسة، أو مُرافعة قانونية أعدَّها محام بارع، يعرف كيف يُدافع عن حقِّه، وعن حقّ من ندبوه، ويعرف كيف يدحض الخصم بالحجَّة مرَّة، وبالتعريض ثانية، وبالتحريض أخرى."[4]، وبحكمته ودهائه ومكره وصل الحارث إلى مبتغاه، ونال ما يرجوه ويتمنَّاه، وحكم عمرو بن هند له ولقومه بكر على تغلب، فعزَّ بذلك قومه ورفع من قدر نفسه بفضل هذه القصيدة العصماء التي مطلعها:

---

[1] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص25. والبيتان في الديوان، ابن حلّزة الحارث بن مكروه، الديوان، تح: اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ص24، وفي الدّيوان نجد (أجمعوا) مكان (أبرموا).

[2] – ابن حلّزة، الدِّيوان، ص11.

[3] – يُنظر إلى خبر ومناسبة المعلَّقة بالتفصيل في مقدِّمة الدِّيوان، ص13-14.

[4] – طليمات والأشقر، الأدب الجاهلي، ص431.

آذَنَتْنَـــــا بِبَيْنِهَـــــا أَسْـــــمَاءُ رُبَّ ثَـــاوٍ يُمَـــلُّ مِنْـــهُ الثَّـــوَاءُ
آذَنَتْنَـــا بِبَيْنِهَـــا ثُـــمَّ وَلَّـــتْ لَيْـــتَ شِـــعْرِي مَتَـــى يَكُـــونُ اللِّقَـــاءُ
بَعْـــدَ عَهْـــدٍ لَهَـــا بِبُرْقَـــةِ شَـــمَّاءَ فَـــأَدْنَى دِيَارِهَـــا الـــخُلْصَاءُ[1]

– نقد عمرو بن كلثوم:

وأمَّا غريمه وخصمه عمرو بن كلثوم، "فصاحب واحدة بلا زيادة؛ أنطقه بها عزُّ الظَّفر، وهزَّه فيها جِنُّ الأشر؛ فقعقعت رُعوده في أرجائها، وجَعجعت رَحاه في أثنائها، وجعلتها تَغْلِبُ قبلتها التي تُصلِّي إليها، ومِلَّتها التي تعتمد عليها؛ فلم يتركوا إعادتها، ولا خلعوا عبادتها، إلاَّ بعد قول القائل:

أَلْـــهَى بَنِـــي تَغْلِـــبَ عَـــنْ كُـــلِّ مَكْرُمَـــةٍ قَصِـــيدَةٌ قَالَـــهَا عَمْـــرُو بـــنُ كَلْثُـــوم

على أنَّها من القصائد المُحقَّقات، وإحدى المُعلَّقات."[2]، وعمرو بن كلثوم هو صاحب معلَّقة من أحسن ما قالت العرب قصيدة واحدة جيِّدة، "قال أبو عبيدة: هو أجودهم واحدة، وكان عيسى بن عمر يقول: لله درُّ عمرو بن كلثوم، أيُّ حِلْس شعر، وأي وعاء علم، لو أنَّه رغب فيما رغب فيه أصحابه من الشّعر، وإنَّ واحدته الأجود سبعهم. وقال: لو وُضعت أشعار العرب في كفَّة، وقصيدة عمرو في كفَّة لَمالت بأكثرها."[3]

وكان ابن كلثوم من أعزِّ النّاس نفسًا، وهو من الفُتَّاك الشجعان، ساد تغلب وهو فتىً وعمَّر طويلاً. وهو قاتل الملك عمرو بن هند ملك المناذرة، وهذا بعد حادثة الاحتكام التي كانت بين قبيلة تغلب وشاعرها عمرو بن كلثوم، وقبيلة بكر بن وائل وشاعرها الحارث بن حلّزة. وكان الحَكم فيها ملك الحيرة عمرو بن هند. وقيل أنَّ سبب قتله هو: "أنَّ عمرو بن هند كان مزهوًّا بنفسه، فقال يومًا لندمائه: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمُّه من خدمة أمِّي؟ فقالوا: نعم، أمّ عمرو بن كلثوم. قال: ولِمَ؟ قالوا: لأنَّ أباها المهلهل ربيعة، وعمُّها كُليب وائل أعزُّ العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو وهو سيِّد قومه. فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره، ويسأله يزير أمَّه. ففعل. وكان عمرو بن هند قد أوعز لأمِّه أن تُنحِّي الخدم وتستخدم ليلى إذا دعا بالطُّرَف. فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالطُّرَف. فقالت هند: ناوليني يا ليلى ذلك الطَّبق. فقالت ليلى: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فأعادت عليها. فصاحت ليلى: واذُلاَّه يا لتغلب! فسمعها عمرو بن كلثوم، فثار الدَّم في وجهه، فوثب إلى سيف لعمرو بن هند معلَّق بالرِّواق، وليس هناك سيف غيره، فضرب به رأس عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب فانتبهوا ما في الرواق، وساقوا نجائبه، وساروا نحو الجزيرة. وفي ذلك نظَّم ابن كلثوم بعض معلَّقته."[4]

---

[1] – ابن حلّزة، الدِّيوان، ص19.

[2] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص25–26.

[3] – عمرو بن كلثوم، الدِّيوان، تح: اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، ص17.

[4] – الفاخوري حنّا، تاريخ الأدب العربي، ص119–120.

أمَّا عن معلَّقته التي اشتهر بها، وعُدَّت من عيون الشعر العربي، "فهي الخامسة بين المطوَّلات، قيل: إنَّه وقف بها خطيبًا في سوق عُكاظ وفي موسم مكَّة، ويُستدلُّ من بعض أبياتها أنَّها على قسمين، نُظِّما في زمانين متباعدين: يوم التقاضي، والآخر بعد مقتل عمرو بن هند. في حين أنَّ الأصمعي يزعم أنَّها قيلت يوم التَّحكيم دفعة واحدة."[1]

وما تعلَّق بالنقد الخلقي في مقولة ابن شرف، فيُمكن أن نلمحه من بعض المقاطع، كقوله: (أنطقه بها عزُّ الظَّفر، وهزَّه فيها جِنُّ الأشِر)، وهذا صحيح فجزء من المعلَّقة يتباهى فيه ابن كلثوم بقتله عمرو بن هند، الذي أراد أن يُذلَّه بإذلال أمِّه، وهذا ما لا يرضاه العربي البسيط، ناهيك عن فارس وسيِّد قبيلة كعمرو بن كلثوم، لكنَّ نشوة النَّصر زادت عن حدِّها، وبلغت حدَّ البطر والاستكبار؛ فقد افتخر ابن كلثوم بنفسه، وفاخر بقبيلته، وغالى في ذلك، "فتصوَّر أنَّ قبيلته محور هذا الوجود، يُؤكِّد ذلك ما يستخدمه من أسلوب القصر، فهم وليس سواهم: الحابسون، والحاكمون، والعارمون، والتاركون، والآخذون، وهم أمنع النَّاس وأقواهم، وأكثرهم بطشًا، يشربون الماء صفوًا، ويشرب غيرهم كدرًا وطينًا، يملؤون البرّ والبحر، وتخرّ الجبابر لأطفالهم ساجدين.."[2]، حتَّى تمكَّن هذا التصوُّر من وعي القبيلة كلِّها، وسيطر على شعورهم وإدراكهم، فعظَّمت بنو تغلب معلَّقة شاعرهم وسيِّدهم، ورواها صغارهم وكبارهم، وظلَّ ذلك إلى ما بعد ظهور الدعوة الإسلامية، قال الفرزدق:

مَـــا ضَـــرَّ تَغْلِـــبَ وائِـــلٍ أَهَجَوْتَهَـــا أَمْ بُلْـــتَ حَيْـــثُ تَنـــاطَحَ البَحْـــرَانِ

قَـــوْمٌ هُـــمُ قَتَلُـــوا ابْـــنَ هِنْـــدٍ عَنْـــوَةً عَمْـــرًا وَهُـــمْ قَسَـــطُوا عَلَـــى النُّعْمَـــانِ[3]

وقال أفنون التَّغلبي مفتخرًا:

لَعَمْـــرُكَ مَـــا عَمْـــرُو بـــنُ هِنْـــدٍ وَقَـــدْ دَعَـــا لِتَخْـــــدُمَ لَـــــيْلَى أَمَّـــــهُ بِمُوَفَّـــــقِ

فَقَـــامَ ابِـــنُ كُلْثُـــوم إِلَـــى السَّـــيْفِ مُصْلِـــتًا فَأَمْسَـــــكَ مِـــــن نَدِمَائِـــــهِ بِالـــــمُخَنَّقِ

وَجَلَّلَـــــهُ عَمْـــــرُو عَلَـــــى الـــــرَّأْسِ ضَـــــرْبَةً بِـــذي شُـــطَبٍ صَـــافِي الحَدِيـــدَةِ رَوْنَـــقِ[4]

ولكي يُبيِّن لنا ابن شرف إلى أيِّ حدٍّ وصل تعلُّق بني تغلب بالقصيدة، أضفى عليها هالة من القداسة، تتواءم والحالة التي هم عليها، واستقى هذه القداسة من الدِّين لفظًا ومعنًى، فيقول: أنَّ تغلب جعلت القصيدة قبلتها التي تُصلِّي إليها، وملَّتها التي تعتمد عليها، فلم يملُّوا تكرارها، ولا خلعوا عن أنفسهم عبادتها. ويستعين في قوله هذا بالقاموس الدِّيني الإسلامي ليُبيِّن إلى أيِّ مدى كان تعظيم بني تغلب لقصيدة شاعرهم عمرو بن كلثوم، فنجد: (القبلة، تُصلِّي، الملَّة، العبادة)، فهي قبلة يتَّجهون إليها، وملَّة يعتمدون عليها، وجعلوها قرآنًا يُتلى آناء الليل وأطراف النّهار، بل واتَّخذوها

[1] – البستاني بطرس، أدباء العرب في الجاهلية والإسلام، ص140.

[2] – يوسف حسني عبد الجليل، الأدب الجاهلي، قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2001م، ص93.

[3] – الفرزدق، الدِّيوان، ص639-641.

[4] – عمرو بن كلثوم، الدّيوان، ص14.

معبودًا، أي التزموا بما فيها أمرًا ونهيًا، وانشغلوا بها عن كلِّ أمورهم ومكرماتهم. ولم يزالوا كذلك إلى أن هُجُوا بذلك، فانتهوا، قال بعض الشعراء:

أَلْـــهَى بَنِـــي تَغْلِـــبَ عَـــنْ كُـــلِّ مَكْرُمَـــةٍ قَصِـــيدَةٌ قَالَـــهَا عَمْـــرُو بـــنُ كَلْثُـــوم

يُفَـــاخِرُونَ بِهَـــا مُـــذْ كَـــانَ أَوَّلُهُـــمْ يَـــا لَلرِّجَـــالِ لِفَخْـــرٍ غَيْـــرِ مَسْـــؤُومِ[1]

– نقد النَّابغة الذبياني:

وأمَّا النَّابغة زياد، وهو النَّابغة الذبياني: "فأشعاره الجِياد، لم تخرج عن نار جوانحه حتَّى تناهى نُضجُها، ولا قُطِعت من منوال خواطره، حتَّى تكاثف نَسْجُها، لم تُهلهِلْها مَيْعُةُ الشَّباب، ولا وَهَاءُ الأسباب، ولا لُؤمُ الاكتساب، فشعره وسائط سلوك، وتيجان ملوك."[2]، والنابغة الذبياني شاعر جاهلي من فحول شعراء الطبقة الأولى، وهو من سادات قومه. وقال بعض النقاد: بأنَّه أشعر شعراء عصره، وكانت تُعرض عليه القصائد لمختلف الشعراء، فيحكم لها أو عليها. وهو صاحب إحدى المعلَّقات العشر المشهورة في الجاهلية. وأُختُلف أيُّهم أشعر، امرؤ القيس أو زهير أو النابغة؟ قال ابن سلاَّم: "وقال من احتجَّ للنابغة: كان أحسنهم ديباجة شعر، وأكثرهم رونق كلام، وأجزلهم بيتًا، كأنَّ شعره كلامٌ ليس فيه تكلُّفٌ. وإنَّما نبغ بالشّعر بعدما أسنَّ واحتنك، وهلك قبل أن يُهتِرَ."[3]، "وشهد له عمر بن الخطاب، وعبد الملك بن مروان، وأبو الأسود الدُّؤلي، وحمَّاد الرَّاوية، والأخطل، وجرير، فقالوا: إنَّه أشعر العرب، وشهد حسَّان بن ثابت يوم رجوعه إلى النعمان فكان يقول: فحسدته على ثلاث لا أدري على أيِّتهن كنت له أشدَّ حسدًا؛ على إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له وإصغائه إليه، أم على جودة شعره، أم على مائة بعير من عصافيره أمر له بها؟ وكان الأصمعي يقول: أوس بن حجر أشعر من زهير، ولكنَّ النابغة طأطأ منه. وجماع القول: إنَّ منزلة النابغة في الشّعر سامية المقام عزيزة المنال، فهو شاعر الملوك، وحكم سوق عكاظ، ونابغة الشعراء."[4]

أمَّا عن الجانب الخلقي في هذا الحكم النقدي، فيظهر في قول ابن شرف، بأنَّ أشعار النابغة (لم تُهلهِلْها مَيْعُةُ الشَّباب، ولا وَهَاءُ الأسباب، ولا لُؤمُ الاكتساب، فشعره وسائط سلوك، وتيجان ملوك). ولـمَّا كان الشّعر مرآة صادقة، وصورة حقيقية لصاحبه، فإنَّ النابغة –كما يذكر الكثير من الدَّارسين والرواة– كان معروفًا بالأناة والرَّزانة وبُعد النَّظر، وأنَّه كان ذا عفَّة وشرف، ورغم ما لحقه من الثَّراء والتَّرف بسبب اتِّصاله ومدحه الملوك والأمراء، إلاَّ أنَّ التَّرف لم يُفسده، ولم ينزل به إلى حوانيت الخمر، وسوق الشَّهوات. ولم يُؤثر عنه –على اشتغاله بالسياسة– الغدر والنِّفاق والكذب، بل قُدِّر فيه الصِّدق والوفاء، ورجاحة العقل وسداد الرأي. يقول شوقي ضيف: "وجميع أخباره وأشعاره الصحيحة تدلُّ على أنَّه كان سيِّدًا شريفًا من سادات قومه، فهو لا يتفتَّى تفتِّي امرئ القيس وطرفة وأضرابهما، بل يتراءى

[1] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص143.

[2] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص26.

[3] – الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ج1، ص56.

[4] – البستاني بطرس، أدباء العرب في الجاهلية والإسلام، ص194.

سيِّدًا وقورًا ذا خلق وشيم كريمة، فهو لا يتدنَّى في سفاهة ولا يتبذَّل في مجون. وكان فيه حكمة، وهي مبثوثة في شعره، ويقول ابن حبيب: إنَّه ممَّن حرَّم الخمر والأزلام في الجاهلية. ويظهر أنَّه نال شهرة واسعة في عصره لا عند أمراء الحيرة والغساسنة فحسب، بل أيضًا في داخل الجزيرة وبين الشعراء." [1]

فابن شرف يُشير إلى هذا المعنى المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالأخلاق، فأشعار النابغة تنطوي على قيم وفضائل كثيرة يعتزُّ بها كلُّ عربي، كما تدلُّ على أنَّ الشاعر كان يتحلَّى بصفات وأخلاق أهَّلته ليكون حكمًا بين الشعراء، فقد استطاع "أن يجمع في شخصه خلَّتين اثنين؛ خلَّة الشاعر المتميّز الرقيق الحسّ والبعيد الخيال والبارع الانتقاء للمعاني والألفاظ، وخلَّة المزايا الأخلاقية والصفات الحميدة التي أكملت وقاره وحقَّقت هيبته ورفعت قدره بين معاصريه، فتحقَّق له بهما منزلة سامية، جعلت الشعراء يحتكمون إليه، ويُذعنون لرأيه وفصله."[2]

ولم تُؤثِّر في شعره ميعة الشباب كما أثَّرت في غيره من الشعراء وخاصة امرئ القيس وطرفة، ولم يُغيِّره وهاء الأسباب، أي ضعفها، ويعني أسباب وحبال الوُدِّ والصِّلة بينه وبين ملك الحيرة، أبي قابوس النعمان بن المنذر، بل إنَّ مفارقته له كانت سببًا رئيسًا في إنشائه تلك القصائد الرائعة في الاعتذاريات. "وهكذا فإنَّه لا يسعنا هنا إلاَّ أن نشكر الأسباب التي فرَّقت بين النابغة وأبي قابوس، لأنَّها كانت الدَّافع القوي وراء معاناة داخلية عميقة أدَّت إلى تصوير لواعجها في النَّفس بشعر يفيض رقَّة وألمًا وعذوبة، كما يفيض صدقًا وحرارة وجمالاً."[3]

وأمَّا قوله: (ولا لؤم الاكتساب)، فهنا يقف ابن شرف على النقطة السوداء في شخصية النابغة، وفي شعره، والتي تُعتبر وثيقة الصِّلة بالنقد الخلقي، ألا وهي تكسُّبه بالشعر، حتَّى قيل في حقِّه:"وهو أحد الأشراف الذين غضَّ الشِّعر منهم."[4]، ودلائل تكسُّبه ظاهرة في شعره، فهو يُكثر من المدح، ومن الثَّناء على العطاء والسَّخاء. وهو ما جرَّ عليه انتقادات كثيرة من القدامى والمحدثين، "كان النَّابغة على صلة وثيقة بملوك المناذرة والغساسنة، وعادت عليه هذه الصِّلة بما يُحبُّ في حياته، وبما يكره بعد وفاته؛ إذْ ظفر بالثَّراء من الملوك، وبالزِّراية من النقاد."[5]، وقد استند النقاد في حكمهم هذا على ما جاء من بعض الرواة، وقد سُئل عن سبب رجوع النابغة إلى النُّعمان، "قال أبو عبيدة: قيل لأبي عمرو: أَفَمِنْ مخافته امتدحه وأتاه بعد هربه منه، أم لغير ذلك؟ فقال: لا لعمرُ الله، ما لمَخافته فعل، إن كان لآمنًا من أن يُوجِّه النُّعمان له جيشًا. وما كانت عشيرته لتُسْلِمَه لأوَّل وهْلة، ولكنَّه رغب في عطاياه وعصافيره."[6]

---

[1] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي– العصر الجاهلي، ص273–274.

[2] – النابغة الذبياني، الديوان، ص7.

[3] – المرجع نفسه، ص5.

[4] – الأصفهاني، الأغاني، ج11، ص5.

[5] – طليمات والأشقر، الأدب الجاهلي، ص270–271.

[6] – الأصفهاني، المرجع السابق، ج11، ص21.

ومع أنَّ النابغة لم يتكسَّب بشعره إلاَّ في مدح ملوك العرب، نجد ابن شرف يلوم النابغة في تكسُّبه بالشعر، ويعتبر تكسُّبه لُؤمًا، أي خسَّة ودناءة وانحطاطًا، ولكنَّه مع ذلك يرفع من قدر شعره، ويصفه بأنَّه وسائط سلوك، وتيجان ملوك.

– نقد النابغة الجعدي:

قال ابن شرف: "وأمَّا النابغة الجعديُّ، فنقيُّ الكلام، شاعر الجاهلية والإسلام، واستحسن شعره أفصحُ النَّاطقين، ودعا له أصدقُ الصَّادقين، وكان شاعرًا في الافتخار والثَّناء، قصيرَ الباع لشرفه عن تناول الهجاء؛ وكان مغلوبًا فيه في الجاهلية، وطريد ليلى الأخيليَّة."[1]

والنابغة الجعديّ شاعر مخضرم مطبوع فصيح يجري في شعره على السَّليقة ولا يتكلّف صنعة؛ إلَّا أنَّ شعره مضطرب بين الجودة والرداءة، قال ابن قتيبة: "وكان العلماء يقولون في شعره خِمارٌ بِوافٍ ومِطْرَفٌ بآلافٍ، يُريدون أنَّ في شعره تفاوتًا؛ فبعضه جِدُّ مُبرّزٍ، وبعضه رديٌّ ساقطٌ."[2]، وفنون شعره المشهورة: المدح والفخر والهجاء والوصف، وكان من أوصف الناس للفرس. ثم الحكمة، وفي شعره الجاهلي شيء من الإقذاع. "وهو أحد القدماء المعمَّرين والشعراء المخضرمين، قال الشعر في الجاهلية، ثم استعصى عليه دهرًا، ثم نبغ في الشعر عند ظهور الإسلام وبعده، ولذلك سُمِّي (النابغة). وهو ممَّن فكَّر في الجاهلية وأنكر الخمر وما تفعل بالعقل، وهجر الأزلام والأوثان، وذكر دين إبراهيم، وصام واستغفر. ووفد على رسول الله ﷺ وأسلم."[3]

أمَّا النقد الخلقي في هذا الكلام، فنتلمَّسه أوَّلا في قوله"(نقيُّ الكلام)، أي أنَّ شعره كان نظيفًا، وخالصًا من القبح والتفحُّش والبذاءة، وخاصة شعره في الإسلام، حيث تكثر فيه الألفاظ والمعاني الإسلامية، كقوله:

الحَمْـــدُ لِلَّـــهِ لاَ شَـــرِيكَ لَـــهُ مَـــنْ لَـــم يَقُلْهَـــا فَنَفْسَـــهُ ظَلَمَـــا
الـــمُولِجِ اللَّيْـــلَ فـــي النَّهْـــارِ وَفِـــي اللَّيْـــلِ نَهَـــارًا يُفَـــرِّجُ الظُّلَمَـــا
الخـــافِضِ الرَّافِـــعِ السَّـــمَاءَ عَلَـــى الْـــ أَرْضِ وَلَـــم يَـــبْنِ تَحتَهـــا دِعَمَـــا
الخـــالِقِ البَـــارِئِ الـــمُصَوِّرِ فـــي الْـــ أَرْحَـــامِ مَـــاءً حَتَّـــى يَصِـــيرَ دَمَـــا
مِـــن نُطفَـــةٍ قَـــدَّها مُقَـــدِّرُهَا يَخلُـــقُ مِنْهَـــا الأَبْشَـــارَ وَالنَّسَـــمَا
ثُـــمَّ عِظَامًـــا أَقَامَهـــا عَصَـــبٌ ثُمَّـــتَ لَحْمًـــا كَسَـــاهُ فَالْتَأَمَـــا[4]

وأمَّا قوله: (وكان شاعرًا في الافتخار والثَّناء)، فشعر الافتخار كان في جاهليته؛ حيث كان يفتخر بنفسه وبقومه، وهذا ممَّا يشترك فيها جميع شعراء الجاهلية. أمَّا شعر الثَّناء، فهذا فضل حباه به الله بإسلامه، فقد خصَّص شعره بعد

---

[1] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص26.

[2] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص182.

[3] – الهاشمي السيّد أحمد، جواهر الأدب في أدبيّات وإنشاء لغة العرب، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، مصر، ط27، 1969م، ج2، ص145.

[4] – النابغة الجعدي، الدّيوان، تح: واضح الصَّمد، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ص147-148.

الإسلام في مدح الرسول ﷺ والثَّناء عليه، والاعتزاز بالإسلام. ثم يُشير ابن شرف إلى ما كان بين النابغة الجعديِّ وبين النبيِّ ﷺ، حيث أنشده شعره، فوجَّهه النبيُّ وأُعجب بشعره ودعا له، فيقول: (واستحسن شعره أفصحُ النَّاطقين، ودعا له أصدقُ الصَّادقين)، وهذا الخبر أكَّدته الكثير من مصادر الأدب والنقد، جاء في مقدِّمة ديوانه: قال أبو عمر: وفد النابغة على النبيِّ ﷺ مسلمًا. وأنشده، ودعا له رسول الله ﷺ، وكان أوَّل ما أنشده قوله في قصيدته الرائيّة:

أَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجَرَّةِ نَيِّرَا

إلى أن قال:

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجُدُودُنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

وفي رواية عبد الله بن جراد:

عَلَوْنَا عَلَى طُرِّ الْعِبَادِ تَكَرُّمًا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقال النبيُّ ﷺ: إلى أين يا أبا ليلى؟ قال: إلى الجنَّة. قال: نعم، إن شاء الله تعالى. ولمَّا أنشده:

وَلاَ خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

وَلاَ خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الأَمْرَ أَصْدَرَا

فقال رسول الله ﷺ: لا يَفْضض الله فاك. وفي رواية عبد الله بن جراد لهذا الخبر، قال: فنظرت إليه كأنَّ فاه البرد المنهل يتلألأ ويبرق، ما سقطت له سنٌّ ولا تفلَّتت لقول رسول الله ﷺ: أجدْتَ، لا يفضض الله فاك. قال: وعاش النابغة بدعوة النبيّ ﷺ حتَّى أتت عليه مئة واثنتا عشرة سنة، فقال في ذلك:

أَتَتْ مِئَةٌ لِعَامٍ وُلِدْتُ فِيهِ وَعَشْرٌ بَعْدَ ذَلِكَ وَاثْنَتَانِ

وَقَدْ أَبْقَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنِّي كَمَا أَبْقَتْ مِنَ الذِّكَرِ اليَمَانِي

أَلاَ زَعَمَتْ بَنُو سَعْدٍ بِأَنِّي وَمَا كَذَبُوا كَبِيرُ السِّنِّ فَانِي[1]

وأمَّا معنى قوله: (قصيرَ الباع لشرفه عن تناول الهجاء؛ وكان مغلوبًا فيه في الجاهلية، وطريد ليلى الأخيليَّة)، فهذا من العجيب حقًّا، فقد كان النابغة الجعديَّ مُغلَّبا؛ ما تعرَّض لشاعر بهجاء إلَّا غلبه ذلك الشاعر، حتَّى أنَّه هاجى ليلى الأخيليَّة فغلبته. جاء في الأغاني: "كان النابغة متقدِّمًا، وكان مُغلَّبًا، ما هاجى قطُّ إلاَّ غُلِبَ، هاجى أوس بن مغراء، وليلى الأخيليَّة وكعب بن جُعَيل فغلبوه جميعًا."[2]، وابن شرف يردُّ ذلك إلى سبب أخلاقي، وهو شرفه وترفُّعه عن تناول الهجاء، لهذا قصُر باعه في هذا الفنِّ وغُلب فيه.

[1] – يُنظر النابغة الجعدي، الديوان، ص10-11.

[2] – الأصفهاني، الأغاني، ج5، ص10.

– نقد الأعشى الأكبر:

ويتناول ابن شرف في نقده الخلقي الأعشى الأكبر، فيقول عنه: "وأمَّا العُشى بأجمعهم فكلُّهم شاعر، ولا كميمون ابن قيس شاعر المدح والهجاء، واليأس والرَّخاء؛ والتصرُّف في الفنون، والسعي في السُّهول والحُزون؛ نفق مدحُه بنات المحلَّق وكان في فقر ابن المذلَّق، وأبكى هجوه علقمة، كما تبكي الأمَة."[1]

والشعراء العُشى هم شعراء لُقِّبوا بالأعشى، ولعلَّ أبرزهم بعد الأعشى الأكبر، وهو ميمون بن قيس نجد: أعشى باهلة، عامر ابن الحارث بن رباح، وأعشى بكر بن وائل، وأعشى بني ثعلبة، ربيعة بن يحيى، وأعشى بني ربيعة، عبد الله بن خارجة، وأعشى همدان، وأعشى بني سليم وهو من فحول الشعراء في الجاهلية. ولكنَّ ابن شرف يخصُّ أعشى قيس دونهم؛ لأنَّه أفضلهم وأحسنهم، فهو من فحول الشعراء في الجاهلية، سُئل يونس النحوي عن أشعر الناس، "فقال: لا أومئ إلى رجل بعينه، ولكنِّي أقول: امرؤ القيس إذا غضب ، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب. وقال أبو عبيدة: مَنْ قدَّم الأعشى يحتجُّ بكثرة طِواله الجياد، وتصرُّفه في المديح والهجاء، وسائر فنون الشّعر، وليس ذلك لغيره، ويُقال: هو أوَّل من سأل بشعره، وانتجع به أقاصي البلاد. وكان يُغنَّى في شعره، فكانت العرب تُسمِّيه صنَّاجة العرب."[2]، ولم يكن الأعشى يمدح أحدًا إلا رفعه، ولم يهج أحدًا إلاَّ وضعه، لأنه كان من أسْيَر النَّاس شعراً وأعظمهم فيه حظًّا؛ فقد زوَّج بنات المحلَّق بأبيات قالها فيه، وكان المحلَّق في فقر شديد كفقر ابن المذلّق الذي يُضرب به المثل في الإفلاس. وتروي كتب الأدب أنَّ المحلَّق الكلابي واسمه الحقيقي عبد العُزَّى بن جشم كان له ستُّ بنات، وكان فقيرًا، فلم يكن أحد يعبأ لشأنه، ولم تتزوَّج بناته لذلك، وذات يوم مرَّ بحي بني كلاب الشاعر الأعشى، فأشارت زوجته–أي المحلّق– عليه أن يستقبل الأعشى وينزله ببيته، ويكرمه، وقالت له: إنَّه ما مدح أحدًا إلا وارتفع صيته بين القبائل، ولم تزل به حتَّى أقنعته، ولم يكن للمحلّق من المال سوى ناقة واحدة، فقرَّر أن يستقبله وينحر له ناقته، وبات يُطعمه ويُكرمه، ثم إنَّ الأعشى تركهم، وسار حتى جاء إلى سوق عكاظ قرب مكة، وكان ذلك في أيام حجِّ أهل الجاهلية، فوقف تحت شجرة يجتمع عندها النَّاس، وأنشد قصيدته التي يقول فيها:

أرِقْتُ وَمَا هَذَا السُّهَادُ الْمُؤرِّقُ ... وَمَا بِيَ مِنْ سُقْمٍ وَمَابِيَ مَعْشَقُ
لَعَمْرِي لَقَدْ لاَحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ ... إِلَى ضَوْءِ نَارٍ فِي يَفَاعٍ تُحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ
يَدَاكَ يَدَا صِدْقٍ ، فَكَفٌّ مُفِيدَةٌ ... وَأُخْرَى إِذَا مَا ضُنَّ بِالزَّادِ تُنْفِقُ[3]

[1] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص26–27.
[2] – الأصفهاني، الأغاني، ج9، ص80–81.
[3] – الأعشى الكبير، الدّيوان، ص217–225.

وذكر فيها المحلَّق وكرمه، فلما سمعه النَّاس كَبُرَ في نفوسهم المحلَّق، ولم يمض وقت يسير حتى تسابق أشراف العرب إلى حي المحلَّق يطلبون الزواج من بناته، فتزوَّجن كلُّهن.[1]، وهذا الخبر يُبيِّن ما كان لشعر المدح من أثر بالغ في رفع شأن الإنسان في المجتمع الجاهلي، وما أعظم هذا المدح إذا كان من شاعر كبير كالأعشى!

وإذا كان الأعشى قد رفع المحلَّق بشعره، وزوَّج بناته، فإنَّه في المقابل قد حطَّ من قدر علقمة، وأبكاه هجوه، "قال الكلبيُّ: ولم يُهج علقمة بشيء أشدَّ عليه من قوله:

تَبِيتُـــونَ فـــي الـــمَشْتَى مِـــلَاءً بُطُـــونُكُمْ وَجَـــارَاتُكُمْ غَرْثَـــى يَبِـــتْنَ خَـــمَائِصَا

فرفع علقمة يديه وقال: لعنه الله؛ إنْ كان كاذبًا. أنحن نفعل هذا بجاراتنا!"[2]. ولمَّا كان المدح والهجاء متعلِّقان أساسًا عند العرب بالأخلاق؛ محاسنها ومساوئها، كان هذان الخبران يحملان في طيَّاتهما هذا الملمح النقدي الخلقي؛ فقد مدح الأعشى المحلَّق بالكرم على قلَّة اليد، فرُفع شأنه، وهُجِي علقمة بالبخل واللُّؤم فحُطَّ قدره، وأُبكي كما تبكي الأمَةُ أو الثكلى.

– نقد حسَّان بن ثابت:

وأمَّا شاعر الرسول ﷺ حسَّان بن ثابت ﷺ، "فقد اجتثَّ بواكر غسَّان؛ ثمَّ جاء الإسلام، وانكشف الإظلام؛ فحاجج عن الدِّين، وناضل عن خاتم النبيّين، فشعر وزاد، وحسَّن وأجاد؛ إلاَّ أنَّ الفضل في ذلك لربِّ العالمين، وتسديد الرُّوح الأمين."[3]، فابن شرف يذكر فضائل الصحابي الجليل، وشاعر الرسول ﷺ، حسَّان بن ثابت ﷺ، الذي نافح بشعره عن الدِّين، ومدح سيِّد المرسلين، وردَّ عنه هجمات المشركين، فأحسن في ذلك كلِّه وأجاد، ولكنَّ الفضل في ذلك كلِّه لله ربِّ العالمين الذي أيَّده بروحه الأمين، استجابة لدعاء نبيِّه الكريم ﷺ : **«اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ »**، وهو جبريل **عليه السَّلام**. وكيف لا يُحسن ولا يُجيد؟! "فلا ينبغي أن يقول حسَّان إلاَّ حقًّا، وكيف يقول باطلاً والنبيُّ ﷺ يأمره، وجبريل يُسدِّده، والصِّديق يُعلِّمه، والله يُوفِّقه."[4]

فكأنَّ ابن شرف يردُّ على الأصمعي–ومن ذهب مذهبه– الذي زعم أنَّ شعر حسَّان بن ثابت ضعف ولان في الإسلام، فهو يُؤكِد على أنَّ مقدرة حسَّان على الشعر هي نفسها في الجاهلية والإسلام، ولكن بعد إسلامه أخضع شعره لتعاليم الإسلام، فجاء شعره مصبوغًا بالطابع الدِّيني، فكانت الأفكار السَّامية، والمعاني النَّبيلة، والألفاظ الحسنة. فأحسن وأجاد، ومردُّ ذلك إلى ما يتمتَّع به حسَّان من دُربة ومقدرة على الشعر، وما خُصَّ به من تأييد ربِّ العالمين، كما جاء في حديث سيِّد المرسلين، عن الشعبيِّ قال: "لمَّا كان عام الأحزاب، وردّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرًا، قال

[1] – يُنظر الأصفهاني، الأغاني، ج9، ص85–86.

[2] – المرجع نفسه، ج9، ص89.

[3] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص27.

[4] – الثعالبي، خاص الخاص، ص149.

النبيُّ ﷺ: **«مَنْ يَحْمِي أَعْرَاضَ الْمُسْلِمِينَ؟»**، فقال كعب: أنا يا رسول الله. وقال عبد الله بن رواحة: أنا يا رسول الله. وقال حسَّان بن ثابت: أنا يا رسول الله؛ فقال: **«نَعَمْ، اُهْجُهُمْ أَنْتَ فَإِنَّهُ سَيُعِينُكَ عَلَيْهِمْ رُوحُ الْقُدُسِ»**"[1]

أمَّا ما كان من ضعف أو لين من شعر حسَّان بن ثابت الإسلامي، فهو ليس من شعره، إنَّما وُضِع له ونُسِب إليه، وهو ما أقرَّه الأصمعي نفسه. والباحث يرى هذا الرأي، ويُوافق تمامًا كلَّ الدَّارسين والنقاد الذين قالوا بهذا الرأي، ومنهم شوقي ضيف، الذي يقول: "والحقُّ أنَّ شعر حسَّان الإسلامي كثُر الوضع فيه، وهذا هو السبب فيما يشيع في بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة، لا لأنَّ شعره لان وضعُف في الإسلام كما زعم الأصمعي، ولكن لأنَّه دخله كثير من الوضع والانتحال."[2]

– نقد دُريد بن الصِّمَّة:

وأمَّا دُريد بن الصِّمَّة فيقول عنه: "فصِمَّة صمم، وشاعرٌ جشم، وغَزل عرم؛ وأوَّل من تغزَّل في رثاء، وهزل في حُزن وبكاء؛ فقال في معبد أخيه قصيدته المشهورة يرثيه:

أرثَّ جديـــــد الحبـــــل مـــــن أمِّ معبـــــد

وهي من شاجيات النَّوائح، وباقيات المدائح."[3]، ودُريد بن الصِّمَّة شاعر من قبيلة جُشم، من فخذ يُقال لهم بنو غَزِيَّة، وهو أحد الشجعان المشهورين، وذوي الرَّأي في الجاهلية، شهد يوم حنين وهو شيخ كبير، وقُتِل يومئذ فيمن قُتِل من المشركين، وهو القائل:

أَمَـــرْتُهُمْ أَمْـــرِي بِمُنْعَـــرِجِ اللِّـــوى فَلَـــمْ يَسْـــتَبِينُوا الرُّشْـــدَ إلاَّ ضُـــحَى الغَـــدِ
فَلَمَّـــا عَصَـــوْنِي كُنْـــتُ مِـــنْهُمْ وَقَـــدْ أَرَى غَـــوَايَتَهُمْ وَأَنَّنِـــي غَيْـــرُ مُهْتَـــدِي
وَهَـــلْ أَنَـــا إلاَّ مِـــنْ غَزِيَّـــةَ إِنْ غَـــوَتْ غَوَيْـــتُ وَإِنْ تَرْشُـــدْ غَزِيَّـــةُ أَرْشُـــدِ[4]

وما يُمكن رصده من النقد الخلقي والدّيني في هذا الوصف، قوله: (صمَّة صمم)، والصِّمَّة: الرَّجل الشجاع، وربَّما جعلوه من أسماء الأسد، وأصله المضاء والتَّصميم[5]، ولكنَّه –كما يصفه ابن شرف– صُمَّ عن سماع صوت الحقِّ، فبقي على ضلاله وشركه، ولم يُسلم. ونجده كذلك في قوله: (وغزل عرم)، جاء في المعجم: "عرم فلان: اشتدَّ وخرج عن الحدِّ، خَبُثَ، وكان شرِّيرًا. وعارم: شديد، شرس، مُؤذٍ، وحبٌّ عارمٌ: جارف، وخلق عارم: شَكِسٌ، وشهوة عارمة: لا تُقاوم، مضطرمة."[6]، أي أنَّه كان فاحشًا، بذيئًا، خبيثًا في غزله. ولكنَّ القارئ لديوانه لا يجد هذا الشعر الفاحش البذيء في

---

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج4، ص112.
[2] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي– العصر الإسلامي، ص81.
[3] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص27.
[4] – دريد بن الصِّمَّة، الدّيوان، ص61–62.
[5] – المرجع نفسه، التهميش رقم2، ص10.
[6] – عمر أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2008م، ج2، ص657.

النَّسيب، يقول محقق الدّيوان: "وشعره في النَّسيب قليل قلَّة ملحوظة، ويبدو أنَّ للجدِّية التي وسمت حياته أثرًا في ذلك؛ فجاء نصيبه في هذا الميدان ضامرًا، لم يتعدَّ الحدود الفنّية التقليدية، تشيع فيه روح الهمِّ والألم، ويغلب عليه طابع الحزن والأسى. وهو معني في نسيبه بعرض مشاعره وعواطفه والإبانة عنها دون أن ينقل إلينا ما يُقابل ذلك لدى من يتحدَّث عنها. هذا والعفَّة تُغلّف أسلوبه في هذا الفنِّ."[1]، ثمَّ إنَّه (أوَّل من تغزَّل في رثاء، وهزل في حُزن وبكاء)، وهذا من العيوب في الشعر التي تمسُّ وتطعن في أخلاق الشاعر في الصَّميم، وهذا الفِعلُ مُنافٍ لأعراف العرب وتقاليدهم في الشعر؛ فالعرب لا تتغزَّل في الرِّثاء، ولا تهزُل في الحزن والبكاء. لأنَّها تحترم مقولة: (لكلِّ مقام مقال)، والغزل لا يكون في مقام الرِّثاء، والهزل لا يكون في مقام الحزن والبكاء. قال متغزِّلًا بأمِّ معبد وهو يُرثي أخاه:

أَرَثَّ جَدِيـــــدُ الْحَبْـــــلِ مِـــــنْ أُمِّ مَعْبَـــــدِ بِعَاقِبَـــــةٍ وَأَخْلَفَـــــتْ كُـــــلَّ مَوْعِـــــدِ

وَبَانَـــتْ وَلَـــمْ أَحْمَـــدْ إِلَيْـــكَ جِوَارَهَـــا وَلَـــمْ تَـــرْجُ فِينَـــا رِدَّةَ الْيَـــوْمِ أَوْ غَـــدِ[2]

ويذكر هذا النقد أيضًا ابن رشيق في باب الرِّثاء، واستشهد بمقولة ابن الكلبي، التي يقول فيها: "لا أعلم مرثية أوَّلها نسيب إلاَّ قصيدة دريد بن الصِّمَّة."[3]، وقصَّة الخبر–كما جاءت في الأغاني– مفادها، "أنَّ أمَّ معبد التي ذكرها دريد في شعره هذا كانت امرأته فطلَّقها، لأنَّها رأته شديد الجزع على أخيه، فعاتبته على ذلك، وصغَّرت شأن أخيه وسبَّته، فطلَّقها، وقال فيها:

أَرَثَّ جَدِيـــــدُ الْحَبْـــــلِ مِـــــنْ أُمِّ مَعْبَـــــدِ

وقال أبو عبيدة في خبره: بلغ دريد بن الصِّمَّة أنَّ زوجته سبَّت أخاه فطلَّقها وألحقها بأهلها، وقال في ذلك:

أَعَبْـــــدَ اللهِ إِنْ سَـــــبَّتْكَ عِرْسِـــــي تَسَـــاقَطَ بَعْـــضُ لَحْمِـــي قَبْـــلَ بَعْـــضِ

إِذا عِـــــرْسُ اِمْـــــرِئٍ شَـــــتَمَتْ أَخَـــــاهُ فَلَـــــيْسَ فُـــــؤَادُ شَـــــانِئِهِ بِحِمْـــــضِ

مَعَـــــاذَ اللهِ أَنْ يَشْـــــتمْنَ رَهْطِـــــي وَأَنْ يَملِكْـــــنَ إِبْرَامِـــــي وَنَقْضِـــــي[4]

– نقد عامر بن الطُّفيل:

وأمَّا الشاعر عامر بن الطُّفيل فهو كما يقول ابن شرف: "شاعرهم في الفخار، وفي حماية الجار، وأوصفهم لكريمة، وأبعثهم لحميد شيمة."[5]، وعامر بن الطفيل الكلابي العامري من قبيلة هوازن، فارس قومه وأحد فُتَّاك العرب وشعرائهم وساداتهم في الجاهلية، وهو صاحب المنافرة المشهورة التي جرت في الجاهلية بينه وبين علقمة بن علاثة العامري، واحتكما فيها إلى عدد من زعماء العرب، وأبى كلُّهم أن يُغلِّبوا أحدهما على الآخر، وصارت هذه المنافرة

[1] – دريد بن الصِّمَّة، الديوان، ص21.

[2] – المرجع نفسه، ص57.

[3] – ابن رشيق، العمدة، ج2، ص131.

[4] – الأصفهاني، الأغاني، ج10، ص10–11، والأبيات في الديوان، ص126.

[5] – المرجع نفسه، ج10، ص28.

حديث كثير من الشعراء بعد ذلك. وأدرك ابن الطفيل الإسلام شيخاً فوفد على رسول الله ﷺ وهو في المدينة بعد فتح مكة، يريد الغدر به، فلم يجرؤ عليه، فدعاه إلى الإسلام، فاشترط أن يجعل له نصف ثمار المدينة وأن يجعله ولي الأمر من بعده، فردَّه، فعاد حانقاً ومات في طريقه قبل أن يبلغ قومه.

والنقد الخلقي ها هنا يتمثَّل في النظرة الأخلاقية للشعر والشاعر على حدٍّ سواء، فعامر بن الطفيل يفتخر بشجاعته، وفروسيته، وكرمه، ونجدة الجار وحمايته.. وهذه كلُّها أخلاق كريمة وشيم حميدة جسَّدها الشاعر في حياته، ونطق بها في شعره. وها هو يفتخر بنفسه، وينفي أن تكون عامر قد سوَّدته لأنَّه ابن سيّد عامر، فليست الوراثة هي التي جعلته سيِّدًا، وإنَّما استحقَّ السيادة بشجاعته، وفروسيته، وبشخصيته، فيقول:

فَمَـــا سَـــوَّدَتْنِي عَـــامِرٌ عَـــنْ وِرَاثَـــةٍ أَبَـــى اللهُ أَنْ أَسْـــمُو بِـــأُمٍّ أَوْ أَبِ

وَلَكِنَّنِـــي أَحْمِـــي حِمَاهَـــا وَأَتَّقِـــي أَذَاهَـــا وَأَرْمِـــي مَـــنْ رَمَاهَـــا بِمِقْنَـــبِ[1]

وهذا ما أكَّده محقِّق ديوانه، وقد استخلص السِّمات البارزة في شعره، قائلا: "وشعر عامر صورة ناطقة بشخصيته فترى فيه عُنْجُهيَّته وكبرياءه، واعتزازه بشجاعته وفروسيته، وإباءَه، وفخرَه بقومه، وحبَّه لفرسه، وقليلا ما تحسُّ فيه العواطف الرَّقيقة. وهو شعر قليل الحوشي، واضح التعابير في معظمه، ولغته أقرب إلى الأفهام من لغة الذين تقدَّموه من شعراء الجاهلية."[2]، ومن جيِّد شعره، قوله:

لَقَـــدْ تَعْلَـــمُ الخَيْـــلُ الـــمُغِيرَةُ أَنَّنَـــا إِذَا اِبْتَـــدَرَ النَّـــاسُ الفَعَـــالَ أُسُـــودُهَا

وَنَحْـــنُ نَفَيْنَـــا مَـــذْحِجًا عَـــنْ بِلَادِهَـــا تُقَتَّـــلُ حَتَّـــى عَـــادَ فَـــلًّا شَـــدِيدُهَا

إِذا سَـــنَةٌ عَـــزَّتْ وَطَـــالَ طِوالُهَـــا وَأَقْحَـــطَ عَنَهَـــا القَطْـــرُ وَاِصـــفَرَّ عُودُهَـــا

وُجِـــدْنَا كِرَامـــاً لَا يُحَـــوَّلُ ضَـــيْفُنَا إِذَا جَـــفَّ فَـــوقَ الـــمُنْزِلَاتِ جَلِيـــدُهَا

فَـــلَا خَيـــرَ فـــي وِدٍّ إِذَا رَثَّ حَبْلُـــهُ وَخَيْـــرُ حِبَـــالِ الوَاصِـــلِينَ جَدِيـــدُهَا[3]

– نقد الحطيئة:

وأمَّا جَرْوَلُ وهو الحطيئة، "فخبيثٌ هجاؤه، شريفٌ ثناؤه، رفع شعره من الثَّرى، وحطَّ من الثُّريَّا، وأعاد بلطافة فكره، ومتانة شعره قبيح الألقاب، فخرًا يبقى على الأحقاب، ويُتوارث في الأعقاب."[4]، والحطيئة من الشعراء المخضرمين؛ أدرك الجاهلية والإسلام.كان هجَّاءً عنيفًا،لم يكد يسلم من لسانه أحد، وهجا أمَّه وأباه وأقاربه ونفسه. وأكثر من هجاء الزِّبرقان بن بدر، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبيات، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس.

---

[1] – عامر بن الطفيل، الديوان برواية ابن الأنباري عن ثعلب، تح: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1979م، ص28.

[2] – المرجع نفسه، مقدّمة المحقق، ص8.

[3] – نفسه، ص45-47.

[4] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص28.

ويتَّضح لنا النقد الخلقي في مقولة ابن شرف بوصفه (خبيث الهجاء)، وهذا ممَّا اشتهر به الحطيئة، ومعلوم أنَّ الهجاء نوعان: "هجاء مطبوع هو ثمرة لُؤم وخُبث، وهجاء مصنوع، يقوله من لا يميل إليه بالطَّبع للردِّ على طعن وللردِّ عن كرامة. وهجاء الحطيئة من النوع الأوَّل، لأنَّه يميل من طبيعته إلى المناقضة، زد على ذلك أنَّ حاجة الحطيئة إلى المال كانت تزيد لؤمه لؤمًا وطلبه إلحافًا. إلاَّ أنَّ الحطيئة قلَّما يفحش، وإنْ أفحش ففي قصد واعتدال. وهو يطعن في مواضع النُّبل والكرم والهمَّة، وما إلى ذلك ممَّا يُؤلم ويُصيب الهدف."[1]، أي أنَّ هجاءه يمسُّ الأخلاق، وهو من أشدِّ أنواع الهجاء، حيث يسلب المهجوَّ من الفضائل، ويكسوه بالمساوئ. وعلى هذا المنوال كان هجاؤه للزِّبرقان حين قال:

جَـــارٌ لِقَـــومٍ أطَـــالُوا هُـــونَ مَنْزِلِـــهِ وَغَـــادَرُوه مُقيمًـــا بـــينَ أرْمَـــاسِ

ملُّـــوا قِـــرَاهُ وهَرَّتْـــه كِلابُهُـــمُ وجَرَّحُـــوه بأَنْيَـــابٍ وأضْـــرَاسِ

دَعِ الـــمَكَارِمَ لا تَرْحَـــلْ لِبُغْيَتِهـــا واقْعُـــدْ فإنَّـــك أنـــتَ الطَّـــاعِمُ الكَاسِـــي[2]

وهو ما جعل الزِّبرقان يشكوه للخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، ويقول متألِّمًا: " أَوَ مَا تبلغ مروءتي إلاَّ أن آكُل وألبس؟ فقال عمر: عليَّ بحسَّان، فجِيء به فسأله، فقال: لم يهْجُه ولكن سلح عليه. فأمر به عمر فجُعل في نقير في بئر."[3]، وكذلك نجد النقد الخلقي في وصفه (شريف الثَّناء)، فالحطيئة أجاد في المدح كما أجاد في الهجاء، فهو شاعر المدح والهجاء بلا منازع، وكان إذا مدح رفع، كما كان إذا هجا وضع، وقد اتَّخذ من مدحه وهجائه وسيلة للتكسُّب. وأفضل المدح هو الإشادة بمكارم الأخلاق، وإبراز فضائل الأعمال، وهذا ما كان منه مع أبناء سعد من آل شمَّاس، حيث قال:

أُولَئِـــكَ قَـــومٌ إنْ بَنَـــوا أَحْسَـــنُوا البُنَـــى وإنْ عَاهَـــدُوا أوْفَـــوا وإنْ عَقَـــدُوا شَـــدُّوا

وإنْ كَانَـــتْ النُّعْمَـــى عَلَـــيهم جَـــزَوْا بهـــا وإنْ أنْعَمُـــوا لا كَـــدَّرُوها ولا كَـــدُّوا[4]

وأمَّا قول ابن شرف: (وأعاد بلطافة فكره، ومتانة شعره قبيح الألقاب، فخرًا يبقى على الأحقاب، ويُتوارث في الأعقاب)، فيُشير خاصَّة إلى قصة الحطيئة مع بني أنف الناقة، وهم بنو جعفر بن قُريع بن عوف بن كعب بن سعد. وسبب جريان هذا اللقب عليه أنَّ أباه قُريعًا نحر ناقة فقسَّمها بين نسائه، فبعثت جعفرًا هذا أمُّه إلى أبيه تسأله حظَّها من اللحم، ولم يجد عنده غير رأس النَّاقة وعنقها، فقال له: شأنك بهذا. فأدخل جعفر يده في أنف الناقة، وجعل يجرُّه إلى أمِّه والنَّاس يضحكون منه فلُقِّب بأنف النَّاقة، فكان جعفر يُسبُّ بها، وبقي هذا اللقب سُبَّة في عقبه؛ فكان الواحد منهم إذا سُئل عن نسبه ينتسب إلى جدِّه قُريع ابن عوف ويتجاوز النسبة إلى جعفر فرارًا من اللَّقب، فبقوا على ذلك

[1] – الفاخوري حنّا، الجامع في تاريخ الأدب– الأدب القديم، دار البديل، بيروت، لبنان، ط1، 1986م، ص276.

[2] – الحطيئة، الدّيوان، ص86.

[3] – الأصفهاني، الأغاني، ج2، ص120.

[4] – الحطيئة، المرجع السابق، ص40.

إلى أن مدحهم الحطيئة فأزال ذلك العار عنهم، وصاروا يتطاولون بهذا النَّسب، ويمدُّون به أصواتهم في جهارة.[1]، قال الحطيئة:

قَـــومٌ هُـــمُ الأَنْـــفُ والأَذْنَـــابُ غَيـــرُهُمُ ومَـــنْ يُسَـــوِّي بـــأَنْفِ النَّاقَـــةِ الـــذَّنَبَا

فما كان من الحطيئة إلاَّ أن أعزَّهم بهذا اللَّقب بعد أن كانوا يَفْرقون منه، وأصبحوا يتباهون ويفتخرون به بعد أن كان سبب ذُلِّهم وسخرية النَّاس منهم.

– نقد الأخطل:

ويقول عنه: "وأمَّا الأخطل فسعدٌ من سعود بني مروان، صفت لهم مرآة فكره، وظَفروا بالبديع من شعره، وكان باقعة من حاجاه، وصاعقة من هاجاه."[2]، والأخطل هو غيَّاث بن غوث بن طارقة بن عمرو، من قبيلة تغلب، وكُنيته أبو مالك، ولقبه الأخطل، وهو الذي أُشتُهر به. والأخطل تعني الأحمق والمخطئ والفاحش والفاسد، جاء في المعجم: "خَطِلَ الرَّجلُ: حمُق ووقع في الخطأ والفُحش. وخَطِلَ في كلامه: تكلَّم كلامًا فاسدًا، أخطأ، أفحش."[3]، وللشاعر من هذه المعاني نصيب وحظٌّ وافر، قال محقق ديوانه: "فمن الثابت إذًا أنَّ الرعونة والبذاءة وسلاطة اللِّسان كانت الدَّافع لتسمية الأخطل بهذا اللقب."[4]

وهذا الذي وقف عنده ابن شرف في نقده الخلقي، فهو–كما قال–: (باقعة من حاجاه، وصاعقة من هاجاه)، والباقعة: "هو الرَّجل الدَّاهية، الحذِر، المحتال، الحاذق، الذكيُّ العارف الذي لا يفوته شيء."[5]، والصَّاعقة: "الموت، والعذاب المهلك، والنَّار، والصَّيحة أو الصَّوت الشديد."[6]، وسواء كان الأخطل باقعة أو صاعقة، فهو من شعراء الهجاء المعدودين، وكيف لا يكون كذلك وقد كان الشاعر الأول للبلاط الرسمي لدولة بني أميَّة، يُدافع عنها ويُهاجم خصومها. وهو كذلك أحد شعراء النقائض المشهورين في العصر الأموي، وهم: جرير والفرزدق والأخطل. وهو أيضًا صاحب أهجى بيت قالته العرب–كما يرى بعض النقاد– وهو قوله يهجو جريرًا وقومه:

قَـــومٌ إذَا اسْـــتَنْبَحَ الأَضْـــيَافُ كَلْـــبَهُمُ قَـــالُوا لأُمِّهِـــم بُـــولِي عَلَـــى النَّـــارِ[7]

---

[1] – يُنظر الخبر كاملا في ديوان الحطيئة، ص16–17، والبيت ص21.

[2] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص28.

[3] – عمر أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ج1، ص667.

[4] – الأخطل أبو مالك غياث بن غوث، الدّيوان، تح: مهدي محمد ناصر الدّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1994م، ص5.

[5] – ابن منظور، لسان العرب، ج8، ص19.

[6] – المرجع نفسه، ج10، ص198.

[7] – الأخطل، المرجع السابق، ص166.

ومع أنَّ هجاء الأخطل كان شديدًا وخبيثًا، إلاَّ أنَّه كان عفيفًا بعيدًا عن الفحش، وهذا ما صرَّح به هو نفسه، وأكَّده بعض الرواة والمحدِّثين، جاء في الأغاني: "عن عمر بن شبَّة قال: كان ممَّا يُقدَّم به الأخطل أنَّه كان أخبثهم هجاءً في عفافٍ عن الفحش. وقال الأخطل: ما هجوتُ أحدًا قطُّ بما تستحي العذراء أن تُنشده أباها."[1]

– نقد جرير:

وأمَّا ابن الخَطَفَى–وهو جرير– "فزُهْدٌ في غَزل، وحَجَرٌ في جَدل؛ يسبح أوَّلا في ماء عذب، ويطمح آخرًا في صخر صلب."[2]، فممَّا اشتهر به جرير، وله علاقة بالنقد الخلقي، هو عفَّته في النَّسيب، فهو كما قال ابن شرف: (زهد في غزل)، رغم أنَّه كان فاحشًا بذيئًا في الهجاء، يقول محقِّقُ ديوانه: "غير أنَّ جريرًا على فحشه وإقذاعه في هجائه، كان عفيفًا في غزله، متعفِّفًا في حياته لا يعهر، ولا يشرب الخمر، ولا يشهد مجالس القيان، يتظاهر بالتديُّن والتعصُّب للإسلام."[3]، وهذه من بين المزايا التي من أجلها قُدِّم جرير على صاحبيه الفرزدق والأخطل، قال صاحب الأغاني: "قال أبو عبيدة: يحتجُّ مَنْ قدَّم جريرًا بأنَّه كان أكثرهم فنون شعر، وأسهلهم ألفاظًا، وأقلَّهم تكلُّفًا، وأرقَّهم نسيبًا، وكان ديِّنًا عفيفًا."[4] ، ومن جميل وأرقِّ ما قال جرير في الغزل، قوله:

يَـــا أمَّ عَمْـــرٍو جَـــزَاكَ اللهُ مَغْفِـــرَةً رُدِّي عَلَـــيَّ فُـــؤَادِي كالَّـــذِي كَانَـــا
أَلَسْـــتِ أَحْسَـــنَ مَـــنْ يَمْشِـــي عَلَـــى قَـــدَمٍ يَـــا أَمْلَـــحَ النَّـــاسِ كُـــلّ النَّـــاسِ إِنْسَـــانَا
لَقَـــدْ كَتَمْـــتُ الهَـــوَى حَتَّـــى تَهَيَّمَنِـــي لَا أَسْـــتَطِيعُ لَهَـــذَا الحُـــبِّ كِتْمَانَـــا
إنَّ العُيُـــونَ الَّتِـــي فِـــي طَرْفِهَـــا حَـــوَرٌ قَتَلْنَنَـــا ثُـــمَّ لَـــمْ يُحْيِـــينَ قَتْلَانَـــا
يَصْـــرَعْنَ ذَا اللُّـــبِّ حَتَّـــى لَا حَـــرَاكَ بِـــهِ وَهُـــنَّ أَضْـــعَفُ خَلْـــقِ اللهِ أَرْكَانَـــا[5]

– نقد القيسيْن، ابن الملوِّح وابن ذريح:

وأمَّا القيسان وطبقتهما،"فطَبَقَةُ عَشَقَة وتَوَقَة، استحوذت الصَّبابةُ على أفكارهم،واستفرغت دواعي الحُبِّ معاني أشعارهم؛ فكلُّهم مشغولٌ بهَوَاه، لا يتعدَّاه إلى سِوَاه."[6]، والقيسان هما: قيس بن الملوِّح، مزاحم بن قيس العامري، المشهور بمجنون ليلى، وأشعاره فيها متداولة بين النَّاس. وقيس بن ذريح الكناني، رضيع الحسن بن علي بن أبي طالب، تُوفِّي في حدود السبعين للهجرة. وغالب أشعاره في معشوقته لبنى بنت الحباب.[7]، ويتجلَّى لنا الموقف النقدي الأخلاقي لابن شرف من القيسيْن خاصَّةً، وكأنَّه مُشفق عليهما ومُعاتبٌ إيَّاهما في نفس الوقت، لأنَّهما استنفذا كلَّ

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج8، ص215.
[2] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص29.
[3] – جرير، الدّيوان، مقدِّمة المحقق، ص6.
[4] – الأصفهاني، المرجع السابق، ج8، ص6.
[5] – جرير، المرجع السابق، ص491–492.
[6] – ابن شرف، المصدر السابق، ص29.
[7] – يُنظر المصدر نفسه، والصفحة نفسها، التهميش رقم3.

شعرهما في الغزل والهوى، فالصَّبابة استحوذت على أفكارهما، واستفرغت دواعي الحبِّ معاني أشعارهما، فلم يقولا شعرا إلاَّ في محبوبتيهما. هذا وإن كان غزلُهما عفيفًا عذريًّا لا تفحُّش فيه ولا مجون، إلاَّ أنَّهما انشغلا بهواهما، ولم يتجاوزاه إلى سواه، فأغراض الشعر لم تُقصَر على الغزل والنَّسيب، فقد ضيَّقا واسعًا. والحياة لا تقوم على الحبِّ والغرام وحده، ولا يُمكن أن تُختزل مشاغل الحياة ولا ملذَّاتها في حبِّ امرأة –مهما كان مبلغ هذا الحبّ والعشق والهُيام–، فما كان منهما أن يُتيِّما نفسيهما، ويُضيِّعا حياتهما، وتكون نهايتهما بتلك الحالة الأليمة. فأمَّا مجنون ليلى، فقد هام على وجهه في البراري والقفار ينشد الشعر والقصيد ويأنس بالوحوش ويتغنَّى بحبِّه العذريّ، فيُرى حينًا في الشام وحينًا في نجد وحينًا في أطراف الحجاز، إلى أن وُجد ملقًى بين أحجار وهو ميِّت.[1]، وأمَّا مجنون لبنى، فنهايته اقترنت بنهاية محبوبته، جاء في الأغاني: "ولمَّا ماتت لبنى، خرج قيسٌ ومعه جماعة من أهله، فوقف على قبرها، فقال:

مَاتَـــتْ لُبْنَـــى فَمَوْتُهَـــا مَـــوْتِي هَـــلْ تَـــنْفَعَنَّ حَسْـــرَتِي عَلَـــى الـــفَوْتِ

وَسَـــوْفَ أَبْكِـــي بُكَـــاءَ مُكْتَئِـــبٍ قَضَـــى حَيَـــاةً وَجْـــدًا عَلَـــى مَيْـــتِ

ثمَّ أكبَّ على القبر يبكي حتَّى أُغمِي عليه، فرفعه أهله إلى منزله وهو لا يعقل، فلم يزل عليلًا لا يُفيق ولا يُجيب مُكلِّمًا ثلاثًا حتَّى مات، فدُفِن إلى جنبها."[2]، فابن شرف يعيب على الشاعرين المغالاة والإفراط في حبِّهما، حتَّى أهلكا نفسيهما، حتَّى صدق فيهما قول القائل: ومن الحبِّ ما قتل.

– نقد مروان بن أبي حفصة:

وأمَّا ابن أبي حفصة، "فمن شعراء الدَّولتين، وممَّن حظي بالنِّعمتين، ووصل إلى الغِنَى بالصِّلتين."[3]، وابن أبي حفصة مروان ابن سليمان بن يحي أحد شعراء العصرين الأموي والعباسي، "وهو شاعر مُكثرٌ من الشعراء المجيدين والفحول المتقدِّمين، وشعره كلُّه جيِّد. وقَصَرَ مروان شعره على المديح والرِّثاء وعلى عدد من الأغراض الوجدانية، وكان لا يمدح إلاَّ الخلفاء والوزراء. وكان ابن أبي حفصة مشهورًا بالميل عن العلويين مُعرِّضًا بهم في شعره، لا يرى لهم حقًّا في الخلافة."[4]

وابن شرف يُشير إلى أنَّ ابن أبي حفصة كان من الشعراء المتكسِّبين بشعرهم، وخاصة مع خلفاء وأمراء بني العبَّاس؛ حيث تُشير الأخبار إلى أنَّه وفد على خلفاء ووزراء وولاة كُثر، فوفد على المهدي ومدحه وأدام زيارته ونال من أعطياته شيئًا كثيرًا. ثم وفد على الهادي وعلى هارون الرَّشيد وكان له حظوة عندهم، وله فيهم مدائح. كما أنَّه مدح البرامكة وزراء هارون الرشيد ونال منهم أعطيات سخيَّة.

---

[1] – يُنظر الأصفهاني، الأغاني، ج2، ص58.

[2] – المرجع نفسه، ج9، ص161-162.

[3] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص30، وابن أبي حفصة هو أبو السّمط مروان بن أبي حفصة سليمان بن يحي بن أبي حفصة، من الشعراء المجيدين والفحول المتقدّمين، وُلد سنة105هـ، وتُوفّي عام181هـ ببغداد، التهميش رقم1، الصفحة نفسها.

[4] – فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي– الأعصر العباسية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1981م، ص132.

واشتهر ابن أبي حفصة بالبخل وشدَّة الحرص، مع أنَّه وصل حدَّ الغِنَى، وهذا سبب هامٌّ يُفسِّر عدم استحيائه من الاستجداء والتكسُّب بالشعر، فكان لا همَّ له إلاَّ الحصول على الأموال والعطايا من الخلفاء والوزراء خاصَّة، ولم يتوقَّف عن ذلك رغم تعرُّضه للإهانة والطَّرد من مجلس الخليفة مرَّتين، من المهدي وهارون الرَّشيد. جاء في الأغاني، أنَّ الفضل بن الربيع قال: "رأيت مروان ابن أبي حفصة وقد دخل على المهديِّ بعد وفاة معن بن زائدة في جماعة من الشعراء فيهم سَلَمُ الخاسر وغيره، فأنشده مديحًا فيه، فقال: ومن أنت؟ قال: شاعرك يا أمير المؤمنين وعبدك مروان بن أبي حفصة. فقال له المهديُّ: ألستَ القائل:

أَقَمْنَا بِاليَمَامَةِ بَعْدَ مَعْنٍ مُقَامًا لا نُرِيدُ بِهِ زَوَالَا

وَقُلْنَا أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ وَقَدْ ذَهَبَ النَّوالُ فَلَا نَوالَا

قد ذهب النَّوال فيما زعمتَ، فلِمَ جئتَ تطلب نوالَنا؟ لا شيء لك عندنا، جُرُّوا برجله؛ فجَرُّوا برجله حتَّى أُخرِجَ. قال: فلمَّا كان من العام المقبل تلطَّف حتَّى دخل مع الشعراء، وإنَّما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء في كلِّ عام مرَّة، فمثَل بين يديه وأنشده بعد رابع أو بعد خامس من الشعراء.

قال الفضل: ومضت الأيَّام ووليَ هارون الرَّشيد الخلافة، فدخل إليه مروان؛ فرأيته واقفًا مع الشعراء، ثمَّ أنشده قصيدة امتدحه بها. فقال: مَن أنت؟ قال: شاعرك وعبدك يا أمير المؤمنين مروان بن أبي حفصة. قال:ألستَ القائل في معنٍ بن زائدة؟ وأنشده البيتين اللذين أنشده إيَّاهما المهديُّ، ثمَّ قال: خُذُوا بيده فأخْرِجُوه، لا شيء لك عندنا، فأُخْرِجَ. فلمَّا كان بعد ذلك بأيَّام تلطَّف حتَّى دخل؛ فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

لَعَمْرُكَ مَا أَنْسَى غَدَاةَ المُحَصَّبِ إِشَارَةَ سَلْمَى بِالبَنَانِ المُخَضَّبِ

وَقَدْ صَدَرَ الحُجَّاجُ إِلَّا أَقَلَّهُمْ مَصَادِرَ شَتَّى مَوْكِبًا بَعْدَ مَوْكِبَ

قال: فأعجبته، فقال: كم قصيدتك من بيتٍ؟ فقال: ستون أو سبعون. فأمر له بعدد أبياتها ألوفًا. فكان ذلك رَسْمَ مروان عندهم حتَّى مات [1]. أمَّا عن مديحه لخلفاء بني العبَّاس، فلم يكن مدحًا خُلُقيًّا، يتعلَّق بالخلال والفضائل التي يُحبُّها كلُّ خليفة أو أمير، من كرم وشجاعة ونجدة وغير ذلك، بل كان أيضًا مدحًا سياسيًّا؛ حيث كان يُدافع عن حقوق العباسيين في الخلافة ويردُّ على العلويين وما يدَّعونه من هذه الحقوق، ومن ذلك قصيدته التي ألقاها بين الخليفة المهدي، ومطلعها:

طَرَقَتْكَ زَائِرَةً فَحَيِّ خَيَالَهَا بَيْضَاءُ تَخْلِطُ بِالْحَيَاءِ دَلَالَهَا

إلى أن يقول:

أَحْيَا أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ سُنَنَ النَّبِيِّ حَرَامَهَا وَحَلَالَهَا

مَلِكٌ تَفَرَّعُ نَبْعُهُ مِنْ هَاشِمٍ مَدَّ الإِلَهُ عَلَى الأَنَامِ ظِلَالَهَا

جَبَلٌ لِأُمَّتِهِ تَلُوذُ بِرُكْنِهِ رَادَى جِبَالَ عَدُوِّهَا فَأَزَالَهَا

[1] – يُنظر الأصفهاني، الأغاني، ج10، ص71-72.

ثمَّ يُوجِّه كلامه إلى العلويين مُشيرًا إلى حقِّ العباسيين في وراثة الخلافة، وأنَّهم مقدَّمون في هذا الحقِّ على أبناء بنت الرسول ﷺ فاطمة الزهراء، كما تقتضيه أحكام الميراث، فيقول:

هَـــلْ تَطْمِسُـــونَ مِـــنَ السَّـــمَاءِ نُجُومَهَـــا بِـــــأَكُفِّكُمْ أَمْ تَسْـــــتُرُونَ هِلَالَهَـــــا
أَمْ تَجْحَـــــدُونَ مَقَالَـــــةً عَـــــنْ رَبِّكُـــــمْ جِبْرِيـــــلُ بَلَّغَهَـــــا الـــــنَّبِيَّ فَقَالَهَـــــا
شَـــهِدَتْ مِـــنَ الأَنْفَـــالِ آخِـــرُ آيَـــةٍ بِتُـــــرَاثِهِمْ فَـــــأَرَدْتُمُ إِبْطَالَهَـــــا
فَـــذَرُوا الأُسُـــودَ خَـــوَادِرًا فِـــي غِيلِهَـــا لَا تُـــــولِغُنَّ دِمَـــــاءَكُمْ أَشْـــــبَالَهَا[1]

ويذكر الأصفهاني أنَّ المهديَّ من فرط إعجابه بالقصيدة "قد زحف من صدر مُصلَّاه حتَّى صار على البساط إعجابًا بما سمع، ثمَّ قال: كم هي؟ قال: مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم، فكانت أوَّل مائة ألف درهم أُعْطِيها شاعرٌ في أيَّام بني العبَّاس."[2]

– نقد العبَّاس بن الأحنف:

وأمَّا العبَّاس بن الأحنف "فمُعتزِلٌ بهواه، وبمعزِلٍ عمَّا سواه؛ دفع نفسه عن المدح والهجاء، ووضعها بين يدي هواه من النِّساء؛ قد رقَّق الشَّغفُ كلامَه، وثقَّفت قوَّةُ الطَّبع نظامَه؛ فله رقَّةُ العشَّاق، وجودة الحُذَّاق."[3]، فأبو الفضل العبَّاس بن الأحنف بن الأسود الحنفي، من أبرز شعراء العصر العباسي الذين تميَّزوا بكتابة الغزل الرَّقيق، وهو كما يقول ابن شرف اعتزل بغزله جميع الأغراض الأخرى، وخاصة المدح والهجاء، وذلك لأنَّه كان ظاهر النِّعمة، فامتنع عن المدح، وعفيف اللِّسان فامتنع عن الهجاء. قال الأصفهاني: "وكان العبَّاس شاعرًا غَزِلًا ظريفًا مطبوعًا، ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء. وقدَّمه المبرّد في كتاب الرَّوضة على نظرائه، وقال: كان العبَّاس من الظُّرفاء، ولم يكن من الخُلعاء؛ وكان غَزِلًا ولم يكن فاسقًا، وكان ظاهر النِّعمة مُلوكيَّ المذهب، شديد التترُّف، وكان قَصْدُه الغَزَلَ وشُغْلُه النَّسيبَ، وكان حُلوًا مقبولًا غَزِلًا غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرُّف في الغزل وحده، ولم يكن هجَّاءً ولا مدَّاحًا."[4]

فابن الأحنف كان شاعر غزل ونسيب من طراز رفيع، ولكنَّه لم يتخالع فيه ولم يتفحَّش، وامتنع عن المدح والهجاء ترفُّعًا وأنفة منه، ولم يتكسَّب بشعره، وهذا ما أكَّده غيرُ واحد، جاء في الأغاني أنَّ يَمُوتَ بن المزرَّع قال: "سمعتُ خالي (يعني الجاحظ) يقول: لولا أنَّ العبَّاس بن الأحنف أحذقُ النَّاس وأشعرُهم وأوسعُهم كلامًا وخاطرًا ما قدَر أن يُكثر شعره في مذهب واحد لا يُجاوزه؛ لأنَّه كان لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسَّب ولا يتصرَّف، وما نعلم شاعرًا لزم فنًّا واحدًا لزومه فأحسن فيه وأكثر."[5]، وفي موضع آخر، قال محمَّد بن القاسم: "سمعت مُصعبًا الزُّبيري يقول: العبَّاس بن

[1] – مروان بن أبي حفصة، الدّيوان، تح: حسين عطوان، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، دت، ص96-99.
[2] – الأصفهاني، الأغاني، ج10، ص72.
[3] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص32.
[4] – الأصفهاني، المرجع السابق، ج8، 253.
[5] – المرجع نفسه، ص254.

الأحنف وعمرو العرَّاف ما ابتذلا بشعرهما في رغبة ولا رهبة، ولكن فيما أحبَّاه، فلزِمَا فنًّا واحدًا، لو لزمه غيرُهما ممَّن يُكثر إكثارهما لضعُف فيه."[1]

إذن فقد كتب العبَّاس بن الأحنف في الغزل فقط، وكان شعره مُهذَّبًا يمتاز بالرِّقة والجمال، فقد وقع في حُبِّ جارية اسمها (فوز)، وقال فيها أروع القصائد وأجملها، حيث كان حُبُّ فوز سببًا في تقوية ملكته وموهبته الشعرية، وإثارة أحاسيسه ومشاعره، فوصف معاناة الحبِّ لديه بعاطفة صادقة، واستطاع أن يرسم صورةً جميلةً للحُبِّ الطاهر العفيف. يقول في بعض قصائده:

أَزَيْـــنَ نِسَـــاءِ العَـــالَمِينَ أَجِيبِـــي ... دُعَـــاءَ مَشُـــوقٍ بِـــالعِرَاقِ غَرِيـــبِ
كَتَبْـــتُ كِتَـــابي مَـــا أُقِـــيمُ حُرُوفَـــهُ ... لِشِـــدَّةِ إِعْـــوَالِي وَطُـــولِ نَحِيبـــي
أَخُـــطُّ وَأَمْحُـــو مَـــا خَطَطْـــتُ بِعَبْـــرَةٍ ... تَسُـــحُّ عَلَـــى القِرْطَـــاسِ سَـــحَّ غُـــرُوبِ
أَيَـــا فَـــوْزُ لَـــوْ أَبْصَـــرتِنِي مَـــا عَرَفْتِنِـــي ... لِطُـــولِ شُـــجُونِي بَعْـــدَكُمْ وَشُـــحُوبِي
وَأَنْـــتِ مِـــنَ الـــدُّنْيَا نَصِـــيبِي فَـــإِنْ أَمُـــتْ ... فَلَيْتَـــكِ مِـــنْ حُـــورِ الـــجِنَانِ نَصِـــيبِي
سَـــأَحْفَظُ مَـــا قَـــدْ كَـــانَ بَيْنِـــي وَبَيْـــنَكُمْ ... وَأَرْعَـــاكُمُ فِـــي مَشْـــهَدِي وَمَغِيبِـــي[2]

ويقول في قصيدة أخرى:

يـــا مَـــنْ يُسَـــائِلُ عَـــنْ وَجْـــدِي لأُظْهِـــرَهُ ... إنَّ الـــمُحِبَّ لَتَبَـــدُو مِنْـــهُ أَسْـــرَارُ
فَاسْـــمَعْ مُنَـــاقَلَتِي وَانْظُـــرْ إلَـــى نَظَـــرِي ... إنْ كَـــانَ مِنْـــكَ لِـــمَا فِـــي الصَّـــدْرِ إنْكَـــارُ
أَمَّـــا اِسْـــمُهَا فَهْـــوَ مَكْتُـــومٌ فَلَـــيْسَ لَـــهُ ... مِنِّـــي إلَيْـــكَ بِـــإِذْنِ اللَّـــهِ إظْهَـــارُ
كَأَنَّمَـــا القَلْـــبُ مِـــنْ يَـــوْمٍ أُبْتُلِيـــتُ بِهَـــا ... بَـــيْنَ السَّـــمَاءِ وَبَـــيْنَ الأَرْضِ طَـــيَّارُ[3]

– نقد دعبل الخُزاعيّ:

وأمَّا دِعْبل، وهو الشاعر أبو عليّ محمَّد الخزاعيّ، "فمدبرٌ مُقبِلٌ؛ اليوم مدحٌ، وغدًا قَدْحٌ؛ يُجيدُ في الطريقتين، ويُسيءُ في الخليقتين؛ وله أشعار في العصبيَّة تحسنها الحميَّة والطبيعة الغضبية."[4]، ودعبل الخزاعي من مشاهير شعراء العصر العباسي. اشتهر بتشيُّعِه لآل البيت من أبناء علي بن أبي طالب ﷺ، وهجائه اللَّاذع للخلفاء العباسيين. ومن الخلفاء الذين هجاهم: الرَّشيد، والأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكِّل. وهجاؤه مقذع مخزٍ، يُفحش ويُجرِّح ويسبُّ ويطعن بكلِّ وقاحة وفجور، قال يهجو المعتصم:

---

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج8، ص269.

[2] – العبَّاس بن الأحنف، الدّيوان، تح: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط1، 1954م، ص6.

[3] – المرجع نفسه، ص109.

[4] – ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، تح: عبد العزيز أمين الخانجي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط1، 1926م، ص23.

بَكَـــى لِشَـــتَاتِ الـــدِّينِ مُكْتَئِـــبٌ صَـــبُّ وَفَـــاضَ بِفَـــرْطِ الـــدَّمْعِ مِـــنْ عَيْنِـــهِ غَـــرْبُ
وَقَـــامَ إِمَـــامٌ لَـــمْ يَكُـــنْ ذَا هِدَايَـــةٍ فَلَـــيْسَ لَـــهُ دِيـــنٌ وَلَـــيْسَ لَـــهُ لُـــبُّ[1]

وقال بعد موت المعتصم وتولِّي الواثق:

الحَمْـــــدُ للهِ لَا صَـــــبْرٌ ولَا جَلَـــــدٌ ولَا عَـــــزَاءٌ إِذَا أَهْـــــلُ الـــــبَلَا رَقَـــــدُوا
خَلِيفَـــةٌ مَـــاتَ لَـــمْ يَحْـــزَنْ لَـــهُ أَحَـــدٌ وآخَـــرٌ قَـــامَ لَـــمْ يَفْـــرَحْ بِـــهِ أَحَـــدُ
فَمَـــرَّ هَـــذَا ومَـــرَّ الشُّـــؤْمُ يَتْبَعُـــهُ وَقَـــامَ هَـــذَا فَقَـــامَ الوَيْـــلُ والنَّكَـــدُ[2]

وأمَّا قول ابن شرف: (مُدبر مُقبِل؛ اليومَ مدحٌ، وغدًا قدحٌ)، فيدلُّ ذلك على أنَّ دعبلًا كان مضطرب الحال يمدح الرَّجل وإن لم يُرضه وينل منه ما يُريد انقلب عليه وهجاه، وهذا ما حدث لأبي نضير الطوسي على سبيل المثال؛ حيث "مدح دعبل أبا نضير الطوسيَّ، فقصَّر في أمره، ولم يُرضه من نفسه، فقال عند ذلك دعبل فيه يهجوه:

أَبَـــا نَضِـــيرٍ تَحَلْحَـــلْ عَـــنْ مَجَالِسِـــنَا فَـــإِنَّ فِيـــكَ لِمَـــنْ جَـــارَاكَ مُنْتَقَصَـــا
أَنْـــتَ الحِمَـــارُ حَرُونًـــا إِنْ وَقَعْـــتَ بِـــهِ وإِنْ قَصَـــدْتَ إِلَـــى مَعْرُوفِـــه قَمَصَـــا
إِنِّـــي هَزَزْتُـــكَ لا آلُـــوكَ مُجْتَهِـــدًا لَـــوْ كُنْـــتَ سَـــيْفًا ولَكِنِّـــي هَـــزَزْتُ عَصَـــا[3]

وكان دعبل مُجيدًا في الطريقتين، أي في مدحه وهجائه، ولكنَّه اشتهر بالهجاء أكثر منه في المدح، قال صاحب الأغاني مُعرِّفًا إيَّاه: "هو دعبل بن عليِّ بن رزين، ويُكنَّى أبا عليٍّ، شاعر متقدِّمٌ مطبوعٌ هجَّاءٌ خبيثُ اللِّسان، لم يسلم منه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة، أحسن إليه أو لم يُحسن، ولا أفلت منه كبير أحد."[4]، وكان يهجو النَّاس ليخافوه، قال أبو خالد الخُزاعي الأسلميُّ: "قلتُ لدعبل: ويحك! قد هجوتَ الخلفاء والوزراء والقوَّاد ووتِرْتَ النَّاس جميعًا، فأنت دهرَك كلَّه شريدٌ طريدٌ هاربٌ خائفٌ، فلو كَفَفْتَ عن هذا وصرفْتَ هذا الشرَّ عن نفسك. فقال: ويحك! إنِّي تأمَّلتُ ما تقول، فوجدتُ أكثر النَّاس لا يُنتفع بهم إلَّا على رهبة، ولا يُبالى بالشاعر وإن كان مُجيدًا إذا لم يُخَفْ شرُّه، ولَمن يتَّقيك على عرضه أكثرُ ممَّن يرغب إليك في تشريفه، وعيوب النَّاس أكثر من محاسنهم، وليس كلُّ مَن شرَّفته من شعر بشعر شرُف، ولا كلُّ مَن وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك، فإذا رآك قد أوجعتَ عرض غيره وفضحته اتَّقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر؛ ويحك يا أبا خالد! إنَّ الهجاء المقذع آخذٌ بضبع الشاعر من المديح المضْرِع. فضحكت من قوله، وقلتُ: هذا والله مقالُ مَن لا يموت حتف أنفه."[5]

---

[1] – دعبل بن علي الخزاعي، الديوان، تح: ضياء حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1997م، ص41.
[2] – المرجع نفسه، ص83.
[3] – الأصفهاني، الأغاني، ج20، ص66.
[4] – المرجع نفسه، ج20، ص59.
[5] – نفسه، ج20، ص62-63.

وممَّا اشتهر به دعبل أنَّه كان متشيِّعًا لآل البيت من العلويين، وكان شديد التعصُّب لهم، وقد جاءت الكثير من أشعاره في مدح آل البيت، ولعلَّ من أشهرها قصيدته التَّائية، التي يقول عنها الأصفهاني: "من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في آل البيت."[1]، والتي يقول فيها:

بَكَيْتُ لِرَسْمِ الدَّارِ مِنْ عَرَفَاتِ وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ العَيْنِ بِالْعَبَرَاتِ
وَفَكَّ عُرَى صَبْرِي وَهَاجَتْ صَبَابَتِي رُسُومُ دِيَارٍ أَقْفَرَتْ وَعِرَاتِ
مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ
لآلِ رَسُولِ اللهِ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنًى وَبِالرُّكْنِ وَالتَّعْرِيفِ وَالجَمَرَاتِ
هُمْ أَهْلُ مِيرَاثِ النَّبِيِّ إِذَا اعْتَزَوْا وَهُمْ خَيْرُ سَادَاتٍ وَخَيْرُ حُمَاةِ
مَطَاعِيمُ فِي الإِعْسَارِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ لَقَدْ شَرُفُوا بِالفَضْلِ وَالبَرَكَاتِ
نَبَذْتُ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ صَادِقًا وَسَلَّمْتُ نَفْسِي طَائِعًا لِوُلَاتِي
فَيَا رَبِّ زِدْنِي فِي هَوَايَ بَصِيرَةً وَزِدْ حُبَّهُمْ يَا رَبِّ فِي حَسَنَاتِي[2]

وأمَّا قوله: (ويُسيء في الخليقتين)، وتقدير الكلام: ويُسيء القولَ في الخليقتين، أي: أساء إلى مَنْ مدحهم، وأساء إلى مَنْ هجاهم؛ فقد غالى وتجاوز الحدَّ في مدح آل البيت من العلويين، وتعصَّب في تشيُّعه لهم، وغالى في هجائه لخصومهم من الخلفاء العباسيين، ومَن هجاهم مِن عامَّة النَّاس، فأفحش وأقذع وتهكَّم وسبَّ، وهذا كلُّه مُنافٍ للدّين والخلق الكريم. ثم يقول ابن شرف: (وله أشعار في العصبيَّة تحسنها الحميَّة والطبيعة الغضبية)، وهذا لأنَّه –كما يقول الأصفهاني–: كان شديد التعصُّب على النِّزارية للقحطانية، وقال قصيدة يردُّ فيها على الكُميت بن زيد، ويُناقضه في قصيدته المُذْهَبة التي هجا بها قبائل اليمن:

أَلَا حُيِّيتَ عَنَّا يَا مَدِيْنَا وَهَلْ بَأْسٌ بِقَوْلٍ مُسَلِّمِيْنَا

ثم يقول الأصفهاني: أنَّه–أي دعبل– رأى النبيَّ ﷺ في منامه، فنهاه عن ذكر الكُميت بسوء. وناقضه أبو سعد المخزومي في قصيدته وهاجاه، وتطاول الشرُّ بينهما، فخافت بنو مخزوم لسان دعبل وأن يعمَّهم بالهجاء، فنفوا أبا سعد عن نسبهم، وأشهدوا بذلك على أنفسهم.[3]، وكان ممَّا قاله دعبل ردًّا على الكُميت:

وَمَا نَيْلُ المَكَارِمِ بِالتَّمَنِّي وَلَا بِالقَوْلِ يُبْلَى الفَاعِلُونَا
أُحَيِّي الغُرَّ مِنْ سَرَوَاتِ قَوْمِي وَلَا حُيِّيتَ عَنَّا يَا مَدِيْنَا
فَإِنْ يَكُ آلُ إِسْرَائِيلَ مِنْكُمْ وَكُنْتُمْ بِالأَعَاجِمِ فَاخِرِينَا
فَلَا تَنْسَ الخَنَازِيرَ اللَّوَاتي مُسِخْنَ مَعَ القُرُودِ الخَاسِئِينَا

[1] – الأصفهاني، الأغاني، ج20، ص59.
[2] – دعبل بن علي الخزاعي، الديوان، ص59–63.
[3] – الأصفهاني، المرجع السابق، ج20، ص59.

وَمَـــا طَلَـــبُ الكُمَيْـــتِ طِـــلَابُ وِتْـــرٍ وَلَكِنَّـــــا لِنُصْـــــــرَتِنَا هُجِينَـــــــا
لَقَـــدْ عَلِمَـــتْ نِـــزَارٌ أَنَّ قَـــوْمِي إِلـــى نَصْـــرِ النُّـــبُوَّةِ سَـــابِقِينَا[1]

وهذا ما حطَّ من قدر ومكانة دعبل عند النَّاس، ذكر الأصفهاني عن ابن مهرويه عن أبيه، قال: "لم يزل دعبل عند النَّاس جليل القدر حتَّى ردَّ على الكُميت بن زيد، فكان ذلك ممَّا وضعه. وقال فيه أبو سعد المخزوميّ:

وَأَعْجَـــبُ مَـــا سَـــمِعْنَا أَوْ رَأَيْنَـــا هِجَـــاءٌ قَالَـــهُ حَـــيٌّ لِـــمَيْتِ
وَهَـــذَا دِعْبِـــلٌ كَلِـــفٌ مُعَنَّـــى بِتَسْـــطِيرِ الأَهَـــاجِي فِـــي الكُمَيْـــتِ
وَمَـــا يَهْجُـــو الكُمَيْـــتَ وَقَـــدْ طَـــوَاهُ الـــرَّ دَى إِلَّا ابْـــنُ زَانِيَـــةٍ بِزَيْـــتِ"[2]

– نقد ابن الرومي:

وأمَّا ابن الرُّومي، أبو الحسن علي بن العبَّاس، "فشجرة الاختراع، وثمرة الابتداع؛ وله في الهجاء ما ليس له في الإطراء، فتح فيه أبوابًا، ووصل منه أسبابًا، وخلع منه أثوابًا، وطوَّق فيه رِقابًا، يَبْقِين أعمارًا وأحقابًا؛ يطول عليها حسابُه، ويُمحقُ بها ثوابه."[3]، فابن الرُّومي من شعراء القرن الثالث الهجري من العصر العباسي، وهو من الشعراء المولّدين، برع في نظم الشعر بقريحته الوقَّادة وفكره العميق، ويمتاز شعره بالسَّلامة والرِّقة والسهولة والعذوبة والإطناب، فهو بحقٍّ –كما قال ابن شرف–: (شجرة الاختراع وثمرة الابتداع). وصفه ابن خلّكان، فقال: "هو صاحب النَّظم العجيب والتَّوليد الغريب، يغوص على المعاني النَّادرة، فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتَّى يستوفيه إلى آخره، ولا يُبقي فيه بقيَّة."[4]

أمَّا ما تعلَّق بالنقد الخلقي، فيقول ابن شرف: (وله في الهجاء ما ليس له في الإطراء، فتح فيه أبوابًا، ووصل منه أسبابًا، وخلع منه أثوابًا، وطوَّق فيه رِقابًا، يَبْقِين أعمارًا وأحقابًا؛ يطول عليها حسابُه، ويُمحقُ بها ثوابه)، فمن خصائص ابن الرومي الَّتي انتسب وعُرف بها، أغراضه الشعرية المتنوّعة: من وصف وهجاء ورثاء ومدح وغزل وفخر وعتاب، لكنَّ الهجاء كان البارز من شعره، وله فيه ما ليس له في المدح والإطراء. فالفنُّ الأهمُّ في شعر ابن الرومي هو الهجاء، وهو انعكاس صادق لملامحه الحياتية والنفسية، وصورة صادقة لذاته البائسة المتطيِّرة المتصدِّعة، وابن الرومي يعلم ذلك جيِّدًا عن نفسه، فيقول للبحتري: "إيَّاك والهجاء يا أبا عبادة، فليس من عملك، وهو من عملي."[5]، ويقول المرزباني في معجمه متحدِّثًا عن ابن الرومي: "وهو في الهجاء مُقدَّم، لا يلحقه فيه أحد من أهل عصره؛ غزارة قول، وخُبث منطق، ولا أعلم أنَّه مدح أحدًا من رئيس أو مرؤوس إلَّا وعاد عليه، فهجاه ممَّن أحسن إليه، أم قصَّر في ثوابه، فلذلك قلَّت

[1] – دعبل الخزاعي، الدّيوان، ص171–172.
[2] – الأصفهاني، الأغاني، ج20، ص61.
[3] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص33.
[4] – العقاد عباس محمود، ابن الرومي حياته من شعره، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، دط، 2013م، ص9.
[5] – المرزباني، الموشَّح، ص420.

فائدته من قول الشعر، وتحاماه الرؤساء، وكان سببًا لوفاته."[1]، وهجاء ابن الرومي لم يقتصر على قذف المهجوِّ في أخلاقه؛ بسلبه محاسنها ورميه بمساوئها، والطَّعن في حسبه ونسبه، بل تعدَّاه إلى وصف خِلقته وتصوير شكله، حتَّى يُبرزه مُثْلة شوهاء مُضحكة. فجاءت أهاجيه صورة ساخرة للمهجوّيين من خلال مطاعن خِلقية ونفسية، تقوم على الازدراء بهم وتحقيرهم والحطِّ من منزلتهم، فتترك هذه الصورة المشوَّهة المستقبحة أثرًا بليغًا في نفوس المهجويين.

وابن شرف يعيب على ابن الرومي هذا النَّوع من الهجاء المقذع والسَّاخر، والذي من خلاله فتح على نفسه أبواب جهنَّم كلَّها، فخاصمه وعاداه الكثير من النَّاس، ولعلَّ موته مسمومًا كان سببه الرئيس لسانه الذي سلَّطه كسيف قاطع على كثير من الخلق. ودليل تفحُّشه وإقذاعه في الهجاء أنَّه (خلع منه أثوابًا)، أي: انتهك أعراض كثير من النَّاس، وسلبهم كرامتهم وشرفهم، و(طوَّق فيه رقابًا) أي أذلَّها وأهانها بهذه المخازي والعيوب التي رماهم بها، وهذه الأهاجي ستبقى أزمانًا طويلة وأعمارًا مديدة. ويوم القيامة سيطول عليها حسابه، وتُذهِب ما كان له من حسنات وثواب.

وكأنَّ ابن شرف يريد أن يقول: أنَّ هجاء ابن الرُّومي كان من قبيل السخرية والاستهزاء اللذين نُهينا عنهما بنصِّ الآية الكريمة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**[2]، ولأنَّ هذا الهجاء ظلم واعتداء على النَّاس، فإنَّ تبعته ستلاحقه إلى يوم القيامة، فالظلم ظلمات يوم القيامة، والمرء محاسب على جميع أفعاله وأقواله، قال تعالى: **﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾**[3]، فسيُحاسَب ابن الرُّومي على هذا الهجاء، وسيكون هجاؤه سببًا في ضياع الكثير من حسناته، وفي هذا إشارة إلى حديث النبيِّ ﷺ الذي بيَّن فيه المفلس من أمَّته، حين قال: **« أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ ، وَصِيَامٍ ، وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»** [4]، وما قاله ابن الرُّومي يُعدُّ قذفًا وفحشًا وسخريةً، فاستمع إليه وهو يصف رجلا بخيلا اسمه عيسى:

يُقَتِّـــــر عِيسَـــــى عَلَـــــى نَفْسِـــــهِ وَلَـــــيْسَ بِبَـــــاقٍ وَلَا خَالِـــــدِ
فَلَـــــوْ يَسْـــــتَطِيعُ لِتَقْتِيـــــرِهِ تَـــــنَفَّسَ مِـــــنْ مِنْخَـــــرٍ وَاحِـــــدِ[5]

وقال يهجو رجلا:

---

[1] – المرزباني أبو عبيد الله محمد بن عمران، معجم الشعراء، تح: فاروق أسليم، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص183.

[2] – سورة الحجرات، الآية11.

[3] – سورة ق، الآية18.

[4] – مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصّلة والآداب، رقم الحديث2581، ص781.

[5] – ابن الرُّومي، الديوان، ج1، ص412.

يَـــا ابْـــنَ الـــزَّنِيمِ وَيَـــا ابْـــنَ أَلْفَـــيْ وَالِـــدٍ يـــا ابْـــنَ الطَّرِيـــقِ لِصَـــادِرٍ ولِـــوَارِدِ
مَـــا فِيـــكَ مَوْضِـــعُ لَسْـــعَةٍ لِبَعُوضَـــةٍ إِلَّا وَفِيـــهِ نُطْفَـــةٌ مِـــنْ واحِـــدِ[1]

وقال في وصف رجل ذي لحية عريضة:

إِنْ تَطُـــلْ لِحْيَـــةٌ عَلَيْـــكَ وَتَعْـــرضُ فَالـــمَخَالِي مَعْرُوفَـــةٌ للحَمِيـــرِ
عَلَّـــقَ اللهُ فـــي عِـــذَارَيْكَ مِخْـــلَا ةً وَلَكِنَّهَـــا بِغَيْـــرِ شَـــعِيرِ[2]

ويصف جاره الأحدب الذي كان يشمئزُّ ويتطيَّر من رؤيته، فهجاه قائلًا:

قَصُـــرَتْ أَخَادِعُـــهُ وَغَـــابَ قَذَالُـــهُ فَكَأَنَّـــهُ مُتَـــرَبِّصٌ أَنْ يُصْـــفَعَا
وَكَأَنَّمـــا صُـــفِعَتْ قَفَـــاهُ مَـــرَّةً وَأَحَـــسَّ ثَانِيـــةً لَـــهَا فَتَجَمَّعَـــا[3]

– نقد أحمد بن محمد الصَّنوبريّ:

وأمَّا الصَّنوبريُّ، وهو أحمد بن محمد بن الحسن الضبِّي، "ففصيح الكلام غريبُه، مليح التَّشبيه عجيبُه، وهو وحيد جنسه في صفة الأزهار، وأنواع الأنوار. وكان في بعض أشعاره يتخالع."[4]، والصنوبريُّ شاعر مُحسن مُجيد، في شعره سهولة وعذوبة، وأكثر شعره في وصف الطبيعة والرياض والأنوار والأزهار، وهو–كما قال ابن شرف– وحيد جنسه في صفة الأزهار، وأنواع الأنوار. قال في الرَّوض:

أَرَأَيْـــتَ أَحْسَـــنَ مِـــنْ عُيُـــونِ النَّـــرْجَسِ أَمْ مِـــنْ تَلَاحُظِهِـــنَّ وَسْـــطَ المجْلِـــسِ
دُرٌّ تَشَـــقَّقَ عَـــنْ يَوَاقِيـــت عَلَـــى قُضُـــبِ الزُّمُـــرُّدِ فَـــوقَ بُسْـــطِ السُـــنْدُسِ
أَجْفَـــانُ كَـــافُورٍ حُبِـــينَ بِـــأَعْيُنٍ مِـــنْ زَعْفَـــران نَاعِمَـــاتِ الـــمَلْمَسِ
فَـــإِذَا تَغَشَّـــتْهَا الرِّيَـــاحُ تَنَفَّسَـــتْ عَـــنْ مِثْـــلِ رِيـــحِ المِسْـــكِ أيَّ تَـــنَفُّسِ
وَحَكَـــى تَـــدَانِي بَعْضِـــهَا مِـــنْ بَعْضِـــهَا يَوْمًـــا تَـــدَانِي مُـــؤْنِسٍ مِـــنْ مُـــؤْنِسِ
هَـــذَا وَذَاكَ تَعَانَقَـــا فـــي مَجْلِـــسٍ عِشْـــقًا وَتِلْـــكَ تَعَانَقَـــتْ فـــي مَغْـــرِسِ[5]

ولكنَّ ابن شرف –ومن منطلق خُلُقي– يُؤاخذ الصنوبريَّ على خلاعته ومجونه، وهذا ما ثبت في بعض أشعاره، يقول شوقي ضيف متحدِّثًا عن أغراض الشعر عند الصَّنوبريِّ: وله غزليات كثيرة، غير أنَّ كثيرًا منها في الغِلمان. ويُحاول الدكتور التَّخفيف من حدَّة هذه المثلبة السيئة عند الصنوبري وغيره، فيقول: إنَّ كثيرًا من شعر الغلمان، إنْ لم يكن جُلُّه، كان يُقال على سبيل الدُّعابة والتندُّر في أثناء السُّكر وشُرب الخمر. وله غزل في فتيات ونساء كثيرات. ويقول في

[1] – ابن الرُّومي، الديوان، ج1، ص522.
[2] – المرجع نفسه، ج2، ص23.
[3] – ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي– العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط12، 2001م، ص316.
[4] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص34.
[5] – الصنوبري أحمد بن محمد بن الحسن، الدّيوان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، ص161–162.

موضع آخر: وله وراء ذلك أشعار كثيرة في (دير زَكَّى) ونُزَهه في بساتينه وخَلْعِه مع بعض رفاقه للعَذَار فيه ولهوهم مع بعض فتياته.[1]، وما يدلُّ على تخالعه ولهوه من شعره، فقوله مثلًا:

خَلَـــعَ ابْـــنُ الصَّـــنَوبَرِيِّ العِـــذَارَا وغَـــدَا فَهـــو لا يَـــرَى ذَاكَ عَـــارَا
غَـــادَرَ الحِلْـــمَ جَانِبًـــا وامْتَطَـــى اللَّهـــ ـــــو وقُـــدُمًا أَشَـــارَ أَنَّـــى أَشَـــارَا
غَـــضَّ مِـــنْ رُشْـــدِهِ وأنجَـــدَ فـــي الغَـــ ـــــيِّ عَلـــى رغـــمِ عَاذِلِيـــه وَغَـــارَا
خَالِيًـــا لا أَزَالُ أَرْشُـــفُ مِـــنْ فِيـــ ـــــهِ رُضَـــابًا ومِـــنْ يَدَيْـــهِ عُقَـــارَا
لا تَلُمْنِـــي وهـــل يُـــلامُ كَئِيـــبٌ لـــيس يهـــوى مُـــذْ كـــان إلَّا الصِّـــغَارَا
لَسْـــتُ أَهْـــوَى إلَّا ابْـــنَ عَشْـــرٍ فَـــإنْ زَا دَ عَلَـــى العَشْـــرِ جَـــاوَزَ الـــمِقْدَارَا[2]

وظلَّ الصنوبريُّ على حاله تلك من المجون واللَّهو والشُّرب عمرًا مديدًا، ولا يستفيق من غفوته إلَّا عندما شارف السِّتين عامًا، فيتمنَّى لو لم يكن على هذه الحال، وقد بلغ السابعة والخمسين، وآن له أن يكُفَّ عن اللَّهو، فيقول:

أَلْقَـــتْ رِدَاءَ اللَّهْـــوِ عَـــنْ عَـــاتِقِي خَمْـــسٌ وَخَمْسُـــونَ مَضَـــتْ واثْنَتَـــانْ[3]

ويبدو أنَّه ندم حقًّا وصدقًا، وقد ارعوى حين تقدَّمت به السنُّ بعد الخمسين واقتربت من السِّتين، وصحا من خمره ولهوه، ويُؤكِّد على كفِّه عن شرب الخمر، وأنَّه لا يرضاها، وفي ذلك يقول:

كُنْـــتُ أُحِـــبُّ النَّبِيـــذَ جِـــدًّا فَصَـــارَ حُبِّـــي النَّبِيـــذَ بُغْضَـــا
فَلَسْـــتُ أَرْضَـــاهُ لِـــي شَـــرَابًا والـــحَمْدُ للهِ لَسْـــتُ أَرْضَـــى[4]

– نقد أبي القاسم الخبزرزيّ:

وأمَّا الخُبْزرزِّيُّ، ويُروى أيضًا: الخبزأرزي، وهو أبو القاسم نصر بن أحمد الشاعر البصري، فيقول عنه ابن شرف: "فخليعُ الشِّعر ماجنُه، تُسلِّيه عن الحبِّ الخيانة، ويروقه الوفاء والصِّيانة؛ وله على خشونة خَلْقِه، وصُعوبة خُلُقه، اختراعات لطيفة، وابتداعات ظريفة."[5]، والخبزأرزيّ شاعر مشهور رغم أنَّه كان رجلا بسيطا، "وكان أميًّا لا يتهجَّى ولا يكتب، وكان يخبز خبز الأرز بمربد البصرة في دكان، وكان ينشد أشعاره المقصورة على الغزل، والنَّاس يزدحمون عليه ويتطرَّفون باستماع شعره ويتعجَّبون من حاله وأمره."[6]

---

[1] – يُنظر ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي– العصر العباسي الثاني، ص359-362.

[2] – الصنوبري، الدّيوان، ص79.

[3] – المرجع نفسه، ص453.

[4] – نفسه، ص223.

[5] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص34.

[6] – ابن خلّكان أبو العباس شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1977م، ج5، ص376.

وقد كان الخبزأرزي رقيق الشعر سهل التراكيب مع شيء من اللِّين والضعف، إلَّا أنَّ شعره رُزِقَ سيرورة وشهرة في أيَّامه لموافقة معانيه وتراكيبه لهوى العامّة، وكذلك مال إليه الخاصَّة استظرافًا لما يقول. قال محقِّق ديوانه: "وشعر الخبزأرزي يُمثِّل الممتنع بأجلى نماذجه وأصدق مصاديقه، فهو رقيق الدّيباجة، سلس الألفاظ، بسيط التَّراكيب، ويبدو على بعضه بوضوح أنَّه من وحي السَّاعة وفيض الخاطر ارتجالا أو ما يُشبه الارتجال."[1]

أمَّا ما تناوله ابن شرف من نقد خلقي للخبزأرزي، فيتمثَّل في قوله: (خليعُ الشِّعر ماجنُه)، ومع أنِّي وقفت على بعض الكتب التي ترجمت للخبزأرزي، إلَّا أنِّي لم أجد من يُشير إلى خلاعة شعره ومجونه، بل على العكس تمامًا، فقد ذكروا طرافته وظرافته ورقَّة شعره وسهولته. فما كان منِّي إلَّا أن أتفحَّص وأتمعَّن الدِّيوان جيِّدًا، لأقف على حقيقة هذه المسألة. وبالفعل فقد وقفت على أبيات تقطر وتفوح عربدة ومجونًا وخلاعة، ومن ذلك قوله مستخفًّا بالله وبحَرَمِه:

لَـــوْ كـــانَ فـــي حَـــرَمِ الإلَـــهِ عِنَاقُنَـــا ... ولِثَامُنَـــا مـــا كـــانَ ذاكَ جُناحَـــا

لـــو شـــاءَ ربِّـــي أن يعُـــفَّ عِبـــادَهُ ... مـــا كـــانَ يَخْلُـــقُ فـــي الأنَـــامِ مِلاحَـــا[2]

وقال يُراود غلامًا جميلا عن نفسه، حتَّى نال منه ما أراد:

فَلَـــــمْ أَزَلْ بِالـــــرُّقَى أُدَرِّجُـــــه ... حتَّـــى إذَا لَانَ حـــلَّ لـــي الـــمِئْزَرْ

فَبِـــتُّ فـــي ليلـــةٍ نَعِمْـــتُ بهَـــا ... بطِيـــبِ عَـــيشٍ مـــن الفَتَـــى الأقْمَـــرْ[3]

ثمَّ أيُّ مجون وتخالع عندما يصف لهوه وعبثه مع محبوبته، ثم يذكر أنَّ هذا من نِعم الله الواجبة الحمد والشكر، فيقول:

فَبِتْنَـــا بِلَيْـــلٍ كـــانَ مـــن طِيـــبِ عَيْشِـــهِ ... وتَخْلِيـــدِ ذِكْـــرَاهُ جَنَـــى جَنَّـــة الـــخُلْدِ

وَأَفْـــرُكُ رُمَّـــانَ الصُّـــدُورِ وَأَكْتَفِـــي ... بِـــوَرْدٍ جَنِـــيٍّ فـــي الخُـــدُودِ عَـــنِ الـــوَرْدِ

فَكَـــمْ نِلْـــتُ نُعْمَـــى أَحْمَـــدُ اللهَ عِنْـــدَهَا ... وَقَـــدْ تَعِـــبَ الشَّـــيْطَانُ فِيهَـــا بـــلا حَمْـــدِ[4]

ثمَّ يتباهى بمجونه وفسقه، فيذكر أنَّه قد تفوَّق على إبليس في الإغواء والفسق وتزيين الفواحش والمنكرات، فيقول:

ولَـــمْ يَنْتَفِـــعْ بِـــي غَيـــرُ إبلـــيسَ وحْـــدَهُ ... وإنْ مِـــتُّ لَـــمْ يَظْهَـــرْ علَـــى غَيْـــرِهِ فَقْـــدِي

وكثيرًا ما وظَّف واستحضر الشاعر في غزله صورة سيِّدنا يوسف**عليه السَّلام** ليدلَّ من خلال ذلك على جمال محبوبته، وفي هذا انتقاص من قدر سيِّدنا يوسف **عليه السَّلام**، وإمعان في المجون، ومن ذلك قوله:

شَـــمْسُ النَّهَـــارِ تَغَيَّبَـــتْ مِـــنْ نُـــورِهِ ... وتَطَيَّـــبَ الـــمِسْكُ الـــذَكِيُّ بِسُـــوْرِهِ

والبَـــدْرُ لَـــيْسَ ضِـــيَاؤُه كَضِـــيَائِه ... عِنْـــدَ التَّمَـــامِ ولَا كَعُشْـــرِ عَشِـــيرِهِ

---

[1] – الخبزأرزي، نصر بن أحمد، الدّيوان، تح: محمد حسن آل ياسين، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، العراق، ج1، مج40، 1989م، ص95.

[2] – المرجع نفسه، ص119.

[3] – نفسه، ص170.

[4] – نفسه، ص131-132.

[5] – نفسه، ص132.

لَسْـــنَا نَشُـــكُّ ولا يَشُـــكُّ أَخُـــو حِجًـــى فـــي أنَّ يُوسُـــفَ لَـــمْ يَكُـــنْ بِنَظِيـــرِهِ[1]

وكذلك يستحضر صورة سيّدنا سليمان **عليه السَّلام** مع بلقيس، في سياق حديثه عن جمال محبوبته ومفاتنها، فيقول:

لَـــوْ أَنَّ سُـــلَيْمَانَ الـــنَّبِيَّ يَخَالُهَـــا تَوَهَّمَهَـــا بِلْقِـــيسَ فَـــوْقَ سَـــرِيرِهَا[2]

هذا المذكور من شعر الخبزأرزي، أمَّا ما سُتر فهو أعظم، فقد حذف المحقِّق بعض الألفاظ من بعض الأبيات الشعرية تحرُّجًا وحياءً من القارئ، وفِرارًا من بذاءة اللفظ وفُحش المعنى. ونحن بدورنا لا يسعنا إلَّا أن نُعرِض عنها، ونكتفي بالإشارة إليها في مظانِّها في الدِّيوان، وهي موضَّحة في الجدول الآتي:

رقم القصيدة	رقم البيت	الصفحة
58	3	165
138	3	135-134
178	3	151
210	3	194

– نقد ابن عبد ربَّه القرطبي:

وهنا ينتهي الحديث عن شعراء المشرق، وينتقل الحديث إلى شعراء المغرب، فيذكر ابنُ شرف منهم: ابنَ عبد ربّه القرطبي، فيقول عنه: "..فقد وقفنا على أشعار صبوته الأنيقة، وتكفيرات توبته الصَّدوقة، ومدائحه المروانيَّة، ومطاعنه في العبَّاسية."[3]، فقد امتاز أحمد بن محمد بن عبد ربّه صاحب كتاب (العقد الفريد)، بسعة الاطِّلاع في العلم والرِّواية والشعر. وكان شاعرًا مذكورًا، ولكنَّه غلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها. له شعر كثير، منه ما سمَّاه (الممحِّصات)، وهي قصائد ومقاطيع في المواعظ والزُّهد، نقض بها كلَّ ما قاله في صباه من الغزل والنَّسيب. أمَّا كتابه (العقد الفريد) فمن أشهر كتب الأدب التي جمعت الأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض والموسيقى.

وابن شرف يُشير إلى (أشعار صبوته)، والتي كانت في فترة الشباب وما يلحق بها، حيث قال شعرًا كثيرًا في الغزل والتَّصابي. و(تكفيرات توبته الصَّدوقة)، والتي قالها بعد أن أدركته الشيخوخة، فقد زهد الدنيا ومتاعها الزَّائل، وندم على ما قدَّم في حياته، فأنشأ العديد من القصائد أطلق عليها (الممحِّصات)، وذلك أنَّه محَّص شعر شبابه، ونقض كلَّ قطعة قالها في الصَّبابة والغزل بقطعة أخرى من بحرها وقافيتها في المواعظ، وهو مذهب لم يسبق إليه أحد في مثل تلك الصورة.

[1] – الخبزأرزي، الدّيوان ، ص175.

[2] – المرجع نفسه، ص206.

[3] – ابن شرف القيرواني، رسائل الانتقاد، ص36.

يقول أحمد يزن: "كان ابنُ عبد ربّه في شبابه مُحبًّا للمتعة في شيء من التحرُّر، لكنَّه زهد في أخريات حياته، فسجَّل ذلك في (المُمحِّصات) التي كفَّر بها عمَّا كان صدر عنه من أشعار في أيَّام لهوه."[1]، وإن كان الدكتور إحسان عباس يرى أنَّ ابن عبد ربّه لم يقع في الآثام، ولم يُخالف الدِّين في السلوك، ولم يرتكب المحرَّمات أو يتعاطاها. فهو"لم ينتشل نفسه في المرحلة الثانية من ذنوب وآثام أقضَّت مضجعه في المرحلة الأولى، أعني أنَّ تجربته في الحالتين كانت تجربة كلامية، وكانت صورتها هذا الفيض الكثير من النَّظم، ونقرأ شعره في الزُّهد وذمِّ الحياة فلا نجد إحساسًا حقيقيًّا بمعنى الخوف، ولا تشفُّ إلَّا قطع قليلة عن الصِّدق العاطفي في هذه النَّاحية."[2]، وصحيح أنَّ ابن عبد ربّه لم يكن في شبابه عربيدًا ماجنًا، إلَّا أنَّ هذا لا ينفي صدق توبته وندمه، فهو يرى أنَّ ما قاله في شبابه من غزل وتصابٍ يُعدُّ من الآثام والذنوب التي تُوجب التوبة، ولو كانت من الصَّغائر أو اللَّمم. لهذا يرى ابن شرف أنَّ ممحِّصاته كانت تكفيرات صدوقة لأشعار صبوته.

ويحسن بنا أن نذكر مثالًا يجمع بين شعر التَّصابي وشعر التَّمحيص عند ابن ربّه، فهو يقول في بعض من كان يألفه وقد أزمع على الرَّحيل في غداة ذكرها، فأتت السَّماء في تلك الغداة بمطر غزير حال بينه وبين الرَّحيل، فكتب:

هَـــلَّا ابْتَكَـــرْتَ لِبَيْـــنٍ أَنْـــتَ مُبْتَكِـــرُ هَيْهَـــــاتَ يَأْبَـــــى اللهُ وَالقَـــــدَرُ
مَـــا زِلْـــتُ أَبْكِـــي حِـــذَارَ البَـــيْنِ مُلْتَهِفًـــا حَتَّـــى رَثَـــى لِـــي فِيـــكَ الـــرِّيحُ وَالمَطَـــرُ
يَـــا بَـــرْدَهُ مِـــنْ حَيَـــا مُـــزْنٍ عَلَـــى كَبِـــدٍ نِيرَانُهَـــا بِغَلِيـــلِ الشَّـــوقِ تَسْتَعِـــرُ
آلَيْـــتُ أَلَّا أَرَى شَمْسًـــا وَلَا قَمَـــرًا حَتَّـــى أَرَاكَ فَأَنْـــتَ الشَّـــمْسُ وَالقَمَـــرُ![3]

فكتب في شيخوخته قصيدة محَّص بها القطعة المذكورة، ضمَّنها مواعظ ونصائح كثيرة، فيقول:

يَـــا عَـــاجِزًا لَـــيْسَ يَعْفُـــو حِـــينَ يَقْتَـــدِرُ وَلَا يُقَضَّـــى لَـــهُ مِـــنْ عَيْشِـــهِ وَطَـــرُ
عَـــايِنْ بِقَلْبِـــكَ إِنَّ العَـــينَ غَافِلَـــةٌ عَـــنِ الحَقِيقَـــةِ وَاعْلَـــمْ أَنَّهَـــا سَـــقَرُ
سَـــوْدَاءُ تَزْفُـــرُ مِـــنْ غَـــيْظٍ إِذَا سُـــعِرَتْ لِلْظَـــالِمِينَ فَمَـــا تُبْقِـــي وَلَا تَـــذَرُ
إِنَّ الَّـــذِينَ اشْـــتَرَوا دُنْيَـــا بِـــآخِرَةٍ وَشِـــقْوَةً بِنَعِـــيمٍ سَـــاءَ مَـــا تَجَـــرُوا
يَـــا مَـــنْ تَلَهَّـــى وشَـــيْبُ الـــرَّأْسِ يَنْدُبُـــهُ مَـــاذَا الَّـــذِي بَعْـــدَ شَـــيْبِ الـــرَّأْسِ تَنْتَظِـــرُ
لَـــوْ لَـــمْ يَكُـــنْ لَـــكَ غَيـــرُ الـــمَوْتِ مَوْعِظَـــةٌ لَكَـــانَ فِيـــهِ عَـــنِ اللَّـــذَّاتِ مُزْدَجَـــرُ
أَنْـــتَ الـــمَقُولُ لَـــهُ مَـــا قُلْـــتُ مُبْتَـــدِئًا هَـــلَّا ابْتَكَـــرْتَ لِبَـــيْنٍ أَنْـــتَ مُبْتَكِـــرُ؟[4]

[1] – يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص374.
[2] – عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي– عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1969م، ص195–196.
[3] – ابن عبد ربّه القرطبي، الدّيوان، تح: محمد رضوان الدَّاية، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1979م، ص70.
[4] – المرجع نفسه، ص71.

وأمَّا قول ابن شرف: (ومدائحه المروانيَّة، ومطاعنه في العبَّاسية)، ففيه إشارة إلى أنَّ ابن عبد ربّه كان وثيق الصِّلة بالأمراء المروانيين في الأندلس، وكان ولاؤه لهم، واعتقاده بأحقِّيتهم في الخلافة دون العبَّاسيين. ودون شكٍّ فإنَّ مدائحه للمروانيين قلبت حياته رأسًا على عقب، فقد بدأ حياته بسيطًا مغمورًا، وأصبح بعد اتِّصاله بالبيت المرواني معروفًا مشهورًا. وما نستخلصه أنَّه كان من الشعراء المتكسِّبين بشعرهم بمدحه الأمراء والقوَّاد والوزراء وغيرهم، وعُدَّ بذلك أحد الذين أثْروا بأدبهم بعد الفقر. يقول محقِّق ديوانه: "وشعره في أمراء بني مروان وقوَّادهم ووزرائهم...داخلٌ في جملة المديح المعروف في الشِّعر العربي، من حيث كونه شعر مناسبات، مقصودًا به الثَّناء، والوَلاء، ونيل الأعطيات."[1]

– نقد ابن هانئ الأندلسي:

وأمَّا ابنُ هاني الأندلسي وِلادةً، القيرواني وِفادةً وإفادةً، "فله غزلٌ قفري، لا عذري؛ لا يقنع فيه بالطَّيف، ولا يشفع فيه بغير السَّيف، من رجل يستعين على صلاح دُنياه بفساد أُخراه؛ لرداءة عقله، ورقَّة دينه، وضَعْف يقينه. ولو عَقَل لم تضق عليه معاني الشِّعر، حتَّى يستعين عليها بالكُفر."[2]،

فابن شرف يُشير أوَّلا إلى غزل ابن هاني، والذي عدَّه غزلا قفريًّا لا عذريًّا؛ ذلك أنَّ شعر ابن هاني كان قفرًا من الغزل، باستثناء بعض المقطَّعات القصار التي دُفع إليها دفعًا مراعاة للتقليد ومجاراة للأقدمين، ومن جهة أخرى فقد كان غزله قفرًا ممَّا يجب مراعاته وما هو مألوف في الغزل التقليدي، من حيث رقَّة الألفاظ، ولطافة وقعها، وعمق المشاعر وصدقها، فاستعمل ألفاظًا هي بوصف معركة وقتال أحقُّ من وصف حالة عشق وغرام. وهذا ما جعل بعض النقاد والدَّارسين يخلصون إلى أنَّ ابن هاني "لم يعرف الحبَّ، ولم يتذوَّق لذائذه ومرارته، ولم يشعر فؤاده بخفقان عند مرأى المحبوبة، كما كان يحدث لبعض الشعراء."[3]

وهذا ما رمى إليه ابن شرف بقوله (له غزلٌ قفري، لا عذري)، أي أنَّ غزله يفتقر للمشاعر والعواطف الخالصة الصادقة، كما افتقر من الألفاظ الرقيقة العذبة الحلوة. ونستطيع أن نخلص إلى ما خلُص إليه الدكتور منير ناجي، حين قال في سياق حديثه عن الغزل عند ابن هاني الأندلسي: "ولا أرى في كلِّ هذه المواقف التي يتصنَّعها الشاعر إلاَّ تزيينًا للعاطفة، فمعالم الحبِّ الخالص لا تبين، فمشاعره متصنِّعة، وعواطفه متكلِّفة، وهو في كلِّ هذا إنَّما تدعوه الصَّنعة فيستجيب للتقليد المتَّبع، فيُجيد أحيانًا ويقصر أحيانًا أخرى."[4]

أمَّا النقد الخلقي لابن هاني، فيتجلَّى في قول ابن شرف: (من رجل يستعين على صلاح دُنياه بفساد أُخراه؛ لرداءة عقله، ورقَّة دينه، وضَعْف يقينه. ولو عَقَل لم تضق عليه معاني الشِّعر، حتَّى يستعين عليها بالكُفر)، وفي هذا إشارة إلى تلك الأبيات التي قالها ابن هاني في بعض ممدوحيه، وخاصَّةً المُعِزِّ لدِّين الله الفاطمي، والتي أراد بها الشاعر صلاح

---

[1] – ابن عبد ربّه القرطبي، الدّيوان، مقدِّمة المحقّق، ص8.

[2] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص36-37.

[3] – ناجي منير، ابن هانيء الأندلسي درس ونقد، دار النشر للجامعيين، بيروت، لبنان، ط1، 1962م، ص183.

[4] – المرجع نفسه، ص188.

دنياه بالتودُّد والتقرُّب للممدوح والظَّفر بعطاياه، تُحرِّكه شهوات الطَّمع والرغبة والحرص، في حين أنَّه أفسد آخرته وأهلك نفسه؛ لأنَّ ما جاء في هذه الأبيات يُعتبر كُفرًا بواحًا، ومن ذلك قوله مخاطبًا المعزَّ لدّين الله الفاطمي:

مَـــا شِـــئْتَ لا مَـــا شَـــاءَتِ الأقْـــدَارُ فَـــاحْكُمْ فَأنْـــتَ الوَاحِـــدُ القَهَّـــارُ
وَكَأنَّمـــا أنـــتَ النبـــيُّ محمَّـــدٌ وكأنَّمـــا أنْصَـــارُكَ الأنْصَـــارُ
أنـــتَ الَّـــذي كَانـــتْ تُبشِّـــرنَا بـــهِ فـــي كُتْبِهـــا الأحْبَـــارُ والأحْبَـــارُ
هـــذا إمـــامُ المتَّقـــينَ ومـــنْ بـــهِ قَـــدْ دُوِّخَ الطُّغيـــانُ والكُفَّـــارُ
هـــذا الَّـــذي تُرْجَـــى النَّجَـــاةُ بحبِّـــهِ وبـــه يُحَـــطُّ الإصْـــرُ والأوْزَارُ
هـــذا الَّـــذي تُجْـــدِي شَـــفَاعَتُه غَـــدًا حَقًّـــا وَتَحْمُـــدُ أَنْ تَـــرَاهُ النَّـــارُ[1]

وجاء في قصيدة أخرى يمدح المعزَّ، ويُقال إنَّ هذه القصيدة أوَّلُ شعر مدحه به:

يُمْضِـــي المنَايَـــا والعَطَايَـــا وَادِعًـــا تَعِبَـــتْ لـــه عَزَمَاتُـــه وأُرِيحَـــا
نَـــدْعُوهُ مُنْتَقِمًـــا عَزِيـــزًا قَـــادِرًا غَفَّـــارَ مُوبِقَـــةِ الـــذُّنُوبِ صَـــفُوحَا
أخْشَـــاكَ تُنْسِـــي الشَّـــمْسَ مَطْلَعَهَـــا كَمَـــا أَنْسَـــى الملاَئِـــكَ ذِكْـــرُكَ التَّسْـــبِيحَا
صُـــوِّرْتَ مِـــنْ مَلَكُـــوتِ ربِّـــكَ صُـــورَةً وأمَـــدَّهَا عِلْمًـــا فَكُنْـــتَ الرُّوحَـــا[2]

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من تطاول على ذات الله عزَّ وجلَّ؛ بأن أصبغ ممدوحه بصفات هي لله وحده، كذلك التطاول على النبيِّ محمَّد ﷺ بأنْ أنزل ممدوحه منزلة النبيِّ ﷺ، والتطاول أيضًا على الملائكة الكرام، وكلُّ هذا كلام كفر وزندقة، لا يجوز للمسلم أن يقوله أو يعتقده. قال ابن كثير فيه: "وقد كان قويَّ النَّظم إلاَّ أنَّه كفَّره غيرُ واحد من العلماء في مبالغته في مدحه الخلق، فمن ذلك قوله يمدح المعزَّ:

مَـــا شِـــئْتَ لا مَـــا شَـــاءَتِ الأقْـــدَارُ فَـــاحْكُمْ فَأنْـــتَ الوَاحِـــدُ القَهَّـــارُ

وهذا من أكبر الكفر ."[3]

والذي جعل ابن شرف ينقد ابن هانئ هذا النقد العنيف واللاَّذع، هو هذا التجاوز والغلوّ في المدح الذي أوصله إلى تشبيه بعض ممدوحيه بذات الله عزَّ وجلَّ وبالأنبياء والرُّسل عليهم السَّلام، وهذا دون شكٍّ مرفوض وممقوت، بل ويُعتبر من الكفر الذي يجب أن يُستتاب منه صاحبه. وما نستطيع الجزم به أنَّ ابن هاني كان من أولئك الشعراء الذين أفسدوا غرض المدح وأخرجوه عن طبيعته الحقيقية ومفهومه الصحيح. ومن المعروف لدى النقَّاد أنَّ المديح من أكثر أغراض الشعر التي أصابها الانحراف الدِّيني والخلقي والفنِّي، بسبب ما دخله من كذب وتملُّق وغلوٍّ، وكانت مثل هذه النَّماذج التي يظنُّ أصحابها أنَّها مدح سببَ ترفُّع الكثير من الشعراء عن المديح، وخاصَّة مديح التكسُّب، إذْ عدَّوه منقصة

[1] – ابن هاني، أبو القاسم محمد الأزدي الأندلسي، الديوان، تح: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1980م، ص146.
[2] – المرجع نفسه، ص71و74.
[3] – ابن كثير الحافظ إسماعيل بن عمر، البداية والنِّهاية، تح: هيئة من العلماء بدار النشر، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، دط، 1991م، ج11، ص274.

للمروءة والكرامة، ومُذهبًا لماء الوجه. فابن هاني قد أزرى بغرض المدح، وقبل هذا وبعده أزرى بنفسه وحطَّ من شعره، يقول منير ناجي: "المدح هو الفنُّ الشعري الذي قامت عليه شهرة ابن هاني، وأمَّا الفنون الشعرية الأخرى فلم يُولها أهميةً، ممَّا يجعلنا لا نرى في شعره كبير فائدة، وكأنِّي به لم يعش إلَّا مُتزلِّفًا مُتذلِّلًا، يطرق الأبواب مستجديًا يبيع شعره، بل يبيع ذاتيته في سبيل ما يحصل عليه من الممدوح، أو كأنَّ العزَّة لم تعرف إلى نفسه سبيلا، فعاش حياته طارقًا بابًا وسائلًا نوالًا..فأغرق في المديح، وألحف في السُّؤال، فخَفِيتْ معالم نفسه في التذلُّل، ودَرَسَتْ مظاهرها في التزلُّف .. ودفعه ذلك الحرصُ على جمع المال إلى المبالغة المقيتة، والغلوِّ المُشين."[1]

وهكذا نجد أنَّ المعيار الأخلاقي كان حاضرًا في أحكام ابن شرف النقدية، سواء كانت هذه الأحكام تتعلَّق بالشاعر أو شعره. ولكنَّ ما يستوقفنا ويُثير انتباهنا بعض الشيء هو موقف ابن شرف من أبي نواس والمتنبي وشعرهما، فالنظرة الموجَّهة إليهما كانت فنِّيةً خالصة؛ فأبو نواس: "أوَّلُ النَّاس في خَرْمِ القياس، وذلك أنَّه ترك السِّيرة الأولى، ونكَّب عن الطريقة المثلى؛ وجعل الجِدَّ هَزْلًا، والصَّعْبَ سَهْلًا؛ فَهَلْهَل المسرَّد، وبَلْبَلَ المنضَّد، وخَلْخَل المنجَّد؛ وترك الدَّعائم، وبنى على الطَّامي والعائم."[2]

ويُعلِّل ابن شرف ذلك بأنَّ أبا نواس قد"صَادفَ الأفهام قد نكلتْ، وأسباب العربية قد تخلخلتْ وانحلَّتْ، والفصاحات الصَّحيحة قد سُئِمتَ ومُلَّتْ؛ فمَالَ النَّاس إلى ما عَرفُوه، وعَلقتْ نفوسُهم بما ألِفُوه. فتهادَوا شِعرَه، وأغْلَوا سِعْرَه؛ وشُغِفُوا بأسْخَفِه، وكَلِفُوا بأضْعفِه. وكان سَاعدُه أقوى، وسِراجُه أضْوَى، لكنَّه عرض الأنفق، وأهدى الأوفق؛ وخالف فشُهِرَ وعُرِفَ، وأغْرَبَ فذُكِر واستُظرِفَ."[3]، ولهذا كانت النتيجة كما يراها ابن شرف، أنَّ شعره "نَافِقٌ عند هذه الأجناس، كَاسِدٌ عند أنقد النَّاس."[4]

وما يعنينا هنا أنَّ شعر أبي نواس عليه مآخذ كثيرة إذا ما احتكمنا إلى المعيار الأخلاقي، فله شعر كثير في اللَّهو والعبث والمجون، وفي وصف الخمر والغزل بالغلمان، والأدهى من ذلك كلِّه شعره الذي يدلُّ على معتقد باطل ودين فاسد، وتطاوله على ذات الله عزَّ وجلَّ، وانتقاصه من قدر النبيِّ ﷺ، ممَّا جعل بعض العلماء يُكفِّرونه ويتَّهمونه بالزندقة. قال ابن قتيبة: "وممَّا كُفِّر فيه، أو قارب، قوله:

تُعلِّلُ بالمُنَى إذْ أنْتَ حيٌّ وبعدَ الموتِ من لبنٍ وخَمْرِ
حَياةٌ ثمَّ مَوْتٌ ثمَّ بَعْثٌ حَدِيثُ خُرافةٍ يا أُمَّ عَمْرِو

وقوله في محمد الأمين:

---

[1] – ناجي منير، ابن هانيء الأندلسي درس ونقد، ص125-126.

[2] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص30.

[3] – المصدر نفسه، ص30-31.

[4] – نفسه، ص31.

تَنَـــازعَ الأحْمَـــدانِ الشِّـــبْهَ فَاشْـــتَبَهَا خَلْقًـــا وخُلُقًـــا كَمَـــا قُـــدَّ الشِّـــرَاكَانِ
مِـــثْلانِ لاَ فَـــرْقَ فـــي الـــمَعْقُولِ بَيْنَهُمَـــا مَعْنَاهُمَـــا واحِـــدٌ وَالعِـــدَّةُ اثْنَـــانِ[1]

وقال المرزباني: "وممَّا أُنكِرَ على أبي نواس قوله:

يـــا أحْمَـــدُ الـــمُرْتَجَى فـــي كُـــلِّ نَائِبَـــةٍ قُـــمْ سَـــيِّدِي نَعْـــصِ جَبَّـــارَ السَّـــمَواتِ

لأنَّ هذه أعظمُ جُرأة، وأقبحُ مجاهرة، وأشدُّ تبغُّضٍ إلى العزيز الجبَّار عزَّ وجلَّ أن يقول:(نعص جبَّار السَّموات) فذكر المعصية مع ذِكر الجبَّار –عزَّ اسمه– وأنَّه إيَّاه يقصد بالعصيان."[2]، وقد هاجم أبو عُبيد البكري أبا نواس لقوله:

بَـــاحَ لِسَـــاني بِمُضْـــمَر السِّـــرِّ وَذَاكَ أنِّـــي أَقُـــولُ بالـــدَّهْرِ
ولَـــيْسَ بَعْـــدَ الـــمَمَاتِ مُنْقَلَـــبٌ وإنَّمَـــا الـــمَوتُ بَيْضَـــةُ العُقْـــرِ

وقال: هذا شعرُ دهريٍّ زنديق.[3]

– نقد المتنبيّ:

ويختلف الأمر قليلا مع المتنبي، فهو كما يرى ابن شرف: "قد شُغِلَت به الألسُنُ، وسَهَرت في أشعاره العُيونُ الأعينُ؛ وكَثُر النَّاسخُ لشعره، والآخذُ لذكره، والغائصُ في بحره؛ والمفتِّشُ في قعره، عن جُمانِه ودُرِّه؛ وقد طال في الخُلْف، وكَثُر عنه الكَشْفُ. وله شيعةٌ تغلو في مدحه، وعليه خوارج تتعايا في جَرْحه. والذي أقولُ: إنَّ له حسنات وسيئات، وحسناتُه أكثرُ عددًا، وأقوى مددًا؛ وغرائبُه طائرة، وأمثالُه سائرة؛ وعلمُه فسيحٌ، ومَيْزُه صحيح؛ يرومُ فيقدر، ويدري ما يُورد ويُصدر."[4]، ويقول في موضع آخر: "وكان لحنُه وشعره شريفين، وعقله ودينُه ضعيفين. ومع ذلك فسقطاتُه كثيرة إلاَّ أنَّ محاسنه أكثر وأوفر، والمرء يعجز لا محالة "[5]، وهذا صحيح، فلم ينشغل النَّاس بأحد من الشعراء كما انشغلوا بالمتنبي، ويُؤكِّد هذا الرَّأي قول ابن رشيق: "...ثمَّ جاء المتنبي فملأ الدُّنيا وشغل النَّاس"[6]، ولم يختلف النقاد أيضًا – قُدامى ومعاصرين–حول شاعر كما اختلفوا حول المتنبي، وكنتيجة لذلك أُثْرِيت المكتبة الأدبية، وخاصَّة النقدية منها بعشرات الكتب والدراسات–القديمة والحديثة–حول شعر المتنبي، شرحًا وتفسيرًا ونقدًا وتحليلاً، ويكفينا قول ابن خلكان، –وهو يتحدَّث عن ديوان المتنبي– دليلاً وبرهانًا، حيث يقول: "واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه، وقال لي أحدُ

[1] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص551.
[2] – المرزباني، الموشَّح، ص339.
[3] – الأونبيُّ أبو عُبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، تح: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1935م، مج1، ج1، ص523.
[4] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص35.
[5] – المصدر نفسه، ص62.
[6] – ابن رشيق، العمدة، ج1، ص86.

المشايخ الذين أخذتُ عنهم: وقفتُ له على أربعين شرحًا ما بين مطوَّلات ومختصرات، ولم يُفعَل هذا بديوان غيره، ولا شكَّ أنَّه كان رجلاً مسعودًا ورُزِقَ في شعره السَّعادة التَّامة."[1]

وقد وصل الأمر بالنقاد في خلافهم واختلافهم حول المتنبي وشعره إلى ظاهرة مستقلَّة في تاريخ النقد العربي القديم، سرعان ما تطوَّرت وأصبحت خصومة ومعركة بين فريقين: فريق مناصر ومُؤيِّد ومُعجب به، كابن جنّي والثعالبي والمعرّي وابن فُورَّجة، وفريق معارض وناقم وكاره له، كابن وكيع التنيسي والحاتمي وابن عبَّاد والعميدي. حتَّى ظهر بعد ذلك فريقٌ ثالث حاول التوسُّط والوساطة بين الفريقين، ومنهم القاضي الجرجاني، الذي وصف هذا الحال في وساطته قائلاً: "وما زلتُ أرَى أهْلَ الأدَب–منذ ألحقَتْني الرَّغبةُ بجُملتِهم، ووصَلَتْ العنايةُ بيني وبينهم–في أبي الطيِّب أحمد بن الحسين المتنبي فئتين: مِن مُطنبٍ في تقريظه، مُنقطعٍ إليه بجُملتِه، مُنحطٍّ في هواه بلسانه وقلبه، يلتقي مَناقِبَه إذا ذُكِرت بالتَّعظيم، ويُشيع محاسِنَه إذا حُكِيت بالتَّفخيم، ويُعجَب ويُعيد ويُكرِّر، ويميل على مَنْ عَابَه بالزِّراية والتَّقصير، ويتناول من يُنقِصُه بالاستحقار والتَّجهيل؛ فإنْ عثَر على بيت مختلِّ النظام، أو نَبِه على لفظ ناقص عن التَّمام التزم من نُصرة خَطئه، وتحسين زلَلِه ما يُزيلُه عن موقف المعتذِر، ويتجاوز به مقام المنتصر. وعَائبٍ يرومُ إزالتَه عن رُتبته، فلم يُسلِّم له فَضْلَه، ويحاول حطَّه عن منزلةٍ بوَّأه إيَّاها أدبُه؛ فهو يجتهدُ في إخفاء فضائلِه، وإظهارِ مَعايبِه، وتتبُّعِ سَقطَاتِه، وإذاعةِ غَفلاتِه. وكلا الفريقين إمَّا ظالمٌ له أو للأدَب فيه."[2]

وأغلب النقد الذي دار حول المتنبي كانت أسبابه –في الغالب– شخصيَّة، ثم وجد الخصوم والكارهون له في شعره ما يُغري بالنقد، "فهو بتعاليه وترفُّعه وشموخه قد أثار الضغائن في خصومه، وكذلك صدم أذواقهم بجرأته في الشِّعر، وجعلهم يبحثون عن سقطاته الشعرية من مبالغات تمسُّ العقيدة الدينية، وآراء فلسفية غربية، وأخطاء في النحو، واقتباس آراء أرسطو وحكمه. وقد دارت هذه المعركة النقدية في معظمها حول سرقاته من الشعراء السَّابقين."[3]

وما يعنينا هنا هو الوقوف عند سقطات المتنبّي التي مسَّت الدِّين والأخلاق، والتي كانت محلَّ نقد من طرف نقَّاد الشِّعر. ومن ذلك أنَّ ابن عبَّاد قد نقد في أكثر من موضع بعض شعر المتنبي نقدًا دينيًّا وخلقيًّا، ومنه نقده للبيت الذي يقول فيه:

لـــو اســـتطعتُ ركبـــتُ النَّـــاسَ كلَّهـــم إلـــى ســـعيد بـــن عبـــد الله بُعرانـــا

فقال الصَّاحب: "وفي النَّاس أمُّه فهل ينشط لركوبها؟ وكذلك الممدوح لعلَّ له عصبة لا يُحبُّ أن يُركبوا إليه. فهل في الأرض أفحش من هذا التَّسخُّب، وأوضع من هذا التبسُّط؟"[4]، ثم قال: "وكانت الشعراء قبله –أي المتنبي– لا تصف المآزر تنزيهًا لألفاظها عمَّا يُستبشع حتَّى تخطَّى هذا الشاعر إلى التَّصريح الذي لا يهتدي إليه غيره، فقال:

---

[1] – ابن خلِّكان، وفيات الأعيان، ج1، ص121.

[2] – الجرجاني عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص12.

[3] – أبو زيد يوسف سامي، النقد العربي القديم، ص191.

[4] – الصَّاحب بن عبَّاد، الكشف عن مساوئ شعر المتنبي، ص74، والبيت في الديوان، ص185.

إنِّـــي علـــى شـــغفي بمـــا فـــي خُمرهـــا لأعـــــفُّ عمَّـــــا فـــــي ســـــراويلاتِها

وكثيرٌ من العُهر أحسن من عفافه هذا "[1]. وشرح ابن سيدة بيت المتنبي، مُنكرًا معناه:

طلبْنَـــــا رضـــــاه بتَـــــرْكِ الـــــذي رَضـــــينَا لـــــه فتَركْنـــــا السُّـــــجُودَا

فقال: "أي رضينا أن نسجد له إذا رأيناه إكبارًا له وإيثارًا، إلاَّ أنَّه لا يُريد ذلك منَّا؛ لأنَّ هذا إنَّما ينبغي لله عزَّ وجلَّ، فطلبنا نحن حينئذٍ رضاه بتركنا السُّجود الذي ترضَّينا له. فقد مدح بدرًا هنا بشيئين: أحدهما جلالة القدر حتَّى رُئِيَ أهلاً للسجود له، والآخرُ تورُّع بدر عن هذا الذي رضيه المتنبي. قُبحًا لكلامه، ونَهْرًا في هذا الموضع وأشباهه لنُظَّامه "[2]، وأمَّا ابن وكيع فقد أخذ على المتنبي قوله:

يـــا أيُّهـــا المَلـــكُ المصَـــفَّى جَـــوهرًا مـــن ذَاتِ ذي المَلَكـــوتِ أسْـــمَى مَـــنْ سَـــمَا

نُـــــورٌ تَظَـــــاهَرَ فِيـــــكَ لاهوتِيَّـــــةً فتكـــادُ تعْلَـــمُ عِلْـــمَ مـــا لـــن يُعْلمـــا

وقال: "هذا مدحٌ متجاوزٌ، وفيه قلَّة ورعٍ، وترك للتحفُّظ، لأنَّه جعله من ذات الباري، وذكر أنَّه قد حلَّ فيه نورٌ لاهوتي."[3]، وعاب عليه قوله أيضًا:

أيَّ محـــــــــــلٍّ أرتقـــــــــــي أيَّ عظـــــــــــيمٍ أتَّقـــــــــــي

وكـــــلُّ مـــــا قـــــد خلـــــق الله ومـــــا لـــــم يخلُـــــقِ

مُحْتقَـــــرٌ فـــــي هِمَّـــــتي كَشَـــــعْرَةٍ فـــــي مَفْرَقِـــــي

وقال: "هذه أبياتٌ فيها قلَّة ورعٍ؛ احتقر ما خلق الله عزَّ وجلَّ، وقد خلق الأنبياء والملائكة والصَّالحين، وخلق الجنَّ والملوك والجبَّارين، وهذا يُجاوز في العُجب الغاية، ويزيد على النِّهاية. وقد تهاون بما خلق الله وما لم يخلق، فكأنَّه لم يستعظم شيئًا ممَّا خلق الله، وهو من خلق الله عزَّ وجلَّ الذي جميعه عنده كشعرة في مفرقه. وهذا ممَّا لا أُحبُّ إثباته في ديوانه لخروجه عن حدِّ الكِبْر إلى حدِّ الكفر."[4]، وينقد بيتًا آخر للمتنبي، يقول فيه:

فجعلـــــتُ رَدِّي عِرْسَـــــه كَفَّـــــارَةً مـــــن شُـــــرْبِها وشَـــــربتُ غيـــــرَ أثـــــيمِ

---

[1] – الصَّاحب بن عبَّاد، الكشف عن مساوئ شعر المتنبي، ص75، والبيت في الديوان، ص187.

[2] – ابن سيدة أبو الحسن علي بن إسماعيل، شرح المشكل من شعر المتنبي، تح: مصطفى السقَّا وحامد عبد الحميد، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، القاهرة، مصر، ط1، 1976م، ص45، والبيت في الديوان، ص139.

[3] – ابن وكيع أبو محمد الحسن بن علي التنيسي، المنصف للسارق والمسروق منه، تح: عمر خليفة بن إدريس، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط1، 1994م، ج1، ص237، والبيتان في الديوان، ص24.

[4] – المرجع نفسه، ج1، ص317-318، والأبيات في الديوان، ص49.

فيقول ابن وكيع: "ففَقِه أبو الطيِّب في هذا البيت فِقْهًا غير إسلامي، لأنَّه ذكر أنَّ حالِفًا حلف عليه بالطَّلاق ليَشْرَبَنَّ الخَمْرَ فشربها، وجعل رِدَّة عِرْسِه واليةً كفَّارةَ ذنبه في معصيَّةٍ كان اجتناب الحالف عليها واجتناب ما نهى الله عزَّ وجلَّ عن شُربه أولى بمذهب المسلم."[1]

ونقف بعد وكيع عند الثعالبي، الذي عُدَّ من أنصار المتنبي، والمدافعين عنه، ولكنَّه لم يجد بُدًّا من الإقرار بسقطات المتنبّي فيما يتعلَّق بالدِّين والعقيدة، فيقول: "على أنَّ الدِّيانة ليست عيارًا على الشعراء، ولا سوء الاعتقاد سببًا لتأخُّر الشاعر، ولكنْ للإسلام حقُّه من الإجلال الذي لا يسوغ الإخلال به قولاً وفعلاً ونظمًا ونثرًا، ومَن استهان بأمره، ولم يضع ذكره وذكر ما يتعلَّق به في موضع استحقاقه، فقد باء بغضب من الله تعالى، وتعرَّض لمقته في وقته، وكثيرًا ما قرع المتنبّي هذا الباب بمثل قوله:

يترشَّـــفن مـــن فمـــي رشفـــاتٍ هـــنَّ فيـــه أحلـــى مـــن التَّوحيـــد

وبعد أن ذكر أبياتًا أخرى للمتنبي من هذا القبيل، يختم قائلاً: "وقبيحٌ بمن أوَّله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بينهما حامل بول وعذرة، أن يقول مثل هذا الكلام الذي لا تسعه معذرة."[2]

وهذا غيض من فيض من مآخذ العلماء على شعر المتنبي فيما يمسُّ الدِّين والعقيدة، وما كان فيه استخفاف وقلَّة توقير وتعظيم لله ورسله وملائكته.ولكنَّ ابن شرف لم يأت على ذكر هذه السَّقطات والمآخذ التي تمسُّ الجانب الدِّيني والخلقي للشعر في الصَّميم، ويبدو أنَّ إعجاب ابن شرف بشعر المتنبي جعله يغضُّ الطَّرف عن هذه السَّقطات والهفوات، التي لم يستطع إنكارها حتَّى بعض أنصاره كالثعالبي كما رأينا، واكتفى بإشارة عامَّة لها بقوله: (إنَّ له حسنات وسيئات)، وقوله: (وكان لحنُه وشعره شريفين، وعقلُه ودينُه ضعيفين).

والاتجاه الدِّيني والخلقي في النقد عند ابن شرف يتجلَّى ويتَّضح أكثر في القسم الثاني من الكتاب؛ أي في المقامة الثانية، ويتألَّف هذا القسم من مقدِّمة تشتمل على توجيهات عامة في النقد، ثمَّ عرض لعيوب شاعرين من كبار شعراء الجاهلية، هما امرؤ القيس وزُهير بن أبي سلمى؛ وذلك من خلال نقد بعض الأبيات الشعرية لهما. ثمَّ ذِكْرٌ لأنواع أخرى من العيوب تقع في الشعر. ونستعرض أوَّلا نقد الشاعرين المذكورين:

– نقد امرئ القيس:

وأكثر الشعراء الجاهليين الذين تتبَّع ابن شرف سقطاتهم امرؤ القيس، هذا الشاعر الذي يُعدُّ "أقدم الشعراء عصرًا، ومقدَّمهم شعرًا وذكرًا، وقد اتَّسعت الأقوال في فضله؛ حتَّى إنَّ العامَّة تظنُّ بل تُوقن أنَّ جواد شعره لا يكبو، وحُسام نظمه لا ينبو؛ وهيهات من البشر الكمال، فهو يقول في قصيدته المقدَّمة ومعلَّقته المفخَّمة:

---

[1] – ابن وكيع، المنصف للسارق والمسروق منه، ج1، ص381، ويُنظر البيت، الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد، شرح ديوان المتنبي للواحدي، شركة القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، دت، ج1، ص163.

[2] – الثعالبي، يتيمة الدّهر، ج1، ص210–211، والبيت في الديوان، ص29.

ويَــوْمَ دَخَلْــتُ الخِــدْرَ خِــدْرَ عُنَيْــزَةٍ فَقَالَــتْ:لَكَ الوَيْــلاَتُ إنَّــكَ مُرْجِلِــي"[1]

ينتقده ابن شرف على لسان أبي الرَّيَّان قائلًا: "فما كان أغناه عن الإقرار بهذا، وما أشدَّ غفلته عمَّا أدركه من الوصمة به! وذلك أنَّ فيه أعدادًا كثيرة النَّقص والبخس؛ منها دخوله مُتطفِّلا على مَنْ كَرِهَ دخوله عليه، ومنها قول عُنيزة له: (لك الويلات)؛ وهي قَولة لا تُقال إلا لخسيس، ولا يُقابَل بها رئيس. فإن احتجَّ مُحتجٌّ بأنها كانت أرأس منه. قيل له: لم يكن ذلك؛ لأنَّ الرئيسة لا تركب بعيرًا يدرج أو (يموت) إذا ازداد عليه ركوب راكب، بل هو بعير فقير حقير. فإن أُحتُجَّ له بأنَّه صبر على القول من أجل أنَّها معشوقة، قيل له وكيف يكون عاشقاً لها من يقول لها:

فمثلــك حُبلــى قــد طَرَقْــتُ ومُرْضِــعًا فألهيتُهــا عــن ذي تمــائم مُحْــول

وإنَّما المعروف للعاشق الانفراد بمعشوقته واطِّراح سواها، كالقيسين في ليلى ولبنى، وغيلان بميَّة، وجميل ببُثينة، وسواهم كثير. فلم يكن لها عاشقًا، بل كان فاسقًا."[2]، فابن شرف في موقفه هذا يتَّخذ من المعيار الأخلاقي أساسًا في الحكم على الشاعر وشعره، فما رصده من معايب مسَّت أخلاق الشاعر في الصَّميم أسقطت هذا الشِّعر من عينه، وأفقدته قيمته التي يتميَّز بها شعر امرئ القيس إجمالاً. فهو يرى أنَّ امرأ القيس قد لحقه العار والشنار جرَّاء هذا البيت من عُنيزة، فمن ذلك دخوله متطفِّلاً على مَنْ كره دخوله عليه، ومنه قول عُنيزة له: (لك الويلات)، وهي قولة لا تُقال إلاَّ لخسيس، ولا يُقابل بها رئيس. فإن قيل: أنَّه رضي منها ما قالت لأنَّها معشوقته، قلنا: يُفنِّد ذلك البيت الثاني؛ ففيه إقرار منه بإتيان الحُبلى مثل عُنيزة وكذلك المرضع، فهو لا يُمكن أن يكون عاشقا بل فاسقا.

ويُفصِّل ابن شرف في ذِكْر هذه المعايب، قائلًا: "ثم أهجنُ هُجنةٍ عليه، وأسخنُ سُخْنةٍ لعينَيْه، إقراره بإتيان الحُبلى والمرضع؛ فأمَّا الحُبلى فقد جَبَل الله النُّفوس على الزُّهد في إتيانها، والإعراض عن شأنها؛ منها أنَّ الحَبَل علَّةٌ وأشْبَه العِلَل بالاستسقاء، ومع الحَبَل كُمود اللَّون، وسُوء الغذاء، وفَسَاد النَّكهة، وسُوء الخُلُق، وغير ذلك. ولا يميل إلى هذا مَنْ له نفسُ سُوقي، دع نفس مُلوكي. وأعجبُ من هذا أنَّ البهائم كلَّها لا تنظر إلى ذوات الحمل من أجناسها، ولا تقرب منها حتى تضع أحمالها، أو تُفارق فُصلانها. ثم لم يكفِه أن يذكر الحُبلى حتى افتخر بالمرضع، وفيها من التلويث بأوضار رضيعها، ومن اهتزالها واشتغالها عن أحكام اغتسالها. وقد أخبر أنَّ ذا التَّمائم المحْوِل مُتعلقٌ بها، بقوله: (فألهيتُها عن ذي تمائم مُحْوِل)، وأخبر أنها ظِئرُ ولدها، لا ظِئرَ له ولا مُرضِعَ سواها، فدل بذلك على أنَّها حقيرة وقيرة، ومثل هذه لا يصبو إليها من له همَّة. وهذه الصِّفات كلُّها تستقذرها نفس الصُّعلوك والمملوك."[3]، فإذا كان امرؤ القيس وهو من أنْفَس الملوك قد رضي لنفسه إتيان الحبلى والمرضع، وهما بتلك القذارة التي تعافها حتَّى الحيوانات، فما أخسَّ هذه النَّفس! وما أهونها على النَّاس وعلى صاحبها! ثمَّ يُواصل ابن شرف نقد امرئ القيس في أبيات قصيدة أخرى يقول فيها:

---

[1] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص40، والبيت في الديوان، ص27.

[2] – المصدر نفسه، ص40-41.

[3] – نفسه، ص41.

سَـــمَوْتُ إليهـــا بعـــد مـــا نـــام أهلُهـــا سُـــمُوَّ حَبَـــابِ المـــاء حَـــالاً علـــى حَـــال
فقالـــتْ لَحَـــاك اللهُ إنَّـــك فَاضِـــحي ألســـتَ تَـــرَى السُّـــمَّارَ والنَّـــاسَ أحْـــوالي
حَلَفْـــتُ لهـــا بـــالله حِلْفـــةَ فـــاجرِ لَنـــامُوا فمـــا إن مـــن حـــديث ولا صَـــالِ[1]

فيقول ناقدًا إيَّاه: "فأخبر ها هنا أنَّه هيِّن القَدْر عند النِّساء وعند نفسه برضاه قولها: (لحاك الله). فحصل على: (لحاك الله) من هذه، و(لك الويلات) من تلك. فشَهِدَ على نفسه أنَّه مكروه ومطرود، غيرُ مرغوب في مواصلته، ولا محروص على معاشرته، ولا مرضيّ بمشاكلته. ثم أخبر عن نفسه أنَّه رضي بالخِنث والفجور، وهذه أخلاق لا خَلاق لها. ثم أقرَّ في مكان آخر من شعره بما يكتمه الأحرار، ولا ينمُّ بفَتْحِه إلا الأوضاع الأشرار، فقال:

ولـــــــمَّا دنـــــــوتُ تَسَـــــــدَّيتُها فثَوْبًـــــا نســـــيتُ وثوبًـــــا أجُـــــر

وأيُّ فَخْرٍ في الإقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حبِّه! وأين هذا من قول أبي يعقوب الخزيمي:

ولا أســـألُ الولـــدانَ عـــن وَجْـــهِ جـــارتي بعيـــدًا ولا أرْعـــاه وهـــو قريـــبُ

وإنَّما سهَّل عليه كلَّ هذا حِرصُه على ما كان ممنوعًا منه، وذلك أنَّه كان مُبَغَّضًا إلى النِّساء جدًّا، مفروكًا ممَّن مَلَك عَصَبَتَهَا لأسباب كثيرة ذُكرتْ. وكلُّ مَنْ حَرص على نَيْل شيء فمُنِعَ منه فعلاً، اِدَّعاه قولاً."[2]

ويتجاوز ابن شرف النقد الأخلاقي هاهنا من ذِكْره مجاهرة امرئ القيس بالفُحش والإقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حُبِّه، ليتعرَّف على سبب هذه المجاهرة وبواعثها، وهو بذلك ينتقل إلى معيار آخر يُحاول من خلاله إيجاد تفسير لهذه الظواهر، ومن ثمَّ الوقوف على كُنه وحقيقة هذه الأبيات. وهذا ما يُعرف بالتَّفسير النَّفسي أو النقد النَّفسي. فهو يقول: "بأنَّ الشاعر كان مُصابًا بنوع من الانحراف في غريزته الجنسية، ويعتمد في ذلك على أخبار تُفيد أنَّه لم يكن سويًّا في هذه الغريزة، فقد كان مُفرِكًا لا يكاد يتزوَّج من امرأة حتَّى تنفر منه، وتطلب منه أن يُطلِّقها، فحال ذلك دون استمتاعه بهوى النِّساء، ومن أجل إشباع هذا الحرمان لجأ إلى اختلاق المغامرات الغرامية، والإفراط في ادِّعاء الفسق ليُعوِّض عن شعوره بالنَّقص، ويُقنع الجميع أنَّه مُحَبَّبٌ إلى النِّساء."[3]

وابن شرف ومن خلال نظرته النَّفسية هذه يُعدُّ من النقَّاد السبَّاقين في تفسير الظاهرة الأدبية الشعرية تفسيرًا نفسيًّا، وهي محاولة تستحق التنويه والإعجاب، يقول الدكتور إحسان عبَّاس: "ونحن نلمح إلى جانب المقياس الخلقي محاولة أخرى من ابن شرف، وهي تشبُّثه بأنَّ الشِّعر الصَّحيح لا بُدَّ أن يُعبِّر عن نفسية صاحبه، وما دام صاحب هذا الشِّعر مَلِكًا فلا بدَّ أن تكون للملك نفسيَّة ترفعه عن مثل هذه الأقوال...ولو وقف ابن شرف عند ظاهرة الحرمان أو الإخفاق أساسًا لتعليله التَّصريح بالفجور لكان خيرَ مَن استغلَّ هذا الموقف النَّفسي في فهم لون من ألوان الأدب أو ظاهرة من

[1] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص42، والأبيات في الديوان، ص137، ونجد فيه (سَبَاك) عِوض (لَحَاك).
[2] – المصدر نفسه، ص42-43.
[3] – يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصّنهاجي، ص380-381.

ظواهره."[1]، ولكي يُثبت ابن شرف صواب نظرته وصحَّة ما ذهب إليه، يستدلُّ على ذلك بشعراء آخرين كانوا أشباه امرئ القيس، فيقول: "وله أشباهٌ فيما أتاه، يدَّعون ما ادَّعاه؛ إفكًا وزُورًا، وكذِبًا وفُجُورًا. منهم الفرزدق، وهو القائل:

همـــا دلَّيـــاني مـــن ثمـــانين قامـــةً كمـــا انقـــضَّ بـــازٍ أقـــتمُ الـــرِّيش كاســـرُه

فهذا أوَّل كذبة، ولو قال: (من ثلاثين قامة) لكان كاذبًا، لتقاصُر الأرشية عن ذلك. وقد قَرَّعه جَرير هذا في قوله:

تـــدلَّيتَ تَزْنـــي مـــن ثمـــانين قامـــةً وقَصَّـــرْتَ عـــن بـــاعِ العُلـــى والمكـــارم

وكان مُغرمًا بالزِّنا مُدَّعيًا فيه، وقد بُلِيَ بموانع تَصدُفه عنه، منها ما شُهِرَ به من النَّميمة بمن ساعده، والادِّعاء على مَنْ باعده؛ ومنها دمامتُه، ومنها اشتهارُه، والمشهورُ يصِلُ إلى شهوة يتبعها ريبة، فكان يُكثر في شعره من ادِّعاء الزِّنا، واستدعاء النِّساء؛ وهُنَّ أغلظ عليه من كبد بعير، وأبغضُ فيه وأهجَى له من جرير. وخُذ أطرف هؤلاء الأجناس، وهو سُحَيْمُ عَبْدُ بني الحَسْحَاس؛ أُسَيْوِدٌ في شَمَلة، دَنِسَة قَمِلَة؛ لا يُواكله الغَرْثَان، ولا يُصَاليه الصَّرْد العريان، وهو مع ذلك يقول:

وأقـــبلن مِـــنْ أقصـــى البُيـــوت يَعِـــدْنني نواهـــــدَ لا يَعْـــــرِفن خَلْقًـــــا ســـــوائيا

يَعِـــدْن مريضًـــا هـــنَّ هَـــيَّجن مـــا بـــه ألا إنَّمـــــا بعـــــضُ العوائـــــد دائيـــــا

تُوَسِّـــــدُني كفًّـــــا وتحنـــــو بمِعْصَـــــم علـــــيَّ وتَرْمـــــي رِجْلَهـــــا مِـــــن ورائيـــــا

فأنت تسمع هذا الأسود الشَنَّ وادِّعاءَه، وتعلم أنَّ الله لو أخلى الأرض، فلم يُبْقِ رجلاً في الطول ولا في العَرض؛ لم يكن هذا الزَّنَمة الزَّلمة عند أدراك السُّودان إلا كبعرة بعير، في مَعرِس عِير؛ والممنوعُ من الشيء حريصٌ عليه، مُدَّعٍ فيه."[2]

فإخفاق هؤلاء الشعراء مع النِّساء جعلهم يُبالغون في التعبير عن الاستهتار والتعهُّر، ويُقرِّون بالفُحش والزِّنا والفُجور، ويختلقون قصصًا وأخبارًا غرامية بعيدة كلَّ البُعد عن الحقيقة والواقع. فالحرمان هو الباعث لهم على هذا التَّصريح الفاجر الفاحش. وهذا يتنافى والنَّفس السويَّة، والغريزة السَّليمة، والأخلاق الكريمة.

ولم يكتفِ ابن شرف بما ساقه من شواهد لشعراء آخرين من قبيل حالة امرئ القيس، بل جاءنا بحالة مضادَّة لِمَا كان عليه امرؤ القيس وصاحبيه، وهذا تأكيد وإمعان في إثبات صحَّة نظريته، فبأضدادها تُعرَفُ الأشياء–كما يُقال– وتتمثَّل في حال المرقَّش الأكبر، الذي يراه ابن شرف نموذجا للشاعر العفيف في شعره رغم ما كان بينه وبين النِّساء من اتِّصال وتواصل، فيقول: "والمعتدُّ بما يهواه، كاتم له مُستغنٍ ببلوغ مُناه؛ ودليلٌ على ذلك أنَّ المرقَّش الأكبر كان من أجمل الرِّجال، وكانت للنِّساء فيه رغبةٌ، وشدَّةُ محبَّة؛ وكان كثيرَ الاجتماع بهنَّ، والوصول إليهنَّ؛ وله في ذلك أخبارٌ مرويَّة، ولم يكن في أشعاره صفةُ شيء من ذلك. فَحَسبُك بذلك صحَّة على ما قلناه."[3]

---

[1] – عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العربي، ص472–473.

[2] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص43–44.

[3] – المصدر نفسه، ص44.

وينتبه ابن شرف إلى أنَّ أحكامه النقدية التي وجَّهها لامرئ القيس إنَّما تتعلَّق بخُلُق الشاعر لا شعره، وهذا ما يجعل البعض يعترض ويرفض مثل هذه الأحكام، فيردُّ قائلاً: "فإنْ قال قائل: إنَّما وصفت عن امرئ القيس عيوبًا من خُلُقه لا في شعره، قُلنا: هل أراد بما وصف في شعره إلَّا الفخر؟ فإن قال: لم يُرد ذلك وإنَّما أراد إظهار عيبه. قلنا: فأحمقُ النَّاس إذًا هو، ولم يكن كذلك. وإنْ قال: نعم، الفخر. قلنا: فقد نطق شعره بقدر ما أراد، وترجم عنه قريضه بأقبح الأوصاف. فأيُّ خَلَلٍ من خلال الشعر أشدُّ من الانعكاس والتناقض. وكل ما يخزي من الشعر فهو من أشدِّ عُيوبه."[1]

والناظر لموقف ابن شرف يبدو له أنَّه كان "عنيفا في نقده لشعر امرئ القيس–وهذا– لأنَّه يُريد أن يكون الفنُّ ذا موضوع مثالي، ومُنزَّهًا عن كلِّ ما يُخزيه، بحيث يُرشد إلى الخير ويُصحِّح السُّلوك، ولذا يجب أن يُحكم على قيمته بمدى مشاركته في كامل الحياة الخُلُقية. ويُذكِّرنا ابن شرف هنا بما قرَّره أرسطو قبله من أنَّ أهمية الشِّعر بموضوعه ونوعه، وأنَّ مهمة الشاعر الأساسية هي نقل التعليم الأخلاقي."[2]

وما نستنبطه ونفهمه من كلام ابن شرف أنَّه لا يُمكن الفصل بين التقييم الخُلقي والتقييم الفنِّي؛ لأنَّهما يتكاملان من أجل تحقيق غاية عظمى هى الوصول بالشِّعر إلى أسمى مراتب الجودة والإتقان سواء من حيث الشكل أو المضمون. أو كما يرى أحمد يزن من أنَّ "ابن شرف يُؤمن بأنَّ النظرة الأخلاقية جزء من التقييم الفنِّي، وأنَّ هناك تفاعلاً بين الاعتبارات الخُلقية والشكلية."[3]

وهكذا يمضي ابن شرف في نقده لامرئ القيس، ذلك الشاعر الذي ساد الاعتقاد فيه عند العامَّة وبعض الخاصَّة أنَّه لا يُنتقد، وكان مُصيبًا في نقده، فنعى عليه عيوبه، وما أتاه من فحش وفجور، وذكر بعض هناته وسقطاته. ولم يُنكر مع ذلك كلِّه ما للشاعر من فضائل ومزايا تفرَّد بها، فيقول: "ولسنا نُنكر بهذه العيوب ونزارتها، ما أقررنا له به من الفضائل ونَدارتها."[4]

فابن شرف يروم من وراء تتبُّع هذه السَّقطات، وبيان هذه الهنات لفضلاء الشعراء توضيح منهج من مناهج النقد، قاصدا: أنَّه لا أحد من الشعراء فوق النقد مهما علا شأنه وطال باعُه في الشِّعر. وهذا منهج سليم رصين لا يختلف حوله اثنان. فيقول مبيِّنًا ذلك: "وفضلاء الشعراء كثيرٌ، ولكلٍّ سقطات، وسأقفك على بعضها لعظيم المؤونة في الإحاطة بها ليس إلاَّ؛ لأوضِّح بذكرها منهجًا من مناهج النقد، لا حرصًا على بُغض الفصحاء، ولا قصدًا إلى تهجين الصُّرحاء، وأيَّة رغبة لنا في ذلك وهو جُرثومة فروعنا، وبهم افتخار جميعنا."[5]

---

[1] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص44-45.

[2] – يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصّنهاجي، ص386.

[3] – المرجع نفسه، ص381.

[4] – ابن شرف، المصدر السابق، ص47.

[5] – المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

وممَّا تجدر الإشارة إليه والوقوف عنده أنَّ ابن شرف لم يكن بدعًا من النقَّاد في اتِّجاهه الخلقي، وتحديدًا مع الشاعر امرئ القيس؛ فإذا كان موقف ابن شرف مُعارضًا تمامًا لموقف قدامة بن جعفر، الذي يرى أنَّ الفنَّ ومنه الشِّعر فوق الحكم الأخلاقي، ويُباح للفنَّان والشاعر ما لا يُباح لغيرهما، فيقول في ذلك: "فإنّي رأيتُ من يعيب امرأ القيس في قوله:

فمثلـــك حُبلـــى قـــد طرقـــتُ ومُرضـــع فألهيتهـــا عـــن ذي تمـــائم مُحْـــول

إذا مـــا بكـــى مـــن خلفهـــا انصـــرفت لـــه بشـــقٍّ وتحتـــي شـــقُّها لـــم يُحـــوَّل

ويذكر أنَّ هذا معنى فاحش. وليس فحاشة المعنى في نفسه ممَّا يُزيل جودة الشِّعر فيه، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلا رداءته في ذاته."[1] فإنَّه يتَّفق وينسجم تمامًا مع موقف الباقلاني، الذي وقف عند البيتين السَّابقين لامرئ القيس ناقدًا إيَّاهما نقدًا خُلُقيًّا، فيقول عن البيت الأوَّل منهما: "...وتقديره أنَّه زيرُ نساء، وأنَّه يُفسدهنَّ ويُلهيهنَّ عن حَبَلهنَّ ورضاعهنَّ؛ لأنَّ الحُبْلى والمرضعة أبعدُ من الغزل وطلب الرِّجال. فيقول لها: لا تُبعديني عن نفسك فإنِّي أغلب النِّساء، وأخدعهنَّ عن رأيهنَّ، وأُفسدهنَّ بالتَّغازُل! وكونه مفسدةً لهنَّ لا يُوجب له وصلَهُنَّ وتَرْكَ إبعادهنَّ إيَّاه، بل يُوجب هجره والاستخفاف به، لسخفه ودخوله كلَّ مدخل فاحش، ورُكوبه كلَّ مركب فاسد! وفيه من الفُحش والتفحُّش ما يستنكف الكريم من مثله، ويأنَف من ذكره."[2]

وعن البيت الثاني يقول الباقلاني: "فالبيتُ في غاية الفُحش، ونهاية السُّخف، وأيُّ فائدة عندما يذكر لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح، ويذهب هذه المذاهب، ويَرِدُ هذه الموارد؟! إنَّ هذا ليُبغضه إلى كلِّ مَنْ سمع كلامه، ويُوجبُ له المَقْتَ! وهو– لو صدق – لكان قبيحًا، فكيف: ويجوز أن يكون كاذبًا؟!"[3]، ويذكر لنا المرزباني أنَّ ممَّا "عيب على امرئ القيس فُجُوره وعُهرُه في شعره، كقوله:

فمثلـــــك حُبلـــــى قـــــد طرقـــــتُ ومُرضـــــع

وقالوا: هذا معنى فاحش.كيف قصد للحُبلى والمرضع دون البِكر وهو ملك وابن ملوك؟! ما فعل هذا إلاَّ لنقص همَّته."[4]، فالمعيار الخلقي في نقد الباقلاني والمرزباني واضح جليٌّ، وابن شرف لم يكن بدعًا في أحكامه ونقده الخلقي لامرئ القيس. ولكن مع هذا نُسجِّل أنَّه وإن كان ابن شرف والباقلاني قد اتَّفقا في النظرة الأخلاقية لشعر امرئ القيس، إلاَّ أنَّهما اختلفا نسبيًّا في الغاية من ذلك، فالباقلاني كان يقصد من ذلك بيان إعجاز القرآن الكريم، وأنَّه –أي القرآن– لا يُمكن أن يُوازن أو يُقارن به الشِّعر أيًّا كان قائله، بينما يرى ابن شرف: أنَّ لا أحد فوق النقد، وأنَّ لكلِّ شاعر سقطات وهفوات، ويُمكن القول: "أنَّ حديث ابن شرف عن سقطات الشعراء كان دعوة إلى تعديل أحكام النُّقاد المتطرِّفة في تفضيل بعض الشعراء، ابتداءً من امرئ القيس الذي عدَّه الأصمعي أوَّل الشعراء في الجودة، وله الحظوة

[1] – قدامة بن جعفر، نقد الشِّعر، ص66.

[2] – الباقلاني، إعجاز القرآن، ص167.

[3] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[4] – المرزباني، الموشَّح، ص34-35.

والسَّبق، وكلُّهم أخذوا من قوله، وسايره في هذا الرأي جمهرة من النقاد كابن سلاَّم، وابن رشيق الذي اتَّخذه في (القراضة) مثلاً أعلى للشاعر المبتكر المبدع."[1] إلاَّ أنَّه أضاف إلى نقده ونظرته هذه تحليلاً نفسيًّا، حاول من خلاله تفسير تلك السلوكات والتصرُّفات الشَّاذة من امرئ القيس، والتي كان القصد منها: "إرضاء إحساسه وإشباع حرمانه وتغطية سلوكه، ولَفْتِ الأنظار إلى الذَّات، وتقرير وجودها بالتحدِّي ومخالفة الآداب."[2]

– نقد زُهير بن أبي سلمى:

وبعد امرئ القيس يتناول ابن شرف بالنقد شاعرًا آخر، يُعدُّ فحلاً من فحول الشعر الجاهلي، إنَّه شاعر الرَّصانة والتعقُّل زهير بن أبي سلمى، هذا الشاعر الذي طار صيته في الحكمة وضرب المثل. عُرف بأصالة الرَّأي والرَّزانة والتَّروِّي، وحبِّ الحقِّ والسَّلام. وحكمتُه احتوت آراء أخلاقية واجتماعية وإرشادات للمجتمع، فقد أخذ على عاتقه إصلاح وتوجيه المجتمع القبلي الذي نشأ وترعرع فيه إلى القيم الفاضلة والأخلاق النبيلة. "كان زهير غيورًا على إصلاح مجتمعه القبلي محبًّا لكلِّ مَن يعمل الخير ويسعى في توطيد السَّلام بين النَّاس، ناصحًا لكلِّ ذي غواية حتَّى يعدل عن غوايته، فاصطبغ شعره بهذه الصبغة الإصلاحيَّة."[3]

وكان زهير شاعرًا من طراز آخر، يختلف كلَّ الاختلاف عن الطراز الذي كان يُمثِّله امرؤ القيس وطرفة بن العبد؛ فلم يُؤثر عن زهير أنَّه غشي مجالس اللَّهو أو الخمر والقمار، ولم يُعرف عنه ما يُنقصه ويحطُّ من قيمته وقدره وشخصيته من سُوءٍ في الخُلق أو ضَعَة في النَّفس، أو خشونة في المعاملة. لقد كان صاحب شخصيَّة جادة سويَّة، متحلِّية بمكارم الأخلاق، بعيدة عن الطَّيش والعبث، محبَّة للخير والحقِّ والسَّلام. ولا نبالغ إنْ قلنا أنَّه كان في الحقيقة والواقع رجلاً مثاليًّا إلى حدٍّ كبير، قلَّ أن تجد له نظيرا في المجتمع الجاهلي آنذاك. وقد عرف ابن شرف هذا لزهير فلم يُنكر فضله، ولم يُغمطه حقَّه، فقال في شأنه: "وأمَّا زهير فأي زهير، بين لهوات زُهير؛ حِكمُ فارس، ومقامات الفوارس، ومواعظ الزُّهَّاد، ومُعتبرات العُبَّاد، ومدح يُكسب الفخار، ويبقى بقاء الأعصار، ومُعاتبات مرَّة تحسُن، ومرَّة تخشُن، وتارة تكون هَجْوًا، وطورًا تكاد تعود شكرًا "[4]، ومع هذا فقد سجَّل عليه بعض السقطات، ومن ذلك ما عابه عليه في قوله:

رأيــتُ الــمَنَايا خَــبْطَ عَشْــواءَ مَــنْ تُصِــبْ تُمتْــــه ومَــــن تُخْطِــــئْ يُعمَّــــر فيَهْــــرَم

يرى ابن شرف أنَّ زُهيرًا قد أخطأ في وصف المنايا بخبط عشواء، "والخبط: الضرب باليد. والعَشْواء: مؤنَّث الأعشى. أراد النَّاقة التي بعينيها سُوء، فهي تعشُو: أي لا تُبصر ليلاً، وتطأ كلَّ شيءٍ على غير بصيرة وهدى. كنَّى بذلك عن الموت الذي يُصيب النَّاس على غير نظام؛ فمَن أصابه أهلكه، ومَن أخطأه بقي على قيد الحياة وبلغ الهرم."[5]

---

[1] – يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، ص384.

[2] – المرجع نفسه، ص385.

[3] – الفاخوري حنَّا، تاريخ الأدب العربي، ص153-154.

[4] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص25.

[5] – زهير بن أبي سلمى، الديوان، التهميش رقم50، ص110.

يقول ابن شرف: "وقد غلط في وصفها بخبط العشواء، على أنَّنا لا نطالبه بحكم ديننا؛ لأنَّه لم يكن على شرعنا، بل نطلبه بحكم العقل، فنقول: إنَّما يصح قوله لو كان بعض النَّاس يموت وبعضهم ينجو، وقد علم هو وعلم العالم، حتَّى البهائم، أنَّ سهام المنايا لا تخطيء شيئًا من الحيوان حتى يعمَّها رشقُها، فكيف يُوصف بخبط العشواء رامٍ لا يقصد غرضًا من الحيوان إلا أقصده حتَّى يستكمل رمياته، في جميع رمياته. وإنَّما أدْخَل الوَهْمَ على زهير موتُ قوم عبطةً وموت قوم هَرَمًا، وظنُّوا طول العمر إنَّما سببُه إخطاء المنيَّة، وسببُ قِصَره إصابتُها. وهيهات الصواب من ظنِّه! لم يؤخر الهرم إلا أنَّها قصَدتْه فحين قصَدتْه أصابته. ولو أنَّ الرُّماة تهتدي كاهتدائها، لملأتْ أيديها بأقصى رجائها "[1]، وابن شرف لا يعيب على زهير في هذا البيت ما هو مُخالف لعقيدة الإسلام وشريعته؛ لأنَّه يعلم أنَّ زُهيرًا كان جاهليًّا كافرًا، فلا تثريب عليه من هذه النَّاحية. وإنَّما أخذ عليه أمْرًا عارض فيه العقل، وخالف المنطق، عندما رأى أنَّ المنايا تخبط خبط العشواء. في حين نجد المرزباني ينظر إلى هذا البيت نظرة دينية خالصة، فيقول: "وقال مُؤدِّبي أبو سعيد محمد بن هُبيرة الأسدي في قول زهير:

رأيـــتُ الـــمَنَايا خَـــبْطَ عَشْـــواءَ مَـــنْ تُصِـــبْ

إنَّه كان يسمع المشايخ يقولون: هذا بيت زندقة، وهو بعيدٌ من أبياته التي يقول في بعضها:

فَيُرْفَـــعْ فَيُوضَـــعْ فـــي كِتَـــابٍ فَيُـــدَّخَرْ لِيَـــوْمِ الـــحِسَابِ أوْ يُعَجَّـــلْ فَيُـــنْقَمِ"[2]

وإذا كنَّا نرى أنَّ نقد ابن شرف لامرئ القيس في أبياته السَّالفة الذِّكر مُصيبٌ وفي موضعه، إلاَّ أنَّنا نراه مع زُهير في البيت السابق قد جانبه الصَّواب، "ورأيه في هذه القضية فائل ومذهبه باطل"[3]، رغم أنَّه –كما يقول– لم يُطالبه بحكم الدِّين، وليته فعل، وطالبه بحكم الدِّين والشَّرع، كما وجدناه عند المرزباني، ذلك لأنَّ زهيرًا –وإنْ لم يكن مسلمًا– إلاَّ أنَّه كان من الحنفاء؛ يُؤمن بالله وبالبعث والحساب، وذِكر الموت وما بعده كان حاضرًا وبارزًا في معلَّقته.

وزُهير بن أبي سلمى –مع أنَّه جاهلي كافرٌ– لا يعني بقوله: أنَّ المنايا تُصيب النَّاس من غير تقدير وحكمة من الله، وإنَّما يقصد أنَّ المنايا لا تُميِّز بين كبير وصغير، بل تضرب وتعمُّ ولا تخصُّ أحدًا دون أحد، ولا تهتمُّ بكون المُصاب صغيرًا أو كبيرًا، سليمًا أو سقيمًا، غنيًّا أو فقيرًا... وهذا ما فهمه الكثير من أهل العلم، واستشهدوا به من غير نكير، فهذا الحافظ ابن كثير يستشهد به في تفسير قوله تعالى: **﴿وَاللَّـهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾**[4]، واستشهد به الشنقيطي في أضواء البيان في تفسير قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّـهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾**[5]

---

[1] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص48.

[2] – المرزباني، الموشَّح، ص51، وفي الديوان نجد (يُؤخَّر) عوض (فيُرفع)، ص107.

[3] – يوسف محمد سلامة، ابن شرف القيرواني وآراؤه النقدية في رسالته أعلام الكلام، ص244، وفائل بمعنى: ضعيف، سخيف، فاسد.

[4] – النحل، الآية 70، ويُنظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج4، ص585.

[5] – البقرة، الآية 243، ويُنظر الشِّنقيطي محمد الأمين، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج1، ص260.

فالنَّاقة العشواء التي لا تُبصرُ تخبط بيديها كلَّ ما مرَّت به، وشبَّه زُهير المنايا بخبط عشواء، لأنَّها تعمُّ الكُلَّ ولا تخصُّ أحدًا. وهذا المعنى لا إشكال فيه، ولا يُخالف كونها مقدرة من عند الله تعالى بحكمته وعلمه، فهي تعمُّ الصغير والكبير وتخبط النَّاس جميعًا، وأيضًا في ذات الوقت تجري بتقدير الله تعالى. ثمَّ يعيب ابن شرف بيتًا آخر في مُذهَّبته، والذي يقول فيه:

وَمَــنْ لَــمْ يَــذُدْ عَــنْ حَوْضِــهِ بِسِــلاحِهِ يُــهَدَّمْ وَمَــنْ لا يَظْلِــمِ الــنَّاسَ يُظْلَــمِ[1]

يقول ابن شرف ناقدًا هذا البيت: "وقد تجاوز في هذا الحقَّ الباطلُ، وبنى قولًا يَنقضُه جريان العادة، وشهادة المشاهدة؛ وذلك أنَّ الظُّلْمَ وعْرةٌ مراكبُه، مذمومةٌ عواقبُه، في جاهليته وإسلامنا، فحرَّض في شعره عليه، وإنْ كان إنَّما أشار إلى أنَّ الظالم يُرهَب فلا يُظلَم، فهذا قياسٌ ينفسد، وأصلٌ ليس يطَّرِد؛ لأنَّ الظَّالِمَ يُرهبُه مَنْ هو أضعفُ منه، وربما انتقم منه بالحيلة والمكيدة. وقد يَظلِمُ الظَّالمُ مَنْ يغلبه فيكون ذلك سببَ هلاكه مع قباحة السِّمة بالظلم. والمثل إنَّما يضرب بما لا ينخرم، وقد كانت له مندوحة واتِّساع في أنْ يقول: (يُهَدَّمْ، ومَنْ لا يَدْفَعِ الظُلمَ يُظْلَمِ)"[2]، "فهذا أصحُّ وأسْلَمُ مِنْ: مَنْ لا يَظْلِم ويُظْلَم."[3]

إنَّ ما يُثير انتباهنا للوهلة الأولى أنَّ ابن شرف حاول أن يُنقص من حدَّة نظرته الأخلاقية مع شعر زهير، فجاءنا بكلام أشبه ما يكون بكلام الفلاسفة؛ وذلك ليقول لنا أنَّه يحتكم في نقده إلى العقل والمنطق.

وحتَّى نقف على حقيقة ما قاله ابن شرف، لا بُدَّ أن نقف عند البيت أوَّلاً. فهذا البيت الشعري من معلَّقة زُهير التي كان موضوعها يدور حول مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وذِكر سعيهما بالصُّلح بين عَبْسٍ وذبيانَ. وفي معرض ذلك يتبيَّن ذمُّه للحرب وجنوحُه للسِّلم، مع ما يتخلَّل القصيدة من حِكَمٍ دالَّة على تبصُّره وحنكته وخبرته بالحياة والنَّاس. ومن هذه الحِكم، ما جاء في قوله:

وَمَــنْ لَــمْ يَــذُدْ عَــنْ حَوْضِــهِ بِسِــلاحِهِ يُــهَدَّمْ وَمَــنْ لا يَظْلِــمِ الــنَّاسَ يُظْلَــمِ

فما بال شاعرنا يرى أنَّ الإنسان إنْ لم يكن ظالِمًا فسيتعرَّض للظلم من غيره، سيرًا على المبدأ الذي يقول: "الظُلمُ أنفى للظُلمِ". إنَّنا لا نجد تفسيرًا للشطر الأخير من البيت ولا مُبرِّرًا سوى أنَّ زُهيرًا كان يتحدَّث بلسان واقعه لا بلسان حاله؛ فالقوَّة كانت من مقتضيات الحياة القبلية في الجاهلية، والقبائل يترصَّد بعضها بعضًا، وتتناحر فيما بينها، لأسباب كثيرة ومتنوِّعة، فهناك العِرض والشرف، وهناك العصبية التي تدعو إلى مناصرة أبناء العشيرة، وهنالك تقاليد الثأر والدِّفاع عن الجار، وهنالك موارد المياه ومراعي القطعان، كلُّ ذلك يفرض على الجاهليِّ أن يحتاط لنفسه، وأن لا يتغاضى عن سلاحه، الذي يُعدُّ خطَّ دفاعه الأوَّل، كما يُعدُّ وسيله غزوه وسطوه، لأنَّه يتحتَّم عليه ألاَّ يظهر بمظهر الضعف في مجتمع لا يُؤمن –في الغالب– إلاَّ بالقوَّة.

---

[1] – زهير بن أبي سلمى، الدّيوان، ص111، وفي رسائل الانتقاد نجد (لا يذد) عوض (لم يذد).

[2] – ابن شرف، أعلام الكلام، ص34.

[3] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص49.

وفي خضمِّ هذا الواقع الغارق في كثير من أنواع الظلم، لم يستطع زُهير الخروج عن سنَّة مجتمعه القبلي، رغم حبِّه للسَّلام، ونَبْذِهِ للحرب، ولكنَّها العادات والتقاليد الجاهلية فرضت منطقها هذه المرَّة على زُهير وشعره. فيقول: "مَنْ لا يُدافع عن عِرضه استباحه النَّاس، ومَنْ ضعُفَ عن ردِّ العدوان عنه وعن قومه عمد النَّاس إلى الاعتداء عليه، ومَنْ عجز عن الاعتداء على غيره استضعفه النَّاسُ وظلموه "[1]، وكأنَّ زُهيرًا يُشير إلى ما أكَّده القرآن الكريم من بعد، من أنَّ الظُّلمَ طبيعةٌ إنسانيةٌ، وجِبلَّة بشرية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2]، فالإنسان كما يقول ابن القيِّم: "خُلِق في الأصل ظلومًا جهولاً، ولا ينفكُّ عن الجهل والظُّلم إلاَّ بأن يُعلِّمه الله ما ينفعه، ويُلهمه رُشده، فمَنْ أراد به خيرًا علَّمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علَّمه فخرج به عن الظُّلم، ومتى لم يرد به خيرًا أبقاه على أصْل الخِلْقَة."[3]، ويُبيِّن لنا الماوردي أيضًا هذه الحقيقة، ويذكر أنَّ هناك موانع من الظُّلم، فيقول: "في طباع النَّاس من حُبِّ المغالبة على ما آثروه، والقهر لمن عاندوه ما لا ينكفُّون عنه إلاَّ بمانعٍ قويٍّ، ورادِعٍ مليٍّ، وقد أوضح المتنبي ذلك، حيث يقول:

الظُّلمُ من شِيَمِ النُّفُوسِ فإنْ تجدْ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ[4]

وهذه العلَّة المانعة من الظُّلم لا تخلو من أحد أربعة أشياء: إمَّا عقل زاجرٌ، أو دِينٌ حاجزٌ، أو سلطانٌ رادِعٌ، أو عجزٌ صادٌّ."[5]، وهذه الموانع لم تُوجَدْ في المجتمع العربي الجاهليّ.

وهذا التَّحليل يجعلنا لا نستطيع الذهاب إلى ما ذهب إليه ابن شرف بأنَّ زُهيرًا قد دعا وحرَّض على الظلم، ومع ذلك فإنَّنا نُقرُّ عليه هذه الهفوة التي بيَّنها ابن شرف، فما كان له أن يقع فيها، وهو شاعر الحكمة والرَّصانة والعقل، وكان الأوْلى أن يقول ما اقترح مثلاً ابن شرف، فهو أصحُّ وأسلم؛ لأنَّ كلَّ الأديان والعادات والتقاليد عند كلِّ المجتمعات تتَّفق على أنَّ الظلم خلق مذموم ومنبوذ، وكلامه هذا يُناقض هذه المعتقدات والأعراف والتفكير البشري السويَّ، "فالتلقين الأخلاقي الذي ورثناه عن آبائنا وأجدادنا عبر الزَّمان والمكان بُني على وجوب وصف الظلم بطريقة سلبية، حتَّى ينفر النَّاس منه، ومن المفروض أن يقوم الشاعر بدور تعليمي وعظي يُبعد النَّاس عمَّا هو منبوذ ومُسيءٌ، ولا يُحرِّضهم على الإتيان به."[6]

---

[1] – زهير بن أبي سلمى: الدّيوان، التهميش رقم56، ص111.

[2] – سورة إبراهيم، الآية 34.

[3] – ابن قيِّم الجوزية أبو عبد الله محمد إغاثة اللَّهفان من مصايد الشيطان، تح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1975م، ج2، ص136-137.

[4] – المتنبي، الديوان، ص515.

[5] – الماوردي أبو الحسن علي بن محمد، أدب الدنيا والدِّين، تح: اللجنة العلمية بدار المنهاج، دار المنهاج، بيروت، لبنان، ط1، 2013م، ص218.

[6] – مصباحي فازية: القضايا النقدية في كتاب مسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني، رسالة ماجستير، إشراف:الدكتور صلاح يوسف عبد القادر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2012م، ص108.

وما زال ابن شرف يتتبَّع بعض أبيات زُهير، لِمَا حوتْه من سقطات وهفوات، وهذه المرَّة من غير معلَّقته، فيقف أوَّلاً عند بيته الذي استحسنه الكثير من النقَّاد، والذي يقول:

تَـــــرَاهُ إذَا مَـــــا جِئْتَـــــهُ مُـــــتَهَلِّلًا كَأنَّـــكَ تُعْطِيـــه الَّـــذِي أَنْـــتَ سَـــائِلُهْ[1]

فيقول ابن شرف: "مدح بها شريفًا أيَّ شَريفٍ، فجعل سُرورَه بقَاصِدِه كَسُرُورِه بمَن يدفع شيئًا من عَرَضِ الدُّنيا إليه. وليس من صفات النُّفوس العارفة السَّامية، والهِمَم الشَّريفة العالية، إظهارُ السُّرور إلى أن تُهَلَّلَ وُجوهُهم وتُسَرَّ نُفوسُهم بهبَة الواهبِ، ولا شِدَّة الابتهاج بعطية المعطي، بل ذلك عندهم سقوط همَّة وصغر نفس. وكثير من ذوي النُّفوس النَّفيسة، والأخلاق الرئيسة، لا يُظهر السُّرور متى رُزِقَ مالًا عفوًا بلا مِنَّة منيل، ولا يد مُعْطٍ مُستطيل؛ لأنَّه عند نفسه أكبر منه، ولأنَّ قدر المال يقصُر عنه؛ فكيف يُمدَح ملكٌ كبيرٌ كثيرُ القدر، عظيمُ الفخر، بأنَّه يتهلَّل وجهُه ويمتلئُ سرورًا قلبُه، إذا أعطى سائلَه مالًا. هذا نَقْضُ البناء، ومَحْضُ الهجاء، والفضلاءُ يفخرون بضدِّ هذا."[2]

إنَّ هذا البيت الشعري لزهير قد اختلف حوله النقاد والشعراء؛ حيث اعتبره بعضهم أمدح بيت قالته العرب، قال الثعالبي: "وممَّا وقع الإجماع على أنَّه أمدح بيت قالته العرب قول زهير:

تَـــــرَاهُ إذَا مَـــــا جِئْتَـــــهُ مُـــــتَهَلِّلًا كَأنَّـــكَ تُعْطِيـــه الَّـــذِي أَنْـــتَ سَـــائِلُهْ [3]

وذكر ابن قتيبة أنَّ "عبد الملك بن مروان قال لقوم من الشعراء: أيُّ بيت أمدحُ؟ فاتَّفقوا على بيت زُهير: (تَرَاهُ إذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ...) البيت."[4]، وفي كتاب نهاية الأرب نقف على هذا الرأي وما يُناقضه؛ حيث قال: "وقالوا: أمدحُ بيت قالته العرب قول زُهير: (تَرَاهُ إذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ...) البيت. وعاب بعضهم هذا البيت، وقال: جعل الممدوح يفرح بغرض يناله، وليس هذا صفة كبير الهمَّة."[5]، والمقصود بالبعض الذين عابوا هذا البيت هو ابن شرف، كما هو واضح من الكلام، والذي يعنينا هنا أنَّ هذا النقد من ابن شرف لبيت عدَّه الكثير من النقاد والشعراء أمدح بيت قد يجعل الكثير من النَّاس يقفون مذهولين؛ فأيُّ نظرة عميقة هذه من ابن شرف، التي قلبت البيت رأسًا على عقب! فالكثير من الدَّارسين قديمًا وحديثًا نظروا إلى هذا البيت على أنَّه من أروع وأجمل ما قيل في المدح، فهذا طه حسين وهو من المعاصرين ما زال ينظر إلى هذا البيت نظرة إعجاب وإبداع، فيقول في سياق حديثه عن مدح زهير لحصن بن حذيفة بن بدر الفزاري في قصيدته المشهورة، والتي منها:

---

[1] – زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص92.

[2] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص49.

[3] – الثعالبي، خاص الخاص، ص142.

[4] – ابن قتيبة، الشِّعر والشعراء، ص74.

[5] – النُّويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: حسن نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص176.

وَأَبْـــيَضَ فَيَّـــاض يَـــداهُ غَمامَـــةٌ عَلـــى مُعتَفيـــهِ مـــا تُغِـــبُّ فَواضِـــلُه

أَخـــي ثِقَـــةٍ لا تُتلِـــفُ الخَمـــرُ مالَـــهُ وَلَكِنَّـــهُ قَـــد يُهلِـــكُ المـــالَ نائِلُـــه[1]

فيقول طه حسين مُعبِّرًا عن إعجابه بهذه الأبيات: "أجمل شيء في هذا الشِّعر أنَّه واضحٌ سهلٌ، لا يُجهد سمعك إن سمعته، ولا يُجهد عقلك إن وعيته، وإنَّما هو نقيٌّ ناصعٌ كصفحة الشَّمس، وخصال الممدوح فيه، هي هذه الخصال التي يُحبُّها النَّاس، ويألفها العرب"[2]، ثمَّ يستطرد قائلاً: "ثمَّ يمضي الشاعر في مدحه، فَيَصِلُ إلى هذا البيت البديع، الذي لا أعرف أبدع منه في سذاجته ويُسره، وارتفاعه عن التكلُّف، وتصويره لطبيعة الإنسان السَّهلة السَّمحة التي لم تُعقِّدها الفلسفة، ولم يلح عليها التَّرف، ولم تُخرجها الحضارة عن طورها:

تَـــراهُ إذا مـــا جِئتَـــهُ مُـــتَهَلِّلاً كَأَنَّـــكَ تُعطيـــهِ الَّـــذي أَنـــتَ ســـائِلُه[3]

لهذا نجد ابن شرف، وقبل خوضه في نقد هذا البيت يُنبِّه إلى التحفُّظ والتَّأمُّل، وعدم الانسياق وراء كلِّ ما يُقال، لأنَّ الحقَّ واضحٌ جليٌّ، فيقول: "وقال زُهير أيضا، وهو من أطيب شعره وأملحه عند العامة، وكثير من الخاصة، فها هنا تحفَّظ وتأمَّل، ولا يَهُلْكَ ذلك منهم، الحقُّ أبلجُ."[4]

وأمَّا عن معايب هذا البيت، فابن شرف يرى أنَّه يحمل في ثناياه ثناء ناقصًا وهجاءً محضًا؛ فكيف يُمدح ملكٌ كبير القدر، عظيم الشأن بأنَّه يتهلَّل وجهه ويمتلئ قلبه سرورًا إذا أعطى سائله مالاً؟! إذْ ليس هذا من صفات النُّفوس السَّامية، وأصحاب الهمم العالية، وإنَّما هو عندهم سقوط همَّة وصغر نفسٍ. ولم يكتفِ ابن شرف بهذا النقد، بل راح يُعلِّل ويُبيِّن ما الذي غرَّ زُهيرًا أن يقول ما قال، ومعه مَنْ استحسن هذا البيت، فيقول: "وإنَّما غرَّ زُهيرًا وغرَّ المستحسنَ بيتَه هذا ما جُبِلُوا عليه من حُبِّ العطاء، وما جَرتْ به عاداتُهم من الرَّغبة في الهِبَات والاسْتِجْدَاء؛ وليس كلُّ الهِمَمِ تستحسنُ ذلك، ولا كلُّ الطِّباع تسلُكُ هذه المسَالِكَ."[5]

وهذا الكلام لو سمعه زهير لندم على ما قال، وربَّما امتنع وتوقَّف عن قول الشعر؛ لأنَّ ابن شرف يرى أنَّ الباعث على قول هذا الكلام هو الطَّمع وحُبُّ العطاء، والرَّغبة في الهبة والاستجداء، وهذا ما لا يرضاه زهير على نفسه أبدًا. ويتواصل نقد ابن شرف على لسان أبي الرَّيَّان في بيت آخر، فيقول: "وقال زهير أيضا يمدح سادة من النَّاس فذمَّهم بأنواع الذمِّ، وأكثرُ النَّاس على استحسان ما قال، بل أظنُّ كلّهم على ذلك، وهو قوله:

عَلَـــى مُكْثِـــرِيهم حـــقُّ مَـــنْ يَعْتَـــرِيهمُ وعِنـــدَ الـــمُقِلِّينَ السَّـــمَاحَةُ والبَـــذْلُ"[6]

---

[1] – زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص91.

[2] – حسين طه، حديث الأربعاء، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط14، دت، ج1، ص111.

[3] – المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

[4] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص49.

[5] – المصدر نفسه، ص50.

[6] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص50، والبيت في الديوان، ص87، وفيه نجد(رِزْقُ) عوض(حَقُّ).

وهذا البيت أيضًا قد استحسنه الكثير من النَّاس قديمًا وحديثًا، واعتبره بعض النقاد والحذَّاق من أمدح ما قالت العرب، جاء في كتاب المصون، في ذِكْر أمدح بيت قالته العرب، قوله: "وقالوا أيضا: بيتُ زهير، على مُكثريهم...البيت."[1]، فهذا الخليفة عبد الملك بن مروان، وقد جمع بني أميَّة، قائلاً لهم: "يا بني مروان، أحسابَكم أحسابَكم، فما ضرَّ قومًا قيل فيهم قولُ زهير، ووَدِدْتُ أنَّ البيت قيل في قومي:

عَلَـــى مُكْثِـــرِيهم رِزْقُ مَـــنْ يَعْتَـــرِيهمُ وعِنـــدَ الـــمُقِلِّينَ السَّـــمَاحَةُ والبَـــذْلُ

وما نفع قومًا مُدحوا به بعد قول الأعشى، وما يسرُّني أنَّه قيل في قومي، وأنَّ لي الدنيا بأسرها:

يَبيتُـــون فـــي الـــمَشْتَى مَـــلاءً بُطُـــونُهم وَجَـــارَاتُهُم غَرْثَـــى يَبِـــتْنَ خَمَائِصَـــا"[2]

ولكنَّ ابن شرف يكشف عيوب هذا البيت، والتي لا تخرج عن كونها عيوبًا تمسُّ بشكل مباشر الأخلاق والفضائل؛ فيُبيِّن أنَّ زُهيرًا قد ذمَّ سادة هؤلاء القوم في حين كان يمدحهم، فيقول: "فأوَّل ما ذمَّهم به إخبارُه أنَّ فيهم مُكثرين ومُقلِّين. فلو كان مُكثروهم كُرماء لبذلوا لمقلِّيهم الأموال، حتى يستووا في الحال، ويُشبهوا في الكرم والحال."[3]، وقد أساء زُهير وأخطأ، في حين أحسن وأصاب حسَّان بن ثابت وغيره من الشعراء؛ "فهذا حسَّان يقول:

الـــمُلْحِقِينَ فَقِيـــرَهم بِغَنِّـــيهم والـــمُشْفِقِينَ عَلَـــى اليَتِـــيمِ الـــمُرْمِلِ

وكما قال غيره:

الخَـــاطِلِينَ فَقِيـــرَهم بِغَنِّـــيهم حَتَّـــى يَعُـــودَ فَقِيـــرُهم كَالكَافِـــي

فهذا كُلُّه –وأبيك– غايةُ المدح النَّقيّ من القَدْح."[4]، ومن عيوب هذا البيت أيضًا، والتي عدَّها ابن شرف خللاً وزللاً، ما أورده في قوله: " ثمَّ استمع ما في هذا البيت سوى هذا من الخلل والزلل. قال:

عَلَـــى مُكْثِـــرِيهم حـــقُّ مَـــنْ يَعْتَـــرِيهمُ وعِنـــدَ الـــمُقِلِّينَ السَّـــمَاحَةُ والبَـــذْلُ

ففي هذا القسم الأوَّل عيوبٌ على المكثرين منهم، منها أنَّهم ضيَّعوا القريب كما قدَّمنا، ورَعَوْا حقَّ الغريب، وصلةُ الرَّحم أولى ما بُدِئ به. ومن مكارم العرب حَمِيَّتُها لذوي أنسابها، وذبِّها عن أحسابها؛ والأقرب فالأقرب، وما فَضُلَ عن ذلك فللأبعد. ثم أخبر: أنَّ المكثرين ليس يسمحون بأكثر من الاستحقاق في قوله: (على مُكثريهم حقُّ من يعتريهم)، ومن أعطى الحقَّ فإنَّما أنصف ولم يتفضَّل بما وراء الإنصاف، والزِّيادة على الإنصاف أمدح. ثم أخبر في البيت: أنَّ المقلِّين على قدر قُصُور أيديهم أكرمُ طباعًا من مُكثريهم على قَدْرهم في قوله: (وعند المقلِّين السَّماحة والبذل)، والبذل مع

---

[1] – العسكري، المصون في الأدب، ص23.

[2] – الدهماني تركي بن الحسين، نزهة الأديب والكاتب البليغ، دار أمواج للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 2013م، ص116-117.

[3] – ابن شرف، المصدر السابق، ص50.

[4] – المصدر نفسه، ص50-51.

الإقلال مدحٌ عظيم وإيثار، والسَّماحة إعطاء غير اللازم، فمَدَح بشعره هذا مَن لا يحظى منه بطائل، وذمَّ الذين يرجو منهم جزيل النَّائل؛ وهذا غايةُ الغلط في الاختيار، وفي ترتيب الأشعار."[1]

إنَّ ما عرضه ابن شرف من عيوب في هذا البيت، وما بيَّنه من خلل وزلل يعتريه، ليضعه موضع المتحدِّي لعدد كبير من النقاد الذين أفصحوا عن إعجابهم واستحسانهم له. ولأنَّ هذا النقد اتَّسم –نسبيًّا– بالمنطقية والعقلية فقد أصبح محلَّ قبول من بعض العلماء، فهذا ابن قيم الجوزية يقول عن هذا البيت: "هذا البيت قد ذكر أرباب الصِّناعة أنَّه أمدح بيت قالته العرب، وقد طعن عليه بعض الحُذَّاق منهم، وذكر فيه عيوبًا منها أنَّهم لو كانوا كرماء ما كان فيهم مُقلٌّ، ومنها أنَّه جعل حقَّ المعتري على المكثرين واجبًا عليهم، ولم يُوجبه على المقلِّين، فكان المكثرون عليهم إكرام الضيف واجبًا، ولم يكن واجبًا على المقلِّين، فاقتضى ذلك أن يكون إعطاء المكثرين عن كظم، وإعطاء المقلِّين عن كرم، فصار المقلِّون أحسن حالاً من المكثرين وأكرم نفسًا. وعليه مآخذ أخرى غير هذه، ولسنا بصدد استيفائها."[2]

ولأنَّ ابن شرف يعلم جيِّدا أنَّ هذا النقد –وبالخصوص نقده لزهير– لن يروق الكثير من النَّاس والنُّقاد، خاصَّةً بعض المتعصِّبين له، –ويعني تحديدًا ابن رشيق؛ لأنَّه أظهر إعجابه واستحسانه لزهير وشعره في عُمدته وقُراضته في أكثر من موضع–؛ ها هو يُوضِّح مرَّة أخرى أنَّه لا يتحامل أو يتجنَّى على أحد من الشعراء، وإنَّما غايته أن يُبيِّن ما للشاعر وما عليه، يذكر محاسن شعره ومساوئه، ليُؤكِّد على أنَّه ناقد محايدٌ، لا يتأثَّر بآراء غيره. فيقول في هذا الشأن: "ولِزُهير غير هذا من السَّقطات لولا كُلفة الاسقتصاء. هذا على اشتهاره بأنَّه أمدح الشعراء، وأجزل الوافدين على الأشراف والأمراء، وسيتعامى المتعصِّبُ له عن وضوح هذا البيان، وسيُنكر جميع هذا البرهان؛ ويجعل التَّفتيش عن غوامض الخطأ والصَّواب استقصاءً وظُلمًا، ومُطالبةً وهَضْمًا، وزعم أنَّ جميع الشِّعر لو طُلِبَ هذه المطالبة لبَطُلَ صحيحُه، وانعجم فصيحُه، والباطلَ الذي زَعَمَ، والمُحالَ الذي به تكلَّم؛ فالسَّليمُ سليمٌ، والكليمُ كليمٌ."[3]

والذي نخلُص إليه في الأخير أنَّ ابن شرف ينتحي في نقده منحى خلقيًّا، بل مثاليًّا في بعض الأحيان، "لم يخرج به عن طبيعة النقد القديم الذي سادت مقاييسه في العصر الإسلامي والأموي، وظلَّت آثاره ملموسة على مرِّ الزمن."[4]، وأنَّ النظرة الأخلاقية في نقده لزهير، وإن كانت قد خَفَتْ قليلاً عمَّا كانت عليه في نقده لامرئ القيس، إلاَّ أنَّها ظلَّت موجودة، وتبرز من حين لآخر، وهذا ما لمسناه في نقده لأبيات زهير السابقة. ثمَّ أنَّنا نُلاحظ أنَّ نقده وإن كان جُزئيًّا وخاصًّا بأبيات محدَّدة، إلاَّ أنَّه كان يتَّسم بالبرهنة والاستدلال، أي أنَّه كان يحتكم في نقده إلى العقل والمنطق إلى حدٍّ

[1] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص51–52.

[2] – ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص174.

[3] – ابن شرف، المصدر السابق، ص52.

[4] – عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص475.

ما، ولم يكن نقده مبنيًّا على أهواء ذاتية، ومصالح شخصيَّة، أو من أجل إظهار عيوب فضلاء الشعراء تحامُلاً وتجنِّيًا فحسب. "فهو صاحب قضية يُبرهن عليها، وليس موتُورًا يتشفَّى، وبعبارة علميَّة: هو ينقد نقدًا موضوعيًّا."[1]

المعيار الأخلاقي في بعض عيوب الشِّعر:

ويختم ابن شرف رسالته بذكر بعض عيوب الشِّعر، وسنقف عند العيوب التي لا علاقة بصورة ما بالنقد الأخلاقي، ومن ذلك: الافتتاحات المُتطيَّر بها، فيقول: "ويُعاب أيضًا الافتتاحاتُ المُتطيَّرُ بها، والكلامُ المضادُّ للغرض، كابتداء قصيدة أبي نُواس التي أنشدها الفضلَ بن يحيى بن خالد البرمكيَّ يُهنِّئه ببُنيانه الدَّار الجديدة، فدخل إليه عند كمالها وقد جلس للهناء والدُّعاء، وعنده وُجُوهُ النَّاس، فأنشده:

أَرَبْـــعَ البِلَـــى! إنَّ الخُشُـــوعَ لَبَـــادِ عَلَيْـــكَ وإنِّـــي لـــم أخُنْـــكِ وِدَادِي

فتَطيَّر الفضلُ من ذلك ونكَّسَ رأسَه، وتَناظرَ النَّاسُ بعضُهم إلى بعض، ثم تمادَى فختَمَ الشِّعرَ بقوله:

سَـــلامٌ علـــى الـــدُّنيَا إذا مـــا فُقِـــدتُم بَنـــي بَرْمَـــكٍ مِـــنْ رائحـــينَ وغَـــادِ

فَكَمُلَ جهلُه، وتمَّ خطؤُه؛ وزاد القُلوبَ المتوقِّعةَ للخُطُوب سُرعةَ توقُّع، وأضافَ للنُّفُوس المتوجِّعةِ بذِكْرِ الموتِ شِدَّة توجُّع؛ وأراد أنْ يمدحَ فهجَا، ودخلَ ليُسِرَّ فشَجَا."[2]، وقد ذكر ابن رشيق هذه الحادثة في كتاب العمدة، وتناولناها بالتَّحليل ضمن القضايا النقدية الأخلاقية، وبيَّنا الأثر النَّفسي ومن ثمَّ الخلقي والدِّيني من التطيُّر، وهذا بسبب سوء الافتتاح في الشِّعر. ثمَّ قال ابن شرف: "وقريب من هذا ما وقع للمتنبِّي في أوَّل شعر أنشده كافورًا:

كَفَـــى بِـــكَ دَاءً أنْ تَـــرَى الـــمَوتَ شَـــافِيًا وحَسْـــبُ المنَايَـــا أنْ يَكُـــنَّ أمَانِيَـــا

فهذا الخطاب بالكاف يقبُحُ ولا سيَّما في أوَّل لُقيةٍ، وفي ابتداء استعطاف ورد به"[3]، فالمتنبِّي وإنْ كان يُخاطب نفسه في هذا البيت قائلاً:(كَفَاكِ من أذيَّة الزَّمان ما تتمنِّي معه الموت)، وفي هذا غاية الشدَّة التي حلَّت به. إلاَّ أنَّه أخطأ عندما افتتح القصيدة بهذا البيت في حضرة ملك يُريد مدحه في أوَّل لقاء به. "وفي الابتداء بذكر الدَّاء والموت والمنايا ما فيه من الطِّيَرَة التي تنفر منها السُّوقة، فضلاً عن الملوك "[4]. ولا يقف ابن شرف عند بيان العيب هذه المرَّة، بل يقترح تصويبًا للبيت، فيقول: "وإصلاح هذا الفساد، وبلوغه إلى المراد، أن يقول:

كفـــى بالمنايـــا أن تكـــنَّ أمانيـــا وحســـبُك داءً أن تـــرى المَـــوْتَ شـــافيا

فيعُودُ الدَّاءُ المستعظَمُ كما أراد، وتزول خُشونةُ ابتدائه، وشدَّةُ جفائه، إذْ خاطبَ الممدوحَ بالكاف فجعله داءً عظيمًا في أوَّل كلمة سمعها منه "[5]. ويأتي ابن شرف بمثال آخر من أمثلة سوء الافتتاح، من شاعر معاصر له، ولكنَّه لم يذكر

---

[1] – قلقيلة عبده عبد العزيز، النقد الأدبي في المغرب العربي، ص232.

[2] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص56-57. والبيتان في الدِّيوان، ص220-221.

[3] – ابن شرف، أعلام الكلام، ص40. والبيت في الديوان، ص403.

[4] – الثَّعالبي، يتيمة الدَّهر، ج1، ص182.

[5] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص60-61.

اسمه، فيقول: "ووقع مثل هذا من قُبح الاستفتاح في عصرنا، وذلك أنَّ بعض الشعراء أنشد بعض الأمراء في يوم المهرجان، فقال:

لا تَقُـــلْ بُشْـــرَى ولكـــنْ بُشْـــرَيَان وَجْـــهُ مَـــنْ أهْـــوَى ووَجْـــهُ الـــمِهْرَجَانِ

فأمر بإخراجه، واستطار بافتتاحه، وحَرمَه إحسانَه."[1]، ولأنَّ الشاعر يفتقر إلى الفطنة والذكاء في مثل هذه المواطن خاصَّة، ها هو ابن شرف يُحاول إصلاح ما أفسده، فيقول: "ولو كان هذا الشاعر حَاذِقًا لكان إصْلاحُ هذا الفساد أيْسَرَ الأشياء عليه، وذلك بأنْ يعكسَ البيت فيقول:

وَجْـــهُ مَـــنْ أَهْـــوَى ووَجْـــهُ الـــمِهْرَجَان أيُّ بُشْـــرَى هـــي لا بـــل بُشْـــريَان[2]

ثمَّ ينتقل ابن شرف إلى الحديث عمَّا يعيب النَّسيب، فيقول: "ويقبُحُ أيضًا الجفاءُ في النَّسيب على الحبيب والتضجُّر ببُعْدِه، وغلظة العِتاب على صدِّه، كقول أبي نُواس:

أجـــارةَ بَيْتَيْنَـــا أبُـــوكِ غَيُـــورُ ومَيْسُـــورُ مـــا يُرْجَـــى لَـــدَيْكِ عَسِـــيرُ

فـــإن كُنْـــتِ لا خِـــلاًّ ولا أنـــتِ زوْجـــةٌ فـــلا بَرِحَـــتْ منَّـــا عليـــكِ سُـــتُورُ

وجـــاوَرْتِ قوْمـــًا لا تـــزاوُرَ بينـــهمْ ولا قُـــربَ إلاَّ أن يكُـــونَ نُشُـــورُ[3]

فيُعيب ابن شرف على أبي نُواس هذا الجفاء والغدر والغلظة مع المحبوب، فيقول: "فلم أسمَعْ بأوحش من هذا النَّسيب، ولا أخشن من هذا التَّشبيب، وذلك قوله: إن لم تكوني لي زوجة ولا صديقة فلا برحت منَّا سُتور للتُّراب عليكِ، ولا كان جارُكِ ما عشنا نحن إلاَّ الموتى الذين لا يتزاورون ولا يتواصلون إلى يوم النشور. على أنَّ كلامه يشهد عليه بأنَّه شاكٌّ، وإنَّما المعروف في أهل الرِّقة والظَّرف، والمعهود من أهل الوفاء والعطف؛ أن يَفْدُوا أحبابَهم بالنُّفوس، من كل مكروه وبُوس؛ فأين ذهبت ولادتُه البصرية، وآدابُه البغدادية؛ حتى اختار الغَدْرَ على الوفاء، وبلغت به طباعُه إلى أجفى الجفاء؟ فاعلم هذا وإيَّاك أن تعمل به."[4]

وهذه الأبيات هي مطلع قصيدة في مدح الأمير الخصيب بن عبد الحميد العجمي، وكان عامل الخَراج بمصر في عهد الخليفة هارون الرَّشيد، وتُعدُّ من أحسن وأجود ما قال أبو نواس. "ذكر جامع الدِّيوان من أنَّ أبا نواس لـمَّا قدم على الخصيب في مصر صادف في مجلسه جماعة من الشعراء ينشدونه مدائح فيه، فلما فرغوا قال الخصيب: ألا تنشدنا أبا

---

[1] – ابن شرف، رسائل الانتقاد، ص57. وقائل هذا البيت هو أبو مقاتل، أنشده الدَّاعي، فأوجعه ضربًا ثمَّ قال: هلاَّ قلتَ: إنْ تقلْ بُشرى فعندي بُشريان. التَّهميش رقم1، ص57.

[2] – المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

[3] – نفسه، ص58، ويُنظر الأبيات، أبو نواس الحسن بن هانئ، الدِّيوان، دار صادر بيروت، لبنان، دط، دت، وفي الديوان نجد(خِلْمًا) عوض (خلاًّ)، و(دوني) عوض (منَّا)، و(جاورتُ) عوض (جاورتِ)، و(وَصْلَ) عوض (قُرْبَ). والخِلم: الصَّديق أو الصَّاحب، التهميش رقم2، ص327.

[4] – ابن شرف القيرواني، المصدر السابق، ص58–59.

علي؟ فقال: أنشدك أيُّها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقَّف ما يأفكون! قال: هات إذًا. فأنشده رائيته المشهورة:

أجَـــارَة بَيتَينَـــا أَبُـــوكِ غَيُـــور وَمَيسُـــور مَـــا يُرْجَـــى لَـــدَيك عَسِـــير

فاهتزَّ لها الخصيب، وأمر له بجائزة سنيَّة."[1] وقد اعتبرها بعض النقاد من أجمل ما قيل في المدح، وهي من عيون قصائد أبي نواس التي ذاع صيتها، واشتهرت بين النَّاس. يقول ابن المعتز: "وممَّا يختاره أهل الفهم من شعر أبي نواس كثير، كما أنَّ الرديء ينفونه من شعره، ولكن نورد من ذلك ما لم يشتهر عند العوام، وندع ما قد اشتهر، فإنَّ رائيته في الخصيب، وإنْ كانت من قلائده موجودة عند كلِّ إنسان، وليست كميميَّته التي لا تُقصِّر عنها حُسنًا وجودة."[2]

ولأنَّ هذه القصيدة قد طار ذكرها بين النَّاس، واشتهرت بين الخاصَّة والعامَّة في جميع الأمصار فقد عارضها بعض الشعراء القدماء، كالشاعر أحمد بن درَّاج القسطلي بأمر من المنصور بن أبي عامر، حاجب الممالك الأندلسية في عهد المؤيَّد الأموي، حيث يقول في مطلعها:

دَعِـــي عَزَمَـــاتِ الـــمُسْتَضَامِ تَسِـــيرُ فتُنْجِـــدُ فـــي عُـــرْضِ الفَـــلاَ وتَغُـــورُ
لعَـــلَّ بمَـــا أشْـــجَاكِ مِـــن لَوْعَـــةِ النَّـــوى يُعِـــزُّ ذَلِيـــلٌ أو يُفَـــكُّ أَسِـــيرُ
تُخـــوِّفُني طُـــولَ السِّـــفَارِ وإنَّـــه لِتَقْبِيـــلِ كَـــفِّ العَـــامِرِيِّ سَـــفِيرُ[3]

وعارضها أيضًا من القدامى الشاعر حسَّان بن نمير المعروف بعرقلة الدِّمشقي، فقد وازن قصيدة أبي نواس بقصيدة مدح بها صلاح الدِّين بن يوسف بن أيوب وقصده بها إلى مصر، كما فعل أبو نواس حين توجَّه بقصيدته إلى الخصيب، وفيها يقول:

عَسَـــى مِـــنْ دِيَـــارِ الظَّـــاعِنِين بَشِـــيرُ ومِـــن جَـــوْرِ أَيَّـــامِ الفِـــرَاقِ مُجِيـــرُ
لَقَـــد عِيـــلَ صَـــبرِي بَعـــدَهمْ وَتَكَـــاثَرتْ هُمُـــومِي ولِكـــنَّ المُحـــبَّ صَـــبُورُ
وكَـــم بـــين أكنَـــافِ الثُغُـــورِ مُتَـــيَّمٌ كَئِيـــبٌ غَزَتْـــه أعْـــيُنٌ وثُغُـــورُ[4]

ومن الشعراء المحدثين، عارضها محمود سامي البارودي في قصيدة، يقول في آخرها:

فَلَـوْ كُنْـتُ فـي عَصْـرِ الْكَـلامِ الَّـذِي انْقَضَـى لَبَـــاءَ بِفَضْـــلِي «جَـــرْوَلٌ» و«جَرِيـــرُ»
ولَـــو كُنـــتُ أدركـــتُ النُوَاسِـــيَّ لـــم يَقُـــلْ (أَجَـــارَةَ بَيْتَيْنَـــا أَبُـــوكِ غَيُـــورُ)
وَمَـــا ضَـــرَّنِي أَنِّـــي تَـــأَخَّرْتُ عَـــنْهُمُ وَفَضْـــلِي بـــينَ العَـــالَمِينَ شَـــهِيرُ

---

[1] – مبارك زكي، الموازنة بين الشعراء، مؤسسة الهنداوي، القاهرة، مصر، ط2، 2012م، ص219.

[2] – ابن المعتز عبد الله بن المتوكّل، طبقات الشعراء، تح: عبد الستَّار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط3، 1976م، ص211.

[3] – ابن درَّاج القسطلي أحمد بن محمد، الدِّيوان، تح: محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، سوريا، ط1، 1961م، ص297-298.

[4] – عرقلة الكلبي أبو النَّدى حسَّان بن نُمير الدمشقي، الدِّيوان، تح: أحمد الجندي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1992م، ص51.

فَيَـــا رُبَّمَـــا أَخْلَـــى مِـــنَ السَّـــبْقِ أَوَّلٌ وَبَـــزَّ الجِيـــادَ السَّـــابِقاتِ أَخِيـــرُ[1]

وفي هذه المعارضات دليل على مبلغ ما ظفرت به قصيدة أبي نواس من تقدير الشعراء، ومع ذلك فلم تسلم هذه القصيدة من النقد، وخاصَّة مطلعها الذي أثار حفيظة بعض النقاد، فهو مطلع –وإن كان في الغزل– إلاَّ أنَّه غير مألوف في الشعر العربي. ففي هذه الأبيات التي وقف عندها ابن شرف نجد أبا نُواس يتغزَّل بجارته بصورة غريبة عجيبة، فيذكر نفرتها منه، وانصرافها عنه، ويشكو عُسر ما يرجوه منها، في حين أنَّه يُفترض أنَّها محبوبته ومرجع هواه. ويقول لها بكلِّ غلظة وجفاء معاتبًا إيَّاها، إنْ لم تكوني لي صديقة أو زوجة فلا حاجة لي بكِ، ولا يكتفي بالبعاد والانفصال، بل يُريد فراقًا أبديًّا إلى يوم النشور. وهذا مخالفٌ لعُرف الشعراء في الغزل؛ فهم يُصوِّرون المرأة محبوبة ومعشوقة، ويصفون عجزهم وعدم قدرتهم على فراقها، في حين نجد أبا نواس يُفضِّل الموت، فيدعو عليها أو على نفسه بالموت، بحسب رواية (وجاورت)، بالكسر كما ذكرها ابن شرف، أو بالضمِّ كما هي مُثبتة في الدِّيوان. وكأنَّه بذلك يُريد عقابها، ويا له من عقاب!! أمَّا الشعراء أصحاب الوفاء والعطف–وإنْ لاقوا صدودًا وإعراضًا من محبوبهم–يبقى وفاؤهم وشوقهم وتودُّدهم لمن يُحبُّون قويًّا لا يفتر ولا ينقص أبدًا. أمَّا أبو نُواس فسرعان ما ملَّ وضجر، وتمنَّى الفراق الأبديَّ بينه وبين من يدَّعي حبَّها، فأيُّ حُبٍّ هذا؟!

وخلاصة القول أنَّ ما ذهب إليه أبو نواس في تغزُّله بجارته، وكما قال ابن شرف، يُنافي ويُناقض تمامًا أقوال وأفعال وأخلاق المحبِّين الصادقين.

[1] – البارودي محمود سامي، الدِّيوان، تح: علي الجارم ومحمد شفيق معروف، دار العودة، بيروت، لبنان، دط، 1998م، ص208.

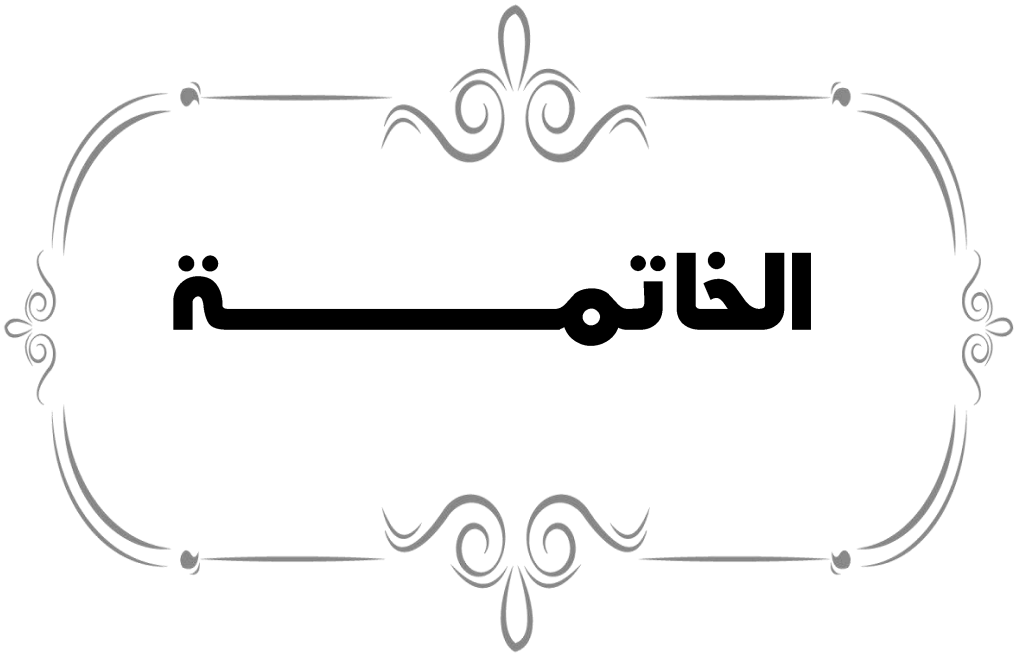

الخاتمـــــــة

خاتمـة:

وفي ختام هذه الرسالة نستعرض أهمَّ النتائج التي توصَّلنا إلينا مختصرة موجزة في النقاط الآتية:

1- يُعتبر الاتجاه الأخلاقي في النقد عمومًا سواء عند العرب أو غيرهم من الأمم من أقدم الاتجاهات النقدية ظهورا، وأطولها تاريخا، فهو ممتدٌّ عبر الزمان والمكان، فمن اليونانيين في الحضارات القديمة، إلى العرب والمسلمين في العصر الوسيط، وصولا إلى العصر الحديث والمعاصر.

2- يُعتبر عصر صدر الإسلام (النبوي والراشدي) العصر الذهبي للاتجاه الأخلاقي في النقد، وذلك لحرص النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده على أن يكون الشعر منسجمًا ومتوافقًا تمامًا مع تعاليم الدين الإسلامي الجديد. ولكن مع هذا نُسجِّل أنَّ هذا الاتجاه عُرف في العصر الجاهلي، ممَّا يجعلنا نقرُّ أنَّ الاتّجاه الأخلاقي في النقد العربي كان جاهليَّ النشأة، لكنَّه ظهر جليًّا ومتميِّزًا خاصَّة في العصر الإسلامي الأول.

3- إنَّ موقف الإسلام من الشعر متمثِّلا في القرآن الكريم والسنَّة النبوية المشرَّفة كان موقفا واضحًا وجليًّا لا غموض فيه ولا لُبس، فالإسلام لم يُعادِ الشِّعر ولم ينْهَ عنه لذاته -كما زعم بعض الدَّارسين-، وإنَّما نهى عن الشِّعر الذي سُخِّر لمحاربة الله ورسوله، والإساءة للإسلام والمسلمين، فهو يرى أنَّ الشِّعر كلام كبقية الكلام؛ حسنه حسن، وقبيحه قبيح، لهذا قَبِل وشجَّع الشعر الذي يدعو إلى الحقِّ والخير والفضيلة، ورفض الشِّعر الذي يدعو إلى الباطل والشرِّ والرذيلة.

4- بدأ النقد الأخلاقي في التراجع والتناقص ابتداء من العصر الأموي، وشيئًا فشيئًا كاد يُصبح -في فترات زمنية مختلفة- نسيًّا منسيًّا، لهذا وجدنا من الشعراء من تجرَّأ على الدِّين واستهزأ بالأخلاق، ولم يجد من الحكَّام أو النقَّاد حسيبًا أو رقيبًا، فتمادوا في غيِّهم وضلالهم، وتطاولوا على الثوابت والمقدَّسات الدينية والخلقية.

5- لم يشهد اتِّجاه نقدي ما شهده الاتجاه الأخلاقي من اختلاف وتباين في الرؤى بين النقاد، قديمًا وحديثًا؛ فهم ما بين مُؤيِّد ومعارض له، ومتردّد بينهما وهذا ما جعل الصراع مشتدًّا بينهم في كثير من القضايا التي مسَّها هذا الاتجاه سواء ما تعلَّق بالشعر أو الشاعر، تنظيرًا وتطبيقًا.

6- إنَّ اهتمام النقاد العرب بما فيهم نقاد المغرب العربي القديم بالاتجاه الأخلاقي، والاحتكام للدِّين والأخلاق في النقد كان الغرض الأساس منه هو حماية الدِّين والحفاظ على الأخلاق أوَّلا، ثمَّ توجيه الأدب الوجهة الصحيحة والسليمة، فالأدب في نظرهم يجب أن يكون تابعًا وخادمًا للدِّين والأخلاق، حتَّى لا يضلَّ أو يزيغ عن غايته وهدفه.

7- برز الاتجاه الأخلاقي في النقد في بلاد المغرب العربي القديم بصورة واضحة ومكثَّفة عند ثلاثة من المؤسسين، هم: النَّهشلي، وابن رشيق، وابن شرف، وكان ذلك من خلال جملة من القضايا النقدية التي عالجها هؤلاء النقاد في مؤلَّفاتهم: الممتع والعمدة ورسائل الانتقاد، وهذا ما جعلنا نقصُر الدراسة على هؤلاء الثلاثة.

8- تجلَّى النقد الأخلاقي عند النَّهشلي في قضيتين أساسيتين، هما: قيمة الشعر وفضله، حيث أكَّد على القيمة الأخلاقية والاجتماعية للشعر، وبيَّن دوره الهام في نشر الفضائل والمحاسن، ودرء المفاسد والمساوئ، وفي تصنيفه البديع للشعر، الذي كان وفق رؤية دينية وأخلاقية،كان ناقدنا متشبِّعًا بها. فشعر هو خيرٌ كلُّه، وشعرٌ هو ظرف كلُّه، وشعرٌ

هو شرٌّ كلُّه، وشعر يُتكسَّب به. فالنظرة الأخلاقية من النَّهشلي نحو الشعر، مردُّها إلى الرؤية التي ينظر بها إلى الشعر من حيث أنَّه يُرشد إلى الخير، ويُحذِّر من الشرِّ، ويُقوِّم السلوك، ويُواسي المحزون ويُسلِّي المهموم.

9- وتجلَّى النقد الأخلاقي عند ابن رشيق في عدَّة قضايا مسَّت بعضها الشاعر كمعالجته لقضية سلوك الشاعر وأخلاقه من خلال باب سمَّاه (في آداب الشاعر)، حيث تتبَّع الناقد سلوك وأخلاق الشاعر تنظيرًا في كتاب العمدة، وتطبيقًا في كتاب الأنموذج. ونجده كذلك في قضايا أخرى لها علاقة مباشرة بالشعر، كتناوله لقضايا النّية والبسملة والدعاء في الشعر، وبيان فضل الشعر ووظيفته، واستحسانه المعاني الدينية والخلقية واستقباحه المعاني الخارجة عليهما، كما نجد المعيار الأخلاقي بارزًا في معالجته لقضيتي التكسُّب بالشعر والمبالغة والغلوّ فيه، وفي تناوله الحديث عن أغراض الشعر، وبصفة بخاصَّة: النَّسيب، والمدح، والهجاء، حيث وقفنا على بعض الضوابط الأخلاقية التي حدَّدها لقصيدة النَّسيب والمدح والهجاء. وقد رأينا كلَّ ذلك تنظيرا وتطبيقا من خلال كتابيه العمدة والأنموذج.

10- أمَّا تمظهر النقد الأخلاقي عند ابن شرف فقد كان مختلفًا عمَّا وجدناه عند النَّهشلي وابن رشيق، ذلك لأنَّ معالجته النقدية كانت مغايرة تمامًا؛ حيث جاء الكتاب على شكل مقامة، تناول فيها بالنقد عددًا من الشعراء الجاهليين، وعددًا من الإسلاميين القدامى والمحدثين، وحتَّى بعض شعراء الأندلس والمغرب، فتعرَّض لبعض سقطاتهم وهناتهم، معتمدًا في بعض أحكامه ونظراته على المعيار الأخلاقي، كما استعرض في مقامته بعض العيوب الشعرية العامة، وبعض المبادئ النقدية، خاتمًا إيَّاها بتوجيهات عامة لكلِّ مَنْ يتصدَّى للنقد، وهي كذلك لا تخلو من بعض اللمحات الأخلاقية.

11- بالرغم من أنَّ الاتجاه الأخلاقي في النقد المغربي القديم -ومن خلال هؤلاء النقاد-كان واضح المعالم، بارز السِّمات، إلَّا أنَّه لم يكن الاتجاه الغالب أو المهيمن في أحكامهم ونظراتهم النقدية، فقد كان النقد الفنِّي هو الأبرز والأكثر استعمالا خاصة عند النَّهشلي وابن رشيق. ممَّا يجعلنا نصنِّف هؤلاء النقاد ضمن أصحاب المذهب التوفيقي والمعتدل في علاقة الشعر بالأخلاق.

12- اتَّفقتْ رؤية النقاد الثلاثة في القضايا النقدية المشتركة بينهم، وذات البعد الأخلاقي إلى حدٍّ كبير، ومن ذلك اتِّفاقهم حول قضية فضل الشعر ودوره الاجتماعي والتربوي والإصلاحي، فثلاثتهم -ومن خلال آرائهم- يرون أنَّ الشعر منوط به أن يقوم بوظيفته التهذيبية والأخلاقية والتعليمية، ولا يُمكن بحال أن يُجرَّد الشعر من هذه الأدوار، ويقتصر دوره فقط على الجانب الفنِّي والجمالي، فالقيمة الحقيقية للشعر تكمن في وظيفته التأثيرية أكثر من الوظيفة الشكلية المحضة. كما اتَّفقوا أيضًا في قضية التكسُّب بالشعر، وكانت آراؤهم حولها متقاربة إلى حدٍّ كبير.

15- تراوحت الأحكام النقدية ذات الملمح الأخلاقي عند نقاد المغرب العربي القديم بين التقليد والاقتباس من آراء بعض نقاد المشرق العربي، وهذا يدلُّ على وجود عامل التواصل والتأثير بين نقاد المشرق والمغرب، وبين الإبداع والتميُّز في بعضها الآخر، ممَّا يُسجِّل لهم الأسبقية فيها.

المصـــادر والمراجـــع

المصادر والمراجع

– القرآن الكريم.

* المصادر:

– ابن رشيق أبو علي الحسن القيرواني:

1– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدِّين عبد الحميد، دار الطلائع، مصر، دط، **2009**م.

2– أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط**1**، **1986**م.

3– ديوان ابن رشيق، جمعه ورتَّبه: عبد الرحمن ياغي، دار الثقافة، لبنان، دط، **1989**م.

– ابن شرف أبو عبد الله محمد القيرواني:

4– أعلام الكلام، ضبطه وصحَّحه: عبد العزيز أمين الخانجي، مكتبة الخانجي، مصر، ط**1**، **1926**م.

5– رسائل الانتقاد(في نقد الشعر والشعراء)، تح: حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط**1**، **1983**م.

6– ديوان ابن شرف القيرواني، تح: حسن ذكرى حسن، دار مصر للطباعة، مصر، دط، دت.

3– النهشلي أبو محمد عبد الكريم:

7– الممتع في صنعة الشعر، تح: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط**1**، دت.

8– اختيار الممتع في علم الشعر وعمله، تح: محمود شاكر القطان، دار المعارف، مصر، ط**1**، **1983**م.

9– الممتع في علم الشعر وعمله، تح: المنجي الكعبي، مطبعة تونس قرطاج، تونس، ط**2**، **2009**م.

* المراجع:

أ– الكتب العربية:

1– أبحير محمد، النقد الخلقي عند ابن بسَّام الشنتريني– الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة نموذجا، المطبعة الوطنية، المغرب، ط**1**، **2012**م.

2– إبراهيم طه أحمد، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى ق**4**هـ، المكتبة الفيصلية، السعودية، دط، **2004**م.

3– الأبشيهي محمد شهاب الدين، المستطرف في كلِّ فنٍّ مستظرف، تح: محمد خير طعمه الحلبي، دار المعرفة، لبنان، ط**6**، **2011**م.

4– ابن أبي الدنيا عبد الله بن محمد، مكارم الأخلاق، تح: محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1989**م.

5– ابن أبي ربيعة عمر بن عبد الله، الديوان، تح: فايز محمد، دار الكتاب العربي، لبنان، ط**2**، **1996**م

6– ابن الأثير مجد الدين الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: محمود محمد الطناحي، مطبعة الحلبي، سوريا، ط**1**، **1963**م.

7– ابن الجهم علي بن بدر، الديوان، تح: خليل مردم بك، منشورات دار الآفاق الجديدة، لبنان، ط**2**، **1980**م.

8– ابن الجوزي جمال الدِّين البغدادي، سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1984**م.

9– ابن الرومي أبو الحسن علي بن العباس، الديوان، تح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**3**، **2002**م.

10– ابن الطفيل عامر بن مالك، الدِّيوان، دار صادر، لبنان، دط، **1979**م.

11– ابن المعتز عبد الله بن المتوكّل، طبقات الشعراء، تح: عبد الستَّار أحمد فراج، دار المعارف، مصر، ط**3**، **1976**م.

12– ابن حجَّة الحموي، شرح قصيدة بانت سعاد، تح: علي حسين البوَّاب، مكتبة المعارف، السعودية، دط، **1985**م.

13– ابن حزم أبو محمد الأندلسي، رسائل ابن حزم، تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات، لبنان، ط**1**، **1983**م.

14– ابن حلّزة الحارث بن مكروه، الديوان، تح: اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، لبنان، ط**1**، **1991**م.

15– ابن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط**1**، **1997**م.

16– ابن خلدون عبد الرحمن أبو زيد وليّ الدين، المقدِّمة، دار الفكر، لبنان، دط، **2002**م.

17– ابن خلّكان أبو العبَّاس شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان، تح: إحسان عبّاس، دار صادر، لبنان، دط، **1977**م.

18– ابن دحية عمر بن حسن، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح: إبراهيم الأبياري وآخرون، دار العلم للجميع، لبنان، دط، دت.

19– ابن درَّاج القسطلي أحمد بن محمد، الدِّيوان، تح: محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، سوريا، ط**1**، **1961**م.

20– ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن، الاشتقاق، تح: عبد السَّلام محمد هارون، دار الجيل، لبنان، ط**1**، **1991**م.

21– ابن رشد محمد بن أحمد، تلخيص كتاب الشعر، تح: تشارلس هريدي، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، دط، **1986**م.

22– ابن سيدة علي، شرح المشكل من شعر المتنبي، تح: مصطفى السقَّا، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط**1**، **1976**م.

23– ابن سينا الحسين بن عبد الله، فنُّ الشعر من كتاب الشفاء، تح: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة، مصر، ط**1**، **1953**م.

24– ابن طباطبا أحمد محمد العلوي، عيار الشعر، تح: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**2**، **2005**م.

25– ابن عبد ربّه أبو عمر أحمد بن محمد القرطبي، الدّيوان، تح: محمد رضوان الدَّاية، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط**1**، **1979**م.

26– ابن عبد ربَّه، العقد الفريد، تح: عبد المجيد الترحيبي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1983**م.

27– ابن عطيَّة عبد الحق، المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح: عبد السَّلام محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **2001**م.

28– ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، عيون الأخبار، تح: اللجنة العلمية، دار الكتب المصرية، مصر، ط**2**، **1996**م.

29– ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: حسن تميم ومحمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، لبنان، ط**3**، **1987**م.

30– ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، تح: أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي، دار ابن القيم، السعودية، ط**2**، **2009**م.

31– ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوّق إلى علوم القرآن وعلم البيان، تح: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، دت.

32– ابن قيِّم الجوزية، إغاثة اللَّهفان من مصايد الشيطان، تح: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، لبنان، ط**2**، **1975**م.

33– ابن كثير إسماعيل بن عمر، البداية والنِّهاية، تح: هيئة من العلماء بدار النشر، منشورات مكتبة المعارف، لبنان، دط، **1991**م.

34– ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، السعودية، ط**2**، **1999**م.

35– ابن مُقبل تميم بن أُبيّ بن عوف القيسي، الديوان، تح: عزَّة حسن، دار الشروق العربي، لبنان، ط**1**، **1995**م.

36– ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، لبنان، دط، دت.

37– ابن منقذ أسامة بن مرشد، لُباب الآداب، تح: أحمد محمد شاكر، مكتبة السُّنَّة، مصر، دط، **1987**م.

38– ابن هاني أبو القاسم محمد الأندلسي، الديوان، تح: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، دط، **1980**م.

39– ابن هشام أبو محمد بن أيوب الحميري، السيرة النبوية، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان، ط**3**، **1990**م.

40– ابن هشام جمال الدين الأنصاري، شرح قصيدة بانت سعاد، تح: عبد القادر الطويل، المكتبة الإسلامية، مصر، ط**1**، **2010**م.

41– ابن وكيع الحسن بن علي التنيسي، المنصف للسارق والمسروق منه، تح: عمر خليفة، جامعة قار يونس، ليبيا، ط**1**، **1994**م.

42– أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، دط، **1986**م.

43– أبو أمامة زياد الأعجم، الديوان، تح: يوسف حسين بكَّار، دار المسيرة، الأردن، ط**1**، **1983**م.

44– أبو بكر الصِّديق عبد الله بن أبي قحافة، الديوان، تح: محمد شفيق البيطار، دار شِراع للدراسات، سوريا، ط**1**، **1993**م.

45– أبو تمام حبيب الطائي، الحماسة، تح: عبد الله عسيلان، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، دط، **1981**م.

46– أبو داوُد سليمان بن الأشعث، سنن أبي داوُد، تح: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، لبنان، دت، دط.

47– أبو ريَّان محمد علي، فلسفة الجمال ونشأة الفنون الجميلة، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط**8**، **1989**م.

48– أبو زيد بكر بن عبد الله، تصحيح الدُّعاء، دار العاصمة للنشر والتوزيع، السعودية، ط**1**، **1999**م.

49– أبو نواس الحسن بن هانئ، الديوان، دار صادر، لبنان، دط، دت.

50– الآبيّ منصور بن الحسين، من نثر الدُرِّ، تح: مظهر الحجّي، منشورات وزارة الثقافة السورية، سوريا، دط، **1997**م.

51– أحمد محمد الحوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، مطبعة نهضة مصر، مصر، ط**2**، **1952**م.

52– الأحوص عبد الله بن محمد بن عاصم، الديوان، تح: إبراهيم السَّامرائي، مطبعة النُّعمان، العراق، دط، **1969**م.

53– الأخطل أبو مالك غياث بن غوث، الدّيوان، تح: مهدي محمد ناصر الدّين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**2**، **1994**م.

54– أدونيس: الثابت والمتحوِّل، دار العودة، لبنان، ط**2**، **1979**م.

55– إسماعيل عز الدِّين، الأسس الجمالية في النقد العربي (عرض وتفسير ومقارنة)، دار الفكر العربي، مصر، ط**3**، **1974**م.

56– الأصفهاني علي بن الحسين، الأغاني، تح: إحسان عبّاس وإبراهيم السعافين وبكر عبّاس، دار صادر، لبنان، ط**3**، **2008**م.

57– الأعشى الكبير ميمون بن قيس، الدّيوان، تح: محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر، دط، دت.

58– الأعظمي وليد، شاعر الإسلام حسَّان بن ثابت الأنصاري دراسة أدبية تاريخية، مكتبة المنار، الكويت، دط، **1962**م.

59– الألباني محمد ناصر الدِّين، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، مكتبة المعارف، السعودية، دط، **1995**م.

60– الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيِّء في الأمَّة، مكتبة المعارف، السعودية، ط**1**، **2001**م.

61– الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، السعودية، ط**1**، **2000**م.

62– آمدي الحسن بن بشر، الموازنة بين شعر أبي تمَّام والبحتري، تح: السيّد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط**4**، **1994**م.

63– اِمرؤ القيس، الديوان، شرحه: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، لبنان، ط**2**، **2004**م.

64– أميَّة بن أبي الصَّلت بن عوف، الديوان، تح: سجيع جميل الجبيلي، دار صادر، لبنان، ط**1**، **1998**م.

65– أوس بن حجر، الديوان، تح: محمد يوسف نجم، دار صادر، لبنان، ط**3**، **1979**م.

66– أونبيُّ عبد الله بن عبد العزيز، سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، تح: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، **1935**م.

67– باحذاق عمر محمد، شرح الرسالة الشافية في إعجاز القرآن الكريم للإمام الجرجاني، دار المأمون، دمشق، سوريا، ط**1**، **1998**م.

68– البارودي محمود سامي، الدِّيوان، تح: علي الجارم ومحمد شفيق معروف، دار العودة، لبنان، دط، **1998**م.

69– الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيِّب، إعجاز القرآن، تح: السيّد أحمد الصقر، دار المعارف، مصر، ط**3**، دت.

70– بحتري أبو عبادة الوليد بن عبيد الطَّائي، ديوان البحتري، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت.

71– البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح الأدب المفرد، تح: ناصر الدين الألباني، مكتبة الدليل، الرياض، السعودية، ط**4**، **1997**م.

72– البخاري، صحيح البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الإمام مالك، الجزائر، ط**3**، **2014**م.

73– بدوي أحمد أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، **1996**م

74– البستاني بطرس، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، شركة كلمات عربية ومؤسسة هنداوي، مصر، دط، **2013**م.

75– البسطويسي مصطفى عطا، المجالس الأدبية في العصر الأموي وأثرها في النقد الأدبي، دار الجبار، مصر، ط**1**، **2003**م.

76– البغدادي عبد القادر، خزانة الأدب ولبُّ لباب لسان العرب، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط**4**، **1997**م.

77– البلاذري أحمد بن يحي، كتاب جمل من أنساب الأشراف، تح: سهيل زَكّار ورياض زركلي، دار الفكر، لبنان، ط**1**، **1996**م.

78– بنت الشاطئ عائشة عبد الرحمن، تراجم سيِّدات بيت النبوَّة، دار الريان للتراث، القاهرة، مصر، ط**1**، **1987**م

79– بنت الشاطئ، قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، دار المعارف، مصر، ط**2**، **1992**م

80– البهوتي منصور بن يونس بن إدريس، كشَّاف القناع عن مَتن الإقناع، عالم الكتب، لبنان، دط، **1983**م.

81– البيهقي أبو بكر إبراهيم بن محمد، المحاسن والمساوئ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، دط، **1991**م.

82– البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تح: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1988**م.

83– الترمذي محمد بن عيسى، الجامع الكبير، تح: بشَّار عوَّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط**1**، **1996**م.

84– الثعالبي أبو منصور عبد الملك، خاص الخاص، تح: مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1994**م.

85– الثعالبي، يتيمة الدَّهر في محاسن أهل العصر، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1983**م.

86– الثقفي أبو محجن عبد الله بن حبيب، الدِّيوان، تح: سالمان محمد، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط**1**، **2007**م.

87– الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط**7**، **1998**م.

88– الجاحظ، البخلاء، دار ابن الجوزي، مصر، ط**1**، **2012**م.

89– الجاحظ، كتاب الحيوان، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط**2**، **1965**م.

90– الجبوري يحي، شعر الحارث بن خالد المخزومي، مطبعة النعمان، العراق، ط**1**، **1972**م.

91– الجداونة حسين، في النقد الأدبي القديم عند العرب، مؤسسة حمادة ودار اليازوري، الأردن، ط**1**، **2012**م.

92– الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، مصر، ط**5**، **2004**م.

93– الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **2001**م.

94– جرير أبو حزرة بن عطية الخطفي، الديوان، تح: كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، دط، **1986**م.

95– الجمحي محمد بن سلاَّم، طبقات فحول الشعراء، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، مصر، دط، دت.

96– جميل بن عبد الله بن معمر، ديوان جميل، تح: حسين نصَّار، دار مصر للطباعة، مصر، دط، **1979**م.

97– حاتم الطائي، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، دط، **1982**م.

98– الحاجري محمد طه، تاريخ المذاهب الأدبية في العصر الجاهلي والقرن الأول الإسلامي، دار النهضة العربية، لبنان، ط**1**، **1982**م.

99– الحارثي محمد بن مريسي، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتَّى نهاية ق**7**هـ، نادي مكة الثقافي، السعودية، دط، **1989**م.

100– حافظ حسين لفته، المعنى في النقد العربي القديم، دار صفاء للنشر والتوزيع، الأردن، ط**1**، **2014**م.

101– حامد محمود رزق، النقد الأدبي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي، دار العلم، مصر، ط**1**، **2010**م.

102– حسَّان بن ثابت الأنصاري، الديوان، تح: عبد الله سندة، دار المعرفة، لبنان، ط**1**، **2006**م.

103– حسن محمد صادق، خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجدّدة، دار الفكر العربي، مصر، ط**1**، **1985**م.

104– الحسين بن مطير الأسدي، الدّيوان، تح: عطوان حسين، معهد المخطوطات العربية، الدوحة، قطر، دط، **1969**م.

105– حسين طه، حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، ط**14**، دت.

106– الحسين قصي، النقد الأدبي عند العرب واليونان معالمه وأعلامه، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط**1**، **2003**م.

107– الحصري إبراهيم بن علي، جمع الجواهر في الملح والنَّوادر، تح: محمد العزاوي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **2018**م.

108– الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تح: زكي مبارك، المطبعة الرحمانية، مصر، دط، **1925**م.

109– الحُطيئة جرول بن أوس، الدّيوان، تح: حمدو طمَّاس، دار المعرفة، لبنان، ط**2**، **2005**م.

110– حمد عبد الله خضر، اتجاهات النقد العربي القديم، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط**1**، **2017**م.

111– الحمداني إبراهيم محمود، المصطلح النقدي في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني: دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **2014**م.

112– حمود عباس ثابت، المعيار الأخلاقي في نقد الشعر العربي من ق**3**هـ حتى نهاية ق**7**هـ ، دار دجلة، العراق، ط**1**، **2011**م.

113– الخازن البغدادي، لباب التأويل في معاني التنزيل، تح: عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **2004**م.

114– الخبزأرزي نصر بن أحمد، الدّيوان، تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مجلة المجمع العلمي، العراق، ج**1**، مج**40**، **1989**م.

115– ختير عبد ربي، النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي، دار الغرب، الجزائر، دط، **2003**م.

116– خضر محمد، النقد الأدبي عند العرب– الخطوات الأولى، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، دط، **2007**م.

117– الخطيب التبريزي يحي بن علي الشيباني، شرح ديوان الحماسة، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **2000**م.

118– الخفاجي أبو محمد عبد الله بن سنان، سرُّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1982**م.

119– خلدون بشير، الحركة النقدية على أيَّام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، **1981**م.

120– الخنساء تماضر بنت عمرو السلمية، الديوان، اعتنى به وشرحه: حمدو طمَّاس، دار المعرفة، لبنان، ط**2**، **2004**م.

121– الدحيَّات عيد، النظرية النقدية الغربية من أفلاطون إلى بوكاشيو، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ط**1**، **2007**م.

122– دريد بن الصِّمَّة، الدّيوان، تح: عمر عبد الرسول، دار المعارف، مصر، دط، دت.

123– دعبل بن علي الخزاعي، الديوان، تح: ضياء حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، ط**1**، **1997**م.

124– الدَّهان سامي، المديح، دار المعارف، مصر، ط**5**، **1992**م.

125– الدهماني تركي بن الحسين، نزهة الأديب والكاتب البليغ، دار أمواج للنشر والتوزيع، الأردن، ط**1**، **2013**م.

126– الذَّهبي شمس الدِّين محمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير، تح: عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، لبنان، ط**1**، **1990**م.

127– الذَّهبي، سير أعلام النبلاء، تح: خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، مصر، ط**6**، **2014**م.

128– ذو الرُّمة أبو الحارث غيلان بن عقبة، الديوان، تح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1995**م.

129– الرازي محمد فخر الدين، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الفكر، لبنان، ط**1**، **1981**م.

130– الراغب الأصفهاني الحسين بن محمد، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، تح: عمر الطبَّاع، دار الأرقم، لبنان، ط**1**، **1999**م.

131– الرافعي مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **2000**م.

132– الربيعي محمود، في نقد الشعر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، دط، دت.

133– الروبي ألفت كمال، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتّى ابن رشد، دار التنوير، لبنان، دط، **2007**م.

134– الزبيدي مرشد، اتِّجاهات نقد الشعر العربي في العراق، منشورات اتِّحاد الكُتَّاب العرب، سوريا، دط، **1999**م.

135– الزَّجاج أبو إسحاق إبراهيم، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، لبنان، ط**1**، **1988**م.

136– الزُّحيلي محمد مصطفى، الوجيز في أصول الفقه، دار الخير، سوريا، ط**2**، **2006**م.

137– الزركشي، الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، تح: سعيد الأفغاني، المكتب الإسلامي، لبنان، ط**2**، **1970**م.

138– الزمخشري، الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل..، تح: عادل أحمد وآخران، مكتبة العبيكان، السعودية، ط**1**، **1998**م.

139– زهير بن أبي سلمى، الديوان، شرحه: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1988**م.

140– الساريسي عمر عبد الرحمن، مقالات في الأدب الإسلامي، دار الفرقان، الأردن، ط**1**، **1996**م.

141– السَّبكي أبو نصر تاج الدِّين عبد الوهاب، مُعيد النّعم ومُبيد النّقم، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ط**1**، **1986**م.

142– السَّبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة الحلبي وشركاه، سوريا، ط**1**، **1964**م.

143– سراج الدِّين محمد، الهجاء في الشعر العربي، دار الراتب الجامعية، لبنان، دط، دت.

144– سعود عبد الجابر، النقد الأدبي القديم أصوله وتطوُّره، دار الحامد للنشر والتوزيع، الأردن، ط**1**، **2000**م.

145– السَّلولي عبد الله بن همَّام، الديوان، تح: وليد محمد السَّراقبي، مركز الماجد للثقافة، دبي، الإمارات، ط**1**، **1996**م.

146– السمرة محمود، القاضي الجرجاني الأديب الناقد، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، لبنان، ط**2**، **1979**م.

147– السَّمعاني أبو سعد عبد الكريم بن منصور، الأنساب، تح: عبد الله عمر البارودي، دار الجِنان، لبنان، ط**1**، **1988**م.

148– السَّموأل بن غريض بن عادياء الأزدي، الديوان، تح: عيسى سابا، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، **1951**م.

149– سمير حميد، الشعر العربي القديم –رؤية إسلامية، مطبعة فضالة، المغرب، دط، **2002**م.

150– السُّهيلي عبد الرحمن الخُثعمي، الرَّوض الأنف في تفسير السِّيرة النبوية لابن هشام، تح: مجدي بن منصور بن سيد الشورى، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، دت.

151– السيوطي جلال الدين عبد الرحمن، تاريخ الخلفاء، تح: اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي، لبنان، ومطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط**2**، **2013**م.

152– السيوطي شرح شواهد المغني، تح: أحمد ظاهر كوجان، لجنة التراث العربي، لبنان، دط، **1966**م.

153– الشافعي محمد بن إدريس، الديوان، تح: محمد عبد المنعم الخفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ط**2**، **1985**م.

154– الشنتريني أبو الحسن بن علي بن بسَّام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عبَّاس، دار الثقافة، لبنان، دط، **1997**م.

155– الشنقيطي محمد الأمين، أضواء البيان، إشراف: أبو زيد بكر بن عبد الله، دار عالم الفوائد، السعودية، دط، دت.

156– صابر نجوى، النقد الأخلاقي أصوله وتطبيقاته، دار العلوم العربية، لبنان، ط**1**، **1990**م

157– الصَّاحب بن عبَّاد، الكشف عن مساوئ شعر المتنبي، تح: محمد حسين آل ياسين، مطبعة المعارف، العراق، ط**1**، **1965**م.

158– الصبَّاغ رمضان، جماليات الفن، الإطار الأخلاقي والاجتماعي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط**1**، **2003**م.

159– الصَّفدي الخليل بن أيبك، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تح: محمد إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان، دط، **1969**م.

160– الصَّفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، لبنان، ط**1**، **2000**م.

161– الصَّنوبري أحمد بن محمد بن الحسن، الدّيوان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ط**1**، **1998**م.

162– الصُّولي إبراهيم بن العباس، الديوان، تح: عبد العزيز الميمني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، دط، **1937**م.

163– الصُّولي محمد بن يحي، أخبار أبي تمام، تح: خليل محمود عساكر وآخران، دار الآفاق الجديدة، لبنان، ط**3**، **1980**م.

164– الضامن حاتم صالح، عشرة شعراء مقلُّون، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، العراق، دط، **1990**م.

165– ضيف شوقي، الفنُّ ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، ط**11**، **1960**م.

166– ضيف شوقي، النقد، دار المعارف، مصر، ط**5**، **1954**م.

167– ضيف شوقي، سلسلة تاريخ الأدب العربي، دار المعارف، مصر، طبعات وسنوات مختلفة.

168– ضيف شوقي، في النقد الأدبي، دار المعارف، مصر، ط**9**، **2004**م.

169– طبانة بدوي أحمد، النقد الأدبي عند اليونان، دار الثقافة للنشر والتوزيع، لبنان، دط، **1986**م.

170– الطبراني أبو القاسم بن أحمد، الروض الدَّاني..، تح: محمد أمرير، المكتب الإسلامي، لبنان، ط**1**، **1985**م.

171– طرفة بن العبد، الديوان، شرحه وقدَّم له: مهدي محمد ناصر الدِّين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط**3**، **2002**م.

172– طه أحمد إبراهيم، تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى ق**4**هـ، مكتبة الفيصلية، السعودية، دط، **2004**م.

173– العاكوب علي عيسى، التفكير النقدي عند العرب، دار الفكر المعاصر، لبنان، ط**1**، **1997**م.

174– عامر بن الطفيل، الديوان برواية ابن الأنباري عن ثعلب، تح: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، **1979**م.

175– العاني سامي مكي، الإسلام والشعر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دط، **1996**م.

176– عباس إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي– عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، لبنان، ط**2**، **1969**م.

177– عباس إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ط**2**، **1993**م.

178– عباس إحسان، فنُّ الشِّعر، دار الشروق ودار صادر، الأردن ولبنان، ط**2**، **2011**م.

179– العبَّاس بن الأحنف، الدّيوان، تح: عاتكة الخزرجي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط**1**، **1954**م.

180– عبد الباري ماهر شعبان، التذوق الأدبي – طبيعته، نظرياته، مقوّماته، معاييره، قياسه، دار الفكر، الأردن، ط**3**، **2011**م.

181– عبد الرحمن طه، سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط**1**، **2000**م.

182– عبد الوهاب حسني، بساط العقيق..، تقديم: محمد العروسي المطوي، المجمَّع التونسي للعلوم، تونس، ط**2**، **1970**م.

183– عبدة بن الطبيب يزيد بن عمرو التميمي، الديوان، تح: يحي الجبوري، دار التربية، بغداد، العراق، ط**1**، **1971**م.

184– عبيد بن الأبرص، الديوان، تح: حسين نصَّار، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، مصر، ط**1**، **1957**م.

185– عتيق عبد العزيز، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية، لبنان، ط**3**، **1974**م.

186– عثمان عمر، معايير النقد الأدبي عند العرب واليونان، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط**1**، **2016**م.

187– العجلي الفضل بن قدامة، الديوان، تح: محمد أديب عبد الواحد، مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا، دط، **2006**م.

188– عديُّ بن زيد العباديُّ، الديوان، تح: محمد جبَّار المعيبد، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد، العراق، دط، **1965**م.

189– عرقلة الكلبي أبو النَّدى حسَّان بن نُمير الدمشقي، الدِّيوان، تح: أحمد الجندي، دار صادر، لبنان، ط**1**، **1992**م.

190– عروة بن الورد أمير الصَّعاليك، الديوان، تح: أسماء أبو بكر محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، **1998**م.

191– العسقلاني علي بن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة،تح: عادل أحمد وعلي معوَّض، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**،**1995**م.

192– العسقلاني، مختصر زوائد البزَّار على الكتب السِّتة، تح: صبري عبد الخالق، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ط**1**، **1992**م.

193– العسقلاني، مختصر زوائد البزَّار على الكتب السِّتة، تح: صبري عبد الخالق، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ط**1**، **1992**م.

194– العسكري أبو هلال الحسن، المصون في الأدب، تح: عبد السَّلام هارون، وزارة الإعلام، الكويت، ط**2**، **1984**م.

195– العسكري أبو هلال الحسن، كتاب الصناعتين، تح: محمد البجاوي ومحمد إبراهيم، دار إحياء الكتب، مصر، ط**1**، **1952**م.

196– العسكري، ديوان المعاني، تح: أحمد حسن سبج، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1994**م.

197– العشماوي محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، لبنان، دط، **1979**م.

198– العضيبي عبد الله محمد، النقد عند الشعراء حتَّى نهاية ق**4**هـ، منشورات ضفاف، لبنان، ط**1**، **2013**م.

199– عطوان حسين، مقدِّمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، دط، **1970**م.

200– العقاد عباس محمود، ابن الرومي حياته من شعره، مؤسسة الهنداوي للتعليم والثقافة، مصر، دط، **2013**م.

201– العقاد، عبقرية الإمام، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، ط**8**، **2006**م.

202– العلوي المظفَّر يحي بن حمزة، الطرَّاز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف، مصر، دط، **1914**م.

203– العلوي المظفَّر يحيى بن حمزة، نضرة الإغريض في نصرة القريض، تح: نُهى عارف الحسن، مجمع اللغة العربية، سوريا، دط، دت.

204– علي بن محمد، ابن بسَّام الأندلسي وكتاب الذخيرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، **1989**م.

205– علي محمد كرد، رسائل البلغاء، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى، مصر، ط**2**، **1913**م.

206– عليان مصطفى عبد الرحيم، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في ق5هـ، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط**2**، **1986**م.

207– عليان مصطفى، نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط**1**، **2013**م.

208– عمر أحمد مختار وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، مصر، ط**1**، **2008**م.

209– عمرو بن كلثوم، الديوان، تح: اميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، لبنان، ط**1**، **1991**م.

210– العُمري أحمد بن يحي، مسالك الأبصار..، تح: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **2010**م.

211– عنترة بن شدَّاد، ديوان عنترة للخطيب التبريزي، تح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، لبنان، ط**1**، **1992**م.

212– عيسى فوزي، الهجاء في الأدب الأندلسي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، ط**1**، **2007**م.

213– غازي طليمات وعرفان الأشقر، الأدب الجاهلي – قضاياه، أغراضه، أعلامه، فنونه، دار الإرشاد، سوريا، ط**1**، **1992**م.

214– غريب روز، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، دار العلم للملايين، لبنان، ط**1**، **1952**م.

215– الغزيوي علي، مدخل إلى المنهج الإسلامي في النقد الأدبي– التأسيس، مطبعة فضالة، المغرب، دط، **2000**م.

216– الفاخوري حنّا، الجامع في تاريخ الأدب– الأدب القديم، دار البديل، لبنان، ط**1**، **1986**م.

217– الفاخوري حنَّا، تاريخ الأدب العربي في المغرب، منشورات المكتبة البولسِيَّة، لبنان، ط**1**، **1982**م.

218– الفاخوري حنّا، تاريخ الأدب العربي، منشورات المكتبة البولسية، لبنان، ط**12**، **1987**م.

219– الفارابي محمد بن طرخان، فصول منتزعة، تح: فوزي مِتري نجَّار، منشورات المكتبة الزهراء، إيران، ط**2**، **1405**هـ.

220– الفارابي، كتاب الموسيقى الكبير، تح: غطاس عبد الملك خشبة، دار الكتاب العربي، مصر، دط، **1967**م.

221– الفرزدق أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة، الديوان، تح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1987**م.

222– فروخ عمر، تاريخ الأدب العربي، الأعصر العباسية، دار العلم للملايين، لبنان، ط**4**، **1981**م.

223– الفنيسان سعود بن عبد الله، توثيق قصيدة بانت سعاد في المتن والإسناد، مكتبة الرشد، السعودية، ط**1**، **1999**م.

224– القاضي الجرجاني علي بن عبد العزيز، الوساطة بين المتنبي وخصومه، تح: محمد إبراهيم ومحمد البجاوي، المكتبة العصرية، لبنان، ط**1**، **2006**م.

225– القاضي عياض أبو الفضل اليحصبي، الشِّفا بتعريف حقوق المصطفىﷺ، وحدة البحوث والدراسات بجائزة دبي للقرآن الكريم، الإمارات ، ط**1**، **2013**م.

226– القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك..، تح: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1998**م.

227– القالي أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي، الأمالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، **1975**م.

228– القبسي عودة الله المنيع، تجارب في النقد الأدبي التطبيقي، دار البشير، الأردن، ط**1**، **1985**م.

229– القحطاني وضحى مسفر، دراسة في نظرية الأدب الإسلامي، دار الفكر، سوريا، ط**1**، **2016**م.

230– قدامة أبو الفرج بن جعفر، نقد الشعر، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، دت.

231– قدامة أبو الفرج بن جعفر، نقد النثر أو كتاب البيان، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، **1993**م.

232– القرشي محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح: علي البجاوي، دار نهضة مصر، دط، دت.

233– القرطاجنّي أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: الحبيب بن خوجة، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط**3**، **1986**م.

234– القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن والمبيِّن لما تضمَّنه من السنَّة وآي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخران، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط**1**، **2006**م.

235– القرطبي يوسف بن عبد البرّ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تح: عادل مرشد، دار الأعلام، الأردن، ط**1**، **2002**م.

236– القرطبي، بهجة المجالس وأُنس المُجالس، تح: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، دت.

237– قصَّاب إبراهيم، النقد العربي القديم –نصوص في الاتجاه الإسلامي والخُلُقي، دار الفكر، سوريا، ط**1**، **2005**م.

238– قصَّاب إبراهيم، الوسطية في منهج الأدب الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط**1**، **2012**م.

239– قصَّاب إبراهيم، من قضايا الأدب الإسلامي، دار الفكر، سوريا، ط**1**، **2008**م.

240– قصَّاب إبراهيم، المذاهب الأدبية الغربية رؤية فكرية وفنية، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط**1**، **2005**م

241– قطب سيِّد، في ظلال القرآن، دار الشروق، مصر، ط**32**، **2003**م.

242– القفطي جمال الدِّين بن يوسف، إنباه الرُّواة على أنباه النُّحاة، تح: محمد إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر، ط**1**، **1986**م.

243– قلقيلة عبدة عبد العزيز، البلاط الأدبي للمعزِّ بن باديس..، جامعة الملك سعود، السعودية، دط، **1983**م.

244– قلقيلة عبده، النقد الأدبي في المغرب العربي، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط**2**، **1988**م.

245– قميحة جابر، المدخل إلى القيم الإسلامية، دار الكتاب المصري، مصر، ط**1**، **1984**م.

246– كامل مجدي، أفلاطون فيلسوف الأزمنة والعصور، دار الكتاب العربي، سوريا ومصر، ط**1**، **2016**م.

247– الكُتبي محمد بن شاكر بن أحمد، فوات الوفيات والذَّيل عليها: تح: إحسان عباس، دار صادر، لبنان، دط، **1974**م.

248– كُثيّر بن عبد الرحمن الخزاعي، ديوان كُثيِّر عزَّة، تح: إحسان عباس، طبعة دار الثقافة، لبنان، دط، **1971**م.

249– كرم يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، دط، **2012**م.

250– كعب بن زهير، الديوان، تح: علي فاعور، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، **1997**م.

251– كعبي المنجي، عبد الكريم النهشلي القيرواني حياته وآثاره، مطبعة تونس، تونس، ط**2**، **2009**م.

252– الكلاعي محمد بن عبد الغفور، إحكام صنعة الكلام، تح: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، لبنان، دط، **1966**م.

253– الكميت بن زيد الأسدي، الديوان، تح: محمد نبيل طريفي، دار صادر، لبنان، ط**1**، **2000**م.

254– الكيلاني نجيب، الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط**4**، **1985**م.

255– لبيد بن ربيعة العامري، الدّيوان، تح: إحسان عبَّاس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، دط، **1962**م.

256– الماوردي علي بن حبيب، أدب الدنيا والدِّين، تح: اللجنة العلمية بدار المنهاج، دار المنهاج، لبنان، ط**1**، **2013**م.

257– مبارك زكي، الموازنة بين الشعراء، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، ط**2**، **2012**م.

258– المبرّد محمد بن يزيد، الفاضل، تح: عبد العزيز الميمني، دار الكتب المصرية، مصر، ط**2**، **1995**م.

259– المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، تح: عبد الحميد هنداوي، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، السعودية، دط، **1998**م.

260– المتقي الهندي علاء الدين بن حسام الدين، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، تح: بكري حيّاني وصفوت السقا، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط**5**، **1985**م.

261– المتنبي أبو الطيب أحمد بن حسين الكوفي، الديوان، تح: الشربيني شريدة، دار الحديث، مصر، دط، **2014**م.

262– المحالي جهاد، طبقات فحول الشعراء في النقد الأدبي عند العرب، دار الجيل، لبنان، ط**1**، **1992**م.

263– مجموعة من المؤلفين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الموسوعة الفقهية، دار الصفوة، الكويت، ط**1**، **1992**م.

264– محمَّد علي عبد المعطي، فلسفة الفنِّ (رؤية جديدة)، دار النهضة العربية، لبنان، دط، دت.

265– محمد مختار جمعة، أبو محجن الثَّقفي حياته وشعره، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة الأزهر، مصر، دط، **1992**م.

266– مخلوف عبد الرؤوف، ابن رشيق القيرواني، دار المعارف، مصر، دط، **1964**م.

267– مرتاض عبد الملك، قضايا الشعريات – متابعة وتحليل لأهمِّ قضايا الشعر المعاصر، دار القدس العربي، الجزائر، ط**1**، **2009**م.

268– مرتاض محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي...، اتحاد الكتَّاب العرب، سوريا، دط، **2000**م.

269– المرزباني محمد بن عمران، الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء، تح: محمد حسين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **1995**م.

270– المرزباني، معجم الشعراء، تح: فاروق أسليم، دار صادر، لبنان، ط**1**، **2005**م.

271– المرزوقي أحمد بن محمد، شرح ديوان الحماسة لأبي تمَّام، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **2003**م.

272– مروان بن أبي حفصة، الدّيوان، تح: حسين عطوان، دار المعارف، مصر، ط**3**، دت.

273– المسعودي الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: كمال مرعي، المكتبة العصرية، لبنان، ط**1**، **2005**م.

274– مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، تهذيب الأخلاق، تح: عماد الهلالي، منشورات الجمل، لبنان، ط**1**، **2011**م.

275– مسلم أبو الحسن النَّيسابوري، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار التَّقوى، القاهرة، مصر، ط**1**، **2012**م.

276– مسلم، أبو الوليد بن الوليد الأنصاري، ديوان صريع الغواني، تح: سامي الدَّهان، دار المعارف، مصر، ط**1**، **1985**م.

277– مصطفى فائق وعلي عبد الرِّضا، في النقد الأدبي الحديث منطلقات وتطبيقات، دار الكتب، العراق، ط**1**، **1989**م.

278– مطر أميرة حلمي، فلسفة الجمال، أعلامها ومذاهبها، دار قباء للطباعة والنشر، مصر، دط، **1998**م.

279– المقبل بدر بن علي، شعر الغزل في ضوء منهج الأدب الإسلامي، دار ابن الجوزي، الدمَّام، السعودية، ط**1**، **2007**م.

280– المقدسي ضياء الدِّين، المنتقى من أخبار الأصمعي، تح: عز الدين التنوخي، المجمع العلمي العربي، سوريا، ط**1**، **1935**م.

281– الملوحي عبد المعين، ثلاث شخصيات طريفة في الإسلام، دار الملوحي للنشر والتوزيع، سوريا، ط**1**، **1996**م.

282– مندور محمد، الأدب ومذاهبه، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، دط، دت.

283– مندور محمد، النقد المنهجي عند العرب، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، دط، **1996**م.

284– المنذري عبد العظيم بن عبد القوي، التَّرغيب والتَّرهيب، تح: قسم التحقيق، دار الإمام مالك، الجزائر، ط**2**، **2013**م.

285– المهلهل بن ربيعة، الديوان، تح: أنطوان محسن القوَّال، دار الجيل، لبنان، ط**1**، **1995**م.

286– موافي عثمان، في نظرية الأدب– من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم، دار المعرفة، مصر، ط**3**، **2000**م.

287– الميمني أبو البركات عبد العزيز، النُّتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف، المطبعة السَّلفية، مصر، دط، **1343**هـ.

288– النابغة الجعدي، الدّيوان، تح: واضح الصَّمد، دار صادر، لبنان، ط**1**، **1998**م.

289– النابغة الذبياني، الديوان، شرح وتقديم: عباس عبد السَّاتر، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**3**، **1996**م.

290– نابغة بني شيبان عبد الله بن المخارق الشيباني، الديوان، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر، ط**1**، **1932**م.

291– ناجي منير، ابن هانيء الأندلسي درس ونقد، دار النشر للجامعيين، لبنان، ط**1**، **1962**م.

292– نجا أشرف محمود، مدخل إلى النقد اليوناني القديم، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، دط، دت.

293– النَّحاس أبو جعفر أحمد بن محمد، إعراب القرآن، تح: خالد العلي، دار المعرفة، لبنان، ط**2**، **2008**م.

294– نُصيب أبو محجن بن رباح، الديوان، جمع وتقديم: داود سلوم، مطبعة الإرشاد، العراق، دط، **1967**م.

295– النَّمري منصور بن الزبرقان، شعر منصور النَّمري، تح: الطيِّب العشاش، دار المعارف، سوريا، دط، **1981**م.

296– النَّهرواني أبو الفرج بن زكريا، الجليس الصالح الكافي..، تح: محمد الخولي، عالم الكتب، لبنان، ط**1**، **1993**م.

297– النَّووي أبو زكريا محي الدين، الأذكار المُنتخبة من كلام سيِّد الأبرارﷺ، تح: أحمد جابور، دار الريان، مصر، ط**1**، **1988**م.

298– النُّويري أحمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: حسن نور الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **2004**م.

299– النويهي محمد، شخصية بشَّار، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط**1**، **1951**م.

300– الهاشمي السيّد أحمد، جواهر الأدب في أدبيّات وإنشاء لغة العرب، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط**27**، **1969**م.

301– هدَّارة محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني، دار المعارف، مصر، دط، **1963**م.

302– هدَّارة محمد، دراسات في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، الدار الأندلسية للطباعة، مصر، دط، **1989**م.

303– هلال محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر، دط، **1997**م.

304– الهمذاني أحمد بن الحسين، مقامات بديع الزمان–المقامة القريضية، تح: محمد عبده، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**3**، **2005**م.

305– هني عبد القادر، نظرية الإبداع في النقد العربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، **1999**م.

306– الهيثمي علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تح: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط**1**، **2001**م.

307– الواحدي علي بن أحمد بن محمد، شرح ديوان المتنبي للواحدي، شركة القدس للنشر والتوزيع، مصر، دط، دت.

308– ياقوت الحموي شهاب الدين بن عبد الله، معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون، مصر، دط، دت.

309– يزن أحمد، النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، المغرب، ط**1**، **1986**م.

310– يموت غازي، الفن الأدبي أجناسه وأنواعه، دار الحداثة للطبع والنشر والتوزيع، لبنان، ط**1**، **1990**م.

311– يموت غازي، نظرية الشعر عند قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر، دار الفكر اللبناني، لبنان، ط**1**، **1992**م.

312– يوسف حسني عبد الجليل، الأدب الجاهلي، قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، ط**1**، **2001**م.

313– يوسف سامي أبو زيد، النقد العربي القديم، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن، ط**1**، **2013**م.

314– اليوسي أبو علي الحسن، زهر الأكم في الأمثال والحكم، تح: محمد حجي ومحمد الأخضر، معهد الأبحاث والدراسات للتعريب، المغرب، ط**1**، **1981**م.

ب– الكتب المترجمة:

1– أرسطو طاليس، فن الشعر، ترجمة: إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، دط، **1983**م.

2– أفلاطون، المحاورات الكاملة، محاورة إيون، ترجمة: شوقي داود تمراز، دار الأهلية، لبنان، دط، **1994**م.

3– أفلاطون، جمهورية أفلاطون، الكتاب العاشر، التقليد وجزاء الفضيلة، ترجمة: حنَّا خبَّاز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ط**1**، **2017**م.

4– أفلاطون، محاورات أفلاطون، دفاع سقراط، ترجمة وتقديم: زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، دط، **2001**م.

ج– الأطروحات والرسائل الجامعية:

1– بن جاب الله أنيسة، النظرية النقدية عند عبد الكريم النهشلي، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، إشراف: الدكتور أمحمد بن لخضر فورار، السنة الجامعية **2010**م.

2– بن مدَّاح شميسة، الحركة الأدبية والنقدية في الجزائر من التأسيس إلى نهاية القرن السادس الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، إشراف: الدكتور محمد مرتاض، السنة الجامعية **2017**م.

3– الصّيقل محمد بن سليمان، البحث البلاغي والنقدي في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، إشراف: الدكتور محمد علي رزق الخفاجي، السنة الجامعية **1405**هـ.

4– عسيري مطلق بن محمد سعيد شايع، القيم الخلقية في النقد العربي إلى نهاية ق**4**هـ، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، إشراف: الدكتور محمد علي رزق الخفاجي، السنة الجامعية **1987**م

5– غسان إسماعيل عبد الخالق الفطافطة، الأخلاق في النقد العربي من القرن الثالث حتى القرن السادس الهجري، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، إشراف: الدكتور نصرت عبد الرحمن، السنة الجامعية **1996**م

6– قربوع عزوز، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم نشأته وتطوره، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، إشراف: الدكتور جمال شوالب، السنة الجامعية **2001**م.

7– مصباحي فازية، القضايا النقدية في كتاب مسائل الانتقاد لابن شرف القيرواني، رسالة ماجستير، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، إشراف: الأستاذ الدكتور صلاح يوسف عبد القادر، السنة الجامعية **2012**م.

د– المجلَّات والدوريات:

1– جمعة حسين، ابن رشيق وآراؤه النقدية في العمدة، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، مج**76**، ج**3**، جويلية **2011**م.

2– الصبَّاغ رمضان، العلاقة بين الأخلاق والجمال في مجال الفنّ، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مج**27**، ع**3**، يوليو– سبتمبر، **1998**م.

3– عبد الرحيم رائد، ظاهرة التكسُّب بالشعر وتجلّياتها في النقد العربي القديم، مجلة جامعة الأزهر، غزَّة، فلسطين، سلسلة العلوم الإنسانية، مج**12**، ع**1**، السنة **2010**م.

4– عبد الغفور بهجت، الصِّدق والكذب في الشعر، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، دار الحرية للطباعة، العراق، ع**25**، **1979**م.

5– عبد الغفور بهجت، المعيار الأخلاقي في النقد الأدبي، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، المغرب، س**10**، ع**26**، مارس**1983**م.

6– عتوم كامل يوسف، الفصل بين الشعر والدين في التراث النقدي عند العرب، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الأردن، مج**3**، ع**2**، أفريل **2007**م.

7– عطوان حسين، شعر الحسين بن مطير الأسدي، مُستلّ من مجلة معهد المخطوطات العربية، الدوحة، قطر، مج**15**، ج**1**، **1969**م.

8– هدَّارة محمد مصطفى، الشِّعر والنقد الأخلاقي، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام الكويتية، مج**9**، ع**3**، أكتوبر– نوفمبر، .**1978**

9– يوسف محمد سلامة، ابن شرف القيرواني وآراؤه النقدية في رسالته أعلام الكلام، مجلة عالم الفكر، الكويت، مج**9**، ع**2**، **1971**م.

هـ– المواقع الإلكترونية:

– المحص عبد الجواد محمد، الدِّين وقراءة النص الأدبي، كلية الدراسات الإسلامية والعربية، جامعة الأزهر، مصر، موقع كتب عربية، www.kotobarabia.com، تاريخ النشر: **2006**م.

ملخصات الرسالـــة

1/ الملخَّص باللغة العربية:

• لمَّا كان الاتجاه الأخلاقي في النقد يتعلَّق أساسًا بقضية جوهرية، متمثِّلة في علاقة الأدب ومنه الشعر بالأخلاق، والتي تعدَّدت مواقف الدَّارسين وتباينت آراؤهم حولها قديمًا وحديثًا، جاءت هذه الرسالة لتُبيِّن موقف ورأي النقد المغربي القديم من هذه العلاقة، وذلك من خلال أبرز أعلامه ومؤسسيه، وهم: النَّهشلي وابن رشيق وابن شرف، الذين كانت لهم اسهامات كبيرة في تأسيس وتطوير النقد الأدبي والنهوض به في المغرب العربي، حتَّى أضحت آراؤهم وأفكارهم النقدية في معظم كُتب الأدب والنقد إلى يوم النَّاس هذا.

• ولعرض آراء نَقَدَة الشعر والمهتمين به وموقفهم خاصة من الاتجاه الأخلاقي في النقد، وتحديدًا نقَّاد المغرب العربي القديم، اقتضت طبيعة الدراسة أن تكون الرسالة مشتملة على مقدِّمة وفصل تمهيدي وبابين، في كلِّ باب ثلاثة فصول، وخاتمة في آخر المطاف.

• استعرضت في المقدِّمة موضوع البحث، وأسباب اختياره، وإشكاليته والفرضيات المقترحة، كما ذكرتُ أهمية الدراسة والأهداف المرجوَّة منها، واستعرضتُ بعض الدراسات السابقة للموضوع، ثمَّ عرضتُ خطَّة البحث والمنهج الذي اتَّبعته، وأهمَّ المصادر والمراجع التي استعنت بها في هذه الرسالة.

• وفي الفصل التمهيدي استعرضتُ علاقة الأخلاق والدِّين بالشعر، ومن ثَمَّ وظيفة الشعر بين المتعة والمنفعة، وما ترتَّب عن ذلك من مواقف ورؤى، ابتداءً بفلاسفة اليونان وانتهاءً بنقاد وفلاسفة المسلمين.

• وفي الباب الأول من الرسالة تطرَّقت إلى النقد الأخلاقي في الشعر العربي، مُبيِّنًا أصوله وامتداداته، وكان ذلك من خلال ثلاثة فصول؛ حيث تعرَّضتُ في الفصل الأول للنقد الأخلاقي في العصر الجاهلي. وفي الفصل الثاني تناولتُ النقد الأخلاقي في عصر صدر الإسلام. وفي الفصل الثالث تطرَّقت للنقد الأخلاقي بعد عصر صدر الإسلام، وخاصة في العصرين الأموي والعباسي.

• وفي الباب الثاني من الرسالة تناولت الاتّجاه الأخلاقي في النقد المغربي القديم، وجاء ذلك في ثلاثة فصول أيضًا، فتحدَّثتُ أوَّلا عن العصر الذَّهبي للأدب والنقد في بلاد المغرب العربي القديم باختصار، ثمَّ بيَّنت السبب في اقتصار الدراسة على نقاد ثلاثة من المؤسِّسين الأوائل للنقد، وهم: النَّهشلي وابن رشيق وابن شرف. ثمَّ في الفصل الأوَّل عرضتُ الاتّجاه الأخلاقي في النقد عند النَّهشلي، مبرزًا أهمَّ القضايا النقدية التي عالجها ذات البُعد الأخلاقي والدِّيني. وفي الفصل الثاني عرضتُ الاتّجاه الأخلاقي في النقد عند ابن رشيق، مبرزًا أيضًا أهمَّ القضايا النقدية ذات الملمح الأخلاقي والدِّيني عنده. وفي الفصل الثالث تناولتُ الاتّجاه الأخلاقي في النقد عند ابن شرف، مستعرضًا النقد الدِّيني والخلقي الذي وجَّهه ابن شرف لبعض الشعراء ولشعرهم.

• وفي الخاتمة استعرضتُ أهمَّ الملاحظات والآراء التي توصَّلتُ إليها، موجزًا النتائج التي استخلصتها، في نقاط مختصرة.

الكلمات المفتاحية: النقد العربي القديم، النقد المغربي القديم، النقد الأخلاقي، وظيفة الشعر، علاقة الشعر بالأخلاق.

2/ The Summary of in English

•Since the ethical trend in criticism is mainly related to a fundamental issue, represented in the relationship of literature, including poetry, with morals, and in which scholars' positions varied and their opinions differed on it in the past and in the new, this letter came to clarify the position and opinion of the ancient Moroccan criticism on this relationship, through its most prominent figures and founders, They are: Al-Nahshali, Ibn Rashiq and Ibn Sharaf, who had great contributions in establishing and developing literary criticism and promoting it in the Maghreb, so that their critical opinions and ideas became in most books of literature and criticism to this day of the people.

• In order to present the opinions of the critic of poetry and those interested in it and their stance in particular on the ethical direction in criticism, specifically the critics of the ancient Maghreb, the nature of the study required that the thesis include an introduction, an introductory chapter, two sections, in each chapter three chapters, and a conclusion at the end.

• In the introduction, I reviewed the topic of the research, the reasons for choosing it, its problem, and the proposed hypotheses. I also mentioned the importance of the study and the desired objectives, and I reviewed some previous studies of the topic. Then I presented the research plan and methodology that I followed, and the most important sources and references that I used in this thesis.

• In the introductory chapter, I reviewed the relationship of morality and religion to poetry, and then the function of poetry between pleasure and benefit, and the attitudes and visions that resulted from that, starting with Greek philosophers and ending with critics and Muslims philosophers.

• In the first chapter of the letter, I dealt with the moral criticism in Arabic poetry, showing its origins and extensions, and that was through three chapters; In the first chapter, I was exposed to the moral criticism of the pre-Islamic era. In the second chapter, I dealt with the moral criticism in the era of early Islam. In the third chapter, I dealt with the moral criticism after the era of early Islam, especially in the Umayyad and Abbasid eras.

• In the second chapter of the letter, I dealt with the ethical trend in the ancient Moroccan criticism, and this came in three chapters as well. First, I talked briefly about the golden age of literature and criticism in the ancient Arab Maghreb, then explained the reason for the study being limited to the critics of three of the early founders of criticism, namely : Al-Nahshali, Ibn Rashiq, and Ibn Sharaf. Then, in the first chapter, I presented the ethical direction in criticism by Al-Nahshali, highlighting the most important critical issues that he dealt with with an ethical and religious dimension. In the second chapter, I presented the ethical approach in criticism of Ibn Rashiq, highlighting also the most important critical issues of his moral and religious aspect. In the third chapter, I dealt with the ethical direction in criticism according to Ibn Sharaf, reviewing the religious and moral criticism that Ibn Sharaf directed to some poets and their poetry.

• In conclusion, I reviewed the most important observations and opinions that I have reached, summarizing the results that I have drawn, in brief points.

Key words: ancient Arab criticism, ancient Moroccan criticism, moral criticism, the function of poetry, the relationship of poetry to morals.

3/ Le résumé est en français

• La tendance éthique de la critique étant principalement liée à une question fondamentale, représentée dans le relation de la littérature, y compris la poésie à la morale, et dans laquelle les attitudes des savants divergeaient dans le passé et aussi actuellement. Cette thèse fait l'object de montrer l'attitude et l'opinion de l'ancienne critique marocaine sur cette relation, à travers ses personnalités et fondateurs qui sont les suivants: Al-Nahhali, Ibn Rashiq et Ibn Sharaf, qui ont eu des grandes contributions d'avoir établi et dévéloppé la critique littéraire et de la promettre au Maghreb arabe, de sorte que leurs opinions et leurs idées critiques sont dans la plupart des livres de littérature et de critique jusqu'à ce jour .

• Afin de présenter les opinions des critiqueurs de la poésie et de ceux qui s'y intéressent et leurs attitudes en particulier sur l'orientation éthique de la critique, spécialement les critiqueurs du Maghreb classique. la nature de l'étude exigeait que la thèse comprenne une introduction, un chapitre introductif, deux sections, et dans chaque chapitre il y a trois autres chapitres et la conclusion .

• Dans l'introduction, j'ai abordé le thème de la recherche, les raisons de son choix, sa problématique et les hypothèses proposées. J'ai également mentionné l'importance de l'étude et les objectifs prévus de celle-ci. J'ai inclu quelques études antérieures sur le sujet , et ensuite j'ai présenté le plan de recherche et la méthodologie suivie, ainsi que les sources et les références les plus importantes que j'ai utilisées dans cette thèse.

• Dans le chapitre introductif, j'ai passé en revue le relation de la morale et de la religion à la poésie, puis la fonction de la poésie entre la distraction et l'intérêt, et les attitudes et visions qui en résultaient, en commençant par les philosophes grecs et en terminant par les critiqueurs et almuslimines philosophes .

• Dans le premier chapitre de ma thèse, j'ai évoqué la critique morale de la poésie arabe, en montrant ses origines et ses extensions, et c'était à travers trois chapitres; Dans le premier chapitre, j'ai passé en revue à la critique morale de l'ère préislamique, dans le deuxième chapitre, j'ai abordé la critique morale à l'époque de l'islam primitif, et dans le troisième chapitre, j'ai abordé la critique morale après l'ère du début de l'islam, en particulier pendant les deux ères omeyyade et abbasside.

• Dans le deuxième chapitre de ma thèse, j'ai évoqué la tendance éthique de l'ancienne critique marocaine, et cela s'est également fait en trois chapitres. J'ai parlé de l'ère doré de la littérature et la critique dans les pays du Maghreb arabe antique ,après avoir montré que l'étude est limitée aux trois critiqueurs parmi les premiers fondateurs de la critique,qui sont les suivants : Al-Nahhali, Ibn Rashiq et Ibn Sharaf. Puis, dans le premier chapitre, j'ai exposé l'orientation éthique dans la critique d'Al-Nahhli, en mettant en évidence les questions critiques les plus importantes qu'il a traitées avec une dimension éthique et religieuse. Dans le deuxième chapitre, j'ai exposé l'orientation éthique de la critique d'Ibn Rashiq, en montrant également les questions critiques les plus importantes ayant un aspect éthique et religieux pour lui. Dans le troisième chapitre, j'ai évoqué la tendance éthique de la critique chez Ibn Sharaf, en passant en revue la critique religieuse et morale qu'Ibn Sharaf l'a adressée à certains poètes et à leur poésie.

• En conclusion, j'ai passé en revue les observations et les opinions les plus importantes auxquelles j'ai abouti, en résumant les résultats tirés en brefs points.

Mots clés: critique arabe classique-critique marocaine classique, critique morale-fonction de la poésie- rapport de la poésie à la morale.

فهرس المحتويـــات

فهـرس المحتويـات

المحتويـــات	الصفحة
إهـداء	
وجب الشكر علينا	
مقدِّمــة	أ – ح
الفصل التمهيدي:	01 – 20
– وظيفة الشعر بين القيمتين الجمالية والنَّفعية	05
1– الوظيفة الأخلاقية للشعر عند فلاسفة اليونان	07
2– وظيفة الشعر عند فلاسفة المسلمين	15
3– الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم	19
الباب الأوَّل: النقد الأخلاقي في الشعر العربي، الأصول والامتدادات	21 – 143
الفصل الأول: النقد الأخلاقي في العصر الجاهلي	22 – 43
1– الالتزام الخلقي في الشعر العربي	23
2– النقد في العصر الجاهلي	29
3– نماذج من النقد الخلقي في العصر الجاهلي	33
الفصل الثاني: النقد الأخلاقي في عصر صدر الإسلام	44 – 88
– موقف الإسلام من الشعر	45
1– موقف القرآن الكريم من الشعر	45
2– موقف الرسول ﷺ من الشعر	50
3– موقف الخلفاء الرَّاشدين من الشعر	72
الفصل الثالث: النقد الأخلاقي بعد عصر صدر الإسلام	89 – 143
أ/ النقد الأخلاقي في العصر الأموي	90
1– نقد الخلفاء	91
2– نقد الشعراء	98
3– نقد العلماء والذوَّاقين للشعر	105
ب/ النقد الأخلاقي في العصر العباسي والأندلسي:	120

ج/ اتِّجاهات النقاد في علاقة الشعر بالأخلاق:	120
1- الاتجاه الأوَّل	120
2- الاتجاه الثاني	125
3- الاتجاه الثالث	136
الباب الثاني: الاتجاه الأخلاقي في النقد المغربي القديم	144 - 392
- مدخل	145
الفصل الأوَّل: الاتجاه الأخلاقي في النقد عند عبد الكريم النَّهشلي	152
أ- التعريف بالناقد عبد الكريم النَّهشلي	153
ب- كتاب الممتع، مضمونه ومنهجه	156
ج- النقد الأخلاقي عند النَّهشلي	159
1- قيمة الشعر وفضله	159
2- أصناف الشعر	164
الفصل الثاني: الاتجاه الأخلاقي في النقد عند ابن رشيق القيرواني	186 - 320
أ- التعريف بالناقد ابن رشيق القيرواني	187
ب- كتاب العمدة، مضمونه ومنهجه	192
ج- النقد الأخلاقي عند ابن رشيق القيرواني	194
1- سلوك الشاعر وأخلاقه	194
2- البسملة والدعاء في الشعر	199
3- فضل الشعر ووظيفته	202
4- النّية في الشعر	211
5- استحسان المعاني الدينية والخلقية، واستقباح المعاني الخارجة عليهما	216
6- التكسُّب بالشعر	223
7- المبالغة والغُلوّ في الشعر	235
8- المعيار الأخلاقي في أغراض الشعر	246
- النَّسيب	248
- المدح	261
- الافتخار	276

– الرِّثاء	284
– الاقتضاء والاستنجاز، العِتاب، الوعيد والإنذار، الاعتذار	295
– الهجاء	309
الفصل الثالث: الاتجاه الأخلاقي في النقد عند ابن شرف القيرواني	392 – 321
أ– التعريف بالناقد ابن شرف القيرواني	322
ب– كتاب رسائل الانتقاد، مضمونه ومنهجه	330
ج– النقد الأخلاقي عند ابن شرف القيرواني	333
– نقد طرفة بن العبد	334
– نقد لبيد بن ربيعة	336
– نقد عنترة بن شدَّاد	338
– نقد الحارث بن حلّزة اليشكري	340
– نقد عمرو بن كلثوم	342
– نقد النَّابغة الذبياني	344
– نقد النَّابغة الجعديّ	346
– نقد الأعشى الأكبر	348
– نقد حسَّان بن ثابت	349
– نقد دُريد بن الصِّمَّة	350
– نقد عامر بن الطُّفيل	351
– نقد الحطيئة	352
– نقد الأخطل	354
– نقد جرير	355
– نقد القيسيْن: ابن الملوِّح وابن ذريح	355
– نقد مروان بن أبي حفصة	356
– نقد العبَّاس بن الأحنف	358
– نقد دعبل الخزاعي	359
– نقد ابن الرُّوميّ	362
– نقد الصَّنوبريّ	364

- نقد الخبزرزيّ	**365**
- نقد ابن عبد ربَّه القرطبي	**367**
- نقد ابن هاني الأندلسي	**369**
- نقد المتنبي	**372**
- نقد امرئ القيس	**375**
- نقد زهير بن أبي سلمى	**381**
- المعيار الأخلاقي في بعض عيوب الشعر	**389**
الخاتمة	**394 - 395**
المصادر والمراجع	**397 - 410**
ملخَّص الرسالة باللغة العربية	**412**
ملخَّص الرسالة باللغة الإنجليزية	**413**
ملخَّص الرسالة باللغة الفرنسية	**414**
فهرس المحتويات	**416 - 419**